

ثورة المقراني ودور الإخوة الرحمانيين 1871م

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريج - الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك: 978-9931-06-237-0
الإيداع القانوني: السداسي الأول 2021م.

إشراف وتنسيق وتقديم

محمد بن ساعو

الصالح بن سالم

ثورة المقراني ودور الإخوة الرحمانيين 1871م

مهدى لروح المؤرخ: يحيى بوعزيز

طبع الكتاب بدعم من الأسرة المقرانية

مأثورات من وحي الثورة

"سنرمي فرنسا إلى البحر كما ألقى عصاي هذه"

الشيخ محمد أمزيان بن الحداد

"أقبل أن أكون تحت السيف ليقطع رأسي، ولا تحت رحمة يهودي أبدا"

الحاج محمد المقراني

اللجنة العلمية للكتاب:

- أ.د مولود عويمر (جامعة الجزائر2)
- أ.د أحمد صاري (جامعة أم البواقي)
- أ.د عبد القادر صحراوي (جامعة سيدي بلعباس)
- أ.د محمد السعيد قاصري (جامعة المسيلة)
- أ.د ودان بوغفالة (جامعة تيارت)
- أ.د علي آجقو (جامعة باتنة)
- أ.د كمال بيرم (جامعة المسيلة)
- أ.د فارس كعوان (جامعة سطيف2)
- د. حسين بويدي (جامعة قسنطينة2)

الكتابة حول ثورة محمد المقراني والإخوة الرحمانيين بعد 150 سنة

الصالح بن سالم - جامعة برج بوعرييج

محمد بن ساعو - جامعة سطيف 2

في استئناف التأريخ لثورة 1871م:

ظلت الكتابة التاريخية في الجزائر مرتبطة بظروف متعددة ومتأثرة بفواعل مختلفة، ذلك أن التأريخ يتأثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بتوجهات سياسية وثقافية معينة، وبذلك يكون من العسير عليه التحرر من الرؤى العامة التي تهيمن على الساحة السياسية والثقافية خاصة، وقد تفاعلت هذه الظروف مع طبيعة ومستوى البحث الأكاديمي مما أنتج كتابة تاريخية كانت مُوجَّهة في الغالب، وبغض النظر عن مستوى الكتابة التاريخية، فإن الأمر يطرح بخصوص توجهاتها وتركيزها على فترات تاريخية بعينها والعزوف عن الاشتغال على مواضيع أخرى لا تقل أهمية في سيرورة التاريخ الوطني.

لا ننكر أن مرحلة المقاومات الشعبية خلال القرن 19م قد تجندت لها أقلام رصينة حاولت الحفر في أسبابها ودوافعها، أين حللت آليات تشكلها وبحث في خططها العسكرية وطرق التعبئة، واستخلصت منها أسباب الفشل ومواطن القوة، لكن المتصفح للإنتاج التاريخي منذ فترة غير قصيرة يشدّه ذلك الانقطاع الذي حدث في الاشتغال على "المقاومات المسلحة" باعتبارها رد فعل شعبي على سلطة استعمارية جائرة.

من هذا المنطلق، جاء التفكير في جمع جهود الباحثين المهتمين بالموضوع، فكانت الدعوة موجهة للمختصين في المقاومات الشعبية داخل الوطن وخارجه، في إطار أرضية استكتاب جماعي تم الإعلان عنه للعموم، ولاقي تجاوبا لدى عدد مهم من الباحثين في مختلف جامعات الوطن، وحتى خارجه، رغم أن مشروع الاستكتاب لم يكن تحت وصاية أي مخبر أو جامعة أو مؤسسة بحثية أو علمية.

لا شك أن العمل الجماعي يكتسي أهمية كبيرة في مجال البحث التاريخي، ذلك أنه يعكس تكامل جهود فريق الكتاب من منسّقين ومؤلفين ومُحرّمين، فيسمح بتكوين مجموعة تتقاسم نفس الاهتمام وتبادل خبراتها لخدمة المشروع التاريخي، فضلا عن كون الأعمال المقدمة ضمن المنجز الجماعي تعكس توجهات بحثية مختلفة وبلغات متنوعة، ومن زوايا متعددة كذلك، وهي الميزات التي تغيب عن الأعمال الفردية.

واعترافا لأصحاب الفضل من المؤرخين الجزائريين في التأريخ لثورة المقراني والإخوة الرحمانيين، وفي مقدمتهم الدكتور يحيى بوعزيز (1929-2007م) رحمه الله، وفي التفاتة من فريق الكتاب، جاء هذا المنجز الجماعي مُهدى لروحه الطاهرة، تماشيا والتقاليد العلمية، وتقديرا للجهود الكبيرة التي بذلها طيلة مسيرته البحثية في الكشف والتنقيب عن تفاصيل هذه المقاومة ونشر أعمال على غاية من الأهمية، أصبحت بمثابة الدراسات المرجعية التي لا يستغني عنها الباحثون والمهتمون.

حصيلة المنجز عن ثورة 1871م:

لا يمكن القفز على المنجز التاريخي حول ثورة 1871م، التي استقطبت أقلام متعددة من توجهات مختلفة، وللإطلاع على التراكم المعرفي الذي أفرزه هذا التفاعل مع الثورة، يكون من المهم التعرّيج على الاستوغرافيا التي غطت الموضوع إلى غاية هذا الاستكتاب.

كانت الأقلام الفرنسية هي السبابة للتطرق للموضوع، خصوصا تلك التي كان أصحابها شهود عيان من عسكريين ومخبرين ومؤرخين وجغرافيين، فكانت البداية مع "تشارلز ديل" Charles D'ille وكتابه:

Notes historiques sur le 1er bataillon de la mobile des Bouches-du-Rhone et l'insurrection arabe en 1871.

الصادر سنة 1871م بفرنسا، والذي غطى من خلاله الحملة الفرنسية الأولى لإخماد الثورة. وبعدها صدر عمل للرائد الفرنسي "ألفريد دي شيرون" Alfred Du Cheyron حول:

Bordj-Bou-Argeridj pendant l'insurrection de 1871 en Algérie.

الذي يعتبر من أبرز المصادر التاريخية التي تطرقت لتفاصيل الثورة في إقليم برج بوعريش بحكم اشتغال المؤلف في هذه المنطقة خلال ثورة 1871م، وقد صدر الكتاب في باريس بعد سنتين من الثورة (1873م). كما كتب "إيون سيرور" l'ion seror عن الثورة سنة 1873م، وخصوصا دور سي عزيز بن الشيخ الحداد والطريقة الرحمانية من خلال كتابه:

insurrection de 1871, mémoire d'un accusé si Aziz ben Mohammed Amizian ben cheikh el Haddad à ses juges et à ses défenseurs.

وأرّخ "أرنست ميرسي" Ernest Mercier للحاج محمد المقراني وأسباب ثورة 1871م، حيث حاول أن يربط الثورة بمصالح شخصية لمحمد المقراني الذي خان العهد الفرنسي على حد وصفه، في كتابه المنشور سنة 1888م والمعنون بـ:

le Bachagha Mokrani et les causes de l'insurrection de 1871.

قام "لويس رين" Louis Rinn أيضا بنشر ثلاثة أعمال في غاية من الأهمية حول ثورة 1871م بداية بكتابه الصادر سنة 1891م:

Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie.

الذي يعتبر أهم وأبرز عمل تاريخي عن الثورة وتفاصيلها، كما صدر له في المجلة الإفريقية مقالين الأول سنة 1887م في العدد 181 بعنوان:

Deux chansons kabyles sur l'insurrection de 1871.

والثاني في العدد 200 الصادر سنة 1891م حول:

Deux documents indigènes sur l'histoire de l'insurrection de 1871.

وكتب "ألفريد رامبود" Alfred Rambaud سنة 1891م كتاب فصل فيه أسباب ثورة 1871م والموسوم بـ:

L'insurrection Algérienne de 1871, étude sociale et religieuse.

أما "نيل يوسف روبين" Nil-Joseph Robin فقد صدر له عن ثورة 1871م عملين الأول سنة 1899م عنوانه:

la mort de Mokrani.

تطرق فيه لتفاصيل وفاة (استشهاد) الحاج محمد المقراني بوادي سوفلات بالبويرة بتاريخ 05 ماي 1871م، والعمل الثاني صدر سنة 1901م تحدث فيه عن الثورة بكل من جبال جرجرة وونوغة وسور الغزلان وعنوانه:

L'insurrection de la Grande Kabylie en 1871.

ولا يمكن تجاوز عمل المترجم الفرنسي العسكري "شارل فيرو" Laurent-Charles Féraud الذي كان مرافقا للحاميات

العسكرية الفرنسية بالجزائر، وأرّخ لعديد المدن بمقاطعة قسنطينة، ومن بينها عمله عن برج بوعريش الصادر سنة 1872م وعنوانه:

Histoire des villes de la Provence de Constantine (Bordj-Bou-Argeridj)

وقد فصل فيه بشكل أكبر عن الأسرة المقرانية ونسبها وفروعها وعلاقتها مع الفرنسيين قبيل ثورة 1871م.

وإذا انتقلنا للدراسات الجزائرية والعربية التي تناولت موضوع ثورة 1871م، فهي كثيرة، ونخص بالذكر تلك التي تطرقت

للموضوع بشكل مباشر، وقد تنوعت هذه الدراسات بين مؤلفات ومقالات ورسائل جامعية، فإذا بدأنا بالكتب فحتمًا ستكون

الانطلاقة مع يحيى بوعزيز الذي يعتبر مؤرخ ثورة 1871م بدون منازع، وهو الذي قدّم عنها عديد الأعمال المنبثقة عن أطروحته للدكتوراه من إشراف المؤرخ أبو القاسم سعد الله والتي نوقشت سنة 1975م حول ثورة الحاج محمد المقراني والإخوة الرحمانيين، وقد صدرت فيما بعد في شكل مؤلفات ومقالات. بداية بكتاب (ثورة 1871م ودور عائلي المقراني والحداد) الصادر سنة 1975م، وكتاب (مواقف العائلات الأرستقراطية من الباشاغا محمد المقراني وثورته عام 1871م)، وأخيرا (وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز) سنة 1989م، ليقوم الطاهر أوصديق باصدار كتابه (ثورة 1871م) في نفس السنة (1989م)، وقام بترجمته للعربية مسعود جباح، وقبل هذا التاريخ وبالضبط في سنة 1985م صدر كتاب للزبير سيف الإسلام حمل عنوان (ثورة المقراني في حديث مع الأولاد) حاول فيه صاحبه تبسيط ثورة 1871م للأجيال الصاعدة بأسلوب شيق ولغة بسيطة.

في سنة 1993م نشر مولود قايد كتاب جد قيم عن الموضوع حمل عنوان (Mokrani) تناول فيه سيرة الحاج محمد المقراني بتفاصيل دقيقة من المولد والنسب والنشأة وصولا إلى قيادة الثورة والاستشهاد بتاريخ 05 ماي 1871م. وفي إطار تأريخه لمدينة بجاية تطرق مزيان وشن في كتابه (بجاية عاصمة إمارة المقرانيين) لثورة 1871م بتفاصيل كبيرة وقد صدر الكتاب سنة 2005م، وفي سنة 2007م نشرت ثلاثة مؤلفات جد مهمة تتحدث عن ثورة 1871م من زوايا مختلفة. بداية بكتاب (ثورة 1871م من خلال منظومة إسماعيل أزيكيو) لصاحبه محمد أرزقي فراد تناول فيه تغطية المصادر المحلية بمنطقة القبائل لثورة المقراني والإخوة الرحمانيين، وكتاب علي بطاش (حياة الشيخ الحداد وثورة 1871) فصل فيه حياة الشيخ الحداد ودور الطريقة الرحمانية في ثورة 1871م، وأخيرا كتاب (المبعدون إلى كاليدونيا الجديدة مأساة هوية منفية) لصاحبه الصديق تاوتي والذي جمع فيه - بعد تنقله لجزيرة كاليدونيا - شهادات الأسر المنفية من الجزائر إثر ثورة 1871م.

في إطار الرسائل الجامعية، وإلى جانب أطروحة الدكتوراه الخاصة بيحيى بوعزيز، فقد ناقش رواجي العياشي رسالة الماجستير سنة 2008 بعنوان (أسرة المقراني وعلاقتها بالإدارة الاستعمارية 1837-1871م) ليكمل في نفس الموضوع في أطروحة الدكتوراه التي ناقشها سنة 2015م بعنوان موسوم بـ (الإدارة الاستعمارية وعلاقتها بالعائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة 1837-1871م).

أما الدوريات، فقد كانت البداية مع مجلة الأصالة التي احتفت سنة 1971م بالذكرى المئوية لثورة المقراني والإخوة الرحمانيين، ووضعت لذلك عددا خاصا لهذه الذكرى التاريخية أين نشرت مواضيع ثرية تطرقت للثورة من مختلف الجوانب من قبل أقلام رصينة، بداية بيحيى بوعزيز الذي نشر مقال بعنوان (ثورة المقراني والشيخ الحداد 1871م)، ومحفوظ قداش الذي نشر مقالين في هذا العدد. الأول باللغة العربية (انتفاضة 1871م مقاومة شعب يحركه الإيمان)، والثاني باللغة الفرنسية (L'insurrection de 1871)، ونشر أيضا عمر شكيري مقال موسوم: (الذكرى المئوية لثورة 1871م)، واستمرت مجلة الأصالة في نشر مقالات عن ثورة 1871م في أعدادها اللاحقة، ففي العدد 14-15 الصادر سنة 1973م نشر يحيى بوعزيز مقال حول: (الحقيقة عن دور زاوية صدوق والإخوة الرحمانيين في ثورة 1871م)، ومقال آخر حمل عنوان: (موقف وجهاء إيالة وهران من ثورة المقراني والشيخ الحداد عام 1871م)، في العدد 29-30 الصادر سنة 1976م، وفي العدد 38 من نفس السنة (1976م) نشر مقال ليحيى بوعزيز عن: (وثائق جديدة عن دور محي الدين بن الأمير عبد القادر في ثورة 1871م وموقف أبيه والسلطات التونسية)، ومقال آخر بعنوان (ملاحظات وانطباعات الشيخ سليمان بن داود عن ثورة 1871م)، في العدد 46-47 سنة 1977م، وآخر مقال ليحيى بوعزيز بمجلة الأصالة عن ثورة 1871م ذلك الذي صدر في العدد 65-66 سنة 1979م والموسوم بـ (موقف العائلات الأرستقراطية من محمد المقراني وثورته وأحداث أخرى من خلال وثائق عن ثورة 1871م).

في العدد السادس من مجلة الأصالة الصادر سنة 1972م، نشر أحمد بوزيد قصيية مقال حول (ابن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة 1871م)، وفي العدد 39-40 سنة 1976م نشر سليمان داود بن يوسف مقال: (ملاحظات وانطباعات حول ثورة المقراني

والشيخ الحداد)، وكان لمولود قايد هو الآخر مقال بذات المجلة سنة 1975م في العدد 23 حول الموضوع سماه (ثورة 1871م ونتائجها). وبمجلة الثقافة، العدد 94 الصادر سنة 1986م، كتب جيلالي صاري عن (مصير ثوار 1871م في معتقلهم كاليديونيا الجديدة)، وقد عادت المقالات التي تتناول ثورة 1871م لتظهر من جديد في العقدين الأخيرين برؤى جديدة وذلك من خلال وثائق أرشيفية متاحة في مختلف الأرشيفات الوطنية والدولية، بداية بخليفي عبد القادر الذي نشر مقال بمجلة الآداب (م8/ع1) عام 2005م حمل عنوان (مقاومة المقراني في الشعر الشعبي)، ونشر الصادق دهاش مقال (نتائج ثورة 1871م أبعادها ومظاهرها) بمجلة المصادر (ع14/2006م)، وكذلك الشأن لبجاوي محمد وعمله: (ثورة المقراني في منطقة باليسترو - الأخضرية - سنة 1871م) بمجلة المصادر (م12/ع22/2010م)، كما قام رواجي العياشي بنشر عمل حول (عائلة المقراني والأمير عبد القادر 1832م- 1847م) بمجلة التواصل في العلوم الإنسانية والاجتماعية (م18/ع2/2012م)، وبمجلة عصور (م3/ع8/2013م) نشر عثمانى ستار مقال بعنوان:

Lecture critique de l'œuvre de Luis Rinn sur l'insurrection de 1871 en Algérie

وينفس المجلة (عصور) التي تصدر بجامعة وهران في مجلدها 11 (ع2/2012م) صدر مقال عن ثورة 1871م لجيلالي بلوفة عبد القادر موسوم بـ (أهمية ومكانة ثورة المقراني والحداد في مسيرة النضال الوطني الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي)، وتتبع هلايلي حنفي (الظروف التاريخية الممهدة لثورة المقراني والشيخ الحداد ونتائجها على السياسة الاستعمارية) بمجلة الحوار المتوسطي (م6/ع1/2015م)، وبمجلة الحكمة للدراسات التاريخية (م5/ع12/2017م) صدر لبشير فايد عمل تتبع فيه (قادة ثورة المقراني والحداد أمام محكمة الجنايات بقسنطينة سنة 1872م)، ليصدر بمجلة إنسانيات التابع لمركز الكراسك بوهان في مجلدها 22 (ع82/2018م) عمل عن الثورة لصاحبه إيدير هاشي حمل عنوان:

Le nom kabyle de l'insurrection de 1871

لستمر الدراسات عن ثورة 1871م في المجلات الجزائرية سنة 2020م مع بيرم كمال بمجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية (م1/ع3/2020م) تطرق فيه لـ (وضع قبائل إقليم برج بوعريج بعد انتفاضة المقراني 1871م في ضوء وثائق الأرشيف الفرنسي)، وبمجلة الدراسات التاريخية العسكرية (م2/ع1/2020م) تناول محمد مختار زغار موضوع (بنية الفرق العسكرية للمقاومات الشعبية فرقة مسبلي مقاومتي لالا فاطمة نسومر والشيخين المقراني والحداد أنموذجا).

لم تقتصر الدراسات التاريخية لثورة 1871م عن الباحثين الفرنسيين والجزائريين فقط بل أخذت حيزا ببعض الدراسات العربية أين خصص الكاتب العسكري السوري بسام العسلي كتاب سنة 1982م مسمى بـ (جهاد شعب الجزائر محمد المقراني وثورة 1871م الجزائرية).

يبقى ما ذكرناه نماذج وعينات للكتابات التي تطرقت لثورة المقراني والإخوة الرحمانين 1871م باللغتين العربية والفرنسية، رغم وجود دراسات أخرى متعلقة بخلفيات الثورة وانعكاساتها القريبة والبعيدة، والأكد أن الببليوغرافيا التي اعتمد عليها الباحثون في هذا الكتاب الجماعي تكشف عن دراسات وأعمال أخرى تضاف إلى القائمة المذكورة.

مضامين الكتاب:

تنوّعت المواضيع التي احتواها هذا السفر في مقاربتها بين الإمارة المقرانية وثورة 1871م، بتنوع وثراء المحاور التي اندرجت في إطارها، وقد جاء المقال الأول -خارج المحاور المعتمدة-: "الدكتور يحيى بوعزيز (1929-2007): حياته وآثاره" من إعداد مولود عويمر (جامعة الجزائر2)، ليحفر من خلاله في سيرة المؤرخ يحيى بوعزيز -رحمه الله-، ويكشف عن مساره العلمي وأهم آثاره،

وقد تتبع فيه صاحب المقال مختلف أعمال ونشاطات المرحوم قبل وبعد الاستقلال، بداية بالعمل الصحفي مروراً بالبحث التاريخي في الجامعة الجزائرية وصولاً لعرض أبرز منجزاته العلمية.

لا يستقيم البحث في محطات ثورة الحاج محمد المقراني والشيخ الحداد وفق الرؤية التي يبتغيها الكتاب دون العودة للخلفيات التاريخية التي أنتجت اللحظة الثورية لـ 1871م، وتحقيقاً لهذا الغرض انخرط الباحثون المساهمون في المحور الأول: "المقرانيون، الأسرة والإمارة"، في تتبع تشكيلات المجال المقراني وكيانه السياسي المتمثل في "الإمارة المقرانية" وعاصمتها قلعة "بني عباس" و"مجانة"، وتأسيساً على ذلك جاء المقال الثنائي لـ "كايزر وولفغونغ" Kaiser wolfgang (جامعة باريس 01) ونيل بومولة (جامعة المسيلة): *Aperçu générale sur l'histoire de la kalaa des Beni Abbès*، ليقدم لمحة تاريخية وجغرافية عن قلعة بني عباس وأبرز أمرائها، وكشفاً لطبيعة الحياة والعلاقات الاجتماعية داخل الإمارة المقرانية خلال فترة (1518-1830م)، قدم **لخضر بوطبة** (جامعة سطيف 2) مقالاً بعنوان: "جوانب من الحياة الاجتماعية في إمارة ومشيخة المقرانيين في القلعة ومجانة خلال العهد العثماني". ولأن الصورة المعمارية للقلعة تجعلنا ننفذ إلى حقائق تاريخية عن مستوى الإمارة وطبيعة تنظيمها، فقد حصّ **عبد الحميد بودرواز** (جامعة المسيلة) قلعة بني عباس بدراسة في بنيتها المعمارية، بمقال موسوم بـ: "المظاهر العمرانية والمعمارية لقلعة بني عباس ما بين القرنين 16-19م".

اشتغل **سالم جوامع** (جامعة تلمسان) على ذات الإمارة في علاقتها بالعثمانيين من خلال دراسته: "إمارة بني عباس وعلاقتها بالسلطة العثمانية بالجزائر خلال القرن 16م" وهي مرحلة مهمة من تاريخ الإمارة، أما **مليكّة عرايبي** (جامعة خميس مليانة) فقد استكملت القرن اللاحق من هذه العلاقة من خلال مقالها: "علاقة آل المقراني بالسلطة العثمانية في الجزائر خلال القرن 17م"، وفي إطار التتبع الكرونولوجي المهم في تسجيل التطورات والتحويلات التي تشهدها علاقات الإمارة مع الأتراك والفرنسيين والتي تعكس الكثير من المعطيات، قدم **الحاج صادق** (جامعة الجزائر 2) مقالاً: "الإمارة المقرانية وعلاقتها بالأتراك والفرنسيين من بداية القرن 18م إلى غاية 1871م". ولأن المقرانيين لم يكونوا في عزلة عما يجري في المنطقة، استمررا لحضورهم الوازن منذ نهاية العهد الحفصي إلى غاية اندلاع المقاومات الشعبية المناوئة للاستعمار الفرنسي كما أشارت المقالات السابقة، فقد كتب **محمد السعيد قاصري** (جامعة المسيلة) عن: "تجليات الحضور المقراني في مقاومة وفكر الأمير عبد القادر الجزائري (1837-1883م)".

في ذات السياق، يكون من المهم الالتفات إلى بعض الأعلام التي خرّجتها الأسرة المقرانية، ورغم القائمة الزاخرة إلا أن المجال سمح بنشر دراسة **مصطفى بن عريب** (جامعة المسيلة): "أبو التقى المقراني أول شيوخ مجانة (ت 1680م)"، ومقال **فارس كعوان** الموسوم: "محمد الوانوغوي المقراني (1867-1948م) سيرته ومواقفه من خلال مراسلاته والمصادر المعاصرة له".

ركّز الباحثون المهتمون بأطوار ثورة المقراني على كشف أهم أحداثها ومحطاتها ضمن المحور الثاني "ثورة 1871م أطراف ومشاهد"، بداية بالكشف عن ظروفها ودوافعها، والتي اشتغل عليها كل من **حورية طعبة** (جامعة أدرار) و**عبد القادر عميري** (جامعة الجزائر 2) في مساهمتهما المشتركة المعنونة بـ: "ظروف ودوافع ثورة المقراني والإخوة الرحمانيين 1871م"، وتأكيداً للدور الفعال الذي لعبه الإخوة الرحمانيين في الثورة، ساهم **محمّد أرزقي فراد** (جامعة الجزائر 2) بمقال حول: "دور أسرتي الشيخ الحداد وآث قاسي في ثورة 1871م"، وكشف **بشير فايد** (جامعة سطيف 2) عن: "جوانب من حياة وكفاح الشيخ سي عزيز ابن الحداد".

انطلق **عبد الحليم مرجي** (جامعة البويرة) من حادثة استشهاد محمد المقراني وكتب عن: "أحمد بومزراق المقراني واستمرار مقاومة 1871م في بلاد حمزة" في تأكيد على أن ثورة 1871م لم تنتهي باستشهاد لحاج محمد المقراني بوادي سوفلات بتاريخ 05 ماي 1871م بل انتشرت بشكل أوسع على يد شقيقه أحمد بومزراق. وفي سياق تتبع محطات الثورة في مجالات جغرافية محددة والكشف عن شبكتها وفواعلها، كتب **نصر الدين غياط** (المسيلة): "أضواء على مشاركة زاوية سيدي بوجملين الرحمانية بالمسيلة في ثورة

1871م"، لتكون خاتمة هذا المحور بمقال **لكمال بيرم** (جامعة المسيلة) حول: "انتفاضة المقراني 1871م بالحضنة: خلفيات وتدايعات".

اختص المحور الثالث من الكتاب بإبراز انعكاسات الثورة في مختلف المجالات، حيث تضمن عدة مقالات تتبع الآثار التي خلّفتها تحت عنوان "**مخلفات وانعكاسات ثورة 1871م**"، حيث أسهم **سمير بن سعدي** (جامعة البويرة) بمقال عكس حجم المصادرات التي تكبدتها الأسرة عنونه ب: "مصادرات أملاك العائلة المقرانية بعد ثورة 1871م - دراسة إحصائية"، وأبرز **محمد محمدي** (جامعة المسيلة) السياسة الاستعمارية التي استهدفت تفكيك المجال القبلي المقراني، من خلال دراسته: "التهجير القسري الداخلي للقبائل المساندة لثورة المقراني 1871م - قبائل الحشم بمجانة أمودجا -".

في سياق الكشف عن تأثيرات الثورة على مشيخة المقراني، قدّم **توفيق بن زردة** (جامعة أم البواقي) عمله الموسوم ب: "العقار والمدفع: تفكيك ثنائية الأرض والإنسان - مشيخة المقراني أمودجا - (1844-1874م)"، في حين تتبع **العياشي روابحي** (جامعة عنابة) مصير ومآلات الأسرة المقرانية بعد نهاية الثورة من خلال مقال "أضواء على أوضاع المقرانيين المهاجرين إلى البلاد التونسية بعد انكسار ثورة 1871م"، وركزت **مليكة ونوغي** (جامعة بريس 8) على عمليات الترحيل التي شملت الأفراد والأسر والقبائل المساندة للثورة إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادي في مقالها الموسوم ب:

1871: El Mokrani: Résistances, confiscation, désagrégation, déportation et nouvelle pénalisation au refus de concourir à la capture du trophée colonial kanak

تطرق **عمر بوضربة** (جامعة المسيلة) ل: "موقف السلطات الفرنسية من عودة أحمد بومزراق إلى الجزائر سنة 1904م من خلال أرشيف (ANOM)". أما **شريف عبد القادر** (جامعة الجزائر2) فقد ربط بين ثورة المقراني والتنظيمات الفرنسية بالجزائر بعد 1871م، من خلال مقاله: "التنظيم الإداري الاستعماري في الجزائر بعد ثورة المقراني 1871م وانعكاساته على المجتمع الجزائري". من الضروري العودة إلى المكتبة التاريخية والكشف عن المصادر التي كتبت عن ثورة المقراني والحداد، المحلية منها والأجنبية، فضلا عن الأبحاث والدراسات الأكاديمية المنجزة، لذلك جاء المحور الرابع معنوننا بـ "**ثورة 1871م في الإسطوغرافيا المحلية والأجنبية والكتابات الجامعية**" التي عاجلت الثورة، فقد أبرز **محمّد آكلي آيت سوكي** (جامعة سطيف2) نماذج من الشعر القبائلي والكتابات المحلية في مقاله: "المواقف من ثورة 1871م من خلال نماذج من الأشعار الشعبية والكتابات المحلية في منطقة القبائل"، وقام **جمال الدين الواحد** (جامعة سطيف2) بانتقاء ودراسة نماذج أخرى في مقاله: "ثورة المقراني والحداد بعيون شعراء الشعر الشعبي الملحون - دراسة نماذج".

وفي تتبع ثورة المقراني والإخوة الرحمانيين في الأطاريح الجامعية، كتب **يعقوب خديجة** (جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة) عن: "أصول أسرة المقراني وثورة 1871م في الأطروحات الجامعية - نقد وتقييم"، في حين ركّز كل من **سيف الدين بوسماحة** (جامعة تلمسان) و**عبد القادر صحراوي** (جامعة سيدي بلعباس) على واحد من أهم المصادر الفرنسية التي أُرّخت للثورة في مقالهما: "ثورة 1871م في كتابات لويس رين Louis-Marie Rinn".

ضمن نفس المحور، ساهم **فؤاد شبيحي** (جامعة البليدة2) بدراسة موسومة ب: "حضور محمد المقراني وثورة 1871م في الدراسات التاريخية مجلة الأصيل أمودجا"، ومسيرة لما يتاح رقميا من إنتاج متعلق بذات الموضوع، كتب **ودان بوغفالة** (جامعة تيارت) حول: "ثورة المقراني في السيليوغرافيا الرقمية بالجزائر"، وكأموذجا عن طبيعة المنجز الذي قدّمه المهتمون بالتأريخ لزملاء الثورة، أسهم **علي بطاش** (بجاية) بملخص عن كتابه الذي كشف عن جوانب من حياة الشيخ الحداد ومساهمته في ثورة 1871م أين عنوان مقاله ب:

Résumé du livre " la vie de Cheikh El Haddad et l'insurrection de 1871"

المقراني وثورة 1871م اليوم ... أي حضور؟

إلى جانب البحث في المظان التاريخية وتقدم قراءات متنوعة للحدث التاريخي المرتبط بالمقرانيين والرحمانيين وثورتهم، يكون من الضروري التساؤل عن طبيعة حضور المقراني والحداد وغيرهم من رموز ثورة 1871م اليوم، كيف ينبغي أن يتجاوز هؤلاء مجرد كونهم أسماء على مداخل مؤسسات عمومية (تربوية غالباً) وعلامات تجارية لبعض السلع الاستهلاكية؟ هل يكفي ذلك أو لنقل بأكثر جرأة هل من الطبيعي اختزال هته الأسماء في المظاهر التي أشرنا إليها، في ظل غياب اشتغال حقيقي على الذاكرة الجمعية وموقعة الرموز ضمنها؟.

إذا كان الحديث عن الجرائم الاستعمارية واستمرار تأثيرها إلى اليوم، ومن ذلك التجارب النووية التي راح ضحيتها الكثير من أبناء الوطن، ولا تزال انعكاساتها الخطيرة تمس الأرض وكل الكائنات الحية، فإن بعض المآسي التي أسفرت عنها ثورة 1871م لا تزال مستمرة هي الأخرى، لأن الأمر يتعلق بذاكرة منفية ومُبعدة، ذاكرة متعبة بالانتقال النهائي اجتهدت في البحث عن هويتها في تفاعلها مع محيطها الجديد بجغرافيته وسكانته.

استعادة المقراني والحداد وغيرهم من رموز هذا الوطن هو استعادة لهويته، ولا نبالغ حينما نقول بأن بعض اعتلالات المجتمع اليوم قد تجد في نماذج الأمس شيئاً من البلسم الذي يساعد في التعافي، فيمكن مثلاً قراءة تجربة المقراني والحداد في إطار تقدم النماذج التي تروم إعادة ترميم تصدعات الهوية وتجاوز الذاكرات الإثنية نحو الذاكرة الوطنية.

لا يدّعي الكتاب الحسم في إشكاليات ثورة 1871م، بقدر ما يحاول هذا المنجز بالدرجة الأولى الدفع نحو الانفتاح على إشكاليات جديدة وملحة حول الموضوع، من خلال مقارباته المتنوعة لبعض المواضيع التي ركّز عليها الباحثون، والذين لا يفوتنا أن نتقدم إليهم بأسمى عبارات الشكر والتقدير على تجاوبهم ومساهماتهم القيمة، وللأسادة أعضاء اللجنة العلمية للكتاب، الذين سهروا على قراءة وتحكيم ومراجعة الأعمال التي توصلت بها هيئة التنسيق، فكانت ملاحظاتهم مهمة لتجويد البحوث المقبولة. كما نشكر الفنان المبدع "الحسن حداد"، الذي تكفل برسم صورة جميلة وروح جديدة لبعض زعماء ثورة 1871م، خصيصاً لتكون لوحة غلاف الكتاب، ولا يفوتنا أن نشكر عائلة المقراني التي شجعت المشروع من خلال السهر على التكفل بإخراج الطبعة الأولى من الكتاب.



الدكتور يحيى بوعزيز - رحمه الله - (1929-2007م) في أواخر مشوار حياته، بمناسبة ملتقى
الجمعية الخلدونية للدراسات التاريخية بولاية بسكرة، يوم: 05 فيفري 2005م.
آثار تعب البحث بادية على مُحيّاه، لكن ابتسامة الأمل تأبى أن تغادره ...

الدكتور يحيى بوعزيز (1929-2007م) حياته وآثاره

مولود عومر - جامعة الجزائر 2

المؤرخ الجزائري الدكتور يحيى بوعزيز (1929-2007م) سخر جهوده خلال نصف قرن من الزمن في دراسة الثقافة العربية والإسلامية، وكذا الجزائر، والتأريخ لماضيها العريق، والتعريف بتراتها العتيق، والدعوة إلى إحياء ذكراها جيلا بعد جيل. ما هي أبرز المحطات في حياته؟ وما هي إسهاماته في كتابة تاريخ الجزائر؟ وما هي أبرز ملامح أعماله في التأريخ وتحقيق التراث؟ وهل اقتصر أعماله على العمل الأكاديمي أم أنه تعداها إلى النشاطات الثقافية والفكرية خارج أسوار الجامعة لينتفع بعلمه العام والخاص على حد سواء؟

- محطات ومعالم:

لم تعد حياة الدكتور يحيى بوعزيز مجهولة بعد أن نشر مذكراته "رحلة في فضاء العمر أو مذكرات شاهد القرن" في ثلاثة أجزاء، وتحدث فيها بالتفصيل عن جذوره وأصوله ومحطات مختلفة من حياته العامة وأعماله العلمية ونشاطاته الثقافية الكثيرة. ولد يحيى بوعزيز في 27 ماي 1929م بالجعافرة (ولاية برج بوعرييج) بالشرق الجزائري. وقد أحب هذه المنطقة التي نشأ فيها ودرس في زاوية والده وبقي دائما على صلة وثيقة بها رغم كثرة الأسفار وتعدد أماكن الاستقرار، ويكفي دليلا على ذلك أنه خصّ لمسقط رأسه وعهد طفولته وشبابه، كتابا عنوانه "دائرة الجعافرة تاريخ وحضارة وجهاد" عرّف فيه بإسهاماتها الثقافية وبطولاتها النضالية عبر العصور القديمة والحديثة.

انتقل بوعزيز إلى معهد الكتانية بقسنطينة لدراسة العلوم الشرعية واللغوية، ولكن سرعان ما غيّر وجهة سفره إلى مدينة عنابة بأمر من والده لمواصلة تحصيله العلمي على يد العالم الليبي المقيم في هذه المدينة الساحلية وهو الشيخ حسن الطرابلسي¹ الذي اشتهر بتبحره في العلوم الدينية والمعارف الحديثة، والالتزام بمكارم الأخلاق وتعلقه بالجزائر التي اعتبرها بلده الثاني.

وقد لازمه بوعزيز ثلاث سنوات محاطا بالرعاية الشاملة، وكانت هذه الفترة من أغزر فترات حياته سواء في الجانب العلمي أو في الجانب السياسي. قال الأستاذ بوعزيز في هذا الشأن: «إن السنوات الثلاثة التي قضيتها في عنابة كانت مفيدة جدا لي من حيث الثقافة والسياسة، فمن الناحية الثقافية وسعت معارفي جيدا من حيث قواعد اللغة والفقه الإسلامي، وأصبح مستوياً رفيعاً، وسوف يساعدي هذا عندما ألتحق بتونس... والانخراط بنظام جامعة الزيتونية. ومن الناحية السياسية، فتحت عيني على رجال الحركة الوطنية والتيار الاستقلالي تبعاً للجو الذي عشته مع مناضلي هذا التيار، ولتوجهات الشيخ الذي كان يميل بقلبه وقالبه إليه»².

وجّه الشيخ الطرابلسي تلميذه النجيب للدراسة خارج البلد في تونس بعد أن لامس فيه التحمس للتعليم والشغف بالمعرفة والاهتمام بالسياسة. ومن أجل تحقيق طموحه بالارتقاء في مدارج العلم وإيقاظ الوعي الوطني، التحق بوعزيز في سنة 1949م بجامعة الزيتونة العامر الذي احتضن دائما الطلبة الجزائريين وتخرج منه عدد لا يحصى من المعلمين والعلماء العاملين. ودرس الطالب بجد وتحصل على الشهادة الأهلية بامتياز في عام 1953م، وكان ترتيبه الأول على مستوى المملكة التونسية³، ونال بعدها شهادة التحصيل في ديسمبر 1956م⁴.

¹ - يحيى بوعزيز: رحلة في فضاء العمر أو مذكرات القرن، ج1، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ص104.

² - يحيى بوعزيز: المرجع نفسه، ص108-109.

³ - المرجع نفسه، ص132.

⁴ - نفسه، ص152.

ورغم مكانة هذه الشهادات في تلك الفترة، فإنه كان يرى أنها بعيدة عن أحلامه، ولا ترقى إلى مستوى طموحاته، فاستقر رأيه على مغادرة مسقط رأسه ليذهب إلى القاهرة حيث التحق بجامعة التي درس فيها عدة سنوات على أيدي أساتذتها المشهورين أمثال: أحمد فخري (1905-1973م)، ومحمد جمال الدين سرور (1912-1999م)، ومحمد أنيس (1921-1986م)، وسعيد عبد الفتاح عاشور (1922-2009م)، ومحمد حمدان (1928-1993م)، وغيرهم. وتحصل من هذه الجامعة المرموقة على شهادة الليسانس في التاريخ عام 1961م.

بعد عودة بوعزيز من مصر إلى الجزائر في عام 1962م اشتغل مدرّسا في عدة مؤسسات تربوية¹، وتخرجت عليه أجيال من المعلمين والمربين الذين أقبلوا على دروسه، واستفادوا من غزارة علمه وسعة اطلاعه ومثانة ثقافته واهتدوا بنبل أخلاقه، ومرة أخرى يعود إلى الدراسة لأنه غير مقتنع بما ناله من قبل من الشهادات العلمية، فيلتحق بجامعة الجزائر ليواصل دراساته العليا حتى نال منها شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر في عام 1976م بعد عناء شديد².

والحقيقة أن المعوّقات التي عاشها الدكتور بوعزيز لم تكن مقتصرة على الجامعة الجزائرية فكثيرا ما قرأت للعديد من المؤرخين العرب والأوروبيين الذين عرفوا خلال مساهمهم العلمي مشبطات كثيرة كادت أن تتحوّل إلى الصخرة التي تتحطم عليها الآمال والطموحات³.

انتصر الأستاذ بوعزيز على كل المعوّقات بفضل إرادته الصلبة وإصراره على النجاح والمضي قدما في طريق الارتقاء العلمي. وتتويجا لذلك عين في عام 1977م أستاذ للتاريخ الحديث بجامعة وهران⁴، وبقي في هذا المنصب حتى استفاد من حقه في التقاعد، لكنه واصل مساهماته في الحياة الثقافية والفكرية إلى غاية وفاته في يوم 7 نوفمبر 2007م.

- في رحاب البحث والتأليف:

بدأت تجربة بوعزيز في مجال التأليف بتونس وهو مازال طالبا يدرس في جامع الزيتونة⁵، وهناك أصدر عام 1957م كتابه الأول المعنون ب: "الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري". وكان اختيار رمز النضال الجزائري يرمي إلى نشر الوعي الوطني وترسيخ ثقافة المقاومة ودعم جهود الثورة التحريرية التي دخلت في عامها الرابع.

ونظرا لتعلقه بهذه الشخصية الفذة ورمز البطولة الوطنية واصل البحث حول مساره والتنقيب عن أعماله، ولم يتوقف، وقد كللت هذه الجهود الحثيثة بنشر مقالات ودراسات، وأصدر كتابا آخر في هذا المجال تحت عنوان: "مراسلات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليبية".

كما أشير أيضا إلى تحقيقه لكتاب "سيرة الأمير عبد القادر وجهاده" الذي وضعه ابن عمه الأمير ورفيقه في الجهاد الحاج مصطفى بن أحمد التهامي. وبالإضافة إلى هذين الكتابين، نشر الأستاذ بوعزيز عدة مقالات ودراسات عن الموضوع نفسه في المجلات الجزائرية والعربية.

كذلك خصّ أطروحته للدكتوراه لدراسة شخصيات مقاومة أخرى، أمثال محمد المقراني والشيخ الحداد ومساعديهما. وأتبع أطروحته بمجموعة من المقالات والبحوث حول هذا الموضوع معززة بوثائق ثمينة وجديدة، ثم نشرها في كتابين، وهما: "مواقف العائلات الأرستقراطية من الباشا محمد المقراني وثورته عام 1871م"، و"وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز".

¹ - يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ج2، ص87.

² - يحيى بوعزيز: (مشاكل البحث العلمي في الجزائر)، الأصالة، ع67، مارس 1979م، ص18-30.

³ - وكان آخر ما قرأت حول هذا الموضوع الكتاب الآتي:

Jean de Viguerie. Itinéraire d'un historien. Ed. Dominique Martin Morin, Boué, 2000, p.9-29.

⁴ - يحيى بوعزيز: مذكرات القرن، ج2، ص94-95.

⁵ - المرجع نفسه، ج1، ص149.

والحق، أن أعمال الدكتور بوعزيز تركزت في السبعينيات على تاريخ المقاومة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر، فكتب مقالات وبحوثا كثيرة في الصحف والمجلات الجزائرية بخاصة "الأصالة" و"الثقافة" و"أول نوفمبر"¹ وجريدة "الشعب" كشف من خلالها صفحات مشرقة من الكفاح الوطني بقيادة زعماء بارزين أمثال: الحاج أحمد باي²، ابن ناصر بن شهرة³، الشيخ بوزيان⁴، الشريف محمد بن عبد الله⁵، والشريف بوشوشة⁶، والشيخ بوعمامة⁷، ... وقد جمع هذه البحوث وغيرها، وأصدرها في كتاب عنوانه: "ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر".

ودائما في مجال البيوغرافي أي دراسة سير الأعلام، كتب الدكتور بوعزيز دراسات ومقالات عن الشيخ عبد الحميد بن باديس⁸، ومولود قاسم نایت بلقاسم، وغيرهما من الشخصيات العلمية والفكرية والأدبية الجزائرية التي خصّ لها كتابا في مجلدين سماه: "أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة".

انتقل الدكتور بوعزيز في الثمانينيات إلى البحث في مجال الحركة الوطنية الجزائرية، فنشر وثائق في غاية الأهمية في كتابه: "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه"، و"الأيدولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية من خلال ثلاثة وثائق جزائرية".

وفي التسعينيات اقترب الدكتور بوعزيز من تاريخ الثورة التحريرية، فنشر عدة كتب حول أحداثها ورجالها وقضاياها المختلفة، أذكر منها العناوين التالية: "الانتماءات المتبادلة بين مصالي الحاج واللجنة المركزية وجبهة التحرير الوطني بين 1946 و1962م"، و"من وثائق جبهة التحرير الوطني الجزائرية 1954-1962م"، و"الثورة في الولاية الثالثة"، و"ثورات القرن العشرين"، وإن كان التركيز كلية في هذا الكتاب الأخير على الثورة الجزائرية.

في هذه الكتب عنصر ملفت للانتباه وهو أن الدكتور بوعزيز يكتفي في غالب الأحيان بنشر هذه الوثائق المهمة دون تحليلها أو تحقيقها تحقيقا علميا دقيقا، فكان هم الأول هو إخراج هذه النصوص من عالم النسيان إلى عالم الشهود، ليستفيد منها الباحثون في إثراء أعمالهم وأبحاثهم. أما مضامينها فهي جديدة تتضمن معلومات غزيرة جديدة بالدراسة والمناقشة والتحليل والنقد. كما تطرق في مذكراته المنشورة في ثلاثة أجزاء إلى أحداث كثيرة عاصرها في تونس ومصر أيام الثورة التحريرية، ومنها شهاداته عن اتصالاته المستمرة مع رجالها وقادتها المعروفين.

وفي مجال التحقيق، نشر الدكتور يحيى بوعزيز خمسة كتب، أشرت من قبل إلى عنوانين لهما صلة بالأمير عبد القادر وعزيز بن الشيخ الحداد. أما الكتب الثلاثة الأخرى، فهي: "تاريخ قسنطينة" لمحمد الصالح العنترى، و"روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين" للشيخ محمد بن سعد الأنصاري التلمساني، و"طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا" للأغا عودة المزاري.

¹ - قام الدكتور أمحمد عميراي بجدد غالبية هذه البحوث والمقالات بمناسبة تكريم جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة للدكتور يحيى بوعزيز يوم 29 نوفمبر 1999م. أنظر كتابه: من تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى، عين مليلة، 2004م، ط2، ص185-191.

² - معارك الحاج أحمد باي في جبال أولاد سلطان من خلال ثلاث وثائق جزائرية، الثقافة، ع90، 1985م، ص123-142.

³ - وثائق جديدة عن ثورة ابن ناصر بن شهرة (1851-1875م)، الثقافة، ع31، فبراير-مارس 1976م.

⁴ - أعضاء على انتفاضة سكان واحة الزعاطشة والشيخ بوزيان عام 1849م، الثقافة، ع32، أبريل-ماي 1976م، ص39-50.

⁵ - وثيقتان جديدتان عن كفاح الشريف محمد بن عبد الله (1841-1895م)، الثقافة، ع33، جوان-جويلية 1976م، ص11-28.

⁶ - أعضاء على كفاح الشريف بوشوشة، الثقافة، ع34، أغسطس-سبتمبر 1976م، ص85-99.

⁷ - أعضاء على ثورة الشيخ بوعمامة (1881-1908م)، الثقافة، ع68، مارس-أبريل 1982م.

⁸ - مكانة عبد الحميد بن باديس بين مصلحي الشرق العربي الإسلامي، مجلة أول نوفمبر، ع15، أبريل 1976م.

والحق أن الدكتور يحيى بوعزيز بقي دائما وفيها لمنهجه في التعامل مع الوثائق والمخطوطات، فقد اقتصر هنا أيضا على التعريف بالمخطوطة ونشرها أكثر مما اهتم بتحقيقها العلمي الذي كان يأمل أن يقوم به طلبته الباحثون أو غيرهم من المهتمين بالمخطوطات، خاصة وأنه أصيب في السنوات العشر الأخيرة من عمره بنقص البصر ولا يقرأ النصوص إلا بشق الأنفس.

من جهة أخرى، كتب الدكتور بوعزيز في قضايا مختلفة وموضوعات متنوعة لها صلة بتاريخ إفريقيا أو تاريخ أوروبا الحديث، والتي اهتم بها في إطار البرامج الدراسية والوحدات العلمية التي كلف بتدريسها في الجامعة وإن كانت بعيدة عن اهتماماته الدقيقة. وفي الأخير، أشير إلى أن أعماله الكاملة التي طبعتها وزارة المجاهدين في عام 2009م قد بلغت ثلاثة وعشرون مجلدا، ولا ينافسه في ذلك إلا أستاذه الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي تجاوزت أعماله ثلاثة وستون مجلدا لحد الآن.

وقبل أن نتطرق إلى نشاط الدكتور بوعزيز الثقافي، أحب أن أنقل هنا رأيه في واقع البحث التاريخي الأكاديمي في الجزائر، فهو يرى بأنه «ما يزال ضعيفا ويحتاج إلى دعم كبير من حيث التسجيل والطباعة، والنشر، والإيصال إلى الأجيال الصاعدة»¹.

وعلى الرغم من ذلك كله، يبقى الدكتور بوعزيز متفائلا في مستقبل البحث التاريخي الذي سيشهده الباحثون الشباب الطامحون في الارتقاء بمدارج العلم والمعرفة، وتأسيس المدرسة التاريخية الجزائرية المنشودة من الجميع، وهي محررة من كل رواسب الكتابات التاريخية الاستعمارية والمناهج الاستشراقية الفرنسية.

- نشاطه الثقافي والفكري:

لم يكن يحيى بوعزيز طالبا منهمكا على التحصيل العلمي من حضور الدروس وحفظ المتون والجري وراء تحصيل العلامات ونيل الشهادات، بل كان مهتما أيضا بحضور النشاطات الثقافية التي كانت تزخر بها كل من تونس ومصر في الخمسينيات من القرن العشرين.

وهكذا كان يشاهد الأفلام العربية والعروض المسرحية ويحضر إلى الندوات الفكرية² والأمسيات الشعرية وغيرها من النشاطات الثقافية والأدبية والفنية التي تجذب كل طالب طموح للاستزادة في كسب المعارف العصرية التي لا يجدها آنذاك في حلقات الدروس التقليدية والكتب المدرسية المقررة، ويكتشف من خلالها عوالم جديدة في هذه الحواضر المنفتحة على الحضارة الغربية في مجالات الثقافة والآداب والفنون.

ولقد أحرز تجربة في هذا المجال فوظفه بدوره لما كان مسؤولا عن الشؤون الثقافية في رابطة الطلبة الجزائريين بتونس ثم في مصر. أذكر هنا على سبيل المثال إشرافه في عام 1957م على ندوة في تونس إحياء لذكرى الأمير عبد القادر، فخطب فيها كوكبة من العلماء والمثقفين التونسيين، أمثال: العالم الزيتوني الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، والمؤرخ الأستاذ عثمان الكعاك، والنقابي أحمد بن صالح، والمثقف الجزائري الأستاذ عبد الله شريط، والشاعر الجزائري صالح الخرفي³.

وتضاعفت همّة الطالب بوعزيز في مصر حيث أشرف على اللجنة الثقافية التي كانت تستقبل نخبة من المثقفين الجزائريين والمصريين لتقديم المحاضرات والقاء القصائد الشعرية الممجدة لكفاح الشعب الجزائري من أجل نيل استقلاله. كذلك ساهم في فتح مكتبة للمطالعة يقصدها الطلبة الجزائريون وغيرهم من الطلبة المصريين والعرب المهتمين بتاريخ الجزائر وتراثها الحضاري، والكتابة في مجلة "الطالب الجزائري"⁴ التي صدرت منها أعداد قليلة ثم توقفت لأسباب مادية.

¹ - المؤرخ الجزائري الدكتور يحيى بوعزيز للمجلة الخلدونية، حاوره فوزي مصمودي، المجلة الخلدونية، ع7، جويلية 2010م، ص40.

² - يحيى بوعزيز: مذكرات القرن، ج1، ص134-135.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص154-155.

⁴ - نفسه، ج2، ص40-41.

دأب يحيى بوعزيز على العمل الثقافي والفكري خاصة بعد التحاقه بجامعة وهران، وانبساط شهرته التي صنعتها كتبه ومقالاته، فكان يتلقى الدعوات من المؤسسات العلمية والثقافية للمشاركة في الندوات والملتقيات التاريخية والفكرية والأدبية عبر التراب الوطني وفي تونس، وليبيا، وألمانيا الغربية... وقد جمع المحاضرات التي قدمها في الفترة الممتدة بين منتصف عام 1976م وآخر عام 1984م في كتاب عنوانه: "مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية".

لم يكتف بمشاركاته العلمية في التظاهرات الثقافية والندوات والملتقيات التاريخية، وإنما تعدى نشاطه إلى المساهمة في الكتابة الصحفية. وقد انخرط مبكرا في العمل الصحفي وهو مازال طالبا في جامع الزيتونة إذ ساهم في تحرير بعض الصحف المعروفة والمغمورة، وهي: "لواء البرلمان" و"الشعب" ومجلة "الفكر"¹ وبالخصوص جريدة "الصباح"².

وكان ينقل للقارئ التونسي والعربي من خلال هذه المقالات جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر منذ الاحتلال، ويقدم أخبارا عن تطوّر الكفاح المسلح في البلاد، ويقوم باستجواب الجزائريين اللاجئين في تونس الذين يروون معاناتهم اليومية، ويعبرون عن آمالهم في النصر القريب للعودة إلى أرض الوطن المحرر.

وكتب أيضا في الصحافة المصرية والعربية خلال إقامته في القاهرة معزفا بثقافة الجزائر وتاريخها³. وواصل كتاباته الصحفية في الجزائر بعد نيل الاستقلال واسترجاع السيادة الوطنية.

ولم يكف الأستاذ بوعزيز خلال أربعين سنة عن تزويد الصحف والمجلات الجزائرية بالمدد العلمي في حقل التاريخ، وبآراء في قضايا الثقافة والهوية التي كان يعالجها معالجة صارمة ولكن دون اندفاع.

خاتمة:

هذه شذرات من حياة الدكتور يحيى بوعزيز العامة التي بلغت ثمانية وسبعون سنة قضاهما في التحصيل العلمي والتربية والتعليم والتأليف التاريخي وتحقيق التراث، وقد سردت هنا أهم محطاتها وأبرز أعمالها بالمختصر المفيد تنبيها للدارسين وتذكيرا للمهتمين وتحفيزا للباحثين ليقروا تراثه، ويشغلوا على آثاره، ويستلهموا من مساره وينهلوا من فكره.

¹ - أضواء من نافذة التاريخ على نضال الجزائر، الفكر، فبراير 1958م، ص 35-43.

² - أنظر قائمة مقالاته بجريدة الصباح في: محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، 1900-1962م، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983م، ص 370-372.

³ - من المقالات التي كتبها أيام إقامته في مصر: مشكلة الثقافة العربية في الجزائر، الثقافة، دمشق، جوان 1960، ص 15-19.



منظر عام لقرية بني عباس (بجاية)، المقر الأول للأسرة والإمارة المقرانية قبل الانتقال لمحانة (برج بوعرييج)

المحور الأول

المقرانيون، الأسرة والإمارة

* Aperçu générale sur l’histoire de la kalaa des Beni Abbès

Kaiser wolfgang - Université Paris I Panthéon-Sorbonne

Nabil Boumoula - Université de M'sila

* جوانب من الحياة الاجتماعية في إمارة ومشيخة المقرانيين في القلعة ومجانة خلال العهد العثماني

لخضر بوطبة - جامعة سطيف 2

* المظاهر العمرانية والمعمارية لقلعة بني عباس ما بين القرنين 16-19م

عبد الحميد بودرواز - جامعة المسيلة

* إمارة بني عباس وعلاقتها بالسلطة العثمانية بالجزائر خلال القرن 16م

سالم جوامع - جامعة تلمسان

* علاقة آل المقراني بالسلطة العثمانية في الجزائر خلال القرن 17م

مليكة عرايبي - جامعة خميس مليانة

* الإمارة المقرانية وعلاقتها بالأتراك والفرنسيين من بداية القرن 18م إلى غاية 1871م

الحاج صادوق - جامعة الجزائر 2

* تجليات الحضور المقراني في مقاومة وفكر الأمير عبد القادر الجزائري (1837-1883م)

محمد السعيد قاصري - جامعة المسيلة

* أبو التقى المقراني أول شيوخ مجانة (ت1680م)

مصطفى بن عريب - جامعة المسيلة

* محمد الوانوغلي المقراني (1867-1948م) سيرته ومواقفه من خلال مراسلاته والمصادر المعاصرة له

فارس كعوان - جامعة سطيف 2

Aperçu générale sur l'histoire de la kalaa des Beni Abbès

WOLFGANG Kaiser - université paris 1 panthéon sorbonne
BOUMOULA Nabil - université de M'sila

Le royaume des Beni Abbès ou sultanat des Beni Abbès, en berbère (tageldaNaïtabbas), en arabe: سلطنة بني عباس (sultanat Beni abbas) ¹, est un ancien État d'Afrique du Nord contrôlant du XVI^e siècle au XIX^e siècle la petite Kabylie et ses alentours. Il est désigné dans l'historiographie espagnole comme « reino de Labez » ; parfois plus communément désigné par sa famille régnante, les Mokrani, en berbère (Aït Meqqrane), en arabe أولاد مقران (Ouled Moqrane). Sa capitale est la Kalâa des Beni Abbès, une citadelle imprenable de la chaîne montagneuse des Bibans.

Fondé par les derniers émirs Hafsides de Bejaia, le royaume est longtemps un bastion de résistance aux Espagnols, puis à la Régence d'Alger. À son apogée, son influence s'étend de la vallée de la Soummam au Sahara et sa capitale la Kalâa rivalise avec les plus grandes villes. Au XVII^e siècle, ses chefs prennent le titre de cheikh de la Medjana, mais sont encore décrits comme sultans ou rois des Beni Abbès². À la fin du XVIII^e siècle, le royaume dirigé par la famille Mokrani (Amokrane), s'émiette en plusieurs clans dont certains sont vassalisés par la Régence d'Alger. Cependant, le cheikh de la Medjana se maintient à la tête de sa principauté comme tributaire du bey de Constantine et gère ses affaires en toute indépendance.

À l'arrivée des Français, certains Mokrani prennent le parti de la colonisation, d'autres de la résistance. Les Français, pour favoriser leur implantation dans la région, s'appuient sur les seigneurs locaux, maintenant une apparence d'autonomie de la région sous ses chefs traditionnels jusqu'en 1871. Ses souverains prennent divers titres, successivement sultan, Amokrane³, cheikh de la Medjana, puis s'intégrant provisoirement à l'administration militaire française avant la révolte de 1871, *Khalifa* et *Bachagha*. La défaite de 1871 marquera la fin du rôle politique des Mokrani avec la reddition de la Kalâa face aux Français.

Bénéficiant d'une position stratégique, sur la route d'Alger à Constantine et sur celle de la mer Méditerranée au Sahara, sa capitale la Kalâa des Beni Abbès attire au XVI^e siècle des Andalous, des Chrétiens et des Juifs, fuyant l'Espagne ou Alger et dont le savoirfaire enrichira un tissu industriel local dont l'artisanat de la tribu des Aït Abbas est l'héritage. Les tribus aux alentours sont aussi le siège d'une intense activité intellectuelle et d'une tradition lettrée rivalisant avec celles d'autres villes du Maghreb.

1. Histoire

L'espace politique maghrébin auXIV^e et XV^e siècles

L'Ifriqiya, qui correspond globalement à l'est du Maghrebactuel, fait partie du royaume des Hafsides. Dans ce royaume, la ville de Béjaïa, ancienne capitale des Hammadides au XI^e siècle, est une ville de premier plan. En effet, sa richesse et son emplacement de port

¹- Youssef BENOUDJIT, la kalaa des beni abbas au 16 eme siècle, preface de mahfoud kaddache, editions dahlab, Alger, 1991, pp.12-13. voir aussi.

- oulhadj NAIT DJOUDI, et abbes et koukou, etude géographique et ethno historique de la kabylie ottoman, edition el amel, tizi ouzou, 2018.

²-Bouزيد Mokrani, cheikh de la Medjana, est décrit par Jean-André Peyssonnel comme sultan des Beni Abbès.

³- Amokrane signifie en kabyle, chef, grand.

stratégique en font un objet de convoitise pour les Zianides et Merinides ; de plus, elle entre souvent en dissidence au sein du sultanat Hafside, et jouit d'une certaine autonomie en temps normal. La ville est vue comme capitale des régions occidentales du sultanat Hafside et «place-frontière» du sultanat. Au XIII^e siècle et XIV^e siècle, elle devient à diverses occasions le siège du pouvoir d'émir-gouverneurs indépendants¹, ou de dissidents de la dynastie Hafside. Ces «souverains de Béjaïa»² étendent leur autorité qui va souvent de pair avec une dissidence politique à l'ensemble du domaine de l'ancien royaume des Hammadides: Alger, Dellys, Miliana, Constantine, Annaba et les oasis du Zab. Ibn Khaldoun les décrit comme gouvernant «al- waBiğāya Ifriqiya min algarbītagr» (la ville de Béjaïa et la marche occidentale de l'Ifriqiya). Ibn Khaldoun sera d'ailleurs le vizir de l'administration indépendante d'un prince Hafside de Béjaïa, en 1365³. Le XV^e siècle voit globalement un retour à la centralisation de l'État Hafside. Mais à la fin du XV^e siècle et au début du XVI^e siècle, Léon l'Africain et AlMarini décrivent un prince de Béjaïa, séparé de celui de Tunis, avec une situation similaire à Constantine et Annaba, ce qui traduit un morcèlement du territoire Hafside⁴. Ces derniers émirs de Béjaïa, indépendants du pouvoir central de Tunis, sont à l'origine de la dynastie qui va fonder et diriger le royaume des Beni Abbès.

La fondation au début du XVI^e siècle

En 1510, sur la lancée de la Reconquista, les Espagnols s'emparent de Béjaïa qui est aux mains des émirs dissidents hafside. Ils organisent à partir de cette position des razzias dans l'arrière-pays. Les Berbères de la région cherchent protection à l'intérieur des terres et prennent pour nouvelle capitale la Kalâa des Beni Abbès, au cœur de la chaîne des Bibans. Cette ville est une ancienne place fortifiée de l'époque hammadide et une étape du triqsultan la route commerciale allant des Hauts Plateaux à Béjaïa. C'est Abderahmane, dernier des émirs de Béjaïa, qui choisit le site pour des raisons sécuritaires. Son fils Ahmed commence à être renommé, notamment pour le statut religieux auprès des tribus kabyles et arabes aux alentours qui viennent se fixer à la Kalâa, fuyant le chaos relatif dans le pays. Bénéficiant d'un soutien croissant parmi les tribus aux alentours, il se proclame «sultan de la Kalâa». Il est enterré à Takorabt, village aux alentours de la Kalâa⁵.

Le règne de son petit-fils Abdelaziz El Abbès fait sortir le nom de la Kalâa de l'anonymat : à son apogée, la cité compte 80 000 habitants⁶. C'est durant son règne que la Kalâa se dote de fabriques d'armes avec l'aide des renégats chrétiens ainsi que⁷ d'une partie des habitants de Béjaïa chassés par l'occupation espagnole, dont des andalous, musulmans, ainsi qu'une

¹- Le premier est un certain Abu Zakariya vers 1285, à ne pas confondre avec le sultan hafside du même nom, puis Abou el Baqa' en 1301 et Abu Bakr, lui-même émir de Constantine, en 1312. voir: Laurent Charles FERAUD, histoire de bougie, préface il faut revoir bougie du professeur Djamil AISSANI, éditions talantik, bejaia, 2012.

²- Souvent émirs de l'administration Hafside ou prince Hafside eux-mêmes.

³- Smail GOUMEZIANE, Ibn khaldou (1332/1406), un génie maghrébin, eddif paris, 2006, p.19.

⁴- Valérian DOMINIQUE, Bougie, un pôle majeur de l'espace politique maghrébin, éditions bouchene, paris, 2006, pp.35-101.

⁵- BENOUDJIT, op cit, p.85 voir aussi.

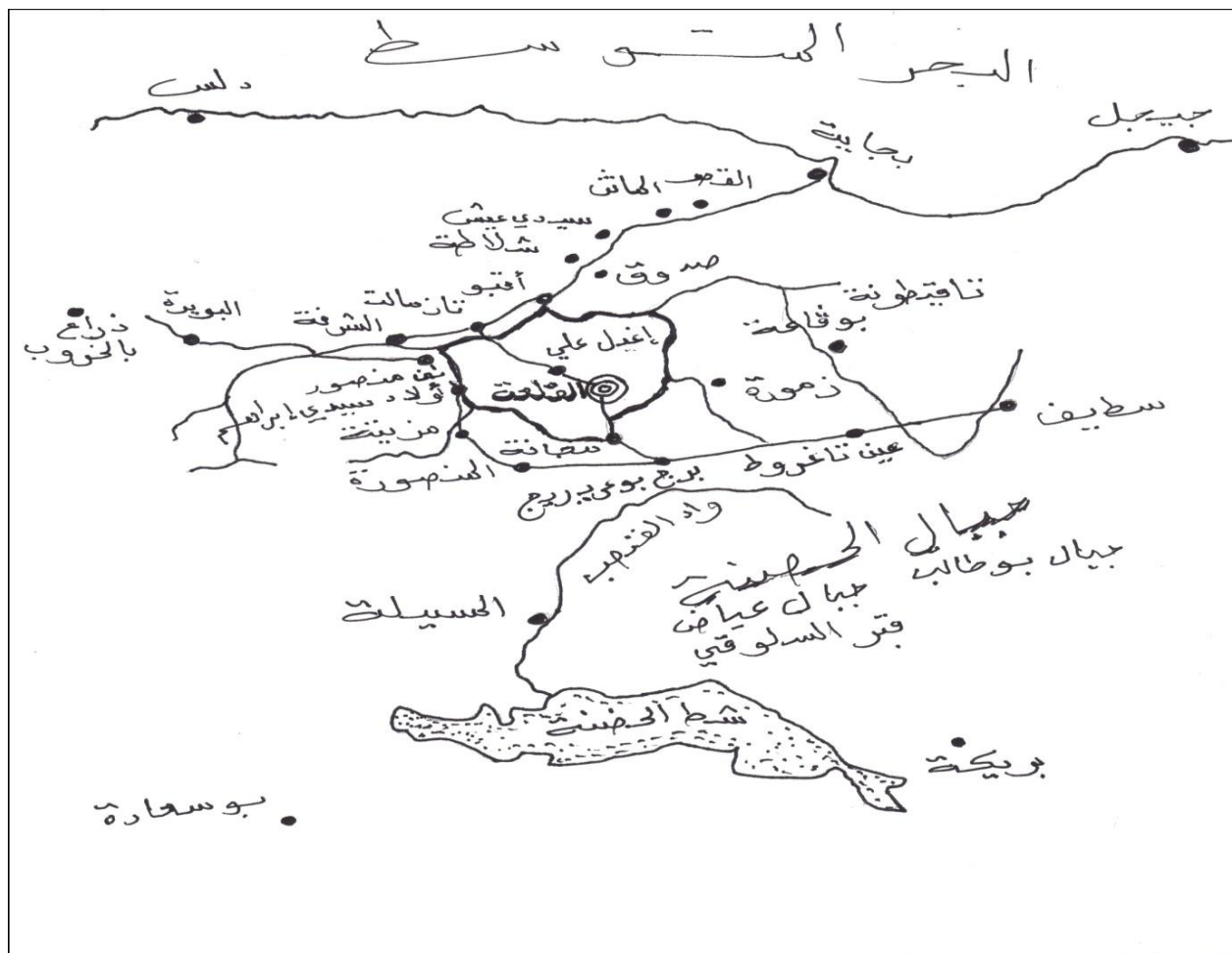
- larbi BEDDAR, royaume d'ath abbas, grandeur et décadence, éditions talantik, bejaia, 2012, pp.11-58 voir aussi.

- LOUIS Rinn, histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, librairie adolphe joourdan éditeur, Alger, 1891, p.9.

⁶- Laurent Charles FERAUD, histoire des villes de la province de Constantine, bougie, LR nolet, Constantine 1869, pp.208-211.

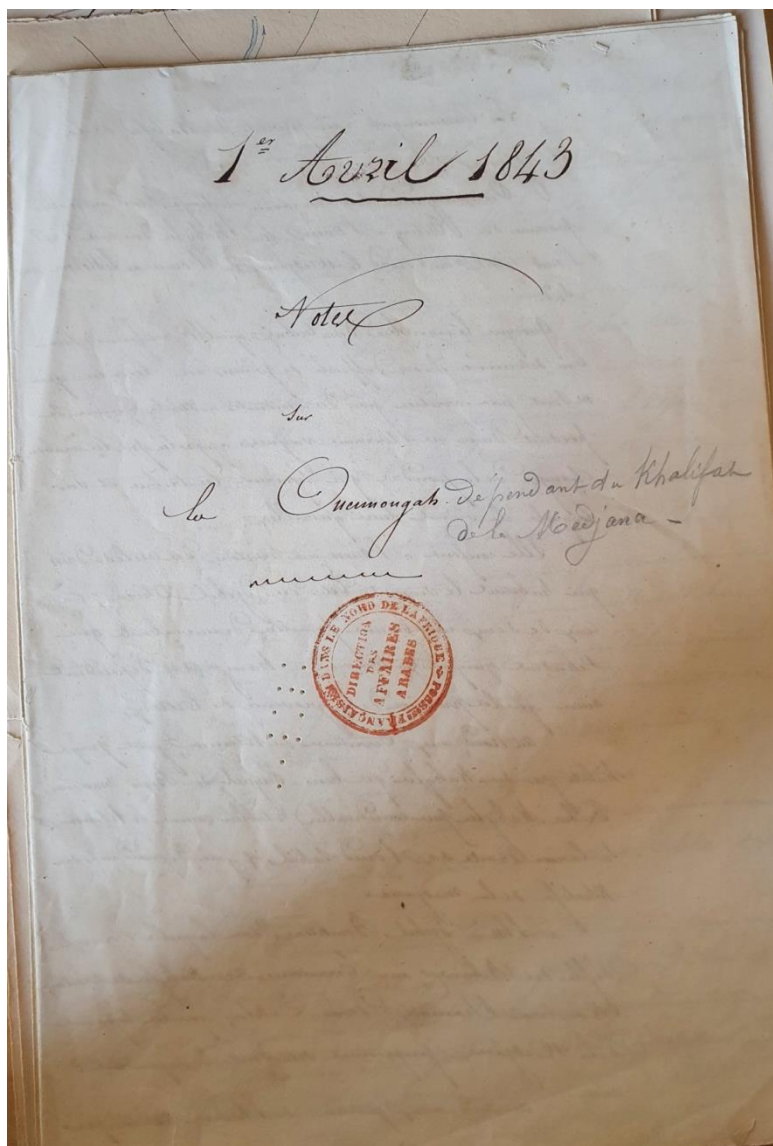
⁷- Jean MORIZOT, les kayles, propos d'un témoin, histoire et perspectives méditerranéennes, éditions l'harmattan, paris, 1985, p.57.

communauté juive qu'elle accueille en grand nombre et qui apportent leur savoir faire¹.



Carte des environs de Béjaïa au XVI^e siècle.

¹- Youcef ALLIOUI, les archs tribus berbères de kabylie, histoire,résistance, culture et démocratie, editions l'harmattan, paris, 2006, p.205.



Les ouenougha, kalaa des beni abbés d'après les anciens ouvrages. Archives de Vincennes 1H 228



Carte du royaume de Koukou (Couco) et du royaume Beni Abbès (Labez) selon carte espagnole du XVI^e siècle, conservée aux archives de Simancas.

Du fait d'annexions successives de territoires, le royaume d'Abdelaziz s'étend au sud et aux montagnes environnantes. Les Espagnols repliés dans Béjaïa lui offrent leur alliance et il ignore provisoirement l'entreprise d'établissement de la Régence d'Alger menée par les frères Barberousse car son royaume n'est pas tourné vers la mer. Les frères Barberousse, voulant isoler les Espagnols, attaquent Abdelaziz et le rencontrent aux alentours de Béjaïa en 1516. Devant la supériorité technique de leurs armes à feu, Abdelaziz se soumet à leur demande et préfère rompre l'alliance avec les Espagnols, plutôt que d'affronter tout de suite les Turcs avec des moyens insuffisants¹. En 1542, la Régence d'Alger fait du seigneur de la Kalâa, son khalifa (représentant) dans la Medjana².

Abdelaziz emploie son règne et les périodes de paix avec la Régence en particulier, à fortifier la Kalâa et à étendre son influence toujours plus au sud. Son infanterie devient un corps régulier de 10 000 hommes et il acquiert deux corps de cavalerie réguliers³. Il édifie deux borjs aux alentours de la Kalâa, avec chacun à sa tête un khalifa (représentant), chargé d'effectuer des tournées à travers son territoire⁴.

Cette puissance croissante du sultan de la Kalâa inquiète les Turcs de la Régence d'Alger qui envoient en 1550 à deux reprises des corps de troupes qu'Abdelaziz repousse. Hassan Pacha conclut donc un traité avec Abdelaziz et obtient son aide dans son expédition contre Tlemcen (1551), alors occupée par un chérif Saadien. Selon Marmol, Abdelaziz prend la tête d'un corps d'infanterie de 6 000 hommes pour l'expédition de Tlemcen. Selon Hugh Roberts, le contingent kabyle s'élève à 2 000 hommes⁵.

L'arrivée de Salah Raïs à la tête de la Régence d'Alger confirme l'alliance avec Abdelaziz. Ils mènent ensemble l'expédition contre Touggourt et Ouargla en octobre 1552. Abdelaziz envoie 180 arquebusiers et 1 600 cavaliers, qui s'ajoutent aux 3 000 arquebusiers de Salah Raïs. Les Berbères de Abdelaziz traînent les canons pour espérer apprendre à les manœuvrer et plus tard savoir les hisser sur leur forteresse de la Kalâa⁶.

Cependant l'alliance d'Abdelaziz avec les Turcs va être rompue. Deux hypothèses expliquent cette rupture selon l'historiographie espagnole. La première est que Salah Raïs tente de faire arrêter Abdelaziz lors de sa présence à Alger, le soupçonnant de vouloir soulever le pays contre la Régence d'Alger. La seconde veut qu'Abdelaziz se méfie des Turcs et de leur capacité à attaquer des villes lointaines comme Touggourt. Il craint que leur ambition à contrôler le pays finisse par faire de son royaume une cible et considère comme une faute politique le fait de les avoir favorisés à travers les deux expéditions. Les récits des Aït Abbas rapportent quant à eux que la rupture est liée à une tentative de la Régence d'Alger de faire assassiner Abdelaziz par des auxiliaires zouaouas. Les auxiliaires refusent d'assassiner un chef de la même région qu'eux et avertissent Abdelaziz de la tentative d'assassinat. Alliée avec les Zouaoua, la troupe du sultan Abdelaziz défait les janissaires qui doivent se replier à Alger et rentrent dans leur royaume⁷.

Salah Raïs, de crainte que la réputation du sultan Abdelaziz ne s'accroisse, lance une expédition vers la fin 1552 et parvient à l'hiver sur les monts de Boni à proximité de la Kalâa. Le frère de Abdelaziz, Sidi Fadel, meurt au combat mais la neige empêche les Turcs d'avancer

¹- Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, p.2014.

²- Mouloud GAID, l'Algérie sous les turcs, editios mimouni, Alger, 1978, p.9.

³- Charles Féraud, la cavalerie est «également très nombreuses», indiquant que le nombre doit être du même ordre de grandeur que celui de l'infanterie

⁴- Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, p.217.

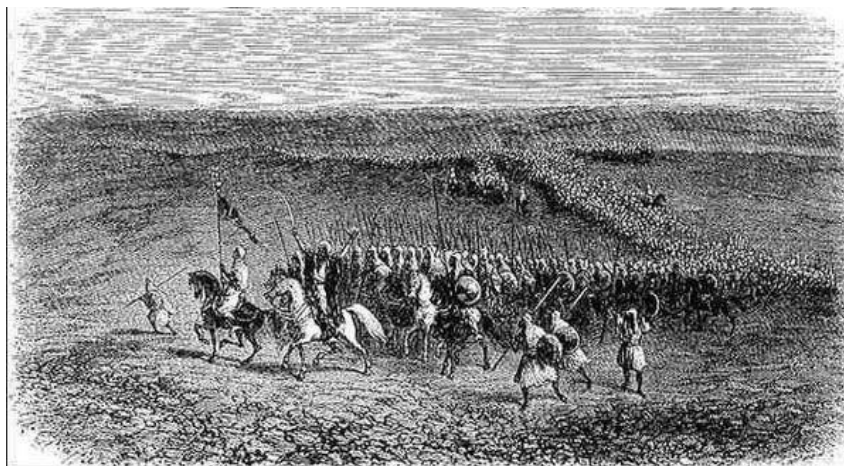
⁵- IDEM, p.219.

⁶- Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, p.219.

⁷- IDEM, pp.202.221

davantage et de profiter de leur victoire¹.

En 1553, le fils de Salah Raïs, Mohamed-bey, conduit une offensive sur la Kalâa des Beni Abbès qui se solde par un échec et de nombreuses pertes parmi les Turcs. Leur réputation est ternie par cette bataille car ils évitent un désastre grâce à l'appui des tribus arabes. Abdelaziz repousse aussi une expédition commandée par Sinan Reis et Ramdan Pacha à proximité de l'Oued el Hammam, vers M'sila. La prise de Béjaïa par Salah Raïs en 1555 confirme les craintes de Abdelaziz sur la puissance de la Régence d'Alger et il continue à fortifier ses positions dans les montagnes. Cependant, Salah Raïs meurt et le retour de Hassan Pacha permet le retour à la paix pour un an. Hassan Pacha livre la ville de M'sila et ses défenses comprenant 3 pièces d'artillerie à Abdelaziz, tout y en gardant le contrôle sur les contributions fiscales².



Les troupes de la Régence d'Alger alliées au royaume des Beni Abbès marchant vers l'Oranie.

Abdelaziz est donc en possession de la ville de M'sila et fait lever une armée de 6 000 hommes parmi les tribus environnantes, afin de prélever l'impôt normalement destiné aux Turcs de la Régence. Hassan Pacha lui déclare la guerre en 1559, reprend M'sila sans difficulté et élève le Bordj de la Medjana et le Bordj Zemoura. Ces deux forts et leurs garnisons sont immédiatement détruits par une contre-attaque de Abdelaziz qui y prend également les pièces d'artilleries pour améliorer les défenses de la Kalâa. Hassan Pacha, qui est marié avec la fille du Roide Koukou, forme une coalition avec ce dernier pour en finir avec le sultan de la Kalâa. Il mène bataille devant la Kalâa en 1559, sans arriver à la prendre et éprouvant de nombreuses pertes. Cependant, son rival le sultan Abdelaziz meurt au deuxième jour des combats et son frère le sultan Ahmed Amokrane est désigné pour lui succéder et repousse la coalition. Cette victoire décisive de la Kalâa fait abandonner pour un temps les ambitions de Hassan Pacha qui emporte la tête d'Abdelaziz à Alger comme trophée³.

¹- Antony WILKIN, among the berbers of Algeria, negro universities, press west port Connecticut, usa, 1990, p.195.

²- Louis Rinn, op cit, p 13. Voir aussi:

- Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, pp.222-223. Voir aussi.

- BENOUDJIT, op cit, p.243.

³- Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, pp.222-223. Voir aussi.

- Louis Rinn, op cit, p.13. Voir aussi.

- Antony WILKIN, op cit, p.192.

L'apogée du royaume à la fin du XVI^e siècle



Les conquêtes d'Ahmed Amokrane à la fin du XVI^e siècle.

Dès 1559, le sultan Ahmed Amokrane organise son armée et fait appel à des renégats de la Régence d'Alger et des chrétiens, autorisés à vivre selon leur mœurs et leur religion. Ahmed Amokrane lance une campagne dans le sud à la tête d'une armée forte de 8 000 soldats d'infanterie et de 3 000 chevaux. Il traverse les oasis du Zab, soumet Tolga et Biskra et va jusqu'à Touggourt où il nomme cheikh El Hadj Khichan el Merbaï, un membre d'une tribu qui lui est fidèle : les Hachem. Un proche parent de ce dernier, El Hadj Amar, est investi cheikh des oasis de Tolga et Biskra. Enfin, il nomme un khalifa dans le Sahara, AbdelKader ben Dia, qui met ensuite beaucoup d'énergie à défendre les intérêts du sultan de la Kalâa. Ahmed Amokrane met en place sur les points culminants un système de postes signaux, communiquant par feux la nuit et par fumées le jour, qui relaient les informations du Sud à la Kalâa¹.

Ahmed Amokrane se tourne ensuite vers le territoire d'Ouled Naïls qu'il soumet de Bousaada à Djelfa. La date de ces expéditions est généralement située vers 1573². Cette période constitue l'apogée du royaume des Beni Abbès, y compris au niveau de la gouvernance et de l'administration du territoire. Ahmed Amokrane ne craint pas en 1580, d'envoyer son propre fils à Alger souhaiter la bienvenue et offrir un présent à Djaffar Pacha³. Cependant, en 1590, son influence est telle que des tribus entières lui payent l'impôt, ce qui constitue des rentrées fiscales moindres pour la Régence d'Alger. Khizr Pacha rentre en guerre et assiège la Kalâa Beni Abbas durant deux mois sans pouvoir la prendre et essuyant les assauts de la cavalerie d'Ahmed Amokrane. Khizr Pacha pratique une politique de pillage aux alentours de la Kalâa, dont les villages environnants sont complètement ruinés durant le siège. Les hostilités s'achèvent grâce à la médiation d'un marabout, avec d'une part le paiement par Ahmed Amokrane d'un tribut de 30 000 douros et d'autre part le retrait de Khizr Pacha et le maintien de l'indépendance de la Kalâa⁴. En 1598, c'est les Aït Abbas d'Ahmed Amokrane qui partent en expédition et finissent par assiéger Alger : avec l'aide des Algérois, ils parviennent à forcer la porte Bab Azzoun et à rentrer dans la ville mais pas à l'occuper durablement. Le siège dure 11 jours⁵.

¹ - Laurent Charles FERAUD, *histoire des ...*, op cit, p.229.

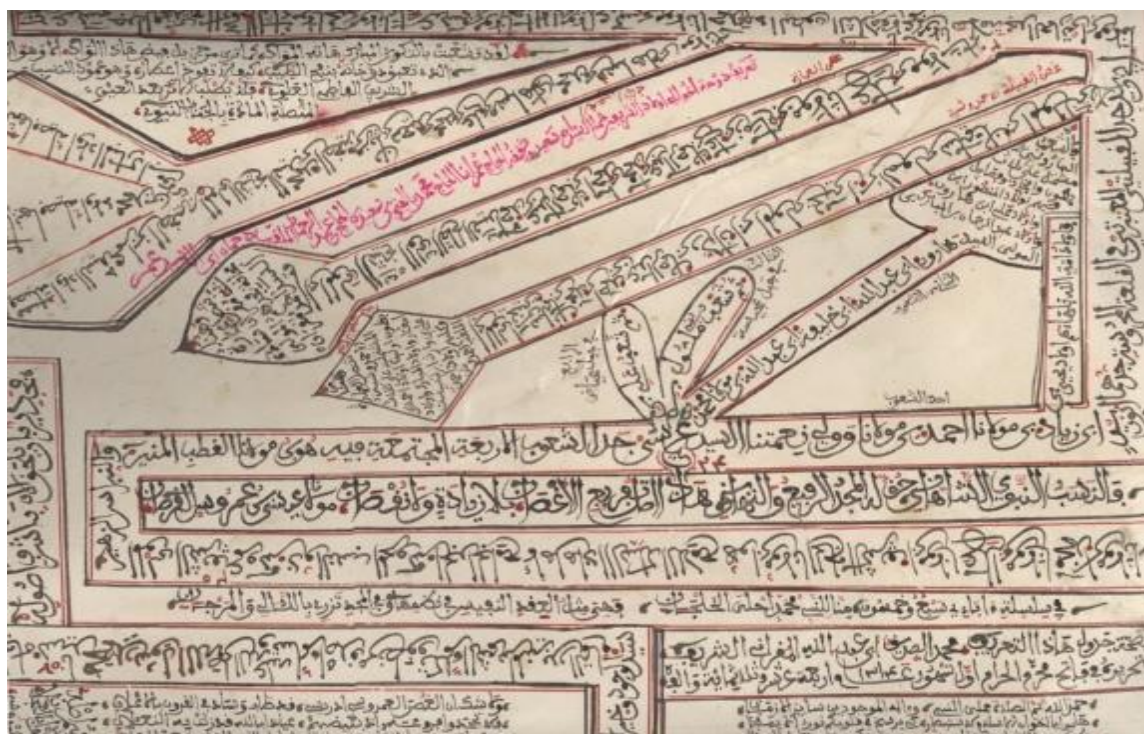
² - IDEM, pp.232-235.

³ - Mouloud GAID, op cit, p.14.

⁴ - LOUIS Rinn, op cit, p.12.

⁵ - Youssef BENOUDJIT, op cit, p.289.

Du XVII^e siècle au début du XVIII^e siècle



Arbre généalogique des Amokrane ou Mokrani selon un manuscrit familial

Vers 1600, le sultan de la Kalâa Ahmed Amokrane marche contre les troupes de Soliman Veneziano, pachad'Alger, qui veut pénétrer en Kabylie. Il bat celui-ci et fait détruire le Borj Hamzaédifié en 1595 à l'emplacement de Bouira, mais meurt au cours des combats. Il laisse le patronyme d'Amokrane (en kabyle : grand, chef), plus tard arabisé en Mokrani, à toute sa lignée¹.

Son successeur est Sidi NaceurMokrani, un homme tourné vers la religion. Il s'entoure de

¹ - LOUIS Rinn, op cit, p.14. Voir aussi.

- Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, p.259.

tolbas et de religieux, laissant périliter les affaires de son royaume. Ce désintéressement provoque la colère des chefs de l'armée et des commerçants des Aït Abbas. Ils organisent un guet-apens et l'assassinent vers 1620. Ses enfants sont sauvés et l'aîné, Si BetkaMokrani, est recueilli par la tribu des Hachem et élevé parmi eux. Il l'aident à retrouver son rang princier en le mariant avec la fille du chef de la tribu des Ouled Madi¹.

Si Betka participe le 20 septembre 1638 à la grande bataille de Guidjel qui oppose les tribus et les grands chefs féodaux du Beylik de Constantine à la Régence d'Alger et au bey Mourad lui-même. Cette bataille entraîne dans le Beylik de Constantine une indépendance accrue vis-à-vis des Turcs d'Alger. Si BetkaMokrani, pour sa part, ne va jamais reconnaître leur autorité. Il réussit à reconstituer le royaume de son grandpère, mais ne veut plus du titre de Sultan de la Kalâa et prend celui de Cheikh de la Medjana. Il bat à plusieurs reprises la tribu des Aït Abbas, mais refuse de retourner s'implanter à la Kalâa. Il meurt en 1680, dans sa forteresse de BorjMedjanaetlaisse quatre fils : Bouzid, Abdallah, Aziz et Mohammed el-Gandouz².

C'est l'aîné Bouzid Mokrani, décrit comme le sultan Bouzid³, qui exerce le pouvoir de 1680 à 1735, dans les mêmes conditions que son père en toute souveraineté vis-à-vis de la Régence d'Alger. Par ailleurs, il maintient l'équilibre dans sa famille, dont ses frères sont rentrés momentanément en dissidence. Il remporte deux conflits contre les Turcs de la Régence d'Alger, qui veulent faire traverser son territoire à leur colonne militaire pour relier Alger et Constantine. S'appuyant sur ces succès militaires, il institue un droit de passage appelé l'ouadia qui lui permet de monnayer le transit à travers son territoire à la Régence d'Alger, et notamment grâce à son contrôle sur le passage stratégique des portes de fer.

Ce droit de passage reste en vigueur jusqu'à la chute de la Régence d'Alger en 1830⁴. Ce droit de passage appliqué aux Turcs de la Régence d'Alger serait en fait une règle générale appliquée à tout passage sur le territoire du seigneur de la Kalâa victorieux des Turcs en 1553 et 1554, cette victoire faisant de lui de facto le maître du Hodna et des Bibans⁵.

Les Mokrani des Beni Abbès participent à la bataille deJijel en 1664. Comme Ali, roi de Koukou, ils refusent d'abord au bey le passage de troupes de renforts de la Régence d'Alger sur leurs territoires⁶. Cependant, ne pouvant venir à bout des Français ils font alliance, dans une optique de guerre sainte, avec le bey de Constantine et le dey d'Alger face aux armées du duc de Beaufort, commandant de l'expédition de Louis XIV⁷. Les Berbères tentent de négocier avec le duc de Beaufort retranché dans la place de Jijel, mais celui-ci refuse leurs offres de paix⁸. L'expédition se termine par une victoire berbère et turque et par un échec lourd pour l'armée de Louis XIV qui subit de nombreuses pertes, doit abandonner son artillerie sur place et faire face au naufrage du navire la Lune à son retour⁹. Les Mokrani emportent comme trophées 4 canons frappés de fleurs de lys à la Kalâa¹⁰. D'autres canons de type français sont plus tard retrouvés à la Kalâa : selon l'hypothèse la plus probable, ces canons datent de l'époque de Louis XII, offerts par François Ier à Tunis dans le cadre de son alliance aux

¹ - Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, p.261.

² - LOUIS Rinn, op cit, p.15. Voir aussi.

- Laurent Charles FERAUD, histoire de bougie....., op cit, pp.179-185.

³ - Selon Jean-André Peyssonnel qui voyagea à travers les portes de fer en 1725 à l'époque de Bouzid.

⁴ - LOUIS Rinn, op cit, p.15.

⁵ - Mouloud GAID, op cit, p.10.

⁶ - Elle de la PRIMAUDAIE, relation de gigeri, par M.gadagne, pp.160-161.

⁷ - LOUIS Rinn, op cit, p.17.

⁸ - Laurent Charles FERAUD, histoire de bougie....., op cit, pp.179-185

⁹ - Youssef BENOUDJIT, op cit, p.289.

¹⁰ - Oulhadj NAIT DJOUDI, op cit, pp.123-129.

Ottomans ; ils sont enlevés par Charles Quint et transportés à Béjaïa au début du XVI^e siècle quand elle est possession espagnole puis fournis à leur allié, le royaume des Beni Abbès ¹. Enfin, un canon plus petit témoignerait de l'existence d'une fonderie locale de canons de petits calibres dirigée par un renégat espagnol².

Dissidences et relation au Beylik de l'Est (fin XVIII^e au début XIX^e siècle)

Après la mort de Bouzid Mokrani en 1734, son fils El hadj Bouzid Mokrani prend le pouvoir après renonciation de l'ainé Mokrani. Il doit faire face à l'opposition entre deux autres de ses frères Bourenane et Abdesselam Mokrani et son cousin Aziz ben Gandouz Mokrani ³ crée un soff (صف) (note 10) dissident qui s'allie aux Turcs: les Ouled Gandouz⁴.

Les Turcs de la Régence d'Alger voulaient venger le massacre en 1737, par le cheikh de la Medjana, de toute une colonne turque et de son dignitaire en représailles d'un crime d'honneur. Fort de l'alliance avec les Ouled Gandouz et exploitant les divergences entre les frères alliés Bourenane et Abdesselam Mokrani, les Turcs infligent une défaite aux différents Mokrani vers 1740. Ils doivent abandonner la Medjana et se réfugier dans les montagnes, El hadj Bouzid se réfugie à la Kalâa des Beni Abbès. Cette période constitue le deuxième épisode de domination de la Régence d'Alger sur la Medjana après celui de 1559. Les Turcs relèvent le fort de Bordj Bou Arreridj, y installent une garnison de 300 janissaires et investissent leur allié Aziz ben Gandouz Mokrani comme caïd, à la tête de la tribu des Ouled Madi ⁵.

Les Mokrani voient d'un mauvais œil cet abaissement de leur puissance et un moqaddem de la confrérie de la Chadhiliyya va réconcilier les frères entre eux pour faire front commun face aux Turcs. Les Turcs sont défaits, le fort démoli et les janissaires survivants renvoyés au dey d'Alger avec une lettre réaffirmant l'indépendance des Mokrani. El hadj Bouzid Mokrani reprend la gestion de la plaine de la Medjana et la Régence d'Alger reconnaît son indépendance, abandonnant les prétentions à faire payer l'impôt aux tribus qui constituent le makhzen des Mokrani. Cependant, tous les ans le Cheikh de la Medjana reçoit un caftan d'honneur de la Régence d'Alger et des cadeaux comme signe d'une certaine suzeraineté. Cette diplomatie permet aux Turcs de trouver des prétextes pour intervenir dans les affaires des Mokrani ou réclamer l'appui de leur contingent⁶. La principauté dirigée par El Hadj Bouzid constitue un «État dans l'État»⁷.

El hadj Bouzid Mokrani marie sa fille Daïkra au bey de Constantine Ahmed el Kolli et meurt en 1783. Son frère Abdesselam Mokrani lui succède et son fils aîné devient son khalfia (représentant). Les Ouled Bourenane et Ouled Gandouz vont entrer en dissidence. Cette dissidence est à nouveau un prétexte pour le bey d'intervenir dans les affaires des Mokrani. Il les entretient pour affaiblir l'ensemble des Mokrani et ce sans intervenir militairement. En effet, il se contente de faire éliminer les uns par les autres et de reconnaître, par des présents, comme chef de la principauté (cheikh) celui qui est capable de verser un tribut ⁸.

Les Mokrani deviennent donc vassaux du bey, mais de manière singulière, car le bey leur paye un tribut pour le passage sur leur territoire (l'ouadia instauré par le sultan Bouzid). Le

¹ - Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, pp.180-182.

² - IDEM, p.151.

³ - Fils de Mohammed-el-Gandouz, frère cadet du sultan Bouzid ayant exercé le pouvoir de 1680 à 1734.

⁴ - LOUIS Rinn, op cit, p.15 voir aussi.

- Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, pp.250-251.

⁵ - LOUIS Rinn, op cit, p.15 voir aussi.

- Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, p.277.

⁶ - LOUIS Rinn, op cit, p.17.

⁷ - Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, p.262.

⁸ - LOUIS Rinn, op cit, p.17.

cheikh de la Medjana possède le droit régalien de rendre la justice et ne permet pas la reconstruction du fort de Bordj Bou Arreridj. Les Mokrani doivent faire face en 1806 à une révolte paysanne des tribus OuledDerradj, Madid, Ayad, OuledKhelouf, OuledBrahim et OuledTeben, menée par un certain cheikh Ben el Harche ¹. Ben el Harche, un religieux défait l'armée du bey Osmane qui meurt dans les combats 1803 ². Il s'implante au Djebel Megris, mais meurt au combat en 1806, après deux batailles contre les Mokranis, appuyé par une colonne turque du bey ³.

Après diverses luttes fratricides, il ne reste en 1825 que deux soffMokrani ayant un poids politique réel : les Ouled el Hadj et les OuledAbdesselem. Ces deux groupes sont conduits par Ben Abdallah Mokrani, alors cheikh de la Medjana. La nomination de Ahmed BeyàConstantine en 1825, lui-même parent des Mokrani, va encore réveiller certaines querelles de clan dans la Medjana ; Ahmed bey fait éliminer certains Mokrani avant d'être défait par ceux qui restent des soff dissidents des OuledBourenane et Ouled Gandouz ⁴.

Ben Abdallah Mokrani avait deux lieutenants, Ahmed Mokrani et son cousin AbdesselemMokrani. Il confie au deuxième la charge de collecter les impôts dans l'Ouannougha. Cette charge lucrative est convoitée par Ahmed Mokrani ce qui sera le point de départ d'une rivalité qui se prolonge jusqu'à l'arrivée des Français. Les deux lieutenants du cheikh de la Medjana font partie des contingents de Ahmed bey pour aider le dey d'Alger en 1830 ⁵.

¹- IDEM, p.17.

²- Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, p.273.

³- LOUIS Rinn, op cit, p.17.

⁴- IDEM, p.17-19.

⁵- LOUIS Rinn, op cit, p.19-20.

reconnaissance de leur autorité contre un appui militaire qui puisse les débarrasser de Ahmed Bey. Mais les Français ne donnent pas suite à cette demande. Une lettre similaire envoyée au bey de Tunis est interceptée par Ahmed Bey. Abdesselam Mokran finit par être capturé par surprise et emprisonné à Constantine. Ahmed Mokrani est investi cheikh de la Medjana par Ahmed Bey, à la place de Ben Abdallah Mokrani qui meurt. Il participe à la défense de Constantine en 1836 et lors de sa chute en 1837. Abdesselam Mokrani, son rival, profite de la confusion pour s'échapper lors de la prise de Constantine en 1837 ¹.

La période des khalifas: entre AbdelKader et la France



La traversée des Portes de Fer en 1839. C'est pour emprunter ce passage que depuis le XVII^e siècle, la Régence d'Alger payait un droit de passage

Ahmed Mokrani suivant momentanément Ahmed Bey vers le sud, son rival Abdesselam Mokrani en profite pour prendre possession de la Medjana. Ahmed Mokrani se replie alors sur la Kalâa des Beni Abbès fidèle à son camp. En décembre 1837, AbdelKader se rend dans l'Ouannougha pour organiser ce qu'il considère faire partie de son royaume. Abdesselam et Ahmed offrent chacun de reconnaître sa souveraineté à leurs conditions. Abdesselam Mokrani étant en position plus favorable c'est lui qui est nommé khalifa de la Medjana (représentant, seigneur de la Medjana) selon Abd El Kader². Ahmed Mokrani cherche à renverser son cousin mais celui-ci est soutenu par Hachem, les Ouled Madi de Msila et les marabouts. Même tribu des Aït Abbas pourtant favorable à Ahmed Mokrani voit naître une contestation à partir d'Ighil Ali, Tazaert et Azrou. Pour ne pas être assiégé dans sa Kalâa il doit se réfugier chez la tribu voisine des Beni Yadel à El Main³.

Il finit capturé par Abdesselam Mokrani qui se contente de l'exilé dans le Hodna. Ahmed Mokrani se présente fin juillet 1838 aux autorités françaises de Constantine. Après avoir reçu une investiture de caïd, il reçoit le 30 septembre le titre de khalifa de la Medjana pour le compte des Français qui occupent désormais Sétif ⁴. Le titre de khalifa est réservé pour les territoires dont la France n'exerce pas d'administration directe et possède les mêmes avantages que sous le gouvernement du bey. Ils perçoivent notamment l'impôt traditionnel pour le compte de l'État dont une partie leur est destinée, possèdent une garde de spahis soldée par la France et

¹- IBIDEM, p.20.

²- Mouloud GAID, histoire de bejaia et de sa region depuis l'antiquité jusqu'à 1954, editions mimouni, Alger, 1978, p.144.

³- LOUIS Rinn, op cit, p.21.

⁴- Pierre MONTAGNON, histoire de l'algérie, des origines à nos jours, editions Pygmalion, paris, 1998, p.250

gouvernent leurs sujets selon les lois musulmanes. Ces alliés sont précieux pour appuyer la présence française dans un pays qui lui est inconnu ¹.

En 1838, Abdesslem Mokrani est destitué par Abd el Kader et remplacé par son khodja (secrétaire) d'origine maraboutique. Ce qui est considéré comme un affront pour un djouadest pourtant accepté par Abdesslem Mokrani pour faire barrage à son cousin Ahmed Mokrani qui étend ses alliances et son influence. Le khalifa pousse les Français à monter l'expédition des Portes de Fer, le point de passage stratégique des Bibans, en octobre 1839 ². Ahmed Mokrani règle à ses vassaux le droit de passage que payent traditionnellement les colonnes turques de la Régence d'Alger pour que les tribus laissent passer l'armée française. Cette traversée des portes de fer permet à la France de mieux s'implanter dans la région et de relier Alger à Constantine ³.

Abdesslem Mokrani, sans réel soutien, est victime des raids de Ahmed Mokrani qui a reconstitué son fief. L'émir Abd el Kader, considérant les Portes de Fer comme partie de son territoire, déclare, à la suite de ces événements, la guerre à la France et aux chefs féodaux appuyant son action. Cependant, les conséquences de la guerre avec l'émir sont réelles dans la Medjana et Ahmed Mokrani doit se replier dans la Kalâa des Beni Abbès. Les partisans de l'émir sont finalement repoussés en 1841. Ahmed Mokrani gère son fief sans se soucier des avertissements des autorités françaises et tout en étant en contact avec le capitaine Dargent basé à Sétif ⁴.

Cependant, son statut de grand seigneur allié de la France va connaître des rétrogradations. L'ordonnance royale du 15 avril 1845 abrogea les arrêtés de 1838 et de grand vassal et allié en fit un haut fonctionnaire. Certaines tribus des Ouled Naïl, des Aït Yaala, Qsar, Sebkra, Beni Mansour, Beni Mellikech et de l'Ouannougha sont détachées de son commandement et mis sous tutelle de notables oucaïd plus dociles. En 1849, ce sont les tribus du Hodna qui sont regroupées sous un autre commandement ⁵.

Ces mesures mécontentent Ahmed Mokrani. C'est dans ce contexte qu'intervient une des figures de la résistance kabyle à la conquête française, le Chérif Boubaghla ⁶. Méconnu, en 1851, il sillonne la Medjana et la Kalâa des Beni Abbès, puis les Beni Mellikech encore insoumis. Il fait remettre à Ahmed Mokrani par le biais de son intendant de la Kalâa, un certain Djeraba ben Bouda, une lettre. Bou Baghla prône ouvertement la guerre avec les Français, mais le khalifa ne prend pas au sérieux ces déclarations. Le khalifa Ahmed Mokrani appuie mollement les colonnes françaises pour défaire le Chérif Boubaghla en 1854. Il en profite pour châtier certains villages des Aït Abbas qui furent dans le camp de son ancien rival Abdesslem, en les accusant de soutenir Boubaghla. Il meurt en 1854 à Marseille lors du retour d'une visite en France et son fils Mohamed Mokrani est nommé Bachagha ⁷.

L'effondrement de l'autorité des Mokrani et la révolte

Le titre de bachagha est une création des autorités françaises et un statut intermédiaire entre les caïds et les khalifa dont le statut trop important est destiné à être supprimé. La nomination par les autorités françaises de caïds et de commandants sur des tribus relevant de l'autorité du khalifa Ahmed Mokrani continue. En 1858, les amandes qu'il percevait en son nom et pour son compte, doivent être reversée au trésor français. L'impôt de la zekkat est institué

¹- LOUIS Rinn, op cit, p.22.

²- IDEM, p.24.

³- IBIDEM, p.25.

⁴- Pierre MONTAGNON, op cit, p.251-253.

⁵- Rinn LOUIS, op cit, p.29.

⁶- IDEM, p.31.

⁷- IBIDEM, p.32.

dans la région de Bordj Bou Arreridj alors qu'il était déjà versé en nature (nourriture, biens...) aux Mokranis. La tribu makhzen des Hachem doit également verser les impôts de l'achour et la zekkat, puis les Mokrani y sont soumis également par généralisation de la règle. Cependant en 1858 et 1859, ils en sont exemptés sous prétexte des mauvaises récoltes, en fait pour les ménager politiquement ¹.

Enfin, les oukil, qui sont les préposés et intendants des Mokrani sont remplacé par des caïd ou des cheikh relevant de l'administration coloniale. En 1859 et 1860, on supprime les droits que les chefs féodaux possèdent sur la justice et le droit de khedma. Ce droit consistait depuis l'époque du bey à un droit de gratification de la part d'un particulier quelconque au profit un porteur d'une lettre ou d'un ordre de service. Ces mesures et dégradations des situations des féodaux provoque un mécontentement général parmieux, mais il veut éviter un conflit armé désavantageux et espèrent encore que les autorités françaises finiront pas compter avec eux pour l'administration du territoire. Le discours officiel rassurant du gouvernement français et de Napoléon III sur le rôle de la féodalité algérienne ne convainc pas, car pas suivi dans les faits. Le passage de l'administration militaire vers l'administration civile décide le bachagha à quitter ses fonctions. Vers 1870 l'idée de révolte a fait son chemin chez Ahmed Mokrani, qui fait prévenir les différents caïd sous son autorité ².

Parallèlement à la situation politique, sur le plan social, les années 1865 et 1866 sont un véritable désastre pour les Algériens qui désignent ces années en arabe comme « cher ech 'am » : « les années de la misère ». En effet, à une invasion de criquet sur le Tell, puis une sécheresse qui plonge le pays dans la famine, suivent des épidémies de choléra, puis de typhus. Les féodaux dévoilent alors leur rôle de soutien de la population, en vidant leurs silos personnels puis, une fois ceux-ci épuisés, en empruntant ³. Ces emprunts vont mettre en difficulté Mohamed Mokrani ⁴.

Le 15 mars 1871 Mohamed Mokrani se joint à la révolte des spahis de l'est algérien ⁵. Il lance 6 000 hommes sur Bordj Bou Arreridj, village de colon qu'il assiège et incendie. Le 8 avril 1871, c'est la confrérie de la Rahmaniya par le biais de son chef Cheikh Aheddad qui rentre dans la révolte. L'est de l'Algérie, des environs d'Alger à Collo se soulève, avec 150 000 kabyles au plus fort de l'insurrection. Les divisions entre féodaux et religieux, mais aussi entre tribus, entravent l'efficacité du mouvement. L'armée française s'organise, face à des insurgés certes nombreux, mais souvent mal armés, elle parvient à dégager les nombreuses places assiégées ⁶. Mohamed Mokrani meurt le 5 mai 1871 à Oued Soufflat (vers Bouira) au cours d'une bataille face à l'armée française et son corps est immédiatement transféré à la Kalâa ⁷. La reddition de la Kalâa a lieu le 22 juillet 1871. Boumezrag Mokrani, successeur et frère de Mohamed Mokrani, peine à poursuivre la lutte en Kabylie puis dans le Hodna, cherchant à s'échapper avec les siens vers la Tunisie, il est finalement arrêté à Ouargla le 20 janvier 1872 ⁸. La répression, confiscation de terres ainsi que les biens des Mokrani, marque l'anéantissement définitif de leur rôle politique et de leur contrôle sur la région ⁹.

¹- LOUIS Rinn, op cit, p.35-36.

²- IDEM, p.50.

³- Pierre MONTAGNON, op cit, p.411.

⁴- IDEM, pp.411-412.

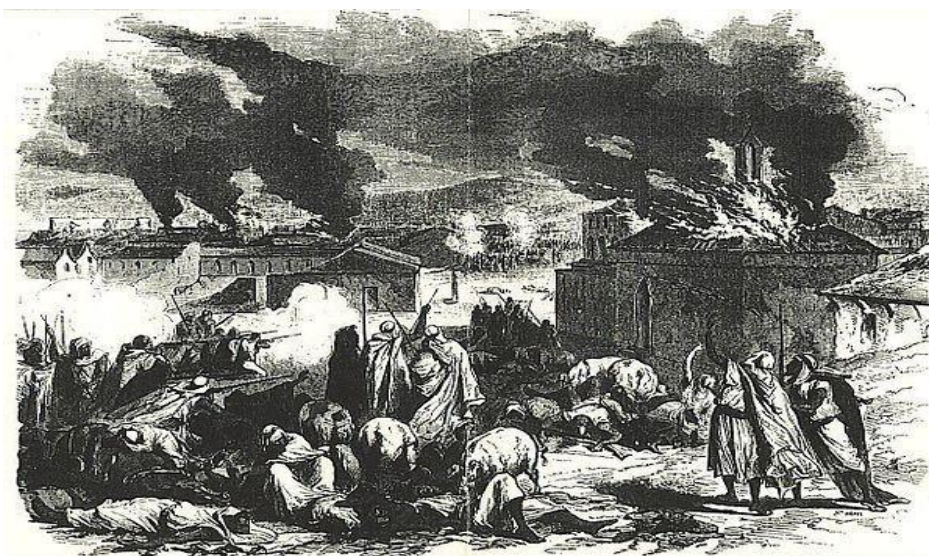
⁵- LOUIS Rinn, op cit, p.35.

⁶- Pierre MONTAGNON, op cit, pp.251-253.

⁷- LOUIS Rinn, op cit, p.350.

⁸- IDEM, p.350.

⁹- Dahbia abrous, Encadrer la naissance dans l'Algérie coloniale. Personnels de santé et assistance à la mère et à l'enfant « indigènes » (XIX^e-début du XX^e siècle), éditions belin, paris, p.22.



Siège de Bordj Bou Arreridj en 1871.

2. Relations et diplomatie

Relation avec le royaume de Koukou et l'Espagne

Le royaume des Beni Abbès doit sa fondation au repli de l'émir hafside de Béjaïa, Aberrahmane, en 1510 suite à la prise de la ville par les Espagnols commandés par Pedro Navarro. Abderrahmane se replie vers les Hauts Plateaux, terre d'émergence des dynasties Zirides puis Hammadides au Moyen Âge. Ces positions lui permettent aussi de se mettre à l'abri des raids espagnols et d'organiser la résistance pour les empêcher de pénétrer dans le pays¹. Cependant, avec l'arrivée puis l'influence grandissante des Turcs d'Alger, il établit progressivement des relations avec les Espagnols cantonnés dans Béjaïa, puis une alliance. Cette alliance provoquera l'hostilité de la Régence d'Alger, qui envoie en 1516 une expédition contre le sultan de la Kalâa qui provoquera une rupture avec les Espagnols². Enfin à prise de Béjaïa par Salah Raïs en 1555, Abdelaziz acquiert de l'artillerie et accueille une milice de 1000 Espagnols pour renforcer son armée, notamment pour la bataille de la Kalâades Beni Abbès en 1559³.

Le royaume de Koukou implanté en Kabylie de l'autre côté de la vallée de la Soummam, sera rival du royaume des Beni Abbès dans le contrôle de la région. Cette division profitera aux Turcs de la Régence d'Alger⁴. En effet, le royaume de Koukou dirigé par Belkadi fut allié des Turcs dans l'entreprise d'établissement de la Régence d'Alger, avant la date de 1519. À cette date, Belkadi pour contrer l'influence de la Régence d'Alger, va s'allier au sultan Hafside de Tunis et il inflige une sévère défaite à Khayraddin Barberousse⁵. Cette victoire lui ouvre les portes d'Alger de 1519 à 1527⁶. Ces événements ne contribuent pas à un rapprochement durable entre les deux royaumes kabyles. En 1559, le royaume de Koukou et la Régence d'Alger, forment même une coalition pour contrer l'influence grandissante du sultan de la

¹ - Nedjma Abdelfettah LALMI, sur les décombres de la ville kabaïle, éditions bouchene, paris, 2012 voir aussi.

- Nedjma Abdelfettah LALMI, du mythe de l'isolat kabyle, cahier d'études africaines, paris, 2004, p.517.

² - Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, p.249.

³ - Antony WILKIN, op cit, p.193. Voir aussi.

- LOUIS Rinn, op cit, p.11.

⁴ - Youssef BENOUDJIT, op cit, p.171.

⁵ - Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, p.216.

⁶ - Antony WILKIN, op cit, p.199.

Kalâa ¹. Le royaume des Beni Abbès possède des ambassadeurs à la cour d'Espagne², mais aussi auprès de la cour ottomane, faisant du kabyle une langue présente à l'étranger ³.

La Régenced'Alger

Au XVI^e siècle, le sultan de la Kalâa a toujours suscité l'inquiétude de la Régence d'Alger, compte-tenu de son influence importante dans la Kabylie, les Hauts Plateaux et le Sahara. Au début du XVI^e siècle, ils sont alliés face au royaume de Koukou qui occupera Alger (1520-1527), mais aussi dans les expéditions de Tlemcen puis Touggourt (1551 et 1552). Cependant, en dépit de ces alliances entre les pachas d'Alger et les sultans de la Kalâa, les conflits militaires furent nombreux à la fin du XVI^e siècle et se prolongèrent au XVII^e siècle. La Régence d'Alger n'arrivant pas à prendre la Kalâa se contentera de faire reconnaître sa prédominance souvent par le paiement d'un tribu ⁴.

Au XVII^e siècle, le sultan Bouzid, fort de ses succès militaires, impose à la Régence le paiement du droit de passage de l'ouadia et réaffirme au dey d'Alger son indépendance. Le royaume contrôle le passage stratégique des Portes de Ferappelées tiggoura en kabyle et Bibans en arabequi est un point de passage obligatoire sur la route reliant Alger à Constantine. La Régence d'Alger devait payerun tribut pour le passage de ses troupes, dignitaires et commerçants. C'est d'ailleurs dans l'Algérie de l'époque le seul endroit où le pouvoir Makhzen de la régence payait un tribut à des populations locales insoumises ⁵. Laurent-Charles Féraud (1872) cite le voyageur français Jean-André Peyssonnel, qui de voyage en Algérie en 1725 notait ⁶ :

« Ces troupes [la milice turque], si redoutables dans tout le royaume, sont obligées de baisser leurs étendards et leurs armes, en passant par un détroit fâcheux appelé la Porte de fer, entre des montagnes escarpées. La nation dite Benia-Beïd [Beni-Abbas], qui habite ces montagnes, les force à la soumission.[...] et ils s'estiment encore heureux d'être en paix avec eux, sans quoi il faudrait aller passer dans le Sahara pour aller d'Alger à Constantine. »

Cette relative indépendance vis à vis de la Régence se maintient jusqu'à la fin du XVIII^e siècle où les divisions et luttes internes entre Mokrani fait que la plupart d'entre eux sont vassalisés par le Bey de Constantine, qui leur décernera des titres de caïds pour régner sur certaines tribus des Hauts Plateaux pour le compte du Beylik de Constantine. Le cheikh de la Medjanaluimême est considéré comme un grand vassal du bey de Constantine et reçoit des présents de reconnaissance s'il peut verser un tribut. Cependant il administre son domaine comme il l'entend et exerce les droits régaliens de haute et de basse justice. La Régence continue de lui verser le droit de passage de l'ouadia et il empêche la reconstruction par la Régence du fort de Bordj Bou Arreridj ⁷. Le bey de Constantine, loin d'ignorer les branches mineures ou évincées des Mokrani, les soutient pour entretenir les divisions de la Medjana et empêcher ainsi le cheikh de constituer un danger pour son autorité dans le beylik.

L'alliance matrimoniale entre les Mokraniet la famille de Ahmed Bey (lui-même descendant de Mokrani), plonge un peu plus la Medjana dans la confusion. La nomination de Ahmed Bey en 1825 à Constantine, réveille des querelles internes aux Mokrani, desquelles Ahmed bey espère tirer parti. Cependant Ben Abdallah Mokrani, se maintient cheikh de la Medjana et prélève l'impôt dans l'Ouannougha ⁸.

¹ - Oulhadj NAIT DJOUDI, op cit p.342.

² - Youcef ALLIOUI, op cit, p.79.

³ - IDEM, p.18.

⁴ - LOUIS Rinn, op cit, pp.10-13.

⁵ - IDEM, p.13.

⁶ - Laurent Charles FERAUD, histoire des, op cit, p.249.

⁷ - LOUIS Rinn, op cit, pp.10-13.

⁸ - IDEM, p.13.voir aussi dans les annexes le concept de l'ouanougha utilisé par les français pour la description de la kalaa des beni abbes.

Relation avec le Sahara

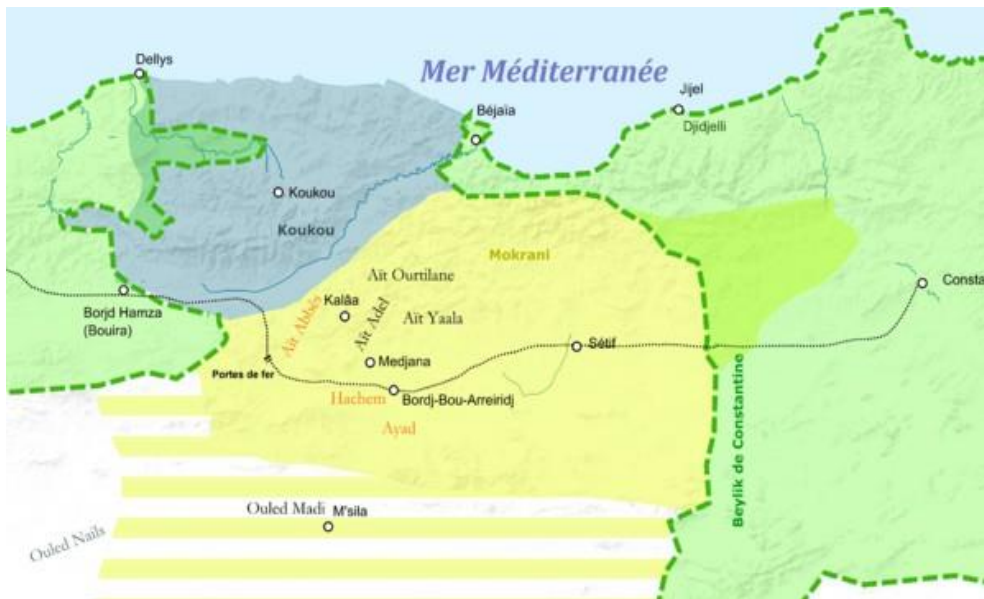
Dès le XVI^e siècle, le sultan Ahmed Amokrane pousse ses troupes dans le Sahara où il va se heurter à la confédération des Douaouidas et réduire leur domaine ¹. Il réussit à fidéliser un certain nombre de tribus et nomme un khalifa ². Cependant le contrôle sur les Zibans, Ouargla et Touggourt s'estompa dès la mort de Ahmed Amokrane et son successeur Sidi Naceur délaisse les régions sahariennes. C'est donc le chef des Douaouidas, Ahmed Ben Ali, dit Bou Okkaz, arab el cheikh ³ qui contrôle la région à la faveur du déclin des Mokrani. Il accordera sa fille en mariage à Sidi Naceur et son petitfils Ben Sakheri, avec le concours des Mokrani, est vainqueur à la bataille de Guidjel opposant le bey de Constantine aux tribus sous son commandement ⁴.

Au cours des siècles suivants, les relations commerciales restent soutenues entre les Aït Abbas et les Aït Yaala et les oasis du sud notamment Bousaada ⁵.

3. Société et culture

Pour les différents aspects de la société kabyle ancienne voir l'article Kabylie.

Société tribale et villageoise



Le territoire et les principales tribus sous l'autorité des Mokrani, dont les tribus makhzen (XVII^e et XVIII^e siècles).

La société kabyle ancienne est un ensemble de « républiques villageoises », gérant leur affaires autour d'assemblées villageoises (tajamâat), le tout rassemblé en tribus ⁶. Ces tribus entretenaient des liens avec les dynasties locales médiévales, Zirides, Hammadides puis Hafsides. La prise de Béjaïa par les Espagnols ne va pas éteindre les liens entre tribus, du fait de la fondations de seigneuries désignés par les Espagnols comme les « royaumes » des Aït

¹ - Ernest MERCIER, histoire de l'Afrique septentrionale, berbérie, jusqu'à la conquête française en 1830, éditions Hachette livre, Paris, 1891, p.206.

² - IDEM, p.207. Voir aussi.

- Laurent Charles FERAUD, histoire des ..., op cit, p.250.

³ - titre donné au cheikh contrôlant le Zab.

⁴ - Ernest MERCIER, op cit, p.207. Voir aussi.

- LOUIS Rinn, op cit. pp.13-17.

⁵ - Ernest CARETTE, exploration scientifique de l'Algérie, étude sur la Kabylie proprement dite, imprimerie nationale, Paris, 1849, pp.406-407.

⁶ - Nedjma Abdelfettah LALMI, du mythe..., op cit, pp.515-520.

Abbas, de Koukou et d'Abdeldjebbar¹. Les liens entre ces seigneuries et Tunis alors ville Hafside sont avérés durant le XVI^e siècle. La question de l'existence du royaume de Koukou et du royaume Beni Abbès se pose dans une société où l'émiettement en plusieurs républiques jalouses de leur indépendance est la règle jusqu'au XIX^e siècle. Précédant ces royaumes, la société kabyle a connu d'autres chefferies antérieures. Durant l'époque hafside en 1340, une femme exerce le pouvoir secondé par ses fils chez les Aït Iraten².

En effet, la question des royaumes kabyles, pose la question de leur relation aux autres «États» et «Cités» d'une part et celle de leur relation à la structure tribale d'autre part. Les kabyles sont structurés en communautés rurales qui doivent assurer leur autonomie face à l'hégémonie des seigneuries, notamment sur le plan fiscal et de la maîtrise des ressources (les forêts et leurs richesses). Sur un autre plan, ces communautés doivent également apporter leur soutien aux seigneuries face à la pression d'un «État central», celui de la Régence d'Alger³. Les tribus des Beni Abbas, Hachem et Ayad sont réputées tribu makhzen des Mokrani et les deys reconnaissant tacitement l'indépendance des Mokrani, ne réclament pas d'impôts à ces tribus⁴.

Le rôle et la structure des «républiques villageoise» kabyles, autour de la tajmâat, sans être un particularisme kabyle ou une structure immuable de la société kabyle, serait dû à la chute de l'État hafside dans cette région. Ce rôle des tajmâat conditionne la relation de Kabylie aux états centraux. Son existence doit être replacée dans son contexte maghrébin pour plus de cohérence et être vu non comme une particularité, sinon une structure commune au Maghreb ayant, dans le contexte historique de la Kabylie, prit un rôle important⁵.

Les Mokrani (désignés en kabyle sous le nom d'Aït Mokrane) constituent une aristocratie guerrière, qui socialement va connaître la concurrence de mouvements religieux : c'est le cas notamment de la famille Ben Ali Chérif dans la vallée de la Soummam⁶. Il faut aussi noter le rôle important des confréries et marabouts, dont la Rahmaniya, fondée en 1774, qui va gagner en influence en Kabylie. C'est avec l'appui de cette confrérie que Mohamed Mokrani lance la révolte de 1871⁷, dont l'échec marque définitivement la fin du rôle politique des Mokrani sur la région⁸.

Hocine El Wartilani, un savant du XVIII^e siècle, issu de la tribu des Aït Ourtilane, donne son opinion en 1765 qui devait être partagée parmi les kabyles sur le pouvoir des Mokrani, selon laquelle ces derniers «tyrannisent» pour se venger de la perte de leur suprématie dans la région (tributaire de la Régence) et depuis l'assassinat de leur ancêtre Sidi Naceur Mokrani⁹, vers 1600, ses descendants exerceraient sur la région une forme de vengeance¹⁰.

D'autre part les Mokrani, s'appuyant sur l'usage de leurs ancêtres (imgharen Naït Abbas), aident les populations en fournissant un minimum à ceux qui se présentent à la Kalâa. Cette

¹- Selon Nedjma Abdelfettah Lalmi, ce royaume aurait été fondé dans la vallée de la Soummam à environ 30 km de Béjaïa.

²- Nedjma Abdelfettah LALMI, du mythe..., op cit, pp.515-520.

³- Nedjma Abdelfettah LALMI, du mythe..., op cit, pp.515-520.

⁴- LOUIS Rinn, op cit. p.16.

⁵- Nedjma Abdelfettah LALMI, du mythe..., op cit, pp.515-520. Voir aussi.

-Tassadit yacine TITOUH, sit u m'aimes guéris-moi, études d'ethnologie des affects en kabylie, éditions de la maison des sciences de l'homme, france, 2006, pp.12-13.

⁶- Dahbia abrous, op cit, p.3.

⁷- Nedjma Abdelfettah LALMI, du mythe..., op cit, pp.517.

⁸- Dahbia abrous, op cit, p.3.

⁹- Ce sultan fut victime d'un complot des Aït Abbas notamment, à cause de sa mauvaise gestion

¹⁰- Laurent Charles FERAUD, histoire des ..., op cit. p.239.

tradition remonterait aux premiers princes des Aït Abbas ¹. Il semblerait également que la tribu des Aït Abbas fut fondée en même temps que le royaume de la Kalâa, peu après la prise de Béjaïa en 1510. En effet, les émirs hafsides de Béjaïa, ancêtres des Mokrani, s'installant à la Kalâa, ont rassemblé une nouvelle tribu autour de leur centre de pouvoir ². Le royaume de Beni Abbès représente dans la région l'absence de rupture totale du lien à l'État, établi depuis longtemps notamment avec les Hafsides (1230-1510), les Almohades (1152-1230) et les Hammadides (1065-1152) ³. Les invasions hilaliennes au XIe siècle ravivant le nomadisme, puis plus tard la politique administrative et de guerre de la Régence d'Alger, vont avoir pour effet tardif et indirect de « retribaliser » la Kabylie où sous le revêtement pseudo-étatique les structures traditionnelles se sont maintenues. Au XVIIe siècle, la société kabyle va être profondément marquée par un afflux de populations fuyant l'autorité de la Régence et qui vont lui donner le caractère de montagne surpeuplée qu'elle gardera jusqu'à l'indépendance algérienne ⁴. Louis Rinn, détaille l'éclatement des Mokrani en différents camps rivaux, chefferies et commandements tribaux dès le XVIIe siècle réduisant l'aire d'influence réelle des chefs des Beni Abbès et de la Medjana et les rendant dans une moindre mesure tributaire de la Régence d'Alger à partir de la fin du XVIIIe siècle et surtout au XIXe siècle ⁵.

Culture savante



Copie d'un ancien manuscrit sur la généalogie du saint Sidi Yahia ElAidli.

La Kabylie est constituée d'un réseau de zaouïas, siège d'une véritable connaissance écrite dans une société marquée par l'oralité berbère. Cette « Kabylie écrivant » est une véritable « montagne savante » ⁶. Le cas le plus marquant est celui de la tribu des Aït Yaala dont la réputation est vantée par un proverbe local : « Au pays des Beni Yaala, poussent les oulémas, comme pousse l'herbe au printemps ». Certains n'hésitent pas à comparer le niveau d'érudition des Aït Yaala à celui des universités de la Zitouna (Tunis) ou de la Qaraouiyine (Fès). Sur le plan politique, la tribu des Aït Yaala était rattachée au cheikh de la Medjana qui nommait les caïds de la région ⁷.

¹ - Youcef ALLIOUI, op cit, p.97.

² - Laurent Charles FERAUD, histoire des ..., op cit. p.239.

³ - Nedjma Abdelfettah LALMI, du mythe..., op cit, pp.517.

⁴ - Tassadit yacine TITOUH, op cit, pp.13-14.

⁵ - LOUIS Rinn, op cit. p.16.

⁶ - Nedjma Abdelfettah LALMI, du mythe..., op cit, pp.517, voir aussi.

- LOUIS Rinn, marabouts et khouan, études sur l'islam en Algérie, adolphe jourdain librairie éditeur, paris, 1884.

⁷ - Mouloud GAID, les ..., op cit, p.59.

Cette tradition lettrée de l'époque doit être replacée dans son contexte géographique. En effet, la montagne a toujours joué un rôle important pour la plaine (export des surplus de production, migration saisonnière etc.) et la Kabylie est à l'interface de grandes villes côtières (Béjaïa, Alger, Dellys...). Le contexte historique est aussi important. En effet, l'implantation de l'écrit savant, dans un lieu où il n'est pas forcément attendu (arrièrepays montagneux) serait lié à des facteurs historiques : l'intense relation à cette époque entre la montagne et les cités proches et l'usage des montagnes kabyles comme refuges par des élites de tout ordre durant les périodes de crises ou de guerres. En effet, il faut noter le rôle capital de Béjaïa, comme place intellectuelle du Maghreb central et les liens avec l'Andalousie puis l'afflux de réfugiés andalous. Ce statut d'utilisation de l'écrit dans l'interaction de l'arrière pays avec les cités serait donc antérieur à la période ottomane ¹.

L'usage de l'écrit en pays kabyle dépasse le cadre de l'usage savant. Lors de la colonisation, au XIXe siècle la quasitotalité des Aït Yaala possédait déjà des actes de propriété, ou des contrats rédigés par des cadis ou des lettrés locaux. Féraud rapporte également que des actes de propriété édités par l'administration Ahmed Amokrane aux fellah, étaient retrouvés chez quelques individus au XIXe siècle ². L'exhumation de la bibliothèque du Cheikh El Mouhoub datant du XIXe siècle confirme cette implantation de l'écrit en pays berbère ; avec un fonds de plus de 500 manuscrits, d'origines et d'époques variés traitant de divers sujets : fiqh, adab, astronomie, mathématiques, botanique, médecine.

Au niveau de la tribu des Aït Yaala, les bibliothèques sont désignées en kabyle sous le nom de tarma, mot qui est sûrement d'origine méditerranéenne (car commun de l'Irak au Pérou pour désigner les bibliothèques) et témoignerait de l'apport de réfugiés andalous ou de lettrés béjaouis, mais aussi du déplacement des lettrés locaux. Ces éléments indiquent que les villages loin d'être renfermés sur eux-mêmes et sont en lien avec le monde ³. Ces apports et interactions avec les savoir-faire du monde méditerranéen (béjaoui, andalous, juifs, etc.) se retrouvent également dans l'artisanat du Guergour (tapis, orfèvrerie...). Cependant loin d'être uniquement un réceptacle du savoir méditerranéen, la montagne kabyle est en interaction avec d'autres régions ⁴.

La Kalâa des Beni Abbès surnommée en kabyle « l'qelâa ta3assamt », « Kalâa la merveilleuse », est aussi une cité prestigieuse dans cette région ⁵. En effet, la Kalâa et le massif montagneux des Bibans sont également le siège d'un milieu intellectuel actif ⁶.

4. Architecture

Les villages des Aït Abbas présentent une architecture et un certain raffinement citadin qui tranche avec leur statut de village kabyle. Ce raffinement serait dû essentiellement à leur passé florissant de l'époque du royaume des Beni Abbès. Les maisons d'Ighil Ali sont similaires à celles de la casbah de Constantine ; les maisons sont étagées avec balcons et arcades. Sur le plan urbain, les ruelles sont étroites et pavées, contrastant avec l'aisance des demeures. Les portails sont en bois dur, taillé avec des rosaces et divers motifs ⁷. Les maisons de la Kalâa sont décrites comme en pierre et couvertes de tuiles ⁸. Selon Charles Farine qui a visité la Kalâa au XIXe siècle, les maisons de la Kalâa sont spacieuses, avec cours intérieures, ombragées

¹ - Nedjma Abdelfettah LALMI, du mythe..., op cit, pp.524.

² - Laurent Charles FERAUD, histoire des ..., op cit. p.239.

³ - Nedjma Abdelfettah LALMI, du mythe..., op cit, pp.524.

⁴ - IDEM, p.525.

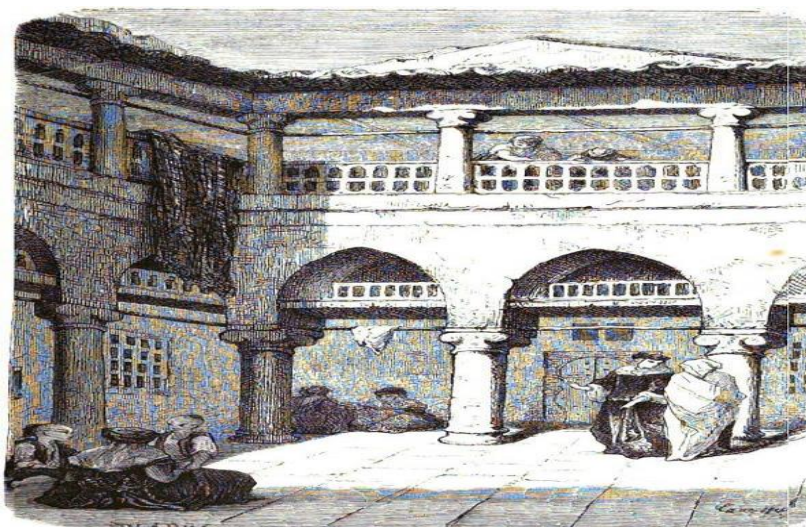
⁵ - Youcef ALLIOUI, op cit, p.113.

⁶ - Djamil AISSANI, le milieu intellectuel des bibans à l'époque de la qalaa des beni abbes Extrait de conférence à l'occasion du 137e anniversaire de la mort d'El Mokrani, 2008.

⁷ - « Ighil-Ali », Encyclopédie berbère, no 24, 2011, p.3675-3677.

⁸ - Louis Piesse, Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie, comprenant le Tell et le Sahara : 1830- 1871, Paris, Hachette, 1862, p.511.

d'arbres et de plantes qui grimpent aux galeries. Les murs sont recouverts de chaux. La Kalâa reprend l'architecture des villages kabyles, très agrandie et complétée de fortifications, de postes d'artillerie et de guet, de casernes, d'armureries et d'écuries pour les unités de cavalerie¹. La Kalâa possède aussi une mosquée d'architecture berbère andalouse encore conservée². Les travaux d'ouvrages militaires sont menés essentiellement par Abdelaziz El Abbès au XVI^e siècle, comme la casbah surmontée de quatre canons de gros calibres³ et le mur d'enceinte édifié suite à la première expédition ottomane en 1553⁴. Cependant, de nos jours, la Kalâa est dans un état délabré à cause des bombardements durant les conflits avec l'armée française et les 3/5 des édifices sont en ruines⁵.



Cour intérieure d'une maison de la Kalâa (v.1865).



Vue sur la Kalâa des Beni Abbès

¹- Youssef BENOUDJIT, op cit, pp.139.

²- Ghania Moufok, « Kabylie, sur les sentiers de la belle rebelle », Géo « Algérie La renaissance », no 332, 2006, p.100-108.

³- Recueil des notices et mémoires de la Société archéologique de Constantine, vol. 44, Constantine, Arnolet, 1910, p.108.

⁴- Youssef BENOUDJIT, op cit, pp.244.

⁵- Mahfoud Kaddache, Et l'Algérie se libéra, Paris, Paris-Méditerranée, 2003, p.54.

5- Économie

Ressources naturelles et agriculture

L'économie kabyle ancienne ¹ combine une pauvreté des ressources naturelles et une forte densité de populations. Cet équilibre est connu dès l'époque d'Ibn Khaldoun. Antérieurement à la présence française, la production est essentiellement vivrière dans un espace montagneux et limité. Ce mode productif est sujet aux catastrophes naturelles (sécheresse) ou aux événements politiques (conflits). La viabilité du système ne peut être comprise qu'à la lumière de l'organisation sociale, lignagère et liée à la terre ².

L'économie des Aït Abbas et l'économie kabyle en général donne une place importante à l'arboriculture et l'horticulture qui n'offrent que peu de ressources d'où une intense activité commerciale et manufacturière ³. Au départ implanté dans les environs de la Kalâa au XVI^e siècle, les Mokrani vont se rendre maître de la Medjana (désignée en kabyle comme Tamejjant) ⁴ au sud dont les étendues sont fertiles ⁵. Les Aït Abbas cultivent en abondance l'olivier, pour son huile, utile au commerce et à l'artisanat. Les céréales, le figuier et la vigne sont aussi cultivés et séchés. Leur territoire produit en outre un grand nombre de figes de barbarie. L'élevage est également pratiqué et fournit une quantité importante de laine ⁶. L'économie kabyle ancienne repose sur une sorte de division du travail et un flux d'échange entre la montagne et la plaine, notamment les villes. En temps de paix, ces échanges profitent largement aux Kabyles. Le travail agricole mobilisait une famille, sans recourt à une main d'œuvre extérieure excepté dans des cas nécessitant l'entraide entre différentes familles: c'est la pratique de tiwizi. La rareté des terres agricoles force les paysans à mettre en valeur la moindre parcelle de terrain grâce à des combinaisons culturelles. Les arbres et les herbes y jouaient un rôle important ce qui leur permettait de produire des fruits, de l'huile d'olive et pratiquer l'élevage (ovin, caprin et bovin). Des associations avec des propriétaires fonciers des plaines permettaient de s'approvisionner en blé et en orge qui constituent la base de l'alimentation ⁷. La Kalâa, elle, trouvait ses ressources agricoles dans la plaine de la Medjana réputée pour sa fertilité ⁸. Une branche mineure et maraboutique des Mokrani, des environs de Béjaïa, règne également sur l'exploitation locale du bois pour le compte de la flotte ottomane : la karasta ⁹.

Commerce

Le royaume des Beni Abbès contrôle le passage stratégique des portes de fer sur la route reliant Alger et Constantine. Depuis le XVII^e siècle, la Régence verse un droit de passage : l'ouadia, pour l'emprunter ce qui constitue une source de revenu pour les Ait Abbas et les Mokrani ¹⁰. La Kalâa se situe également sur le triqsultan, route royale reliant le sud à la ville de Béjaïa, depuis le Moyen Âge, celle de la mehalla ¹¹. Les conquêtes de Ahmed Amokrane vers la fin du XVI^e siècle ont ouvert de nombreux débouchés vers le sud

¹ - On désigne par économie kabyle ancienne le système en vigueur jusqu'au XIX^e siècle.

² - Saïd Doumane, « Kabylie : Économie ancienne ou traditionnelle », *Encyclopédie berbère*, no 26, 2004, p.2.

³ - Hugh Roberts, *Berber Government : The Kabyle Polity in Precolonial Algeria*, Boston, I.B.Tauris, 2014, p.34. voir aussi.

- Youssef BENOUDJIT, op cit, p.330.

⁴ - Youcef ALLIOUI, op cit.

⁵ - Jean Morizot, op cit, p.59.

⁶ - Ernest CARETTE, op cit, p.357.

⁷ - Saïd Doumane, op cit, p.3.

⁸ - Jean Morizot, op cit, p.58.

⁹ - Nedjma Abdelfettah LALMI, op cit, p.521.

¹⁰ - Youssef BENOUDJIT, op cit, p.86.

¹¹ - Expédition chargée de collecter l'impôt. voir aussi.

- Nedjma Abdelfettah LALMI, op cit, p.521.

(Ziban, Touggourt...). Cependant avec l'inaction politique de Sidi Naceur arrivé au pouvoir en 1600, va relâcher les liens avec les tribus du sud tributaires qui retrouvent leurs habitudes d'indépendance. Les conquêtes d'Ahmed Amokrane ainsi perdues sont autant de débouchés commerciaux en moins pour les Aït Abbas et les tribus sahariennes encore sous l'autorité de la Kalâa, chez qui le commerce occupe une position très importante. Ces mauvaises affaires les poussent à faire assassiner le sultan Sidi Naceur¹.



Fondouk des Aït Abbas à Constantine (fin XIX^e siècle).

La place du commerce dans l'économie locale fait que les marchands (ijelladen) sillonnent tout l'espace algérien. Dès le début du XVI^e siècle, le commerce de grains avec les Espagnols, enclavés dans Béjaïa est attesté². Le royaume s'étendant au sud, une des voies de commerce concernait également cette région, relais du commerce transsaharien. Une des principales villes concernées est Bousaada et M'sila une étape sur sa route, fréquentée par les marchands des Aït Abbas, Aït Yaala et Aït Ourtilane, mais aussi en dehors du domaine des Mokrani, par des commerçants Zouaouas. Les tribus kabyles y exportent de l'huile, des armes, des burnous, du savon et des ustensiles en bois pour en importer de la laine, du henné et des dattes³. Le commerce est aussi effectué avec les villes relevant de la Régence d'Alger, notamment Constantine qui voit arriver les marchands des Aït Yaala, Aït Yadel et Aït Ourtilane. Les artisans armuriers des Aït Abbas fournissaient Ahmed Bey⁴. Comme les tribus de Aït Yaala et de Aït Ourtilane, les Aït Abbas possèdent un fondouk à Constantine. Les Aït Yaala en possèdent également un à Mascara⁵. Cependant les marchands préfèrent le port de Béjaïa qui est leur marché naturel et débouché vers la mer. Enfin, au-delà de la Régence d'Alger, les Aït Abbas et Aït Ourtilane vont commercer vers Tunis et les burnous produits, dont le burnous rayé des Aït Abbas sont prisés jusqu'au Maroc⁶. Les Aït Abbas sont les plus réputés pour le commerce et présents dans de nombreuses villes. Le commerce peut aussi servir à apporter des matériaux de qualité supérieure comme les fers d'Europe, importé par la Régence d'Alger et préféré aux fers locaux de qualité moindre⁷. Sur le plan interne aux tribus, il faut aussi noter l'existence sur leurs territoires de souks (au pluriel leswaq) hebdomadaires,

¹- Laurent Charles FERAUD, histoire des ..., op cit. p.236.

²- Youssef BENOUDJIT, op cit, p.86.

³- Ernest CARETTE, op cit, p.406.

⁴- « Ighil-Ali », Encyclopédie berbère, op cit, p.3675.

⁵- Nedjma Abdelfettah LALMI, op cit, p.520.

⁶- Ernest CARETTE, op cit, p.407.voir aussi.

- Jean Morizot, op cit, p.122.

⁷- Youssef BENOUDJI, op cit, p.336.

jouant un rôle dans les échanges internes. Pour les Aït Abbas, il y en a quatre dont un le jeudi à la Kalâa. Les Aït Abbas et les tribus lointaines, extérieures à la Kabylie, fréquentent le souk de la Medjana, à proximité de Bordj Bou Arreridj le dimanche¹.

Artisanat



Porte de la région d'Ighil Ali.

En plus de cultiver la terre, les tribus kabyles ont toujours fabriqué localement ce qui leur était nécessaire, en plus d'alimenter leur commerce extérieur par ces productions manufacturières. La transformation des métaux, dont le fer, existe dans plusieurs tribus, dont certaines sont spécialisées comme les Aït Abbas. Très répandue, cette activité répondait aux besoins agricoles, nécessitant des outils et instruments au quotidien. Les ihheddaden (forgerons) faisaient preuve d'une grande habileté et leur production était variée. La présence de forêts en Kabylie a permis des activités liées à l'exploitation du bois. Comme pour les métaux, les usages agricoles et domestiques (métier à tisser, etc.) concernent de nombreux produits. Il existe aussi une confection d'objets de menuiserie et d'arts (portes, toitures, coffres et meubles sculptés). Il faut aussi noter l'exportation de certaines essences pour les chantiers navals ottomans, ou vers la Tunisie et l'Égypte. Le tissage de la laine est aussi présent dans toutes les maisons, majoritairement activité féminine, il en ressort une production de vêtement (burnous), tapis et couvertures. Enfin d'autres activités comme la poterie, la vannerie et la sellerie sont au moins aussi importantes et il existe une fabrication locale de savon, tamis, tuile, plâtre et une exploitation du palmier nain².

La tribu des Aït Abbas est connue comme riche et commerçante, mais aussi industrielle. Les richesses des Mokrani sont gardées à la Kalâa, mais il est probable qu'elles sont investies dans le commerce et l'artisanat où elles sont susceptibles de produire des richesses³. D'après Carette, elle est au Tell ce que les Mzab sont au Sahara. La principale activité est la fabrication des burnous rayés, très prisés, tissés par les femmes et cousus par les hommes avec le plus grand soin et propreté⁴. Le savon lui-même n'est pas rare et fabriqué en quantité dans tous les villages des Aït Abbas, d'une part grâce à la présence abondante de l'olivier et donc de l'huile d'olive et

¹ - Ernest CARETTE, op cit, p.358.

² - Saïd Doumane, « Kabylie : Économie ancienne ou traditionnelle », op cit, p.4.

³ - Youssef BENOUDJIT, op cit, p.334.

⁴ - Selon Carette, qui a visité les Aït Abbas au début du 19^{ème} siècle, les artisans, hommes ou femmes, ne se mettent jamais à l'ouvrage sans s'être lavé les mains

de la soude obtenue à partir des cendres de myrte. En outre, les Aït Abbas possèdent aussi des industries d'armes à feu ¹.

¹ - Ernest CARETTE, op cit, p.358.

جوانب من الحياة الاجتماعية في إمارة ومشيخة المقرانيين في القلعة ومجانة خلال العهد العثماني

لخضر بوطبة - جامعة سطيف 2

تعتبر الدراسات الاجتماعية في تاريخ الجزائر خلال الحكم العثماني قليلة رغم أهميتها في التأريخ لهذه الفترة، وقد بدأ الباحثون الجزائريون في الاشتغال على مثل هذه المواضيع في الآونة الأخيرة، مع أن المشتغلين بها قليلون لكنهم يمشون بخطى ثابتة تعد بمستقبل زاهر لهذا النوع من الأبحاث، ولهذا ارتأينا أن تكون مساهمتنا في تسليط الضوء على بعض الجوانب عن الحياة الاجتماعية لإمارة الأسرة المقرانية¹ بقلعة بني عباس خلال القرن السادس عشر، ومشيخة مجانة مع مطلع القرن السابع عشر حتى الاحتلال الفرنسي لبابلك الشرق الجزائري بسقوط مدينة قسنطينة في يد المستعمر سنة 1837م.

1- لمحة تاريخية عن أسرة أولاد مقران خلال العهد العثماني:

شهدت منطقة البيان الواقعة في الجهة الغربية من بابلك والشرق الجزائري ظهور إمارة تحت حكم أسرة أولاد مقران في قلعة بني عباس² بمطلع القرن السادس عشر الميلادي، وقد تزامن تأسيسها مع حدثين محوريين في تاريخ الجزائر الحديث، الأول يتمثل في سقوط بجاية بيد الاحتلال الإسباني سنة 1510م³، والثاني تواجد الإخوة بربوس في المنطقة المغاربية والحوض الغربي للمتوسط في إطار عملية إنقاذ المسلمين الأندلسيين من الإبادة الجماعية على يد الإسبان ونقلهم إلى السواحل المغاربية بأمان⁴.

¹ - تجدر الإشارة إلى أن الأسرة أخذت اسمها الذي تشتهر به عن أحد سلاطين قلعة بني عباس وهو أمقران ابن السلطان عبد العزيز الذي خلفه في حكم الإمارة سنة 1559م بعد مقتل والده في إحدى المعارك مع الجيش العثماني، لمزيد من التفاصيل أنظر كتابنا: أسرة أولاد مقران خلال العهد العثماني (1518-1838م)، دار الكوكب للعلوم، الجزائر، 2021م، ص28 وما يليها.

² - ينسب البعض بني عباس إلى العباس أحد أبناء سلطان بجاية الحفصي عبد العزيز المشهور بأبو العباس، وهو آخر السلاطين الحفصيين الذين حكموا بجاية، لمزيد من التفاصيل حول بجاية في أواخر العهد الحفصي وتأسيس قلعة بني عباس، أنظر: (لخضر بوطبة: بجاية خلال العهد العثماني (1555-1833م)، أطروحة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2017م، ص34 وما يليها).

³ - في ظل الوضع السياسي البائس لدويلات المغرب العربي الذي تتميز بالضعف والتمزق شن الإسبان في إطار حروب الاسترداد حملات بحرية شرسة على سواحل المغرب، فسقطت مدنه الواحدة تلو الأخرى، ولم ينقذ الموقف سوى ظهور الأخوة بربوس الذين ربطوا مصير هذه المنطقة بالدولة العثمانية التي كانت في أوج قوتها، لمزيد من التفاصيل راجع (عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م، ج4، ص50-51، مجهول: غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، المطبعة التعاليمية، الجزائر، 1934م، ص18، عزيز سامح التز: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة علي محمود عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م، ص71).

- Corinne (Chevalier): Les Trente Années de l'Etat d'Alger, 1510- 1541, O.P.U, Alger, 1986, p.23.
- Henri Delmas de Grammont: Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1830, édition Bouchène, 2002. p.59 et suites.
- Fray Diego de Haedo: Histoire des Rois d'Alger, trad, de l'Espagnole par Henri Delma de Grammont, Ed, Alger Grands Livres, Alger, 2004, p.50.

⁴ - لمزيد من المعلومات حول جهود العثمانيين في إنقاذ الأندلسيين راجع: (زغروت فتحي: العثمانيون وإنقاذ مسلمي الأندلس 1492-1609م منذ سقوط غرناطة حتى الخروج النهائي، ط1، دار النشر والتوزيع، القاهرة، 2011م، ص35، نبيل عبد الحي رضوان: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1987م، ص79 وما يليها).

وعاصر مؤسسوا الإمارة السابقة الذكر محيي العثمانيين إلى المغرب الأوسط وتأسيس الدولة الجزائرية الحديثة على يد خير الدين بربروس¹، وقد لقي العثمانيون مقاومة شرسة على يد سلاطين هذه الإمارة في بداية الأمر، ثم سعى الحكام العثمانيين الأوائل إلى ربط علاقات حسنة معهم بعد أن أيقنوا عدم جدوى مجاهدتهم بالقوة بالنظر لقوتهم وشدة بأسهم من جهة، وحصانة المنطقة التي كانت تحت حكمهم من جهة ثانية، لكن تلك العلاقة كانت تتحول إلى عداء ومواجهة أحيانا، واستمرت بين مد وجزر إلى غاية نهاية الحكم العثماني في الجزائر بسقوط بايلك قسنطينة في أيدي الفرنسيين عام 1837م².

وبعد زوال إمارة قلعة بني عباس في حوالي عام 1618م، تمكن سيدي بتقة أحد أفراد الأسرة الناجين من الاغتيال على يد سكان القلعة المذكورة³ من إعادة تأسيس الإمارة في منطقة مجانة التي فضل الاستقرار بها واتخاذها مقرا لحكم الأسرة بدلا من قلعة بني عباس⁴، كما فضل لقب الشيخ بدلا من لقب السلطان الذي عرف به أسلافه. واستمرت الأسرة رغم تقلبات الزمن في لعب الدور السياسي والعسكري والاقتصادي والديني في المنطقة الغربية من بايلك الشرق الجزائري حتى الاحتلال الفرنسي عام 1830م حيث كانت الأسرة من الأوائل الذين تصدوا له من خلال المشاركة في الدفاع عن مدينتي الجزائر وقسنطينة⁵، رغم حالة الضعف والانقسام التي كانت تمر بهما بسبب تناحر شيوخها على السلطة والحكم بها.

لم تكن في الواقع أسرة أولاد مقران الوحيدة التي كونت هذه الإمارة أو السلطنة قبل محيي الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، بل كانت هناك عدة إمارات وقبائل ومشيخات تدل على حالة الضعف التي كانت تمر بها دولة الحفصيين والزبانيين اللتان كان سلطاتهما على المناطق الداخلية ضعيفا، نذكر منها مشيخة الثعالبية في مدينة الجزائر وضواحيها⁶، ومملكة أسرة آل القاضي (بلقاضي)⁷ في منطقة الجرجرة (المعروفة تاريخيا بمملكة كوكو)⁸، وقبائل الحنانشة والنمامشة والحراكتة في الشرق الجزائري، وسلطنة أسرة

¹ - في الواقع كان لعروج ريس الدور البارز في التمهيد لتأسيس إيالة الجزائر في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وبعد استشهاد في نواحي تلمسان سنة 1518م خلفه شقيقه خير الدين الذي استكمل تلك الجهود التي كللت بالنجاح في إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية رسميا سنة 1519م، أنظر: (عبد الجليل التميمي: أول رسالة من أعيان مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول، مجلة التاريخية المغربية، 3، تونس، 1974م، ص 116-120).

² - يُذكر أن الاحتلال الفرنسي قد فشل في اقتحام مدينة قسنطينة الحصينة في حملته الأولى سنة 1836م بسبب حصانتها والمقاومة الباسلة التي أبداهها السكان بقيادة الحاج أحمد باي، ونظرا لأهمية هذه المدينة على جميع الأصعدة كانت فرنسا مصممة على الاستيلاء عليها، فعقدت معاهدة الصلح مع الأمير عبد القادر الذي كان يقود المقاومة في بايلك الغرب، ويبدو أنها استفادت من أخطاءها السابقة حيث تمكنت من الاستيلاء على المدينة في المحاولة الثانية سنة 1837م، وكانت نتائج هذه الحملة وخيمة على كل مناطق الإيالة، لمزيد من المعلومات راجع:

Abdeljelil Temimi: Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830-1837), Tunis, 1978, p.63.

³ - ترك السلطان سيدي ناصر عند مقتله على يد سكان القلعة ثلاثة أبناء قامت والدتهم بتبنيهم وإخفائهم عن أعين سكان القلعة، وهم بتقة الذي نجح في استعادة ملك أجداده المقرانيين، ومحمد أمقران الذي نُقل إلى نواحي بجاية واستقر بها مكونا فرع المقرانيين بهذه المنطقة، وابن ثالث يدعى بوتزين الذي نقل إلى نواحي معسكر واستقر هناك، لمزيد من التفاصيل حول موضوع الأسرة المقرانية وشيوخها خلال العهد العثماني، أنظر: (لخضر بوطبة: المرجع السابق، ص 164-168).

⁴ - هي قرية جبلية محصنة طبيعيا تقع في أعالي جبال الببيان على ارتفاع شاهق (1100م) لا يمكن الوصول إليها سوى من الجهة الجنوبية، وهي تابعة إداريا حاليا لبلدية إغيل علي بولاية بجاية، وتبعد عن مدينة برج بوعريش بحوالي 50 كلم شمالا.

⁵ - لقد أشار الحاج أحمد باي في مذكراته إلى مشاركة المقرانيين في المعركة ضد الفرنسيين من أجل صد الحملة، لمزيد من التفاصيل، أنظر: (محمد العربي الزبيري: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973م، ص 41 وما يليها).

⁶ - عمار بن خروف: العلاقات بين الجزائر والمغرب (1517-1659م)، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1983م، ص 20، أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر حتى القرن الرابع عشر الهجري (16-20م)، ج 1، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 132.

⁷ - لمزيد من المعلومات حول هذه المملكة أنظر: Tahar Ousdik :le Royaume de Koukou , p21

⁸ - وردت بأسماء مختلفة في المصادر الأوروبية فبعضها يذكرها باسم المملكة royaume والبعض الآخر باسم الإمارة principauté وتشكل مملكة أو إمارة كوكو مثل غيرها من الممالك البربرية من تحالف مجموعة من القبائل تحت زعامة رئيس أقوى قبيلة، وكانت هذه المملكة تضم القبائل الساحلية، وقبيلة زواوة تأسست حسب أحد الكتاب حوالي سنة 1515م بعد سقوط بجاية في أيدي الإسبان، وقد توالى على حكم مملكة كوكو كل من أحمد بن القاضي لمدة ثلاث سنوات ثم خلفه أخاه محمد لمدة ثلاثين عاما ثم أحمد بن أحمد حفيد محمد بن أحمد الذي حكم مدة عشر سنوات وتوفي عام 1583م تاركا الحكم لابنه محمد بن أحمد ثم تولى الحكم بعد هذا الأخير عمر بن القاضي لكن بوليفة يذكر أن أحمد بن القاضي قتل عام 1527م ليحل محله أخاه الحسين الذي حكم المملكة مدة طويلة من الزمن، أنظر:

بني جلاب في كل من ورقلة والوادي وتقرت، والذواودة في منطقة الزاب¹، وقبائل الجنوب الوهراني كبني عامر وسويد، فلما جاء الأتراك العثمانيين ممثلين في الإخوة بربروس وجدوا الجزائر مشكلة على النحو الذي ذكرناه، فكان عليهم بذل الجهود المضنية لتوحيد البلاد وطرد الغزاة من سواحلها، فكان على الإخوة بربروس في بداية الأمر إيجاد حلفاء أقوياء لكي يتمكنوا من بسط سلطتهم وترسيخ وجودهم والقضاء على الفوضى السائدة حينئذ، فكانت أسرة أولاد مقران من أهم الأسر التي تحالفت مع الإخوة بربروس ثم مع السلطة بعد تشكيلها.

ان تسليط الضوء على تاريخ هذه الأسرة خلال العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي موضوع ذا أهمية كبرى لأنه يمكننا من إمطة اللثام على واحدة من الأسر الجزائرية النافذة²، والوقوف على الدور الذي لعبته خلال العهد العثماني بالجزائر على جميع المستويات، كما يبرز أن مكانة هذه الأسرة ونفوذها ليس وليد العهد الاستعماري كما هو شائع لدى العامة والخاصة، وإنما هو أبعد من ذلك وأعمق.

لقد تميز تاريخ الجزائر الحديث (العثماني) بانتقال السلطة من رجال السياسة إلى رجال العلم والمرابطين والأولياء وزعماء الطرق الصوفية مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، ومطلع القرن السادس عشر، بسبب عاملين رئيسيين: أولهما ضعف الكيانات السياسية القائمة حينئذ (الحفصيين في تونس، المرينيين في المغرب الأقصى، والزيايين في تلمسان)³، وتناحرها فيما بينها وعجزها عن مواجهة وصد الخطر الخارجي المتمثل في الحملات الإسبانية خاصة على السواحل المغاربية التي استفحل أمرها بعد نجاح الإسبان بزعماء فرديناندو وإزابيلا⁴ في إسقاط مملكة غرناطة آخر ممالك العرب المسلمين في الأندلس سنة 1492م⁵، وثانيهما شعور العلماء والمرابطين بخيبة أمل كبيرة اتجاه هذه الكيانات المتناحرة فيما بينها من جهة، وإحساسهم بروح المسؤولية وبواجبهم نحو الشعوب المسلمة وأوطانهم التي باتت مهددة بالغزو وما يتبعه من كوارث على كافة الأصعدة والمجالات من جهة ثانية. فاتخذوا من المناطق الجبلية منطلقاً لهم في جهادهم ضد الكفار الغزاة، وتحولت الزوايا إلى رباطات للجهاد فضلاً عن كونها أماكن لبث العلم والتعليم. إن تأسيس حكم أسرة (سلالة) المقرانيين يندرج ضمن هذا الإطار، وإذا كانت الحياة السياسية للأسرة قد تطرق إليها العديد من الكتاب والمؤرخين لارتباطها بالسياسة العامة للدولة العثمانية في إيالة الجزائر، فإن الحياة الاجتماعية داخل حكم هذه الأسرة لا يزال مجهولاً نوعاً ما بسبب قلة المصادر لا سيما المحلية منها، مما يجعل الباحث في حقل الدراسات الاجتماعية يجد نفسه مضطراً للاعتماد على المصادر الغربية (الأوروبية)، وعليه ان يكون حذراً متيقظاً من بعض الأفكار والأحكام العشوائية والمسبقة لهؤلاء الكتاب.

Boyer Pierre: «Espagne et Coucou. Les négociations de 1598 et 1610», In: R.O.M.M, N°8, 1970. p.29.
Boulifa: le Djurdjura à travers l'histoire de puis l'antiquité jusqu'à 1830, Alger, 1925, p.399.

¹ - عمار بن خروف: المرجع السابق، ص20، أنظر كذلك:

Ernest Mercier: histoire de l'Afrique septentrionale, T3, Ernest le Roux éditeur 1891 paris, p.5.

² - تناولت الأستاذة جميلة معاشي من جامعة قسنطينة موضوع الأسر المحلية الحاكمة في دراسة قيمة حملت عنوان: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 16م إلى القرن 19م، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1991م.

³ - كانت هذه الكيانات تعاني من صراعات داخلية ونزاعات على الحكم مما تسبب في ضعفها وانقسامها بل أن الهوان وصل ببعضها إلى الاستنجاد بالإسبان المسيحيين ضد إخوانهم كما حدث مع بني حفص وبني زيان، لمزيد من الاطلاع عن هذا الموضوع، راجع: (عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ج4، ص90 ومايلها، مبارك الميلي: المرجع السابق، ج3، ص228 ومايلها).

⁴ - توج زواج إزابيلا ملكة أراغون وفرديناندو ملك قشتالة بتوحيد المملكتين في مملكة واحدة قوية هي إسبانيا من أجل مواجهة المد العثماني في البحر الأبيض المتوسط حيث أضحى هذا المد الخطر الحقيقي الذي يهدد هذه المملكة في طموحاتها بالتوسع والانتشار لاسيما بعد حركة الكشوفات الجغرافية التي جعلت منها غنية بفضل السفن التي كانت تعود من أمريكا محملة بالذهب والفضة والمعادن النفيسة الأخرى، لمزيد من الاطلاع حول حركة الكشوف الجغرافية ودورها في تزايد القوة الإسبانية مع نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر الميلادي راجع: (عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، بيروت، 1974م، ص39-61).

⁵ - لمزيد من التفاصيل حول مأساة سقوط غرناطة، أنظر: (جمال يحيوي: سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492-1610م، دار هومة، الجزائر، 2004م، ص25 ومايلها).

2- مجتمع إمارة المقرانيين في قلعة بني عباس ومشيجة مجانة:

كان المجتمع في حكم أسرة أولاد مقران سواء بإمارة قلعة بني عباس أو بمشيجة مجانة على غرار المجتمع الجزائري في هذه الحقبة من الزمن، يتشكل أساسا من مجموعة دواوير التي تشكل بدورها القبيلة، التي كانت تحكمها الجماعة، وتتكون الجماعة عادة من وجهاء القوم، من حيث السن والخبرة، والعلم والجاه والكلمة المسموعة، والأهم من ذلك الانتماء إلى القبيلة، فلا يعقل أن يختار لحكم الجماعة من كان غريب عن القبيلة¹، وكانت للمرأة في منطقة مجانة وبني عباس مكانتها في المجتمع، على عكس ما كان يشاع على أن المجتمع الجزائري هو مجتمع ذكوري، ذلك أنها كانت تلعب دورها في المجال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، فالمرأة الريفية كانت تقوم بمعظم الأعمال التي هي غالبا من اختصاص الرجل، كأعمال الحرث والزراعة وكانت تجلب العلف للحيوانات، كما كانت تقوم علاوة على ذلك بجمع المحاصيل وجلب الحطب من الغابة للتدفئة في فصل الشتاء واستخدامه في طهي الطعام، بالإضافة إلى أعمال البيت من تربية الأولاد ونسج الملابس للأسرة من برانس وقشاييات وقنادير ومنادل وشواش وزراي وحيك وغيرها²، كما كانت تقوم بطحن الحبوب الجافة بالمطحنة الحجرية³، وهي أعمال تتميز بها المرأة الريفية عن المرأة الحضرية، فلم يكن في الحقيقة وقت الفراغ في حياة المرأة الريفية، فهي تختلف عن المرأة الحضرية في ذلك، فكانت تقضي أغلب أوقات فراغها في الغزل والنسيج، وصناعة الأواني الفخارية⁴.

ولم يكن التزين يقتصر على المرأة الحضرية فقط، بل أن المرأة الريفية أيضا كانت تعتني بزینتها وتحرص على الظهور بمظهر لائق، فالمرأة في قلعة بني عباس ومجانة لا تختلف عن المرأة القبائلية في اهتمامها بمظهرها الخارجي وزینتها اليومية، فقد كانت حريصة على إظهار زینتها من خلال اقتناءها للحلي والمجوهرات، التي تعبر عن وضعها الاجتماعي ومكانتها، وترجع عائشة حنفي تفضيل نساء بني عباس ومجانة عموما التزين بالحلي الفضية إلى عدة اعتبارات، منها، غلاء سعر معدن الذهب وكونه صعب المنال بالنسبة للسكان الريفيين، عكس الفضة التي كانت في متناولهم، كما أن ذوق المرأة الريفية التي تفضل الفضة لأنها تتناسب مع بشرتها، وللاعتقاد السائد لدى المرأة الريفية أن معدن الفضة ذي اللون الأبيض يمثل رمز النقاء والصفاء⁵، كما أن هذه الحلي والآلئ كان ينتجها السكان محليا⁶، ويدعي كاريت ان نساء القلعة لم تكن تضع أي شيء على رؤوسهن، وهو ما نشك في صحته، فالمجتمع الجزائري هو مجتمع محافظ وخاصة في المناطق الريفية والجبلية، فلا يعقل أن تخرج فيه المرأة مكشوفة الرأس، ومن أهم أنواع الحلي التي كانت تزين بها المرأة في هذه المنطقة الخلخال والمقياس والأقراط، بالإضافة إلى الخواتيم، وكان اهتمام المرأة بالتزين يتزايد في المناسبات والأعياد والأفراح⁷.

3- النظام الاجتماعي للأسرة:

كان النظام الاجتماعي في حكم أسرة أولاد مقران يتكون من الأسرة الموسعة التي تعد الخلية الاجتماعية الأساسية إذ كانت مركز مختلف شؤون أفراد الأسرة، فيما يتصل بالاقتصاد والعرف والعادات والتقاليد، وكان يرأس الأسرة شيخ واحد وهو الذي يحدد لكل فرد وبيت مكانه المحدد داخل الجماعة وكانت القضايا المتعلقة بالأسرة الموسعة تناقشها الجماعة⁸، وفيما يتعلق بالتركيبة الاثنية في

¹- Pierre Hakoun: étude sur l'évolution des coutumes Kabyles, ancienne maison Bastide, Jourdan, Alger, 1921, p.36.

²- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص157.

³- René Vigier: Lafemme Kabyle (Grande Kabylie), sa succession légitime, les éditions Véga, Paris, 1932, p.2.

⁴- Mouloud Gaid: Les Beni Yala , O, P, U, Alger, 1990, op, cit. p.30.

⁵- عائشة حنفي: «الحلي القبائلية والحلي الأوراسية - دراسة مقارنة -»، حوليات المتحف الوطني للآثار القديمة، جامعة الجزائر، ع12، 2002م، ص68.

⁶- ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص66.

⁷- عائشة حنفي: المرجع السابق، ص69.

⁸- العيد مسعود: «حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني»، مجلة الكراسات التونسية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع2، تونس، 1989م، ص17.

إمارة بني عباس تحت حكم أسرة أولاد مقران تتكون من البربر بالدرجة الأولى، ثم يأتي العرب والمهاجرين الأندلسيين بما فيهم اليهود كما سبقت الإشارة إلى ذلك¹، ويؤكد البارون أوكايتان أن بعض يهود قلعة بني عباس ومجانة انتقلوا إلى بوسعادة للاستقرار بها²، غير أنه لم يحدد لنا الأسباب التي دفعتهم إلى مغادرة القلعة. وأما سكان مجانة فكان أغلبهم من العرب و يتكونون من أسرة أولاد مقران وقبيلة الحشم العربية³. وإلى جانب البربر والعرب واليهود كان هناك أقلية من المسيحيين حسبما أشار الراهب هايدو حيث ذكر أن الجنود الإسبان كانوا يفرون من بجاية، والأسرى المسيحيين كانوا يفرون من مدينة الجزائر⁴، وكانوا يلجأون كلهم إلى قلعة بني عباس أين كان يستقبلهم السلطان عبد العزيز وكان يدمجهم في صفوف جيشه للاستفادة من خبراتهم العسكرية⁵، فلا شك أنهم انصهروا مع المجتمع بمرور الوقت.

وأما بخصوص عدد سكان قلعة بني عباس فهناك خلاف بين الكتاب والمؤرخين، حيث قدر كاريت عددهم بـ 25000 نسمة⁶ أما فلة القشاعي فتذكر أن عددهم في أواخر العهد العثماني لم يكن يتجاوز 10000 نسمة⁷، وكان الغذاء الأساسي للسكان الكسكسي الذي يصنع من القمح بالنسبة للأغنياء، والشعير بالنسبة للفقراء، وأما اللحم فلم يكن السكان يتناولونه إلا في المناسبات والأعياد وأيام الأسواق الأسبوعية، وحين قدوم الضيوف، فإكرام الضيف سمة بارزة لدى السكان⁸. حيث يذكر حمدان خوجة بهذا الصدد أن سكان المنطقة لا يأكلون الأغنام ولا الدواجن، ولا يذبحونها إلا عندما يؤمهم ضيف لأن قانون الضيافة مقدس عندهم⁹، وبالإضافة إلى طبق الكسكسي يتناول السكان بكثرة اللبن والكسرة، فهو غذاءهم اليومي¹⁰، ويمتاز سكان المنطقة بالقامة المتوسطة والوجه العريض والمربع، وتضع النساء وشما على جباههن يحمل إشارة (زائد)، وهي عادة ضاربة في القدم تعود إلى العهد الروماني حسب ما يذكر الجنرال ريمون¹¹.

4- العلاقات مع المناطق والقبائل المجاورة:

تميزت علاقة أسرة أولاد مقران بجيرانهم أمراء كوكو، بالحرب والعداء التقليدي استمر طوال فترة الحكم العثماني بالجزائر، بالرغم من وجود مصالح مشتركة بين الإمارتين، كالتبادل التجاري الذي كان بإمكانهما تلبية حاجاتهم دون اللجوء إلى الأسواق المنتشرة خارج المنطقة، وبالتالي الاستغناء عن الأتراك نهائيا، ولا سيما أن أمراء كوكو كان لهم منفذ بحري عبر ميناء أرفون¹²، ولا نستبعد أن

¹ - Levi Provençal: «Complement à l'Histoire de la Galaa des Beni Abbes », in, R.S.A.C, 1913. op, cit, p.774-775.

² - Le baron Aucapitaine: «les fondateurs de Bousaada», in, R.A, n°: 7, 1857, p.491.

³ - Féraud: op, cit, p.220.

⁴ - تشكل ظاهرة فرار الجنود الإسبان من المعازل الإسبانية (وهران وبجاية) في الجزائر خلال العهد العثماني مادة دسمة للبحث والدراسة حيث أشارت الكثير من المصادر الأوروبية المعاصرة لهذه الفترة إلى هذه الظاهرة، حيث تذكر هذه المصادر أن هؤلاء الأسرى كانوا يفضلون حياة الأسر في مدينة الجزائر على العيش في الجندية بالمعازل سابقة الذكر، وهذا ما يفند مزاعم بعض الكتاب الأوروبيين أمثال هايدو Haido ودان Dan الذين قدموا وصفا مرعبا لحياة الأسرى المسيحيين في مدينة الجزائر، لمزيد من المعلومات راجع: المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج2، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009م، ص108-109، فونتيير دو بارادي: الجزائر خلال القرن الثامن عشر، ترجمة وتعليق لخضر بوطبة، دار الكوكب للعلوم، الجزائر، 2021م، ص77.

⁵ - Haedo: op, cit, p.356.

⁶ - Carette: op, cit, T2, p.405, Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années, 1840, 1841, 1842, Etudes sur la Kabylie, T1, Imprimerie Nationale, Paris, 1847, p.145.

⁷ - فلة القشاعي: الريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا، مذكرة دبلوم الدراسات المعمقة، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1980، ص25.

⁸ - A. Hanoteau, A. Letourneux: La Kabylie et les coutumes Kabyles, T1, Paris, 1893, p.413.

⁹ - حمدان خوجة: المصدر السابق، ص62.

¹⁰ - A. Hanoteau, A. Letourneux: op, cit, p.413.

¹¹ - Général Brémont: Berbères et Arabes, La Berbérie et un Pays Européen, Payot, Paris, 1950, p.310.

أنظر كذلك:

Gaid: Les Berberes..., Alger, 1990, p.65.

¹² - هو مرسى صغير يقع غرب مدينة بجاية ويبعد عنها بحوالي 100 كلم.

يكون للحكام الأتراك اليد الطولى في العداء بين الإمارتين، وأما علاقة الأسرة بسكان المناطق التي كانت تابعة لها فقد كانت علاقة الولاء والخضوع للأسرة، رغم إحساس هؤلاء السكان بثقل تلك الضرائب التي كانت الأسرة تفرضها عليهم إلا أنهم وجدوا آباءهم وأجدادهم يدفعونها منذ أكثر من قرنين من الزمن وأصبحت تقليدا يجب إتباعه، كما أن المكانة الدينية للأسرة جعلت بعض المناطق تعترف بحكمها وتدفع لها الضريبة رغم بعد المسافة، دون أن يجبرها أحد على ذلك¹.

وبخصوص علاقة أولاد مقران بسكان مدينة زمورة وما جاورها والتي تحدها من الجهة الشرقية، فيبدو أنها لم تكن على ما يرام، فقد كانت زمورة خاضعة لنفوذ أمراء بني عباس ولم يكونوا راضين بهذا الوضع، ويسود الاعتقاد بين المؤرخين أن سبب ضغط المقرانيين على الزموريين إلى أنهم هم من قام باستدعاء الأتراك إلى منطقتهم وإقامة برج بها، واعتبر المقرانيون ذلك خطرا عليهم، وبقاء الحماية التركية بهذه المدينة اعتبروه مراقبة لهم عن كثب، وقد ازداد ضغط أولاد مقران على زمورة خاصة بعد ارتباط الأتراك بسكانها عن طريق المصاهرة، هذا الارتباط الذي أدى إلى تجذر العلاقة بين السكان والأتراك من خلال عنصر الكراغلة² الذين مكّنهم النظام التركي من امتلاك الأراضي، فأصبح هؤلاء الكراغلة واسطة بين السكان والأتراك، وساهموا إلى حد بعيد في تحسن العلاقات بين الطرفين، وكذلك بعد انتقال سلاطين أولاد مقران في حكمهم من قلعة بني عباس إلى سهل مجانة المتاخم لبرج زمورة، وأصبحوا تابعين إداريا إلى بايلك قسنطينة، وتحت تأثير فئة الكراغلة أظهر سكان زمورة رغبة كبيرة في التخلص من نفوذ أولاد مقران، وكانوا متحمسين لمقاومتهم، لكنهم ظلوا خاضعين لنفوذهم من خلال دفع الضريبة لهم إلى غاية الاحتلال الفرنسي³، وعلى الرغم من ذلك كانت الأسرة المقرانية تملك أراضي ومنازل بزمورة⁴، وعلى ما يبدو أن العلاقات بين أولاد مقران وسكان زمورة قد تحسنت فيما بعد حيث يذكر الشيخ خير الدين في مذكراته أن الحاج محمد بن أحمد المقراني الباشا تزوج من إحدى النساء الزموريات⁵.

وفيما يتعلق بعلاقة أمراء بني عباس من أولاد مقران بقبائل بني مليكش فيبدو أنها كانت سيئة حيث يجبرنا الكاتب الفرنسي كاريت أن سكان بني مليكش كانوا مجبرين على تحسين علاقاتهم ببني عباس وذلك بالخضوع لهم، حتى يتمكنوا من جني الزيتون والغلال الزراعية في أراضيهم المجاورة لهم⁶، وكانت الأسر الكبيرة ببابلك الشرق الجزائري حريصة على الارتباط بأسرة أولاد مقران الشريفة، حيث يذكر الشيخ محمد خير الدين في مذكراته أن شيخ العرب أحمد بن علي بوعكاز بن الصخري زوج إحدى بناته إلى أحد شيوخ أولاد مقران⁷.

لا توجد لدينا معلومات تؤكد انتماء أسرة أولاد مقران إلى أية طريقة من الطرق الصوفية التي كانت منتشرة في الإيالة إلا أنه يمكن الاستنتاج من خلال علاقاتهم الحسنة بمرابطي المنطقة حيث استعانوا بالمرابط سيدي أحمد بن خليفة بمنطقة أوراسة في استرجاع حكم مجانة بعد أن اغتصبها منهم الحكام الأتراك في عام 1710م، دليل على علاقتهم الحسنة بالطريقة الرحمانية، وهو ما يوحي لنا

¹ - Leila Babes: op, cit, Tribus, Structures Sociale et Pouvoir politique dans le Beylik de Constantine sous les Turques, D.E.A, Fac du Droit et des sciences politique, Aix-en-Provence, 1981, p.20.

² - الكراغلة: هم نتاج زواج الأتراك بنساء جزائريات، وكلمة الكراغلة هي تحريف للكلمة التركية المركبة قول أوغلو والتي تعني ابن العبد، وفي فلسفة الحكم لدى العثمانيين كان أفراد الجيش العثماني يعتبرون أنفسهم عبيدا للسلطان يعني خدم السلطان أي أن وفاءهم وإخلاصهم للسلطين العثمانيين لا حدود له، (معلومة أفادنا بها الأستاذ خليفة حمّاش في محاضرة أُلقيت على طلبة الماجستير تخصص تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، دفعة 2002-2003م بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسم التاريخ)، والكثير يخطئ في فهم وتفسير معنى كلمة قول أوغلو حيث يذهب فهمهم لظاهر المصطلح فقط، ويعتبرون أبناء الأتراك من نساء جزائريات على هذا الأساس منحطي القيمة، وهو ما تتفنده المصادر والدراسات التي تُجمع على أن فئة الكراغلة في الجزائر خلال العهد العثماني كانت فئة ممتازة، وأن إقصائها من المناصب العليا في الدولة لا يمت بصلة لمكانتهم الاجتماعية، والنماذج كثيرة عن هذه الفئة نذكر على سبيل المثال حمدان بن عثمان حوجة الذي كان من أشهر الأعيان في مدينة الجزائر.

³ - Archives du Cadastre de Constantine, P.V, n°. 280, Zamoura, p.21.

⁴ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 141.

⁵ - Ernest. Mercier: le Bachagha Mokrani et les causes de l'insurrection de 1871, T2, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1888, p.10.

⁶ - Carette: op, cit, p.346.

⁷ - محمد خير الدين: مذكرات الشيخ محمد خير الدين، ج1، مطبعة دحلل، الجزائر، 1985م، ص 46.

بأن شيوخ الأسرة ربما كانوا من أتباع الطريقة الرحمانية، ويذكر يوسف نسيب أن أحد أبناء شيخ من شيوخ بجانة كان تلميذا للشيخ محمد بن بلقاسم شيخ زاوية الهامل ببوسعادة، الأمر الذي جعل هذا الشيخ يستقبل مجموعة من أفراد أسرة أولاد مقران التجأوا إليه بعد ثورة 1871م، وقام باستقبالهم وأسكنهم بالحي بالقرب من الزاوية¹ لا يزال يعرف إلى يومنا هذا بحي المقارنة.

5- الملبس:

يعتبر اللباس أحد أهم أبرز المظاهر التي تعكس المكانة والرتبة التي يحتلها الإنسان في المجتمع، ويمكن تمييز طبقات أي مجتمع بسهولة ويسر من خلال مظهره الخارجي الذي يتمثل في نوع الملبس، ومن هذا المنطلق، كان شيوخ أسرة أولاد مقران يعتنون بمظهرهم وكانوا حريصين على الظهور أمام الناس بمظهر يليق بمكانتهم السياسية ونسبهم وتاريخهم العريق، لأن ذلك يزيدهم احتراماً وهيبه وتقديراً وسط القبائل والمناطق التابعة لحكمهم، فكانوا يرتدون أفخم الألبسة خاصة من البرانس الرفيعة التي كانت تنسج من الصوف العسلية وتطرز بالفضة²، كما كانوا يتميزون عن باقي السكان بما كانوا يرتدونه من الألبسة الفاخرة التركية الصنع التي كان الحكام الأتراك (باشوات وبايات) يقدمونها لهم كهدايا كما ذكر كل من فيرو ومرسي³.

أما لباس السكان اليومي فلا يختلف عن لباس سكان منطقة القبائل عامة، الذين كانت تميزهم القندورة والقشاية والبرنوس بالنسبة للرجال، والحياك بالنسبة للنساء حسب ما ذكر حمدان خوجة في مرآته⁴، وكانت تلك الألبسة تصنع محلياً، حيث كانت نساء القلعة وبجانة بارعات في صناعة النسيج، والأواني الفخارية، ومختلف الوسائل المستخدمة في صناعة النسيج كالقرداش وغيره إذ تميز سكان المنطقة بوجود صناع مهرة وفروا الأدوات الضرورية لمختلف الصناعات ومنها النسيجية الأمر الذي كان يجعل الطلب عليهن كثير من قبل القبائل المجاورة⁵.

6- المسكن:

إذا كان الملبس يدل على المكانة والرتبة الاجتماعية لأي شخص فالمسكن كذلك، فمن خلال إلقاء نظرة على المسكن والمحيط الدائر به يعطينا فكرة واضحة عن الطبقة التي ينتمي إليها صاحبه، ولا يختلف المسكن في مظهره العام في منطقة حكم أسرة أولاد مقران عن مسكن منطقة القبائل والجزائر عامة، وبحكم توفر منطقة بني عباس على مادة الحجارة والغابات بكثرة، فسكان المنطقة كانوا مهرة في البناء حيث كانوا يستخدمون الحجارة والطين الممزوج بالتبن في عملية البناء، ويقومون بتغطية السقف بواسطة القرميد⁶، وبهذا الصدد يذكر حمدان خوجة في مرآته أن قلعة بني عباس تضم منازل تبنى بالحجارة وتطلى الجدران بالكلس والجير⁷، ويتكون المسكن في منطقة القبائل بصفة عامة حسب الرحالة الإنجليزي شو من غرفتين رئيسيتين غرفة مخصصة للطبخ والنوم وأثاث البيت، والغرفة الثانية للمواشي، وكانت ترتفع عن الأولى بمقدار نصف متر⁸.

وتتشابه منازل القلعة في بناءها حيث يوجد فناء صغير عند مدخل كل بيت، وتظلل هذا الفناء شجرة أو شجرتين⁹، وتتوفر بقلعة بني عباس مساجد تشبه مساجد مدينة الجزائر حسب ما ذكر حمدان خوجة الذي زار قلعة بني عباس، التي يقول عنها أنها

1- Youssef Nacib: cultures oasiennes, Bousaada-Histoire sociale, E.N.A.L, Alger, 1986, p.254.

2- Carette: op, cit, p.322.

3- Féraud: Féraud (Charles): « histoire des villes de Constantine - Bordj Bou Arrerijj », in, R. S. A. C, Constantine, 1872, p.230.

4- حمدان خوجة: المصدر السابق، ص79.

5- Daumas: Daumas et Fabar : la grande Kabylie, études historiques, L, Hachette, Paris, 1847, op, cit, p.135.

6- Hanoteau et Letourneux: La Kabylie et les coutumes Kabyles, T1, Paris, 1893, op, cit, p.409.

7- حمدان خوجة: المصدر السابق، ص66.

8- Steeg TH: Exposé de la situation de l'Algérie.en1922, Alger, 1923, p.369.

9- Carette: (Ernest) : Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années, 1840, 1841, 1842, Etudes sur la Kabylie, T1, Imprimerie Nationale, Paris, 1847, op, cit, p.321.

محصنة طبيعياً لا يمكن للأعداء الوصول إليها، وأن سكانها يعرفون طريقة لتخزين الحبوب في المطامير لمدة تزيد عن العشرين سنة، وذكر أيضاً أن سكان السهول كانوا يودعون حبوبهم بالقلعة ولا يبقون لديهم إلا ما كان ضرورياً لحاجتهم اليومية¹، ويحيط بقلعة بني عباس على غرار مدن العصور الوسطى سور محكم البنيان ومتين مبني بالحجارة ويحتوي على فتحات خصصت لوضع المدافع للدفاع عن القلعة من الجهة الجنوبية²، ولأن القلعة روعي في بنائها الدواعي الأمنية فقد توجب على حكام الإمارة حمايتها عن طريق إحاطتها بسور من الجهة التي يمكن للعدو الوصول إليها، ولا يزال جزء من ذلك السور قائماً إلى يومنا هذا، ذلك أن القصف الذي تعرضت له القلعة على يد الجيش الفرنسي عام 1959م أدى إلى تخريب بنايات القلعة، لأنها كانت معقلاً للثوار نظراً لخصائصها وبعدها³.

وأما فيما يتعلق بمساكن مجانة، فيذكر كارت أن الخيمة كانت الميزة الأساسية للسكان في هذا السهل، وقال أيضاً أنه قلما توجد المنازل المبنية بالمنطقة، وكان السكان يضطرون إلى بناء مساكنهم من الحطب المتوفر في الغابات، لقضاء فصل الشتاء، ثم يقضون باقي الأيام تحت الخيام، ومع مرور الأيام وعندما بدأت حياتهم في الاستقرار أكثر بدأت تختفي الخيام شيئاً فشيئاً، وكانت المنازل بمجانة تبنى بالحجارة والطين وتغطي سقفوها بالقرميد، كما كانت تغطي بالقش أيضاً⁴، وكانت كل عشيرة أو أسرة كبيرة لها مضرب من الخيام معين في أرض القبيلة يطلق عليه دوار، فكانت كل قبيلة تتألف من دواوير، وكان الدوار بمثابة قرية، إلا أن الدوار يختلف عن هذه الأخيرة أن سكانه كانوا يقيمون في بيوت من الشعر⁵.

7- الحياة الثقافية والعلمية:

يبدو أن الخوف من الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية قد سبق مجيء العثمانيين إلى المغرب الأوسط ذلك على حسب قول بعض المؤرخين فإن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي الذي كان بأواخر القرن الخامس عشر الميلادي على رأس إمارة الثعالبة بمدينة الجزائر وسهول متيجة يحكم المنطقة حكماً ذاتياً⁶ قد عانى كثيراً من الهجمات الصليبية، ولا يُستبعد أبداً أنه كانت له اتصالات مع العثمانيين⁷ بحكم رئاسته لقبيلته، وبحكم شهرته كرجل روحي كبير، له كلمته المسموعة في الأوساط الشعبية، ورؤساء القبائل المجاورة، وهو ما نلمسه واضحاً في رسالته⁸ التي وجهها إلى نظيره محمد بن أحمد بن يوسف الكفيف ببجاية، ومن أهم ما يمكن استنتاجه منها، هو ذلك الفراغ السياسي، وفقدان سلطة زمنية واحدة تجمع كلمة الأهالي، والقبائل المنتشرة في ربوع هذه الأرض، فلم يجد الثعالبي سلطاناً لهذه البلاد يوجه إليه خطاب الجهاد، وحماية الشواطئ من مدهامة "بني الأصفر" لها - كما يسميهم - لما وجدناه فيها يشرح لنظيره "الكفيف" الخطة التي اتبعها والعدّة التي هيأها، وينصحه بالصعود إلى الجبال وحمل ما أمكن حمله من مخطوطات وكتب والاحتماء بها⁹.

وقد جعل الضعف السياسي الذي ميز المغرب الأوسط في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي، العلماء والمرابطين يتحملون المسؤولية في تولي مهمة الدفاع ورد العدو الغازي، ففي بجاية مثلاً كان الشيخ المرابط الشهير سيدي التواتي

¹ - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 67.

² - Carrette: op. cit, p.311.

³ - يروي أحد أفراد الأسرة المقرانية - وهو الحفيد جمال صديقي - في لقاء معه في شهر ماي 2003م في مقر سكناه في العناصر بولاية برج بوعريش أن مؤتمر الصومام كان مقرر له أن يعقد في قلعة بني عباس نظراً لموقعها الاستراتيجي المنيع وبعدها عن أعين الفرنسيين وعملاؤهم لكن البغلة التي كانت تحمل وثائق الثورة وقعت بين أيدي العدو فكان لزاماً إلغاء الاجتماع، واختاروا له بعد ذلك منطقة الصومام.

⁴ - Carrette: op. cit, p.134.

⁵ - العيد مسعود: المرجع السابق، ص 15.

⁶ - عبد الرزاق قسوم: عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت)، ص 25.

⁷ - وليم سينسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زبائدة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م، ص 31.

⁸ - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 4، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، ص 208.

⁹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، ج 2، المرجع السابق، ص 469.

حامي المدينة والداعي فيها والمحرض على الجهاد ضد المعتدين المسيحيين، فكانت زاويته بالمدينة مركزا للتعليم ومقرا لتعبئة السكان وتحريضهم على قتال الإسبان، ومن غير المستبعد أن تكون له اتصالات سابقة بالإخوة بربروس¹ إذ يخبرنا البحارة التركي بيرى ريس أنه التقى به في زاويته التي مكث بها مدة من الزمن رفقة خاله²، ومن المعروف أن الرحالة والجغرافي بيرى ريس كان يرافق الأسطول العثماني في مهماته لإنقاذ المسلمين الأندلسيين، وذلك بعد رسائل الاستغاثة التي كان هؤلاء يرسلونها إلى السلطان العثماني، باعتباره خليفة المسلمين والحامي والمدافع عنهم، وبناء على ما ذكره هذا البحار في مذكراته فإن التواجد العثماني في المغرب الأوسط يكون قد سبق مجيء الإخوة بربروس حسب ما استنتجه أبو القاسم سعد الله.

وكان من النتائج التي ترتبت عن استفحال أمر الحملات الأوروبية على سواحل المغرب الأوسط إلى لجوء العلماء ورجال الطرق الصوفية وشيوخ الزوايا إلى المناطق الجبلية والتحصن بها، وينطبق هذا خاصة على علماء بجاية ومرابطيها لا سيما بعد النكبة التي تعرضت لها إثر استيلاء القائد الإسباني بيدرو نافارو عليها بأمر من الملك فرديناندو الكاثوليكي وتحريض وتشجيع من الكاردينال خيمينيس، وقد اشتهرت منطقة القبائل في العصر الحديث بكثرة الطرق الصوفية والزوايا، فكانت قبلة للعلماء والطلبة من كل جهات القطر الجزائري، وكانت تلك الزوايا تبث العلوم والمعارف في وسط السكان، ورفع العلماء والمرابطون لواء الجهاد، فابن القاضي ذلك الصوفي العالم تحالف مع الإخوة بربروس منذ الوهلة الأولى، وقيل أنه هو من ذهب للقائهم في تونس لطلب المساعدة من أجل تحرير بجاية، ولجى عروج وإخوته الدعوة، وأخفقوا في فتح بجاية مرتين متتاليتين سنتي 1512 و1514م.

والظاهر أن مدينة بجاية لم تفقد طابعها الديني والروحي كمنشأ وموطن للأولياء والصالحين والمرابطين حيث تتواجد بها أضرحتهم التي تحولت إلى مزارات بعد مماتهم، ليس من طرف عامة الناس فقط بل حتى من علماء ورجال الصوفية المشاهير، أمثال الشيخ الولي الرحمن الأزهري (1133هـ-1715م / 1208هـ-1793م)³ مؤسس الطريقة الرحمانية في الجزائر حيث يذكر عبد الرحمن الجيلالي أنه استقر في بجاية في حوالي سنة 1183هـ / 1769م بعد عودته من أسفاره من الهند والسودان وغيرها من البلدان حيث كان ينشر الطريقة الخلوتية، ولم يمكث ببجاية طويلا لينتقل إلى مدينة الجزائر⁴، ويؤكد هذه المعلومة يحيى بوعزيز الذي يضيف بأن الشيخ عبد الرحمن استقر في بجاية كواعظ ومرشد في مسجد سيدي محمد أمقران، ثم انتقل إلى قرية الحامة شرق مدينة الجزائر⁵.

ويخبرنا الشيخ محمد الجعدي كذلك أن الشيخ الرحمن الأزهري كان يصوم شهر رمضان في بجاية وهي عادة علماء زواوة، وكان يعقد مجالس الوعظ والإرشاد في مساجدها، ويصلي بالناس، وكان حريصا على تمضية ليلة السابع والعشرين من رمضان ببجاية⁶، ويبدو أن سمعة بجاية الدينية والعلمية كانت لا تزال قوية لدى سكان المنطقة في الفترة الأولى من الاحتلال الفرنسي، حيث يخبرنا فيرو أن سكان المناطق المحيطة ببجاية كانوا يأتون للحج إلى بجاية في النصف الثاني من كل شهر رمضان للتبرك بزيارة الأضرحة والأولياء والزوايا وحضور الدروس والمواعظ في مساجدها، وذكر أنهم كانوا يسمونها مكة الصغيرة⁷، وقد أشار الرحالة الحسين الورثياني إلى ذلك حين يخبرنا أنه كان يصوم رمضان في بجاية ويواظب على زيارة أضرحة الأولياء والمرابطين بها ويؤم الناس في هذه الليالي المباركة⁸.

¹ - Marcel Bodin: notes et questions sur Sidi Ahmed ben Youcef, in RA, n° 66, 1925, p.125.

² - Piri Rais: op, cit.

³ - لمزيد من التفاصيل حول هذا المrapط أنظر، عبد المنعم قاسمي الحسني: الطريقة الخلوتية الرحمانية (الأصول ولآثار منذ ظهورها إلى الحرب العالمية الأولى)، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2009م، ص216، ومايليها.

⁴ - عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م، ج4، ص50-51.

⁵ - يحيى بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1995م، ص144.

⁶ - عبد المنعم قاسمي الحسني: المرجع السابق، ص216.

⁷ - Féraud: Histoire de Bougie, p.295-26.

⁸ - الحسين الورثياني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. المشهورة بالرحلة الورثيانية، تحقيق محمد بن شنب، مطبعة بيار فونتانا، الجزائر، 1908م، ص8.

ولا شك أن علماء بجاية الذين فروا من بطش الإسبان وغدروهم إلى قلعة بني عباس، قد أسهموا في نموها وتطورها في مجالات عدة، ففي المجال العسكري كان للمهاجرين الأندلسيين¹ لمساهماتهم في الصناعة الحربية التي شهد الفرنسيون بها، حيث تذكر المصادر أن جيش القلعة كان يملك البنادق والمدافع، ولا تزال حفرة لاستخدام البارود موجودة في قلعة بني عباس إلى يومنا هذا، كما أسهموا في ميدان العمران والفلاحة والتجارة والثقافة كذلك، ومن المعلوم أن مؤسسي القلعة كان أول عمل قاموا به يرجع إلى سيدي عبد الرحمان الذي بنى زاوية للتعليم، ثم هذا ابنه أحمد حذوه، وإذا كان السلطان عبد العزيز محاربا بارعا فإن أحد السلاطين الذين جاؤوا بعده ويدعى سيدي ناصر قد امتاز بالتدين والتبحر في العلم وبالتقوى والورع، حتى أنه من شدة تعلقه بالعلوم والعبادة قام بتسريح الجيش ونتج عن سياسته هذه تدمير ما تركه آباءه وأجداده الذين كرسوا حياتهم من أجل الإمارة وقوتها، وتسببت سياسته في مقتله كما سبقت الإشارة إلى ذلك في فصول هذا البحث، كما اشتهر أبو التقى كذلك أين جمع بين الدين والسيف²، وكذا شيوخ آخرون، لكنهم لم يهتموا بشؤون الإمارة أو المشيخة كما فعل سيدي ناصر، وتحولت الإمارة إلى قبلة للطلبة يأتونها من جميع جهات منطقة البيان والصومام.

وقد عدّد الرحالة الوريثاني في رحلته القرى والقبائل والمداشر في المنطقة التي كانت تابعة لنفوذ المقرانيين والتي كانت تتصف بالتبحر في العلم والتدين، ونعت علمائها وشيوخها بالعلماء الفضلاء الأتقياء الوجهاء وغيرها من الأوصاف الدالة على التبحر في العلم والتصوف والزهد والابتعاد عن لهُو الحياة، والتفرغ للعبادة ونشر العلم والتدين، فمن ذلك قوله عن أولاد بوندرة الذين يسميهم تابونداوت أنهم فضلاء نجباء فقهاء، وسمنا أنهم ذوي أصول بجائية وأنهم قضاة منذ العهد الأول إلى الآن³، وأولاد سيدي عبد الحليم الساكنون في قرية من قرى بني عباس هم فضلاء كرماء صلحاء إلى الآن، وسيدي أحمد بن إيدير ذو بركة قوية والده عالم صالح انتفع بعلمه الكثير من الناس من أهل زمانه، وأولاد سيدي الخروف، معظمون مبحلون فيهم العلماء والقضاة والمفتون، وهم شرفاء على من كان عندنا في زمرة وبني عيديل، وأهل تيعروسين معلومون بالعلم والدين ولهم كرامات يحفظها الناس عليهم، وأولاد بغورة يعرف عنهم أنهم على الكتاب والصلاح انتفع الناس كثيرا بعلمهم في وقتهم، وتوارث أسلافهم ذلك ردحا طويلا من الزمن، وسيدي محمد بن عبد القادر ووالده سيدي الموهوب فإنهما من فضلاء الناس يقصدهما الناس في العلم والفتوى، وأولاد سيدي الجودي ومنهم على الأخص سيدي محمد بن صالح الجودي فقيها عالما، ومنهم سيدي أبي التقى من أجداد المقرانيين قوي الحجّة في الدين مطلع على أحوال زمانه، تقي ورع معلوم البركة، قوي النفع معظم عند أهل مجانة وما جاورها⁴.

وعن الدور الذي لعبته الزوايا في المنطقة دعونا نقرأ ما جاء في تقرير فرنسي كتب عن بجاية وما جاورها سنة 1840م يقول صاحب هذا التقرير إنّ كل دشرة (قرية) كان لها طالب يحسن اللغة العربية، وهو يقوم في الوقت نفسه بوظيفة إمام مسجد الدشرة، ويعلم الأطفال الكتابة والقراءة، وحفظ القرآن الكريم، وكان بعض هؤلاء الطلبة قد حصلوا على مبادئ الفقه في الزوايا، وهم يحكمون بالصّلح بين الناس أيضا، وكان في كل قبيلة أماكن مخصصة للتعليم، وتكوين التلاميذ في المواد التي ذكرناها سابقا، في أماكن عادة تكون قريبة من الزاوية التي فيها، أو كان فيها مرابط اشتهر بين الناس بالورع والتقوى، والدراسة مجانية، ومدّتها غير محددة، وجميع المعلمون والتلاميذ، يعيشون من تبرعات وإحسان القبائل المجاورة، وأحيانا من مداخيل مخصصة لهم بمقتضى الأوقاف التابعة للزاوية منذ عهود سالفة.

¹ - حول الدور الحضاري للمهاجرين الأندلسيين في الجزائر أثناء العهد العثماني راجع، (ناصر الدين سعيدوني: مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2003م، ص11 ومايليها).

² - Féraud: op, cit, p.269.

³ - الحسين الوريثاني: المصدر السابق، ص37.

⁴ - المصدر نفسه، ص36-37.

والزاوية مكان مقدس لدى الجميع، ولا أحد يجرؤ على انتهاك حرمتها، وأبرز هذه الزوايا في منطقة بجاية وحوض الصومام؛ هي زاوية شلاطة التي كانت تبعد مسافة يومين عن سوق بجاية، وهي تقع على الضفة اليسرى لوادي آقبو، وتسمى أيضا زاوية ابن علي الشريف، ولها سمعة علمية تجاوزت حدود الوطن الجزائري؛ إذ كانت تأتيها الهدايا من فاس، وتونس، وإسطنبول، وفي دراسة لهانوتو ولوتورنو عن منطقة القبائل ما يؤكد هذه الظاهرة، فقد قالوا إن كل فرد في المنطقة كان يعرف القراءة والكتابة، وللسكان مدارس عامة، واعتزاز قوي بدعم هذه المدارس؛ إذ يرون في ذلك واجبا دينيا ونخوة خاصة، ولغة التدريس هي اللغة العربية، والمواد كلها إسلامية، وهي تتبع المنهج الإسلامي، والتعليم في هذه المؤسسات على مرحلتين: ابتدائي وثانوي وهناك بعض المدارس الخاصة بإشراف المرابطين، وهم يشرفون عليها بحماس ديني قوي، فهم يستقبلون العديد من الشباب، ويوفرون لهم المسكن، والمأكل، ويعلمونهم مجانا، وكان التعليم نفسه عموميا، وهذه الظاهرة كانت عامة، كما لاحظها مختلف الكتاب، ونعني ظاهرة انتشار الكتابة والقراءة، وحفظ القرآن العظيم في المدن والأرياف على السواء، ضمن برنامج موحد يقوم على دراسة العلوم الإسلامية باللغة العربية. أما الطور الثانوي فيحصلون عليه في المساجد الكبيرة بالدروس العامة المتطورة، أو بالهجرة في سبيل العلم إلى مناطق أو بلدان أخرى¹.

ان سياسة تحالف السلطة العثمانية في الجزائر مع المرابطين والعلماء الدينيين هي من الأساليب التي ميزت الحكم العثماني منذ إلحاق الجزائر بالباب العالي سنة 1519م، وقد لجأوا إلى هذه السياسة ليمتكنوا من بسط سيطرتهم على المناطق الغنية بالثروة الطبيعية واستغلالها دون الدخول في مواجهة مع السكان الذين كانوا يرفضون الخضوع لسلطتهم، وفي الوقت نفسه كانوا يدينون بالولاء والطاعة لسلطة المرابطين ورجال الدين، فتمكن الحكام الأتراك بهذه السياسة الذكية من حكم الجزائر طول مدة تواجدهم بها أي ثلاثة قرون واثنتي عشرة سنة وذلك بأقل التكاليف، ويمكننا القول أن المرابطين ورجال التصوف كانوا حسب تعبير حمدان بن عثمان خوجة، نعمة من بھا الله على الحكم العثماني لفرض وجوده بالبلاد "إذ بمجرد ما لهم من نفوذ على هذه الشعوب يسكتون أسلحة الخدوم ويمنعون إراقة الدماء"²، كما استعانوا كذلك بقوة محلية أخرى لتدعيم تواجدهم وهي قبائل المخزن التي كانت تنال امتيازات مقابل الخدمات التي كانت تقدمها لسلطات البايك، ولعبت المنطقة قيد الدراسة دورا فعالا في تدعيم القوة البحرية الجزائرية من خلال تزويدها بالأخشاب فضلا على الغلات الزراعية التي كان ينتجها سكان المنطقة.

ان البحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر خلال الحكم العثماني هو من المواضيع البكر التي لا يزال لم يعط اللثام حولها، وإنما لمن المواضيع الجديدة بالبحث فيها للكشف عن الدور الاقتصادي والاجتماعي الذي قام به السكان خلال هذا العهد، وعن التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني يقول الشيخ المهدي البوعبدلي: «إن العصر العثماني في الجزائر امتاز بانتقال المراكز الثقافية من المدن إلى الجبال والقرى...»³، ومن هذا المنطلق أولى سلاطين أولاد مقران سواء في قلعة بني عباس أو في مشيخة مجانة العناية الكبيرة بالتعليم ونشره، إيمانا منهم بأنه بالتعليم تقوم الأمم وتزدهر وتدوم، بدءا بالشيخ سيدي عبد الرحمان مؤسس الإمارة الذي تتلمذ على يد الشيخ عمر بن القاضي بإمارة كوكو، وكان أول عمل قام به عند انتقاله إلى منطقة بني عباس ببناء زاوية لتعليم السكان⁴، كما أن ابنه السلطان أحمد كان تلميذا للعالم الشهير يحيى العيدلي⁵، حسب ما أورده الحسين الورثياني في رحلته نزهة

¹ - محمد حراث: عوامل انتشار الوعي الديني والقومي في منطقة زواوة، منشورات مخبر الممارسات اللغوية، ع9، جامعة مولود معمري، الجزائر، 2012م، ص185-215.

² - حمدان خوجة: المصدر السابق، ص57.

³ - المهدي البوعبدلي: «الثقافة والتوجيه بالجزائر»، محاضرة ألقاها في مؤتمر الفكر الإسلامي المنعقد في الجزائر عام 1979م، ص9.

⁴ - Féraud: op, cit, p.206.

⁵ - هو أحد المرابطين المشاهير، وقد أثنى عليه الرحالة الحسين الورثياني في رحلته وعدد خصاله، وذكر أنه صاحب كرامات، وقد أسس زاوية في قرية تامقرة في أعالي جبال بجاية ظلت هذه الزاوية تبث العلم لعدة قرون، حيث تخرج منها علماء كبار نذكر منهم الشيخ الخليل الطاهر آيت علجت، ونجله الشيخ محمد الصالح آيت علجت، والشيخ العالم محمد الشريف قاهر رحمه الله، وقد تحولت الزاوية في الآونة الأخيرة إلى معهد.

الأنظار¹، وقام هو الآخر ببناء زاوية للتعليم بقلعة بني عباس لا تزال هذه الزاوية قائمة إلى يومنا هذا، وتقول الرواية الشفوية حسب ما يذكر فيرو أن السلطان أحمد بن عبد الرحمان قام بتشيد عدة مدارس بمنطقة بني عباس وبين الحصنة والزيان²، ولا شك أن ابنه عبد العزيز قد حذا حذوه في الاهتمام بالعلم والتعليم، ومن بعده أحمد أمقران ثم ابنه سيدي ناصر ثم سيدي بتقة، وما تلقب بشيوخ الأسرة بـ"سيدي" إلا دليل على تبحرهم في العلم وتدينهم أيضا، بل أن السلطان سيدي ناصر كما تذهب إليه بعض المصادر قد صب كل اهتمامه ببناء الزوايا ومدارس العلم، وأهمل شؤون السلطنة الأخرى، مما تسبب في تدمير السكان منه فدبروا له مكيدة واغتالوه في منطقة الجنوب عندما ذهب في رحلة لتفقد المؤسسات الدينية والتعليمية بها³.

ولم يكن التعليم في إمارة بني عباس ومشيجة مجانة يختلف عن التعليم في باقي أنحاء الإيالة خلال العهد العثماني بالجزائر، من حيث مؤسساته وأساليبه، فكانت الزاوية المركز الأول والأساسي في مزاوله التعليم، وكان الأطفال في الزاوية يتلقون في بداية الأمر تعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم يشرعون في حفظ القرآن الكريم حتى نهايته، وكانت طريقة التعليم تعتمد على إملاء المعلم للآيات القرآنية على التلاميذ الذين يقومون بكتابتها على لوحاتهم، وعندما يتأكد من أن كل التلاميذ تمكنوا من حفظ تلك الآيات، يملئ عليهم آيات أخرى وهكذا حتى ينتهون من حفظ كل آيات القرآن الكريم⁴، وينتقلون بعد ذلك إلى دراسة قواعد اللغة العربية وعلم التوحيد والتصوف، والقانون وتعاليم الدين الإسلامي حسب المذهب المالكي، والحديث الشريف وبعدها يتعلمون تفسير القرآن وعلم الحساب والهندسة والفلك وفي الأخير علم الأوراد⁵.

وكانت الزاوية تتكفل بكل مصاريف التعليم من إقامة ومأكل طوال فترة الدراسة، وكان التلاميذ عندما ينهون دراستهم بالزاوية ويعودون إلى ديارهم يفتحون مدرسة أو زاوية للتعليم لفائدة أطفال القرية وتستغرق مدة ذلك التكوين من ثمان إلى تسعة سنوات⁶، ورغم غياب المعلومات حول الهيئة التي كانت تتكفل بمصاريف التعليم، إلا أنه يمكننا القول بأن الزوايا كانت تتلقى الإعانات من السكان، الذين كان بعضهم يحبس أمواله في الإنفاق على الزوايا والتعليم، فكانت الزوايا والمؤسسات التعليمية تعتمد في تمويلها على أملاك الأوقاف والحبوس، وعلى الهدايا والهبات والعطايا التي كان أهالي الطلبة يمنحونها للمعلمين والمشايخ، وقد سجل القنصل الأمريكي وليم شالر إعجابه في مذكراته بطرق التعليم الذي كان يمارسه الجزائريون خلال العهد العثماني، حيث ذكر هذا القنصل بهذا الصدد أنه كان كل تلميذ يحمل لوحة، يمكن الكتابة والحو عليها بسهولة، ويكتب عليها سورة من القرآن، ثم ينقلها كل التلاميذ، والتلميذ الذي يتعلم بسهولة يعلم ذلك لبقية التلاميذ، وكان يتم التعليم بصوت مرتفع حيث يجلس المعلم، وحوله التلاميذ⁷، واستمرت هذه الطريقة في الاستعمال إلى يومنا الحالي نظرا لنجاحتها في التعليم.

– نظام القضاء:

قيل أن العدل أساس الملك، من هذا المنطلق أولى الحكام الأتراك عناية تامة بجهاز القضاء، وكان منصب القاضي من المناصب الهامة في الدولة، حيث كان الحاكم هو من يعين القضاة في مناصبهم، نظرا لحساسية وخطورة هذا المنصب، ورغم أنه لا توجد لدينا معلومات كافية تتحدث عن القضاء في ظل حكم سلاطين وشيوخ أسرة أولاد مقران في قلعة بني عباس ومجانة بسبب غياب المصادر

¹ - الحسين الورثياني: المصدر السابق، ص36.

² - Féraud: op cit, p.208.

³ - يذكر أحفاد المقراني بأن سكان بنو عباس عندما أرادوا اغتيال السلطان سيدي ناصر الذي كان في الجنوب يتفقد بعض إنجازات الإمارة استدعوه بقومهم أن أمورا قد وقعت في القلعة وأن عليه أن يعود، وذلك حتى يحيدوه عن جيشه وبالتالي يسهل عليهم اغتياله، (رواية السيد جمال صديقي في مقابلة معه في شهر ماي 2003م بمقر سكناه في العناصر بولاية برج بوعريش).

⁴ - العيد مسعود: المرجع السابق، ص62.

⁵ - Daumas et Fabar: op cit, p.358.

⁶ - Ibid, p.64.

⁷ - وليم شالر: مذكرات وليم شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1818-1824م)، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982م، ص85.

أو سكوها، لكننا يمكن أن نستنتج أنه ما دامت الأسرة كانت تتمتع بالاستقلال عن السلطة العثمانية حسب ما ذهبت إليه المصادر المعاصرة، فإنه بلا شك كان للأسرة نظام قضائي لا يختلف عن النظام الذي كان سائدا في منطقة القبائل بصفة عامة، حيث يذكر دوماس أن مصدر الحكم في إمارة بني عباس كان القرآن والحديث والعادات والتقاليد والأعراف¹، وكان يعتمد على مجلس الجماعة وهو بمثابة المجلس الاستشاري، الذي يتألف من مجموعة من الشيوخ يمثلون القرى والدواوير، يجتمع مرتين في السنة للنظر في شؤون الإمارة، وقد يعقد اجتماعا طارئا إذا اقتضى الأمر، وكان الحكم يستند إلى تعاليم الشريعة الإسلامية²، وللإمارة قانونها الخاص فيما يتعلق بالمخالفات والعقوبات، وكانت جلسات المحاكمة تعقد في المسجد، وكان سلطان الإمارة هو القاضي والحاكم في الوقت نفسه، حيث ذكر فيرو أن السلطان أحمد أمقران بنى مسجدا كبيرا في القلعة وكان يحكم فيه بين الناس³، ومن أمثلة تلك المخالفات والعقوبات:

- عقوبة الشتم، دفع غرامة قدرها 1 بسيطة، وقيمتها 2 فرنك وخمسون سنتيم.
 - الضرب دون إسالة الدم، يدفع صاحبه غرامة قدرها 2 بسيطة، وقيمتها 5 فرنكات.
 - الضرب مع إسالة الدم، يدفع الفاعل 5 بسيطات، وقيمتها 12 ونصف فرنك فرنسي.
 - تصويب بندقية اتجاه أي شخص، يدفع الفاعل 20 بسيطة، ويقابلها 50 فرنكا.
 - إذا أطلق النار وأصاب الشخص يدفع 100 بسيطة، وتمثل ما قيمته 250 فرنك.
 - وأما إذا أصاب الشخص ومات، فالقاتل وجب عليه القصاص وفق الشريعة الإسلامية، وإذا فر تصادر أمواله وممتلكاته، ويقوم الشيخ المسؤول عن القرية ببيعها وتوزيع المال على سكان القرية، ويبقى الثأر يلاحقه حيثما ذهب⁴.
- يمكننا القول أن أسرة أمقران كانت تمارس سلطة حقيقية في المناطق التابعة لحكمها، وكان لحكامها الكلمة المسموعة والأمر المطاع، فكانت تمثل دولة داخل دولة كما وصفها أحد الكتاب الفرنسيين.

8- علاقة المصاهرة بين شيوخ الأسرة المقرانية والأتراك العثمانيين:

عبر التاريخ الإنساني الطويل، لم يكن الزواج مجرد اتفاق مجتمعي تُشرعن عن طريقه العلاقات العاطفية ما بين المتحابين فحسب، بل كان في الكثير من الحالات وسيلة ذات مضامين اقتصادية وسياسية وسلطوية هامة. فإذا كانت الحروب هي التحلي الأكثر فظاعة ووحشية لحل المشكلات السياسية ما بين الأسر الحاكمة والدول المتنافسة، فإن القصور التي عُقدت فيها حفلات الزواج والمصاهرة، كانت الوجه الأكثر دبلوماسية وإنسانية لحل تلك المشكلات المستعصية⁵، ومن هذا المنطلق كان الأتراك العثمانيين حريصين منذ الأيام الأولى من مجيئهم إلى الجزائر على الارتباط بالأسر المحلية الكبيرة ذات النفوذ والمكانة في وسط السكان، وكانت إمارتي كوكو وبني عباس من أشد المقاومين للأتراك في بداية عهدهم، وتيقن الأتراك أن مواجهة هذه الإمارات بالقوة لن يجدي نفعا، فاتخذوا من سياسة المصاهرة معها وسيلة للتقرب منها، لمساعدتهم في مد سلطتهم على كامل تراب الإيالة.

¹ - Hanoteau et Letourneau: op cit, p.136.

² - Pierre Hacoun: op.cit, p.38.

³ - Féraud: op.cit, p.232.

⁴ - Carette: op.cit, T2, p.483

⁵ - محمد يسري: الزواج السياسي في التاريخ ميدان الدبلوماسية الذي تفوقت فيه النساء، <https://raseef22.net/>, 2017/07/14م.

ويعتبر خير الدين باشا¹ أول من صاهر سكان الإيالة الجزائرية، حيث تزوج من أرملة الشيخ سالم التومي²، وأنجب حسن باشا الذي ارتبط هو الآخر بالأهالي عندما تزوج من ابنة أحمد ابن القاضي أمير كوكو عندما رفض عبد العزيز سلطان قلعة بني عباس تزويجه ابنته³، ولم يقتصر ارتباط الحكام الأتراك عن طريق المصاهرة بأسرة أولاد مقران على الأوائل فقط بل سعى حكام آخرون إلى التقرب من أولاد مقران طوال فترة حكمهم للإيالة الجزائرية ومصاهرتهم، نظرا للنفوذ الكبير الذي كانوا يتمتعون به في المنطقة وبدافع الارتباط بالأسر الشريفة أيضا، حيث يخبرنا فايسات أن علي باي بن صالح 1710-1713م⁴ قام بتزويج بناته الثلاث لشيخ أولاد مقران، وعلى رأسهم كبير الأسرة الحاج بن بوزيد المقراني الذي تزوج البنت الكبرى تركية، وتزوج أحمد بن بورنان من خديجة⁵. وذكر العنتري كذلك أن الباي أحمد القلي (1756-1771م)⁶ تزوج من الداخنة بنت بوزيد المقراني شيخ مجانة، وهي التي أنجبت له محمد الشريف والد أحمد باي (1826-1837م) آخر بابايات قسنطينة، وذلك لأن زوجته الأولى لم تنجب له الأولاد، كما هدف من وراء هذه المصاهرة إلى الاستفادة من نفوذ أسرة أولاد مقران لمساعدته على استقرار المنطقة الغربية من بايلك قسنطينة⁷ ثم زوج الباي أحمد القلي إحدى بناته وهي من أم مقرانية إلى صالح باي الذي كان حينها في منصب الخليفة⁸، وبذلك تقرب صالح باي من أولاد مقران، ولا شك أنه استفاد من هذه القرابة فيما بعد عندما أصبح بابا على قسنطينة خلال الفترة الممتدة بين (1771-1791م).

وحسب جميلة معاشي فإن الباي حسن بوحناك (1792-1796م) صاهر أسرة أولاد مقران لتقوية مركزه وسلطته بالمنطقة⁹ التي لم تكن تخضع جيدا لسلطة الأتراك حسب ما جاء في رحلة الورثيلاني، وقد سعى الحاج أحمد باي آخر بابايات قسنطينة إلى ربط علاقات متينة مع الأسر المحلية الكبيرة ذات السلطة والتأثير القويين في مناطق حكمه ببائلك الشرق، لإدراكه مدى أهمية الارتباط بها في استقرار حكمه للبائلك، وذلك عن طريق مصاهرتهم، فتزوج من ابنة بن قانة سادة الصحراء¹⁰، وتزوج من عيشوش ابنة محمد بن عبد السلام المقراني¹¹، وصاهر سادة فرجية وزواغة أيضا، ومن المؤكد أن هذه المصاهرات ساهمت في حكمه للبائلك الذي يعتبر من أصعب البائلك نظرا للعدد الهائل من القبائل التي تنتشر به.

¹ - يعتبر خير الدين باشا مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، ومن أشهر الرياس والقباطنة في العصر الحديث ولد سنة 1472م في جزيرة ميدللي وتوفي بإسطنبول سنة 1537م.

² - لقد أظن الكاتب والدبلوماسي الفرنسي لوجي دوتاسي في حديثه عن العلاقة الغرامية بين عروج رايس وظفيره زوجة الشيخ سالم التومي الذي اغتيل على يد عروج في كتابه تاريخ مملكة الجزائر، والغريب أنه يعتبر المؤرخ الوحيد الذي تحدث عن هذه القضية، ويُعرف عن هذا الكاتب أنه كان موضوعا في تناوله تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني حيث نجده يشير إلى الأحكام المسبقة والعشوائية التي ميزت الكتابات الأوروبية عن الجزائر خلال هذه الفترة، لمزيد من المعلومات أنظر:

Laugier de Tassy: Histoire du Royaume d'Alger avec l'état présent de son gouvernement, Amsterdam, 1725.

³ - Berbrugger: op. cit, p.66.

⁴ - بعد أن أدى هذا الباي فريضة الحج استقر بزواوة سيدي أحمد بن علي بمجانة حيث تفرغ فيها للعبادة إلى غاية وفاته بها، أنظر:

⁵ - Eugène Vayssettes: Histoire de Constantine, p.98.

⁶ - سمي بالقلي لعمله لمدة طويلة كأغا النوبة في مدينة القل، والقل هي مدينة ساحلية جميلة تقع في الشرق الجزائري.

⁷ - أحمد سبساوي: فريدة مؤنسة في حال دخول الترك قسنطينة واستيلائهم على أوطانها وذكر شيء مستفاد من سيرة باباها في انقضاء دولتهم واحتواء الفرنسيين على مملكتهم، المشهور بـ (تاريخ بابايات قسنطينة)، لمحمد الصالح العنتري، بحث قدم لنيل شهادة دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 1983م، ص140، وكذلك:

- Vayssettes: op. cit, p.69.

- Mercier: Histoire de Constantine, p.268.

⁸ - فاطمة الزهراء قشي: قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الثاني من القرن 19م، رسالة دكتوراه، جامعة تونس، 1998م، ص111، أنظر كذلك:

Gaid: Chronique des Beys de Constantine, p.3

⁹ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص206.

¹⁰ - Temimi: Le Beylik de Constantine, p.61.

¹¹ - Gaid: op. cit, p.268.

ولم تتوقف سياسة المصاهرة مع أولاد مقران وغيرهم من الأسر الكبيرة على الحكام الأتراك فقط، بل نجد حتى القادة العسكريين والجنود الانكشاريين ارتبطوا بأولاد مقران عن طريق المصاهرة، وحسب الدراسة التي قدمتها ليلي بابيس توصلت إلى أنه من بين 36 حالة زواج جنود وقادة الجيش الانكشاري ببرج زمورة ابتداء من القرن 18م سجلت حوالي 16 حالة زواج من أسرة أولاد مقران¹، ويبدو أن علاقة القرابة التي كانت تجمع صالح باي² بأولاد مقران جعلت منه يتقرب أكثر من هذه الأسرة ويحسن علاقته معها، وقد استفاد من تلك العلاقة في فترة حكمه لبابيلك قسنطينة وذلك من خلال مساعدة أولاد مقران له في مد نفوذ الحكم التركي على الكثير من المناطق بالبابلك. حيث تحالفوا معه في حملته على تشرت عندما أعلن سلطانها فرحات بن جلاب العصيان، وتمكن من إخضاعه³.

وبعد استرجاع وهران من الاحتلال الإسباني⁴ ذهب أولاد مقران لتهنئة صالح باي بقسنطينة محملين بهدايا معتبرة وكان يتزعمهم حينها ابن عبد السلام⁵، وتعتبر هذه الزيارة في اعتقادنا مظهرا للعلاقة الحسنة التي كانت تجمع هذا الباي بشيوخ أولاد مقران، ويخبرنا مولود قايد أيضا أن شيوخ مجانة من أسرة أولاد مقران ساعدوا صالح باي بالرجال والسلاح في حملته ضد باي تونس عام 1787م⁶ غير أن معاملة هذا الباي للأسر الكبيرة قد تغيرت في آخر عهده، الأمر الذي جعل أولاد مقران يمتنعون عن تأييده في محنته عندما قام باغتيال إبراهيم باي سنة 1792م الذي أرسله الباشا ليحل محله، وأعلن تمرده، ولم يتوقف الأمر عند عدم التأييد والمساندة فحسب، بل أنهم انضموا إلى جيش حسين باي بن حسان باي بوحناك (1792م-1795م) مبعوث الداى، وهو في طريقه من الجزائر إلى قسنطينة للقضاء على تمرد صالح باي، الذي قتل إبراهيم باي المذكور أعلاه⁷، ويعود هذا التحالف حسب ما يذكر بعض المؤرخين والكتاب إلى أن حسين باي كان صهرا لأولاد مقران⁸.

وبالرغم من أن الحكام الأتراك كانوا يهدفون من وراء مصاهرتهم لأسرة أولاد مقران إلى إخضاع الأسرة والاتصال ببابيلك قسنطينة دون صعوبات إلا أنهم على ما يبدو لم يفلحوا في تحقيق ذلك، فقد كان الأتراك عند عبورهم منطقة نفوذ أولاد مقران مجبرين على دفع ضريبة العبور، التي يذكر الفرنسيين أن أولاد مقران والقبائل التي كانت تحرس مضيق أبواب الحديد، طلبوا من الفرنسيين أثناء عبورهم أبواب الحديد عام 1839م بقيادة ابن الملك الدوق أورليان، دفع ضريبة العبور، وكان الخليفة أحمد المقراني يرفقتهم، فدفعوا لهم تفاديا للاشتباك معهم رغم تفوقهم العسكري⁹.

ومن خلال ما سبق يمكننا الاستنتاج أن الأتراك كانوا يهدفون من وراء ارتباطهم بشيوخ أسرة أولاد مقران سواء بقلعة بني عباس أو في مشيخة مجانة، إلى الاستفادة من النفوذ والمكانة الدينية والسياسية التي كانوا يتمتعون بها في المنطقة الغربية من بابيلك الشرق،

¹ - Leila Babes: Tribus, Etats, pouvoir général, pouvoir locale, dans le Beylik de Constantine, p.13.

² - يعتبر صالح باي من أهم وأشهر البايات الذين حكموا بابيلك قسنطينة حكم البابيلك من سنة 1771م إلى 1791م لمزيد من المعلومات حول هذا الباي يراجع: Eugène Vayssettes: op. cit, p.221.

³ - ناصرالدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص73.

⁴ - تعرضت وهران للغزو الإسباني سنة 1509م وظلت تحت الاحتلال حتى تمكن الداى محمد بكداش (1707-1710م) من فتحها سنة 1708م غير أن الإسبان تمكنوا من استعادتها سنة 1732م، وظلت مثل الشوكة في حلق إيالة الجزائر حتى تمكن الداى حسن باشا من استئصالها سنة 1792م على يد الباى محمد الكبير (1792-1799م) لتتحول إلى عاصمة لبابيلك الغرب ومقر لحكم البايات.

⁵ - Gaid: Chronique des Beys..., p.43.

⁶ - Gaid: op. cit, p.34.

⁷ - أحمد بن مبارك العطار: المصدر السابق، ص72.

⁸ - كائكار: مذكرات أسير الداى كائكار قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص119، علي تابلت: «مدينة قسنطينة في الفترة العثمانية»، جريدة السلام، ع1558، الخميس 12/12/1996م، ص18.

⁹ - Féraud: op. cit, p.207.

أنظر كذلك:

وبالتالي ضمان أمن واستقرار تلك المنطقة، وجمع الضرائب منها كدليل على خضوعها وولاءها للحكم التركي، بالإضافة إلى محاولتهم الارتباط بالأسر الشريفة جريا وراء الحصول على النسب الشريف.

بناءً على ما سبق يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

- إن تمكن الأسرة المقرانية من تأسيس إمارة في تلك المنطقة الموحشة (قلعة بني عباس) المقررة يدل على عبقرية فذة، وعلى وعي سياسي كبير بالواقع المرير الذي كانت تعيشه المنطقة بسبب ضعف السلطة الحفصية التي كانت هذه المنطقة تابعة لها إداريا.

- تمسك الأسرة المقرانية بالعبادات والتقاليد الإسلامية والعرفية، يدل على أصالتها.

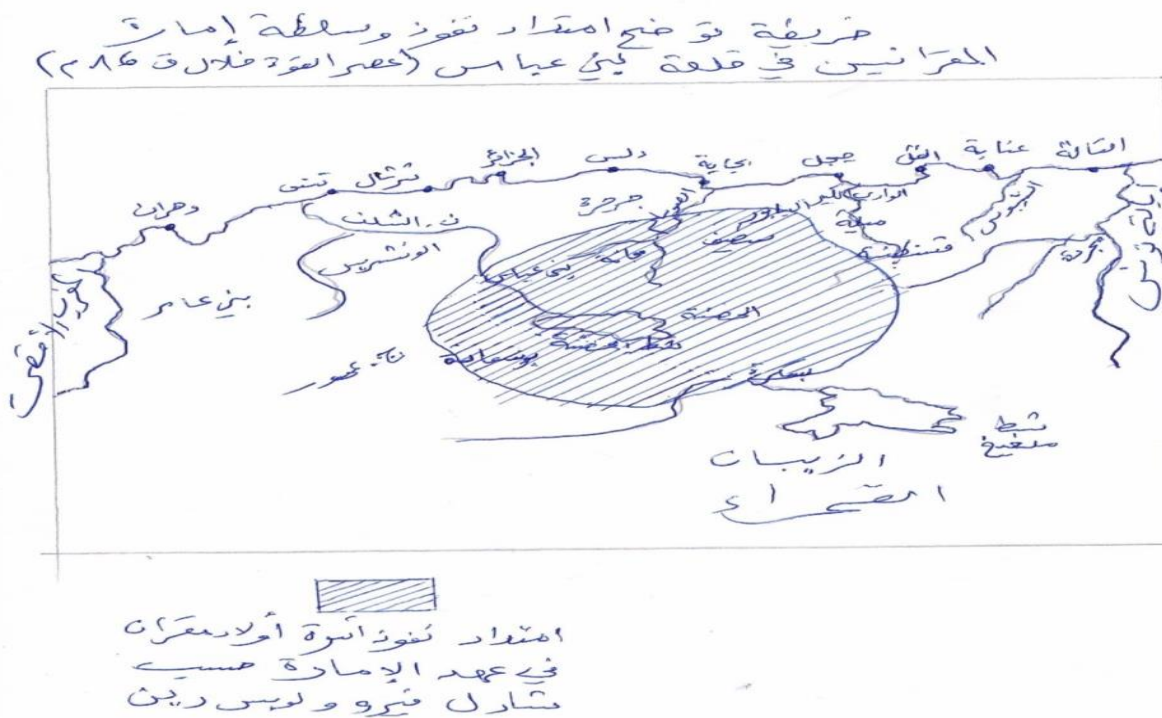
- على الرغم من الطبيعة القاسية فإن السكان تمكنوا من التأقلم معها وتسخير الإمكانيات المتوفرة لخدمتهم، كما ساهمت في نشاطهم وحيويتهم، وتنوع النشاط الاقتصادي من فلاحي وصناعي وتجاري.

- كان التحكم في القبائل الكثيرة وإدارة وتسيير شؤون هذه القبائل يتطلب عبقرية وصرامة وشدة من طرف شيوخ الأسرة.

- استطاعت الأسرة أن تحافظ على تماسكها رغم قوة الدولة العثمانية، وجوؤها إلى الأسلوب التقليدي فرق تسد بهدف إضعافها والتحكم فيها.

خاتمة:

وفي الأخير لنا أن نتساءل كيف أمكن لأسرة أن تفرض كلمتها على الدولة العثمانية بجبروتها وقوتها حيث كانت تجربها على دفع ضريبة عبور منطقة البيلان، على الرغم من أنها كانت قوة لطالما أرعبت أعنى الدول الأوروبية وأجبرتها على دفع الإتاوات والهدايا؟ والجواب حسب اعتقادنا أن الأتراك لم يرغبوا في فتح جبهة عدائية داخل البلاد، في وقت كانوا يحاربون بالجبهة الخارجية ضد الدول الأوروبية التي كانت تتحين الفرص للانقضاض على الإيالة، وبذلك كان الأتراك يرغبون في تحقيق الاستقرار الداخلي حتى يتمكنوا من الصمود في وجه المخاطر الخارجية.



المظاهر العمرانية والمعمارية لقلعة بني عباس ما بين القرنين 16-19م

عبد الحميد بودرواز - جامعة المسيلة

يتناول هذا العمل جنبات من المظاهر الحضارية للإمارة المقرانية بقلعة بني عباس في ظلّ الوجود العثماني بالجزائر من خلال نظامها التخطيطي والتوزيعي للمرافق العامة والوحدات المعمارية المختلفة، وفق مبدأ المزاوجة بين العمارة الإسلامية والمحلية من حيث الوظيفية والأهداف؛ والتي تبرز إلى حدّ بعيد مدى اهتمام وسعي أمرائها الذين توالوا عليها لخدمتها ولجعلها حاضرة تعانق سلسلة جبال البنيان، كما يمكننا من خلال هذا العمل معرفة بعض الطرز المعمارية والبنائية التي أثّرت بها القلعة على ما جاورها من قرى تابعة لإقليمها تدلّ في مجملها على أصالة في الطراز وبساطة في التشكيل، وكذا عمق في الإيحاء والرمزية.

إن قلعة بني عباس في واقع الحال تعد من أهم الفضاءات الريفية بالمغرب الأوسط (الجزائر) التي ضمت في جنباتها مجموعة معتبرة من المعالم الريفية التي اصطبغت بعضها بالمظهر الحضري، كما أشارت إليه بعض المصادر وكتب الرحالة مما يخولها لأن تكون مصدرا للتأثير العمراني والمعماري على العمارة الريفية بريف بجاية وما جاورها إضافة إلى النهضة الاقتصادية والنفوذ السياسي والعسكري التي عرفته على يد أمرائها وسلاطينها في ظل الوجود العثماني بالجزائر، وهو ما يفتح الباب واسعا للاهتمام بهذا النوع من المواقع والمواضيع المهمة والحساسة التي ألزمتنا التطرق له بما يتطلبه الجانب الأثري من الدراسة بالتعريج على المعطيات العمرانية والمعمارية المبرزة لماهية القرى والأرياف من حيث المفهوم والقيمة، وكذا التعرف على أهم الخصائص المبرزة لقيمة هذه القلعة في ما اكتنفها من فضاء جغرافي وتضاريسي، وهو ما سنراه جليًا من خلال هذا العمل.

أولاً- المفهوم العام للعمارة والعمران في البيئة التقليدية (القرى والأرياف):

تعتبر القرية النواة السكنية في المجال الريفي، وهي متميزة بأهميتها الديمغرافية ووظائفها الاجتماعية والاقتصادية وتشكلها المورفولوجي ومعالمها، وكذا بعلاقتها المزدوجة مع المركز الحضري والمحيط البدوي، غير أن تعدد المفاهيم في الحقل الدلالي عبر الزمان والمكان يقتضي تحليلاً أفقياً وعمودياً وصولاً إلى تصنيف المفاهيم¹، وهي بهذا تلك الوحدة السياسية والاجتماعية التي يسمح به اجتماعها. حيث يمكن أن تتصل قريتان جغرافياً، كما يمكننا أن نعرف من خلالها وحدة كتلة القرى اجتماعياً أو تفريقها بما يثبّط أو يزيد في التطور العمراني والسكني لها من خلال الزيادة في عدد ساكنيها²، ومن هذا المنطلق فإنه يمكن للقرية الواحدة أن تنقسم إلى قسمين، وينتظم كل جزء منها آلياً، ومن الحقائق أنّ نشوء القرية قد صاحب الإنسان منذ الاستقرار على سطح الأرض، وانتقاله من حياة القنص والتنقل إلى حياة الاستقرار والعمل، والإنتاج قبل آلاف السنين³.

1- مفهوم القرية:

ارتبط المفهوم تحديداً بطبيعة شبكة التوطن وهيكلتها إذ كثيراً ما ذكرت القرى في علاقتها مع مركز حضري قادر على بسط نفوذه على الإقليم كاملاً، ولقد ذكر كل من البكري والإدريسي وغيرهم مصطلح القرية بكونها: قرية أهلة، قرية كبيرة، قرية تشابه المدينة، وغير ذلك من الألقاب⁴، وضبط مفهوم القرية بكونها تحدد بالمعنى المقابل للمدينة على أنها مركز توطن ريفي يفتقر إلى

¹ - محمد حسن: الجغرافيا التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع الميلادي، دار الكتاب الجديد، ليبيا، 2004م، ص18.

² - Mahé(A); Histoire de la grande Kabylie 19e-20e siècles, Ed Bouchene, 2000, p.78.

³ - إبراهيم ناجية عبد الله: (المعايير المميزة للريف والحضر في العصور الإسلامية)، مجلة المجمع العلمي العراقي، ع2، جامعة بغداد، العراق، 1988م، ص189.

⁴ - أبو عبيد الله البكري: المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، 1962م، ص46-75، الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبع جامعي نابلي وروما، 1970م، ص153-163.

مؤسسات إدارية وإلى سلطة سياسية هامة¹، وقد توجد في السهول والجبال على حد سواء، كما عرف الزّيف أو القرية كذلك عددا من الوظائف المدنية والعسكرية المرتبطة بالمؤسسات الرسمية الكبرى في مراكز المدن أو العواصم رغم أنها لم تكن في مستوى المؤسسات المركزية لكنها كانت تلبي جانبا مهما من مطالب سكان القرى والأرياف².

2- عمارة القرية:

هي ذلك التجمع السكاني المتميّز بمرافقه المختلفة، وما يميّز طبيعة عمرانها وبنيتها ووظائفها حيث يعد المسجد الجامع أحد العناصر الفاصلة بين المدينة والقرية غير أن هذا العنصر غير كاف لأن يكون مميزا للمدينة عن القرية بحكم أنّ كثيرا من القرى قريبة فيما بينها³، كما هو حال قرى قلعة بني عباس التي كانت مزودة بمسجد جامع ألا وهو جامع أحمد أمقران سواء اشتركت القرى القريبة من بعضها في بنائه أو ما تأسس داخل القرية الواحدة من الجوامع نتيجة النمو الديمغرافي أو الاختلافات العشائرية⁴. كما هو الشأن بالنسبة لجامع أحمد أمقران وجامع بومرزوق بالقلعة أيضا.

إنّ أهم المعالم المعمارية المميزة للقرية في المغرب الإسلامي وخاصة في نهاية العهد الحفصي وبداية العهد العثماني وجود مسجد، ومركز تعليم (مدرسة أو زاوية)، وبعض المتاجر والسور، وكذا المنشآت المائية بالإضافة إلى السكنات والشوارع، وهي بذلك تنقل النموذج الحضري لكن بصورة جزئية لصعوبة توفرها بالكامل في قرية واحدة⁵، وتتوزع هذه المرافق والوحدات المعمارية بحسب الطبيعة التضاريسية والجغرافية للأرضية المستقبلية للبناء. حيث يتم في بعض الأحيان تهيئة الأرضية في المناطق المنحدرة وتهدئتها لبنائها وتتصل سكناتها على شكل أربطة⁶، وهي كذلك ذات طابعين هما: القرى المحصنة مثل قرى قلعة بني عباس ببجاية المحصنة طبيعيا ومعماريا، وكذا المنعة البنائية لقرية إثرون بوضواحي بجاية كذلك⁷، أما غير المحصنة فمنها ما انتشر في ربوع المغرب الإسلامي عبر المراحل التاريخية المتلاحقة، كما أنّ القرى والأرياف تخضع لمعايير مهمة تتبين من خلالها معطيات كثيرة.

3- القرية في منطقة بني عباس:

إنّ مفهوم ثادارت (taddart) أو إغرم (igèrm) أو تاقبيلت (taqbilt) تعني محليا على التوالي القرية المحصنة أو القصر المحصن. حيث أن القرية في منطقة أو إقليم الريف البحائي تعدّ كخلية النحل⁸، وهي شأها في ذلك شأن التكتلات القروية الأخرى مثل عشيرة بني ورثيلان القريبة منها، والتي تخضع للطبيعة الجغرافية ولا تنقسم إلا بحسب الوحدة الطبوغرافية مثل الكتلة المركزية لقرى قبائل جرجرة، والبيبان والبابور أو يتوزعون بطريقة متقطعة مثلما هو الشأن بالنسبة للتجمع المشكل من طرف المقاطعة الكبرى لبني عباس بهذا الزّيف⁹.

⁵ - محمد حسن: المرجع السابق، ص18.

² - إبراهيم ناجية عبد الله: المرجع السابق، ص214.

³ - محمد حسن: المرجع السابق، ص22.

⁴ - المرجع نفسه، ص22.

⁵ - نفسه، ص23.

⁶ - Maunier (R); La Construction Collective de la Maison en Kabylie, institut D'ethnologie, Paris, 1921, p.8

⁷ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ص353.

Carette (E); Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années (1840, 1841, et 1842), Etude sur la Kabylie, imprimerie nationale, Paris, pp.326-327.

⁸ - Adam (A); Hespéris, Archives berbères ... des hautes études marocaines ,année 1950,1er et 2eme TR, librairie larose, paris, p.293.

⁹ - Mahé(A);op.cit, p.15.

إن كل فرقة من بني عباس متوزعة على الحروبة، وتعدّ قرى هذه المنطقة من القرى كبيرة الحجم والتي استفادت من الظرفية العامة في نهاية العهد الحفصي وبداية العهد العثماني¹. إذ استقبلت الفارين من حراية البدو وعدوانية القراصنة، وقد تجاوز عدد منازلها المائة مسكن في القرن السادس عشر الميلادي، ومن بين أهم العناصر المشتركة التي تولّى أفراد الجماعة المؤسسة لقلعة بني عباس وعلى رأسهم عبد العزيز العباسي بناء قصبة في القلعة، وتحصينها بالأسوار بمعية الإسبان²، وقد تشكل جدران المساكن نفسها الجدار الخارجي للصور مثل ما هو الأمر في القلعة، وتكوّن المجموعة من القرى ما يعرف بالعرش، والذي يكون أكبر من القرية وكذلك العشيرة. حيث يكون عدد السكان كبيرا ويكون الفارق كذلك من الناحية الجغرافية.³

4- التقسيم الاجتماعي:

إنّ الهيكل الاجتماعي العمودية المشكّلة للقرية أو "ثادارت" تنقسم إلى وحدات مختلفة يقوم عليها عمودها الفقري، ويتدرج فيها تسلسليا لتتضح حقيقة التنظيم، ودقته في ربوع كل قبائل زاوية يعني هذا المصطلح القرية التي تمثل الوحدة السياسية والاجتماعية والإدارية والاقتصادية الأساسية للمجتمع القبائلي الزواوي، ولها فضاءها الخاص وبحدود معلومة للجميع. حيث تحتضن هذه الأخيرة كل التجمع السكاني المنتمي إليها بداية بأحام ونهاية بإخريا في فضاءها المحصن وغير المحصن⁴، وتتكون تخطيطيا من ممرات ضيقة (طرق فرعية) حيث تؤدي إلى الحارات والمنازل الخاصة والمعروفة بالزقاق (أزقاق)، ولا يسلكها إلا أهل القرية وضيوفهم أما الطريق الثاني فهو الطريق الرئيسي، وهو الذي يتخلل القرية من الشمال إلى الجنوب أو من الشرق إلى الغرب حسب الوضعية الجغرافية والجيولوجية للأرضية المستقبلية للقرية (ثادارت)، ويسلك هذا الطريق العام والخاص من القرية وكذا عابروا السبيل دون الدخول إلى الطرق الفرعية المحرّمة على البرّانية من القرية (غير المنتمين إليها وحتى ضيوفها)، وهذا لأغراض أمنية واجتماعية، ويمكن للقرية أن تكون مشكلة من تجمعين أساسيين هما الحارة أوفلاً وتعني الحارة العلوية، والحارة بؤدا أي الحارة السفلية⁵، ونجد هذا النظام في عديد المناطق في الرّيف البجائي، ومثال ذلك في منطقة صدوق (الأعلى والأسفل)، وهي تخضع للنظام الاجتماعي (ثاجماعت) وتقيد بأحكامه وقوانينه⁶.

5- التنظيم الاجتماعي والسياسي للقرية في قلعة بني عباس وتقسيماته:

يحكم كل قرية عادات وتقاليد، كما لها كبارها وجماعتها (ثاجماعت) الذين يلجأ السكان إليهم لحلّ المسائل التي تعترض مجرى حياتهم اليومية. حيث يفصلون في جميع الخصومات التي تحدث بين الحين والآخر بين أفراد القرية الواحدة أو ما بين القرى المجاورة ويساعد ثاجماعت في ذلك بعض عقلاء القرية وكبارها، وإن استعصت بعض القضايا فالحكم فيها فصلا يعود للعالم الشرعي الفقيه⁷ أو الأمير والسلطان كما هو الشأن في قرى القلعة على عهد أمرائها وسلطينها إلى غاية عهد سي ناصر بني عباس لتصبح بعد ذلك

¹ - محمد حسن: المرجع السابق، ص 20-21.

² - Ferraud (L. ch.); Histoire des villes de Constantine, « Bordj Bou Arreridj », in recueil des notices et mémoire de la société archéologique de la province de Constantine, N° 15, 1871, 1872, Paris. p.212.

³ - Kenzi(A); Tajmaat du Village Elaqlaa de At. Yemmel, thèse de magister, université Mouloud Mammeri, Tizi-ouzou, 1998, p.92.

⁴ - Maunier (R); Conférence faite le: 28-11-1930, et publier dan la sociologie et droit romain, paris 1930, p.09. Voire encore: Adam (A); Hespéris, Op. Cit, pp.325, 326.

⁵ - الحسين بن شيخ أث ملويا: القانون العربي الأمازيغي، دار الخلدونية، الجزائر، 2006م، ص 63.

⁶ - Missoum (S); Une maison berbère au village de ait lahen, Alger, p.126. Voire encore: Hanoteau et Letourneux; la Kabylie et le les coutumes kabyles, challamel, paris 1893, 3^{eme} volumes, p.66. Et voire: Mahé(A); Op. Cit, p.79.

⁷ - عبد الكريم بوعمامة: بنو يعلى - نحات من التراث اليعلاوي -، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006م، ص 45.

قرى القلعة خاضعة لنظام ثاجماعت فيما تعلق بالقضايا العامة، ويعودون في القضايا الكبرى للعائلة المقرانية بمجانة على عهد الشيخ أبي التقى إلى غاية عهد الحاج محمد المقراني¹.

أ- نظام ثاجماعت:

تمثل القرية الوحدة الأساسية في المجتمع المحلي للقبائل الرّيفية بالجزائر، وتعتبر الوحدة السياسية والإدارية لمنطقة قبائل زواوة، وтажماعت فيها هي جسم الحياة الخاصة ونظام مبدأ الاستقلالية. حيث يعين جسم القرية قيادته ويغير في قوانينه ويحكم نفسه بنفسه²، وتعد ثاجماعت حسب هانوتو ولوتورنو البيئة الموجودة في المجتمع القبائلي والتي تجمع كل السكان، ويرأسها أمين القرية، ويقول لوتورنو في ذلك: "كل قرية تمثل وحدة سياسية وإدارية، وتمثل حقا دولة، وتضمن شخصيتها وكل الحقوق لأعضاء الجماعة"³. كما يمكن أن يقف على رأس هذه الجماعة أو المؤسسة المرابطون أو الشرفاء⁴، مثلما هو الشأن في مناطق مختلفة من منطقة قبائل زواوة الكبرى والصغرى، ومثال ذلك قرى صدوق الأعلى والأسفل وما جاورها التي كانت تحت سلطة شيخ الزاوية الرحمانية الشيخ الحداد، وكذا قرى قلعة بني عباس بالريف البجائي والتي كانت تعود لأمرها وفق هذا النظام (نظام السلطنة أو الإمارة) في كل من عهود أحمد الأول إلى عهد عبد العزيز العباسي وأخوه أحمد أمقران، ونهاية بسيدي ناصر، وهذا لما لهؤلاء سابقا من تقدير واحترام كبيرين عند سكان القلعة وأقاليمها.

ب- مركز ثاجماعت (مجلس القرية):

تعتبر ثاجماعت ككلمة في منطقة قبائل زواوة (الكبرى والصغرى) ذلك المعهد أو البناية التي تحمي القرية في فضائها السكاني أو المعماري. حيث يرى بيرك (Berque) أن نمط النظام السياسي والإداري القروي القبائلي علامة ساطعة في التنظيم⁵، كما يعتبرها كل من هانوتو ولوتورنو القاضي الأول لدى سكان هذه المنطقة، فهي حسبهما: "مجلس لكل سكان القرية، ويتم الانضمام إليها في سن البلوغ بالنسبة للشباب ومن العادة أنه مطالب بدفع ريال واحد سبقا⁶، كما أن هذا النظام يسمح دائما بتجديد أعضائه من خلال بابه المفتوح دائما؛ حيث يتيح للجسد السكاني المتجمع الحضور الجماعي والدائم لاجتماعات هذا النظام"⁷، وهذا يدل على نوع من الحقوق الممنوحة للسكان وكذا الحرية التي يتمتع بها سكان القرى الزواوية في الجزائر سابقا وفق هذا النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لها، وهو كذلك ينطبق على منطقة قلعة بني عباس بقراها المختلفة، إلا أن هذه الجماعة قد تخضع في بعض الأحيان إلى قادة العائلات الكبرى التي لها تأثير ديني أو عسكري أو حتى مادي مثل ما هو شأن سلاطين وأمرأ قلعة بني عباس، وهي بهذا تلك المؤسسة التشريعية والقضائية التي تشرف على شؤون القرية وتناقش مسائلها المختلفة من صيانة للطرق، وقنوات الصرف الصحي والمقابر، ومياه الري، وتوزيع الأراضي الزراعية، كعهد أحمد أمقران بالقلعة، حيث توجد الملكية الجماعية لهذه الفضاءات⁸.

ج- التركيبة التكوينية لنظام ثاجماعت:

إنّ ثاجماعت أو الكتلة النظامية للقرية الذي يشابه لجنة القرية حاليا مكون من رئيس يعرف بالأمين (L'amin /)، وكذا تحتها الوكيل (لوكيل / Loukil)، وكذلك الضامن (الطامن / Tamen) الذي يمثل مجموع العائلات الساكنة إضافة إلى أعضاء آخرين

¹ - هاينريش فون مالتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص156-157.

² - Hanoteau et Letourneux; Op. Cit, p.4.

³ - Ibid, p.60.

⁴ - Adam (A); Hespéris, Op. Cit, p.337.

⁵ - Mahé (A); Op. Cit, p.79.

⁶ - Hanoteau et Letourneux; Op. Cit, p.66

⁷ - Mahé (A); Op. Cit, p.79.

⁸ - ياسمينة مسعودي: النظام العسكري والإداري في مشدالة ما بين (1830-1897م)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005م، ص33.

ثانويين مثل البراح والمرابط أو الإمام، والفئة المثقفة التي تساهم في تفعيل آليات الحوار والنقاش في الاجتماعات¹، ونسلط الضوء في هذا الموضوع على أهم عضو في هذه التركيبة النظامية وهو أمين القرية.

- الأمين:

إنّ لكل قرية نظامها الخاص بها لتنظيم وتصريف شؤونها والذي يتولى ذلك يعرف بالأمين (l'amin)، ويمثل رئيس الجماعة بالمفهوم الحالي وقراراته نافذة، كما يعرف كذلك باسم أمكسا (ameksa) أو راعي القرية، ولدى البعض الآخر نُثَادَارْت (aqarou ntaddart) أي رئيس القرية²، فهو بالفعل الحارس النشط والحذر للجماعة، ويتخذ القرارات والحلول الضرورية لأمن القرية، ويوجد بكل قرية أمين أو رئيس واحد، ويجب عليه أن يكون مقيما بالقرية³، ويختار من إحدى العائلات ذات النفوذ في القرية، وتسانده كذلك عشيرة قوية ليحظى بالاحترام، ويكون ميسورا لكي لا يخضع للإغراء المادي، وكذا يكون قادرا على قيادة العمليات الحربية⁴، ويعين بالاقتراع العام⁵، وفي حالة غيابه أو موته فإن جماعة العُغَال أو الصَفّ تتولى المهمة إلى حين تعيين أمين جديد⁶، وهو الذي يتكفل كذلك بضمان تنفيذ قرارات ثاجماعت، وبتحضير القضايا الواجب عرضها على المجلس. حيث يساهم وفق نظام الغرامة (الخَطِيّة) بزيادة مداخيل ثاجماعت والتي تطبّق وتنقّذ دون أي تسامح أو أدنى تخفيض⁷، وهو الذي يقوم كذلك بتحضير عقود البيع أو الشراء أو الإيجار بالنسبة للعقارات من أراض ومساكن، كما يقوم بالدراسات الأولية لبناء الأحواض والعيون والينابيع، وكذا إصلاح الطرقات ويشرف على إنجازها إضافة إلى إعلانه إشارة انطلاق عملية الحرث أو جني بعض الثمار كالتيّن والزيتون⁸.

ويشرف الأمين أيضا على بعض الأعمال الخيرية كتوزيع اللحم في العيد والمسمى بتيمشروط (Timechrute) والتي تأخذ أبعاد التعاون والتكافل الاجتماعي في قرى قلعة بني عباس ببجاية وغيرها من القرى، ومثال ذلك في قرى بني يعلى أيضا⁹، وقد اعتبر البعض أن النظام الاجتماعي والسياسي القائم في قرى زواوة ككل هو تنظيم ديمقراطي ومتساو، وكل عضو أو فرد فيه يتدخل بآرائه في تسيير شؤون القرية العامة¹⁰.

د- التكوين المعماري لمقر مؤسسة ثاجماعت:

هو نوع خاص من الوحدات المعمارية، بكونه مقرا لثاجماعت، وهو من النوع القوي والمختلف. حيث نبجده في كل قرية، كما يمكن أن يصل عدد مقارّها إلى غاية ستة مقرات للثاجماعت، وفيها يتم تقرير مجالس المقاطعة، والضواحي والذي يسمى محليا بـ: "أحام ثاجماعت"، ويكون غالبا قرب المسجد أو جزءا منه، وهو بذلك يصبح بناء ومركزا سياسيا ودينيا، مثلما كان المسجد النبوي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، يتكون هذا البناء من مساطب مرتفعة (دُكَانَات / tidoukanin) من الحجارة المسطحة¹¹، ونجد

¹ - Mahé (A); Op. Cit, p.80.

² - الحسين بن شيخ أث ملويا: المرجع السابق، ص 60.

³ - المرجع نفسه، ص 60-61.

⁴ - Hanoteau et Letourneux; Op. Cit, p.27.

⁵ - Remand (M); D'élargissement des droits politiques des indigènes, ses conséquences en Kabylie, R.A.F, 1927, N° 86 O.P.U. Alger, p.216.

⁶ - Hanoteau et Letourneux; Op. Cit, p.59.

⁷ - وتستخدم في شراء الثيران التي تذبح في الأعياد المحليّة وبعض الترميمات الخاصة بالمرافق العامة، كما أن عقوبتها لا تموت بالتقادم، بل يلتزم بها المدان ولو مرت عشرات السنين وتنفذ على الغني بدفعه الأموال أما الفقير فتأدية أعمال لصالح ثاجماعت لتأدية الغرامة، أنظر: الحسين بن شيخ أث ملويا: المرجع السابق، ص 116.

⁸ - الحسين بن شيخ أث ملويا: المرجع السابق، ص 61.

⁹ - عبد الكريم بوعمامة: المرجع السابق، ص 56.

¹⁰ - Le prince Bibesco (N); Les Kabyles du Djurdjura , La société kabyle avant la conquête française , R.Des deux mandes, T56, imprimerie .J .claye, 1856, p.568.

¹¹ - Maunier (R); Op. Cit, p.15

لها أمثلة مختلفة في قرى القلعة المسقوفة منها كثاجمات باب البرج بقرية أولاد حمادوش، وغير المسقوفة كثاجمات إِنْقَرَابَا، وكذا ثاجمات نْتَزيرت (جماعة تازايرت) بقرية أولاد عيسى وثاجمات لوطا نعلي وغيرها.

إنَّ أبعاد بناء الجماعة (ثاجمات) هي في غالبيتها بنفس أبعاد المسكن الخاص بحكم أنه بناء يقع بالقرب من الفضاءات السكنية، ويوجد قربه كذلك مكان عام يجتمع الناس فيه لكل ما هو مُفْرَح¹، ولا نجد في الغالب بمقر ثاجمات أبواباً موصدة بل بالعكس فهي مجالا مفتوحاً على الجهتين مثلما نراه في ثاجمات باب البرج ذات الشكل المنحني. حيث يكون شكل القاعة شبيهاً بالرواق أو السقيفة (Le porche)، وهي كذلك ذات شكل جبهي (frontal)، كما تستغل أيضاً للاحتماء من الطقس السيئ بالنسبة لعباري السبيل والسكان معاً، ويمكن للنساء أن تمررن بمشغولاتهن من هذا المقر في غير أوقات الاجتماعات، وكذلك الحيوانات التي تخرج وتدخل إلى القرية.

6- المرافق العامة في قرى القلعة:

لكل تجمع أو فضاء عمراني مرافقه العامة المكتملة لوحدها الخططية حيث نجد في الأرياف بعض المميزات والمرافق التي لا يمكن للمدينة الاستغناء عنها شأنها في ذلك شأن الأرياف والقرى وهي:

أ- الساحات العامة:

تنتشر في القرى المشكلة للقلعة ساحات عامة شأنها شأن ما نجد في ربوع مدن وأرياف العالم الإسلامي في العصور الأولى أو الحديثة. حيث نجد ثلاثة أمكنة أظهرت فيها البيئة التقليدية طابعها المميز لها وهي المناطق العامة والساحات، والفناء الخارجي المتصل بالوحدات السكنية في الشوارع، وكذا الطريق النافذ وغير النافذ، وهذا ما يبين الحركية التي صاغتها البيئة التقليدية²، وما تبينه كذلك من علاقات بين فرق الأعيان (ثاجمات) وفرق هذه الأماكن السابقة الذكر، والتي تؤثر بصورة مباشرة في البيئة العمرانية القروية ككل إذ نجد بقرى قلعة بني عباس ساحات عامة وعلى رأسها ساحة "لَوَطَة نَعْلِي" محاذية لجامع أحمد أمقران بحي أولاد حمادوش، وساحة "لَوَطَة نَسُوْق" قرب مسجد "أومفتاح" أعلى قرية أولاد عيسى إضافة إلى ساحة تازايرت أسفل جامع بومزراق. حيث تسمح هذه الفضاءات حسب خِطَّتِهَا في الأرياف بممارسة بعض الوظائف، كالاتجاعات والتجارة، وكذا المناسبات الدينية والأعياد المحلية التي لها صبغة خاصة في هذه المناطق، ومثال ذلك عملية "الوزيعة" الدالة على التكافل الاجتماعي في الوسط الريفي لقرى زواوة الصغرى والكبرى، ويظهر لنا اهتمام أمراء القلعة بهذا المرفق الضروري. حيث يقول فيرو في ذلك عن عهد أحمد أمقران: "... وقد هيأ النافورات والعديد من الساحات والطرق التي خُطَّتْ نحو الضواحي..."³.

ب- الشوارع:

إنَّ من مميزات البيئة التقليدية (المدن، القرى والأرياف) أنها توحى بعدم التنظيم بشوارعها المنحنية، وكثرة دروبها غير النافذة، وكذا استغلال السكان للساحات العامة من احتجاز للمواضع والجلوس بها، إما للبيع أو لوضع أمتعتهم، حيث تجعل الزائر لها يشعر بعدم التنظيم⁴.

¹- ibid, p.16.

²- جميل عبد القادر أكبر: عمارة الأرض في الإسلام، مؤسسة الرسالة، ط3، 1998م، ص237.

³- Ferraud (L, ch); Op. Cit, p.232.

⁴- جميل عبد القادر أكبر: المرجع السابق، ص238-239.

ج- الطرق العامة:

يمكن للعام والخاص المرور بها واستغلالها لقضاء حوائجهم¹، ومن أمثلة هذه الطرق والممرات في قرى القلعة الشوارع الكبرى الرابطة بين ساحاتها وقراها الثلاثة كساحات لوطة نعلي بأولاد حمادوش وساحتي ثاجماعت إينقرا وساحة تازايرت بقرية أولاد عيسى.

د- الطريق العام الخاص:

هو أقل درجة من الطريق العام إذ الارتفاق به يقل عن سابقه، وبالتالي تزداد سيطرة الساكنة فيه عليه، وهو يفضي إلى الطريق العام، وتتوزع منه شبكة طرق أكثر خصوصية²، ونجد أمثلة عدة لذلك في القلعة وأهمها على سبيل الذكر لا الحصر أحد الطرق الموجودة بحي تازايرت من قرية أولاد عيسى.

هـ- الطريق الخاص:

أعتبر الطريق غير النافذ (الخاص) في الشريعة الإسلامية ملكا لساكنيه، فقد استخدم الفقهاء عدة ألفاظ للتعبير عن مالكي الطريق كـ: " أهل الطريق" أو الشركاء، وأهل الطريق هم أولئك الذين لهم عقارات داخل الطريق، ولهم حق المرور فيه، والقاعدة في السيطرة عليه عموما هي أنه لا يجوز لأي فرد أن يتصرف في الطريق غير النافذ دون الموافقة من الشركاء³.

فهناك تنظيم اجتماعي خاص بين سكان الحي في القرى (الحارة) والطريق غير النافذ لعدم وجود القوانين خارج ما يسيطر به السكان على هذا الحيز المعماري (وفق نظام ثاجماعت)، وكل هذا إشارة إلى أن علاقة قوية تجمع بين التركيب الخطي والتنظيم الاجتماعي في المدينة أو القرية التقليدية⁴، وأفضل الأمثلة على ذلك في قرى القلعة بحي تازايرت وبالضبط في أحد الطرق غير النافذة على مسار دار منصور.

و- تنكيب الأبواب:

تعد ظاهرة تنكيب الأبواب في المجتمعات القروية ظاهرة مميزة للنظام التخطيطي للشوارع والمساكن على حد سواء. حيث فيهم من الفقهاء من ربط هذه الظاهرة، وتركها في أيدي الفرق الساكنة إذ منع بعضهم فتح باب إلى طريق نافذ يضر بالجار المقابل، وأمر بتنكيب الباب بقدر يزيل الضرر أو يخففه، ومنهم من أجازته في الواسع من الطريق بغض النظر عن ثبوت الضرر⁵، فمبدأ حيابة الضرر الذي يسبق به الجار جاره جعل صاحب منزل الحصان يفتح نافذة أسفل خرج المنزل (الخوخة) بكونه الأحدث مقارنة بمقابله، وتتجلى لنا ظاهرة تنكيب الأبواب بقرى القلعة في عدة مساكن بقرتي أولاد حمادوش وأولاد عيسى وأولاد هارون، وهذا حسب سيطرة نظام الجماعة (ثاجماعت) المسير لخطط وشؤون البناء بالقرية، وهو ناتج كذلك عن رضا الجميع من أهل الطريق.

7- الأسواق:

إن السوق ركيزة الحياة الاقتصادية في المدينة والريف، كما يعد كذلك من أهم مرافق الحياة الاجتماعية التي تكون إجبارا في المدينة وإلزاما في محيط الريف بكونه مقصودا من القريب والبعيد للمؤونة، وله مكانة كبرى في حياة قبائل زواوة الكبرى والصغرى إذ يمثل ذلك التجمع الشعبي الذي يقصده الناس من كل حذب وصوب إما للبيع أو الشراء أو لتبادل منتجاتهم، ولكل عرش من

¹ - خالد عزب: فقه العمارة الإسلامية، دار الجامعات للنشر، مصر، 1997م، ص95.

² - خالد عزب: المرجع السابق، ص95.

³ - جميل عبد القادر أكبر: المرجع السابق، ص279.

⁴ - المرجع نفسه، ص386.

⁵ - محمد بن إبراهيم اللخمي ابن الرامي: الإعلان بأحكام البنين، مركز النشر الجامعي، مصر، 1999م، ص320-321، جميل عبد القادر أكبر: المرجع السابق، ص271-282.

الأعراس سوق أسبوعية خاصة به وفي يوم معلوم للعام والخاص ويكون مقرّه غالبا ساحة كبيرة تعرض فيها البضائع والسلع المختلفة¹ حتى أنّ السوق في هذه المنطقة استغل لأغراض عدّة من بينها السياسة إذ دفعت الحاجة أولا والعادة ثانيا بممثلي أصغر التجمعات القبائلية الاتصال أسبوعيا فيما بينهم، ولمراقبة أحوال البلاد العامة كما يبحثون عن الأخبار ويشيعونها لتكوين ما يسمى بالرأي العام. ويمكن للسوق كذلك أن يكون مقرا لإعلان الثورات أو الجهاد لما له من تسهيل في الاتصال بأكبر عدد ممكن من السكان إضافة إلى المناشير والمراسيم المعلنة ضد المتمردين الذين يمنعون من دخول هذه الأسواق خاصة على عهد الدولة العثمانية بالجزائر² هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن السوق مقر التقاء الناس بذويهم وأصدقائهم حيث تعقد فيه أواصر القرابة وتفكّ المشاحنات، وهو مجمع البسطاء من الناس والشيوخ، والقضاة، والطلبة، والمرابطون الذين يقومون بحلّ مشاكل الناس وفصل خصوماتهم.

إن الوظيفة الحيوية والرئيسة للسوق كتجمع ومورد اقتصادي هي تصريف سكان الجبال، وعرب السهول، ورجال الصحراء لمنتجاتهم من زيوت وصابون وثمار جافة والحبوب والخضار وغيرها من المشغولات الحرفية³، وقد اهتمت عشيرة قلعة بني عباس بالسوق كمرفق ضروري يجمع بين قراها المختلفة. حيث يذكر لنا كارتيت الأسواق المختلفة لهذا الإقليم عام 1840م وهي أربعة:

- سوق الأربعاء: ما بين قريتي تازايرت وإغيل علي من مقاطعة القلعة.

- سوق ثان في نفس اليوم أسفل تالفسة.

- سوق الاثنين: في بوجلليل ثم حول ليوم الجمعة.

- سوق الخميس: داخل قلعة بني عباس (لوطة تسوق "الرجبة" بقرية أولاد عيسى).

وهناك أسواق خارجية يقصدها سكان بني عباس لبيع منتجاتهم وعلى رأسها سوق مجانة يوم الأحد الغنية بالأصواف والأغنام⁴، وكذا سوق برج بوعرييج التي يأخذون إليها منتجاتهم من الزيت والصناعات اليدوية⁵، ويعود نجاح هذه الأسواق إلى سببين هامين هما: تنوع المنتجات والمعروضات وكذا تخصصهم في البيع المباشر في السوق، والأمن الموفر فيها⁶. حيث سعى بنو عباس وعلى رأسهم أمراؤهم وسلاطينهم لمنح الحماية (العناية)⁷ والضمانة للأجانب لما يعود به ذلك عليهم من حركية تجارية وفائدة، وهذا لما لأسواق بني عباس من أهمية⁸، وما لسمعة صناعتها الصوفية وعلى رأسها البرانيس التي تسوّق في كل من الجزائر وتونس والمغرب الأقصى⁹، وأوربا أيضا¹⁰.

ويظهر لنا من خلال ما تمّ ذكره من مميزات السوق بإقليم قلعة بني عباس الواقعة في الضفة اليمنى لواد الصومام الدور الكبير والقوي في تطوير هذا المرفق العام محليا وكذا حركيته بما يضمن التمويل المستمر للسكان بالمستلزمات الضرورية للحياة الصعبة في قرى هذه المرتفعات.

¹ - عبد الكريم بوعمامة: المرجع السابق، ص56.

² - يحيى بوعزيز: الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن التاسع عشر، الثقافة، ع8، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1984م، ص159-189.

³ - Boyer (P); L'évolution de l'Algérie Médiane de 1830 a 1956, paris Adrien, Maison.Nevo 1960, pp.48-49.

⁴ - Carette (E); Op.Cit, p.357.

⁵ - هاينريتش فون مالتسان: المصدر السابق، ص163.

⁶ - Mahé (A); Op. Cit, p.37.

⁷ - لمزيد من المعلومات حول هذه الكلمة، أنظر: (التقارير الفرنسية للقائدين دوماس وفابر 1847م، ص70).

⁸ - Mahé (A); Op. Cit, pp.107-108.

⁹ - Carette (E); Op. Cit, pp.275-276, Ferraud (L, ch) ; Op. Cit , p.188.

¹⁰ - Daumas ; Mœurs et coutumes de l'Algérie, paris, Librairie de L .Hachette, 1853, p.178.

8- العيون والأسبلة:

يعدّ الماء عصب الحياة وعامل نشوء الحضارات في حالة توفّره، كما أنه من عوامل انتهائها في حالة ندرته وقلته في أي مدينة أو قرية¹، ويذكر لنا فيرو في فترة الاحتلال الفرنسي وجود عيون خمسة بالقلعة في قوله: "... وبعبدا توجد خمسة عيون مائية صغيرة عذبة جدا يمكن هجرها لكونها لا تعطي أكثر من مائتين وخمسين إلى ثلاث مائة لتر يوميا. أما العين التي توزع كل الماء تقريبا للمدينتين (قريتي القلعة) فتوجد أسفل الجبل في الجانب الشرقي (واد أولاد حمادوش)، وهناك عين أخرى أسفل أولاد عيسى وهي عذبة كذلك ومهجورة، ويسلك دروبها الماعز وتذهب النساء يوميا لجلب حاجتهن منها في قراب الماعز وفوق ظهور الحمير"². ويضيف في ذلك كاريت قائلا: "... وقد حفرت سبعة أحواض في الصخرة الموجودة على حافة ممر بين أحياء بن داود وأولاد موسى مياهها ضئيلة لكن الأمطار التي تتهاطل شتاء وكذا البرك تستجيب لطلبات وحاجيات السكان الذين يلتجئون في الصيف إلى واد بن حمادوش..."³. لذا حرص سكان القلعة وأمرؤها على توفير هذه المادة الحيوية، ويظهر ذلك منذ عهد الأمير أحمد الأول بن عبد الرحمان ببنائه مخازن المياه (الأحواض) من الحجارة والطين لتلبية حاجة السكان⁴، وكذلك كان أمر ابنه أحمد أمقران بعد أخيه السلطان عبد العزيز العباسي إذ شهد عصره تطورا بفضل "الإدارة الجيدة حيث سعى لتجميل وتحسين عاصمته القلعة ورفعها نحو الأحسن في مواضعها المعمارية، كما أنشأ عددا من المخازن الواسعة (أكوفان المرتفعة والدائرية) التي تخدم مخزون السلع والتي يأتون لشرائها من كل مكان، ثم هيأ النافورات والعديد من الساحات والطرق نحو الضواحي"⁵، كما يشير إليها فارين في كتابه حول منطقة القبائل، ويعطينا مثالا واضحا لطبيعة العيون المحيطة بالقلعة⁶.

ثانيا- العمارة الدينية بقلعة بني عباس:

تعدّ الشريعة الإسلامية الوجه الحقيقي، والمرجع الفعلي لتسيير الشؤون الاجتماعية والاقتصادية، والعمرانية، والفنية للمدينة والمجتمع الإسلاميين⁷، وكذا ريفها، كما أن العمارة الدينية هي الميزة الخاصة التي انفردت بها المدن الإسلامية عن غيرها من مدن السابقين، فهي ذلك اللباس وتلك الصبغة التي تحدد ماهية المسلمين وهويتهم بما تميزهم عن غيرهم من الشعوب. حيث أن منطقة القبائل الصغرى والكبرى كغيرها من مناطق المغرب الإسلامي تدين بدين الإسلام، ونجد حظ المساجد والمدارس والزوايا وافرا في أغلب قراها إضافة إلى حفظهم القرآن حفظا جيدا⁸، وتظهر لنا مساجد القلعة الجامعة ومصلياتها، وكذا زواياها ومدارسها القرآنية موزعة حسب أهمية أحيائها ومواقع وجودها، وبعد المسجد أو الجامع القلب النابض للمدينة إضافة إلى مساجد أحيائها (المصليات)، والتي اختلفت نوعيتها وغطيتها بحسب الأحياء الواقعة فيها وتطورت هذه الأخيرة رغم بساطتها مع الحياة الاجتماعية والدينية لأفراد الحي وسكانه⁹.

¹ - خالد عزب: المرجع السابق، ص 90.

² - Ferraud (L, ch); Op. Cit, p.187

³ - Carette (E); Op, Cit. pp.326-327.

⁴ - عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1980م، ص 558.

⁵ - Ferraud (L, ch); Op. Cit, p.232.

⁶ - Farine(Ch.); A travers La Kabylie, Ducroc Librairie Editeur, Paris, 1865, pp.220-223.

⁷ - Golvin(I); La mosquée, ses origines, sa morphologie, ses diverses location, institut paris d'hiver, 1960, p.17.

⁸ - Pélissier (E) ;Annales Algériennes, contenant le résumé de l'histoire de l'Algérie de 1848à 1854 et diverses Mémoires et documents,T3, Paris, 1854, p.88.

⁹ - محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، دار الآفاق العربية، 1999م، ص 233، وهبة عبد الفتاح: جغرافية العمران، نشر منشآت المعارف، الإسكندرية، 1975م، ص 44.

فقد اهتم أمراء قلعة بني عباس وسكانها بالعمارة الدينية من جوامع، ومصليات ومدارس قرآنية وكذا الزوايا، ويظهر ذلك جلياً بداية من أول أمير ظهر بالقلعة ألا وهو الأمير عبد الرحمن العباسي ببنائه لمدرسة قرآنية¹، كما كان من أمر ابنه أحمد الأول بعده من اهتمام بهذا الجانب إذ ابني في القلعة مثلثتها (زاوية) بعدما غير موقع وجوده القديم بالزوال² هذا بالإضافة إلى ما فعله ابنه أحمد أمقران، والذي بنى جامع الكبير في فترة حكمه التي امتدت ما بين النصف الثاني من القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الميلادي إضافة إلى المدارس التي أنشأها أيضاً³، كما كان لهذه الحركة المعمارية الدور الكبير والاهتمام في عهد ابنه سيدي ناصر بإنشائه زاوية كانت بمثابة مقر للمريدين والطلاب الذين وصل عددهم ثمانين طالباً، والإشراف عليهم كذلك⁴.

إن المتتبع لإمارة القلعة وتاريخها يلاحظ أنه رغم اهتمام أمرائها بالجانب العسكري منذ عهدها الأول إلا أنهم لم يهملوا الجانب الديني فيها. حيث وحسب إحصائيات تقديرية بلغ عدد مساجدها الجامعة وكذا مصلياتها التي ارتقت بقيمتها ودورها لمصاف المساجد إلى حوالي سبعة عشر مسجداً ومصلي، وذلك لما حوته القلعة من تعداد سكاني دعا سكانها إلى بناء هذا النمط من الوحدات المعمارية وبهاته الكيفية، ويرجع ذلك في غالبه إلى استقرارها على هضبة مائلة تصعب بناء المساجد الكبرى مثل جامع أحمد أمقران، وجامع بومرزوق بها.

إنّ المرافق الدينية العامة بالمدن والأرياف تمكنا من تتبع عمارة المساجد، ومعرفة تطور طرز العمارة الدينية بالريف البجائي، وبالضبط في قلعة بني عباس وكذا معرفة التأثيرات المعمارية الصادرة منها والوافدة إليها الحضرية منها والريفية، وهذا لتأصيل التصاميم والعناصر المعمارية التي شكلت، وكيفية تأقلم السكان معها في مبانيهم الدينية، وربطها بعوامل الطبيعة والمحيط الجغرافي⁵، وقد بلغ عدد مساجد القلعة الجامعة إبان الاحتلال الفرنسي ثلاثة مساجد جامعة بما ذنّها توزعت فرادى في كل حي من أحيائها الثلاثة⁶ بداية من حي إغيل حمادوش ممثلة في جامعها الكبير (جامع أحمد أمقران)، وجامع سيدي الموهوب بقرية أولاد عيسى أما الجامع الثالث الذي حوى مئذنة على غرار سابقه فهو بجي بوقطن (الجامع أوسار) من القلعة الذي لم نجد أثراً لمئذنته التي ربما دمرت إبان قصف الاحتلال الفرنسي للقلعة عام 1959م، وكذا إدراج مسجد أحمد بن سحنون وبومرزوق معها وتصنيفه في قائمة الجوامع لما كان من شأنه بكونه قد بني قبل الجامع الكبير (كان زاويته القرآنية) لأن السلطان أحمد الأول دفن به عام 1510م⁷.

أما اختيارنا في هذه الدراسة فقد وقع على نموذجين لذكرهما حسب حالتها المعمارية، وغطيتهما التي امتازت بها كغيرها من المساجد والمصليات المنتشرة في الريف البجائي، وحملت مشعل العلم والدين خاصة بعد سقوط بجاية في يد الاحتلال الإسباني عام 1510م⁸.

1- جامع أحمد أمقران (القلعة):

أ- الموقع:

يقع جامع أحمد أمقران في الجزء الأمامي الشرقي من قرية أولاد حمادوش⁹ بقلعة بني عباس قرب ساحة السلاح الحمادية، كما يرويه أهل المنطقة وأعيانها، يحطّ على ارتفاع 977.27م من مستوى سطح البحر.

¹ - Ferraud (L, Ch); Recueil de Constantine "BBA", p.204.

² - Ibid, p.185.

³ - Ibid, p.229.

⁴ - الحسين الورثياني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ط2، دار الكتاب العربي، لبنان، 1947م، ص36-37.

⁵ - محمد بن سويس: العمارة الدينية في منطقة توات - تخطيط نموذجاً - (ق6هـ-9هـ/12م-19م)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2008م، ص60.

⁶ - Carette (E); Etude sur la Kabylie..., p.358.

⁷ - مزيان وشن: مجانة عاصمة إمارة المقرانيين، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2005م، ص59.

⁸ - Ferraud (L, Ch), Op. Cit, p.256.

⁹ - قرية أولاد حمادوش: هي إحدى أهم القرى المكونة للقلعة وتقع في الجانب الأيمن منها، وكانت مقر حكم السلطان أحمد أمقران وبها زاويته التي أنشأها (جامع أو سانون حالياً).

ب- الوصف العام:

بني الجامع على يد أحمد أمقران في القرن 16م بالعقود، وقد تعرّض على غرار المساجد الأخرى لعديد الترميمات لما شهدته المنطقة من حروب وصراعات في الفترة العثمانية، وكذا الاستعمارية، وكان آخر هذه الترميمات عام 2011م بالإضافة إلى الطبيعة المناخية الصعبة للقلعة، ولا يزال في حالة نشاط، يتميز الجامع بشكله شبه المنحرف ذو مساحة إجمالية قدرت بـ: 238م² ذو سقف جملوني حديث ومئذنة ذات بدن أسطواني لا يختلفان عن الحالة الأصلية له يكتنفه صحن من جهتي القبلة والجهة اليمنى منها، وبإدماج الصحن معه يتخذ الجامع شكلا غير منتظم.

ويحتوي هذا الجامع على واجهات أربع تعدّ الواجهة الرئيسية منه هي الواجهة المستقبلة للقبلة حوّث في مركزها البدن الخارجي المستطيل لغرفة المنبر، والتي تحاذيها حنية المحراب البارزة نوعا ما، ويوجد بهذه الواجهة نوافذ أربعة وضعت مثنى مثنى بالنسبة لحنية غرفة المنبر وينفس الأبعاد والمقاسات يعلو كل واحدة منها عقد مفصص، وتقع المئذنة في الركن الأيسر من الواجهة بالمنظور العكسي حيث تتخذ قاعدتها شكلا مربعا ويمتد نحو الأعلى بطريقة أسطوانية.

أما فيما يخص الواجهة الجنوبية الغربية فيتوسطها مدخل يُتَوَجَّه عقد منكسر متجاوز من أعلى تعلوه نوافذ خمسة أصلية متناظرة المقاسات معقودة في مجملها بعقود نصف دائرية عدا الوسطى فهي ذات عقد حدوي، ويميّز الواجهة الشمالية الغربية بوابة رئيسية كبرى يولج منها إلى داخل الجامع يعلوها عقد مفصص يقوم على أربعة أعمدة أسطوانية، كما نجد في الواجهة الشمالية الشرقية مدخلا واقعا في الركن الشمالي منه به باب خشبي معقود؛ يتخذ جدار هذه الواجهة من أعلى شكلا منكسرا ليحمل بذلك السقف الجملوني الحديث للجامع على عكس القديم الذي شابه الشكل الهرمي بواجهاته الأربع.

ويطلّ الباب الأيمن من الجامع على رواق أيمن يتخذ شكلا مستطيلا تعلوه سُدّة النساء بمدخل في الجانب الأيمن من الرواق الخلفي للجامع؛ أما الرواق الخلفي فبه ست دعائم مضلّعة وضعت بالتقابل حاملة ثلاثة عقود مفصصة منكسرة ومتجاوزة عمودية على جدار القبلة منه. حيث يصل بين هذه الأخيرة والدعائم حليات مُقَعَّرَة بسيطة شابهت في نمطها الشكل اللولبي (الثعباني) الذي انتشر في العهد المرابطي بالجامع الكبير بالعاصمة، وكذا الموحدية بجامع تينمل¹. يُتَوَجَّح جدار القبلة من الرواق مدخلان يطلّان على بيت الصلاة يقوم عقدهما المفصصان المنكسران على أعمدة أسطوانية أربعة يتوجها من أعلى تاج على النمط الحمادي².

ويتخذ بيت الصلاة شكلا شبه منحرف مساحته الإجمالية مقدرة بـ: 125.5م²، ويتمّ الدخول إليه عبر مدخلين رئيسيين يقعان في جدار المؤخرة نجد في جدار القبلة محرابا مركزيا ذا حنية متجاوزة يعلوه عقد مفصص منكسر يقوم على عمودين أسطوانيين، ويحدّ المحراب إطار زخرفي بسيط يكتنفه من الجانب الأيمن غرفة المنبر التي تحمل نفس الخصائص الزخرفية المتوجّهة لواجهة المحراب، وتحطّ على المجال الفاصل بين المحراب وغرفة المنبر من أعلى رجل العقد المفصص، كما يكتنف المحراب وغرفة المنبر أربعة نوافذ وأربع خزائن جدارية وضعت مثنى مثنى متماثلة في أبعادها ومقاساتها تستعمل لحفظ المصاحف والكتب الدينية بجانب المحراب وغرفة المنبر دعامتان مستطيلتا القاعدة مضلّعتا البدن تحملان عقد من عقود بيت الصلاة، كما نجد في الجدار الجنوبي الغربي أيضا دعامتين مضلّعتين تقومان على قاعدتين مستطيلتين تحملان رجلين من أرجل عقود بيت الصلاة. بالإضافة إلى الجدار الشمالي الشرقي الذي يخلو من أية عناصر معمارية عدا الدعامتين اللّتين تماثلان مقابليتهما في الجدار السابق الذكر، وتقومان بنفس الوظيفة.

ويتوسط بيت الصلاة ست دعائم مشطوفة الأركان تقوم على قواعد مستطيلة الشكل مشكّلة بذلك بئكتين موازيتين لجدار القبلة بالإضافة أيضا إلى الأساكيب الثلاثة الموازية له والبلاطات الأربع العمودية عليه تشكل الدعائم في اتصالها بالعقود المفصصة

¹- Golvin (L); Essai sur L'Architecture Religieuse Musulmane, T4, L'art espagno Musulman, Editions Klincksick, 1979, p.215.

²- Bourouiba (R); Apport de L'Algérie à l'Architecture Religieuse Arabo- Islamique, Entreprise Nationale du Livre. Alger 1986, p.101-102.

المتجاوزة والمنكسرة ركيزة السقف المسطح من الداخل والذي تمتد فيه الأبدان العلوية المشكلة لبطن العقد لتحمله، ويصل بين هذه الدعامات والعقود نفس الحلقات المقعرة والمفصصة بفصوص صغيرة (arc alambrequin) كالتى نجدها بمباني الموحدين، وعلى واجهة مآذهم، كالكثبية بمراكش وحسان بالرباط، وكذا بمخاريبهم، مثل ما نراه في عقد الجدار المسطح بمحارب جامع تينمل في العهد الموحدى¹ بلغ عدد العقود إجمالاً 17 عقداً، وتتميز المئذنة في جامع أحمد أمقران بوجودها في الركن الجنوبي منه يرتفع الجزء الأسطواني من بدنها إلى أعلى لتبلغ بذلك ارتفاعاً يقدر بـ: 10.55م، ويعلو بدنها حلقة سمكية قاعدتها منحنية يقوم عليها درابزين الشرفة، كما يتوجها من أعلى جوسق قلبي مفلطح. أما قسم المئذنة الداخلي فيتم الوصول إليه من مدخل يقع في الجانب الأيسر من الجدار الجنوبي الغربي لبيت الصلاة. حيث يتوسط بدنها عمود أسطواني شكل من الآجر الأصم والملاط. تتصل به درجات موضوعة على بدن المئذنة بشكل حلزوني تصاعدي بكل منها فتحة وسطى معقودة وضعت لتثبيت رجل الصاعد إلى أعلاها؛ كما يظهر بدن الجوسق من الداخل مقيماً مقارنة بالخارج.

ج- ملاحظة: تتخذ مئذنة جامع أحمد أمقران من الخارج شكلاً أسطوانياً انتشر في الفترة العثمانية و نجد له مثيلاً في قسنطينة بمئذنة جامع سيدي الكتاني الذي بناه صالح باي قسنطينة في القرن 18م²، كما اتخذ المسجد نفس نمط بيت الصلاة لما هي عليه العديد من المساجد في المغرب الإسلامي باستعراض بيت الصلاة عن عمقه وذلك للاستزادة في عدد أشخاص الصفوف الأولى لما فيها من خير وبركة دينية. إضافة إلى خاصية غرفة المنبر بهذا الجامع والمشابهة لغرفة منبر جامع بومرزوق الواقع في حي تازايرت من قرية أولاد عيسى بالقلعة أيضاً؛ كما يعدّ هذا الجامع الوحيد الذي وجد به رواقان في منطقة الدراسة هو وجامع أولاد سيدي إبراهيم بصورة معاكسة، كما سنراه لاحقاً؛ أحدهما جانبي والآخر خلفي على عكس ما نراه في المساجد الريفية الأخرى المتقدمة الرواق، وهذا ما نجد له مثيلاً في عديد المساجد الكبرى على غرار جامع تلمسان الكبير والجامع الكبير بالجزائر³، وكذا الجامع الكبير بندرومة⁴. ويتميز هذا الجامع بظاهرة خاصة حيث وُضِعَ العقد الأوسط من الأسكوب الأول فوق إطار المحراب أو في مركزه، ونراها أيضاً في جامعي أحمد بن سحنون (أوسانون)، وجامع بومرزوق بالقلعة، وكذا في مسجد ابن الأرقط بحي السوقية في زمورة، وفي ضريح الشيخ سيدي خليفة بالمنطقة الجنوبية الشرقية لولاية سطيف.

2- جامع بومرزوق (القلعة):

أ- الموقع :

يقع هذا الجامع أسفل قرية أولاد عيسى، وفي الجزء الأيسر منها بحي تازايرت حطّ على مستوى مائل بارتفاع قُدِّر بـ: 953م عن مستوى سطح البحر.

ب- الوصف العام:

هذا المعلم من أقدم المساجد الجامعة في قلعة بني عباس، وحسب الروايات الشفوية المحلية فإن هذا الأخير يعود إلى بدايات نشأة القلعة، ويثبت ذلك قِدَمُ مواده البنائية، ورغم عدم وجود ذكر ثابت له في المصادر، والمراجع التاريخية إلا أن أحد المخطوطات المرسلة من طرف سكان حي تازايرت لأحد الشيوخ المنتمين لنسل الشيخ عبد القادر الجيلاني لتزقيته كجامع بهذا الحي تدلّ على عتاقته وقدمه بالإضافة إلى بقاياه التي تثبت بأنه كان تحفة معمارية قبل قصفه في فترة الاستعمار الفرنسي عام 1958م بالطائرة.

¹- Golvin (L.) ; Essai Sur L'architecture Religieuse Musulmane, Edition Klincksieck, 1979, p.269, Bourouiba (R); Op.Cit, p.185.

²- رشيد بورويبة: قسنطينة - سلسلة الفن والثقافة - وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1978م، ص120، أحمد توفيق المدني: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م، ص84-85.

³- غازي مكراشي: وحدة الفنون الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، 1995م، ص58.

⁴- Bourouiba (R); Op.cit, p.26.

ويقع جامع أبي مرزوق قرب ساحة صغيرة من حي تازايرت يتخذ في مجمله وبوحداته المدججة معه كصحن واجهة القبلة والرواق الجانبي الأيسر منه شكلا غير منتظم مساحته الإجمالية تقدر بحوالي 380.5م². أما فيما يخص مساحة الجامع منفردا فتقدر بـ: 167.5م²، ويحتوي هذا الجامع على واجهات أربع تخدمت في غالبها جزئيا أو كلياً نجد في جداره الجانبي الأيمن المشترك مع السقيفة الجانبية المهدامة مدخلين أحدهما يطلّ على بيت الصلاة ويقع قرب الركن الخلفي الغربي للجامع؛ أما المدخل الثاني فيتقدمه متصلا بالصحن يعلوه عقد نصف دائري مشكل من الأجر، أما فيما يخص الفتحة الواقعة أسفل الباب الخلفي فكانت تطلّ على بيت السبيل حسبما يذكره أعيان المنطقة مثل الشيخ عدروش البشير¹.

ويتخذ الصحن شكلا طويلا شبه منحرف يتصل بالرواق الجانبي الأيسر من بيت الصلاة له مدخل رئيس يقود إليه ومن ثم إلى الجامع والمدرسة المهدامة، وتبلغ مساحته حوالي 64.96م² يتّوج هذا الجامع جدار القبلة تتقدمه غرفتان مشطوفتا الركنين متصلتان بجدار أوسط تعدّ إحداها امتدادا لغرفة المنبر، والأخرى متصلة بجدار المحراب المسطح من الخارج.

ويكتنف هذه الوحدة المعمارية نافذتان يليهما في الجانبين الخارجيين مدخلان سقط جزأهما العلويان كلياً، ويظهر من خلال الجزء المسطح بأعلى الجدار اتخاذه شكلا أفقيا طويلا لحمل السقف شبه الهرمي لهذا الجامع. أما الجدار الجانبي الأيسر منه فنجد به مدخلا يتصل ببيت الصلاة في مؤخره؛ بينما الجدار الخلفي الواقع بالجهة الشمالية الغربية فقد تعرّض للسقوط كلياً عدا ما يظهر من ملاحه في الأركان، ومن خلال هذا الأخير تظهر غرفة بيت السبيل التي نجدها في الكثير من المساجد في الرّيف سابقا، أو بالقرب منه؛ كما هو الشأن في كل من منطقة بني يعلى، وزمورة، وأولاد سيدي الجودي (مستقلة)، وبني ورثيلان إذ تستعمل المدرسة القرآنية أسفل المساجد لنوم عابري السبيل ليلا إضافة إلى أرضية المسجد المرتفعة عن المستوى الخارجي للجامع بحوالي 2.3م، وذلك لإعطاء الاستواء لمستوى بيت الصلاة، ونجد مثالا لذلك وبشكل عكسي بخلفية الجامع الجديد بالجزائر العاصمة وكذا جامع سيدي عبد الرحمان في الفترة العثمانية²، وذلك راجع للطبيعة الطبوغرافية للموقع.

لبيت الصلاة مداخل أربعة أهمها اثنان واقعان في جدار القبلة يكتنفان من الداخل محرابا ذا حنية مقعرة نصف دائرية من أعلى ترتفع عن الأرض. نرى في الجانب الأيمن من المحراب غرفة المنبر، والتي يتوجها من أعلى عقد نصف دائري مشكل من الأجر والملاط ليعطي الغرفة سقفاً نصف برميلي من الداخل، ويعلو كلا من المحراب والغرفة عتبان خشبيان يقومان بإنقاص الثقل عن هذين العنصرين بالإضافة إلى تسوية الحجارة من أعلى، ويكتنف المحراب وغرفة المنبر معا عمودان مضلعان يقوم عليهما عقدان نصف دائريان تهدّما جزئيا؛ يرتكزان على تاجين بسيطين شكلا من الأجر الأصم.

نجد بالجدار الجنوبي الغربي من بيت الصلاة أعمدة ثلاث مماثلة للأخرى أما فيما يخص وسط الجدار الواقع ما بين العمود الأول والذي يليه من الخلف فتظهر ملامح مدخل تمّ غلقه يليه في الجهة القريبة من المدخل الخلفي خزانة جدارية معقودة بعقد نصف دائري، ومن ثمّ نجد المدخل الذي يُطلّ على رواق أسقيف بالواجهة الجنوبية الغربية بما يظهر من سقوط جزئه العلوي. لقد تعرّض جدار مؤخر بيت الصلاة الذي يمثّل الجهة الشمالية الغربية منه لسقوط شبه كليّ عدا ما نجده في الأركان المتصلة بالجدارين الجانبيين؛ وبه أعمدة ثلاثة مقارنة بما نجده من أعمدة مقابلة له في جدار القبلة وأعمدة بيت الصلاة. نجد كذلك كوتين جداريتين تقعان بين العمودين الطرفين والأركان، كما يكتنف العمود الأوسط نافذتان تناظران وتقابلان مثيلتيهما في جدار القبلة أما الثالثة فطرفية تقريبا بالإضافة إلى ما نجده في الجدار الشمالي الشرقي من عناصر معمارية أولها الأعمدة المضلعة الثلاث التي تقوم عليها العقود.

¹ - الشيخ عدروش البشير: البالغ من العمر 88 سنة قبل وفاته عام 2010م الذي ذكر بأن هذا الجامع كان يحتوي في جداره الخلفي على غرفة سفلية أرضية كانت نزلا لعابري السبيل، كما كانت توضع أمتعتهم فيها، ويؤكد هذه الفرضية الصورة القديمة للجامع.

² - Dokali (R); Les Mosquées de la période Turque à Alger, S.N.E.D, Alger, 1974, pp.93-94.

وتحتوي بيت الصلاة على تسعة أعمدة أسطوانية موزعة ثلاثا ثلاثا بالتوازي مع جدار القبلة والجدران الأخرى مشكّلة بذلك ثلاثة بوائك موازية لجدار القبلة وكذا أربعة أساكيب وما يعادلها من البلاطات العمودية عليه؛ تتصل فيما بينها بعقود متجاوزة سقط جُلّها وضعت اثنا عشرة منها عمودية على جدار القبلة وما يماثلها موازية له، وبذلك يبلغ عددها إجمالا 24 عقدا متجاوزا، ويمكن أن يكون شكل سقفه الخارجي على نسق الهرم بجهاته الأربع مثل جامع أحمد أمقران وأولاد سيدي إبراهيم بمنطقة منصورة.

ج- ملاحظة:

يتخذ هذا المسجد شكلا مستطيلا مستعرضا كما هو مظهر العديد من المساجد الإسلامية والمغربية بخاصة مثل ما نراه في كل من مساجد: المهدية بتونس وفي بعض المساجد المرابطية مثل الجامع الكبير بتلمسان، وكذا العثمانية مثل جامع كتشاوة بالجزائر العاصمة¹ إضافة إلى المساجد الصحراوية كجامع العتيق بالأغواط والآخر بتاجموت²؛ هذا بالإضافة إلى غرفة المنبر والتي نجد نمطيتها في المغرب الإسلامي بسبب استعمال المنابر المتحركة، وذلك في مساجد عدّة أهمها جامع سوسة³ بتونس، وكذا الجامع الكبير بالجزائر العاصمة، كما هو الشأن أيضا في جامعي ندرومة الكبير بتلمسان وكذا الجامع الكبير في قسنطينة⁴ بالإضافة إلى هذا فإنّ حنية المحراب نصف الدائرية المستعملة في هذا الجامع نجدها في مساجد وجوامع عدّة محلية في ضواحي بجاية وما جاورها، كما استعملت العقود المتجاوزة في هذا الجامع على غرار ما نجده في عقود جامع سيدي الحلوي بتلمسان⁵ بالإضافة إلى عقود بيت صلاة سيدي الكتاني بقسنطينة في الفترة العثمانية⁶. أما في ما يخص سقف هذا المسجد فيمكن أن يتخذ شكلا جملونيا أو هرميا مثل جامع قرطبة بالأندلس وكذا مداخل جامع القرويين بفاس⁷ بالإضافة إلى مسجد المشور بتلمسان وجامع سيدي أبي الحسن⁸.

وكما هو الشأن محليا في جامع أحمد أمقران، وأولاد سيدي إبراهيم بناحية منصورة من إقليم برج بوعريّج، وهو حسب ما يظهر لنا من خصائص يؤرخ تقريبا بالقرن السادس عشر الميلادي رغم عدم ذكره بوضوح في المصادر التاريخية عدا المخطوط المبين لسعي سكانه ترقيته إلى مسجد جامع.

ثالثا- العمارة العسكرية في قلعة بني عباس خلال العهد العثماني:

تمثل العمارة العسكرية بتحسيناتها المختلفة الطبيعية منها والإنشائية من أبراج وقلاع، وحصون، وأسوار الوعاء الحامل، والمحيط بالوحدات المعمارية في الفضاء العمراني للمدينة والزّيف معا، ويعتبر السور من المعايير المميزة للمدن والحوضر، وجاء بناء هذه التحصينات حفاظا على المال والعرض والنفوس، ووُضعت شروط عدة لتكون أرضية تقوم عليها هذه العمارة الحامية، وعلى رأسها الموقع الحصين تحصينا طبيعيا، والذي يساهم في فعالية الدفاع عن الفضاء العمراني الذي تحتضنه الأرضية المحصنة إضافة إلى استعمال الأسوار كعامل من أهم العوامل المحققة لهذا الهدف، وهذا في ظل اعتماد الأساليب الدفاعية والهجومية وتطورها تدريجيا بحسب الثغرات التي تظهر من حين لآخر⁹.

¹ - Bourouiba(R); L'Art Religieux Musulman en Algérie, 2eme ed, S.N.E.D, Alger 1981, p.162 .

² - علي حملاوي: نماذج من قصور منطقة الأغواط - دراسة تاريخية وأثرية -، الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها، وزارة الثقافة، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006م، ص190.

³ - فريد محمود شافعي: العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1982م، ص47.

⁴ - Bourouiba(R); Op. Cit, pp.37, 148, 154.

⁵ - Ibid, p.299.

⁶ - Bourouiba (R); Apport..., pp.89,129.

⁷ - Bourouiba (R); Op. Cit, p.232.

⁸ - Bourouiba (R); l' Art..., p.215.

⁹ - عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص135-136.

لكن تطور الفن الحربي الدفاعي أو الهجومى مقترن بمدى تطور الأنظمة الحربية والأسلحة. حيث يعدّ اكتشاف المدفع في نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث حدثا تاريخيا في العمارة العسكرية، كما يعد تحولا خطيرا في تاريخ البشرية، وهي منوطة بنوع الجيش وتنظيماته الحربية كذلك¹. ونجد مثلا للمدن المحصنة تحصينا دفاعيا فعالا في ما أحاط ببجاية من ضواح وأرياف كل من مدينة قلعة بني عباس الموصدة بجدار مدجج بعدة مدافع في مدخلها إضافة إلى قريتي ترونة (الواقعة جهة بني خيار من بني معوش)، وإيراسن (الواقعة في بني شبانة)، وهي النماذج الوحيدة تقريبا في ريف بجاية التي تملك وسائل دفاعية².

إن العمارة العسكرية واستحكاماتها ببجاية وضواحيها بمختلف أنواعها وأشكالها من قلاع وحصون سعت من خلالها لحفظ الأمن والاستقرار منذ العهد الحمادي بها، وكذا في العهد الموحدى، ونهاية بالعهد الحفصى الذي مثّل في نهايته مرحلة الضعف والانحطاط، وتكالب الأمم الأوروبية على سواحل شمال إفريقيا، وبجاية من بين أهم المناطق التي احتلها الإسبان عام 1510م. وفي ظل هذه الظروف ومجيء الكيان العثماني ممثلا في الأخوين عروج وخير الدين بربروس: ظهرت إحدى أهم الإمارات المحليّة بالجزائر ممثلة في إمارة قلعة بني عباس بضواحي بجاية بالموازاة مع ظهور إمارة محلية ثانية هي إمارة أبناء القاضي بجبل كوكو، وكان للإمارتين دور في مسرح الأحداث السياسية والعسكرية لهذا العهد إذ سعى كل من الأميرين المحليين (عبد العزيز العباس وابن القاضي) للسيطرة على منطقة قبائل زواوة الكبر والصغرى، وتمخض عن ذلك صراع دائم بينهما حاولت السلطة العثمانية بالجزائر استغلاله وتفعيله خدمة لأغراضها التوسعية، كما حاولت بين الفينة والأخرى عقد حلف مع أحدهما لكسر شوكة الأخرى، ونذكر فيما يلي أهم الاستعدادات التي قام بها أمراء قلعة بني عباس في الجانب المعماري والتخطيطي سعيا منهم لتحقيق أرضية آمنة لحكمهم بها بداية بأول أمير على السلطنة (الإمارة).

1- أمراء القلعة وسياساتهم العسكرية:

كانت الاستراتيجية الأولى للقلعة كفضاء عمراني سعى حكامها لتحسينها إضافة إلى المنعة الطبيعية التي تميزها منذ عهد السلطان أحمد الأول قبل الاحتلال الإسباني لبجاية، واستطاع هذا السلطان بفضل حنكته السياسية والعسكرية وتميّزه بالورع، تسيير أمور القلعة السياسية والاجتماعية، وهذا منذ أول مواجهة له ضد إمارة كوكو، وانتصاره عليهم باستعمال وسائل بدائية كالحجارة الضخمة وجذور الأشجار³، والتحق به بعد هذا الحدث محاربون من قلعة بني حماد، ونظمهم في شكل جيش هم وكل الفارين إليه من الجنود⁴.

كما كان لابنه السلطان عبد العزيز قوة ودهاء حربي استطاع به أن يوصل نفوذه نحو الجنوب وعمالة تونس⁵، وفي كل الجبال المجاورة، وتحالف أيضا مع الإسبان في بجاية لتمويله بالبارود والبنادق مقابل المؤونة كما بعثوا له عمالا من أجل تقوية القلعة في أجزائها السهلة الاختراق (جهة باب عجي)⁶، ويؤكد الورثياني قوة هذا الرجل في قوله: "... وولده (عبد العزيز) هو الذي بنى قلعة بني عباس وأقام المملكة فيها بأن أسس العساكر وجيش الجيوش، وأخذ المغرب في القرن العاشر بأن وصلت عساكره عمالة تونس، واودي ريغ في الصحراء، ومن جهة الغرب مزاب وبلد الأغواط، وهم كذلك في المملكة ثمانون سنة كما سمعته من بعض الفضلاء من علماء القلعة"⁷.

¹ - علي خلاصي: العمارة العسكرية العثمانية لمدينة الجزائر، المتحف الوطني للجيش، الجزائر، 1985م، ص5-13.

² - Carette(E) ; Exploration scientifique ..., p.310.

³ - Ferraud (L); Recueil de Constantine..., p.210.

⁴ - Ferraud (L); Op. Cit, p.210.

⁵ - مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ج3، ص94-95.

⁶ - صالح عباد: المرجع السابق، ص75-76.

⁷ - الحسين الورثياني: المصدر السابق، ص36.

لقد قامت هذه الشخصية بإسهامات جمة في إرساء دعائم الحكم العثماني بالجزائر في مواقع عدة أهمها مساهمته بمعية حسن باشا باسترجاع تلمسان عام 1552م¹، وكذا قيامه باستعادة ورقلة وتوقرت عام 1553م حيث بلغ عدد جنود عبد العزيز 10000 جندي وكان فرسانه مقسمين إلى جزئيين في كل من: تالة مزيدة، وتازلة، وقام فيهما ببناء برجين لإسكان الفرسان والخيول، كما كانت هاتان الوحداتان العسكريتان في خدمة مندوب السلطان الذهاب للمهمة المكلف بها²، كما قام الأمير عبد العزيز أيضا بتحسين الطرقات وتحديد بناء حصن القلعة كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

وقد سعى الأمير أحمد أمقران بعد وفاة أخيه بفضل فكره المليء بالإنسانية والعدالة إلى تولي إدارة مملكته الصغيرة بحكمة وحذق. حيث هيا جيشا منظما دعا إليه عصاة الجزائر والمسلمين من النصارى، وكون جيشا به 8000 رجل من المشاة و3000 فارس وجاب واحات الزاب ووضع كل من طولقة ويسكرة تحت سيطرته، واندفع إلى غاية توقرت، كما قام بإنشاء العديد من المحطات العسكرية التي وضع فيها قوات تغيرت إحدائيتها من أجل منع العلاقات الكثيرة بين جنوده القبائليين وبين السكان في المناطق الخاضعة لحكمه، وهذا دليل على الدهاء الحربي في الاستراتيجية العسكرية، واستعمال المناطق المرتفعة من الناحية (منطقة القلعة) كذلك، كمجموعة من محطات الإشارة (الشوافات)، والتي تعمل بالدخان نهارا وبالنار ليلا لنقل مستجدات الجنوب بسرعة إلى القلعة ومن أهم هذه المحطات:

- محطة عقبة الصنادك(ق) في قمة جبل القلعة.

- محطة تافرطاست فوق ذراع مثنان قرب مجانة برج بوعريرج.

- محطة رأس جبل قطاف.

- محطة رأس جبل سالة³.

- محطتي قرية الدشرة بالغدير

ولم ينسى هذا القائد الحَيَّ من يتصلون به قرابة ونسبا، فلم يفرض عليهم الضرائب وأوصل القلعة إلى درجة كبيرة من الرخاء الاقتصادي والمعيشي، فبنى الدور وهيا الطرق والعيون وأنشأ المدارس العلمية للطلبة وقسم الأراضي على الفلاحين، وعين اسم ملكية كل واحد عليها⁴. أما عهد ابنه سي ناصر فتميز بتسريح الجيوش وطرده قدماء المحاربين مع أبيه أحمد أمقران بعد وفاته عام 1600م مما فتح باب العصيان والتمرد في كل المقطعات التابعة للقلعة في الجنوب والتل، وزوال قيمة القلعة بعد وفاته⁵.

2- صناعة الأسلحة:

أكّبت مجموعة من المسحيين الذين أسلموا على تعليم سكان البربر ومنهم بنو عباس كيفية التعامل مع الوسائل الحربية المتطورة بعدما قام الأمير عبد العزيز بجلب مدافع أربعة بمعية الإسبان إلى القلعة ووضعها في جدار باب عجي. كما يعد سكان بني عباس أقوى القبائل الأمازيغية في العهد العثماني حيث يملكون أكثر من 3000 فارس و1500 حصان، ويسكنون عددا كبيرا من القرى ويصنعون في القلعة مركز حكمهم أسلحة نارية ذات جودة عالية. حيث تعددت المناطق التي استعملت كورشات لتصنيع الأسلحة والمنتشرة في ربوع الوطن وتُشغّل تازيرت أكبر عدد من الأيدي العاملة، كما هو شأن صناعات الفلسة بإقليم القلعة، حيث كان الحديد

¹ - مارمول كاربخال: إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المملكة المغربية، 1988م، ص386.

² - Ferraud (L) ;Op. Cit, pp.216-217.

³ - Ferraud (L); Op. Cit, p.229.

⁴ - ibid, p.332.

⁵ - Gaid(M); Les berbère...,T3, p.28.

يجلب من الجزائر في العهد التركي لكن الفرنسيين أعاقوا هذه التجارة، فتحول بنو عباس إلى استخدام حديد بلاد القبائل ومنطقة برباشة بمنطقة بجاية، وهو أقل جودة من سابقة¹.

ويجلبون الخشب لصنع قسم من السلاح من شجر الجوز أو الزان، ويحدثنا العديد من مؤرخي العهد الفرنسي بالجزائر عن هذه الصناعة، وكذا صناعة المدافع بالقلعة التي عرفوها بعد قدوم أحد العثمانيين الفارين من الجزائر إليها، وعلمهم هذه الصناعة ثم انتقل إلى جمعة صحريج قرب مشدالة بواد الصومام²، ويعطينا فايسات وصفا للمدافع الأربعة التي جلبها الأمير عبد العزيز العباس إلى القلعة اثنان منها عيار 36 من أصل فرنسي إذ عليهما زنبقة مرفقة بحرف L الذي التاج الملكي³، والثالث أصغر منهما بكثير أما الرابع فمكسور وهو الآن متناثر الأجزاء ويوجد واحد منها تحت شجرة في قرية أولاد حمادوش، والآخرون قرب مسجد أولاد يحيى بن داود، ولا يزال الأهالي يحتفظون ببعض المفاهيم الدقيقة عن حمولة هذا القطع، ويقولون أن أكبرها يحمل قبلة تزن 18 كلغ وتقذف لمسافة 06 كلم من البارود في كل طلقة⁴.

وكانت المدافع حسب فايسات في أول الأمر بمنطقة بوني البعيدة بأربعة فراسخ من القلعة. حيث يتميز أحدها بروعة الصناعة والمصنوع من البرونز بطول المترين وبقطر فوهته داخلية البالغ 30 سم، وبه 8 صفوف من الأزهار في الجهة العلوية منه، وبالقرب من مشعل غرفة النار نجد حرف L منقوشا وعليه التاج الملكي، كما نجد كذلك أسماء عبرية في أسفل المدفع في إطار زخرفي وهي تعود لنقاشين يهود⁵، والمدفع الثالث أكبر بعشر سم من الأولين في الطول ولا توجد فيها أية رموز ولا ورشة لكن مقولة السكان المحليين تبين أنه صنع من طرف النصراني الذي أسلم الحاج عبد الله علج، كما نجد بعض العمال الإسبان كانوا يعملون في مسبكة (المصهرة) المدافع في مركز القلعة بعد أن أسلموا⁶، وقد تم العثور على مدفع بقلعة بني عباس سنة 2008م بعد قيام أحد المواطنين بالحفر لإعادة بناء مسكنه⁷، وهو دليل مادي حي إضافة إلى بعض القطع والأجزاء من ماسورات البنادق المحفوظة بالمتحف المحلي بمدرسة القلعة، وكانت ملاحاة البارود موجودة بواد أولاد عيسى تحت قرية بلعيل ويجلب منها مادة الملح المهمة في القرن 16م مع نترات الملح في صناعة البارود. لكن لخضر درياس⁸ ينقد الطرح الذي قدمه فايسات حول أصل هذه المدافع خاصة المدفع الذي يحمل اسم الصانع النصراني الذي أسلم (الحاج عبد الله علج)، ويؤكد أن هنالك تضاربا في الأسماء الواردة على المدفع زمنيا مما يفتح المجال لطرح التساؤلات العديدة حول أصل المدفع وعلاقة الصراع كذلك التي كانت بين أوروبا المسيحية ودول شمال إفريقيا المسلمة.

3- الأبواب الرئيسية للقلعة:

تعتبر منطقة بوني الواقعة في الجهة الجنوبية الشرقية من القلعة الرابطة بينها وبين بجانة وهي النقطة الوحيدة التي تستطيع من خلالها الجيوش الاقتراب من محيط القلعة إضافة إلى تضاريسها التي تعد بمثابة فاصل بين منطقة العرب ومنطقة القبائل، ويجسد هذا الفاصل مجال مفتوح في جدار صخري كأنه باب بقرية الجديدة التابعة سابقا لإمارة القلعة⁹.

¹ - Pélissier(E); Annales Algériennes entre 1833et 1834,T2, p.87.

² - Carette(E); Exploration scientifique ..., p.311.

³ - Vayssettes(E); Notice Sur les Canons de la kalaa des béni-abbés, in Recueille de Constantine, Vol-09-1865, p.33.

⁴ - Carette(E); Op, Cit, p.325.

⁵ - Vayssettes(E); Op, Cit, p.32.

⁶ - ibid, p.33.

⁷ - نشر مقال الاكتشاف في جريدة الوطن الصادرة بالفرنسية بتاريخ: 2008/04/21.

⁸ - لخضر درياس: المدفعية الجزائرية في العهد العثماني، دار الحضارة، ط1، الجزائر، 2007م، ص32-37.

⁹ - Carette(E); Op .Cit, p.222.

أ- باب عجي (أوعجي):

يتم من خلاله الدخول إلى الفضاء العمراني للقلعة والواقع في الجهة الجنوبية الغربية على ارتفاع 1133م عن مستوى سطح البحر، حيث لا يزال به قسم من السور متصل به والذي بُني على عهد عبد العزيز العباس بمساعدة الإسبان (القرن 16م)، ويفوق عرض جدار السور المتصل به المتر ونصف المتر. حيث تم وضع القرميد أعلاه لحمايته من الأمطار المتلفة لملاطه الجيري الضام للحجارة، كما نلمح بالقسم الباقي من آثار السور وبقرنه ملامح الملاط في أرض التأسيس الواقع على الهضبة الصخرية.

ب- باب البرج:

وسمي بهذا الاسم لوقوعه قرب برج المراقبة، ويقع في الجهة الشمالية الغربية من قرية أولاد حمادوش على ارتفاع 1102م عن مستوى سطح البحر، ويطلّ على بساتين الزيتون أسفل القلعة. حيث لا يزال على شكله الأصلي دون الباب الخشبي المندثر، وبسقفه المشكل من الأحشاب والقرميد يتخذ شكلا منحنيا إلى الداخل وبه مسطبتان (دكانتان) حجرتان في الجانبين تستعملان للجلوس باعتبارها أحد مقرات ثاجماث بعد عهد السلطنة والإمارة¹.

ج- باب العسة:

ويقع هذا الباب أسفل حي تازيرت بقرية أولاد عيسى على ارتفاع 1065م عن مستوى سطح البحر. لقد اندثر هذا الباب كلياً ولم يبق إلا مستوى أرض التأسيس.

د- باب الجبل:

لم يبق من آثار هذا الباب شيء ويقع في أعلى قمة الجبل على ارتفاع حوالي 1215م عن مستوى سطح البحر، وهو يطلّ على القلعة وبالقرب من قمة تقربوست.

4- نادي الضباط (مقهى بومزراق):

يقع نادي الضباط في قرية أولاد حمادوش من القلعة قرب ساحة لوطية علي، ويعدّ المحكمة العسكرية لمملكة بني عباس في القرن 16م حسب ما يرويها سكان القلعة وأعيانها ويفصل بينه وبين جامع أحمد أمقران درب يقود إلى وادي أولاد حمادوش أسفل القلعة، وهو على ارتفاع 978م عن مستوى سطح البحر.

أ- الوصف العام:

يتخذ هذا البناء شكلاً مضلعاً تفوق مساحته 200م²، وهو عبارة عن أطلال بما بقي من أقسام بنائية به، وتقع الواجهة الرئيسية لهذا المعلم في الجهة الجنوبية الغربية منه لها مدخل كبير وحيد يفضي إلى الفضاء الداخلي للمعلم، ونجد في الركن الأيمن من هذا الجدار انكساراً به أما الجداران الجانبيان فقد تعرض الأيمن منهما للهدم ولم تبق إلا ملامح نافذة مطلة على إحدى غرف هذا البناء. أما الجدار الجانبى الأيسر فيمثل أحد جدران مقهى هذا النادي ولا تميزه أية خصائص معمارية.

وقد تهدم قسم كبير من الجزء العلوي للجدار الخلفي بالمعلم، الذي يظهر لنا مضاعفاً البناء، وهي خاصية نجدها كثيراً في العمارة العسكرية، وذلك لإطلالته على الجرف الصخري لواد أولاد حمادوش، وتظهر لنا أرضية التأسيس الصلبة المقامة على صخرة ذات تكوين رسوبي، ويظهر من خلال هذا الجدار مستواه السفلي الإتقان المعماري في البناء.

ب- الوصف الداخلي:

نجد بهذا المعلم بعد المدخل وفي ركنيه دكتان حجرتان بقيت آثار طفيفة لهما حيث يفتح المدخل على فناء رحب ذو شكل مستطيل تقريباً نجد في الجهة اليمنى منه جداراً يمتد محالاً اتصالاً بمسطبة الأرضية التي تقودنا إلى غرفتين يصل بينهما جدار أوسط.

¹ - Carette(E); Op .Cit, p.325.

كما نجد في الركن الأيمن من المعلم غرفة صغيرة كان بها مخزن صغير. أما الغرفة التي تليها والمقابلة للمدخل الرئيس، فيتوجها مدخل بعتبة أرضية مبنية بالحجارة تبين لنا نمط التبليط بأرضية هذا المبنى، ونجد بالركن الأيسر كذلك من مدخل هذه الغرفة آثار لتبليس الجدران بالملاط الجيري، وعلى الركن الأيمن ملامح نافذة بالجدار الأيمن لهذا المدخل بينما نميز في الركن الأيسر من هذه الغرفة ملامح باب يفوق ارتفاعها 1.8م، ويتصل الجدار الأيسر المهدم من هذه الغرفة بالجدار الخلفي.

وتقع الوحدة الرئيسية من هذا المبنى في الركن الأيسر من المدخل الوحيد له إذ نجد باب هذه الوحدة معقودا بعقد متجاوز مشكل من الآجر الأصم تعلوه زخرفة ذات طابع بربري مشكلة عن طريق تراكب قطع القرميد المنكسر الشكل، وينحسر عددها نحو الأعلى، كما نجد بجانب المدخل نافذة في الجهة اليسرى منه معقودة على نفس الشاكلة بعقد حدوي غائرة في الإطار المستطيل المحيط بها نجد في أرضية هذا المدخل عتبة حجرية تفضي عبر مدخلها إلى غرفة مستطيلة الشكل كانت مستعملة في بادئ الأمر كمحكمة عسكرية حسب ما يرويها أعيان القلعة وكبارها، وفي مرحلة ثانية استعملت كمقهى أو ناد للضباط النظاميين. حيث نجد في الركن الأيمن من المدخل وفي جدار تاشرافت والجدار الخلفي لهذه الوحدة ملامح دكانتين حجريتين كانتا بشكل مرتفع أما في الجهة المقابلة فيرتفع المستوى الأرضي لها بمسطبة أرضية بعرض 3م.

ج- التحليل:

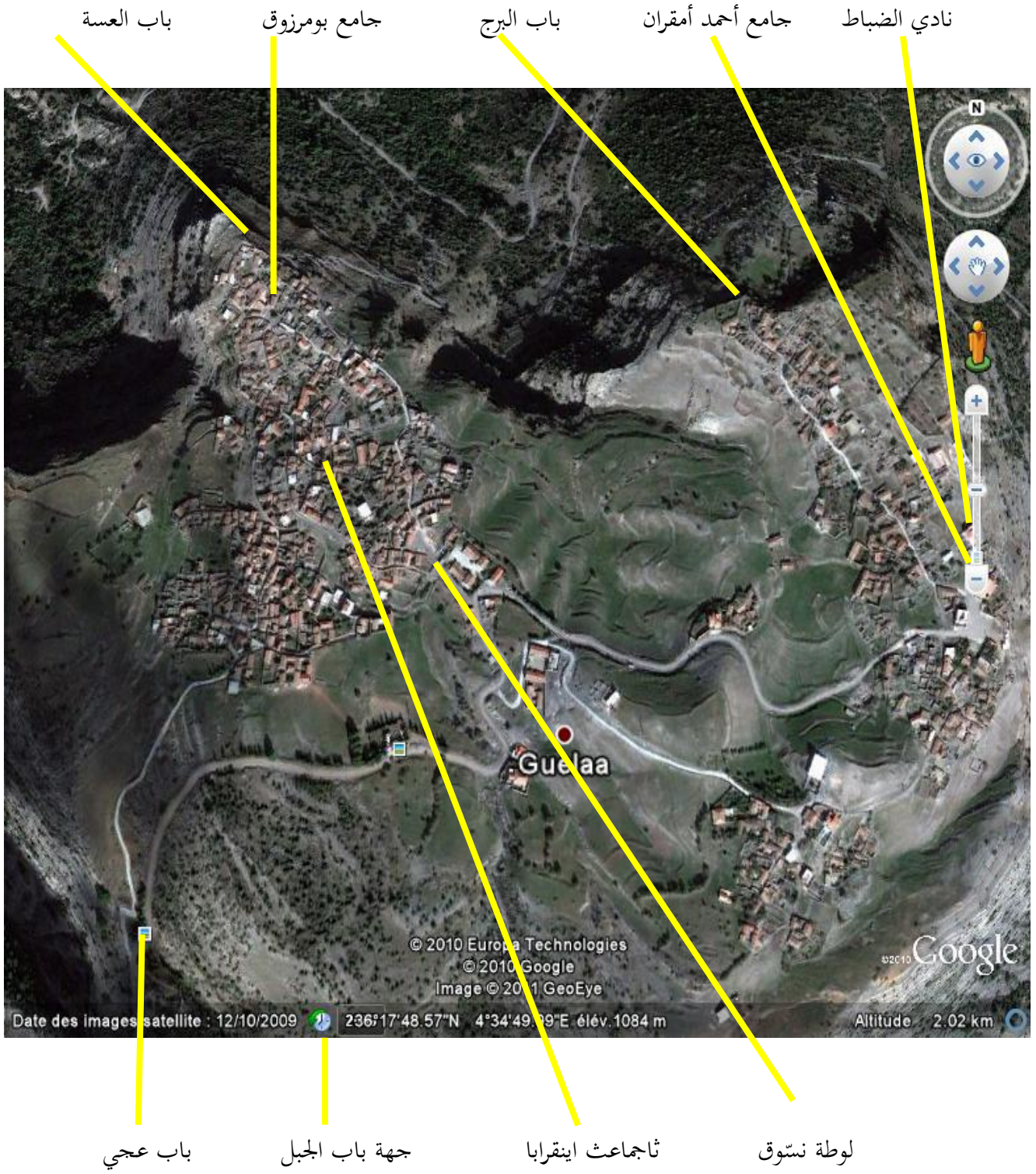
نتبين من خلال نماذج الاستحكامات العسكرية بالقلعة من أسوار وأبواب وأسلحة حربية على رأسها المدافع وإضافة للحصانة الطبيعية لها التي صعبت على القوات العثمانية دخولها عبر قرن من الزمن نجاعة النظام الدفاعي بها، والذي يبين لنا الجهود التي بذلت من طرف أمراء القلعة وسلطينها سعيًا منهم وراء الحفاظ على المكانة والقوة للإقليم الذي حكموه، وكذا ما عاد به ذلك على الحياة العامة للقلعة من رخاء اقتصادي، كما كانت كذلك ملاذا للعائلات الفارة من الحروب، وكذا لحفظ أموالهم لما لسكان القلعة من أمانة تشهد لهم بها كل القبائل¹.

خاتمة:

من خلال ما تم التطرق إليه من خصائص العمران والعمارة الدينية، والعسكرية في قلعة بني عباس فإننا نستشف من ذلك النمط المعماري الذي عرف البناء أو المهندس القلعاوي كيف يبدعه لنفسه بكونه طرازًا معماريًا ريفيًا بسيطًا وأصيلًا في آن واحد، والذي تميز في غالبه بالوحدة عدا ما يظهر فيه من فوارق بسيطة في استعمال العناصر المعمارية به، وذلك حسب أهمية البناء وقيمته إلا أن هاته الأنماط توحدت في تخطيطها ذي السمة الأصيلية والذي انتشر في عموم الريف البحائي إن لم نقل الزواوي رغم أننا نجد في القلعة بعض المعالم الأثرية التي ترقى لأن تصنف وطنيا لقيمتها التاريخية والمعمارية بما تجسده من أصالة طراز ووحدة طابع يعرف في عموم الريف المحيط ببجاية، ومثال ذلك بعض الجوامع التي يمكن أن تعد في مصاف المساجد المدنية التي انتشرت في المدن الكبرى كما قال حمدان خوجة لما ارتقت به في جانبها التخطيطي والفني كجامع أحمد أمقران مثلاً.

وتعد فترات حكم الأمير عبد العزيز العباسل وأحمد أمقران نهاية بابنه سيدي ناصر من أزهى الفترات التي مرت بها الوحدات المعمارية والعناصر الدينية والمدنية والعسكرية في قلعة بني عباس لما شاهده من تنوع وكثرة، والتي مازالت بعض معالمها قائمة وبارزة في شموخ تتحدى الإهمال والنسيان رغم ما أصابها من سقوط، وتشوه جراء العوامل الطبيعية وامتداد الإنسان إليها، ولذلك فإن الدارس لآثار القلعة بمختلف أنواعها قد تستعرضه بعض المشاكل في إعادة تصور شكل الوحدات الضائعة والتي لم يبق من ملامحها إلا القليل.

¹ - Ferraud (L); Op .Cit, p.188.



التفاصيل التضاريسية والعمرانية للقلعة عن Google Earth بتصريف



ثاجماعت إينقربا أسفل بطحاء السوق بقرية أولاد عيسى بالقلعة.



جدران المساكن المشكلة للجدار الدفاعي بقرية أولاد عيسى



ثاجماعت نترارث قرب جامع بومرزوق بقرية أولاد عيسى بالقلعة.



مقر ثاجماعت بباب البرج بقرية أولاد حمادوش بالقلعة.



أحد الطرق النافذة الخاصة بحي تازايرت في قرية أولاد عيسى



ساحة تازايرت بقرية أولاد عيسى بالقلعة.



الواجهة الخارجية للقبلة بجامع أحمد أمقران ومئذنته بقلعة بني عباس.



ظاهرة تناكب الأبواب بإحدى طرق قرية أولاد عيسى بالقلعة.



الواجهة الجنوبية الغربية لجامع أحمد أمقران ومدخلها الرئيسي.



صورة قديمة لجامع أحمد أمقران، ونادي الضباط عام 1925م



المخرب والمنبر بغرفته في جامع أحمد أمقران.



المدخل الرئيسي الأيمن لبيت صلاة جامع أحمد أمقران



الدعامات والحنيات اللولبية الحاملة للعقود المفصصة ببيت صلاة



مدخل مطل على الجزء الداخلي لبدن مئذنة جامع أحمد أمقران.



واجهة القبلة بجامع بومرزوق



الواجهة الخلفية لجامع بومرزوق.



مستوى الجدارين الخلفي والجانبى الأيسر الحاملين للسقف الهرمي.



جدار القبلة ببيت صلاة جامع بومرزوق.



جدار القبلة ببيت صلاة جامع بومرزوق.



المدخل الصخري للنطاق الجغرافي لقلعة بني عباس قرية الجديدة



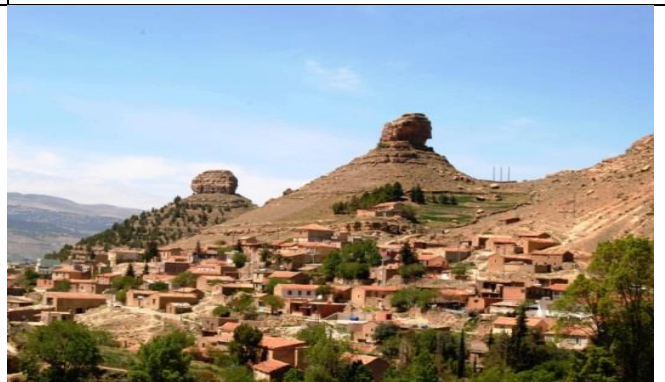
باب عجي بالقلعة.



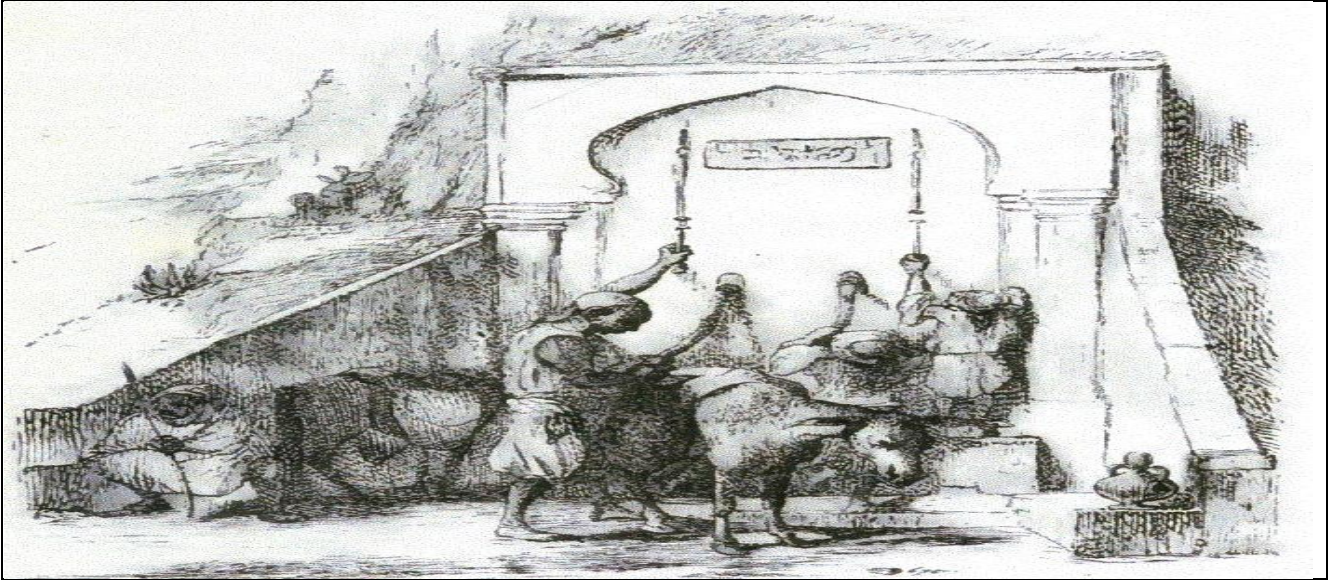
مدخل باب البرج أحد مقرات ثاجماعث



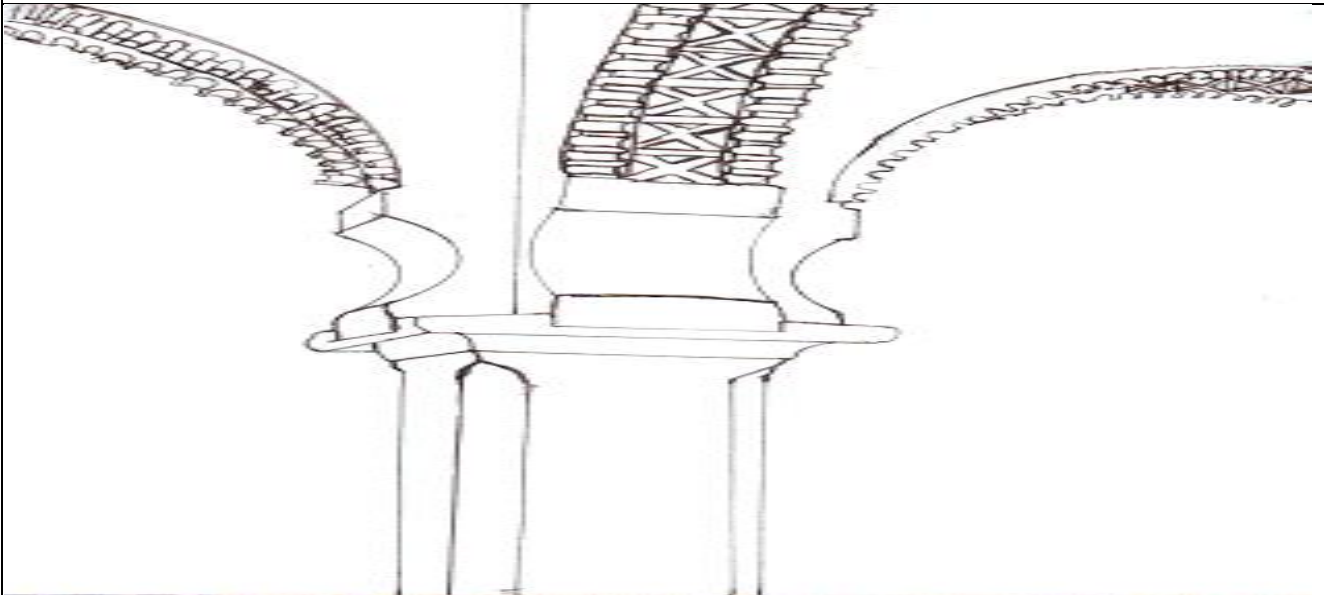
مدخل ورشة صناعة الأسلحة بقلعة بني عباس بقرية أولاد حمادوش.



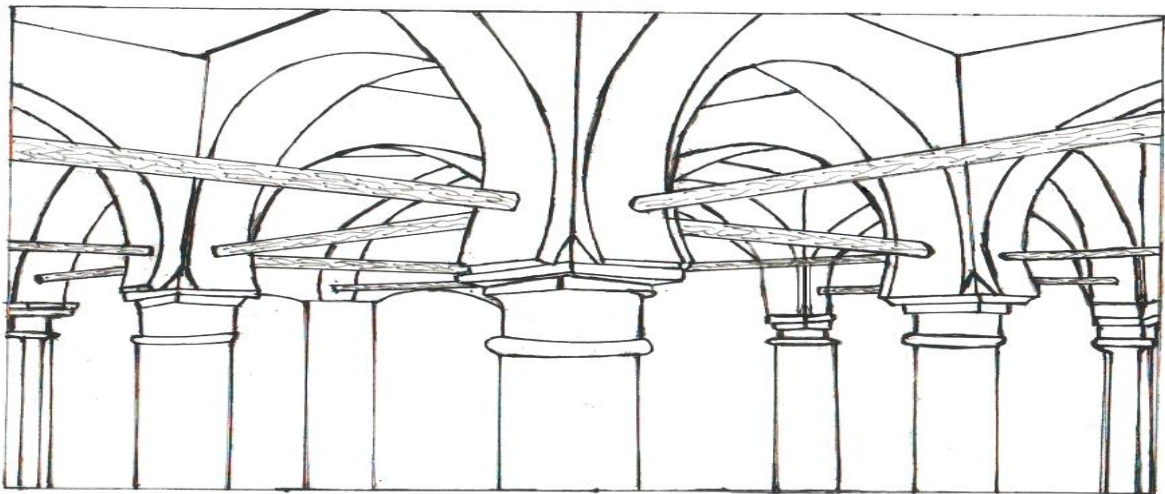
نقطتي المراقبة بالقلعة/ قرية الدشرة (الغدير).



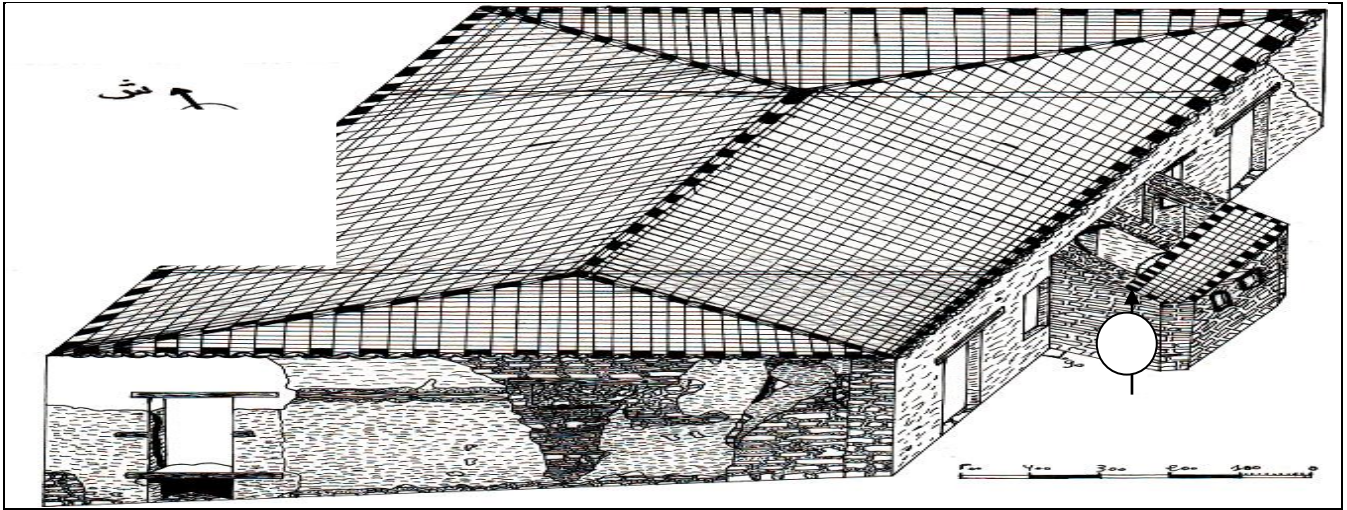
أحد عيون قلعة بني عباس المهيأة منقول عن: (farine; A travers la Kabylie, p.210)



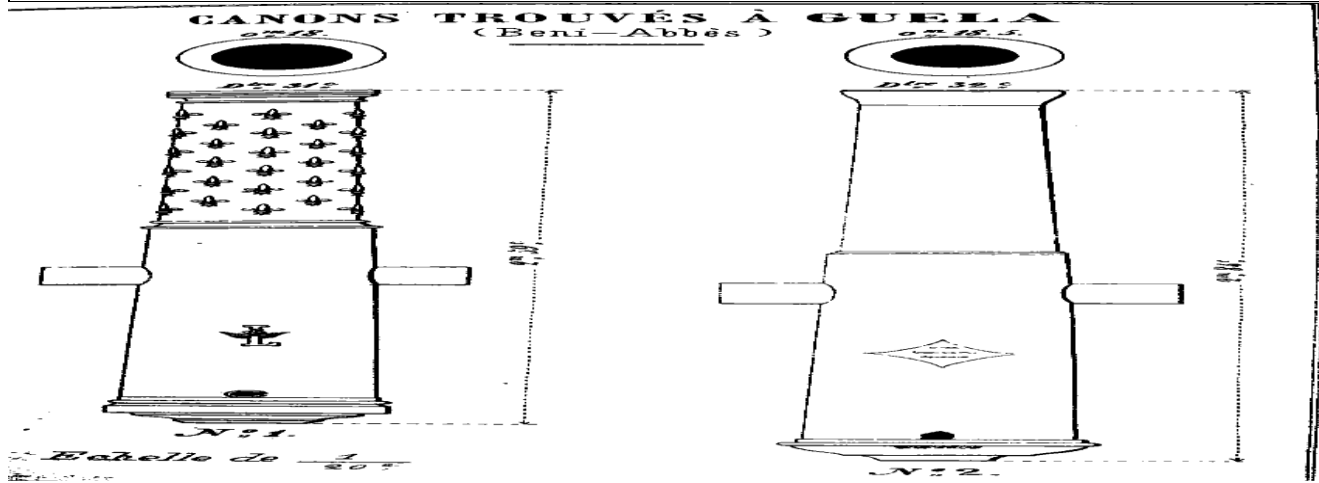
إحدى دعائم جامع أحمد أمقران الحاملة للحنية المقعرة



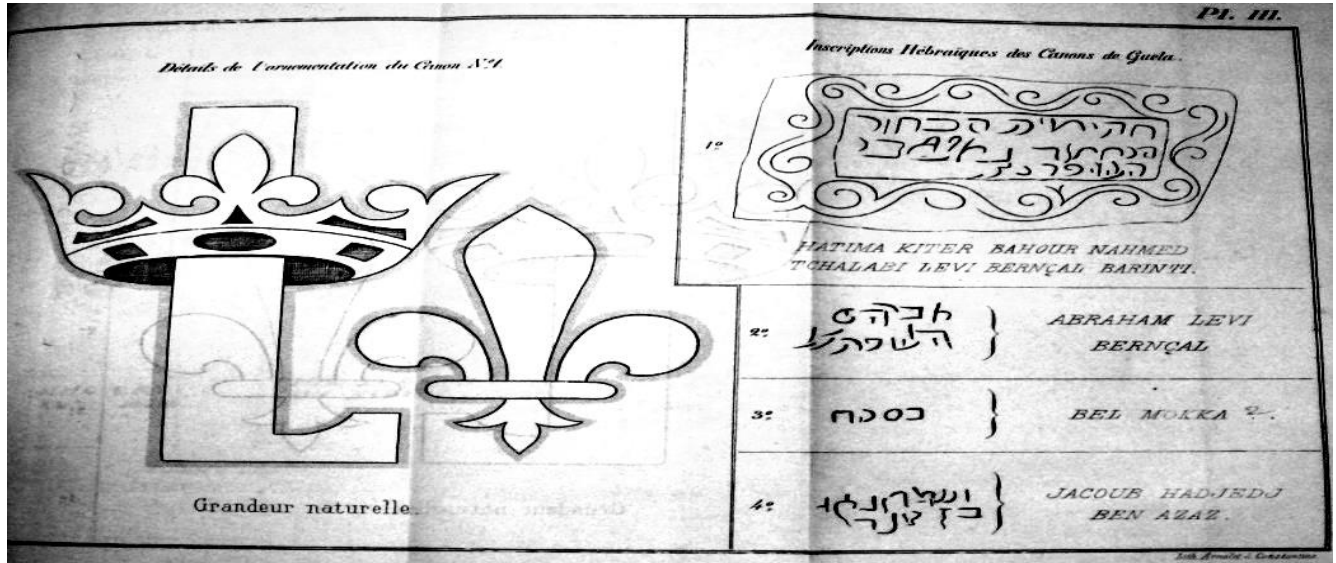
أعمدة بيت صلاة جامع بومرزوق الحاملة للعقود وأوتارها الخشبية



نظام التسقيف الخارجي لبيت صلاة جامع بومرزوق



الشكل العام لمدافع قلعة بني عباس ببجاية (عن فايسيت)



التفاصيل المنقوشة على مدافع قلعة بني عباس (عن فايسيت)

[illegible][illegible][illegible]

مقابلته كتب عن ابن الجبر الكبير البحر المحيى
الشهابى. حبيب بن عبد الغفور. خالو
خو الصوامع. والدم الرجوع واللبان
لحم الغنظلة. أخ الحسن تغريبة بغداد
على الكرخى. بالاحداف العظمى
خبر من ابي الفاضل. وبن امية. امية

89

إمارة بني عباس وعلاقتها بالسلطة العثمانية في الجزائر خلال القرن 16م

سالم جوامع - جامعة تلمسان

إن قيام إيالة الجزائر العثمانية خلال القرن 16م كان نتيجة اتحاد العنصر المحلي مع الأتراك العثمانيين وعلى رأسهم الإخوة بربروس الذين جاءوا لرفع الاحتلال عن إخوانهم المسلمين في المغرب الأوسط الذين سئموا التشتت والفرقة والضعف، فأرادوا أن يؤسسوا مع بعضهم دولة قوية تنهي عصر الضعف وتقف نداً أمام المشاريع الصليبية لاحتلال الأراضي الإسلامية في بلاد المغرب، ورغم الصعوبات التي واجهتهم إلا أنهم نجحوا في إقامة دولة الجزائر الحديثة التي تعرف في الكتابات التاريخية بإيالة الجزائر العثمانية. كانت إمارة بني عباس إحدى الإمارات المستقلة التي قامت بالمغرب الأوسط مطلع القرن 16م، والتي مثلت دور العنصر المحلي في تأسيس إيالة الجزائر، وبما أن هذه الإمارة تمتعت بوزن سياسي ومكانة عسكرية هامة، فقد لعبت أدواراً أساسية في الحياة السياسية بإيالة الجزائر خلال الفترة قيد الدراسة، ومنه فإن هذه الدراسة تبحث في قيام إمارة بني عباس المستقلة في المغرب الأوسط وعلاقتها بالعثمانيين خلال القرن 16م، كما يندرج ضمن هذا الموضوع البحث في أصل إمارة بني عباس وظروف نشأتها، وعلاقات التحالف والانجازات المشتركة لإمارة بني عباس والعثمانيين كالمشاركة في طرد المستعمر الإسباني ورد حملاته المتوالية، وكذا المساهمة الفعالة لهذه الإمارة في ضم وإخضاع المدن والمناطق في شرق وغرب البلاد وجنوبها إلى سلطة الإيالة وربطها بحكمها المركزي، ناهيك عن الوقوف على محطات التوتر والصراع بين الطرفين خلال القرن 16م.

1- التعريف بإمارة بني عباس:

تعتبر إمارة بني عباس جنوبي بجاية من أهم القوى السياسية المحلية التي كانت بالمغرب الأوسط مطلع القرن 16م، وقد لعبت دوراً كبيراً في الواقع السياسي للبلاد خلال النصف الأول من هذا القرن، وهو نفسه القرن الذي شهد تأسيس الحكم العثماني بالجزائر، وقد اختلفت الروايات التاريخية والدراسات المعاصرة في أصل بني عباس وفي زمانية قيام هذه الإمارة، فهذا كرنجخال يقول بخصوصها: (... جبل عال وعمر شديد الانحدار، جنوب غرب بجاية¹ يبعد عن كوكو بأربعة فراسخ ... في هذا المكان توجد قلعة يسكنها رئيس هؤلاء القوم وهم ينتسبون إلى زواوة الشرسين، وهم بربر اعتادوا العيش الطليق، لم يؤدوا منذ زمن بعيد ضريبة لسلطان أو أمير ... وكان رئيسهم هو عبد العزيز من بني عباس ... كان بينه وبين صاحب كوكو عداء منذ زمن قديم ...)².

أما عن نسب هذه الإمارة فهناك آراء عدة؛ منها من يعتبر أن بني عباس هم من المقرانيين وهم ذات صلة بالأدارة أشرف فاس تفرعوا من سلالة سيدي بوزيد بن إدريس الثاني³، ويؤكد الرحالة الحسين الورثياني على ذلك بقوله: (... ثم ذهبنا إلى بني عباس وبتنا عند الفضلاء الأشراف المحبين لنا جميع ... وقد وجدت في طبقات ابن فرحون أنه نص على شرفهم والله أعلم ...) ⁴، وحسب شارل فيرو CH. Feraud فإن عبد الرحمن الإدريسي المذكور نزح من ناحية معسكر إلى بلاد زواوة في أواخر القرن 15م لأخذ العلم عن الشيخ عمر ابن القاضي الزواوي الذي نزح هو الآخر من معسكر وأسس زاوية في قرية كوكو بجرجرة، ثم انتقل السيد عبد الرحمن

¹ - تقع هذه القلعة على بعد 100 كم جنوب بجاية وتبعد بحوالي 40 كم على برج بوغريج، وهي تابعة حالياً لبلدية إغيل علي إحدى بلديات بجاية، ينظر: (نبيل بومولة: صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني، دار هومة، 2013م، ص 23).

² - مازمول كرفخال: المصدر السابق، ج 2، ص 385.

³ - Feraud., Ch, Histoire des provinces de Constantine, bourdj bouariridj, Typographie et Lithographie L. Albert, Constantine, 1869, p198-201, Rinn, L, l' Insurrection de 1871 en Algerie, librairie A, Jourdan, Alger, 1891, p.9.

معاشي جميلة: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من ق 16م إلى ق 19م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2015م، ص 53.

⁴ - الحسين الورثياني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن أبي شنب، مطبعة بيز فونتانا، الجزائر، 1908م، ص 11.

الإدريسي - بعدما اضطرت العلاقة بينه وبين عمر ابن القاضي المذكور - من بلاد زاوأة إلى منطقة قريبة من بني عباس في أواخر القرن 15م (توفي عبد الرحمن بها سنة 1500م) وأنشأ هناك مدرسة (زاوية) له، غير أنه بوفاة الأخير قرر ولده وخليفته أحمد أن ينقل أسرته إلى منطقة أكثر حصانة تجنباً لمضايقات وغارات قبيلة زاوأة بزعامة أسرة ابن القاضي، وبعدما انتقل إلى منطقة زروالة ثم إلى منطقة شواريح استقر رأيهم على القلعة ببني عباس، والتي وجد في موقعها أكثر حصانة وملاءمة للاستقرار بإمارته ثم أسس زاويته في هذه المنطقة الراهية¹ حسب تعبير شارل فيرو²، ويؤكد الورثيلاي هذا الكلام بقوله أن مؤسس القلعة ليس عبد الرحمن الإدريسي وإنما ولده: (...). وجدهم من القرن التاسع وولده هو الذي بنى قلعة بني عباس، وأقام المملكة فيها بأن أسس العساكر وجيش الجيوش وأخذ المغرم في القرن العاشر (...).³

وما نخلص إليه أخيراً هو أن إمارة قلعة بني عباس أسسها أحمد بن عبد الرحمن الإدريسي مطلع القرن 16م حين استقر بالقلعة بعد وفاة والده، وهو الذي نظم كيانه السياسي والعسكري، ثم تولى عبد العزيز حكم هذه الإمارة التي زادت دعائمها في عهده ثباتاً، وقوى نفوذها وحكمها في المنطقة، وفي فترة هذا الأمير دخل العثمانيون إلى الجزائر، وقد استفاد هؤلاء كثيراً من إمارة بني عباس في تأسيس حكمهم بالمغرب الأوسط خلال القرن 16م.

- المجال الجغرافي والقبلي لإمارة بني عباس:

تقع قلعة بني عباس عاصمة الإمارة ضمن سلسلة جبال الببيان جنوب بجاية، وهي تتبع حالياً لبلدية إيغيل علي بولاية بجاية تبعد حوالي 49 كم عن برج بوعريش، كما تقع في أعالي الضفة اليمنى من واد أقبو حيث توجد القلعة على ارتفاع 1050 متر من سطح البحر، وهو ما أعطى للإمارة حصانة طبيعية لعبت دوراً كبيراً في صعوبة اختراقها من قبل العثمانيين كما سنرى لاحقاً⁴، وهي كما يصفها حمدان خوجة في كتابه "المرآة" تتميز بموقع تضاريسي صعب لا يمكن الوصول إليها إلا بعسر⁵، هذا وقد تربع النفوذ الجغرافي للإمارة على مساحات واسعة امتدت من جبال البابور شمالاً إلى الزاب على أبواب الصحراء جنوباً⁶.

أما فيما يخص المجال القبلي للإمارة فإنه بعد وفاة السلطان الأب أحمد المقراني سنة 1510م انتقلت السلطة إلى ولده عبد العزيز⁷ الذي قام بالتأسيس والتنظيم الفعلي للإمارة، وهو ما ذكره الورثيلاي كما أشرنا آنفاً بأنه هو الذي بنى قلعة بني عباس، وأقام المملكة فيها بأن أسس العساكر وجيش الجيوش وأخذ المغرم في القرن العاشر (16م)، حيث سلك عبد العزيز مسلك والده فأطلق على نفسه لقب السلطان وعلى إمارته لقب السلطنة، كما كون جيشاً قوياً من القبائل الخاضعة له، وقد وصل تعداد هذا الجيش في عهد عبد العزيز إلى ألف فارس وعشرة آلاف من المشاة⁸، وكان النفوذ القبلي لإمارة بني عباس يضم معظم القبائل المحاذية كأولاد خلوف وقبائل مجانة والبابور وفرجوة إضافة إلى قبائل بلزمة والزيان ووادي ريغ⁹.

¹ - تقع قلعة بني عباس في موقع تضاريس صعب في جبال الببيان، ويقول حمدان خوجة الذي زار هذه المنطقة: "... وفيها مدينة تدعى القلعة لا يتم الوصول إليها إلا بشق الأنفس، وقد قطعت الطريق إليها راجلاً وأنه لطريق وعز ومنحدر جدا .." ينظر: (حمدان خوجة: المرآة، ترجمة محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م، ص 29، للمزيد حول الموقع الجغرافي وتضاريس قلعة بني عباس ينظر: (نبيل بومولة، المرجع السابق، ص 22-26).

² - Feraud, op-cit, p.205-208, Rinn, l'Inssrection, op-cit, p.9-10

³ - الحسين الورثيلاي: المصدر السابق، ص 36.

⁴ - نبيل بومولة: المرجع السابق، ص 22-23.

⁵ - حمدان خوجة: المصدر السابق، ص 29.

⁶ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 59.

⁷ - نبيل بومولة: المرجع السابق، ص 86.

⁸ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 60.

⁹ - نبيل بومولة: المرجع السابق، ص 86-87.

ونشير أخيرا إلى أن أمير قلعة بني عباس عبد العزيز كان في بادئ الأمر يحكم منطقة مجانة باسم الحفصيين ليتوسع نفوذه في المنطقة بعد تقلص النفوذ الحفصي بالمغرب الأوسط، ومنذ حوالي سنة 1512م أقام الأمير عبد العزيز علاقات خارجية لإمارته بأن تحالف مع الإسبان في بجاية، وقد زوده هؤلاء بالأسلحة والذخيرة الحربية¹ غير أنه سيقوم علاقاته مع أتراك الجزائر بعد ذلك، وهو ما سنتطرق إليه في العنصر الموالي.

2- دور إمارة بني عباس في تأسيس الحكم العثماني بالجزائر:

لم تكن العلاقة بين إمارة بني عباس وبين الأتراك جيدة في الفترات الأولى لمجيء هؤلاء إلى الجزائر، أي خلال العقد الثاني من القرن 16م، حيث كانت إمارة بني عباس وعلى رأسها الأمير عبد العزيز من أشد المعارضين للوجود العثماني بالجزائر، وذلك راجع بالأساس لتحالف العثمانيين مع إمارة كوكو، والتي تعتبر العدو القديم لبني عباس² ضف إلى ذلك أن عروج بروس كان قد جعل أحمد ابن القاضي أمير كوكو حاكما على المناطق الشرقية لمدينة الجزائر سنة 1517م³، وهي نفس المناطق التي يمتد فيها نفوذ بني عباس أو التي تتنافس فيها مع إمارة كوكو.

هذا التقارب التركي مع أمراء كوكو جعل الأمير عبد العزيز يبحث هو الآخر عن حليف له في المنطقة حيث اتصل بالإسبان في بجاية، وعقد معهم اتفاقية تقضي باعترافه بالحكم الإسباني على بجاية مقابل أن يمدده هؤلاء بالسلاح لمحاربة العثمانيين، ورغم أن الأتراك استطاعوا إخضاع بني عباس سنة 1516م⁴، وفرضهم إتاوة عليهم إلا أن العلاقة بين الطرفين بقيت عدائية إلى غاية سنة 1520م، وهي السنة التي تمردت فيها إمارة كوكو على خير الدين بروس بيلرباي الجزائر.

- مساهمة بني عباس في إخضاع مدن الشرق الجزائرية لسلطة الإيالة:

في سنة 1520م توترت العلاقة بين خير الدين بروس وابن القاضي مما جعل الأخير يعلن تمره على خير الدين وانتهى هذا التمرد بانتصار قوات ابن القاضي واضطر بيلرباي الجزائر إلى مغادرة عاصمته، واللجوء إلى مدينة جيجل في الوقت الذي دخل فيه ابن القاضي على رأس قواته مدينة الجزائر وأعلن نفسه حاكما عليها⁵.

بعد لجوئه إلى جيجل رأى خير الدين بروس ضرورة البحث عن حليف محلي قوي يستعين به لاسترداد حكمه والقضاء على ابن القاضي، وهذا ما جعله يقيم علاقة تحالف مع إمارة بني عباس⁶ التي وجدت في هذا الشرخ بين الأتراك وأمراء كوكو الفرصة لاستعادة سلطتها وتقوية نفوذها محليا، ويقول كرنجال في هذا الصدد: (إن بني عباس استغلوا الصراع الذي حدث بين ابن القاضي وخير الدين ليتحالفوا مع الأتراك ضد عدوهم القديم...) ⁷، وقد كانت أولى ثمرات هذا التحالف بين الطرفين مساهمة قوات الأمير عبد العزيز العباسي في إخضاع مدن القل وعنابة وقسنطينة إلى حكومة الجزائر العثمانية في الفترة ما بين (1520-1525م)⁸.

¹ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 59.

² - المرجع نفسه، ص 59.

³ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 211-212.

⁴ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 125.

⁵ - مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د.ت، ص 55-56.

Boulifa, SA, Le Djurdjura a travers l'histoire, Bringau Imprimeur Editeur, Alger 1925, p124-128, De Grammont op-cit, p.33,34.

⁶ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 213، نبيل بومولة: المرجع السابق، ص 139.

Mercier Ernest, Histoire de Constantine, Marle et Biron Imprimerie Editeur, Constantine, 1903, p.189,190.

⁷ - مارمول كرفخال: المصدر السابق، ج 2، ص 385.

⁸ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 213، جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 126، نبيل بومولة: المرجع السابق، ص 140.

- دور إمارة بني عباس في القضاء على تمرد ابن القاضي:

بعد فتح مدن الشرق الجزائري وإخضاعها للحكم العثماني بالجزائر سعى خير الدين بربوس لاستعادة مدينة الجزائر وبالتالي ضرورة القضاء على تمرد ابن القاضي، ففي سنة 1527م جمع بيلرباي الجزائر جيشا جديدا من جيغل دعمه عبد العزيز حاكم بني عباس بالرجال والفرسان من إمارته، حيث جاء في مذكرات خير الدين: (وتحركت من جيغل مع اثني عشر ألف بحار بين فارس وراجل والتحق بنا في الطريق الآلاف من فرسان الأرياف المجاورة...) ¹، ولم يكن هؤلاء الفرسان إلا قوات إمارة بني عباس حيث أن القبائل الأخرى من بلاد زواوة تخضع لإمارة كوكو العدو في هذه المعركة، واتجهت القوات التركية - العباسية قاصدة مدينة الجزائر، وفي المقابل خرج ابن القاضي لقتال قوات خير الدين بربوس إلا أنه مني بالهزيمة في معركة واد بوقندورة ثم في معركة ثنية بني عايشة أين تشتت قوات ابن القاضي بل وتمرد عليه قسم كبير من رجاله الذين قتلوا واحدا منهم وأرسل برأسه إلى خير الدين ².

دخل خير الدين وحليفه عبد العزيز وقواتهما مدينة الجزائر مرة أخرى، واحتفل أهلها برجوع خير الدين أيما احتفال، حيث كانت عودته إلى المدينة بمثابة تحريرها من جديد ³ أما ابن القاضي فكان موته كما يقول بوليفة Boulifa (نهاية رجل عظيم، واستقرارا للسلطة التركية في الجزائر بشكل نهائي) ⁴.

- مساهمة إمارة بني عباس في إخضاع تلمسان:

جهّز البايبراي حسن بن خير الدين جيشا ضخما قوامه خمسة آلاف نابل وألف فارس وثمانية آلاف جندي ⁵ من بني عباس تحت قيادة عبد العزيز العباسي قاصدا تحرير وهران ⁶، وذلك سنة 1550م غير أن أنباء استيلاء السعديين على تلمسان وتقدمهم إلى مستغانم جعل بيلرباي الجزائر الجديد يغير وجهته ويقرر محاربة السعديين ⁷، حيث التقت قوات التحالف التركي العباسي والذي كان بقيادة حسن قورصو وعبد العزيز بنظيرتها السعدية قرب نهر الشلف، وانتهت المعركة بانتصار قوات الجزائر واستعادة مستغانم ⁸. بعد هذا النصر الذي حققه جيش الإيالة واصلت قوات هذا التحالف السير نحو تلمسان في الوقت الذي أرسل فيه السلطان محمد الشيخ السعدي مددا آخر لجيشه قوامه عشرين ألف رجل، والتقى الجيشان مرة أخرى قرب زاوية سيدي موسى بعين تموشنت وانتهت كذلك بانتصار جيش الإيالة ومقتل عبد القادر الشريف ابن السلطان السعدي مما اضطر الجيش السعدي للانسحاب إلى وراء نهر ملوية ⁹ والعودة إلى المغرب الأقصى ¹⁰، وقد كان حسن قورصو مترددا في قتال القوات السعدية التي كانت تحت إمرة الشريف عبد القادر ابن السلطان السعدي لولا رباطة جأش عبد العزيز الذي عاتب القائد التركي على ذلك، وتولى قيادة الجيش بنفسه بعد أن خاطبه قائلا : (... أيها السيد حسان - قورصو - أهبذا تشكر الأمير (البايلرباي حسن بن خير الدين) على ما يعطيك من أجر

¹ - مذكرات خير الدين بربوس، المصدر السابق، ص185.

² - Boulifa, op-cit, p.123.

³ - De grammont, op-cit, p.34.

⁴ - Boulifa, op-cit, p.13.

⁵ - يذكر كرفخال أن قوات عبد العزيز تمثلت فقط في ثمانين راجلا وألف وستمائة فارس، فيما يذكر شارل فيرو أنها كانت ستة آلاف بين راجل وفارس، ينظر: مارمول كرفخال، المصدر السابق، ج2، ص386.

⁶ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص328.

⁷ - السعديين أسرة من أصل عربي أسست الدولة السعدية في المغرب الأقصى في القرن 16م، ينظر: (السلامي أحمد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، ج5، دار الكتاب، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1954م، ص3، 25.

⁸ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص229، وقد جاء عن هايدو أن سكان تلمسان هم من استنجدوا بالسلطان السعدي لحمايتهم من القوات الإسبانية في وهران، ينظر: (Haedo, op-cit, p.76).

⁹ - نهر ملوية: هو نهر يقع شرق المغرب الأقصى يصب في البحر المتوسط يعتبر الحد الطبيعي بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، ينظر: (الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص193، ج2، ص250).

¹⁰ - Haedo, op-cit, p78, De Grammont, op-cit, p.76.

جزيل لكونك قد ابتعدت عن الجزائر حيث اعتدت أن تختال في كسوة الديباج المحلي بالذهب)، ولما تبين له أن ذلك العتاب لا يؤثر فيه بتاتا حرض رجاله وهاجم الشريف وهزمه وقتله وقطع رأسه وعاد به إلى مدينة الجزائر¹.

بعد هذا النصر وبفضل شجاعة عبد العزيز وإقدام فرسان إمارة بني عباس دخلت القوات الجزائرية مدينة تلمسان، وهي كما يقول أحمد توفيق المدني: (لم يكن بها ملك ولا شبه ملك)²، ووضعوا على عرشها الحسن بن عبد الله الثاني يحكمها بصفة رمزية حيث أن حكمها الحقيقي كان بيد القائد التركي "صفا بك" الذي يقول عنه هايدو Haedo أنه أول حاكم تركي لمدينة تلمسان، وكان معه ألف وخمسمائة جندي تركهم حسن قورصو لفرض السلطة في المدينة وحمايتها³، وبقيت تلمسان خاضعة لسلطة الإيالة بصفة رمزية إلى غاية 1554م حيث اجتمع علماء وأعيان المدينة وقرروا الانضمام رسميا إلى إيالة الجزائر، وأعلن صالح رايس خليفة حسن بن خير الدين ضم تلمسان نهائيا للجزائر العثمانية⁴.

ونظرا للقيمة الكبيرة التي عرفها الأتراك في هذه الإمارة ونظرا لقوتها العسكرية ونفوذها المحلي الواسع فقد سعى بيلرباي الجزائر إلى توظيف الزواج السياسي مع أمراء بني عباس، وذلك حين طلب ابنة عبد العزيز للزواج غير أن الأخير رفض ذلك حيث جاء عن كرفخال: (... وخطب التركي ابنة صاحب الجبل -جبل بي عباس- وكانت فائقة الجمال، ولم يوافق والدها على الزواج، وإثر ذلك تزوج التركي ابنة صاحب كوكو ...) ⁵.

- دور إمارة بني عباس في فتح المدن الصحراوية:

بحلول سنة 1552م تولى صالح رايس حكم الجزائر برتبة بيلرباي خلفا لحسن بن خير الدين، وفي الوقت الذي وصل فيه إلى الجزائر كانت إمارتا تقرت وورقلة في الجنوب ترفضان الخضوع والتبعية لإيالة الجزائر، وعلى أساس بُعد المسافة بينها وبين مدينة الجزائر وأن سلطات الإيالة لن تتوغل في الصحراء فقد رفضت هاتان الإماراتان الاعتراف بسلطة الإيالة⁶، وقد كان صالح رايس على دراية تامة بقدرات إمارة بني عباس العسكرية، ومنه فقد عمل على دعم علاقة التحالف بين سلطة الإيالة وهذه الإمارة، وقد كرس بيلرباي الجزائر الجديد هذا التحالف بإشراك إمارة بني عباس وطلب دعمها في حملته على الصحراء لإخضاع مدينتي تقرت وورقلة، وعلى هذا الأساس تحرك صالح رايس إلى الصحراء الجزائرية بجيش مكون من ثلاثة آلاف انكشاري وألف فارس إضافة إلى مائة وثمانين راجلا وألف وستمائة فارس من بني عباس⁷ تحت قيادة عبد العزيز الذي خصص فرقة إضافية مكونة من مئة وعشرين رجلا لحمل العتاد والمدافع التي حملها جيش الإيالة من مدينة الجزائر⁸.

وقد هاجم جيش الجزائر مدينة تقرت التي قاومت قواتها جيش الإيالة مؤكدة رفضها الخضوع لسلطة الجزائر غير أن ذلك لم يدم طويلا حيث تمكنت القوات الجزائرية بعد أربعة أيام من الحصار إخضاع المدينة والإعلان عن إلحاقها بإيالة الجزائر، لتتجه بعدها قوات صالح رايس صوب ورقلة التي لم يشأ قادتها وأعيانها الاشتباك مع القوات الجزائرية فأعلنوا الولاء والطاعة وأعلنوا انضمامهم لإيالة الجزائر، وكان ذلك في شهر أكتوبر من سنة 1552م⁹، وقد كان لإمارة بني عباس دورا كبيرا في إرساء الحكم العثماني بالجزائر،

¹ - مارمول كرفخال: المصدر السابق، ج2، ص386.

² - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص229.

³ - Haedo, op-cit, p.79, De Grammont, op-cit, p.76.

⁴ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص229.

⁵ - مارمول كرفخال: المصدر السابق، ج2، ص388.

⁶ - De Grammont, op-cit, p.78.

⁷ - فيما يجعل كل من توفيق المدني ودوغرامون عدد هذه القوات ثمانية آلاف رجل، ينظر: (أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص78، 339).

⁸ - Haedo, op-cit, p.86, Mercier Ernest, Histoire De l'Afrique Septentrionale, Ernest Leroux Editeur, paris, 1868, p.73,

⁹ - Haedo, op-cit, p.85, Mercier, Histoire de l'Afrique, op-cit, p.73, De Grammont, op-cit, p.78.

وذلك من خلال مساهمتها الكبيرة والفعالة في إخضاع العديد من المدن الجزائرية لسلطة الإيالة، وكذا في الوقوف أمام التحديات الخارجية المتمثلة في التوسعات السعدية والحملات المتوالية للإسبان على إيالة الجزائر، وقد تمكن الأتراك بفضل هذه الإمارة من تثبيت وجودهم وتأسيس الحكم العثماني بالجزائر، ولا أدل على ذلك مما أورده كرفخال الذي ذكر أن الأتراك لم يكونوا يستطيعون القيام بتلك الحملات - التي اخضعت العديد من المدن لسلطة الإيالة - لولا معونة قبائل بني عباس¹.

3- الصراع بين إمارة بني عباس والعثمانيين بالجزائر:

لقد استغل حسن بن خير الدين عودة علاقة التحالف بينه وبين وأسرة ابن القاضي - والتي كانت قد اضطربت بعد تمرد أحمد ابن القاضي وبعدها حينما تحالفت هذه الإمارة مع الإسبان خلال حملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة 1541م -، وقرر التخلص بمعيتها من تمرد إمارة بني عباس التي كانت قد تمردت على السلطة العثمانية في الجزائر، وقد كان سبب تمرد السلطان عبد العزيز على السلطة العثمانية هو الاختلاف الذي وقع بين الأمير عبد العزيز وصالح رايس حول اقتسام الغنائم ومناطق النفوذ بعد فتح مدينتي تقرت وورقلة بالجنوب الصحراوي. حيث رفض ذلك صالح رايس وأصر على أن الغنائم والمناطق المفتوحة هي من نصيب سلطة الإيالة².

وبعد عودته من محاولة تحرير وهران شن حسن باشا هجوما واسع على إمارة بني عباس، بالتحالف مع أمراء كوكو الأعداء القدامى لبني عباس، ويقول كرفخال أنه قد صار لصاحب كوكو قوة ونفوذ منذ أن عقد الصلح مع الأتراك حتى أنه أعانهم في قتال صاحب جبل بني عباس لاسيما وأن جباله أعظم وأكثر سكانا من جبال هذا الأخير³، واتجهت قوات هذا التحالف المكونة من تسعة آلاف محارب وأربعة آلاف فارس⁴ إلى منطقة بني عباس، وحسب رواية كرفخال عن هذه الحملة فقد سار هذان المتحالفان (حسن باشا وابن القاضي) بمحاذاة نهر بجاية وأخذوا يعيثان فسادا في أراضي بني عباس التي قرر أميرها عبد العزيز أن يخرج لقتالهما حيث وقعت معركة انتهت بهزيمة جيش بني عباس ومقتل الأمير عبد العزيز العباسي الذي حمل رأسه إلى مدينة الجزائر⁵ في حين خلفه أخوه أحمد أمقران الذي عقد صلحا مع العثمانيين اعترف فيه بسلطتهم فيما اعترف له باشا الجزائر باستقلاله بحكم مناطقهم والقبائل التابعة له⁶.

خاتمة:

نخلص أخيرا إلى أن تأسيس الحكم العثماني بالجزائر كان بفضل مساهمة محلية فعالة، حيث تحالف الأتراك في الجزائر مع الإمارات والكيانات السياسية المحلية القوية لتثبيت وجودهم وتأسيس حكمهم في البلاد، وقد ساهمت إمارة بني عباس بحظ أوفر في تأسيس هذا الحكم، ومن تم في بناء دولة حديثة في الجزائر، وذلك من خلال مساهمتها في فتح المدن والثغور المحتلة من الإسبان، وفي إخضاع المدن والأقاليم الداخلية لسلطة الإيالة، ضف إلى ذلك دورها في القضاء على التمردات الداخلية والتهديدات الخارجية التي كانت تتعرض لها الجزائر، لكن في المقابل عرفت علاقة العثمانيين بإمارة بني عباس فترات توتر وصراع وصلت في الأخير إلى حد القضاء على أمير بني عباس مما مهد الساحة للعثمانيين وأفرغها من الخصوم والمناوئين، لكن ما تجدر الإشارة إليه أخيرا هو أن إمارة بني عباس لم تكن ترى نفسها تابعا للعثمانيين بقدر ما كانت تعتبر نفسها حليفا لهم ضد التهديدات الخارجية، ومشاركا إياهم في الحكم بالساحة الداخلية.

¹ - مارمول كرفخال: المصدر السابق، ج2، ص386.

² - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص127.

³ - مارمول كرفخال: المصدر السابق، ج2، ص375.

⁴ - Haedo, op-cit, p.119.

⁵ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص129.

⁶ - المرجع نفسه، ص130.

علاقة آل المقراني بالسلطة العثمانية في الجزائر خلال القرن 17م

مليلة عرايبي - جامعة خميس مليانة

يسعى المشروع البحثي في السنوات الأخيرة للنهوض بالدراسات التاريخية ذات الصلة بالتاريخ المحلي، من خلال طرح مواضيع تعنى بهذا الجانب وتهتم به بعد أن كانت عرضة للتهميش، يقابلها أقلام تمجد تاريخ الإنجازات الخاصة بالسلطة الحاكمة، من ذلك التوجه نحو كتابة تاريخ الأسر الحاكمة والبيوتات المحلية التي تعاقبت على المشهد السياسي والاجتماعي والعلمي لما يفوق أزيد من ثلاثة قرون من الحكم العثماني بالبلاد، وتعتبر إمارة آل المقراني الواقعة ببابلك الشرق القسنطيني من بين الأسر المركزية المؤثرة في تاريخ بلاد الزاوة، حيث ساهمت كفاعل اجتماعي وفئة تتمتع بالنفوذ في رسم الأحداث السياسية والعسكرية بصفة دائمة ومستمرة، من خلال مركزها السياسي وثرواتها الهائلة بامتلاكها للأراضي الواسعة، ومكانتها الاجتماعية والدينية وانتشارها ضمن حيز جغرافي ممتاز، وهي مقومات خولتها القيام بأدوار هامة غيرت ميزان القوى في المنطقة، وسمحت لها بالمشاركة إلى جانب السلطة في حكم البلاد بصورة غير مباشرة.

وقد ساعدت السياسة التي انتهجتها السلطة العثمانية في الجزائر مع المقرانيين وغيرهم من الزعامات المحلية في بروزهم وتفاعلهم مع الحكام والمحكومين، والمتمثلة أساسا في الحفاظ على استمرارية وبقاء النظم السياسية والاجتماعية الموروثة والمترسخة عن العهود السابقة، متخذين إياها وسيطا سياسيا بينها وبين السكان، وأداة لفرض وتعزيز نفوذها، وتعميق وجودها وحضورها في المناطق ذات الأهمية والتي تمثل تهديدا إلى جانب الإمارات المجاورة، وأيضا بغية إضفاء المرونة والفعالية على أجهزتها الإدارية والعسكرية، فكان هذا النمط في التسيير من أبرز العوامل التي مكنت العثمانيين كقوة سياسية من الاستقرار في الجزائر رغم قلة عددهم.

إن تتبع طبيعة العلاقة التي جمعت بين السلطة العثمانية في الجزائر والمقرانيين ببلاد الزاوة خلال القرن 17م، يحتم علينا ضرورة ربطها بالمتغيرات والتحولات التي عرفت المنطقة عامة والجزائر خاصة منذ القرن 16م، من سقوط الأندلس وتعرضها للتحركات الأجنبية التي أدت لتأزم الوضع السياسي، فأثرت على علاقة الجزائر العثمانية مع الدول الأوروبية خاصة إسبانيا، ومست حتى العلاقة مع الكيانات السياسية المحلية المتهالكة والمتناثرة في مختلف نواحي البلاد باعتبارها السلطة السيادية الوحيدة الفاعلة التي تمتلك إمكانيات التأثير على مسرح الأحداث، لكن من أهم مظاهر هذه التحولات والتطورات هي تلك العلاقة التي تميزت بالتأرجح مع السلطة الجديدة الممثلة في الحكم العثماني بالجزائر منذ البداية، ذلك نتيجة تعارض مفهوم الدولة المركزية مع طبيعة وجود إمارة المقرانيين وموقعها ضمن استراتيجياتها التي كانت تهدف لجعلها مظهرا من تمظهراتها، ووسيلة مخزنية تعمل على تركيز وتوطيد حكمها، إلا أن هذا المسعى الحثيث من قبلها اصطدم بطموح المقرانيين ورغبتهم بالاستقلالية، وهو ما أدى لظهور موجة من التصادمات والتحالفات القابلة للتغير، إذ شكل الهدوء والسلم والاستقرار في علاقة الطرفين استثناء ضمن مرحلة طويلة ميزها الاضطراب والصراع. فكان من نواتج ذلك تصدع البيت المقراني وتخليه عن نهجه السياسي، ليتحول في النصف الأول من القرن 17م صوب ممارسة الحياة الروحية والدينية.

وبناء على ذلك، أردنا تسليط الضوء على واقع العلاقات بين الطرفين خلال القرن 17م وما عرفت من نزاعات وتحالفات، بمراعاة الظروف الاقتصادية والتقلبات السياسية التي شهدتها الجزائر خلال هذا القرن، الذي تعاقبت عليه ثلاثة محطات سياسية، أثرت في أساليب التفاعل التي تربط بين المركز والريف وزعاماته. وهذا ما سنحاول رصدده ضمن ما تتيحه لنا المصادر والدراسات التي أنجزت في هذا الموضوع، بشيء من التعمق والتفصيل والتحليل. وعلى هذا الأساس يعالج الموضوع العناصر التالية:

- تحديد العوامل والأسباب الحقيقية التي ساهمت في رسم مسار العلاقات بين الطرفين خلال القرن 17م.
- الوقوف على مختلف أشكال ومظاهر التنافر والصراع، وكذلك استعراض صلات التعاون والتقارب التي طبعت علاقة السلطة المركزية وسلطة البايك مع حكام مجانة بغرب بايلك الشرق (المقرانيين)، مع ذكر بعض الآليات والوسائل التي استخدمتها السلطة السياسية في محاولة سيطرتها على الأسرة ومنها المجتمع.

1- محددات العلاقة بين السلطة العثمانية والمقرانيين (الواقع والأسباب):

لا يمكننا فهم طبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية وإمارة آل المقراني خلال القرن 17م بمعزل عن الأسباب والظروف والوقائع التي حدثت منذ الحاق الجزائر بالباب العالي، وما أفرزته من انعكاسات على الصعيد السياسي والعسكري، والاقتصادي والاجتماعي، إذ لاشك في أن السلطة الجديدة لاقت اعتراضا من طرف أصحاب المصالح السياسية والاقتصادية في البلاد، ومن خلال هذا سنحاول تحديد العوامل المؤثرة في العلاقة بين الطرفين. وهذه أبرزها:

أ- الدوافع السلطوية:

إن توفر العثمانيين على عامل القوة والتفوق من حيث العتاد الحربي جعلهم يطمحون لمد نفوذهم بما يضمن لهم تأمين وجودهم واستقرارهم لأطول مدة ممكنة بالبلاد، وذلك عبر الدخول في التحالفات، وتكريس أدوات وأجهزة تتكلف بتعميق وتركيز حضورهم في المناطق الاستراتيجية التي تمثل بؤرا لتوتر الدائم¹، فمنذ وطأت أقدامهم الجزائر، سارعوا لتنظيم البلاد سياسيا وإداريا، وفي إطار ذلك قسموا البلاد لمناطق حيوية²، ونظموا حملات عسكرية على المناطق الممتنعة³ التي كانت خارجة عن مراقبة الإدارة المحلية في مسعى حثيث لجعلها ضمن القبائل المخزنية⁴، وقد سعى العثمانيون إلى خلق هذه الجبهة الداخلية الموالية لهم منذ بداية عهدهم ليزداد هذا الاهتمام مع أواخر القرن 17م، وقد نبه خير الدين بربوس⁵ (1519-1534م) للأسباب التي تكتنف هذه الرغبة بقوله: "...منذ استقرارنا بالجزائر كنا مضطرين إلى الانشغال بالأمراء المحليين وأشباههم في الجزائر... الذين كانوا مستائين من وجودنا"⁶، ويعاز هذا الموقف الراض للوجود العثماني إلى خشية الأمرء والولاة المحليين من فقدان مصالحهم السياسية والاقتصادية لصالح الحكام الجدد، وإلى حلفائهم من العلماء والمرابطين الذين أعلنوا ولائهم لسلطة⁷.

وفي خضم هذه المستجدات السياسية جاءت تحركات المقرانيين التي كان يحذوها الطموح الخاص والمصلحة الاقتصادية كزعامة محلية معارضة للنفوذ العثماني المطلق في المنطقة، وباعتبارها عنصرا هاما ضمن التشكيلات السياسية المسيرة للبلاد وإحدى مكونات

¹ - تمثلت هذه المناطق ذات الأهمية التي أقامت فيها السلطة حاميات عسكرية في كل من: مستغانم، وهران، تلمسان، القل، قسنطينة، زمورة، عناية، تيزي وزو، بوقعة، وبجاية، حمزة (برج البويرة)، ينظر: (جبلية معاشي: الانكشارية والجنح ببايلك قسنطينة نهاية العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2008م، ص48).

² - قام حسن بن خير الدين الذي تولى حكم الإيالة على ثلاث مراحل متقطعة بتنظيم البلاد إداريا، وذلك بتقسيمها لثلاث مقاطعات: الشرق وعاصمته قسنطينة، التيطري وعاصمته المدية، والغرب وعاصمته مازونة، في حين نصب مدينة الجزائر كعاصمة للإيالة وعرفت لاحقا بدار السلطان، ينظر: (ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، 2014م، ص33).

³ - هي تلك القبائل الجبلية والصحراوية التي تمتنع عن دفع الضرائب، وساعدها على ذلك موقعها الجغرافي وتضاريسها، وكذا بعدها عن مركز الإدارة، وكان رفضها هذا راجع إلى طبيعة نشاطها الاقتصادي، ينظر: (أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني 1519-1830م، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2006م، ص190 وما بعدها).

⁴ - تعرف القبائل المخزنية بأنها تلك التجمعات السكانية الاصطناعية المتمايزة في أصولها، والمختلفة في أعراقها، منها من قام العثمانيون بإقرارها على أراضيها الأصلية، ومنها من منحت لهم الأرض للاستقرار على متنها، وبعضها استقدمت كأفراد مغامرين من مختلف المناطق، والبعض الآخر تتكون من القبائل الممتنعة والمستقلة، ينظر: (سعاد عقاد: الفلاحون الجزائريون والسلطة العثمانية في الجزائر 1519-1830م دار السلطان أنفودجا، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2014م، ص40).

⁵ - يعتبر خير الدين من أوائل الحكام العثمانيين بالجزائر تولى الحكم خلال الفترة الممتدة بين 1519-1534م، وقد اختلف المؤرخين حول أصله وتاريخ ميلاده، شارك رفقة أخيه عروج في تحرير السواحل الجزائرية من الإسبان، وتمكن من ترسيخ الحكم العثماني بالبلاد بقضائه على ثورة ابن القاضي 1521-1525م، ينظر: (محمد لعباسي: أعمال خير الدين العسكرية في الجزائر من خلال مخطوط خير قدوم عروج إلى الجزائر وأخيه خير الدين المؤلف مجهول، رسالة ماجستير، جامع وهران، 2006م، ص13 وما بعدها).

⁶ - مؤلف مجهول: مذكرات خير الدين بربوس، ترجمة محمد دراج، دار الأصاله، الجزائر، 2010م، ص98.

⁷ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998م، ص210.

الواقع السياسي الذي يؤلف الوضع العام، فقامت في عدة مناسبات بإعلان تمردها وامتناعها عن دفع الضرائب طيلة القرن 17م¹، وما عزز من توجههم المعادي للسلطة إمكانياتهم البشرية والعسكرية والاقتصادية، حيث ضمت هذه السلطنة معظم قبائل المنطقة من أولاد خلوف، ونوغة، وقبائل مجانة والبابور وصولاً إلى الأوراس، وساهمت هذه القوة الديموغرافية في تكوين الجيش وتزويده بالفرسان، ومما زاد في تقويتها امتلاكها لأراضي واسعة وأعداد لا تحصى من الماشية والخيول، إضافة لغنى المنطقة بمعدن الحديد ومهارة سكانها في صناعة الأسلحة، فضلاً عن اشتغالهم بميلهم للحرية والاستقلال²، وبأنهم لم يؤدوا منذ زمن بعيد ضريبة لسلطان أو أمير، وكان لبعدهم عن مركز السلطة واستيطانهم للجبال تأثير واضح في سياستهم المعادية³. لتكون هذه المقومات خاصة تعنت المقرانيين عن دفع ضريبة السلطان لدلالاتها الرمزية عن الولاء من الأسباب التي جعلت الأتراك العثمانيين يكرسون كل قوتهم في سبيل تقويض النشاط السياسي للأسرة.

2.1- الصراع حول الطرق السلطانية (الممر البري ببيان الحديد):

شكلت شبكة الطرق والمواصلات عصب الحياة الاقتصادية، بل إن ازدهار النشاط الاقتصادي ضاعف من أهمية مجالي النقل والطرق التي حافظت على خصائصها طيلة العهد العثماني⁴، وقد كانت شبكة الطرق والمبادلات في دواخل الجزائر ذات حركية دائمة إلا في حالة اضطراب الأمن وانعدامه بسبب خلاف السلطة مع القبائل التي تؤمن هذه الممرات وتتصرف فيها كمجال نفوذ⁵. وما يهمننا في هذا الحيز منطقة القبائل خاصة إمارة المقرانيين من حيث أهمية موقعها الاستراتيجي الذي وفره مجالها القبلي والجغرافي، فهي إمارة مسيطرة تتوسط الطريق بين بايلك الشرق ودار السلطان ما مكنها من السيطرة على أهم الممرات بالبايلك الذي عرف ببيان الحديد، ونظراً لأهمية هذا الطريق عمدت السلطة لإقامة تحصينات لتأمين مرور القوات العسكرية عبره⁶.

ويعتبر الطريق السلطاني الذي يتجه نحو الهضاب عبر حمزة وبيان الحديد، من أخطر نقاط العبور والتنقل بالنسبة لقوات البايك بسبب خضوعها للقبائل المستعصية، التي أجبرت العثمانيين على دفع ضريبة العبور عبر مضيق البيان⁷، الأمر الذي أدى إلى سوء العلاقة كلما حاول الأتراك العثمانيين التملص من دفعها، في وقت رأى فيها المقرانيين حقاً مشروعاً، وكمثال على ذلك ما وقع سنة 1666م عندما قامت القبائل المتمردة من المقرانيين وحلفائهم الحنانشة بقطع ممر بيان الحديد إلى غاية سنة 1670م⁸.

¹ - أمين محرز: الجزائر في عهد الآغوات 1659-1671م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2008م، ص 90.

² - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 16-19م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014م، ص 52-62.

³ - كارخال مارمول، إفريقيا، ج 2، ترجمة محمد حجي ومحمد زبير وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط، المملكة المغربية، 1984م، ص 385، وقد أكد الحسين الورثاني هذا الأمر قائلاً: " إذ القتال في وطننا كثير ... وحكم السلطان غير نافذ فيهم إذ لا يقدر عليهم وإن كانوا قريباً من الجزائر لكونهم تحصنوا بالجبال ... "، ينظر: (الحسين الورثاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المجلد 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2008م، ص 18).

⁴ - فرنان بروديل: المتوسط والعالم المتوسطي، ترجمة مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي، لبنان، 1993م، ص 71.

⁵ - تكاد تتفق المصادر حول اضطراب الأمن وانعدامه أحياناً، وأن الأحكام غالباً ما فقدوا السيطرة خاصة فيما تعلق بالطريق الرابط بين الجزائر وقسنطينة عبر مجانة، بسبب تهديد القبائل الخاضعة لبني عباس، ينظر: (عمار بن خروف: العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن 16م، ج 2، دار الأمل، الجزائر، 2008م، ص 71، 72).

⁶ - جميلة معاشي: الانكشارية... المرجع السابق، ص 57.

⁷ - المرجع نفسه، ص 58-59.

⁸ - أمين محرز: المرجع السابق، ص 90.

أمام هذا الوضع لجأت السلطة لأسلوب المهادنة من خلال إيجاد وسطاء لهم التأثير على السكان، وهذا ما تؤكد المصادر التاريخية منها ما نقله بومولة عن فيرو بقوله: "إن الدولة العثمانية لا تستطيع المرور بجمال البيان وجرجرة دون أخذ ضمانات وحماية المرابطين المؤثرين في المنطقة"¹، ويدل هذا عن مدى قوة وخطورة هذه القبائل التي كانت تلغي على أسوارها تلك الهيبة التي عرف بها الجنود العثمانيين، الأمر الذي أكسب شيوخها أهمية كبيرة بحيث حرصت السلطة على التقرب منهم لتجنب قطع الطريق، وقد استمرت هذه العلاقة المتميزة طيلة القرن 16م و17م، وبذلك شكل مضيق ببيان الحديد ممرا حيويا بالنسبة للمقرانيين الذين حولوه لورقة ضغط للحصول على الالتزامات المالية من السلطة، وعنصرنا محددات لطبيعة العلاقات بين الطرفين طيلة العهد العثماني.

3.1- التعسف الضريبي:

أولى العثمانيين منذ البداية عناية خاصة بكيفية جباية الضرائب، فعمدوا إلى تقنينها وحددوا أساليب جمعها، إلا أن الملاحظ عدم احترام قانون الضرائب، إذ ظلت هناك تجاوزات تحدث عنها حمدان خوجة عندما أشار إلى سياسة الجباة الذين كانوا يجمعون أكثر من اللازم²، ويفهم من قوله أن الخلل ليس في الضرائب، بل ارتبط بتجاوزات الموظفين الساهرين على جبايتها وبسلوك وتصرفات جنود المحلة³، وهذا ما تؤكدته أغلب المصادر الأجنبية رغم تضخيمها ومغالاتها في وصف أعمال العنف والتخريب التي صاحبت المحلة في الأرياف خاصة بايلك قسنطينة⁴.

ورغم أن القرن 17م يمثل العصر الذهبي بالنسبة للنشاط البحري الذي انعكس على الوفرة الاقتصادية، إلا أنه يمثل أيضا قرنا لتحولات، فقد شهدت هذه الوفرة في النصف الأخير من هذا القرن تراجعاً محسوساً بفعل قلة الغزو البحري⁵، وتسبب في زيادة اهتمام الحكام بالمناطق الداخلية وفي زيادة المطالب المخزنية والضرائب⁶، ولقد أثارت هذه السياسة سخط وغضب الفئات الاجتماعية المتضررة من النظام الضريبي، فتهدت من دفع ما يترتب عنها من التزامات مالية وقامت بسلسلة من الثورات، وهذا ما رأت فيه السلطة خروجاً عن الولاء، فلجأت إلى استعمال العنف ضدها ما أدى لتوتر العلاقة بين الحكام والمحكومين⁷. ومن أوجه هذا التنافر الحملات العسكرية المتوالية للسلطة على المقرانيين، كحملة سليمان باشا⁸ (1600-1603م) على القلعة سنة 1600م، ويعود سببها لرفض المقرانيين دفع الضرائب وإعلانهم التمرد والعصيان⁹.

¹ - نبيل بومولة: القوى المحلية في منطقة القبائل الشرقية في القرن 16م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2009م، ص74، وقد مثل هذا الطريق تهديدا كبيرا على أمن وسلامة قوات البايك حيث كانت تقوم بتنكيس أعلامها وإسكات جوقتها عند المرور عبره خوفا من التعرض لسطو القبائل، وخطورته كانت السلطة في الجزائر تطلق طلقات المدافع عند مرور الحامية بسلام، كما تقربت من شيوخ المنطقة مثل أسرة المقراني، لسير مع الحامية حتى تخرج من ببيان الحديد، للمزيد حول هذا الموضوع ينظر: (جميلة معاشي: الانكشارية...، المرجع السابق، ص59، وأيضا تشير المصادر إلى أن أفراد الحامية كانوا لا يجزؤون على طلب المأوى ولا المؤونة من قبائل المنطقة، جميلة معاشي: الأسر...، المرجع السابق، ص165).

² - حمدان خوجة: المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005م، ص108.

³ - المحلة عبارة عن حملات فصلية تتوجه فيها فرق الجند وعلى رأسها الأغا من مدينة الجزائر وكذلك من المقاطعات بقيادة البايات نحو المناطق الريفية لاستخلاص الضرائب وإيقاع العقاب بالعصاة وقمع التمردات...، أنظر: (ج هابنسترايت: رحلة العالم الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م، ترجمة وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2013م، ص51 وما بعدها، جميلة معاشي: الانكشارية...، المرجع السابق، ص80 وما بعدها، حمدان خوجة: المصدر السابق، ص101، 106).

⁴ - جميلة معاشي: الانكشارية...، المرجع السابق، ص91، 92، وصف شالر الذي وصف تعسف البايات وحكام الأقاليم ومساعدتهم وحتى بعض القبائل بجمع كل ما يقع تحت أنظارهم من أموال السكان عند جمع الضرائب، ينظر: (وليام شالر: مذكرات وليام شالر القنصل الأمريكي بالجزائر 1816-1824م، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص59).

⁵ - فرنان بروديل: المرجع السابق، ص153.

⁶ - أمين محرز: المرجع السابق، ص37.

⁷ - أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص161.

⁸ - تقلد سليمان باشا قطانية زمام الحكم في إيالة الجزائر 1600م، وقد تجددت ولايته للمرة الثانية سنة 1617م، وقد قام بمحلتين على إمارة بني عباس عام 1600-1601م، ينظر: (ابن الفتي حسين بن رجب شاوش: تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، جمعها واعتنى بها فراس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، 2009م، ص46).

⁹ - نبيل بومولة: المرجع السابق، ص123.

إلى جانب هذه العوامل التي تعد من أبرز المحددات لطبيعة العلاقة بين الطرفين يمكن أن ندرج أسبابا أخرى تتعلق بالظروف الداخلية والخارجية لكل منهما، حيث ساهم عامل القوة والضعف في تغيير مجرى الأحداث، وخير مثال على ذلك استغلال المقرانيين للفوضى والاضطرابات التي عرفها مقر الحكم بسبب صراع الآغوات¹، فقاموا بدعم قبائل الحنانشة² في ثورتهم ضد السلطة الحاكمة، كما أفضى توقف النشاط التجاري بالبلاستيون لتضرر هذه القبائل التي كانت تتعامل تجاريا مع الفرنسيين حيث حرمت من العائدات المالية المتأتية منه، الأمر الذي كان يدفعها لإعلان الثورة والعصيان³.

ومن ذلك يمكن القول أن العوامل المذكورة سابقا بصفة عامة، أدت دورا كبيرا في تحديد ملامح التقارب والتصادم في العلاقات بين السلطة العثمانية في الجزائر وإمارة المقرانيين خلال القرن 17م. بداية بالعامل السياسي المتمثل في رغبة العثمانيين في احتواء المقرانيين والمنطقة الخاضعة لهم بأكملها وجعلها وسيلة مخزنية وقوة عسكرية في يدهم في ظل امتناعهم عن الاستقرار في السهول، إضافة للعامل الاقتصادي الذي يبرز في السياسة الجبائية، في حين شكل ممر البليان نقطة ضعف بالنسبة للسلطة لوجوده ضمن مجال نفوذ المقرانيين، بدليل نزول الأتراك العثمانيين في الغالب عند رغبة المقرانيين بتسديد ضريبة العبور، إلا أنها لم تكن تتقبل وجود منافس محلي بطموح سياسي يزاهاها أو يحاول إزاحتها عن مجالات نفوذها، لذا، اعتبرت التمرد والامتناع عن دفع الضرائب المختلفة مظهرا من مظاهر قطع الولاء. وعليه سنعمد في العنصر التالي إلى الكشف عن أبرز المخططات والمراحل التي مرت بها العلاقة بين الطرفين، وذلك بالوقوف على مظاهر التوتر والتقارب مع تبيان الآليات المستخدمة في إطار إخضاع وتحسين صفو العلاقات وفقا لمنحى التغيير السياسي الذي عرفه القرن 17م.

2- مظاهر القطيعة والتقارب بين السلطة العثمانية وإمارة المقرانيين:

شهدت العلاقات بين الأتراك العثمانيين والمقرانيين العديد من التحولات خاصة خلال القرن 17م، في وقت ارتسمت ملامح جديدة للإمارة على صعيد التسمية والتوجه، ولاشك أن العوامل المذكورة أنفا قد أثرت على صورة العلاقات، حيث دفعتها نحو التدهور والتوتر، وفي خضم ذلك ستعتمد السلطة في إطار مسعاها لتقوية الحكم المركزي العثماني في الجزائر وتطويق الإمارة واحتوائها إلى استخدام مختلف الوسائل العسكرية والدينية لتحقيق أهدافها الاستراتيجية. وعلى هذا الأساس سنحاول رصد أوجه التنافر والتقارب في العلاقات، وكذا الوقوف على مختلف الوسائل المستخدمة من قبل السلطة للسيطرة على المقرانيين والمجتمع.

1.2- التطور السياسي للعلاقات بين الطرفين في الفترة الممتدة بين (1600-1659م):

كان على نظام الباشوات⁴ في مستهل القرن 17م خوض عدة حروب وعلى جبهات متعددة من أجل ترسيخ أركانها وتثبيت وجودها، بما في ذلك الجبهة المحلية والناجحة عن تلك الثورات والتمردات الداخلية التي تضافرت مجموعة من العوامل المذكورة سابقا في اندلاعها، كما كان عليهم التعاون مع الانكشارية التي تمكنت من الاستئثار بالسلطة بعد تحولها لقوة عددية، وإرضاء الفرنسيين الذين تدخلوا في تعيين وعزل الباشوات المعارضين لمصالحهم بشرق الجزائر عن طريق قناصلهم في الديوان الهيمايوني، وقد ترتب عن ذلك

¹ - تولى الآغوات زمام السلطة من 1659-1671م باعتبارهم قادة الجند ورؤساء الديوان، وقد حددت مدة حكمهم بشهرين قابلة للتجديد، وقد تميزت فترة حكمهم بعدم الاستقرار، إذ تم قتل جميع الآغوات الذين تولوا الحكم، ينظر: (ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 49 وما بعدها).

² - اختلفت المصادر والروايات التاريخية حول أصول قبائل الحنانشة، إلا أنهم يجمعون على أن القبيلة عند دخول العثمانيين إلى قسنطينة كانت خاضعة لقبيلة الشاوية الذين شكلوا حلفا ضم أغلب قبائل شرق المقاطعة، أنظر: (جميلة معاشي: أسرار أحرار الحنانشة بين بايات قسنطينة وبايات تونس، المجلة التاريخية المغربية، ع128، تونس، 2007م، ص149).

³ - أمين محرز: المرجع السابق، ص37.

⁴ - دامت فترة الباشوات ما يقارب 72 سنة (1587-1659م)، تعاقب خلالها على الحكم 27 باشا، بعضهم تقلد منصب الباشوية لأربع مرات، وقد حددت مدة حكمهم بثلاث سنوات، وحصرتهم مهمتهم في جمع الضرائب وحفظ الأمن وتنفيذ أوامر السلطان... أنظر: (عائشة غطاس: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسستها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007م، ص46).

عزل الباشا حسن، وتنصيب سليمان باشا خلفا له سنة 1600م¹، وخلالها عرفت علاقة السلطة بآل المقراني خصوصا في عهد هذا الحاكم تصعيدا عسكريا واحتداما للصراع، والذي كان في أساسه مرتبطا بذلك النزاع الذي بدأ مع الثلث الأخير من القرن 16م، بسبب رفض أحمد أمقران² دفع الضريبة وقطعه للطريق الوحيد الرابط بين دار الإمارة وقسنطينة³، هذا ما دفع بسليمان باشا لقيادة حملة ضد أحمد أمقران سنة 1600م، إلا أنها باءت بالفشل، وتعرض للمرة الثانية على التوالي للهزيمة في موقعة جمعة الصهاريج، فقد خلالها عددا معتبرا من جنوده⁴.

وعلى الرغم من تحكم الجانب الاقتصادي في نشوب هذه المواجهة، فلم تنعدم الأسباب السياسية لتلك الحملات التي قادها سليمان باشا ضد إمارة بني عباس، حيث أراد كسب ثقة الباب العالي ليضمن تجديد عهده ومن ثم فرض نفوذه على الجيش الانكشاري في ظل عدم اهتمام الرياس بالصراع الدائر بين الطرفين من جهة، ومن جهة أخرى كان يهدف إلى تحويلها إلى قبيلة مخزنية، أو إجبارها على الأقل على دفع ضريبة رمزية، تعبيرا عن ولائها وتبعيةها للإدارة⁵، إلا أن أهداف سليمان باشا لم يكتب لها النجاح، فقد عاد إلى مقر حكمه خاوي الوفاض، كما ظل قانون العبور قائما وساريا على السلطة أثناء اجتيازها لمعبر البيبان⁶.

أما عن مصير العائلة بعد وفاة أحمد أمقران فيذكر بومولة ومعاشي عن فيرو أن بنو عباس نصبوا ابنه سيدي ناصر خلفا له والذي اشتهر بمعاداته لسلطة الحاكمة إلى أن لقي حتفه سنة 1624م⁷، لتستمر الأسرة بعده مع سيدي بتقة، ومن ثم مع محمد أمقران الذي تزعم سكان القبائل نظرا لأصله المشهور، وما عرف به من فضائل دينية⁸، أما أخوهم الأكبر وهو سيدي بتقة، فقد تمكن من استرجاع حكم أسرته انطلاقا من إقليم مجانة بدعم من قبيلة هاشم وأحلافه وأصهاره أولاد ماضي⁹.

وقد كانت من أبرز نواتج هذه التطورات السياسية تحول الأسرة من ممارسة الحياة السياسية إلى زعامة روحية وبيت ديني، وذلك مع بروز المرباط محمد أمقران كشخصية دينية، وتدرجيا ستتغير أيضا شهرتهم من بني عباس إلى آل المقراني¹⁰. ورغم هذا التحول الواضح في مسار ونهج الإمارة الجديد ونزوعها للسلم الحذر، نسجل في سنة 1638م مشاركة سيدي بتقة في ثورة أحمد بن الصخري التي كبدت قوات السلطة خسائر فادحة، وبذلك تمكن سيدي بتقة من مد نفوذه الذي وصل إلى قلعة أجداده في بني عباس، وهكذا صارت مجانة مقاطعة خاصة بالمقرانيين ومقرا لحكم الأسرة ونال سيدي بتقة لقب شيخ مجانة، وقد استمر هذا اللقب مع جميع شيوخ الأسرة لاحقا¹¹.

¹ - سامح عزيز التز: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، لبنان، 1989م، ص317.

² - تقلد الأمير أحمد أمقران إمارة بني عباس سنة 1559م خلفا لأخيه عبد العزيز، وقد ساعد حسن بن خير الدين في حملته لاستعادة وهران سنة 1663م، وقد تمكن خلال ثورته من تهديد مدينة الجزائر، ولقي حتفه في حربه مع سليمان باشا 1601م، أنظر: (نبيل بومولة: المرجع السابق، ص64-65).

³ - عائشة غطاس: المرجع السابق، ص45.

⁴ - سامح عزيز التز: المرجع السابق، ص311.

⁵ - أرزقي شويتم: المرجع السابق، ص190.

⁶ - نبيل بومولة: المرجع السابق، ص123.

⁷ - فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها السياسي والثقافي 1520-1830م، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2014م، ص507.

⁸ - انتقل محمد أمقران بعد تضيق السلطة عليه لزواية أمدان ببني سعود ومن ثم انتقل إلى بجاية، ينظر: (نبيل بومولة: المرجع السابق، ص124-125).

⁹ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص306.

¹⁰ - فوزية لزغم: المرجع السابق، ص507-508.

¹¹ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص259، 307.

استمر الخلاف بين الطرفين ففي مطلع سنة 1643م ثار المقرانيون من جديد في البيان ومنطقة سطيف، فاجتمعت مجموعة من الفرق بقيادة الآغا يحيى من مقر الحكم المركزي، والقائد يوسف من بايلك قسنطينة والقائد مراد وشعبان من زمورة، ولم تنته المعركة إلا بعد تعهد الباشا بإلغاء بعض الضرائب المفروضة، وحرية التجارة في البلاد¹.

وفي المحمل عكست هذه الإمارة شبه المستقلة بتمرداتها وثوراتها المتكررة رغم تحولها لإمارة دينية ضعف السلطة المركزية وممثليها المحليين، وعدم قدرتها وفعاليتها في التعامل مع هذا الوضع، وفي بسط نفوذها على هذا المجال خاصة ممر البيان الذي ظل عصيا على قوات الباشا، ومن جهة أخرى كانت دليلا واضحا على مدى قوة بعض الإمارات الداخلية كالمقرانيين التي استحوذت على أهم مناطق النفوذ في منطقة الشرق.

2.2- صورة العلاقات بين البيت المقراني والسلطة في الفترة الممتدة بين (1659-1671م):

قبل الحديث عن سمة العلاقة خلال هذه الفترة، لابد من إعطاء صورة عن التحول السياسي الذي شهدته الجزائر على صعيد السلطة لما هو من انعكاس واضح على موقف الطرفين من بعضهما البعض، فقد بدأ النصف الثاني من القرن 17م بثورة الآغوات سنة 1659م، وكانت من أهم نتائجها إلغاء منصب الباشوية وتوطيد السلطة لقادة الأوجاق، والتي حددت مدة بقاءهم في منصبهم بشهرين فقط، وقد أدى هذا التجديد المتواصل لرؤساء الديوان ورغبة هؤلاء في الاستمرار بمنصبهم إلى رد فعل تجسد فعليا في وقوع أحداث دموية بين الجند والحكام².

هذه التطورات السياسية الدموية بين الجند والحكام حول الاستئثار بالسلطة، بالإضافة إلى تمردات الجبهة الداخلية المعارضة، كانت فرصة لم تتركها الدول الأجنبية في مقدمتها الفرنسيين تضيق للتدخل في الايالة لضمان مصالحها المختلفة، وفي ذلك الإطار قاد الفرنسيون حملة على جيجل سنة 1664م، انتهت بانتهزامهم على اثر التعاون والتآزر الذي حصل بين المركز في عهد علي آغا³ (1665-1671م) والقبليين، حيث تمكن من جذبهم إلى صفوفه بمنحهم الهدايا، الأمر الذي ساعده على العبور عبر منطقتهم وصولا إلى جيجل، وعلى ما يبدو لم يكن بمقابل مادي⁴. لكن هذا الهدوء النسبي لم يدم طويلا، إذ سرعان ما توترت العلاقات من جديد بين الطرفين، فقد تحدث صاحب الزهرة النيرة عن ما تسبب به باي قسنطينة سنة 1666م عندما فرض ضريبة على بعض القبائل منها الحنانشة التي أعلنت الثورة مدعومة من قبائل بني عباس الذين هددوا بمنع قوات السلطة من المرور عبر بيان الحديد. وعلى إثرها، قام علي آغا بإرسال حملة قوية سنة 1670م مكنتهم من إخضاع بني عباس وباقي القبائل المتمردة⁵.

يبدو أن للجانب الاقتصادي دورا واضحا في إذكاء ثورة بني عباس وقبائل الحنانشة، إذ يرجع ذلك للعجز المالي الذي عانت منه السلطة في المركز وفي أقاليمها المحلية، نتيجة لعدة عوامل داخلية وخارجية، والمتمثلة في الحملات الأجنبية، وتراجع النشاط البحري خلال هذه الفترة، فلم يعد في إمكان السلطة تعويض هذا النقص في الموارد المالية، إلا بمطالبة القبائل بالمستحقات المخزنية⁶، إلا أن عدم استقرار الأوضاع والركود الذي أصاب الجانب الاقتصادي خاصة بعد انقطاع التعامل التجاري لهذه القبائل مع الفرنسيين والذي

¹ - عبد الجليل رحومي: العلاقة بين السلطة المركزية والباياليكات في الجزائر العثمانية 1520-1830م، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2020م، ص 241.

² - عائشة غطاس: المرجع السابق، ص 54.

³ - يعتبر علي آغا من بين قادة الأوجاق الذين تولوا الحكم وهو آخرهم، وامتدت فترة حكمه بين (1665-1671م)، وقد تمتع بنفوذ واحترام كبير لدى الانكشارية، هذا النفوذ مكّنه من تطبيق إصلاحاته الإدارية ومن أبرزها إلغاء اختصاصات الوالي الإدارية وتنحية منصب الآغوات المعزولين، أنظر: (أمين محرز: المرجع السابق، ص 77).

⁴ - عزيز سامح التز: المرجع السابق، ص 394.

⁵ - Rousseau, A. Chroniques de la Régence d'Alger traduites d'un manuscrit arabe intitulé El-Zohrat El-Nayerat, Imprimerie du Gouvernement, Alger, 1841, p.208.

⁶ - أرزقي شويثام: المرجع السابق، ص 197.

يعد السبب الرئيس لثورتهم، حال دون تمكنهم من أداء التزاماتهم السنوية إزاء الدولة، الأمر الذي أدى بالطرفين للدخول في مواجهة عسكرية¹.

3.2- طبيعة العلاقة بين السلطة والمقرانيين في الفترة الممتدة بين (1671-1700م):

تعتبر مرحلة الدايات آخر تطور عرفه النظام السياسي والإداري في الجزائر بعد فترة الآغوات التي أثرت بشكل كبير على الوضع الداخلي للبلاد وعلى السلطة نفسها، من أجل ذلك تم إلغاء نظام الآغوية، وعموما فقد شكل الدايات الأوائل المنتمين لفئة الرياس قوة عسكرية، ساعدتهم على إعادة تنشيط الغزو البحري وتحقيق غنائم معتبرة، ما انعكس على تراجع الضغط الجبائي على دواخل البلاد التي شهدت نوعا من الاستقرار والهدوء النسبي²، ولقد تجلّى هذا الهدوء على مستوى المركز والزعامات المحلية المتمثلة في إمارة المقرانيين بتحسين العلاقات بين الطرفين بمنح الدايات الحاج محمد (1671-1682م) المرابط محمد بن عبد القادر المقراني ملكية بقبيلة برباشة وهي مؤرخة سنة 1682م³، وقد أكد هذا فرمان الذي تم تسجيله في ظهائر رسمية على إلزامية احترام الموظفين والرعية لهذه الحقوق الممنوحة لهم، بالإضافة لإعفائهم من الضرائب ومنحهم للأراضي⁴.

وبذلك أدركت السلطة منذ البداية الدور الذي يلعبه شيوخ الزوايا والمرابطين في التقليل من حدة التنافر الذي طبع علاقة سكان الريف بالأتراك العثمانيين الوافدين وإنشاء علاقة مصلحة بينهم وبين هذه الفئات السياسية والدينية المتنفذة بالريف القسنطيني⁵، بعد أن فشلوا في تحويلها لقبيلة مخزنية، ويؤكد هذا الأمر جون وولف الذي يخرنا بأن عائلة آل المقراني لم تكن في أي مرحلة من مراحلها خاضعة لحكم الأتراك⁶. وبالتالي هذه العلاقة بين العثمانيين ونظرائهم من المرابطين وشيوخ الزوايا والقبائل بشكل ما سمحت بالحفاظ على استقرار الحكم العثماني بالجزائر نظير منحهم امتيازات هامة تمهد للعثمانيين حماية جنودهم عند العبور، وكان لهذا التعاطي بين المقرانيين والمركز دور في جعل العلاقة تتخذ شكلا مختلفا، ففي كل فترة أو مرحلة ومع كل تغيير في أعلى هرم السلطة نلاحظ منحى مغاير في طبيعة العلاقة إما بالدخول في الحرب التي طغت على مجريات الأحداث في القرن 17م أو بالتحالف الذي يقتدر بالحصول على الامتيازات المادية بالدرجة الأولى، وهكذا أصبح المقرانيين بصورة غير مباشرة يشاركون في تسيير البلاد ويقتسمون السلطة مع الأتراك العثمانيين في إطار محافظتها على استقلاليتها نسبيا.

رغم ذلك لم تكتف السلطة بتسخير المرابطين وشيوخ القبائل كأحد الآليات والأدوات التي تهدف إلى مد نفوذهم بالمناطق الداخلية الممتعة، إلى جانب نشر قواتها العسكرية في النقاط الحيوية وبؤر التوتر، بل سعت أيضا لزعزعة الاستقرار الداخلي للأسرة بإثارة القلاقل بين أبناء الشيخ سيدي بركة منذ سنة 1680م، وقد نجحت إلى حد بعيد في استدراج ابنه القندوز الذي فض الولاء وأعلن استقلاله عن أخيه بوزيد، غير أن هذا الأخير تمكن من إخضاع أخيه المتمرّد وإعادة الهدوء للأسرة⁷.

ويبدو أن تحول المقرانيين نحو الحياة الروحية والدينية وتوجه السلطة لاستمالة الأسرة بالوسائل السلمية، لم يكن كافيا للحد من الخصومة بين الطرفين، حيث حاول رجب باشا إخضاع بني عباس سنة 1696م⁸، وبعد إخضاعهم وعودة الهدوء النسبي أعادت

¹ - أمين محرز: المرجع السابق، ص 37.

² - محمد بن سعيدان: التطورات السياسية والاقتصادية لإيالة الجزائر خلال القرن 17م، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2019، ص 103-105.

³ - فوزية لزغم: المرجع السابق، ص 508.

⁴ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 257.

⁵ - حمدان خوجة: المصدر السابق، ص 19، 73.

⁶ - جون وولف: الجزائر وأوروبا 1500-1830م، ترجمة أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ص 175.

⁷ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 308، لقد أوضح أحمد باي أهمية هذه السياسة في إضعاف الجبهات الداخلية للقبائل بقوله " إن الحرب عادة الأعراب، وأن الذي يريد حكمهم يتحتم عليه إبقائها بينهم، والتحريض على المنافسات بين القبائل المختلفة...، إذ تأتي ظروف يتحد هؤلاء... للقيام بالثورة"، أنظر: (أحمد باي: مذكرات أحمد باي، ترجمة العربي الزيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 40).

⁸ - نبيل بومولة: المرجع السابق، ص 125.

السلطة للبيت المقراني نفس امتيازاته سنة 1697م، والتي بدأت منذ بروز العائلة دينيا سنة 1624م¹. مع ذلك ظل السلم والهدوء مؤقتا في العلاقات بينهما، فقد جدد المقرانيين عدائهم للحكام بتملصهم من دفع الالتزامات المفروضة عليهم فيما تبقى من القرن 17م²، وقد ترتب عن هذه التطورات السياسية في علاقة الطرفين نتائج منها:

تسببت هذه الثورات والتمردات المتكررة من طرف إمارة المقرانيين في إضعاف نفوذ البايك و سلطنة المركز وبإتخاذ القوى الحربية للعثمانيين، وفي إضعاف الجيش، لما نتج عنها من خسائر مادية في الأموال والأرواح، والأسلحة لكلا الطرفين المتنازعين، فالسلطة الحاكمة عملت للقضاء على الثورة والتصفية الجسدية للثائرين أو بتنحيهم عن منصبهم، مثل ما حدث في المعركة التي جمعت بين سليمان باشا وأحمد أمقران سنة 1601م، والتي راح ضحيتها أحمد أمقران رغم انتصاره الساحق في هذه الحرب³.

كان من نتائج هذا الصراع عدم اندماج الأتراك العثمانيون مع الرعية وانعزال المدن عن الأرياف، إذ كان التواصل والتفاعل بين الطرفين تفاعلا سلبيا، يتم عن طريق مجموعة من وسطاء العائلات ذات النفوذ الواسع بين القبائل التي تتعامل مع السلطة لصالحها الخاص، وعن طريق المحلة وجنود الحاميات، وهذا ما دفع بالكثير من القبائل المهمشة إلى إعلان التمرد ضد الحكم المركزي ما تسبب في اضطراب اجتماعي واختيار اقتصادي عقب كل ثورة⁴، لكن هذا لم يمنع من وجود تفاعل على المستوى الاجتماعي حيث استمرت حركة انتقال الأفراد من داخل الإمارة إلى مدينة الجزائر واستقرار بعضهم لمدة قصيرة فيها قبل ذلك، ويندرج هذا التنقل ضمن نطاق البحث عن العمل أو التجارة⁵ أو للاستزاق في فرق الزواوة⁶.

في الأخير وبعد أن أقمنا فصول هذا المقال الذي غطى جزء من تاريخ أسرة المقراني المتعلقة بعلاقاتهم السياسية مع السلطة الحاكمة بالجزائر خلال القرن 17م، خلصنا لمجموعة من النتائج من أهمها:

إن السلطة والمقرانيين كانا في علاقتهما يتأثران بالتغيرات الداخلية والخارجية التي استمرت طيلة العهد العثماني في تحريك تلك العلاقة، إلا أن الدوافع السياسية كعامل مثير للنزاع والتوتر تأتي في مقدمة مختلف الحروب الداخلية خلال العهد العثماني، بما في ذلك الصراع المقراني مع السلطة المركزية كنتيجة لتعارض المصالح، ومفهوم كل قوى لنظيرتها وموقعها ضمن استراتيجية الطرفين، أما ما دونها من أسباب فتبقى دوافع ثانوية، وإن مثلت الدوافع الاقتصادية المتمثلة في المحلة كجهاز للجباية أحد مرتكزات الدولة ونمط من أنماط الحكم الذي يتلاءم مع البنى القبلية والثقافية والسياسية والإدارية عاملا مؤثرا في مسار العلاقات.

استمرار المقرانيين كزعامة محلية في الدفاع عن مجاهم الجغرافي والتراي (ممر البيان) إزاء كل أشكال التدخل العثماني بالجزائر فيها والرامية لجعلها وسيلة مخزنية حتى بعد تحولها لزعامة دينية، وهكذا برزت كسلطة محلية معارضة ورافضة لسلطة المركز، مستندة في ذلك لاعتبارات متعددة قوامها تلك الحقوق التاريخية الموروثة المبنية على تثبيت أحقيتها بالأرض وقدم استقرارها بالمنطقة، كما كان للقضاء الجغرافي والاجتماعي وحتى الاقتصادي للإمارة المقرانية دور واضح في تحديد طبيعة علاقاتهم السياسية مع الحكم المركزي والمحلي، ومنحهم حكما سياديا مستقلا داخليا عن السلطة.

¹ - فوزية لزغم: المرجع السابق، ص 508.

² - طالب المقرانيين في تمردهم سنة 1696م العثمانيين بضريبة العبور كلما عبروا عبر أبواب الحديد، كما حرصوا على أن تبقى الطريق الشرقية التي تربط الجزائر بقسنطينة تحت إشرافهم ورقابتهم طيلة العهد العثماني، أنظر: (نبيل بومولة: المرجع السابق، ص 510-511).

³ - عزيز سامح التز: المرجع السابق، ص 311.

⁴ - عبد الجليل رهموني: المرجع السابق، ص 268.

⁵ - أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص 97.

⁶ - قامت السلطة منذ عهد حسن بن خير الدين بإنشاء فرق عسكرية محلية من الزواوة إلى جانب الجيش النظامي، وعهد إليها بحفظ أمن المدينة وتدعيم الجيش، أنظر: (عزيز سامح التز: المرجع السابق، ص 211).

خاتمة:

خلاصة القول أن العلاقات بين السلطة والمقرانيين خلال القرن 17م تميزت بالتأرجح والتذبذب من فترة إلى أخرى، فهي تارة في حالة عداء ونفور، وتارة تتسم بالسلم والسلم الحذر، إلا أن السمة التي باتت عليها العلاقات إجمالاً طيلة العهد هي الصراع والتوتر، وأبرز ما أفضى إليه هذا الصراع حدوث نقلة نوعية في نشاط الإمارة كضرورة ملحة تكفل بقاءها واستمرارها، حيث تخلت عن الحياة السياسية وأصبحت زعامة روحية ودينية، وعلى الرغم من هذا التحول والتصادم في المصالح بين الطرفين وتفاعلهم وتواصلهم الذي ظل طيلة العهد العثماني تفاعلاً سلبياً وظرفياً، فقد ساهم المقرانيون في الدفاع عن البلاد وحمايتها من الاعتداءات الخارجية.

الإمارة المقرانية وعلاقتها بالأتراك والفرنسيين

من بداية القرن 18م إلى غاية 1871م

الحاج صادق - جامعة الجزائر 2

بعد سقوط «قلعة بني حماد»، أسس الأمير عبد الرحمان آخر الأمراء الحماديين «قلعة بني عباس»، وشيد زاوية للتعليم وتدرّس القرآن الكريم، كما أنشأ جيشاً قوياً وأقام قسبة لحكمه، وبعد وفاته سنة 1500م خلفه ابنه أحمد، ومن أولاده الأمير عبد العزيز الذي في عهده أقام الأتراك حاميات وبنوا برج بوعريّج وزمورة مما دفع الأمير عبد العزيز وأخيه أحمد أمقران للتصدي لهذا التحرش التركي، ووقعت عدة معارك قتل خلالها عبد العزيز وخلفه أخوه السلطان أحمد أمقران، وفي سنة 1563م تحرك السلطان أحمد بجيش لمساندة «حسن قورصو» و«حسن باشا» لتحرير وهران من الإسبان دامت هذه الحروب مدة أربع سنوات، وعند عودته إلى شرق الجزائر دعم جيشه بفارس من قبائل الحشم الهلالية - بنو هلال قبائل عدنانية عربية كانت تسكن الجزيرة العربية - وكانت تقطن بسهل غريس بأحواز معسكر، وبعد وفاة أحمد أمقران خلفه ابنه سيدي ناصر، وكان رجلاً تقياً حافظاً للقرآن الكريم عالماً بأصول الدين محباً مجالسة الفقهاء والعلماء غير مهتم بأمور السياسة والحرب، مما دفع بني عباس إلى قتله سنة 1600م، وقد ترك خلفه ثلاثة أبناء أكبرهم أبو التقى «سيدي بتقة» الذي أحاطه أخواله الحشم بالرعاية والتعليم وعرف بالتصوف والزهد إلى أن أصبح شيخ مجانة.

وقد أصبحت مدينة مجانة في عهد سيدي أبي التقى عاصمة لإمارة المقرانيين، فكانت تتمتع بالقوة وسعة النفوذ، وامتد حكمها إلى المضارب العليا، كما تحكمت في الطريق الرابط بين الجزائر وقسنطينة، وقد حاول الأتراك استمالة الإمارة بكل الوسائل لكنهم عجزوا عن ذلك، وسرعان ما دخلت الإمارة في مرحلة ضعف لأسباب داخلية وخارجية، واستمرت على هذا الحال حتى دخول الاستعمار الفرنسي سنة 1830م، ومع هذا الحال شارك المقرانيون مع باي قسنطينة الحاج أحمد في مقاومته، وكان زعيم المقرانيين آنذاك الخليفة أحمد المقراني، وبعد وفاة هذا الأخير سنة 1853م بفرنسا أثناء رجوعه من أداء مناسك الحج تولى الإمارة ابنه محمد بلقب "باشاغا"، وهو لقب أقل مكانة وصلاحيات من والده الخليفة أحمد، وقد كان الباشاغا الجديد "الحاج محمد المقراني" يتميز بخصال الحكم من فطنة وذكاء وكياسة، ويملك مؤهلات مناسبة ليكون في هذا المنصب.

1- أصل ونسب الأسرة المقرانية في الجزائر:

يعتبر نسب وأصل المقرانيين من أهم الروايات التاريخية التي اختلف عليها المؤرخون، ولعل سبب ذلك يعود إلى كثرة ترحالهم من منطقة إلى أخرى. بالإضافة إلى انتشارهم الواسع في مختلف الأقطار العربية، ويرجع معظم المؤرخين نسب المقرانيين إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، ويذكر أن أجدادهم من قبائل عياض التي هاجرت أواخر القرن الحادي عشر إلى منطقة المغرب العربي، وذلك بسبب الزحف الهلالي على المنطقة¹.

ويرى المؤرخ الفرنسي فيرو أن الأسرة المقرانية يرجع نسبها إلى قبيلة بني عباس² البربرية التي أصبحت مملكة ومركزاً للمقرانيين فيما بعد، واستند في قوله أن الجد الأكبر الأمير عبد الرحمن من أصل مغربي، وقدم إلى منطقة جرجرة في النصف الثاني من القرن الخامس

¹ - يحي بوعزيز: ثورة 1871م ودور عائلي المقراني والحداد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م، ص85.

² - قبيلة بني عباس: هي قبيلة أمازيغية تقطن بسلسلة جبال ونوغة التي أصبح الجزء الشمالي منها يدعى البيان، تقع على بعد 49 كلم من ولاية برج بوعريّج، أطلق عليها الإسبان اسم أسباتو فجعل القلعة موقعا استراتيجيا هاما بتواجدها في أعلى وادي الساحل أو واد أقبو، أنظر: (نبيل بومولة: القوى الحمية في منطقة القبائل الشرقية في القرن 10هـ/ 16م، بني عباس أمودجا، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2010م، ص15).

عشر واستقر ببني عباس مدعماً قوله أن كلمة "مقران" مصطلح بربري ويعني الكبير¹ لكنه سرعان ما غير روايته في المجلس الذي عقد بمدينة سطيف في 1852م حيث رجح رأي الجنرال "هنري كوفان" إذ جاء في كلمته الافتتاحية التي حضرها سي لخضر المقراني بأن هذا الأخير ينتمي إلى عائلة مونتمورنسي² التي سكنت منطقة المغرب الأقصى قبل أن تنتقل إلى منطقة القبائل³.

وحسب الدراسات التاريخية المطلع عليها فإن هذه الرواية لا أساس لها من الصحة ذلك لعدم توفر أي وثائق أو شواهد تاريخية تؤكد ما جاء على لسان فيرو. أما مولود قايد فيرجع نسب آل مقران إلى بني حماد الذين سبق لهم أن تولوا وظائف الولاية في الحضنة والمسيلة ومجانة، وقد غادروا المنطقة بعد سقوط قلعة بني حماد في 1152م، وذلك بسبب تعرضهم للتقتيل والتهجير⁴، واستقروا في منطقة البيبان⁵، أما الحسين الورثياني فذكر في رحلته أن جد المقرانيين الأمير عبد الرحمن ترك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر جبال عياض، وانتقل إلى البيبان قبل أن يسند رحلته نحو بني عباس ليستقر بها نهائياً⁶، وقد أكد الفرنسي لويس رين ما جاء به الورثياني إذ يرى بأن الجد الأكبر للمقرانيين عبد الرحمن استقر في بني عباس، وكون فيها إمارة تمتد من وادي الساحل إلى الحضنة، واستطاع أن يسيطر نفوذه على المناطق المجاورة للإمارة حتى أصبحت تدعى بإمارة آل مقران⁷، ويرجع آخرون نسب آل مقران إلى أصول شريفية من بلاد القبائل، والذين استقروا بها منذ الفتوحات الإسلامية الأولى لنوميديا⁸.

ذكرت جميلة معاشي أن المقرانيين من منطقة الأوراس حيث سكنوا منطقة باتنة، وأن كبير أسرتهم الشيخ بوزيد الذي استقر بها خلال القرنين السادس والسابع للهجرة الموافق لـ 12 و 13م، ولما توفي ترك وراءه أربعة أبناء هم علي، وعبد الله، ومحمد، وأحمد، الذين تركوا في منطقة الشرق الجزائري⁹، وما نستنتجه من هذه الرواية أنها معاكسة لما جاء به المؤرخون فيما يتعلق برأس الأسرة المقرانية، حيث تنسبهم الروايات الأخرى إلى الأمير عبد الرحمن، ويذكر مزيان وشن أن نسب آل مقران يعود إلى الأدارسة¹⁰ بالمغرب الأقصى، والذين أقاموا فيها منذ عهد إدريس الأول بن عبد الله بن الحسن السبطي بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مستدلاً لما جاء في كتاب النسب لمحمد العشماوي الذي أرجع نسب آل مقران إلى الأدارسة، وهم من الأشراف إذ ينتسبون إلى ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم¹¹، وجاءت بعض الروايات الفرنسية لتؤكد ذلك كما جاء على لسان الرائد شبيرون أنهم ينتسبون إلى ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعتبرون من أبرز الأسر الحاكمة في الجزائر¹².

¹ - لخضر بوطبة: أسرة أولاد مقران خلال العهد العثماني 1818-1837م، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2006م، ص28.

² - مونتمورنسي: تعد من أشهر الأسر الفرنسية، تنتمي إلى طبقة النبلاء وتولت وظائف عليا في البلاط الملكي الفرنسي في عهد فرنسوا الأول وهنري الثاني، أنظر: (لخضر بوطبة: المرجع السابق، ص32).

³ - نبيل بومولة: المرجع السابق، ص43.

⁴ - مولود قايد: المقراني، ترجمة سهيلة بريارة، ط1، منشورات ميموني، برج بوعرييج، الجزائر، 2013م، ص15.

⁵ - البيبان: سميت بهذا الاسم لأنها تشكل أبواب تفصل وسط البلاد عن شرقها ولا يمكن عبور هذه المنطقة إلا عن طريق بابين يعرفان بالباب الكبير والباب الصغير، وهي عبارة عن مسالك ضيقة، أنظر: (سمير بن سعدي: المختصر في تاريخ زمورة، مطبعة زعياش، بوزريعة، الجزائر، 2013م، ص19)، شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، ط1، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص38.

⁶ - الحسين الورثياني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن أبي شنب، مطبعة فونتانا، الجزائر، 1988م، ص36.

⁷ لويس رين: تاريخ انتفاضة 1871م في الجزائر، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2013م، ص13

⁸ - Louis Rinn: Marabouts et Khouans, étude sur L'islam Algérie, Adolph Jourdan, Libraire, Editeur, Alger, 1884, p.452.

العربي منور: تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر، دار المعرفة، الجزائر، 2006م، ص218.

⁹ - جميلة معاشي: الأسرة الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2015م، ص53.

¹⁰ - مزيان وشن: مجانة عاصمة إمارة المقرانيين، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م، ص69.

¹¹ - أحمد توفيق المدني: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، مكتبة المتحف الوطني للآثار، الجزائر، ص9.

¹² - Commandant De cheyron: Bordj Bou Arréridj pendant l'insurrection de 1871 en Algérie, Hemri plan, Paris, 1873, p.15.

وجاءت بعض الروايات لمؤلفين عرب تؤيد ما جاء على لسان عبد الرحمن بن خلدون، فذكر العسيري أن جميع القبائل التي كانت تعيش في الجزائر منذ أوائل القرن الحادي عشر من أصل بربري وتوافدت على المنطقة نتيجة الزحف الهلالي¹. أما عن نفوذ المقرانيين فقد جاء على لسان الورثياني أنها وصلت عساكرهم عمالة تونس ووادي ريغ في الصحراء، ومن جهة الغرب إلى ميزاب²، فقد امتدت إمارة آل مقران إلى حدود منطقة الساحل وبجاية على منطقة البحر الأبيض المتوسط أما غربًا فامتد نفوذها إلى سوق حمزة³ وإمارة كوكو بجرجرة أما جنوبًا فوصلت مشارفها إلى بني حماد والمسيلة لتصل حدودها الشرقية لقسنطينة وباتنة⁴، ورغم اختلاف الروايات حول نسب المقرانيين وأصولهم إلا أن أهم ما اتفق عليه المؤرخون هو انتمائهم للأشراف⁵.

2- علاقة المقرانيين بالأتراك:

كانت العلاقات بين إمارة آث عباس، والإتالة العثمانية تتأرجح بين السلم والحرب، وبقدر ما تحمّس الأتراك العثمانيون لإخضاع هذه الإمارة لنفوذهم بقدر ما حرص أمراؤها على الاحتفاظ باستقلالهم، ولذلك لم تتوان هذه الأخيرة عن استقبال الفارين من نفوذ الأتراك، وخاصة العنصر الأوروبي المتميّز بخبرته الواسعة في فنون الصناعة، وقدمت لهؤلاء امتياز الاحتفاظ بديانتهم المسيحية مقابل الاستفادة من خبرتهم العسكرية. ولا شك أن الحكام العثمانيين في الجزائر قد استفادوا من فترات تدهور العلاقات بين إمارتي بلاد القبائل (أحمد بن القاضي في جرجرة، وآل المقراني في آث عباس) بفعل الصراع من أجل السيطرة على الساحة المحلية، وهكذا فقد تحالف الأمير عبد العزيز العباسي مع خير الدين بربروس خلال فترة (1520-1525)، التي تميزت باستيلاء أحمد بن القاضي أمير كوكو (بجبال جرجرة) على مدينة الجزائر، وانسحاب خير الدين إلى مدينة جيجل، وتم في غضون سنة 1529م- التي نجح فيها الأتراك العثمانيون في طرد الإسبان من حصن البنيون بميناء الجزائر - من عقد اتفاق بين الإمارتين القبائليتين، كوكو وآث عباس من جهة، والإيالة العثمانية من جهة أخرى، وهو ما يعد اعترافًا متبادلًا بهذه الكيانات السياسية الثلاثة، وذكر الكاتب الفرنسي باربروجر أن إمارة آث عباس قد جددت تحالفها مع الأتراك العثمانيين سنة 1550م أي في عهد حسن باشا.

أ- فترة السلم:

تميزت علاقة المقرانيين بالأتراك في بدايتها بالسلم والاستقرار. لكن تعاقب عدة حكام على السلطة من كلا الجانبين أدخلهما في صراع دائم إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، فخلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي ترك الأمير عبد الرحمن جبال عياض ليستقر في منطقة بني عباس التي أصبحت عاصمة لإمارة آل مقران الذي عين ابنه أحمد سلطان عليها⁶، وبعد وفاة أحمد خلفه ابنه عبد العزيز الذي اتخذ من القلعة عاصمة له، كون لنفسه نفوذًا واسعًا غير أنه دخل في صراع مثل أبيه مع أمراء سلطنة كوكو⁷، وقد عرف عبد العزيز أن الأتراك يكونون عداوة لأهل كوكو لذلك حاول استمالتهم بالتقرب من حاكم الجزائر

¹ - أحمد معمور المسيري: موجز التاريخ الاسلامي منذ عهد آدم إلى العهد الحاضر، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية، 1996م، ص482.

² - الحسين الورثياني: المصدر السابق، ص36.

³ - برج حمزة: هو برج أسسه حمزة بن الحسن بن سليمان العلوي في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، وقد اكتسب المكان أهمية بكونه يقع على الطريق الرئيسي بين مدينتي الجزائر وقسنطينة، تم احتلاله سنة 1756/1757م من طرف القبائل المتمردة، وتم الاستيلاء عليه من طرف فرنسا 1839م ليعرف فيما بعد باسم البويرة، أنظر: (ناصر الدين سعيدوني: رحلة العالم الألماني هابنستريت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م، دار الغرب الاسلامي، تونس، ص69).

⁴ - ميزاب وشن: المرجع السابق، ص81.

⁵ - بوعلام بسايح: (المقراني)، الثقافة، ع188، الجزائر، 1988م، ص7.

⁶ - لويس رين: المصدر السابق، ص13.

⁷ - إمارة كوكو: تقع في منابع وادي سيواو بالسفوح الشرقية لجبال جرجرة تأسست على يد أحمد بن القاضي الذي كان قاضيا لدى الحفصيين ببجاية، وقد تمكن الإسبان من احتلالها سنة 1510م، أنظر: (لويس رين: المصدر السابق، ص14، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص46).

آنذاك حسن باشا¹، فقد امتدت أواصر العلاقة² إلى حد مشاركة بني عباس في حروب الأتراك، ففي عهد حسن بن خير الدين غزت جيوش بني عباس القوات الإسبانية بوهران، وكان زعيم المقرانيين على رأس الجيش، كما كان لسكان بجاية دور في بناء الأسطول الجزائري إلى جانب العثمانيين الذي تمكن من تحرير المدن الساحلية من الهجمات الصليبية على الجزائر خلال القرنين 17-18م³، كما شاركت جيوش بني عباس أيضا في الحروب التي خاضها العثمانيون ضد قراصنة أوربا، وتحقيقهم لانتصارات عديدة، كما قدموا مساعدات لصالح راييس⁴ لإخضاع القبائل الجنوبية الصحراوية وجعلها تتبع لولاء الأتراك⁵.

ب- فترة الصراع:

هذه العلاقات الحسنة لم تلبث أن تدهورت بسبب قيام الأمير عبد العزيز بجمع الضرائب في منطقة المسيلة التي كانت تابعة لإمارة بجاية سابقا، وهو الأمر الذي امتنع منه الحكام الأتراك، ونظروا بعين القلق إلى هذه الإمارة، فاتخذوا مجموعة من الإجراءات الهادفة إلى تضيق الخناق عليها من بينها تشييد برج زمورة وبجاية لمراقبة تحركات إمارة آث عباس سنة 1558م. لكن الأمير عبد العزيز المقراني تمكن من تخريب برج بجاية، وغنم أسلحته، فعزم حسن بن خير الدين على تأديبه حيث التقى الجمعان في معركة ضارية في شهر سبتمبر 1559م، وكان النصر فيها حليفا للأتراك الذين نجحوا في قتل الأمير عبد العزيز، وعلى إثر ذلك خلفه أخوه أحمد أمقران الذي سرعان ما عقد معاهدة دفاع مشترك مع الأتراك العثمانيين. لكن هذه المعاهدة لم تحل دون هجوم خيضر باشا على هذه الإمارة سنة 1590م بعد سنة واحدة من وصوله إلى سدة الحكم في الجزائر، وأمام عجز الأتراك عن اقتحام القلعة الحصينة، التحأوا إلى تطبيق سياسة الأرض المحروقة، فأحرقوا المزارع وقطعوا الأشجار، وانتهت هذه الحملة العسكرية بفضل وساطة أحد المرابطين الذي أقنع الطرفين بوجوب إيقاف الحرب لحقن دماء المسلمين، ولتلافي هدر قواهما في معارك هامشية لا تخدم إلا الكفار⁶. وما فتئت علاقة المقرانيين بالأتراك يشوبها نوع من الاستقرار حتى أخذت منحى آخر تميز بصراع دام لقرون، فقد أرجع المؤرخون سبب هذا الصراع إلى رفض الأتراك سياسة بني عباس التي تقوم على إجبار بعض الجهات على دفع الضرائب لزعيم بني عباس⁷. الأمر الذي أدى إلى ظهور تمردات قادها رؤساء القبائل الجنوبية على غرار تقرت وورقلة الذين امتنعوا عن دفع الضرائب التي فرضت عليهم منذ خمسة وعشرين سنة، واستنجدوا بالأتراك حيث رأوا في صالح راييس منقذهم من هيمنة بني عباس⁸، وما زاد من احتدام الصراع وصول وشاية لصالح راييس بمحاولة تمرد عبد العزيز⁹، فاحتفال صالح راييس بانتصاراته المتتالية جعله يغفل عن مكافأة عبد العزيز ويثمن مجهوداته اثر مشاركاته في الحروب إلى جانب الأتراك، وذلك للحصول على جزء معتبر من الغنائم تماشيا مع الوعود التي قطعها له صالح راييس بتقاسم الغنائم مناصفة¹⁰.

¹ - حسن باشا: هو حسن ابن خير الدين تولى منصب البايبراي بعد وفاة أبيه هو من قام بتقسيم الجزائر إلى مقاطعات، وحرر تلمسان من أيدي الإسبان. تم عزله من طرف السلطان العثماني بعد توليه الحكم مرتين (1544-1552) ثم (1557-1567)، أنظر: (عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ط2، لبنان، 1983م، ص10).

² - مارمول كاربخال: إفريقيا، ترجمة نجى وآخرون، ج2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1989م، ص385.

³ - مزيان وشن: المرجع السابق، ص102.

⁴ - صالح راييس: من أصول عربية (الإسكندرية) تعرف على الأتراك عند قدومهم لمصر، وعين حاكما على الجزائر سنة 1552م، ومن أهم أعماله فتح بجاية سنة 1555م، وفاس سنة 1554م، وقد توفي عن عمر يناهز 70 سنة بسبب الطاعون الذي اجتاحت مدينة الجزائر سنة 1556م، أنظر: (يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر الحديث، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992م، ص266).

⁵ - مزيان وشن: المرجع السابق، ص102.

⁶ - Luis Forest: la naturalisation des juifs algérienne a l'insurrection de 1871, Société française, D'imprimerie et de librairie, Paris, p.12.

⁷ - مارمول كاربخال: المصدر السابق، ص387.

⁸ - عزيز سامح الت: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989م، ص84.

⁹ - مارمول كاربخال: المصدر السابق، ص387.

¹⁰ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص202.

ولتجنب وقوع صدام عسكري بين الطرفين عرض صالح ريس الصلح على عبد العزيز إلا أنه باء بالفشل بسبب مغادرة هذا الأخير الجلسة التي عقدت في القصر الملكي بالقصبة. ما زاد في تأزم الوضع بسبب تخوف صالح ريس أن يذاع ما جرى ويؤدي إلى تمرد حلفائه ضده¹، وبالتالي تنامي نفوذ المقرانيين وفقدان الأتراك السيطرة الكاملة على مناطق الجزائر². لذلك قرر صالح ريس إرسال حملة ضد بني عباس لإخضاعها، ورغم سقوط شقيق عبد العزيز المقراني قتيلاً في هذا الاشتباك إلا أن صالح ريس لم يتمكن من تحقيق النصر على المقرانيين³. ليقوم في سنة 1553م بإرسال حملة ثانية شارك فيها ملك كوكو، والتي انتهت بهزيمة الجيش التركي للمرة الثانية، وقد أرجع المؤرخون سبب الهزيمة إلى سوء الأحوال الجوية. لكن رغبة صالح ريس في إخضاع قبائل بني عباس جعلته يعكف على إرسال حملة ثالثة بقيادة سنان باشا وقائد رمضان. حيث التقى الطرفان في معركة قرب منطقة واد الحمام وأحرز فيها عبد العزيز الانتصار للمرة الثالثة⁴ مانعاً بذلك وصول النفوذ التركي إلى بجاية، وجميع القبائل الخاضعة لإمارة بني عباس⁵.

وهو الأمر الذي ساهم في تعزيز مكانته وسط القبائل. حيث سارعت مختلف الزعامات في تقديم الولاء والطاعة لزعيم بني عباس خاصة تلك المناوئة للوجود التركي. بل وراح يفرض ضرائب على الأتراك مقابل عبورهم منطقة البليان⁶ لكن رفض حسن باشا لهذه السياسة جعلته يستنجد بأحمد بن القاضي أمير كوكو الذي يعد من ألد أعداء عبد العزيز. حيث دعمه بجيش يتألف من 4500 فارس، وتمكنوا من قتل زعيم المقرانيين عبد العزيز سنة 1559م⁷ ليخلفه شقيقه أحمد أمقران⁸ الذي وقع معاهدة هدنة مع الأتراك سنة 1561م، والتي جاءت كاعتراف لأحمد أمقران سلطاناً على مناطق نفوذه⁹.

كما قام أحمد أمقران بدعم حسن باشا في محاولته لتحرير المرسى الكبير سنة 1563م، وامتدت فترة الهدنة إلى عهد العلي علي حين دعمه هو الآخر في محاولته لإخضاع تونس سنتي 1570م و 1574م، كما تخلى عن مطالب الإمارة في الزيبان ووادي الساحل، وقدم احترامه إلى جميع القبائل الخاضعة للأتراك لكن إعادة تنظيم جيشه الذي وصل إلى 14 ألف رجل جعله يوسع من نفوذه إلى طولقة وبسكرة وبوسعادة والجلفة، والتي كانت في السابق قد تمردت على السلطان عبد العزيز بل أكسبته قوة جعلته يتمتع عن دفع الضرائب¹⁰ ما جعل خضر باشا يرسل حملة لإخضاعه سنة 1590م. لتزداد حدتها في عهد شعبان باشا أواخر 1592م¹¹ خاصة بعدما أصدر الأتراك بعض القرارات التي منحت بموجبها قبائل المخزن¹² نفوذ واسع على المناطق التي كانت خاضعة للإمارة المقرانية¹³، فقد كان لهذه الصراعات الأثر في انقسام المقرانيين إلى عدة فروع متناحرة بعد مقتل أحمد أمقران على يد الأتراك، فمن

¹ - يوسف بنو جيت: قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر الميلادي، ترجمة سامية عمار، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2009م، ص 156.

² - مزيان وشن: المرجع السابق، ص 106.

³ - مارمول كاربخال: المصدر السابق، ص 387.

⁴ - يوسف بنو جيت: المرجع السابق، ص 137، 170.

⁵ - Alex Bellemar: ABD- El Kader, sa vie politique et militaire, Paris, 1863, p.205.

⁶ - مارمول كاربخال: المصدر السابق، ص 387.

⁷ - نبيل بومولة: المرجع السابق، ص 124.

⁸ - مزيان وشن: المرجع السابق، ص 106.

⁹ - مبارك الملي: المرجع السابق، ص 94.

¹⁰ - مزيان وشن: المرجع السابق، ص 124، 126.

¹¹ - صالح عباد: الجزائر خلال العهد التركي 1830/1514م، دار هومة، الجزائر، 2014م، ص 86-108.

¹² - قبائل المخزن: هي قبائل متحالفة مع الأتراك حيث قدمت لها هذه الأخيرة امتيازات مقابل مساندتها وإعلان الولاء لها، وهي قبائل معفاة من الضرائب، وتعمل على إخضاع القبائل المتمردة على الحكم التركي، أنظر: (ناصر الدين سعدوني: دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي بالجزائر، الأصاله، ع32، وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي، الجزائر، 1976م، ص 46-47).

¹³ - مزيان وشن: المرجع السابق، ص 112.

جهة الصراع حول السلطة والرضوخ للأتراك أو مجابتههم من جهة أخرى. هذه الاضطرابات التي استغلها الأتراك للتدخل في شؤون الإمارة الداخلية تحت شعار "فرق تسد" الأمر الذي أدى إلى انهيار الإمارة إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م¹.

3- علاقة المقرانيين بالفرنسيين:

كانت إمارة آل مقران قبيل الغزو الفرنسي تعاني من التفكك بسبب حروب التصفية بين فروعها من جهة، وبصراعها مع الأتراك من جهة أخرى خاصة مع بايلك الشرق، فقد كان للتدخل المتكرر لبايات قسنطينة في شؤون بني عباس الداخلية الأثر في اشتداد الصراع بين زعمائها على الرغم من المصاهرة بين الطرفين². حيث قام الحاج أحمد باعتقال صهره محمد بن عبد السلام المقراني وسجنه، ولم يطلق سراحه إلا بعد هجوم فرنسا على قسنطينة 1837م ليتمكن بعدها من الفرار والالتحاق بمجانة، ويصبح قائدا عليها في غياب أحمد المقراني الذي كان منشغلاً بحروب التصفية التي قادها إلى جانب الحاج أحمد باي³، وبعد توقيع معاهدة التافنة سنة 1837م بين فرنسا والأمير عبد القادر حضر هذا الأخير إلى سور الغزلان، ووفد عليه كل من محمد بن عبد السلام وأحمد المقراني للحصول على قيادة مجانة، وقد اختار الأمير عبد القادر محمد بن عبد السلام خليفة له بدل من أحمد المقراني بحكم صداقة هذا الأخير مع الحاج أحمد باي⁴.

عدم حصول أحمد المقراني على منصب خليفة الأمير عبد القادر، وإبعاده عن السلطة دفعه لتسليم نفسه للفرنسيين، حيث استغله الحاكم فالي⁵ وعينه أواخر جويلية 1838م قائداً على سطيف والعلمة⁶، وبذلك ضربت فرنسا عصفورين بحجر واحد، فمن جهة شقت صفوف أسرة المقراني ومنعتهم من التحالف ضدها، ومن جهة ثانية وجدت لها حليفا قويا في منطقة صعبة بتضاريسها ورباطة جأش ساكنتها⁷.

وجاء في محضر التعيين أن يحكم أحمد المقراني بنفس مميزات حكمه أثناء الوجود العثماني، وأن يكون على اتصال دائم بالفرنسيين⁸، وفي هذه الفترة أراد المارشال بيجو ربط الوسط بالشرق عن طريق جبال البيان ما دفع بأحمد المقراني لعرض خدماته على أنه ضامن لنجاح هذه المهمة بحيث تمكن من تهيئة الطريق نحو الغرب عن طريق البوابات الحديدية⁹. حيث مكنت هذه العملية من مرور أزيد من 5000 جندي دون تعرضهم لأي خطر¹⁰، وهو ما أكسب أحمد المقراني هبة واحترام كبيرين لدى السلطة الفرنسية¹¹. لكن عدم قدرته على مواجهة أنصار الأمير عبد القادر في المنطقة أدى إلى إصدار مرسوم فرنسي في شهر أفريل من سنة 1845م ألغى بموجبه صلاحياته، وقلص من نفوذه الذي يتعدى برج بوعرييج بعدما كان يصل إلى قسنطينة¹².

¹ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص46.

² - يحي بوعزيز: ثورة الباشا محمد المقراني ويليهِ مواقف العائلات الأرستقراطية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1994م، ص46.

³ - بشير بلّاح وآخرون: تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، دار المعرفة، الجزائر، ص163.

⁴ - محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في مآثر عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، المطبعة التجارية، الإسكندرية، مصر، 1903م، ص200.

⁵ - فالي: هو شارل سيفان فالي ولد سنة 1773م بفرنسا شارك في غزوات نابليون بونابرت، وعمل مفتشا عاما للمدفعية، وقد أرسل للجزائر سنة 1837م، وعين حاكما عليها بين (1837-1840م)، أنظر: (بن يوسف تلمساني: الطريقة التجانية وموقفها من الحكم المركزي في الجزائر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1998م، ص178).

⁶ - مزيان وشن: المرجع السابق، ص124.

⁷ - سمير بن سعدي: المرجع السابق، ص64.

⁸ - صالح فركوس: إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في شرق البلاد 1844-1871م، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2006م، ص372.

⁹ - مولود قايد: المرجع السابق، ص60.

¹⁰ - شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1974م، ص302.

¹¹ - مولود قايد: المرجع السابق، ص6.

¹² - يحي بوعزيز: موقف العائلات الأرستقراطية...، المرجع السابق، ص5.

وسياسة فرنسا هذه لم تنتهي بنهاية عهد أحمد المقراني الذي استغلت عداوته مع أبناء عمومته لتحقيق مآربها لجعل الجزائر جزء لا يتجزأ من أراضيها¹ بل امتدت إلى ابنه محمد المقراني، فقد واصل فرع عبد السلام المقراني التشهير بتواطؤ محمد المقراني مع الفرنسيين أملا منهم في إزاحته عن قيادة مجانة حيث سعت لاستمالة معمرى برج بوعريرج بمساعدة وتوجيه من الجنرال لالمان².

كان لقيام ثورة محمد المقراني سنة 1871م أسباب عامة منها وخاصة، فالأسباب الخاصة تتعلق بشخص محمد المقراني، وتتمثل في تعرضه لمضايقات متكررة امتدت طوال سبعة عشر سنة تقريبا من طرف الادارة الفرنسية، فعند تقلده لمنصب الباشاغوية سارعت فرنسا لتحديد سلطته وتقليص نفوذه³، وهو الأمر الذي جعل الباشاغا يتقدم باستقالته من منصبه في رسالة وجهها إلى الجنرال لالمان والتي جاء فيها: "أجدد استقالتي من منصب الباشاغا"⁴، فقد رفض محمد المقراني قرارات فرنسا المجحفة في حقه خاصة بعدما وضعته تحت رقابة ضابط صغير برتبة نقيب⁵، وهو النقيب مارمي الذي طالب المقراني بأن يحول أموال الضرائب التي يستخلصها من السكان إلى خزينة الدولة بعدما كان يستفيد منها آل المقراني، وهو الإجراء الذي اعتبره المقراني محاولة فرنسا لإضعافه ماديا⁶.

وقد وصل الأمر بهذا النقيب إلى ترسيم قياد جدد تابعين لسلطة الحاج محمد المقراني من تقليص سلطة الباشاغا إلى حدها الأدنى⁷، وهنا أدرك الحاج محمد المقراني بأن السلطات الفرنسية تسعى لتطبيق سياسة تحطيم نفوذ الأسر الجزائرية ذات السمعة والنفوذ في البلاد⁸، ففي سنة 1868م شكلت الحكومة الفرنسية بلدية برج بوعريرج وعينت الملازم أوليفي رئيسا عليها أما محمد المقراني فاقتصر الأمر على تعيينه عضوا بسيطا في هذا المجلس البلدي، وبهذه الخطوات نجحت فرنسا لحد بعيد في احكام قبضتها على أسرة المقرانيين مما استوجب من الباشاغا إيجاد وسيلة يتمكن من خلالها استرجاع أمجاد آل مكران وهي إعلان الجهاد⁹.

في الثامن أفريل من سنة 1871م وقف البطل الجزائري الشيخ الحداد أمام جمع غفير رافعا عصاه ومخاطبا أنصاره: "سنرمي فرنسا كما أرمي عصاي"، ورمى عصاه في السماء ليعلن رسميا الجهاد ضد المستعمر الفرنسي واضعا حجر الأساس لواحدة من أكبر بطولات ومقاومات التاريخ الحديث بالجزائر، لتندلع بعدها فصول الشجاعة والرجولة والدفاع عن الجزائر في وجه المستعمر مقاومة امتدت من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب مكبدة المحتل الفرنسي خسائر فادحة، وتراجعا رهيبا حيث وصل به الأمر إلى فقدان بعض المدن وتحريرها من طرف المجاهدين الجزائريين تحت قيادة الشيخين المقراني والحداد. إلى أن تمكنت فرنسا من قتل قائد المقاومة الحاج محمد المقراني بتاريخ 05 ماي 1871م لتبدأ الملحمة في الانحسار.

انحسار تحول بعدها إلى تراجع وانحزام، فمقاومة المقراني والشيخ الحداد لم تصمد كثيرا، فبعد شهرين من القتال والبطولات يستشهد الحاج محمد المقراني ويعتقل الشيخ محمد أمزيان الحداد، فقرّر على إثرها المستعمر الفرنسي معاقبة الجميع حتى لا تتكرر انتفاضة هذا الشعب مرة أخرى. عقوبات تنوعت بين اعدامات ميدانية، وفرض ضرائب باهظة، وتجريد الأهالي من السلاح إلى نفي أكثر من 2106 جزائري شاركوا في هذه المقاومة نحو جزيرة كاليدونيا الجديدة جنوب المحيط الهادي، ويتقدمهم أحمد بومزراق المقراني شقيق محمد المقراني، ومحمد وعزيز نحلي الشيخ الحداد.

¹ - صالح فركوس: تاريخ جهاد الأمة الجزائرية للاحتلال الفرنسي المقاومة المسلحة 1830-1962م، دار العلوم، الجزائر، 2012م، ص238.

² - شارل أندري جوليان: تاريخ الجزائر المعاصرة الغزو وبدايات الاستعمار 1827-1871م، ج1، ط1، شركة دار الأمة، الجزائر، 2008م، ص800.

³ - يحي بوعزيز: ثورات الجزائر...، المرجع السابق، ص234.

⁴ - لويس رين: المصدر السابق، ص211.

⁵ - بشير بالخ: المرجع السابق، ص294.

⁶ - يحي بوعزيز: دور عائلي المقراني والحداد...، المرجع السابق، ص61.

⁷ - الصادق تاوئي: المبعدون الى كاليدونيا الجديدة، دار الأمة، الجزائر، 2007م، ص49.

⁸ - لويس رين: المصدر السابق، ص20.

⁹ - مزيان وشن: المرجع السابق، ص135.

تجليات الحضور المقارني في مقاومة وفكر الأمير عبد القادر الجزائري (1837-1883)

محمد السعيد قاصري - جامعة المسيلة

يندرج هذا العمل ضمن محاولة الوقوف على موقع المقرانيين بالنسبة للأمير عبد القادر الجزائري، موقع قادتنا عملية البحث التي قمنا بها إلى معالجة هذا الموضوع من زاوية تجليات الحضور المقارني في مقاومة وفكر الأمير عبد القادر، بداية من سنة 1837م التي تمثل البدايات الأولى لتواصل الأمير مع المقرانيين، ونهاية بسنة 1883م التي تمثل وفاة الأمير عبد القادر، وخلال هذه الفترة الزمنية وقفنا على تجليات هذا الحضور في مرحلتين: المرحلة الأولى وهي مرحلة حضورهم في مقاومة الأمير عبد القادر (1837-1839م)، والمرحلة الثانية هي مرحلة حضورهم في فكر الأمير عبد القادر (1866-1883م)، والانشغال المطروح في هذه الدراسة يكمن في محاولة إبراز تجليات هذا الحضور في الفترتين الآتيتين؛ آمليْن أن تكون مساهمتنا هاته اضافة علمية في موضوع هذا الكتاب الجماعي المزمع تأليفه من طرف مجموعة من الباحثين؛ مساهمة ارتأينا معالجتها في ما يلي:

1- الحُضور المُقارني في مُقاومة الأمير عبد القادر (1837-1839م).

عرفت مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري كغيرها من المقاومات الشعبية الجزائرية خلال القرن 19م تحابوا شعبيا كبيرا، مما يعكس لنا مستوى الوعي الشعبي المناهض للاحتلال الفرنسي، ونظرا لهذا التجاوب لم يتوان المستعمر الفرنسي في السعي قُداً لاحتواء هذا الدّعم الشعبي الكبير، وذلك من خلال استقطاب شيوخ وزعماء بعض العائلات إلى صفّه وصرف أنظارهم عن الالتفات إلى المقاومة الوطنية المسلحة التي واجهتهم في بداية الاحتلال¹، وفي نفس الوقت العمل على تفتيت بنية المجتمع الجزائري وضرب هذه القيادات والزعامات ببعضها البعض، وزرع بذور الفتنة والشقاق تماشياً مع شعاره المعروف "فرّق تسد".

وفي هذا السياق سنّ الماريشال "فالي Valée"² في 30 سبتمبر 1838م مرسوماً يُعد بمثابة بداية العلاقة الرسمية للإدارة الفرنسية مع العائلات الكبرى الممتنّفة وبالخصوص في مقاطعة قسنطينة، والذي منح بموجبه زُعماء هذه العائلات لقب "الخليفة" وزوّدهم بعدة صلاحيات، ومن بين العائلات أو بالأحرى الشّخصيات التي ركبت هذه الموجة في مُقاطعة الشرق الجزائري على سبيل المثال: الشّيخ علي بن الحملاوي، الذي أسند له منصب خليفة على فرجوية، والشّيخ أحمد المقراني خليفة على مجانة³؛ وشيئاً فشيئاً سار كثير من الشخصيات في فلك الإدارة الاستعمارية كبوضياف بن بوراس بمنطقة الحُصنة⁴، وبن قانة في الجنوب القسنطيني⁵... الخ. وفي ظل هذه السياسة الاستعمارية يجدر بنا طرح السّؤال التالي: ما هو موقع عائلة المقراني من هذه السياسة؟ سؤال سنعرف من خلاله موقع المقرانيين في المقاومة الشعبية تحت لواء الأمير عبد القادر؛ وهذا يُعد الشّطر الأول من الموضوع الذي نحن بصدد مُعالجته. بعد سُقوط مدينة قسنطينة في قبضة الجيش الفرنسي خلال شهر أكتوبر 1837م؛ حاول الأمير عبد القادر مدّ نفوذه نحو الشّرق الجزائري لِملاء الفراغ السياسي والإداري الذي أحدثه سقوط مدينة قسنطينة، واختيار نظام الحكم العثماني الذي كان يُمثله

¹ - العياشي رواحي: (هجرة بعض العائلات الجزائرية الكبرى إلى البلاد التونسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر)، مجلة التواصل في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج24، ع53، جامعة عنابة، 2018م، ص359.

² - "syivain Charles Valée.comte" حكم في الفترة الممتدة من 1837 إلى 1841م.

³ - العياشي رواحي: المرجع السابق، ص360.

⁴ - كمال بيرم: الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الحُصنة الغربية فترة الاحتلال الفرنسي 1840-1954م، أطروحة دكتوراه، جامعة قسنطينة، 2011م، ص143.

⁵ - مختار هوارى: سياسة الإدارة الاستعمارية الفرنسية تجاه بعض العائلات الممتنّفة في الجنوب القسنطيني 1837-1870م، رسالة ماجستير، جامعة باتنة، 2009م، ص54-56.

الحاج أحمد باي، وكَوْنَهُ كان يُدرك أن تُخيوط المؤامرة مُحْبُوكَة ضده؛ والقاضية بعرقلة نفوذه إن لم نقل منعه تمامًا من التوسع في الشرق الجزائري عبر منطقته الاستراتيجية: البرج-سطيف؛ التي تخضع حينها لنُفوذ العائلة المقرانية¹، عائلة تُمثّلها شخصيتان رئيسيتان هما: أحمد بن محمد المقراني الذي يُمثّل فرع أولاد الحاج، والثاني هو محمد بن الحاج الذي يمثّل فرع أولاد عبد السلام؛ لكن هذا الأخير لم يحظ بنفس المكانة التي حظي بها أحمد المقراني على الرغم من عامل المصاهرة الذي كان قائما بينهما².

نظرا لهذه المكانة المعتبرة للمقرانيين والتي لم تكن خافية على الأمير عبد القادر، فإنه حاول استغلالها لصالحه، بل وجدها فرصة مناسبة لمد نفوذه في بايلك الشرق، وفي هذا السياق يذكر يحيى بوعزيز: (حضر إلى إقليم ونوغة جنوب شرق مدينة العاصمة خلال شهر ديسمبر ليتفقد الأمور ويحاول مد نفوذه إلى الشرق الجزائري، وكان من ضمن أهدافه اختيار خليفة له على إقليم بجانة والحضنة... فحضر إليه بونوغة كل من أحمد المقراني، ومحمد بن عبد السلام المقراني، كل منهما يرجو الحصول على منصب الخليفة على بجانة، فمال الأمير إلى الأخير وعيّنه خليفة على بجانة)³.

لقد كان من الطبيعي جدا كما يذكر ذات المؤرخ أن يميل الأمير عبد القادر إلى محمد بن عبد السلام ويُعيّنه خليفة له على بجانة؛ بدلا من أحمد المقراني الذي كان في خدمة خصمه ومنافسه الحاج أحمد باي⁴، ومما يذكره أبو القاسم سعد الله حول هذا الخليفة أنه كان من أقوى الخلفاء ومن أكبر العائلات في الإقليم⁵.

إنّ تعيين الأمير عبد القادر لمُحمد بن عبد السلام كان عن طوعية وإرادة منه، عكس ما يذكره "أدريان بيربروجير" أن الأمير خلال حملته العسكرية ضد أهل ونوغة المنتشرين من الوادي الأكل إلى البيان وانتصاره عليهم، قد أجبر شيخ البيان نفسه محمد بن عبد السلام المقراني على الاستسلام؟ وفي معرض حديثه عن زيارة هذا الشيخ له يقول: منذ زمن بعيد كانت القبائل التي أُقودها هي صاحبة السيادة في البيان، وكل البايات لا يجتازون المنطقة إلا بعد أن يدفعوا ضريبة، أما الآن فقد أصبحنا ندفع الضريبة لعبد القادر⁶؟

لم يتقبل أحمد المقراني هذا الاختيار الأميري، كيف لا وهو الذي كان خليفة للحاج أحمد باي في المنطقة، وله نفوذ قوي بما حيث كان تحت تصرفه 13 قبيلة إلى جانب قائد زمورة⁷، هذا من جهة. ومن جهة أخرى لم تستسغ فرنسا هي الأخرى هاته الخطوة التي قطعها الأمير عبد القادر بهذه الناحية، خطوة ستُعزز من نفوذه بالشرق الجزائري، فراحت تعمل كل ما بوسعها للحد منه ومواجهته، مُستغلة في ذلك كما يذكر سعد الله بُعد المسافة بين الأمير وخليفته⁸، والصراع على النفوذ في المنطقة بين فرع أولاد الحاج

¹ - يذكر صالح فركوس بخصوص هذه العائلة ما يلي: يُعتبر أحمد بن بوزيد المقراني زعيم أولاد مقران الذي خاض صراعا مريرا مع أبناء عمومته من أجل القيادة، وإدارة تلك المنطقة، صراع أدى إلى انقسام الأسرة إلى 3 فرق مُتطاحنة: فرع أولاد الحاج وأولاد عبد السلام يُكوّنان صفّا واحداً وهو الصّفّ الرئيسي في أولاد مُقران، الفرع الثاني يتكون من أولاد بورنان، والصّفّ الثالث أولاد القندوز، وخلال حكم الحاج أحمد باي (1826-1837م) مكّن صف أولاد الحاج وأولاد عبد السلام من النفوذ والسيطرة على أسرة المقراني. يراجع: (مذكرات الحاج أحمد باي قسنطينة 1826-1850م، ص55).

² - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري (من القرن 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2015م، ص64، حسب شجرة النسب التي أدرجتها هاته الباحثة يكون الحاج محمد المقراني قد أنجب كل من مسعود ومحمد وعيشوش (بنت) هاته الأخيرة تزوجها الحاج أحمد باي في إطار سياسة المصاهرة للتقرب من هذه الأسرة والاستفادة من خدماتها.

³ - يحيى بوعزيز: كفاف الجزائر من خلال الوثائق، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص10.

⁴ - المرجع نفسه، ص314.

⁵ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص212.

⁶ - أدريان بيربروجير: مع الأمير عبد القادر رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837-1838م)، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، الطباعة العصرية، الجزائر، 2006م، ص75-76.

⁷ - محمد الصالح بن العتري: فريدة منسية في حال دخول التُّرك بلد قسنطينة واستلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مُراجعة وتقديم وتعليق يحيى بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م، ص19-20.

⁸ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص212.

وفرع أولاد عبد السلام، وفي هذا المسعى قامت السلطات الاستعمارية بعدة خطوات للحيلولة دون نجاح خليفة الأمير في مقاطعة بجانة نذكر من بينها:

1- مراقبته ومتابعة تحركاته، وفي هذا السياق يذكر العياشي رواجي أن الماريشال "فالي" وفي مراسلته إلى وزير الحرية الفرنسية المؤرخة في 26 جانفي 1838م أبلغه من خلالها بتنصيب شيخ قبيلة بني يسر المجاورة لمنطقة بجانة قصد مراقبة نشاطاته¹؛ أي نشاط محمد بن عبد السلام المقراني.

2- محاولة استمالة محمد بن عبد السلام المقراني -على الرغم من كونه خليفة للأمير- حسب ما أشار إليه رواجي، من خلال تقرير الماريشال فالي إلى وزير الحرية المؤرخ في 17 جانفي 1838م الذي نصحه فيه بضرورة ربط علاقات متينة مع هذا الزعيم الذي له نفوذ كبير في المنطقة، علاقات. الغاية من ورائها مضايقة الأمير في الشرق الجزائري وتمكين الفرنسيين من ضمان السيطرة على الطريق الرابط بين قسنطينة والجزائر².

3- تغذية الصراع بطريقة غير مباشرة بين فرعي العائلة المقرانية، ومن ملامح هذا الصراع هو منع أحمد بن محمد المقراني لمحمد بن عبد السلام الدخول إلى بجانة بعدما تمكّن من استمالة قبائل بني عباس، وقبائل حوض الصومام³، ومن غير المستبعد حسب الباحث سمير بن السعدي أن تكون فرنسا قد رتبت لاتصالها مع أحمد المقراني للنظر في الاستعانة به لمحاربة محمد بن عبد السلام المقراني⁴.

رغم كل هذه المكائد والدسائس فإن خليفة الأمير سار قُدما في سبيل توطيد أركان حكم دولة الأمير في مقاطعة بجانة، مُستعينا في البداية بالدعم الذي قدمه له الأمير: (200 فارسا وعدد معتبر من المشاة، لِتُسند ظهوره في عملية التنظيم وفرض نفوذه)⁵، وكان من بين الاجراءات التي قام بها: التخلص من خصومه على مُستوى المقاطعة، ومن بين هؤلاء أحمد المقراني الذي ألقى عليه القبض وقام بنفيه إلى منطقة الحُصنة بعد أن استوثق منه أن لا يعود إلى بجانة مرة أخرى⁶، هذا إلى جانب اجهاضه للعديد من التمرّرات - إن صح التعبير - مع مطلع سنة 1838م، كتمرد الشّيخ مسعود زعيم رغبة المعارض لسلطة الأمير عبد القادر، الذي دخل معه في مُواجهة عسكرية في معركة جبل يوسف وأسفرت عن فقدانه لـ 25 جنديا و 75 حصانا⁷.

هذا إلى جانب محاولته التصدي لنفوذ الفرنسيين في المنطقة، ومن مؤشرات ذلك الاشتباك بقواته في سيدي مبارك مع قوات العقيد "لانو" المدعّم من قبل فرسان خصمه أحمد المقراني؛ لكنه لم يستطع الصمود أمامها فانسحب إلى قرية زمورة الحصينة، انسحاب أتيحت من خلاله الفرصة للفرنسيين بتعيين أحمد المقراني خليفة لهم في منطقة بجانة⁸.

ونظرا لهذا المعطى الجديد الذي عرفته مسار الأحداث بالمنطقة؛ لم يتوان محمد بن عبد السلام المقراني بإعلام الأمير بعملية انسحابه من بجانة باتجاه منطقة زمورة في الشمال الشرقي⁹، في الوقت الذي أخبره فيه بالوضع المنفلت والمضطرب الذي آلت إليه المقاطعة، فكيف كان موقف الأمير عبد القادر من كل هذا؟.

¹ - العياشي رواجي: (عائلة المقراني والأمير عبد القادر 1832-1847)، التواصل في العلوم الإنسانية والإجتماعية، ع30، جامعة عنابة، 2012م، ص84.

² - المرجع نفسه، ص84.

³ - نفسه، ص84.

⁴ - سمير بن السعدي: المختصر في تاريخ زمورة، مطبعة زاعياش، الجزائر، 2013م، ص63-64.

⁵ - عبد القادر زائر: دور خلفاء الأمير عبد القادر في بناء الدولة الجزائرية (1832-1847م)، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2010م، ص104.

⁶ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص10، سمير بن السعدي: المرجع السابق، ص62-63.

⁷ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص10.

⁸ - سمير بن السعدي: المرجع السابق، ص64.

⁹ - يحي بوعزيز: كفاح الجزائر، المرجع السابق، ص314، بينما يذكر الباحث زائر أن انسحاب خليفة الأمير كان باتجاه مقاطعة مليانة مع العديد من الجرحى، وهو رأي استمدته من مراسلات "دوماس" يراجع: عبد القادر زائر: المرجع السابق، ص104.

تكاد تتفق كل المرجعيات التاريخية التي عدنا إليها على قيام الأمير بعزل محمد بن عبد السلام المقراني من منصبه؛ وتعيين خليفة له يدعى السيد: أحمد بن عمر من أولاد سيدي عيسى بالمدينة، وكلف كل من الحاج مصطفى الأمير وآغا الخيالة الخروبي¹ بمرافقته إلى هناك على رأس حوالي 600 رجل و350 حصاناً² لتنصيبه وإبلاغ السكان بذلك³. وما يذكره الأستاذ وشن أمزيان بخصوص هذا الخليفة: كان كاتباً لديه -أي للأمير- بمجانة⁴، ولكن عندما يُوظف يحيى بوعزيز عبارة (بمرافقته) نفهم من ذلك أن أحمد بن عمر لم يكن موجوداً في مجانة وقت عزل الخليفة بل في المدينة، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى نلاحظ تسرع الأمير في عزل خليفته بسبب هزيمته في معركة جبل يوسف، وفقدانه لعدد معتبر من قواته؛ فهل هذه الهزيمة كانت كافية لعزل خليفته؟ أم أن هناك أسباب أخرى شجّعت على ذلك؟ خاصة وأن تعيين خليفة للأمير بهذه الناحية ليس بالأمر الهين؟

يذكر لنا الباحث العياشي رواحي في هذا السياق سببين آخرين؛ السبب الأول: النصيحة التي قدّمها الحسين بن علي نذير بيت المال (مفتش الضرائب) في الدولة الأميرية للأمير عبد القادر، والتي جاء فيها: (يا مولاي إن أردت كسب طاعة الأهالي فما عليك إلا الاستغناء عن خدمات أولاد مقران)، والسبب الثاني هو قيام الخليفة محمد بن عبد السلام بإنقاص قيمة الأموال التي تحصل عليها من الضرائب حيث احتفظ بجزء منها وأرسل الجزء الباقي إلى بيت المال⁵. أما سعد الله فيرجع سبب هذا العزل إلى كون الأمير شكّ في اتصاله بالعدو الفرنسي⁶، ولم يتوان في عزله وتعويضه بأحمد بن عمار كخليفة له على مقاطعة مجانة⁷.

ومن غير المستبعد أن تكون أسباب العزل هاته هي عزيمة الأمير وحرصه الشديد على أن يكون خلفاؤه فوق المستوى المطلوب منهم، كيف لا وهزيمة هذا الخليفة الهشة أمام زعيم ريغة القبالة قد تضرّ بسمعة الأمير، وتقلل من شأنه بين السكان بالمنطقة، ولربما ستفتح باب التمرد والشقاق من جديد، ولذلك حسم الأمر بعزله وتعيين خليفة جديد، والسؤال المطروح هنا هو: ما هي المكاسب التي حققها الخليفة أحمد بن عمر لصالح الأمير بمقاطعة مجانة؟.

يذكر يحيى بوعزيز في هذا السياق: تعاون أحمد بن عمر مع الأمير مصطفى والخروبي؛ من خلال قيامهم بشن هجومات عديدة على القوات الفرنسية وأعوانها بسطيف وأحوازها، وخاضوا معركة البحيرة، ثم انسحب الحاج مصطفى إلى عين الروى، وصدراته، قبل أن يلتحق بالحصنة والزيبان. ثم يشير إلى فشله بالقول: ويبدو أن أحمد بن عمر فشل هو الآخر في أداء مهمته كوال وحاكم عسكري على ولاية مجانة، ولم يحقق ما كان ينتظره منه الأمير⁸، أما الأستاذ وشن أمزيان فيذكر لنا بهذا الخصوص: (إن خليفة الأمير الجديد

¹ - يعتبر من بين كتّاب وؤلاة الأمير عبد القادر، وُلِّيَ أولاً على مقاطعة مجانة، ثم عُيِّن بعدها للكتابة، ثم عُيِّن والياً على سطيف، وقع في أسر الفرنسيين ثم اطلقوا سراحه، هاجر إلى المشرق، اشتغل بالعلم والافادة، وانتفع به كثير من الناس، توفي سنة 1862م بدمشق ودفن بمقبرة الدحداح، يراجع: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص132.

² - يذكر سميح بن السعدي احصائيات أخرى: كان يُشرف ويتصرف في قوة مشاة قوامها 300 رجلاً وعدد فرسان قوامهم 50 فارساً، بالإضافة إلى بعض الفرسان من أولاد بورنان وأولاد عمر، ص62.

³ - المرجعيات تذكره باسم محمد بن عمار تارة وأحمد بن عمار تارة أخرى، وهو نفس الشخص.

⁴ - مزيان وشن: إقليم ولاية برج بوعريش عبر العصور دراسة تاريخية، دار النشر جيتلي، الجزائر، دون تاريخ.

⁵ - العياشي رواحي: (عائلة المقراني والأمير عبد القادر 1832-1847م)،...، المرجع السابق، ص85.

⁶ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص214، لم يذكر لنا سعد الله ملامح هذا الشك وتجلياته، ولكن من غير المستبعد أن يكون قد انطلق من زاوية محاولة الفرنسيين - التي تحدثنا عنها في المتن - الاتصال بخليفة الأمير واستدراجه لصفهم، وليس محمد بن عبد السلام هو من اتصل بهم؟ ورغم فشلهم في استدراجه، فإن هذا لم يمنع من وجود من يسعون إلى إشعال نار الفتنة وزرع البلبلة والشكوك للأمير حول خليفته إن لم نقل حول كل خلفائه. يُنظر حول هذه الاشاعات التي كانت تُحاك ضد الأمير والقبائل الموالية له: مذكرات الأمير عبد القادر، ص115-116.

⁷ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص213.

⁸ - يحيى بوعزيز: كفاح الجزائر...، المرجع السابق، ص10.

عجز في التصدي للقوات الفرنسية الزاحفة عليه، قوات استولت على أراضي البرج ومجانة وسيدي أمبارك وزمورة الحصينة، وامتدت إلى برج الغدير، والحمادية، ورأس الوادي وعمت باحتلالها كل أرجاء اقليم ولاية البرج الحالية وذلك خلال سنة 1839م¹.

ان هذه المستجدات دفعت بالأمير عبد القادر مرة أخرى إلى عزل أحمد بن عمر وإعادة تعيين خليفته السابق محمد بن عبد السلام، وهو أمر نفهم منه أن عزله لمحمد بن عبد السلام كان من باب مُعاقبته، ولربما يدفعه خطأه هذا إلى القيام بواجبه على أحسن وجه في خدمة الأمير، لكن ما ذا لو نجح أحمد بن عمر؟ هل كان سيعزله ويستدعي محمد بن عبد السلام؟.

لقد سكنت المرجعيات التاريخية في الاجابة عن هذا الانشغال الذي يمكن أن نُقدم حوله وجهة نظرنا في ما يلي: يُعد عامل الولاء مهم جدا في هذه القضية، فسكان المنطقة المنقسمين بين الولاء لفرع أولاد عبد السلام، وفرع أولاد الحاج؛ خشي الأمير من طرح خليفة جديد له خارج المنطقة، تجنبا للفتنة التي نفخ فيها الخصوم؛ ناهيك عن الظروف التي كان يمر بها الأمير في الغرب الجزائري من خلال حصاره لعين ماضي، وما ترتب عنه من تضيق للجهود والوقت، إضافة إلى الاستنزافات الفرنسية القاضية بتعديل معاهدة التافنا ... الخ، هذه المعطيات وغيرها لم تسمح للأمير أن يجد مخرج أخرى لمسألة الخلافة بهذه الولاية.

لم تكن هذه الأحداث والمتغيرات بخافية عن الاستعمار الفرنسي وعملائه بالمنطقة، ولذلك راحت تستغل كل فرصة تسمح لها بالقضاء على نفوذ الأمير بمجانة، ولتحقيق ذلك راهنت على ضرب الاخوة الأعداء ببعضهما البعض، مُستغلة عودة أحمد المقراني من منفاه بالحصنة، لتنفخ له في نار الانتقام وتُنصّب له الفخاخ، في الوقت الذي تأكد فيه هو بضياح مركزه الحيوي بين أبناء قبيلته، فاتجه إلى صديقه بوعكاز شيخ فرجيوة بالبابور وعرض عليه فكرة الدخول في خدمة الفرنسيين حسب ما يذكره يحي بوعزيز².

أفضى هذا العرض إلى التوسط له لدى الفرنسيين عن طريق الجنرال "غالبا" Galbois³ فقبل عرضه، ولم يكتف بذلك بل عيّنه قائدا على بني عامر في أحواز سطيف⁴ في شهر جويلية 1838م، ثم عيّنه -أي أحمد المقراني⁵ - المارشال فالي بقرار مؤرخ في 30 سبتمبر 1838م كخليفة لهم على مجانة⁶، وكان غرض الفرنسيين من وراء ذلك ضرب نفوذ الأمير عبد القادر وخليفته بمجانة محمد بن عبد السلام⁷. وعليه يمكننا أن نتساءل عن التطورات التي عرفتها مقاطعة مجانة في ظل وجود خليفتين (خليفة فرنسا، وخليفة الأمير عبد القادر)؟.

سعى كل خليفة لفرض نفوذه على حساب الآخر، ولكن شتان بين من يعمل لصالح فرنسا وبين من يعمل لصالح الوطن، وطبيعي أن تقوم فرنسا بتقديم يد المساعدة لصالح أحمد المقراني الذي قام بعدة خطوات في هذا الشأن نذكر من أهمها:

- تضيق الخناق على خصمه محمد بن عبد السلام المقراني، من خلال محاولة كسب ولاء شيوخ القبائل لصالحه، مُستغلا في ذلك الفرع الذي يترأسه.

¹ - مزيان وشن: المرجع السابق، ص 138.

² - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 10-11.

³ - عبد القادر زابر: المرجع السابق، ص 104، وفي معرض حديثه عن قوات هذا الخليفة سنة 1839م يذكر ما يلي: (كان تحت إمرته سنة 1839م حوالي 50 خيالة نظاميون، 300 المشاة النظاميون، ص 137).

⁴ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 313.

⁵ - يذكر يحي بوعزيز أن أحمد المقراني: شارك مع الحاج أحمد باي في مقاومة حملة الاحتلال على العاصمة عام 1830م، وحملة الغزو الفرنسي على قسنطينة عام 1837م، وبقي خارجا عن طاعة الفرنسيين حتى صيف عام 1838م، أين استسلم لهم بواسطة صديقه بوعكاز بن عاشور شيخ فرجيوة، فأُسند له الجنرال "غالبا" مشيخة مجانة في شهر جويلية، واحتفل به رسميا بتقليده منصب الخليفة على مجانة يوم 30 سبتمبر 1838م بقصر الحاج أحمد باي بقسنطينة بحضور الحاكم العام المارشال "فالي"، يراجع: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ص 196.

⁶ - يحي بوعزيز: كفاح الجزائر...، المرجع السابق، ص 313، ويشير هنا يحي بوعزيز أن التحاق أحمد المقراني بهذه المقاطعة كان مع مطلع سنة 1839م، تشمل مقاطعة مجانة حسب يحي بوعزيز: سهل مجانة الواسع، وأولاد خلوف، الدريعات، مزينة، ونوغة ... الخ، ص 11.

⁷ - يحي بوعزيز: المرجع نفسه، ص 11.

- تهينة الأوضاع لفرنسا لبيسط نفوذها على المنطقة من خلال الدعوة إلى التعايش السلمي وعدم مواجهة الفرنسيين، مقابل الحصول على مجموعة من العروض والامتيازات المادية.

- توجيه الفرنسيين نحو الاهتمام بمحور قسنطينة - سطيف، والسيطرة على الطريق الرابط بينهما، وهذا لا يتم في نظره إلا بالقضاء على نفوذ خصمه محمد بن عبد السلام المقراني في بجاية، توجيه رأت فرنسا أن تبدأه بقطع رأس هذا الخليفة في بجاية أولا ولكنها عدلت عن موقفها الذي سيجلب لها كثير من المتاعب حسب توجيهات أحمد المقراني، ولذلك رأت آلية أخرى لضرب هذا الخليفة من خلال المرور بجيشها عبر مضيق الببيان (أبواب الحديد) الخاضع لسيطرة الأمير، والقصد من وراء ذلك في نظرنا: اختبار مدى قدرة خليفة الأمير في التصدي لهم، واستفزاز الأمير بدفعه إلى الدخول في الحرب، وبالتالي نقض معاهدة التافنا التي استفاد منها الأمير بشكل كبير.

بناءً على هذا الوضع تحركت قافلة الجيش الفرنسي من قسنطينة باتجاه الجزائر العاصمة، وما إن وصلت مشارف سطيف، وجدت أن أحمد المقراني قد هباً سكان مقاطعة بجاية وأقنع شيوخ زمورة المواليين له بعدم اعتراضها، بل حثهم على مساعدتها والانضمام للقوات الفرنسية¹ وتوفير الجو الملائم لها بالمرور الآمن، ولقد نجحت هذه الدعوات وغيرها في قيام قبيلة بني منصور مثلاً بتقديم المؤونة للجيش الفرنسي²؛ هذا بالنسبة لنشاط أحمد المقراني.

أما بالنسبة لنشاط محمد بن عبد السلام المقراني فمنذ أن وصلته أخبار تحرك القوات الفرنسية، شرع في تعبئة سكان المقاطعة وشيوخها بالتصدي لها، وتوعيتهم بالخطر المحدق بهم، مُستغلاً في ذلك دخول خصمه في طاعة الفرنسيين، الشيء الذي كاد أن يفضي إلى وقوع مواجهات هامة بين الطرفين لولا حكمة وحكمة محمد بن عبد السلام، الذي كان يسعى إلى تفويت الفرصة على الأعداء وحقق دماء الجزائريين.

ومع اقتراب قافلة الجيش الفرنسي شيئاً فشيئاً إلى بجاية استعد لمواجهة بكل ما أوتي من قوة، لكن دهاء الفرنسيين فوت الفرصة على محمد بن عبد السلام، ففي هذا السياق عهد الدوق أورليان "le duc d'orlean" إلى يهودي من سكان وهران اسمه بوردين بتقليد ختم الأمير الذي ختم به وثيقة سفر بقصد تقديمها لدى المرور على رأس جيشه بأراضي الأمير إلى قائد المنطقة ليؤممه أن المرور عبر مضيق الببيان قد أذن به الأمير للجيش الفرنسي³.

ومما ذكره "شارل هنري تشرشل" حول هذه النقطة: (فأسرعت القبائل للدفاع عن بلادهم ضد العدوان... وطلب شيوخهم مقابلة المسؤولين الفرنسيين، وعندما قابلهم كبار الضباط الفرنسيين استظهروا لهم بجوازات سفر تحمل ختم الأمير عبد القادر تسمح للقوات الفرنسية بالمرور، فرضي الشيوخ بذلك... ولكن شيوخ القبائل الذين قاموا بوظيفة المرشدين كانوا مُعْطِطِينَ بتسهيل تقدم أصدقاء وحلفاء سلطائهم، وبفضل هذه الظروف المواتية مرت القوة الفرنسية التي كانت تقدر بحوالي 5000 رجل)⁴.

يُسمى عبد القادر بوطالب هذه الحُدعة الحربية بالتُكُوص: نُكُوص يسهل معرفة ما كان من ورائه، نلاحظ بصفة خاصة ونحن نركز على هذه النقطة أن تدخل المقراني كان حاسماً في هذه العملية... وقد كان له اليد العليا على المنطقة المتنازع عليها، وتم مرور القافلة بدون عائق، فقد كان أحمد المقراني قد عوّض القبائل تعويضاً من السخاء بحيث لم يتدخلوا⁵. ثم يُعَقَّب تشرشل على جوازات

¹ - عبد القادر زابر: المرجع السابق، ص 104.

² - المرجع نفسه، ص 105.

³ - الكولونيل سكوت: مذكرات الكولونيل سكوت عن اقامته في زمالة الأمير عبد القادر 1841م، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 115.

⁴ - شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ط 1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2015م، ص 234.

⁵ - عبد القادر بوطالب: الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2010م، ص 130.

المرور التي كانت مُزورة بقوله: (لقد كانت هذه الجوازات مزورة، وكان ختم عبد القادر قد زور)¹. وهي الخدعة التي لم ينتبه لها خليفة الأمير، وانطلت عليه الحيلة، التي حاول فيما بعد اثبات زيفها ولكن بعد فوات الأوان. وبناءً عليه كيف كان رد فعل الأمير تجاه مُرور قافلة الجيش الفرنسي عبر مقاطعة مجانة التي تخضع لخليفته، وعبر أبواب الحديد التابعة له حسب معاهدة التافنا؟.

قام الأمير عبد القادر بعزل خليفته محمد بن عبد السلام مرة أخرى من منصبه، وإعادة تعيين كاتبه إن لم نقل خليفته السابق على مجانة، السيد أحمد بن عمار على هذه المقاطعة، لا شك أن هذا العزل والتعيين لخلفاء الأمير على مجانة يُعد طفرة فريدة من نوعها مُقارنة بالمقاطعات الأخرى، وربما السبب في ذلك يعود إلى كثرة الفتن التي واجهت الأمير بكل من الأغواط، الزيبان، الحُصنة... إلخ، إضافة إلى خُصُوصية مقاطعة مجانة التي لم تعط للأمير فرصة أكبر للقيام بتعديل أفضل، وقبل الحديث عن مصير محمد بن عبد السلام المقراني، نود الحديث عن دور الخليفة أحمد بن عمار² في مقاطعة مجانة أثناء تعيينه للمرة الثانية.

قام في هذا الإطار وبمساعدة قوات الأمير المقدمة له³ بِشن هُجُومات مُتتالية ضد قوات أحمد المقراني والفرنسيين المتمركزين في كل من منطقة العش والحمادية والبرج والمنصورة والغدير وألحق بهم خسائر مُعتبرة، فبات أحمد المقراني ضعيفا في نظر فرنسا التي كان تسعى لتطبيق الحكم الفرنسي المباشر على السكان، خاصة في ظل تأسيسهم دائرة سطيف العسكرية التي أخضعوا لها المناطق التي يشرف عليها برمتها والمتمثلة في اقليم ولاية البرج الحالية بكل أحوازها وقراها⁴.

وعندما بدأت فرنسا تُحكم قبضتها على المقاطعة لم تعد في حاجة ماسة إلى دعم أحمد المقراني، الذي بات لا يقوى على مواجهة خُصومه كما عجز في صد الهجوم الثاني لقوات الأمير عبد القادر في سنة 1840م التي وصلت إلى مشارف مجانة نفسها، فانسحب أحمد المقراني إلى زمورة الحصينة هاربا وأعطى الدليل عن عجزه بالقيام بالدور الذي كانت فرنسا تريده منه⁵، هذا بالنسبة للخليفة أحمد بن عمار⁶.

أما محمد بن عبد السلام المقراني فقد استمر في مُناوشة قوات العدو الفرنسي انطلاقا من مركزه بجبال بني عباس، وظل على هذا المنوال في مقاومة الفرنسيين بمفرده إلى أن انهارت قوته، فاتجه حسب ما يذكره العياشي رواجي إلى سي بن علي الشريف أحد مرابطي شلاطة الذي هَوّن عليه اجراءات الاستسلام، وبذلك دخل في خدمة الادارة الاستعمارية⁷ إلى أن وافته المنية سنة 1847م⁸.

¹ - شارل هنري تشرشل: المصدر السابق، ص 234.

² - هناك من يسميه محمد بن عمر العيسوي، يراجع: التاريخ العسكري والإداري، ج 2، ص 99.

³ - أديب حرب: التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847م، ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م، ص 99، حيث كان تحت إمرته أي محمد بن عمر العيسوي - حسب المؤلف ذاته - في أواخر سنة 1839م حوالي 350 جنديا، 50 فارسا نظامي و 300 مشاة غير نظاميين، ص 99، بينما يذكر يحي بوعزيز عدد القوات المقدمة له في مؤلفه كفاح الجزائر من خلال الوثائق بـ 500 جنديا، ص 13.

⁴ - مزيان وشن: المرجع السابق، ص 139.

⁵ - مزيان وشن: المرجع نفسه، ص 138، يحدّثنا الأستاذ وشن عن مصير أحمد المقراني الذي تقلص نفوذه وفقد هيئته عند الفرنسيين وبات مجرد موظف بسيط لا يتعدى نفوذه مجانة والبرج، عاش بقية حياته بين ظلم فرنسا له والضغط عليه ومقاومة الأهالي ضده ونبذته من صفوف الوطنيين إلى أن توفي يوم 04 أبريل 1853م ودفن بمقبرة أجداده بقلعة بني عباس، يراجع: اقليم ولاية برج بوعريز عبر العصور دراسة تاريخية...، المرجع السابق، ص 139.

⁶ - لم يتسن لنا معرفة مصير هذا الخليفة في ظل الأوضاع التي عرفت المنطقة بعد سنة 1840م، ما عدا ما ذكره لنا يحي بوعزيز أنه في 19 أكتوبر 1849م ونتيجة للحوادث التي عرفت بوسعادة أثناء حركة الشيخ بن شبيبة، يكون قد مر بها أحمد بن عمر العيساوي، وعمل على مساعدة الثوار ضد الفرنسيين، يراجع: كفاح الجزائر، ص 19.

⁷ - لم يشر الباحث إلى طبيعة هاته الخدمة التي قدمها للفرنسيين.

⁸ - العياشي رواجي: (هجرة بعض العائلات الجزائرية الكبرى إلى البلاد التونسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر)...، المرجع السابق، ص 86، ويذكر أبو القاسم سعد الله نقطة مفادها: (ثم في نهاية 1839م عين الفرنسيون خليفة على مجانة وهو محمد بن عبد السلام المقراني، ص 221، ويذكر في الصفحة 218: بعد استئناف الحرب سنة 1839م تراحت قبضة الأمير على بعض المناطق النائية وتشجع خصومه الانفصاليون أمثال أحمد بن سالم (الأغواط) وفرحات بن سعيد ومحمد بن عبد السلام المقراني والشيخ محمد الصغير التجاني... وهو أمر لفت انتباهنا فهل المقصود هنا هو فعلا محمد بن عبد السلام أم الخليفة أحمد المقراني المعين من طرف فرنسا؟ ومن غير المستبعد أنه وقع هناك لبس في الأسماء بين الخليفين، فأحمد المقراني لا يزال مُعينا من طرف الفرنسيين على مجانة فكيف تُعيّن محمد بن عبد السلام خليفة لها في نفس الوقت؟.

لا يمكننا الحكم بقسوة على هذه الشخصية التي قدّمت الكثير لمقاومة الأمير عبد القادر في مجانة؛ وفي هذا السياق يذكر الأستاذ المرحوم وشن أمزيان: إن محمد بن عبد السلام المقراني كان سداً منيعاً في وجه الفرنسيين¹. وتتمينا لهذا الطرح نُورد رواية المؤرخ يحي بوعزيز: فانسحب - محمد بن عبد السلام المقراني - إلى جبال بني عباس، وأخذ من هناك يُنظّم لوحده الهجمات والغارات على المراكز الفرنسية ببرج بوعريّيج وغيره، بالتعاون مع عدد من الزعماء أمثال سي موسى الأغواطي، ومولاي محمد، ومولاي الطيب، وسي ساعد التباي؛ ثم يضيف: ورغم عزله من منصبه إلا أنه لم يتوقف عن نشاطه العسكري ضد الفرنسيين وأعدائهم، وضد غريمه أحمد المقراني خليفة الفرنسيين على مجانة، وتمكن من طرده من مجانة إلى زمورة رغم دعم الفرنسيين له².

كما يتحدث لنا عن دوره في مساعدة زعماء المقاومة الشعبية الذين ظهروا في شرق البلاد منهم: مولاي محمد في منطقة بني يعلي، والحاج موسى الأغواطي ببني يعلي شمال غرب سطيف، الذي عضده بعض الوقت، ومن بين ما قدّمه قطع الاتصالات والمواصلات في وجه القوات الفرنسية بين سطيف وبرج بوعريّيج، وبعد انكماش شعلة المقاومة في موفى 1847م، اتجه بن عبد السلام المقراني إلى يلولة، أو مالو، وقدم نفسه لابن علي الشريف، فتوسط له لدى السلطات الفرنسية، وسلم نفسه إليها ومات بسطيف في نفس العام 1847م³.

ومع مرور الوقت وفي ظل التطورات التي عرفتها منطقة الغرب الجزائري تقلّص نفوذ الأمير عبد القادر بمجانة وتراخت قبضته على تلك النواحي، وتفرغ لمواجهة العدو الفرنسي بعد نقض معاهدة التافنا وتجدد الحرب من جديد في شهر نوفمبر 1839م⁴.

2- الحضور المقراني في فكر الأمير عبد القادر بدمشق (1866-1883).

على الرغم من مظاهر الأبهة التي أحاطت بالأمير عبد القادر في دمشق، من خلال الخطوة والاهتمام الذي تلقاه من طرف السلطات والعلماء والفقهاء والأعيان، سواء في داخل سوريا أو خارجها، فإن الأمير عبد القادر لم ينجح إلى الراحة والعيش الرغيد، داخل جدران قصره بدمر؛ ولم ينس ولو للحظة واحدة مصير وطنه المحتل وشعبه المسلوب الحرية، بل ظل يتابع في تطورات الوضع من خلال مسالك ومعايير متعددة، وما دما نتحدث عن تحليلات الحضور المقراني في فكر الأمير عبد القادر في منفاه بدمشق، فإننا وقفنا على التفاتة طيبة للمقرانيين في خطاب الأمير، بعد مرور حوالي 27 عن القطيعة بين المقرانيين والأمير⁵؛ وبعد مرور حوالي 24 سنة على نفي الأمير عبد القادر من الجزائر⁶.

لقد صاحب فشل ثورة المقراني ردود فعل قاسية من طرف العدو الفرنسي، من أبرز معالمها نفي وتهجير عائلة المقراني ومن وقف إلى جانبهم في الثورة، ويتجلى لنا موقع المقرانيين في فكر الأمير عبد القادر من خلال المراسلات أو ما يمكن تسميته بالخطاب الأميري، ومن بين هذه المراسلات ما كتبه إلى السلطات التونسية يلتمس منهم تقديم الدعم والمساعدة للمقرانيين الذين هاجروا إلى تونس.

تُقدر المرجعيات التاريخية التي عدنا إليها عدد المهاجرين المقرانيين إلى تونس بعد ثورة المقراني بحوالي 500 مهاجراً⁷، وأثناء استقرارهم بها تكون قد واجهتهم عقبات ومصاعب كثيرة، وانطلاقاً من موقع الأمير السابق الذكر، راح يستوصي بهم خيراً السلطات

¹ - مزيان وشن: المرجع السابق، ص 138.

² - يحي بوعزيز: كفاح الجزائر...، المرجع السابق، ص 13.

³ - المرجع نفسه، ص 15-17، (خلف ولدين هما: مسعود ومحمد، عُيّن الأول على قيادة عين تاغروت التي تشمل الغرازة، وصدراته بأولاد نابت، وبقي حتى عام 1855م، ثم ذهب لأداء فريضة الحج وخلفه أخوه محمد الذي احتفظ بوظيفته هذه حتى عام 1871م ولعب دوراً بارزاً في ثورة المقراني والحداد، يراجع: كفاح الجزائر، ص 17.

⁴ - يحي بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط 1، دار البعث، قسنطينة، 1980م، ص 26.

⁵ - وهي الفترة الممتدة بين (1839-1866م).

⁶ - وهي الفترة الممتدة بين (1847-1871م).

⁷ - العياشي رواحي: (هجرة بعض العائلات الجزائرية الكبرى إلى البلاد التونسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر)...، المرجع السابق، ص 365.

التونسية لجبر خواطهم والاعتناء بهم بعدما ضاقت بهم السبل وابتوا عرضة للتشتت والضياع، وذلك من خلال مجموعة من الرسائل¹، اخترنا منها ما رأيناه مناسباً لهذا المقال من خلال النماذج التالية:

النموذج الأول: رسالة الأمير عبد القادر إلى الوزير التونسي رستم، بشأن محمد بن بوزيد المقراني² ووالده وأخوته المقيمين بتونس؛ وهي رسالة مؤرخة في 04 جمادى الأولى 1283هـ/ 13 أكتوبر 1866م حسب ما أشار إليه يحي بوعزيز³. ومما نفهمه من هذه الرسالة: أن محمد بن بوزيد المقراني ورد على الأمير عبد القادر وهو بدمشق، وحديثه أثناء ذلك عن أحوال المهاجرين الجزائريين بتونس عموماً والمقرانيين على وجه الخصوص، كما أن التواجد المقراني بتونس -مهاجرين- كان قبل سنة 1871م، ومن غير المستبعد أنه أثناء عودة محمد بن بوزيد المقراني إلى تونس حمل الأمير هذه الرسالة وكلفه بتوصيلها أو ربما تسليمها شخصياً للوزير التونسي. بعد البسملة والصلمة افتتح الأمير رسالته بالثناء الكبير على الوزير التونسي؛ تمهيداً للحديث عن موضوع الرسالة التي ضمّنها مجموعة من العناصر، يمكن عرضها في ما يلي:

- مكانة محمد بن بوزيد المقراني في فكر الأمير عبد القادر، لدرجة وصفه بالولد الأثيل الشريف، ومما جاء فيها بهذا الخصوص: (أما بعد فإن ولدنا الشريف الأثيل السيد الحاج محمد بن بوزيد المقراني)⁴.

- فضل الوزير التونسي على المهاجرين الجزائريين: (ولا يزال يحدث ويصف من حسن شمايلكم وكثرة فضايلكم ما يملأ المسامع طرباً ويقضي من تزايد عجباً وخصوصاً فيما لكم على المهاجرين من الأيادي الزاهرة وفيض غيوث مكارمكم الماطرة وأتى ما يعجز ما يعجز عن شكره اللسان ويكل عن رقم حمده البيان)⁵.

- أن يستوصوا خيراً بمحمد بن بوزيد المقراني وبوالده وأخوته، كما يوصيه بعدم قطع الصلة بالمهاجرين الجزائريين بتونس: (ثم المأمول من السيادة أن تستوصوا خيراً بولدنا المذكور ووالده وأخوته، وأن تلاحظوهم بالمساعدة فيما يعرض لهم من الأمور، وأن لا تقطعوا عن مهاجرين كافة ما تعودوه من احسانكم وتواصلوا أفضالكم...)⁶.

النموذج الثاني: مراسلة الأمير إلى كل من: السيد الوزير خير الدين باشا (خازندار) ومصطفى باشا.

- الرسالة الأولى: مؤرخة في غرة ربيع الثاني 1289هـ/ 08 جوان 1872م⁷، تطرق فيها إلى المقرانيين المهاجرين بتونس، وخصّهم بالذكر: (وانه بلغنا خبر وصول الفيئة المقرانية وأولاد يلس إلى الحاضرة ملتجئين إلى سطوتك التي هي أقوى ما يشد به الملتجئ أزره ويعضد أمره)، ثم يقدم رجائه قائلاً: (ومع ذلك فلا نخلي كتابنا هذا من تقديم الرجاء إلى مقامها الأسما (كذا) والتوصية النافعة إلى جنابها الأسنى بأن تشملهم بلحظة تخلصهم من غوائل الدهر وتنقذهم من شرك الكدر والقهر... فنرغب إليكم المساعدة في نيل ما أملوه وبلوغ ما سألوه)⁸.

¹ - من باب الأمانة العلمية وجب الإشارة إلى أن هذه الرسائل سبق لكل من أحمد توفيق المدني؛ ويحي بوعزيز رحمهما الله تناولهما ضمن اهتمامهما بتاريخ الأمير عبد القادر، وتشمينا لمشروع الكتاب الجماعي المزمع تأليفه حول المقراني ارتأينا المساهمة فيه بهذا المقال، من خلال محاولة الوقوف على موقع المقرانيين في فكر الأمير عبد القادر. خاصة وأن عرض أو طرح هذه الوثائق في الدراستين السابقتين لم نلمس منه إبراز هذه النقطة، فاستوجب الأمر الرجوع إلى هذه الوثائق للاستفادة منها وتوظيفها من هذه الزاوية التاريخية.

² - نفهم من خلال مضمون الرسالة ومن تاريخ صدورهما الموافق لسنة 1866م أن هذا الشخص انتقل من تونس إلى دمشق، وحديث الأمير عبد القادر بما كانت تقدمه السلطات التونسية من مساعدات لصالح المهاجرين الجزائريين الذين وفدوا على تونس قبل ثورة المقراني، وربما تزامنت هجرتهم مع المجاعات التي عرفت الجزائر خلال ستينيات القرن 19م (1869-1866م).

³ - يحي بوعزيز: كفاح الجزائر...، المرجع السابق، ص 321-322.

⁴ - المرجع نفسه، ص 322.

⁵ - نفسه، ص 322.

⁶ - نفسه، ص 322.

⁷ - أحمد توفيق المدني: (الأخوة الجزائرية التونسية أواخر أيام الأمير عبد القادر)، الثقافة، السنة 13، ع 75، وزارة الثقافة، الجزائر، 1983م، ص 162.

⁸ - المرجع نفسه، ص 160.

- الرسالة الثانية: إلى السيد مصطفى باشا وهي مؤرخة في 15 ربيع الثاني 1289هـ / 11 أوت 1873م¹، تطرق فيها أيضا إلى نفس موضوع الرسالة الأولى مع قليل من الاختلاف في اللفظ والتعبير، حيث خصص في خطابه المقرانيين الذين هاجروا إلى تونس قائلا: (أما بعد السلام التام اللائق بالمقام انه بلغنا دخول الفئة المقرانية وأولاد يلس في دائرة دولتكم السامية... فلما مول من الجنب السامي تصديق ضنهم والاعتناء بشأنهم وأن يلاحظهم بعين الرحمة ويساعدهم بيد النعمة)².

النموذج الثالث: وقفنا من خلاله على مراسلتين للأمير عبد القادر بخصوص كافة المهاجرين الجزائريين بتونس، دون أن يخصص فئة بعينها، وعبرة كافة المهاجرين التي وظفها الأمير في خطابه تشمل من دون شك المهاجرين المقرانيين، وما يلاحظ عن الرسالتين هو التشابه في المضمون مع الاختلاف في التعبير وتاريخ كتابتهما.

- الرسالة الأولى: إلى مصطفى باشا وهي مؤرخة في 12 شوال 1288هـ. يستوصيه خيرا بعموم المهاجرين الجزائريين بتونس، ومما جاء في رسالته بهذا الخصوص: (هذا وألسنة الأقارب والمهاجرين كافة بطرفكم لم تزل تلهج بخصالكم الحميدة ومزاياكم العديدة التي جل قدرها وسار مسير الشمس ذكرها... وجب علينا أن نعلمكم بمكانهم من الانقطاع إلى جهتكم والتحيز إلى فئتكم وأن أذكركم بأحوالهم تذكرا حسنة لتعاملوهم بمقتضاها المعاملة المستحسنة جريا على ما ألفوه من افضالكم واحسانكم وابقاء لما تعودوه من اجمالكم وامتنانكم)³.

- الرسالة الثانية: إلى الوزير خير الدين وهي مؤرخة في 23 ذو الحجة 1291هـ. يستوصيه خيرا بعموم المهاجرين الجزائريين بتونس، ومما جاء في رسالته بهذا الخصوص: (هذا وإن ألسنة الأقارب وكافة المهاجرين بذلك الطرف لم تزل تلهج بما لكم من الخصال الحميدة والمزايا العديدة... وأن أذكركم بهم تذكرا حسنة لتعاملوهم بمقتضاها المعاملة المستحسنة جريا على ما ألفوه من احسانكم وابقاء لما نالوه من افضالكم وامتنانكم)⁴.

* دور الأمير في تشجيع هجرة المقرانيين من تونس إلى بلاد الشام والأستانة.

يبرز لنا أيضا حضور المقرانيين في خطاب الأمير من خلال مضمون الرسالتين السابقتين؛ حيث ورد في الرسالة الأولى ما مضمونه: (هذا إذا ساعد الوقت وتبرأ أمرهم من اللوم والمقت وإلا فأشير عليهم بالتوجه إلى هذه الأقطار [أي بلاد الشام] عسى الله أن ييسر عليهم فيها بلوغ الأوطار)⁵. وورد في الرسالة الثانية ما مضمونه: (ثم إذا كان في الالتفات إليهم مانع على الفوز بالمساعي الناجحة والمتاجر الرابحة ثم إذا كان في الالتفات إليهم مانع وعن الإقبال إليهم قاطع فأشيروا عليهم بالتوجه إلى هذه البلاد الشامية فإن الأسباب المعاش (كذا) ضافية)⁶.

أما بخصوص مساعدتهم على الهجرة إلى الأستانة فيذكر الباحث العياشي رواجي: (قدّم يد المساعدة إلى محمد بن أحمد عبد بن عبد السلام المقراني نجل خليفته السابق، ورّتب له كل اجراءات السفر إلى دمشق، وتوسط له لدى سلطات الدولة العثمانية التي دعتة إلى الإقامة في القسطنطينية بأمر من السلطان العثماني عبد العزيز الذي خصص له منحة استمر العمل بها إلى غاية عام 1883 تاريخ وفاة الأمير عبد القادر، الأمر الذي أجبره على العودة إلى تونس)⁷.

¹ - يحي بوعزيز: حياة كفاح...، المرجع السابق، ص325.

² - المرجع نفسه، ص324.

³ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص165.

⁴ - المرجع نفسه، ص169.

⁵ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص162.

⁶ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص324.

⁷ - العياشي رواجي: المرجع السابق، ص367.

مما سبق ذكره نلخص إلى جملة من النتائج التي يمكن حصر أهمها في العناصر التالية:

1- التباين بين الباحثين حول خلفاء الأمير عبد القادر بمجاعة، فنجل الأمير محمد في تحفته يذكر لنا ثلاثة خلفاء هم: محمد بن عبد السلام المقراني ثم السيد محمد الخروبي القلعي، ثم السيد محمد بن عمر العيسوي¹. والمرجعيات التي عدنا إليها اعتمدت في نظرنا على هذا التصور الثلاثي²، وبعضها يذكر خليفتين فقط كإسماعيل العربي الذي ذكر في موضع آخر له: (ولما اتسعت المملكة في الاتجاه الشرقي، أنشأت ولاية مجاعة، وعاصمتها سطيف، تحت خلافة محمد بن عبد السلام المقراني، ثم محمد الخروبي القلعي³). أما الباحث عبد القادر زاير وفي معرض حديثه عن خلفاء الأمير؛ أشار إلى خليفة واحد وباسم مختلف: (تعيين الخليفة عبد السلام بن طوبال المقراني في 07 جانفي 1838م على مقاطعة مجاعة)⁴. وبغض النظر عن هذا فإن الحضور المقراني في مقاومة الأمير كان موجودا وبقوة في شكل محمد بن عبد السلام المقراني ومن يعاضده من قبائل المنطقة الموالية له.

- إذا كان الأمر واضحا بخصوص الخليفة محمد بن عبد السلام المقراني، والخليفة أحمد بن عمر (عمار)، وموقعهما في مقاومة الأمير عبد القادر، فإن الأمر لا يزال غامض حول الخليفة الخروبي من حيث تاريخ تعيينه ومدة ولايته والخدمات التي قدمها للأمير في مقاطعة مجاعة.

2- مرور الفرنسيين عبر مضيق الببيان لم يكن بسبب قوة الجيش الفرنسي بل يرجع إلى سببين رئيسيين: بداية بالتشجيع الذي لقيه قادة الجيش الفرنسي في تسهيل عملية المرور، من طرف الحانقين والحاقدين على الأمير وخليفته بالمنطقة، حسب الأمير نفسه من دون أن يذكر لنا أسماء هؤلاء المفسدين: (إلى أن زَيْن له المذكورون المبالغون في ارادة المقاطعة بيننا وبين الفرنسيين وليس لهم ربح ولا رأس مال إلا ما فيه تلك الخسارة)⁵. إضافة إلى المكر أو الخديعة التي قام بها اليهودي "بوردين" من خلال عملية التقليد والتزوير التي طالت ختم الأمير الذي استخدمه "فالي" جواز لعبور منطقة الببيان.

3- تداول خلفاء الأمير على مقاطعة مجاعة مُلفت للانتباه، وما نفهمه من ذلك حرص الأمير على عدم خروج المقاطعة من يد المقرانيين -على الرغم من محاولة البعض اقصائهم- والعمل على ابقائها في يد العناصر المخلصه له: الخروبي، أحمد بن عمر، نظرا للتهديد الذي كانت تشهده مجاعة من قبل العدو الفرنسي والأعوان المواليين له.

4- مراسلات الأمير عبد القادر للسلطات التونسية في شأن المهاجرين الجزائريين عموما والمقرانيين خصوصا بعدما أملت بهم المحن وضائق بهم السبل، وهو بمنفاه بدمشق بعيدا عن أرض الوطن، تعكس لنا حرص واهتمام ومتابعة الأمير لكل ما كان يجري في الجزائر وخارجها. فالأمير كما يذكر سعيدوني كان مُتجاذبا مع حاجات عصره ومُتطلبات بيئته، وتحكمت في موقفه هذا المصلحة العامة للمسلمين، التي جعلته يستغل مكانته للتوسط لكل مضطهد أو مأسور سواء كان في داغستان كالإمام شاميل⁶ أو في بلاد

¹ - محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر، ج1-2، ط2، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار القبطة العربية للتأليف والترجمة والنشر، 1964م، ص306، عنه الأمير عبد القادر كتابة الديوان الأميري بعد السيد أحمد بن علي بن أبي طالب، والسيد مصطفى بن أحمد التهامي ... وعين بعدهما للكتابة السيد محمد بن الخروبي ثم نقل إلى سطيف (كذا)، ص308.

² - نذكر من أهمها: أديب حرب: التاريخ العسكري والإداري، ج2، ص52، سميح بن السعدي، المختصر في تاريخ زمورة، ص64، اسماعيل العربي: (حكومة الأمير عبد القادر ادارتها ومهامها)، الثقافة، ع75، ص222.

³ - اسماعيل العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص220.

⁴ - عبد القادر زاير: المرجع السابق، ص104.

⁵ - مذكرات الأمير عبد القادر، ص116.

⁶ - بوعلام بسايح: الإمام شاميل بطل الشيشان والقوقاز، ترجمة أحمد بن محمد بكلي، دار القصة، الجزائر، 2009م، ص210-214.

المغرب كمحمد الكبلوتي وابن طاهر رزقي وابن ناصر بن شهرة¹ الذين راسل الأمير في شأهم بايات تونس ووزرائها وكان له تأثير كبير في إطلاق سراحهم².

- الحضور المقراني في مراسلات الأمير كان قويا ومُعْتَبَرا، يعكس لنا موقعهم المتميز في فكره؛ فمثلا محمد بن بوزيد المقراني يحتل عنده مرتبة الولد الشريف الأثيل³؛ وعندما خصّ بالذكر الفئة المقرانية وأولاد يلس فهذا ليس من باب الصدفة؛ بل قصده واضح يعكس حظوة ومكانة المقرانيين في فكره، كما لم يستثن في مراسلاته المقرانيين الذين لم يقفوا إلى جانبه أثناء مرحلة المقاومة؛ ومما يوحي به خطابه: إن المقرانيين الذين لم يقفوا إلى جانبه لم يكونوا موالين لفرنسا بقدر مولاة قادتهم المغرّر بهم؛ وعليه فنخطاب الأمير جاء حاليا من أي سلوك أو لفظ يشير إلى روح الانتقام والانتصار للذات.

- إذا كان الأمير عبد القادر كما يذكر البعض وقّافاً عند حدود الشريعة الإسلامية، فهو أيضا وفيما ومخلصا لشعبه عموما وللذين وقفوا إلى جانبه في المقاومة المسلحة خصوصا؛ وموقفه هذا يندرج ضمن القيام بواجب رد الجميل الذي يُعد في نظرنا أقصى ما يستطيع الأمير فعله لهم، ورغم ذلك فلقد لقيت رسائله صدى كبير لدى مخاطبيه؛ الشيء الذي يعكس لنا أيضا مكانة الأمير وعُلو شأنه وقدره لدى من خاطبهم من رجال السلطة في تونس.

5- استغلال الأمير لنفوذه الروحي والسياسي ومكانته العلمية في السياق الإيجابي، وفي خدمة المصلحة العامة لشعبه ووطنه رغم حياة المنفى، وتُبعد المسافة، وتقدمه في العمر، فهو لم ينس أن له وطن مأسور وشعب مكلوم لا يزال يئن تحت وطأة المستعمر الفرنسي.

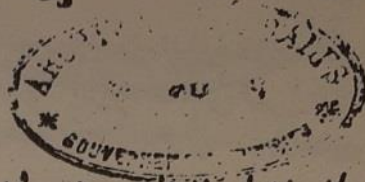
¹ - عيسى بوقرين: انتفاضة ابن ناصر بن شهرة 1851-1875م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2010م، ص149، حيث توسط له لدى الوزير خير الدين لتسهيل بيع أملاكه في تونس رسالة مؤرخة في 08 محرم 1293هـ/ 04 فيفري 1876م.

² - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص205.

³ - الأثيل: المتأصل في الشرف، المتحذر في الأرض، يراجع: المنجد في اللغة والأعلام، ص3، حرف الألف.

صلى الله على سيدنا محمد وآله

المحرلة وحره



السوزير المعظم والجناب العليّ ومدرّس الامور امام الجماعة بين مرتبة العلم والعلم امير دام الباشا
السير خير الدين باشا اما بعد السلام التام اليك بالحق فبانت الخيرة والمجولة وزجعت واليه ان
تكونون انتم كذلك بعدا اوانه بلغنا خبر وصول الفقة المقرانية وادراك يلس الى الحضره ملحقين
الى سطحتنا الفقة فدى افوى ما يثبت به الملقني ازره ويعضد امرهم به بعدا شك محصور
باجتماعهم كظهوره ان شاء الله بفتح مرادهم وكيف اوفد املا دولته لم نزل وانزال ماوى
الفاصد ومجمل الشارده ومورد اعزها للصادق والوارد ومع ذلك كما فخلنى كتابنا بعدا امن
تقديم الرجا الى مقامها (ما سملوا والتوصية التابعة الى جنابها لاسى بان نعلمهم بلغة
فقلهم من غوايل الدوم وتنغزهم من ترك الكور والقيم فابنه ما صرعى اعشهم (ما الى التما
فخير ما واكحارت فلوهم (ما قينا بطير دعاو اشترافا لم الله عين اجاضلها وواسطة
عقد اما ثلها فخر غب اليكم المساعرة به نيل ما املاوه وبلوغ ما سالوه بعدا اخلا فتا عدا الام
الموفت وتبر الامرهم من اللوم المقت (ما باشيرى عليهم بالتوجه الى بقرة (ما فطار عدى
البير ان ييسر عليهم ميا بلوغ (ما وكحارت ان عوز ولنا السيد محمد بن العفسي ما دخل
علينا وانزدد البنا (ما وهو يزك من فراياكم السنه وسماياكم البقية ماما العلوب
حيرة والمصامع مسرة بالمرجو منكم ومن سنه فمفكم ان تا احضوه بعين العفة وتعاملوه
معاملة (ما حبة فابنه بذلك جريرو الله ولى التفسير والس

الخ
محمد نفاذ العفسي



بمؤرخة
البريد

¹ - أحمد توفيق المدني: (الأخوة الجزائرية التونسية أواخر أيام الأمير عبد القادر)، المرجع السابق، ص 162.



المولود محمد
و على الله على بينك ومولانا محمد و الله العبد المخلص

ما روض معتز الميا سم معطر الرياح النواسم فوالجمع الربيع غصونه برودا خضرة وجعل
اشرافه للشمس ضرة وازاهيره تنبيه على الكواكب وتختال في خلع الغمام السواكب
يا بهي من اهواء سلاخ ونخبات عظام وروع ادعية ونبث انشيد الى حضرة سيادة
من سبقه منهار الوزارة الحلبه وروع من الامارة العظيمة وروع الراية وبلغ من
راحسان الغايه بطارت معافره كل مطار وتغني بها ركب البلد وهادي الفطار
سعادة الوزير الاكبر ورا امير الاشهر السيد مصطفى ابرحت الايام بوجوده باسمه
ورباح اقباله بالمسرة ناسمه اما بعد ما لباعث على تسليطها والاحمال على وشبهه وتجيرها
الحما جظته على العود والوعاء بحيث لا يكر من شرا لا ما راى وصبا والمما مول
ان تكون السيادة كذلك سالكة في محافلها احسن المسالك هذا والسنة
الافان والمهاجرين نافة بطرقكم لم تنزل تلحج بخصالكم المحمديه ومزاياكم العريده
التي جل فرها وسار مسير الشتم من كرها ولما تكرر ثناؤهم عليكم بالغيب ارسالا
كانا هب صبا او ثملا لا وجب علينا ان نعلمكم بكمالهم من الانقطاع الى جوتكم
والتحيز الى جيتكم وان اذكركم باحوالهم نذكره حسنة لتعاملوهم بفتظاهها
المعاملة المستحسنه جريا على ما العود من اوضاعكم واحسانكم وابقاء لمسا
نعود و من اجمالكم وامتنانكم واشك ان هذا عند الله تعالى موالاتهم العاليه
السينيه والمسا على الناحية البهيه وسيا دنكم ابغالم الله الموثوق بوجابه
وشره المسكون الى سرد افنه وطرفه ولن ازال العالم بحفكم ومقداركم المقيم على
الرعا لكم اوقات الاجابه والامالي المستطابه ودمتم

الراعي المخلص
عبد القادر المحسن



١٢٨٨
سنة اشوال

¹ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 165.



وطل الشلي سيلا ومولانا محمد بن عبد الحميد

المجدد

ما ررض بغير المباسم معطر الرياح النواسم بالبهوس سلام ساحل نور
متقاه كقوة الحفرة من طارت بحدرة كل مطار وتغنى بدو الجحدر
الملك وصاحب القطر سيادة الوزير الأعظم والمستشار الأمير
الأمراء السيد خير الدين لزال واري زينو السعد فريش القشره والمجد
اما بعد بما باغت على تسطيره والموجب لتحريره المحاطة على المودة
والعيا بحيث لا يتكدر من شراب المحبة ما راي وصبا والماسول ان تكون
السيادة كذلك هذا وان السيفه لا فارت وكافة المهاجرين بذلك
الطرف لم تزل تلهمج بالكم من الخصال الحميدة والنزاهة العديده
وما اتاني تشاؤهم عليكم أرسالا لا نالها هبت صبا او شملا لا لزوم ان اعلمكم
بكانهم من الانقطاع الى جهنمكم والتخيز الى جنتكم وأن اذكركم بهم تذكروا
حسنه لتعاملوهم بفتخا صا المعاطاة المستحسنه جريا على ما
العبء من احسانكم وإبفاء لما نالوه من ابرخالكم وامتنانكم ورائد
ان هذا من الاعمال الطالحه وامنى الماعى الناجحه وحسبكم فخرا
ان الحق تعالى انجكم بنجته أنصاريه وجمل موطنكم بما تجملت
به طبيعة البهيم بسارت ركبان المهاجرين بشايتكم وشملت
خواطرهم بحبة علايتكم وبنجكم لكر على هذه المنفعة العظيمة
والكرامة الجسيم ولا زلتهم ولا تزالون حاضرين لرب الكمال وعلى مشرع
بحيدكم تحوم طيور الآمال بينه وكرمه من في الجنة الداعي الخليل
عبد القادر الحسنى



¹ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 168.

أبو التقى المقراني أول شيوخ مجانة (ت 1680م)

مصطفى بن عرب - جامعة المسيلة

بلغ المغرب الأوسط أواخر العصر الوسيط مرحلة متقدمة من الضعف والتزلزل السياسي والعسكري ظهر جليا من خلال الوضع المتأزم الذي وصلت إليه الدولة الزيانية، والتي أصبحت منهكة وخائرة القوى بشكل واضح منذ أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلادي جراء صراعهما الطويل مع الجارتين الحفصية بتونس والمرينية بالمغرب الأقصى، وبذلك جهودا حثيثة في سبيل إخماد الثورات والتمردات القبلية داخل المغرب الأوسط ناهيك عن استفحال ظاهرة الصراع الدموي على عرش المملكة بين أمراء بني زيان. كل هذا جعل الدولة المركزية عاجزة تماما عن حماية الموانئ والمدن الساحلية من هجومات الإمبراطورية الأسبانية، والتي سقطت تباعا في أيديهم مطلع القرن السادس عشر الميلادي على غرار المرسى الكبير ووهران وبجاية وجيجل، وغير قادرة أيضا على فرض سيادتها وسلطتها على المجال الجغرافي للمغرب الأوسط، والتي لم تعد تتجاوز على الأكثر مدينة تلمسان وأحوازها.

ففي ظل هذه الظروف الصعبة تمكنت بعض الأسر والشخصيات الدينية والتكتلات القبلية من بعث إمارات ودويلات استقلت ببعض أقاليم المغرب الأوسط، والذي أصبح عبارة عن فسيفساء من الدويلات والإمارات المستقلة تحت نفوذ الأولياء الصالحين والمرابطين والشرفاء من جهة، واستبداد الولاة ورؤساء القبائل وشيوخ الجهات وولاة النواحي وقادة الجيش من جهة ثانية، فأصبح الوضع شبيها إلى حد ما بملوك الطوائف بالأندلس¹، ومن بين هذه الدويلات إمارة المقرانيين التي نجح مؤسسوها في حيابة نطاقا جغرافيا واسعا ببايلك الشرق مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، فبرز من آل المقراني قادة وأمراء أتقنوا ممارسة السياسة والحرب، واهتموا في نفس الوقت ببناء الزوايا وتحصيل العلوم واستقبال الطلبة، فكان منهم الشيخ سيدي أبو التقى المقراني فما هي الظروف التي تولى خلالها شؤون الإمارة؟ وإلى أي مدى نجح في التوفيق بين السياسة والعلم؟ ولماذا يرتبط تاريخ مجانة وبرج بوعرييج بشخصه أكثر من غيره من أمراء المقرانيين؟

1- المقرانيون النسب والإمارة:

أ- نسب المقرانيين:

كثيرا ما تتعدد الروايات حول أصول الأسر الحاكمة أو الفقهاء والمتصوفة والعلماء، ومن ذلك الاختلاف حول نسب المقرانيين، لكن الطرح الأكثر تداولاً لدى الباحثين هو انتسابهم لآل البيت الشرفاء، فيشير الحسين الورثياني إلى نسبهم الشريف اعتمادا على طبقات ابن فرحون في سياق حديثه على سيدي أحمد بن عبد الرحمن². حيث يرجعهم البعض إلى الأدارسة أشرف المغرب الأقصى الذين كثيرا ما اضطروا إلى مغادرة المغرب الأقصى في أوقات الإضراب السياسي والعسكري للبحث على أماكن أكثر أمنا واستقرارا، وينتمي المقرانيون بذلك إلى سلالة سيدي بوزيد بن إدريس الثاني³، ويضيف الأستاذ مزيان وشن بأنهم ينحدرون من فروع سيدي

¹ - حول ضعف الدولة الزيانية وتعدد الدويلات بالجزائر، ينظر: (محمد مختار حساني: تاريخ الدولة الزيانية - الأحوال السياسية -، ط1، ج1، دار الحضارة، الجزائر، 2007م، ص45-48، أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ط1، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ص58-63، مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القدم والحديث، ج3، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م، ص1046-1048).

² - الحسين الورثياني: نزعة الأنظار في فضل علم التاريخ والخبار، تحقيق محمد بن أبي شنب، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1974م، ص36؛ جملة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري (من القرن 10هـ-16م إلى القرن 13هـ-19م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2015م، ص53.

³ - مزيان وشن: مجانة عاصمة إمارة المقرانيين ثلاثة قرون من النضال السياسي والجهاد العسكري القرن 16-19م، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م، ص69-70؛ نبيل بومولة: صفحات من تاريخ بجاية في العهد المقرانيين في القرن 10هـ/16م، دار هومة، الجزائر، 2013م، ص53.

بوزيد، والذي انتشرت سلالة بالمغرب الإسلامي منذ العاشر الميلادي، وكان لسيدى بوزيد أربعة أبناء هم: علي وعبد الله ومحمد وعبد الرحمن¹، وقد استقر هذا الأخير في منطقة بجاية².

أما يحي بوعزيز فيرجع نسبهم إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنهم من قبيلة عياض من الأتيج الهلالية الذين استقروا بعد الهجرة الهلالية منتصف الحادي عشر الميلادي بـجبال المعاضيد شمال المسيلة وجنوب شرق برج بوعرييج. فرما ينتمي المقرانيون إلى بني عبد السلام رؤساء أولاد حناش بطون عياض أو لبني عباس ابن خفير من بطن الخراج وهو الأقرب³، وارتبط بذلك تاريخهم بالأمراء الحماديين الصنهاجيين بعد هجرتهم إلى بلاد المغرب الإسلامي، واستقرارهم قرب عاصمتهم القلعة بالمغرب الأوسط⁴، وفي المقابل نجد روايات أخرى تنسب المقرانيين إلى الحفصيين تارة، وإلى قبائل العمور العربية تارة أخرى أو إلى قبيلة بني عباس⁵ البربرية⁶. وبالنظر للمكانة الاجتماعية والسياسية التي حظي بها المقرانيون بين قبائل المنطقة وأعراسها واهتمامهم بالعلوم الدينية، فإننا نميل لنسبهم الشريف، فلطالما تمتع الشرفاء في كامل بلاد المغرب بالتوقير والاحترام مع حرصهم على تأسيس الكتابات والزوايا، والقيام بحركات الإصلاح الديني والاجتماعي، وهو ما يتوافق إلى حد كبير ومكانة أسرة المقراني، ودورها الذي لعبته في المنطقة طيلة قرون من الزمن⁷.

ب- إمارة المقرانيين التأسيس والموقع الجغرافي:

ترتبط إمارة المقرانيين بعبد الرحمن باعتباره أول الوافدين من الأسرة إلى منطقة القبائل وجبال الببيان في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، والذي استقر بعد فترة من وصوله بنواحي بني عباس داخل المنطقة الجبلية الغربية على الضفة اليمنى لواد الساحل⁸، وبعد وفاته خلفه ابنه أحمد الذي تلقب بالسلطان، وأطلق على المجال الجغرافي الخاضع لنفوذه اسم السلطنة⁹.

¹ - وهو في بعض المراجع أحمد بن سيدي بوزيد فتفرق أبناء أحمد بشرق الجزائر، فمنهم فرقة بأرض القبائل يدعون ولاد سيدي عيسى، بجبل ونوغة ومنهم أولاد محمد بن مرقان ومنهم أولاد عنان، وفرقة استقرت بنواحي باتنة، ينظر: (جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 53-54).

² - مزيان وشن: المرجع السابق، ص 70.

³ - عبد الرحمن ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ط2، ج6، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1988م، ص33؛ يحي بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين (ثورة الباشا محمد المقراني والشيخ الحداد عام 1871م)، المجلد2، البصائر الجديدة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2013م، ص43.

⁴ - مزيان وشن: المرجع السابق، ص70؛ مولود قايد: المقراني، ترجمة سهيلة بربارة، ط1، منشورات ميموني، برج بوعرييج، 2013م، ص15-16.

⁵ - قبيلة بني عباس: لعبت هذه القبيلة دورا أساسيا في قيام إمارة المقرانيين، وهي من القبائل البربرية تنتمي لسديوكش إحدى بطون كتامة، ينظر: (عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص196-197، مارمول كرنحال: إفريقيا، ترجمة وتحقيق محمد حجي ومحمد زينب وآخرون، ج2، دار نشر المعرفة، الرباط، 1989م، ص385؛ نبيل بومولة: المرجع السابق، ص51).

(Ch) Féraud: Histoire des villes de la province de Constantine <Bordj Bouarriridj>, IN Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine, n°15, Paris, 1871, p. 185

انقسمت قبيلة بني عباس خلال العهد الفرنسي إلى عدة دواوير وهي: تازمالت، تيقرين، بوني، موكا وتعرف أيضا آيت عبد الله.

F. Accardo : répertoire alphabétique des tribus-douars de l'Algérie, le monde de savoir, Alger, 2013, p.24

⁶ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص54؛ مزيان وشن: المرجع السابق، ص73-74؛ نبيل بومولة: المرجع السابق، ص54-56.

⁷ - نبيل بومولة: (الأصول الشريفة للعائلة المقرانية والحياة العلمية والثقافية بقلعة بني عباس خلال القرن 10هـ/16م)، بحوث ودراسات تاريخية مهداة للأستاذ محمد الصغير غانم، منشورات مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية، ع06، 2019م، المسيلة، ص144.

⁸ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص45-46.

⁹ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص57.

في عهد عبد العزيز بن أحمد أصبحت قلعة بني عباس¹ عاصمة لإمارة المقرانيين، والذي أسس العساكر وجيش الجيوش، وأخذ المعرم في القرن السادس عشر الميلادي، ووصلت جيوشهم إلى عمالة تونس ووادي ريغ جنوبا، وميزاب وبلد الأغواط غربا². وعموما تمكنت أسرة المقراني مع بداية الحكم العثماني للجزائر من فرض سلطتها على غرب بايلك قسنطينة ليشمل المنطقة الممتدة من جبال بابور شمالا حتى الزاب جنوبا، وبذلك شارك المقرانيون زعامة أرياف البايك مع كل من أسرة بوعكاز في جنوب البايك وأسرة أحرار الحنانشة بالشرق³.

2- الشيخ أبو التقى:

أ- المولد والنشأة:

هو بتقة بن ناصر بن أحمد أمقران بن أحمد العباس بن عبد الرحمن، وهو الابن البكر لناصر أمقران، يطلق عليه أبو التقى وأبي التقى إلا أنه يعرف أكثر بين الناس وإلى يومنا هذا باسم سيدي بتقة. أمه زنجية من قبيلة الحشم⁴. قتل والده غدرا بمكيدة دبرها شيوخ الأشراف والقادة والتجار من قلعة بني عباس حسدا منهم لزهدي ناصر وورعه، وربما بتحريض من الأتراك، والذي يهمن أن سي ناصر هو آخر من تولى شؤون الإمارة المقرانية انطلاقا من قلعة بني عباس كعاصمة ومقر لحكم المقرانيين⁵، ونتج عن مقتله أيضا تشرد عائلته وتفرق من نجى من أبنائه وأزواجه، فتوجه اثنين من أبنائه مع والدتهم إلى مدينة بجاية سرا تحت حماية بعض الموالين والأتباع في حين لجأت والدته سيدي بتقة وابنها عند أهلها وذويها بمحانة⁶ الذين تولوا رعايته وحمايته⁷. وقد تزوج سيدي بتقة من قبيلة أولاد ماضي بالحضنة⁸، وخلف أربعة أبناء وهم: بوزيد، عبد الله، عزيز، محمد قندوز، وقد تولى الحكم من بعد سيدي بتقة بشكل رسمي ابنه البكر بوزيد بداية من سنة 1680م، ومن هؤلاء الأربعة تفرعت أسرة المقراني في مختلف أنحاء المنطقة⁹.

ب- الحياة السياسية:

من الطبيعي أن يكون لسيدي بتقة شأن ودور في الحياة السياسية بمنطقة البليان، وما جاورها باعتباره سليل أسرة أميرية، ومن المعروف أنه نجى ووالدته بعد النهاية المأساوية لوالده سي ناصر، وتشتت العائلة بين بجاية ومحانة، فاستقر سيدي بتقة كما قلنا سابقا

¹ - قلعة بني عباس: تقع القلعة في جبل شديد الانحدار متصل بالأطلس الكبير يبعد عن بجاية بخمسة عشر فرسخا من جهة الغرب والجنوب، فهي في مكان منع يسكن بها أمراء بني العباس من المقرانيين، وقد وصف حمدان بن عثمان خوجة صعوبة الطريق المؤدي لمدينة قلعة بني عباس فلا يتم الوصول إليها إلا بشق الأنفس، ينظر: (مارمول كريخال: المصدر السابق، ج2، ص385، حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تحقيق محمد العربي الزبيري، منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006م، ص29؛ يوسف بنوجيت: قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر الميلادي، ترجمة سامية سعيد عمار، دار دحلب، الجزائر، 2007م، ص19-20).

² - الحسين الورثياني: المصدر السابق، ص36.

³ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص52.

⁴ - هناك من يجعل أحوال سيدي بتقة وأمه من قبيلة الحشم، والتي تمثل حرس المقرانيين وخاصة فرسانهم، والأكثر ولاء ووفاء لهم منذ أن استقدمهم عبد العزيز المقراني الذي شارك في حملة عسكرية مع الجيش العثماني ضد أمراء بني زيان سنة 1550م، وفي طريق عودته من تلمسان استأجر سيدي عبد العزيز نحو 200 فارس من الحشم واستقر بهم في محانة، ومنحهم السكن والأراضي واستخدمهم للحفاظ على النظام وجمع الضرائب، ويرجعها البعض الآخر إلى قبيلة هشام أو هاشم، ينظر: (صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م، ط2، دار هومة، الجزائر، 2007م، ص108؛ يوسف بنو جيت: المرجع السابق، ص198؛ مولود قايد: المرجع السابق، ص21؛ جميلة معاشي: المرجع السابق، ص60).

⁵ - الحسين الورثياني: المصدر السابق، ص36؛ مولود قايد: المرجع السابق، ص21؛ نبيل بومولة: صفحات من تاريخ بجاية...، المرجع السابق، ص88-89؛ يوسف بنوجيت: المرجع السابق، ص197-198.

⁶ - محانة: مدينة عتيقة على أربع فراسخ من جبل بني عباس من جهة الجنوب يظهر أن بناءها كان على يد الرومان، فهي محاطة بأسوار قديمة وبها عدد من السقايات ويحيط بها بسيط يكثر به القمح، ينظر: مارمول كريخال: المصدر السابق، ج2، ص382.

⁷ - مولود قايد: المرجع السابق، ص31-32؛ يوسف بنوجيت: المرجع السابق، ص198.

⁸ - مولود قايد: المرجع السابق، ص32؛ صالح عباد: المرجع السابق، ص108.

⁹ - مولود قايد: المرجع السابق، ص35.

في مجانة، وهو طفل حديث السن لعدة سنوات بين أخواله. وأخلص أتباع المقرانيين وأكثرهم وفاء من فرسان الحشم¹، والذين انتظروا اشتداد عود سيدي بتقة واسترجاعه لثروة الأسرة ونفوذها وقوتها السابقة وقدرته على تحمل المسؤولية، فتمكنوا في بادئ الأمر من فرض سيدي بتقة على رأس العائلة ومحاربة كل من يعارض ويعادي تجدد حكم المقرانيين²، وهو ما سهل حصول سيدي بتقة على اعتراف ثمين من السلطات التركية بمشيخته وزعامته لا سيما بعد الدعم الذي لقيه من قبل قبيلة أولاد عياد³ بقيادة سي سليمان، ومصاهرته للقبيلة القوية أولاد ماضي⁴، فساهم هذا الزواج السياسي في امتداد سيطرة سيدي بتقة إلى منطقة الحضنة وأولاد نايل⁵، وقد اتخذ سيدي بتقة من مجانة عاصمة لإمارته ومقرا لأسرته وشيوخ العائلة ومستشاريه⁶ متخليا عن لقب سلطان القلعة الذي حمله أبوه وأسلافه عندما كانت قلعة بني عباس عاصمة لهم.

وتولى بذلك سيدي بتقة منصب شيخ مجانة⁷ ليكون أول شيخ من المقرانيين يتولى أمور الإمارة انطلاقا من هذه المدينة⁸، وهو ما يجعل من فترة حكمه بمثابة الدور الثاني في تاريخ الإمارة بتراجع مكانة ودور قلعة بني عباس كمركز ثقل سياسي وعسكري وديني مقابل تعاظم مكانة وأهمية مجانة العاصمة الجديدة للمقرانيين، وهو الدور الذي حافظت عليه إلى نهاية ثورة محمد المقراني الباشاغا الثائر على الاستعمار الفرنسي سنة 1871م⁹، ويقدم مزيان وشن أسباب أخرى دفعت المقرانيين إلى تغيير مقر حكمهم ذلك أن النشاط الواسع والمكانة السياسية والاقتصادية التي بلغتها الإمارة جعلتهم يفكرون في اتخاذ عاصمة أخرى تكون أكثر تفتحاً وسهولة المعابر، فوقع الاختيار على مجانة الواقعة بين السهول الفسيحة الخصبة المشهورة منذ القدم، ولكونها قريبة من الطريق الرابط بين بايلك الشرق قسنطينة ودار السلطان بالجزائر العاصمة¹⁰.

تعكس هذه المميزات الطبيعية والاستراتيجية للعاصمة الجديدة مدى حنكة سيدي بتقة، وحسن اختياره لموضع عاصمته الجديدة رغم الوضع السياسي والعسكري الشائك الذي تولى خلاله شؤون الإمارة. حيث اهتم الأمير الشاب أولا بإعادة ترتيب الشؤون الداخلية لإمارته، فأمر سيدي بتقة بمحاربة العشائر المتواجدة على الجانب الأيسر من وادي الصومام، والتي كانت ترفض دفع الإتاوات المفروضة عليها¹¹ ليؤكد بذلك عودة الإمارة في بسط نفوذها وهيمنتها السياسية والعسكرية والاقتصادية على جميع القبائل والأعراف والمناطق التي خضعت سابقا لحكمهم، كما شن الأمير الشاب أيضا حربا ضروسا على بني عباس للانتقام لوالده المغدور، ولتسببهم في قطع إمارة المقرانيين لعدة سنوات، فنجح في طردهم كليا من مجانة مع فرضه حصارا شديدا على بني عباس بجبالهم، ومنعهم من التنقل بين القرى والمدن المجاورة، فضاق الحال ببني العباس وانخفضت مواردهم وحاجياتهم الضرورية، والتي لا يمكنهم في كل الأحوال تأمينها من جبالهم فحسب، فاضطر بنو العباس لطلب الصلح والصفح من سيدي بتقة والتوسل من أجل عودتهم

¹ - Féreaud, op .cit, p.240.

² - Ibid, p.240.

³ - أولاد عياد: تعد من القبائل التي كانت تسكن بمجانة إلى جانب أولاد خلوف وهاشم، ينظر: (جميلة معاشي: المرجع السابق، ص153).

⁴ - مولود قايد: المرجع السابق، ص32؛ صالح عباد: المرجع السابق، ص108.

⁵ - Féreaud, op .cit, p.240.

⁶ - مولود قايد: المرجع السابق، ص35.

⁷ - Féreaud, op .cit, p.241.

⁸ - عزالدين بلمولود: أعلام من برج بوعرييج من القرن السادس إلى القرن الخامس عشر هجري / من القرن الثاني عشر إلى القرن الواحد والعشرون ميلادي، طبع بدعم من محافظة المهرجان الثقافي المحلي والثقافات والفنون الشعبية لولاية برج بوعرييج، الجزائر، 2010م، ص24.

⁹ - نبيل بومولة: صفحات من تاريخ بجاية...، المرجع السابق، ص90-92.

¹⁰ - مزيان وشن: المرجع السابق، ص82.

¹¹ - مولود قايد: المرجع السابق، ص35.

لطاعة المقرانيين، فتقبل سيدي بتقة اعتذارهم بعد الحاحهم وإصرارهم وقبولهم كل شروطه، فأوقف قتالهم وسمح لهم بحرية التنقل لكنه رفض أن يسترجعوا ممتلكاتهم في مجانة، وبذلك أعاد سيدي بتقة الجبل ومواطن قبيلة بني عباس من جديد لطاعة المقرانيين¹.

لم تنته المشاكل الداخلية لسيدي بتقة بإعادة بني عباس لطاعته، فسرعان ما تصدع التحالف الذي جمعه بقبيلة أولاد ماضي بسبب تدخل صهره في كل شؤون الإمارة، وعمله على لعب دور المستشار لصهره الشاب، وهو الوضع الذي رفضه سيدي بتقة، فوضع حدا لتصرفات صهره والتي أثارت حفيظته، فدبر مع مجموعة من فرسان أولاد ماضي مكيدة لقتل شيخ مجانة خلال رحلة للصيد نجا منها سيدي بتقة بأعجوبة ليقرر بعدها تأديب القبيلة، وهو ما تم فعلا بانتصاره عليهم في معركة قرب مجانة أنهت على ما يبدو تمرد أولاد ماضي ليستمر حكم سيدي بتقة مدة طويلة على كامل المجال الجغرافي الخاضع لسلطة المقرانيين² هذا في الشأن الداخلي للإمارة. أما عن دورها وتفاعلها مع الأحداث المحيطة بها خلال تولي سيدي بتقة، فكان أهم حدث خلال فترة توليه الإمارة هي ثورة أحمد بن الصخري على الحكومة التركية، والتي تعد أهم وأشمل ثورة واجهها العثمانيون منذ بداية حكمهم للجزائر³.

والتي جاءت كرد فعل على قتل مراد باي (1622-1637م) حاكم قسنطينة لشيخ العرب محمد بن الصخري بن بوعكاز وأحد أبنائه وبعض الشخصيات من زعامات العرب وشيوخهم، فحشد شقيقه أحمد بن الصخري القبائل للثورة وذلك سنة 1638م⁴، وهي الثورة التي ساندتها سيدي بتقة بن ناصر المقراني رغم علاقاته الحسنة مع الأتراك بإرساله فرقة من فرسان الحشم يقودها خالد المقراني أحد أفراد الأسرة الحاكمة⁵، وفي العام الموالي أي سنة 1639م وبعد استئذان يوسف آغا الحملة ضد الدواودة والحنانشة المشاركين بقوة في ثورة أحمد بن الصخري استنجد هؤلاء بآل المقراني، والذين سارعوا بدورهم لدعمهم ومساندتهم فانتهت الحملة التركية بالفشل⁶.

ج- الحياة العلمية:

مما لا شك فيه أن حكم أسرة المقرانيين تأسس منذ البداية على عامل الدين ذلك أن نفوذ زعمائها كان نفوذا دينيا في أساسه، ونشأ من التفاف القبائل والأتباع حول زاوية الأسرة التي كانت مقصدا للطلاب والعلماء من مختلف جهات الوطن⁷، فكان من بين أهم الأعمال وأولها التي قام بها عبد الرحمن الجد الأول للمقرانيين عندما استقر بأراضي قبيلة بني عباس بناؤه لمدرسة قرآنية، والتي سرعان ما جمعت الكثيرين من أتباعه ومريديه⁸ أما ابنه وخليفته من بعده في مشيخة الأسرة أحمد فوصف الورثيلاي قبره بقوله: (الولي الصالح والبدر الواضح تزيق وطنه وأمير بلده، وأنه كان تلميذا عند الشيخ سيدي يحيى العيادي)⁹، فكانت خاصيته الورع وميزته التصوف الحسن واللين¹⁰، وسار سي أحمد على نهج والده فبنى مدرسة جديدة قرب منطقة الشواريح لنشر العلم وتعليم الصبيان

¹ - Féreud, op .cit, p.241.

² - Féreud, op .cit, p.242-243-244-245.

³ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص337.

⁴ - يؤكد فيرو مشاركة المقرانيين ولعبهم دورا هاما في التمرد الكبير الذي أطاح بالقوة العثمانية في منطقة قسنطينة سنة 1638م، وأن الاستقلال الذي عاشته إمارة المقرانيين بعد هذه الثورة تؤكد هذا الرأي

Féreud, op .cit, p.245.

⁵ - مولود قايد: المرجع السابق، ص33-34، جميلة معاشي: المرجع السابق، ص340؛ صالح عباد: المرجع السابق، ص108.

⁶ - مولود قايد: المرجع السابق، ص35.

⁷ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص57-58.

⁸ - المرجع نفسه، ص55.

⁹ - الحسين الورثيلاي: المصدر السابق، ص11.

¹⁰ - نبيل بومولة: صفحات من تاريخ مجاية...، المرجع السابق، ص82.

واستقبال الطلبة من خارج المنطقة، ويبدو أن مضايقات قبائل زاوية بزعامة الشيخ عمر القاضي أمير كوكو جعلته يبحث عن مكان أكثر أمنا وحصانة لبناء زاوية أخرى، فدلّه بعضهم على قلعة بني عباس المحصنة طبيعيا، وفعلا نقل سي أحمد زاويته إلى هناك¹. أما سيدي ناصر والد سيدي بتقة فكان رجلا ورعا كرس شبابه لطلب العلم وتحصيل العلوم الشرعية بزاوية القلعة²، فقد تحدث عنه الورثياني على أنه رجلا فاضلا وعالما زاهدا يلبس الغرارة شعارا على لحمه لزهده وورعه وتصوفه³، وبهذا يكون سيدي بتقة ابن أسرة دينية اهتمت بالتعليم وترتيب الطلبة وبناء المدارس والزوايا، فلا ريب في أن يكون قد تلقى تربية علمية منذ نعومة أظفاره، فهذا دأب الأسر الدينية والحاكمة في تربيتها لجميع الأبناء، فحفظ سيدي بتقة القرآن الكريم عن ظهر قلب⁴ بل كان قوي الحجة في الدين مطلعا على أحوال زمانه تقى ورع⁵، وهو ما يعني اطلاعه وتحصيله للعلوم الشرعية، وذكره الحسين الورثياني ضمن جملة الأولياء الصالحين في قوله: (سيدي أبو التقى معلوم البركة قوي النفع معظم عند أهل مجانة)⁶، ويبدو أن زهده في الحياة الدنيا وشغفه بالعلم والعبادة جعله يعيش في برجه برشاد متخليا بذلك عن إدارة الشؤون السياسية والعسكرية للإمارة لابنه البكر بوزيد في حياته⁷، ورغم شح المعلومات وندرتها حول الحياة العلمية والدينية لسيدي بتقة إلا أننا نجد ضمن القصيدة الطويلة التي نظمها عاشور بن محمد الخنقي القسنطيني، والتي سماها غاية الرقى في مدح الشيخ أبي التقى أبيات تتحدث عن تأسيسه لزوايا استقبلت الطلبة من السهول والجبال، ونشرت مختلف العلوم والمعارف ومن ذلك قوله:

بَنَيْتَ بِهَا زَوَايَا عَمَرْتَهَا ... عَلَيْكَ بُنُو السُّهُولَةِ وَالْجِبَالِ
نَشَرْتَ بِهَا كِتَابَ اللَّهِ فِيهِمْ ... وَأَنْوَاعَ الْمَعَارِفِ وَالْمَعَالِي
كَأَنَّ لِلطَّرِيقَةِ مِنْ أَنْاسٍ ... جَذَبْتَ وَلِلْحَقِيقَةِ مِنْ رِجَالِ
وَكَمْ هَذَبْتَ مِنْ جَلْفٍ عَنِيْفٍ ... وَكَمْ أَصْلَحْتَ مِنْ أَهْلِ الضَّالِّ
وَكَمْ مِنْ ظَالِمٍ فِيهِمْ عَشُومٌ ... هَدَيْتَ فَصَارَ مِنْ أَهْلِ الْكَمَالِ⁸

وتتفق أغلب الدراسات التي تحدثت عن سيدي بتقة على وفاته سنة 1680م، وأن ضريحه موجود بمدينة برج بوعريّيج يتوسط أكبر مقابرها⁹، وأورد الشاعر عاشور الخنقي أبياتا تبين استقرار سيدي بتقة ببرج بوعريّيج، وأثره في تعمير المنطقة ومن ذلك قوله:

وَلَا كُنْ سِرًّا إِلَى أَرْضٍ بَـوَادٍ ... سَتَعْمُرُ بِلَدَةً بِكَ فِي مَثَالِ
بِرْمُجِ أَبِي عُرْيَرِيْجٍ تُسَمَّى ... عَلَيْهَا أُمَّةٌ قَوْضَى مَوَالِ
شِدَادُ الْقَيْدِ لَوْلَا الْعَفْوُ عَنْهُمْ ... لَبَادُوا بَيْدَةً الْأُمَمِ الْخَوَالِ¹⁰

¹ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 56.

² - نبيل بومولة: المرجع السابق، ص 88.

³ - الحسين الورثياني: المصدر السابق، ص 36.

⁴ - مولود قايد: المرجع السابق، ص 35.

⁵ - نبيل بومولة: الأصول الشريفة...، المرجع السابق، ص 147.

⁶ - الحسين الورثياني: المصدر السابق، ص 39.

⁷ - مولود قايد: المرجع السابق، ص 35.

⁸ - عاشور بن محمد الخنقي: منار الأشراف، المطبعة الثعلبية، الجزائر، 1914م، ص 161-162.

⁹ - المرجع نفسه، ص 158-159؛ نبيل بومولة: صفحات من تاريخ بجاية...، المرجع السابق، ص 66-67؛ نبيل بومولة: الأصول الشريفة...، المرجع السابق، ص 151؛ مزيان وشن: المرجع السابق، ص 87؛ عزالدين بلمولود: المرجع السابق، ص 20-24؛ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري 16-20م، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 333.

¹⁰ - عاشور الخنقي: المرجع السابق، ص 161.

ولرفع اللبس عن شخصية سيدي بتقة وضريحه أكثر وجب التنبيه إلى شخصية الولي الصالح سيدي أبو التقى أو أبي التقى المعروف هو الآخر بين الأهالي والعامّة بسيدي بتقة دفن مدينة الجزائر العاصمة خارج باب غزون¹، فقد عاصر سيدي بتقة المدفون بالعاصمة الدخول العثماني للجزائر، فحسب الأسطورة المتداولة حول دوره في انهزام حملة شارلكان، وفشلها على مدينة الجزائر سنة 1541م²، والتي مفادها أن سيدي بتقة عند الهجوم الإسباني نهض من قبره، فأقام الصلاة وتضرع إلى الله فكان الولي مسموع الدعاء وقضي الأمر³. وفي رواية أخرى أن الناس شاهدوا جامع سيدي بتقة مضاء في ليلة المعركة رغم وفاته منذ عدة سنوات⁴، والذي يهمنا من كل هذا أن الولي سيدي بتقة دفن العاصمة كان ميتا منذ النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، وبذلك يكون معاصرا لسيدي أحمد أمقران المتوفي سنة 1510م أو سيدي عبد العزيز المقراني المتوفي سنة 1559م، وهما من أجداد سيدي بتقة المدفون ببرج بوعريرج، ومن غير المستبعد أن يكون المقرانيون قد أطلقوا على ابن سي ناصر المقراني اسم الولي الصالح المدفون بالعاصمة تيمنا بأولياء الله وبركا بأسمائهم، فحمل سيدي بتقة اسم الولي وعلمه وورعه وزهده، ولا نستبعد أن يكون التهميش الذي تعرض له تاريخ سيدي بتقة لاسيما منه العلمي والديني هو بفعل تحول ضريحه إلى موضع مقدس، ومزار للعقيمت والمرضى والأشقياء، وتداول عامة الناس أحاديث كثيرة عن كرامات هذا الولي الصالح، ونجاعة التبرك بضريحه، والتوسل باسمه لقضاء الحاجات، وفك الكربات وغيرها من الخزعبلات⁵ البعيدة كل البعد عن حقيقة تاريخ سيدي بتقة وخصاله وورعه.

خاتمة:

تكتسي شخصية سيدي بتقة مكانة خاصة في التاريخ السياسي والديني لأسرة المقراني باعتباره صاحب الفضل في إعادة بعث الإمارة بعد انقطاعها وضعفها بمقتل والده سي ناصر من جهة، وبتحصيله للعلوم الدينية وزهده أكد سيدي بتقة على اهتمام الأسرة المقرانية بالعلم وحرصها على تربية أبنائها تربية دينية سليمة من جهة ثانية. أما على مستوى التاريخ المحلي لمدينة برج بوعريرج وضواحيها فإن اختياره لمدينة مجانة عاصمة له وللمقرانيين من بعده جعل فصولا من تاريخ المنطقة السياسي والديني والاجتماعي والاقتصادي مرتبط ارتباطا وثيقا بالمسار التاريخي للإمارة، فخلال العهد العثماني لعب المقرانيون دورا هاما في تحديد توطين القبائل والأعراش بمجانة ومختلف نواحي برج بوعريرج، وتقسيمهم للملكيات العقارية والأراضي الفلاحية باعتبارهم من أهم الأسر الإقطاعية آنذاك، فضلا على تفاعلهم مع الأحداث السياسية والعسكرية سواء مع العثمانيين أو الإمارات والأسر الحاكمة المجاورة لهم، وهو الدور الذي استمر إلى غاية اندلاع ثورة الباشاغا محمد المقراني سنة 1871م ضد الاحتلال الفرنسي، والتي كانت خلالها مجانة وقبائل وأعراش برج بوعريرج نواحيها الأساسية.

¹ - ياسين بودريعة: أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال والباليك، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2007م، ص 54.

² - حملة شارلكان: هي من أكبر الحملات الإسبانية التي استهدفت الجزائر سنة 1541م بقيادة الإمبراطور شارلكان، وبأسطول ضخم جمع الكثير من فرسان وأمراء أوروبا بمشاركة البابا ومباركته لكنها انتهت بفشل ذريع، ينظر، أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 251-271.

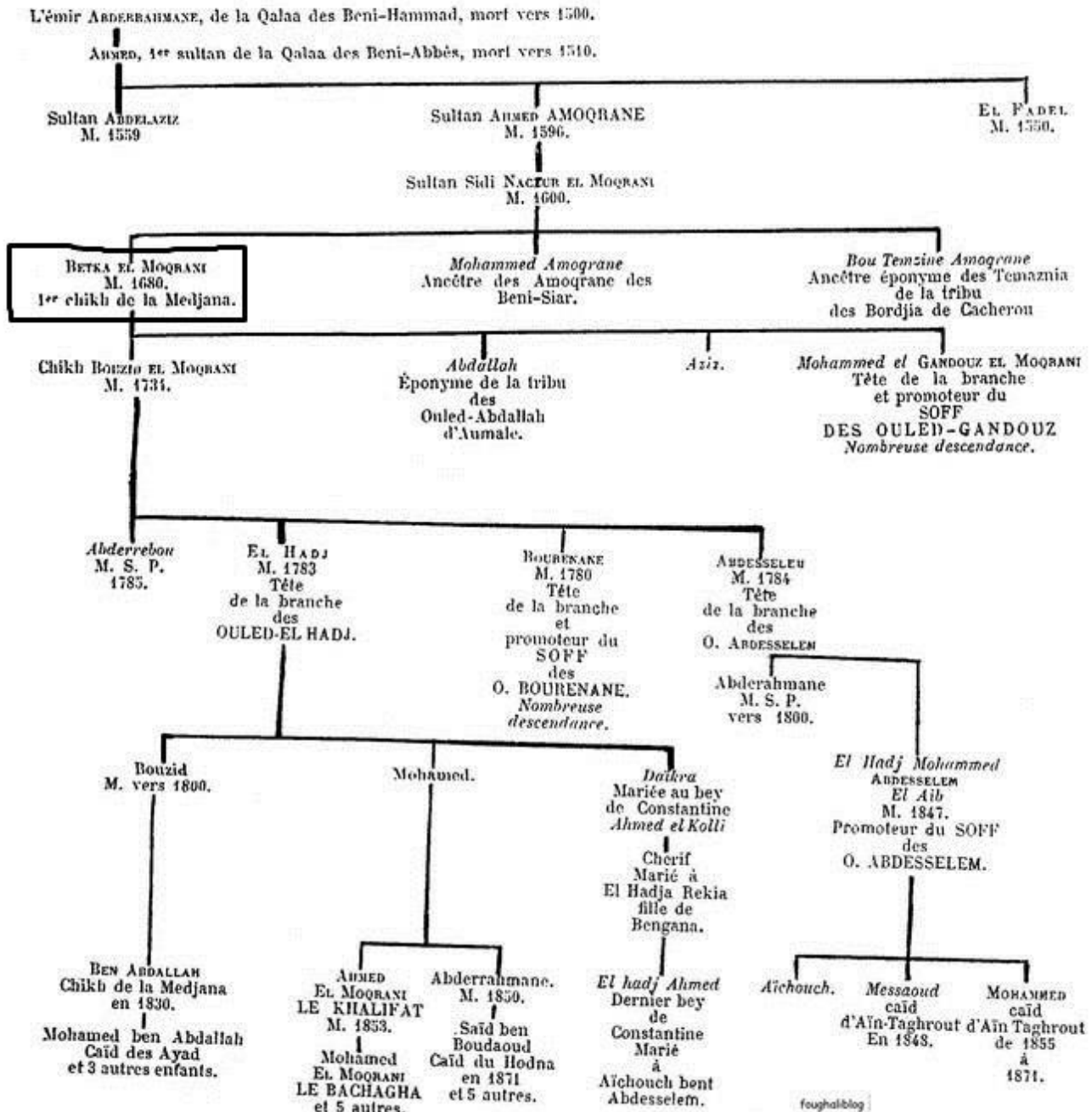
³ - ياسين بودريعة: المرجع السابق، ص 55.

⁴ - كورين شوفالبيه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541م)، ترجمة جمال حمادة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ت)، ص 87-120.

⁵ - Djemai Nebbache: Bourdj Bou Arréridj < chroniques et souvenirs d'enfance >, édition Djitli, Bourdj Bou Arréridj, 2017, p.17-18.

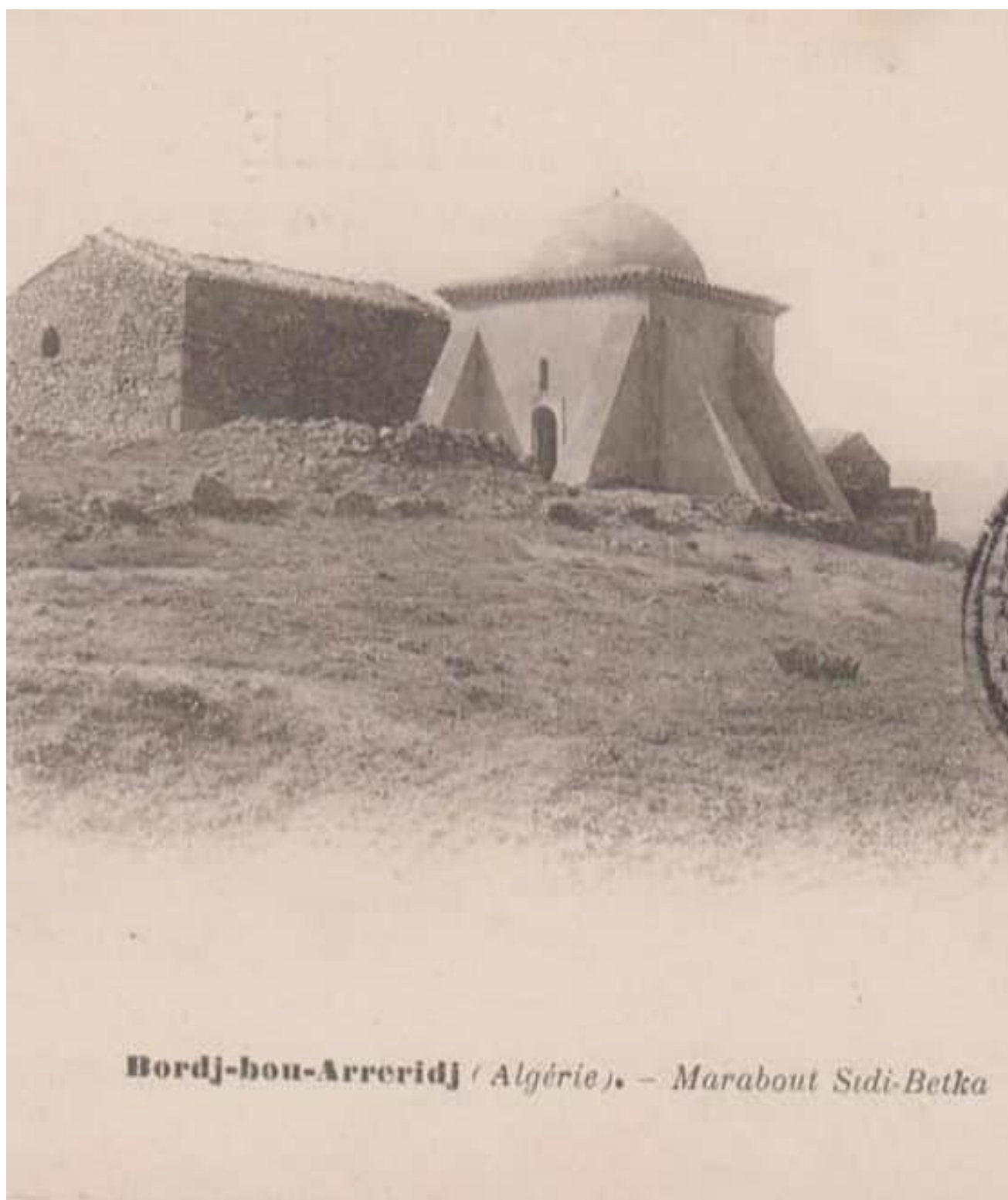
APPENDICE A L'INTRODUCTION

EXTRAIT DE L'ARBRE GÉNÉALOGIQUE DES MOQRANI



¹ - Louis Rinn: histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, librairie Adolphe Jourdan, Alger, 1891, p.54-55

الملحق 02: ضريح الشيخ سيدي بتقة، وقد شيدت هذه القبة سنة 1938م بمدينة برج بوعرييج¹



¹ - Djemai Nebbache: op. cit, p.17

محمد الوانوشي المقراني (1867-1948م) سيرته ومواقفه

من خلال مراسلاته والمصادر المعاصرة له

فارس كعوان - جامعة سطيف2

رغم ما كتب عن تاريخ الجزائر في الفترة الاستعمارية إلا أن عددا من المواضيع لم تنل حقه من الدراسة خصوصا تلك المرتبطة بالتاريخ الثقافي، فهناك عدد من الشخصيات العلمية البارزة ظلت منسية، ولم تمتد لها أيدي الباحثين لإمالة اللثام عنها، وتوضيح دورها وعلاقاتها، ومختلف إسهاماتها. وتعد شخصية الوانوشي بن أحمد بومرزاق المقراني من الشخصيات الجزائرية التي لم تنل حقه من الدراسة، رغم المكانة العلمية المتميزة التي كان يتبوأها، والتي شهد له بها الشيخ عبد الحميد بن باديس، فمن هو هذا العالم؟ وما هي المناصب التي تقلدها؟ وكيف كانت علاقاته مع علماء عصره؟ وما هي مواقفه من بعض قضايا عصره؟.

حاولنا قدر الإمكان الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها في هذا المقال، وتتبعنا مختلف مراحل حياة هذه الشخصية، ورصد بعض مواقفها اعتمادا على بعض المراسلات والمصادر المعاصرة، واعتمدنا على منهجي الوصف والتحليل لتقديم دراسة موضوعية علمية حول شخصية لعبت دورا هاما ومحوريا في عصرها، رغم علاقة صاحبها بالإدارة الاستعمارية والمناصب الرسمية التي شغلها.

1- الطفولة الصعبة للوانوشي:

يعد الوانوشي¹ وهو الابن الوحيد لأحمد بومرزاق المقراني أحد قادة ثورة 1871م، من بين الشخصيات العلمية والدينية المتميزة في الفترة الاستعمارية²، وقد ولد في مدينة مجانة التابعة حاليا لولاية برج بوعريش أين ذكر عبد المنعم القاسمي أن ذلك كان سنة 1280هـ/1860م³، ولكن إحدى مراسلات الوانوشي للإدارة الفرنسية التي سنورد نصها فيما بعد، جاء فيها أنه كان له من العمر أربع سنوات حين اندلعت ثورة 1871م⁴، ومعنى هذا أنه ولد سنة 1867م وليس سنة 1860م كما ذكر عبد المنعم القاسمي.

كان بومرزاق والد الوانوشي شقيق الباشا محمد المقراني قائدا على عرش ونوغة بمنطقة سور الغزلان وحمزة بجبال البيبان، وبقي في منصبه حتى عام 1871م وتحمل العبء الأكبر من الثورة، لأن شقيقه توفي بعد خمسين يوما من اندلاعها، وبعد معارك كبيرة اضطر أحمد بومرزاق للاستسلام، وسبق هو وعائلته وأعوانه لمحكمة الجنائيات، وذكر تقرير المحكمة أن "أحمد بومرزاق بن الحاج أحمد الأغا السابق لونغو عمره 35 سنة متزوج وله ولد"، وصدر الحكم على بومرزاق بالإعدام يوم 27 مارس 1873م بعد حوالي أربعة أشهر من اعتقاله وسجنه، مما جعل باقي أفراد الأسرة يلجئون إلى تونس، وكانوا حوالي 500 شخص موزعين على حوالي 100 أسرة صغيرة، وكان من بينهم الطفل الوانوشي⁵.

في 19 أوت 1873م صدر حكم مخفف على أحمد بومرزاق عوض الإعدام، ونفي إلى مدينة نومييا عاصمة جزيرة كاليدونيا الجديدة في المحيط الهادي، وعاش بها مع رفاقه أمثال الشيخ عزيز وعدد آخر بلغ 404 أشخاص، وفي عام 1878م اشترك أحمد بومرزاق مع عدد من رفاقه في إخماد ثورة قامت في كاليدونيا، مما جعل السلطة الفرنسية تصدر قرار العفو عنهم سنة 1881م تبعه

¹ - كان يوقع اسمه في مراسلاته "الوانوشي" ولهذا أوردنا اسمه هكذا، ولكننا وجدنا من يضيف لاسمه اسما آخر هو محمد فجعل اسمه مركبا هكذا محمد الوانوشي، ينظر: (عبد المنعم القاسمي الحسني: الشيخ الديسي محمد بن عبد الرحمن سيرة ومسيرة، دار النعمان، الجزائر، د ت، ص 127، وهو ينقل عن بعض المخطوطات المعاصرة له).

² - يحيى بوعزيز: ثورة الباشا محمد المقراني والشيخ الحداد عام 1871م، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص 335.

³ - عبد المنعم القاسمي: المرجع السابق، ص 127.

⁴ - A.O.M 6 H 37: Lettre du préfet d'Alger à Mr le Gouverneur Général de L'Algérie au sujet d'une demande de secours formée par Ounnoughi ben Ahmed Boumerzag el Mokrani d'El Biar, le 29 septembre 1890.

⁵ - يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص 335.

قرار آخر بالسماح لهم بالعودة للجزائر، لكن الغريب أن بومزراق رفض العودة للجزائر، بل انه حتى حث رفاقه على البقاء معه، حتى أن زوجاته طلبن الطلاق منه، وبقي بالجزيرة قرابة 25 سنة ولم يعد للجزائر إلا بعد أن حصل له ابنه على إذن من السلطات الفرنسية بالعودة إليها¹. وقد عاد بومزراق المقراني إلى الجزائر أوائل شهر جويلية 1904م بعد غيبة دامت 31 عاما، واستقر بمدينة الجزائر قرابة السنة بعيدا عن ابنه في مدينة الشلف التي لم يناسبه جوها، وتوفي في 13 جويلية 1905م، ودفن بمقبرة الحامة التي تعرف اليوم بمقبرة سيدي محمد².

2- مسار الوانوغي حتى توليه منصب الإفتاء:

- الوانوغي في ضيافة زاوية الهامل:

في سنة 1882م عاد عدد من المقرانيين من تونس حيث كانوا يستقرون، وسكن بعضهم منطقة بوسعادة، وتولى رعاية الوانوغي شيخ زاوية الهامل في ذلك الوقت الشيخ محمد بن أبي القاسم، تنفيذا لوصية والده بومزراق الذي ربطته بشيخ الزاوية علاقة قوية، درس الوانوغي وتخرج من زاوية الهامل، ومن مشايخه فيها الشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي الضربير الذي لازمه لفترة طويلة، وأجازه سنة 1900م، وقد أجاز الوانوغي في الفقه والنحو والأصول، وبعد تلقي تكوينه على هؤلاء المشايخ، تصدر للتدريس بالزاوية والصلاة بالطلبة، كما تولى الكتابة لدى الشيخ الهاملي، وقد تخرج على يد الوانوغي عدد من الطلبة صاروا شيوخا للعلم في المنطقة منهم: الشيخ الحاج الزروق البوسعادي، والحاج بن السنوسي وغيرهم³.

- الوضعية البائسة للوانوغي من خلال مراسلاته:

تكشف لنا مراسلات الوانوغي مع بن سديرة ومع الإدارة الفرنسية جانبا مغيبا في سيرته لم يتناوله من ترجموا له، وهو الوضعية البائسة التي كان يعيشها والتي أثرت على نفسيته، وجعلته في النهاية ينخرط في سلك الوظيفة الحكومي في مناصب بسيطة، ليحصل بعد فترة على منصب مفتي مدينة الشلف، ففي مراسلة له لبلقاسم بن سديرة نعتقد أن تاريخها بعد عودته من تونس مع أسرته سنة 1882م يقول الوانوغي:

" العالم النحرير والعلامة الشهير الشيخ أبو القاسم بن سديرة السلام عليك ورحمة الله، أما بعد إنك أرسلت إلي مع السيد بتي أن نبعث لك الكتابين الذين كنت أعزتهما إلي فاعلم أيها السيد أما أحدهما فما أنا مكنته إلى السيد بتي وأما الآخر فتركته مع جملة كتب لي بقسنطينة، ولما نرجع تأتي به وندفعه إليك كثر الله خيرك، وإن سألت عني فإني عديم الحرفة، والأمر لله، قلم البليغ بغير حظ مغزل، والسلام من أفقر الخلق إلى مولاه الوانوغي بن أحمد بن أبي مزراق المقراني لطف الله به"⁴، ومن خلال هذه المراسلة يبدو أن الوانوغي كان يتردد على قسنطينة، وكان على علاقة مع أحد الفرنسيين وهو السيد Petit وقد استعار كتابين من بلقاسم بن سديرة، وكان الوانوغي حينها دون أي وظيفة وفي وضعية بائسة جدا، وفي مراسلة أخرى مؤرخة سنة 1892م كتب الوانوغي إلى بلقاسم بن سديرة يطلب منه التوسط لنيل منصب كاتب لدى أحد الضباط الفرنسيين بعد وفاة من كان يشغله، وقد جاء فيها ما يلي:

" إلى المحب الفاضل والإنسان الكامل السيد أبي القاسم بن سديرة السلام عليك ورحمة الله وبركاته أما بعد فإن كنت بخير فالحمد لله على ذلك، هذا فالمطلوب منك ومن كريم فضلك أنه بلغنا أن خوجة السيد الجنرال دفيون سار إلى عفو الله وطرق سمعي أنهم يفتشون على من يجعلونه في منصبه، فإن كان الأمر كما سمعنا أن تكون معي في تحصيل هذا المنصب وأن لا يخفاك حالي وهذا تفكير لما كنت وعدتني به ومثلك لا يحتاج إلى تأكيد وتبلغ سلامي إلى السيد الدكتور [كذا] ماي كثيرا واني اجتمعت مع حامل

¹ - عبد المنعم القاسمي: المرجع السابق، ص333.

² - المرجع نفسه، ص335.

³ - نفسه، ص127، 332.

⁴ - أبو القاسم بن سديرة: كتاب الطالب المبتدي في تخريج الخط العربي، مطبعة السيد جوردان، الجزائر، 1894م، ص75.

الجواب إلى حضرتكم في أثناء سفري إلى الشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم وان ظهر لك أن تخبرني بجواب إلى البرواقية والسلام من محبك الوانوشي بن أحمد أبي مزراق كتب في أكتوبر [كذا] سنة 1892م¹.

ويستفاد من هذه المراسلة أن الوانوشي كان يسعى للحصول على أي وظيفة إدارية وكان يتتبع أخبار الوظائف الشاغرة، والمعروف أن أخبار العزل والتعيين كانت تصدر في جريدة المبعثر الحكومية، وفي الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية، ولعل الوانوشي اطلع على الخبر من خلالها. ولما سمع الوانوشي أن منصب كاتب لدى أحد الضباط الفرنسيين قد شغل راسل بن سديرة في شأنه، حيث أن الأخير سبق له أن وعده بتوظيفه، وكان الوانوشي يتردد على شيخ زاوية الهامل، وحسب المراسلة فقد كان الوانوشي مقيما حينذاك بالبرواقية سنة 1892م، وفي مراسلة بتاريخ 16 جوان 1893م موجهة إلى الحاكم العام الفرنسي يطلب الوانوشي منه السماح له بالسفر لزيارة والده في كالدونيا لأنه اشتاق إليه كثيرا، ويبدو أن ذلك رغبة منه في التخلص من وضعيته البائسة، حيث كان يعمل عددا من أفراد أسرته، ولم يكن يتقاضى أجرا كبيرا، وكان هذه المرة مقيما بمنطقة الأبيار بالعاصمة.

وجاء في تلك المراسلة ما يلي: "إلى سعادة المعظم السيد القفرنور "gouverneur" السلام عليك ورحمة الله أما بعد اطلب من فضل سيدي أن يمن علي بالإذن في الذهاب إلى أبي أحمد أبي مزراق المقراني المنفي ببلاد نفيل كلدي منذ اثني وعشرين سنة واشتقت نفسي إلى لقائه لطول المدة المذكورة ولا يخفى سعادة سيدي حق الأب على الابن وأيضا اطلب من كرم الوالي العام أن يكون سفري في بابور البوسطة بغير ثمن حيث لا مانع من ذلك والسلام من الوانوشي بن أحمد أبي مزراق المقراني الساكن بفلاج الأبيار"²، وبعد شهر وبضعة أيام من مراسلته السابقة نجد الوانوشي يكتب الإدارة الفرنسية مرة أخرى في 21 جويلية 1893م يصف في هذه المراسلة وضعيته البائسة هو وأسرته، حيث جاء فيها ما يلي:

"إلى سعادة المعظم الأرفع سيدنا القفرنور جنرال السلام عليك ورحمة الله وبركاته أما بعد إنه لما تشرفت الدنيا بطلعتك المنيرة أدام الله سلطانك هذا وإني كنت كتبت لسيادتك جوابا لأجل ملاقاتك ورددت لي الجواب بأنك على قدم سفر ولا تتأني ملاقاتك الآن ظهر لي أن أكتب لسيادتك جوابا وذلك سيدي أي ولد صغير وصاحب عايلة وليست لي حرفة أقدم بها نفسي وأهلي وضاق بي الأمر حتى شارفت على الهلاك أنا وأهلي والآن سيدي أطلب من فضلك الكريم وإحسانك العميم أن تنظر إلي بعين الشفقة والرحمة ولا يخفأ كان أبي أحمد أبي مزراق المقراني وعمي الحاج محمد باش آغا صدرت منهم هفوة وسوء أدب مع الدولة فقد جرت عليهم العقوبة من الدولة وأما أنا حين الفتنة صغير السن لي أربعة أعوام لا زايد ولا يؤخذ أحد بجرم أحد كما يقال في المثل السائر كل شاة معلقة برجلها وان كان ظهر علي حق فهانا بين يديك وأنه علي نحو 700 فرنك دين من قبل كراء الدار وكسوتي ونفقتي أنا وأهلي والآن المرجو من فضلك أن تنظرني بعين الرحمة وان كان أمر آخر فاطلب منك أن ترميني في السجن أحسن من أن أضيع في الأزقة والسلام من خديمك الوانوشي بن أحمد بن أبي مزراق المقراني الساكن في الأبيار"³.

- تغير مسار الوانوشي بعد انخراطه في المناصب الحكومية الفرنسية:

في عهد السيدة لالة زينب (1897-1904م) ابنة مؤسس زاوية الهامل عُهد للوانوشي بمنصب مقدم على شؤون الزاوية، وهو المكلف بتسيير شؤونها الإدارية، وهذا منصب له أهميته خاصة إذا علمنا المكانة الهامة التي تبوأها زاوية الهامل في تلك الفترة الحالكة من تاريخ الجزائر⁴، وبعد وفاة السيدة زينب عام 1904م، انتقل الوانوشي إلى مدينة الجزائر وتولى وظيفة كاتب في جريدة المبعثر

¹ - أبو القاسم بن سديرة: المصدر السابق، ص 74.

² - A.O.M 6 H 37: Lettre du Ounnoughi Ben Ahmed ben Mezrague et Mokrani d'el Abiar à Mr le Gouverneur Général de l'Algérie, le 06 juin 1893.

³ - A.O.M 6 H 37: Lettre du préfet d'Alger à Mr le Gouverneur Général de L'Algérie au sujet d'une demande de secours formée par Ounnoughi ben Ahmed Boumerzag el Mokrani d'El Biar, le 29 septembre 1890.

⁴ - عبد المنعم القاسمي: الطريقة الخلوتية الرحمانية الأصول والآثار منذ ظهورها إلى غاية الحرب العالمية الأولى، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2009م، ص 541.

الحكومية¹، وحاول الوانوغي أن يتقرب من بعض العلماء الجزائريين المحررين في المبشر وعلى رأسهم الشيخ أبي القاسم الحفناوي، وهذا يظهر من خلال الرسالة التي بعثها الوانوغي للحفناوي والتي أورد هذا الأخير نصها الكامل في كتابه، ويستنتج منها أن الوانوغي كان مقربا من أحد الآغوات المعروفين حينذاك، وهو الآغا الحاج بوطيبة الذي توسط الوانوغي بينه وبين الحفناوي لإدراج بعض التراجم في كتابه².

كما أدرك الوانوغي أن عصره يقتضي الاحتكاك مع الفرنسيين وتوطيد علاقاته معهم لتعلم اللغة الفرنسية، وقد ذكرت إحدى الجرائد المعاصرة أن الوانوغي كان يتعلم الفرنسية على يد أحد الضباط الفرنسيين وهو الملازم كانونج Canonge الذي كان يُعلّمه الفرنسية مقابل قيام الوانوغي بتعليم ذلك الضابط اللغة العربية، وكان كانونج هو الذي يترجم رسائل الوانوغي من العربية إلى الفرنسية³، ولعل توسط بلقاسم بن سديرة وشيخ زاوية الهامل هو الذي جعل السلطات الفرنسية تقوم بتعيين الوانوغي إماما ومعلما في مدينة القليعة، ومنها انتقل إلى مدينة الشلف ليعمل في التدريس أيضا، وبعد تقاعد مفتي الشلف السيد محمود العسكري عُيّن الوانوغي ليخلفه في هذا المنصب الذي شغله لمدة طويلة من سنة 1908م إلى وفاته سنة 1948م، وجمع الوانوغي بين وظيفته في الإفتاء وتدريس الفقه ومبادئ النحو وعلم الكلام⁴.

3- موقف الوانوغي من بعض القضايا:

من بين القضايا التي عبر فيها الوانوغي عن رأيه صراحة موقفه من الحرب العالمية الأولى وتأييد فرنسا في الحرب، فقد أعلن السلطان العثماني في 14 نوفمبر 1914م دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب الألمان ضد فرنسا وبريطانيا وحلفائهما، وتلى ذلك إصدار مفتي اسطنبول فتوى وقّع عليها عدد كبير من المشايخ بإعلان الجهاد ضد دول الحلفاء، وجاءت الفتوى في شكل رسالة بعنوان: "المسلمون في الجيش الفرنسي"، وكان لزاما على الإدارة الفرنسية الرد على هذه الفتوى، فاستعانت بالمفتي الوانوغي بن بومزراق الذي حرّر كتابا بالاشتراك مع صديقه عبد الرحمن قطرانجي ردّ فيه على مفتي اسطنبول، وكلف الوانوغي مع قطرانجي بدعم فرنسا وتشجيع الجزائريين على الدخول في الحرب إلى جانبها فكتب رسالة بعنوان: "القول الناصح في مجادلة المائن الكاشح" وطبعت السلطات الفرنسية هذه الرسالة بالعربية سنة 1915م، وقد ذكر سعد الله أن نسخة من هذه الرسالة كانت توجد بمكتبة جامعة الجزائر تحت رقم 300-208، وقال إنه اطلع عليها في السبعينات⁵.

وكتب الشيخ بن عبد الحكم يقول: "ثم دعت الدولة خلال الحرب العالمية الأولى سنة 1914م إلى عاصمة فرنسا (باريس) ليقوم بشؤون موتى المسلمين كتلقين الشهادة وتغسيلهم والصلاة عليهم⁶، ونشرت إحدى الصحف الفرنسية الصادرة سنة 1918م أن الوانوغي والشيخ قطرانجي كانا يساهمان في وعظ المسلمين الجزائريين في باريس خلال شهر رمضان⁷، وأثناء الحرب أسس الوانوغي مع أعيان مدينة الأصنام "الشلف حاليا" جمعية إغاثة عائلات المحاربين، وكان هدفها مساعدة هذه العائلات بعد ما زج بأبنائها في الحرب، وقد اختاروا بقية الأعضاء وعبروا عن ارتباطهم بالدولة الفرنسية ودعوا لها بالنصر والظفر على الأعداء⁸.

¹ - عتبة بن عتبة الجيلاني بن عبد الحكم: المرأة الخلية في ضبط ما تفرق من أولاد سيدي يحيى بن صافية وفي التعريف بمشاهير العلماء ورجال المعاهد الصوفية، تحقيق حسين جيلالي بن فرج، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2018م، ص220.

² - أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م، ص441-442.

³ - Le Figaro, Lundi 18/05/1908.

⁴ - عتبة بن عتبة الجيلاني بن عبد الحكم: المصادر السابق، ص220.

⁵ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، دار البصائر، الجزائر، 2008م، ص103.

⁶ - عتبة بن عتبة الجيلاني بن عبد الحكم: المصادر السابق، ص220.

⁷ - Le Journal, le 11 juin 1918.

⁸ - جريدة الفاروق، ع78، 1914/08/28م، ص2، جريدة المبشر، ع4، 1914م.

بعد انتهاء الحرب رجع الوانوغي إلى وظيفته، ولما تكوّنت الجمعية الدينية برئاسة السيد ابن زكري تم تعيين الوانوغي عضواً بها¹، ومن مواقف الوانوغي السياسية أيضاً مشاركته في تدشين الجامع الكبير بمدينة باريس سنة 1927م ممثلاً للشيخ القاسمي شيخ زاوية الهامل²، وفي سنة 1929م شارك الوانوغي في عملية توديع الحجاج الجزائريين رفقة عدد من رجال الحكومة الفرنسية وقياداتها، وألقى الوانوغي بهذه المناسبة خطبة مدح فيها جهود الدولة الفرنسية وما تقوم به اتجاه رعاياها المسلمين³. كما شارك الوانوغي رفقة عدد من المفتين سنة 1935م في حفلة توديع الحجاج الجزائريين في وسط الباخرة بميناء مدينة الجزائر بأمر من الحكومة الفرنسية التي أرادت أن تظهر عنايتها بمشاعر المسلمين⁴، وقد جاء في الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية في عددها الصادر بتاريخ 06 أكتوبر 1937م أن الوانوغي كان حينها لا يزال مدرسا، وجاء فيها أنه أدى الخدمة العسكرية كإمام الصلوات للمجندين الجزائريين المسلمين، وكانت مدة خدمته سنة و10 أشهر و23 يوما، أما خدمته المدنية فكانت 40 سنة أي أنه انخرط في الوظيفة الحكومية منذ سنة 1897م تقريبا⁵.

وظل الوانوغي وفيها لشيخ زاوية الهامل، حيث وجدناه يشارك في شهر ديسمبر 1937م في مناسبة تعيين الشيخ مصطفى بن محمد القاسمي رئيسا لجامعة اتحاد الزوايا والطرق الصوفية، حيث أقيم حفل ضخم حضره عدد هام من العلماء والأدباء والشعراء، كما شارك الوانوغي أيضا في أبريل 1938م في المؤتمر الثاني لجامعة اتحاد العلماء الدينيين من رجال الزوايا والطرق الصوفية الذي انعقد بمدينة الجزائر، وحضره الباشاوغوات والقضاة والمفتين ورجال الوظائف الدينية، وتوسط الجمع الشيخ عبد الحفي الكتاني المغربي، وتولى الوانوغي منصب أمين مال جامعة اتحاد الزوايا والطرق الصوفية بتكليف من رئيسها مصطفى القاسمي، وذلك في شهر ماي 1939م خلال مؤتمر آخر عقد بقسنطينة حضره عدد من شيوخ الزوايا⁶، وبعد تقاعده عينه الشيخ مصطفى القاسمي وكيلا لضريح سيدي محمد بالحامة، وبقي يشغل هذا المنصب إلى غاية وفاته سنة 1948م⁷.

3- ثناء العلماء عليه:

نال الشيخ الوانوغي ثناء عدد من العلماء عليه، تقديرا لمواهبه وصفاته، فقد قال عنه أحد شيوخ الهامل وهو الشيخ محمد المكي القاسمي: "أحد النبغاء الأعلام المتخرجين من زاوية الهامل العلامة الشيخ سيدي الحاج محمد الوانوغي مفتي الأصنام"، وكتب الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي في إجازته له يصفه قائلا "ذو النسب الشريف والقدر الأجل"، كما وصفه العيد بن البشير الهاملي في مخطوطه التحفة السنية بـ: "الماجد الكريم والخبر الهمام"⁸، وقال عنه الشيخ بن عبد الحكم العطائي: "وأوصاف السيد المقراني الوانوغي محمود إذ له كرم حاتم يزل عنده الغرباء ويؤمهم العلماء فيكرمهم بما يسره من البشاشة وتعطير المجلس بالحكايات النادرة وذكر المسائل الشاردة"⁹.

¹ - عتبة بن عتبة الجليلاني بن عبد الحكم: المصدر السابق، ص220

² - عبد المنعم القاسمي: المرجع السابق، ص128.

³ - L'Afrique du Nord française illustré, 1929, p.2.

⁴ - (ركوب الحجاج الجزائريين)، جريدة النجاح، قسنطينة، ع1678، السنة 15، الأحد 1935/03/03م.

⁵ - Journal officiel de la république française, le 06/10/1937, p.11326.

⁶ - الهواري ملاح: الإفتاء والمفتون في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي 1830-1962م، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2016م، ص155-156.

⁷ - عبد المنعم القاسمي: المرجع السابق، ص128.

⁸ - المرجع نفسه، ص128-129.

⁹ - عتبة بن عتبة الجليلاني بن عبد الحكم: المصدر السابق، ص220.

وحين التقى به الشيخ عبد الحميد بن باديس في رحلته ، كتب يقول عنه: " ممن عرفنا من فضلائها" أي مدينة الشلف " مفتيها العالم الماحد الشيخ الوانوعي بن الشيخ بومزراق الزعيم المقراني المشهور، والشيخ يمثل شهامة أسرته وكرمهم وهمتهم إلى معارف أكسبته إياها الأسفار والتجارب، وهو القائم بالخطبة والتدريس في جامعها"¹.

4- وفاته:

توفي الوانوعي بن بومزراق المقراني سنة 1948م، وله من العمر 81 سنة ودفن إلى جانب والده بمقبرة سيدي محمد بمدينة الجزائر²، وقد ترك الوانوعي عددا من الأولاد منهم ابن سمي على اسم جده بومزراق، كان منخرطا في إحدى الفرق الرياضية الفرنسية، وقد انخرط هذا الابن في صفوف الثورة التحريرية بعد فراره واستقراره بتونس³.

خاتمة:

من خلال دراستنا لهذا الموضوع خرجنا بجملة من النتائج نوجزها في النقاط التالية:

- أدركت الإدارة الفرنسية مدى الصدع الذي أصاب أبناء الأعيان بعد سنة 1871م وحاجتهم للوظيفة الحكومية، فقامت بتدجينهم خدمة لمصالحها، مستغلة ظروفهم المادية والنفسية الصعبة.
- أن النخب الدينية في الجزائر كانت ضمن الفئات المؤثرة والفاعلة في المجتمع الجزائري بفعل تكوينها العلمي المتميز والوانوعي المقراني مثال على ذلك.
- رغم الظروف الصعبة التي عاشها الوانوعي المقراني إلا أن ذلك لم يعقه عن التحصيل العلمي الجيد والاستفادة من مشايخ عصره وتلقي الإجازات عنهم.
- رغم بعض المواقف السياسية للوانوعي المقراني التي تحكم فيها منصبه كرجل دين، واتصاله الدائم مع الإدارة الفرنسية، إلا أن شخصيته العلمية تركت بصماتها في عصرها، حتى أنه استطاع أن يؤثر على الإدارة الفرنسية ويحصل على العفو لوالده الذي انتهت حياته في الجزائر سنة 1905م، ونال الوانوعي ثناء عدد من علماء عصره وعلى رأسهم رائد النهضة الإصلاحية في الجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس.

¹ - عمار طالبي: الشيخ عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، ج4، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1980م، ص309.

² - عبد المنعم القاسمي: المرجع السابق، ص128.

³ - يحي بوعزيز: (حول ملاحظات وانطباعات الشيخ سليمان بن داود عن ثورة 1871م)، الأصالة، ع47/46، وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي، الجزائر، 1977م، ص111.



لحظة إعلان الشيخ محمد أمزيان بن الحداد الانضمام لثورة الحاج محمد المقراني بتاريخ 08 أفريل 1871م
في سوق مدينة صدوق (بجاية) ... من انجاز الفنان التشكيلي الجزائري عبد الهادي طالبي

المحور الثاني

ثورة 1871م، أطراف ومشاهد

- * ظروف ودوافع ثورة المقراني والإخوة الرحمانيين 1871م
حورية طعبة - جامعة أدرار
- عبد القادر عميري - جامعة الجزائر 2
- * دور أسرتي الشيخ الحداد وآث قاسي في ثورة 1871م
محمّد أرزقي فراد - جامعة الجزائر 2
- * جوانب من حياة وكفاح الشيخ سي عزيز ابن الحداد
بشير فايد - جامعة سطيف 2
- * أحمد بومزراق المقراني واستمرار مقاومة 1871م في بلاد حمزة
عبد الحليم مرجي - جامعة البويرة
- * أضواء على مشاركة زاوية سيدي بوجملين الرحمانية بالمسيلة في ثورة 1871م
نصر الدين غياط - باحث في تاريخ وتراث المسيلة
- * انتفاضة المقراني 1871م بالحضنة: خلفيات وتداعيات
كمال بيرم - جامعة المسيلة

ظروف ودوافع ثورة المقراني والإخوة الرحمانيين 1871م

حورية طعة - جامعة أدرار

عبد القادر عميري - جامعة الجزائر 2

طبقت الإدارة الاستعمارية بالجزائر جملة من القوانين والتشريعات التي نظمت المجتمع الاستيطاني الأوروبي، وكفلت له السيطرة والتفوق على المجتمع الجزائري، كما عمدت إلى تسهيل عملية تدفق المستوطنين إلى الجزائر وسيطرتهم على الأراضي الزراعية والثروات المعدنية، بعد سلبهم الأراضي من أصحابها، ونقلها إلى ملكيتهم، ومما زاد من تقوية نفوذ المعمرين في الجزائر هو قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة في 04 سبتمبر 1870م، فانتشر الفقر والعوز بين الجزائريين نتيجة فقدانهم لأراضيهم ومورد رزقهم، مما دفع بالقبائل وفعاليتها من علماء ورجال دين وأعيان إلى الانتفاضة بما تيسر لهم من وسائل مقاومة، لرفض جبروت الاحتلال الفرنسي، وكان المقراني والحداد والرحمانيين من بين الذين ثاروا ضد الاستعمار الفرنسي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

إذا كانت ثورة المقراني والرحمانيين التي تصنف على أنها من أكثر الثورات إخراجا للإدارة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، فقد اندلعت في ظرف حساس داخليا وخارجيا واستطاعت أن تترك القوات الفرنسية، فإن السؤال الذي نعتقده مهما، يتعلق بالدوافع التي أدت إلى قيام هذه الثورة، وظروفها الداخلية والخارجية؟.

أولا: الظروف والدوافع الداخلية

لا يكاد يختلف الباحثون على قوة انتفاضة 1871م¹. وحسب شهادة أحد المهندسين الزراعيين الفرنسيين فإن التفاصيل المتعلقة بانطلاقة ثورة المقراني كانت مروعة بالنسبة للفرنسيين، حيث يصف سلوك السكان الأصليين بالهجمية، والجنود الفرنسيين بالتعساء، معتبرا أحداث الثورة من الأوقات السيئة في تاريخ المستعمرات².

ويبدو أن تعدد الأسباب التي دفعت المقراني لإعلان ثورته، قد جعلت الفرنسيين يبحثون في السبب الأكثر تحريكا لهذه الانتفاضة، ويعترف كاميل فير "CAMILL-VIRE" أن: "أسباب هذه الضجة لم تكتب بعد، وفي الواقع انتشر في جميع أنحاء البلاد أن مرسوم كريمو الذي منح الجنسية لليهود، لم يقبله العرب فحملوا السلاح..."³.

تدفع الكثير من النصوص الفرنسية والمحلية المنطوية على تصورات كثيرة ومختلفة، فضلا عن التساؤلات التي يطرحها الباحثون، والتي حاول بعضهم الإجابة عنها من خلال ما قدم من بحوث ودراسات في هذا الرواق، البحث في التفاصيل المتعلقة بمسألة الدوافع التي حقزت المقراني عن إعلان الثورة على الفرنسيين، والتي يمكن أن نورد أهمها كالاتي:

1- قضية الديون:

عندما توفي الخليفة الحاج أحمد المقراني⁴ عام 1853م استخلف الفرنسيون ابنه محمد على منصبه، بلقب الباشا آغا وشرعوا في

¹ - l'leon seror :insurrection de 1871, mémoire d'un accusé si Aziz ben Mohammed Amizian ben cheikh el Haddad à ses juges et à ses défenseurs, imprimerie elmarle, rue d'aumarie; 2, Constantine, 1873, p40 .

² - F. Robiou de la trehonnais, l'Algérie en 1871, Victor Massonet Fils, Paris, 1871, pp.1-3.

³ - Camille viré: En Algérie une excursion dans le département d'Alger, char les bayle, éditieux, 16, rue de l'abbaye, à Paris, 1888, p.125 .

⁴ - تقع قيادة أولاد مقران في الأقاليم الممتدة ما بين مشيخة فرجوة شرقا، وقيادة شيخ العرب جنوبا، ومقاطعة التيطري غربا، وكان الخليفة المقراني يحكم جميع القبائل المتواجدة ما بين سطيف والبيبان عند حدود مقاطعة الجزائر العاصمة، ونفوذ سلطته زاد اتساعا في العهد الاستعماري ليصل إلى المناطق الشرقية من جبال ونوغة وأدغال مزيتة وكذا وأولاد خلوف ومجانة، غير أن أهم قبيلة كانت تشكل القوة الرئيسية والدعم المتين لسلطة المقراني هي قبيلة هاشم التي تشمل حوالي 1200 خيمة، وبإمكانها مد الخليفة بجوالي 800 فارس، أنظر: (صالح فركوس: تاريخ جهاد الأمة الجزائرية للاحتلال الفرنسي المقاومة المسلحة 1830-1962م، دار العلوم، الجزائر، 2012م، ص238-239).

مضايقته وإضعاف نفوذه منذ عام 1857م¹، إلى جانب ذلك فقد اضطر محمد المقراني إلى أخذ قروض من البنوك والسماسرة اليهود بأرباح، عالية حتى يساعد الفلاحين على توفير البذور² خلال الأزمة الزراعية بين (1866-1870م)، حيث كان الفلاحون الجزائريون على شفا هاوية بضرورة دفع الديون التي تطلبها البنوك بخصوص القروض الممنوحة للقبائل أثناء الأزمة³. ولما كان الجزائريون عاجزين عن دفع ديونهم، فقد أحدث ذلك موجة من السخط والغضب في كثير من الجهات، وخاصةً في منطقة حكم المقراني التي باتت تعيش حالةً من البؤس القتاتل.

وبالحديث عن الديون، فإنه من الضروري الإشارة إلى أن الإدارة الاستعمارية بالجزائر قد طبقت جميع القوانين والتشريعات السياسية والإدارية والقضائية، وفرضت على الأهالي أن يدفعوا نصف الضريبة العربية⁴، وتشكل الضرائب العربية التي تدخل في المساهمات المباشرة مورداً أساسياً للميزانية، وعائدتها من نتائج الحصاد ثروة القطعان وتشمل هذه الضرائب العشور والزكاة والزمرة...⁵، فالمعدلات السنوية للمساهمات الجزائرية كانت خلال فترة الخمس سنوات على النحو الآتي بملايين الفرنكات:

1851-1855م	1856-1860م	1861-1865م	1866-1871م
20.3	22.0	19.8	33.4

زاد العبء الضريبي بأكثر من 200 بالمئة مقارنةً بفترة الجمهورية الثانية⁶، فالعبء الثقيل بالنسبة للقبائل هو الضرائب⁷، وخلال مرحلة الجمهورية الفرنسية الثالثة أصبح الضغط الضريبي أشد وطأةً على الأهالي نظراً لالتزامه مع تحديد تسديد غرامات الحرب⁸ عام 1871م⁹، لإنشاء النظام المدني وثقل الضرائب دفعهم إلى ثورة 1871م بقيادة محمد المقراني¹⁰.

أجبرت هذه الأزمة محمد المقراني على تقديم ضمانات موثوقة، فقام بطلب قرض من مسيرين فرنسين خاصة الضباط في المكاتب العربية، وقد اتخذ من الحاكم العام مكماهون شاهداً على ذلك متعهداً بأن الأموال التي لا يستطيع تسديدها المقرضون ستعوض لهم كضرائب¹¹. وقد وجهت حكومة ماكماهون¹²، نداءً لكبار التجار طلبت منهم قروضاً مالية بضمان الدولة لرؤساء

¹ - بشير بلاح: تاريخ الجزائر المعاصر من 1830 إلى 1989م، دار المعرفة، الجزائر، 2006م، ص 238-239.

² - Emile, Thwilier : Le Royaume Arabe Devent Le Jury de Constantine, Paris, 1873, p.22.

³ - Ben cheikhi-EI-fegounabbassi, L'impact des lous foncières coloniales sur la situation socio-économique des paysans Algériens de 1873 à 1911. Diplôme de doctorat d'état, Constantine, 2006-2007, op cit, p.29.

⁴ - يحي بوعزيز: سياسة التسلط... المرجع السابق، ص 29.

⁵ - Gouvernement général civil de l'Algérie, statistique générale de l'Algérie années 1882 à 1884, imprimerie l'association ouvrière, p. Fontana, Alger, 1884, p.29.

⁶ - Ben cheikhi-EI-fegoun, op cit, p.34.

⁷ - Léons, op cit, p.43.

⁸ - غرامة الحرب: لقد قدرت قيمة الغرامة المالية لثورة 1871م من قبل السلطة الفرنسية بحوالي 37739075 فرنكا ذهبياً أو 80 فرنكا ذهبياً للفرد الواحد، وقد أتاح ذلك تعويض المستوطنين المتضررين من الانتفاضة وتمويل أشغال المرافق العامة وتمويل الاستعمار الرسمي في المناطق غير المتمردة وخاصة في عمالة وهران، وهكذا تدفع القبائل أكثر من 29 مليون ذهباً نقداً والتخلي عن 568817 هكتاراً من أراضي القبائل أنظر: (Ben cheikhi-EI-fegoun, op cit, p.31.)

⁹ - حمادي بن موسى: (الضرائب والغرامات في الجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر)، مجلة الحقيقة، ع 36، 2015م، ص 124.

¹⁰ - Ben cheikhi-EI-fegoun, op cit, p.29.

¹¹ - مولود قايد: المقراني، ترجمة سهيلة بريارة، ط 1، منشورات سيموني، الجزائر، ص 98.

¹² - هو موريس باتريس ادم ماري Maurice-patrice-edme- Maeie، مارشال فرنسي ودوق ماقونتنا Magenta، ولد في 13 جوان 1808م ميلادي في منطقة شاطو سولي « chato de Sully »، وهو الابن السادس لماكيز شارل دي ماكماهون، كان صديق الملك شارلز العاشر الذي جعله نظيراً لفرنسا ينحدر من واحدة من أشهر عائلات إيرلندا، وتوفي في سنة 1873م، للمزيد عن حياته أنظر:

Mac- Mahon, le soldat l'homme, politique l'homme privé, imprimerie typographique de a, pougin 13, quai voltaire, 13 paris, 1877, p.01.

الأهالي وتقدم إلى الجزائريين، فاستجاب المقراني وتدين من اليهودي مسرين الذي كان يملك أسهماً في بنك الجزائر¹، قرضاً بمبلغ ثلاثمائة وخمسة آلاف فرنك في شكل صكوك، غير أن هذا المبلغ لم يلبث أن ارتفع بالفوائد إلى نصف مليون فرنك، كما اقترض المقراني مبلغ مائتي ألف (200.000) فرنك من اليهودي عبادي وثلاثمائة ألف (300.000) فرنك من اليهودي أبو قاية، فارتفعت ديونه بذلك إلى مليون فرنك، وكان ذلك سبباً في إيقاعه بمشاكل ومصاعب لا نهاية لها مع دائنيه².

حتى يسدد المقراني هذه الديون، اضطر لرهن أملاكه وبيع بعضها³. وتوقيع مجموعة من الوصالات المالية لمدة ثلاثة أشهر، وهي المدة التي انقضت ولم يستطع تسديد ديونه بسبب أزمة الجراد، وتدهور أوضاع بنك الجزائر⁴، ونتيجة لذلك بدأت تتوالى إشعارات الإنذار عليه من بنك الجزائر، والشركة العامة الجزائرية، حيث طالبوه بتقديم ضمانات جديدة وموثوقة عن أموالهما التي اقترضها منهم ما جعل الباشاغا في ضائقة مالية حادة إذ أصبح يرى نفسه محطماً مادياً ومعنوياً⁵.

2- استقالة الحاج محمد المقراني:

منذ عام 1853م، بدأ التقليل من سلطة محمد المقراني، حيث انتزعت منه صلاحيات اقتراح الشيوخ أو القياد لتصبح من اختصاص ضباط المكاتب العربية، كما اتهم النقيب "أجيرود" Augeraud أسرة أولاد مقران بأنها تعرقل تطور الإدارة الاستعمارية، وفي 04 أبريل 1858م تلقى الضابط "مارمي" Marmi الأمر من السلطة العليا لإخضاع قبيلة هاشم للضريبة وإنهاء وصاية محمد المقراني على قيادة القبائل بالمنطقة، كما تم تأسيس ملحق لمكتب برج بوعريبرج بزعامة الذي شيدته لخضر بن أحمد المقراني وذلك قصد الإعداد لإبعاده هو الآخر عن السلطة، وقد اعتبر الباشاغا محمد تأسيس ملحق بتازمالت، وكذا الإجراءات الأخرى المجحفة... بمثابة تحذير له ولأفراد أسرته من السلطة الفرنسية⁶.

عندما تدهورت الأوضاع بشرق الجزائر طلب الشيخ محمد المقراني من السلطات الفرنسية أن تقبل استقالته من منصبه بصفته باشاغا⁷. ويذكر لويس فوريسست Louis Forest أن محمد المقراني أرسل إلى الجنرال Augeraud قائلاً: "لقد قدمت استقالتي للماريشال ماكماهون الذي قبلها، وإذا واصلت في خدمة فرنسا فلأنها كانت في حالة حرب مع روسيا، ولم أكن أرغب أن أزيد من صعوبات الوضع... أنا أنوي أن أتمتع بحريتي ولا أستطيع الموافقة على أن أكون وكيلاً لحكومة مدنية، ومن يتهمني بالتحيز يعين حليفتي، ومع ذلك سنرى لاحقاً إذا كنت محقاً في التصرف على هذا النحو أو إذا كنت أنا المحطى، وفي كل مكان تؤكد أنني

¹ - بنك الجزائر: صدر قانون 4 أوت 1851م في الجزائر العاصمة أن المكتب الرئيسي للبنك الذي تم نقله إلى باريس في 5 جويلية 1900م، وتعهد إدارة البنك إلى مجلس تألف من مدير عام ونائبه وتم منح امتياز بنك الجزائر في عام 1851م لمدة 20 سنة وتم تجديده عبر عدة مراحل بمجموعة قوانين ومراسيم:
- مرسوم إمبراطوري 15 جانفي 1868م حتى 01 نوفمبر 1881م.

- قانون 3 أبريل 1880م حتى 01 نوفمبر 1897م.

- قانون 9 جويلية 1897م حتى 03 ديسمبر 1920م.

- قانون 5 جويلية 1900م حتى 31 ديسمبر 1945... ينظر: (حورية طعبة: السياسية الاقتصادية الاستعمارية الفرنسية في عمالة قسنطينة 1870-1954م، أطروحة دكتوراه، جامعة أدرار، 2020م، ص148).

² - بسام العسلي: جهاد شعب الجزائر محمد المقراني وثورة 1871م الجزائرية، ط1، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 1982م، ص104.

³ - البشير بلاح: المرجع السابق، ص296.

⁴ - يحي بوعزيز: دور عائلي المقراني والحداد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م، ص103.

⁵ - لويس رين: تاريخ انتفاضة 1871م في الجزائر، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2013م، ص51.

⁶ - صالح فركوس: المرجع السابق، ص247-248.

⁷ - عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1997م، ص146.

متمرد لماذا؟ لأنهم يريدون إدانتي حسناً لن أستبدل مع هؤلاء الناس طلاقات نارية فقط وسأنتظر وسأكتب إلى قائد البرج أنني أرفض التكليف، وعليه أن يكون في موقف دفاعي لأنني على وشك القتال"¹.

3- تجنيس وتسليط اليهود:

اقترح المجلس العام لمدينة قسنطينة عام 1858م تجنيس اليهود بصورة جماعية، ففي 14 جويلية 1865م صدر قرار نص على منح الجنسية الفرنسية لليهود والمسلمين معا بصورة شخصية² مع احتفاظهم بأحوالهم الشخصية، ومنحهم حق العمل بالجيش والوظائف العامة بالجزائر، وقد أخذ الحامي كريميو Cremieux³ على عاتقه تحقيق هذا الهدف، ووثق صلاته بيهود الجزائر حيث قام بـ 17 رحلة إلى الجزائر للاتصال بزعمائهم والاتفاق معهم على مشروع التجنيس، وقد نص هذا المرسوم على منح اليهود في الجزائر حق المواطنة الفرنسية في 24 أكتوبر 1870م، وبذلك منحت لهم الجنسية الفرنسية، وأصبحوا يتمتعون بما يتمتع به الفرنسي⁴. إن إصدار مرسوم كريميو الذي رفع من شأن اليهود أمام المسلمين على الأصعدة السياسية والقانونية أثار سخط المقراني وغيره من الجزائريين، فقال مقولته الشهيرة: "إنني مستعد لوضع رقبتي تحت السيف ليقطع رأسي، ولكن إذا كنت راضيا بطاعة الجنود فلائي لن أطيع أبدا أحدا من التجار اليهود"⁵، ويقول لويس فوريسست Louis Forest: "اندلع التمرد وانتشر في منطقة القبائل وصحراء قسنطينة وبين المنطقتين منطقة الأوراس، ومع ذلك لا في القبائل ولا في منطقة الأوراس هناك يهود، أما في صحراء قسنطينة فهناك الزيان ووادي ريغ ووادي سوف وورقلة أيضا لا يوجد يهود، جميع المسلمين وحدهم الذين لم يكونوا على اتصال باليهود، لقد كان السخط على تجنيسهم إلى حد أخذهم الأسلحة..."⁶.

هناك شهادات فرنسية تحدثت عن أسباب التمرد ومنها شهادة الأدميرال دي قيدون de Guerdon الحاكم العام للجزائر في 29 مارس 1887م الذي أشار إلى خمسة أسباب للتمرد، وهي ردود فعل صاخبة ضد النظام الإمبراطوري تجاه السكان الأصليين وخاصة ضد السلطة والامتيازات التي كانت يتمتع بها القادة العرب، وكذا مشهد الإهانة والاعتقال والتهديد في مدننا الفرنسية للحفاظ عن سيطرتنا على العرب، وأوعز التمرد حصراً إلى نتائج الرابع من سبتمبر 1870م، عن تجنيس أعداد كثيرة من اليهود هذا هو السبب الرئيسي للتمرد⁷.

نسب الحاكم العام ماكماهون انتشار مشاعر السخط العميق في أوساط المسلمين الجزائريين إلى سببين رئيسيين في رأيه:

1- تقلص نفوذ زعماء الأهالي، وما ينجر عنه من ضياع للامتيازات، ومن جهة أخرى أخذت العلاقات بين الأوروبيين والأهالي تزداد تردداً.

2- قساوة الأساليب المنتهجة من طرف الأوروبيين تجاه العرب خاصة في المراكز الحضرية، حيث يزداد العداء، خاصة وأن الصحافة ماضية في حملاتها ضد العرب، فهي تصورهم في أعين المستوطنين في أبشع الصور الممكنة، وغرضها من وراء ذلك هو تحريك الأحقاد والكراهية⁸.

¹ - Louis Forest : la naturalisation des juifs algériens et l'insurrection de 1871, société française d'imprimerie et de librairie ancienne maison lecéne ou dinet 15, Paris; (s.a), pp.41-42.

² - أحمد سميح حسن إسماعيل: الاستيطان اليهودي بالجزائر، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009م، ص37.

³ - كريميو محام يهودي وسياسي فرنسي عمل مستشاراً للملك لويس فيليب تأمر ضده في انقلاب عام 1848م وفي عام 1870 أصدر هذا المرسوم المتعلق بتجنيس اليهود، أنظر: (بسام العسلي: المرجع السابق، ص84).

⁴ - عبد العزيز فيلاي: اعتداء اليهود على أهل قسنطينة سنة 1934م (أبعاده اليهودية ورد الفعل الوطني والعربي)، دار الهدى، الجزائر، 2014م، ص32.

⁵ - البشير بلاح: المرجع السابق، ص294.

⁶ - يعتبر المنظرون للسياسة الاستعمارية في الجزائر أن أي ثورة أو انتفاضة هي بمثابة تمرد وخروج عن القانون.

⁷ - Forest, op cit, p.29.

⁸ - شارل روبير أجرون: الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919م، ج1، دار الراية للكتاب، الجزائر، 2007م، ص15.

4- الكوارث الطبيعية والمجاعات:

في عام 1864م بدأت أفواج الجراد تغزو البلاد من كل صوب، واتخذت شكلا خطيرا، وفي مطلع عام 1866م الذي سمي بعام الجرا، عبرت في شهر أفريل جبال الأطلس من الجنوب إلى حقول الشمال ومزارعه أسراب الجراد، والتهمت كل ما وجدته من الخضرة والثمار، ففقد الناس إنتاجهم وتعرضوا لضائقة مادية شديدة، وكان أكثر المتضررين هم الجزائريون، أما الأوروبيون فكانت الأزمة خفيفة عليهم لتوفر وسائل الوقاية لديهم والإمكانات المادية الأخرى¹.

وبين سنتي 1867-1868م ظهرت مجاعات رهيبة بسبب الجفاف وقلة المحاصيل الزراعية²، كما انتشر مرض الكوليرا والتيفوس وظهر في عام 1867م، وانتشر في البلاد عن طريق المسافرين الأجانب الذين كانوا يفدون إلى البلاد عن طريق الموانئ³. والواقع أن ما أصاب المجتمع الجزائري ليس نتيجة للكوارث الطبيعية وحدها وإنما كان للنظام الاستعماري المفروض على الجزائريين ضلع في ذلك وإن اندلاع هذه الانتفاضة كان متوقعا وقد لاحظت مؤشراتنا في الأفق منذ زمن⁴.

وقد أثار الوضع المتردي للجزائريين جراء الأزمات الطبيعية دهشة الدكتور فيتال الذي قال في رسالة له في 25 جوان 1865م أن سعر القمح بلغ عتبة مائة فرنك بعدما كان لا يتعدى سعره في الأيام العادية 26 فرنك للقنطار⁵ كانت المجاعة فرصة مناسبة اغتنمها الكاردينال لافيجري⁶ ليفتح باب التبشير على مصراعيه، وكان التبشير الذي يريده هو ذلك الذي يعمل على الإدماج⁷.

5- سياسة الاستيطان ومصادرة أراضي الجزائريين:

رأى الفرنسيون بأن الاستعمار يمتد في الجزائر وعلى حساب السكان الأصليين، وأن الأوروبيين قد استولوا على أراضيهم المملوكة على الأساس الشخصي أو الجماعي، وأنها سوف تقل عندهم الأرض شيئا فشيئا مما يدفعهم للبؤس، وبالتالي تتعارض مصلحة الأهالي مع زيادة الملكية الفرنسية، وحينها يكون من الضروري إيجاد الطرق القانونية لهذه الزيادة⁸.

يقول "ألبرت غلوريو" ALBERT-GLORIEUX أنه يجب الاعتراف بأن السكان الأصليين قد استفادوا بشكل كبير من مجيء الأوروبيين، لأن المساحات الكبيرة من الأراضي التي بحوزتهم والتي تتجاوز احتياجاتهم والتي في الأغلب غير منتجة، بوسائلهم الزراعية البسيطة، وعندما تنتقل هذه الأراضي إلى أيدي الفرنسيين سيجدون فائدة مزدوجة، فسيضمنون سعر يبيعهم ووسائل زراعية أفضل للمساحات التي يحتفظون بها، كما أنهم سيستفيدون من الأجور الزراعية والصناعية التي يضطر المستعمرون لتوفيرها لهم⁹. وطرح أحدهم سؤالا مفاده: هل صحيح أنه إذا احتل الإنجليز الجزائر يمكن أن تزدهر باحتلالهم؟ ويجب أنه إذا استولى الإنجليز على مدينة الجزائر، فإنهم سيتخلون عنها ببساطة، بعد أن يدمروا تحصيناتها كما فعلوا في مدينة طنجة¹⁰.

¹ - يحي بوعزيز: (المجاعة بالجزائر أواخر عقد الستينات من القرن 19 وموقف وآراء الجزائريين)، الأضالة، ع33، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1976م، ص8.

² - عمار هلال: المجرة الجزائرية نحو بلاد الشام 1847-1918م، غرناطة للنشر، الجزائر، 2013م، ص17.

³ - بسام العسلي: المرجع السابق، ص100.

⁴ - شارل روبر أجرون: المرجع السابق، ص7-18.

⁵ - يحي بوعزيز: كفاح الجزائر من خلال الوثائق، الجزائر، 1986م، ص47.

⁶ - شارل أنطوان مارسيل 1825-1892م أسقف فرنسي من مواليد بايون في 21 أكتوبر عام 1825م دكتور متخصص في علم اللاهوت، وأستاذ التاريخ بجامعة باريس، ويعتبر مؤسس المدارس التبشيرية في المشرق وجمعية مبشري إفريقيا المعروفة بالأباء البيض، أنظر: (بطاش علي: المرجع السابق، ص58).

⁷ - بقطاش حديجة: الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871م، منشورات المطبعة الوطنية، الجزائر، 1977م، ص111

⁸ - Albert Glorieux: Etude présentée à la société des Agricultures d'Algérie riment orientale, p. fontana et O, rue d'or léans, 29 Alger, 1900, p.25-26.

⁹ - Albert, ibid, p.26.

¹⁰ - Un mot sur la politique française en Algérie, Typographie et lithographie, robert boulevard louis, napoléon, Toulon, 1870, p.11.

عاش المستوطنون كطبقة مرموقة في مستعمرة الجزائر على حساب السكان الأصليين في جميع الميادين حتى يمكن القول أن فرنسا طبقت سياسة التفرقة العنصرية¹، كما أن الهدف من السياسة الاستعمارية هو تكريس المشروع الاستيطاني والعسكري وتقوية نفوذ المعمرين خاصةً بعد سقوط الإمبراطورية الثانية وانتهاء ثورة 1871م²، حيث أن الصراع السياسي على السلطة كان قائماً بين الأوروبيين والجيش الفرنسي إلى غاية 1870م، أي حين اندحر الجيش الفرنسي أمام ألمانيا في معركة سيدان وألقي القبض على الملك نابليون الثالث من طرف الألمان، وأنداك فقط مالت الكفة لصالح المستوطنين الأوروبيين الذين استولوا على السلطة في الجزائر المستعمرة، وأصبحوا يسيرون البلاد ويحكمونها بأسلوبهم الخاص لغاية 01 نوفمبر 1954م³.

عمل المعمرون ما في وسعهم لتحويل أراضي العرش وأراضي الملك وأراضي البايك إلى ملكيات فردية، لذلك اغتنم المعمر الفرنسي فرصة ثورة 1871م للحصول على 500 ألف هكتار من الأراضي لتأسيس الملكية الفردية⁴، كما رحب المستوطنون الأوروبيون كثيراً بسقوط نابليون الثالث والإمبراطورية الثانية، ونظامها في صيف عام 1870م، لأن ذلك أدى إلى تخلصهم من السلطة العسكرية، ونفوذ العسكريين الذين كانوا أكبر عقبة أمام أهدافهم وطموحاتهم، وكانوا حسب زعمهم حماةً للأهالي ضد تسلطهم رغم ما وصلوا إليه من سطوة ونفوذ، وكان إعلان الجمهورية الرابعة من سبتمبر انتصاراً لهم لأنها خلصتهم من مشروع المملكة العربية⁵، وهي سياسة نابليون التي تلخص في أنه يجب أن تكون الجزائر لفرنسا زيادةً في القوة، وليس سبباً في الضعف وأن تهدئة الخصومات واتفق المصالح أمرين أساسيين فشنت على الإمبراطور حملة قوية ضده من المستعمرين وحكموا خلاف ذلك⁶. كان لتغيير النظام السياسي في فرنسا تأثيره المباشر على السياسة الفرنسية الاستعمارية في الجزائر، فقيام النظام المدني كان تجسداً لرغبة عميقة طالما طالب بها المهاجرون الأوروبيون، والجانب البارز في هذا التغيير بالنسبة للوضع في الجزائر هو انتقال السلطة من العسكريين إلى المدنيين بنفس الصلاحيات القهرية التي كانت للأوائل، كما أصبح للكونلون دور بارز في تحديد السياسة التي ستتبع إزاء سكان البلاد في جميع الميادين⁷.

نشطت حركة الاستيطان الأوروبي نشاطاً واسعاً ومكثفاً بالجزائر المستعمرة ابتداءً من عامي 1870م و1871م، واتجهت نية الإدارة الاستعمارية إلى غزو أرياف الجزائر الداخلية وتوطين العنصر الأوروبي بها، وتقديم الأراضي لهم مجاناً بشرط الإقامة الجبرية فيه⁸، وثورة المقراني التي عمت أحداثها ما يقرب من نصف مساحة الجزائر هي رد على سياسات فرنسا الجائرة، وفي مقدمتها انتزاع الأراضي من الجزائريين، ومحاولات طمس هويتهم الحضارية⁹، فالقوانين التي صدرت في هذا الشأن ابتداءً من قرار المجلس الإمبراطوري المعروف باسم "سيناتوس كونسيلت" الذي صدر سنة 1863م، مروراً بقانون فارني عام 1873م. لينتهي عند قانون 30 ديسمبر 1887م، كانت عبارة عن عملية اغتصاب منظمة، ألحقت أضراراً فادحة بسكان الريف¹⁰، الذين انخرطوا في الثورات، ومنها ثورة 1871م.

¹ - صلاح العقاد: الجزائر المعاصرة، مطبعة الرسالة، القاهرة، مصر، 1963م، ص10.

² - محمد بوسنيكة بن علي: التطور الثقافي والسياسي بزوايا الطريقة الرحمانية في عمالة قسنطينة 1870-1954م، دار الإرشاد، الجزائر، 2015م، ص72.

³ - عمار بوحوش: المرجع السابق، ص152.

⁴ - الصادق دهاش: (نتائج ثورة 1871م أبعادها ومظاهرها)، المصادر، ع14، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة الأول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2006م، ص22.

⁵ - يحي بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية 1830-1954م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص27.

⁶ - Ben cheikhi-EI-fegoun, op cit, p.28.

⁷ - جمال قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر، الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994م، ص123-124.

⁸ - البشير بلاح: المرجع السابق، ص300.

⁹ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص31.

¹⁰ - جمال قنان: المرجع السابق، ص134.

أمام تزايد أعداد المستوطنين لم تعد السلطات الفرنسية تمنح الأراضي مجاناً بل أصبحت تبيعها لهم¹ حيث اتبعت الجمهورية الثالثة أساليب مشجعة للاستيطان تختلف عن السابق، فقد لبت مطالب المستوطنين لجلب أكبر عدد ممكن للأوروبيين لمواجهة الجزائر المستعمرة بشرياً وعملت على تثبيت العائلات الأوروبية الفرنسية وغير الفرنسية الوافدة²، وانتزع الأراضي من الجزائريين ووهبتها للجمعيات الدينية المسيحية³، والهيئات الكنيسية، والتي كانت تبيعها بدورها إلى المعمرين الأوروبيين⁴. وبذلك فقد منعت فرنسا الجزائريين من موارد رزقهم، وحولتهم إلى طبقات محرومة، ما أسهم في تحطيم الشعب الجزائري اقتصادياً، واجتماعياً وهو الأمر الذي مكّن الأوروبيين من السيطرة على الأراضي⁵.

6- نظام الإدارة الفرنسية

عرفت الجزائر منذ بداية الاحتلال عددا لا يستهان به من الأنظمة الإدارية انطلاقاً من نظام المكاتب العربية، التي توسعت وقوي نفوذها حتى أصبح ديوان المكتب العربي هو المركز الحقيقي للسلطة في الجزائر وصارت تمارس مسؤوليات الحراسة والتوجيه السياسي والديني والمالي والعسكري والإداري⁶.

في عهد الإمبراطور نابليون الثالث أقنع مجلس السيانتوس كونسيلت (مجلس الشيوخ) بإصدار قرار 22 أبريل 1863م، الذي يقضي بتمليك الجزائريين الأراضي التي تحت أيديهم سواء كانت ملكاً شخصياً أو مشاعة بين الأعراس، وكان الدافع لهذه السياسة هو تثبيت أحماد عمه نابليون الأول وكرهه الشديد لأوربي الجزائر، وبسبب الضغوطات أصدر قانون 07 جويلية 1864م الذي أعاد السلطة للحكام العامين، وبذلك اشتدت قبضة العسكريين على الجزائر التي تحولت إلى مستعمرة عسكرية، وبسبب غضب الجميع زار الإمبراطور الجزائر ليطالع على الأوضاع بنفسه، فامتدت زيارته بين 03 ماي و07 جوان 1865م، وتنقل في جهات كثيرة منها، والظاهر أن الحاكم الجديد بيليسي Pélissier كان قد أھل الإدارة فاستغل المدير العام للشؤون المدنية مارسي لاكوست Mercier ضعف الحاكم وإهماله لمصالح المعمرين، ولكن نابليون الثالث كان قد صرح بأنه ينبغي قبل كل شيء أن يضمن لأهالي البلاد احترام أراضيهم وحقوقهم⁷.

لم تحقق سياسة نابليون الثالث نتائج إيجابية بالنسبة للجزائريين سواء بالنسبة لحصولهم على حقوقهم السياسية والمتمثلة في حرية التعبير أو بالنسبة للمساواة مع الفرنسيين المقيمين بالجزائر، ولم تتجسد في أرض الواقع، وكل ما قدمه هذا الحاكم هو تمكين قادة الجيش من التصدي للمقاومة في بلاد القبائل، وفي الجنوب كما أنه ساعد المعمرين على تحطيم مؤسسات الجزائر الوقفية منها واستبدالها بمبازل جديدة إدارية سواء في ميدان التسيير الإداري أو القضائي أو المالي⁸، وقد حاول نابليون الثالث أن يوفر حماية

¹ - عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي: مختصر تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص270.

² - عيسى يزير: السياسة الفرنسية تجاه الملكية العقارية في الجزائر 1830-1914م، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2009م، ص102.

³ - استغل الكاردينال لافيغري تشجيع ودعم دي قيرون، فجمع إثر جمعة 1867م-1869م، حوالي 1750 طفلاً تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشر، قصد تربيتهم تربية نصرانية، ولم تغلح طلبات أهلهم وذويهم لاستردادهم من أيدي لافيغري، لأن الحاكم العام والإدارة المحلية في الجزائر المستعمرة لم يحركوا ساكناً، كما لم يفلح مسعى المستشارين العاملين الجزائريين الذين انتقلوا إلى باريس، واتصلوا بالسلطات الفرنسية لنفس الغرض بعد أن جمدت العدالة المحلية دعاويهم، وحسب المؤرخ الفرنسي أجرون، فإنه لم يرجع من مجموع 1750 طفلاً إلى أهلهم إلا مئتين (200)، وذكر أن ستمائة (600) منهم قد هلكوا ولم يذكر أسباب هلاكهم، ولم يبق عند لافيغري سنة 1871م إلا ثلاثمائة وثمانية وسبعين (378) طفلاً وثلاثمائة واثان وأربعين (342) بنتاً، نُقل منهم ثلاثمائة (300) إلى فرنسا، ووضع قسم آخر منهم بالخراس، والبقية بقرتين في منطقة العطار، أنظر: (شاوش حباسي: من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر 1830-1962م، دار هومة، الجزائر، 1998، ص32).

⁴ - بسام العسلي: المرجع السابق، ص74.

⁵ - مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والجمتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصة، الجزائر، 2007م، ص17.

⁶ - حنفي هلايلي: (دوافع ثورة المقراني 1871م)، الحوار المتوسطي، ع8، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2015م، ص14.

⁷ - شارل روبر أجريون: تاريخ الجزائر المعاصر، ترجمة عيسى عصفور، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص59.

⁸ - عمار بوحوش: المرجع السابق، ص128.

شكالية للجزائريين وممتلكاتهم وذلك عن طريق الاعتراف بملكية أراضي البايك، والأراضي المملوكة للفرد أو الجماعة، والملكية الجماعية التابعة للبلديات غير أن هذا النظام قضى على التنظيم القديم المتمثل في العروش، فتواجد العائلات في منطقة واحدة يسهل على فرنسا السيطرة عليها وامكانية مراقبتها بكل سهولة¹.

كما عملت الإدارة الفرنسية على تشجيع الاستيطان الأوربي في كل مناطق الجزائر بما فيها منطقة القبائل حيث عملت على تهجير الأوربيين إلى الجزائر، فأنشأت أكثر من 42 قرية خاصة بالمستوطنين بين (1848-1850م)²، ولتشجيع هذه العملية منحت فرنسا بين عامي 1863م و1871م ما يقارب 100 ألف هكتار للمعمرين الأوربيين في كل من وهران والجزائر الوسطى وقسنطينة³ موازاة مع فرض قانون الإيجار الذي حدد بـ 50 فرنك لكل هكتار صالح للزراعة⁴.

إن التغيرات التي أدخلت على التنظيم الإداري في الجزائر المستعمرة سنة 1868م، هددت مصالح زعماء الأهالي الكبار، ومن بين المطالب التي أثارت مخاوف العرب إلغاء مناطق الحكم العسكري وتشجيع الاستيطان وتأسيس الملكية الفردية كبديل للملكية القبلية، ومنح الامتيازات لمن يطلب التجنيس وتوسيع تطبيق التشريع الفرنسي ليشمل المسلمين أيضاً، فكانت تلك التجديدات كافية لدفع الأهالي إلى حمل السلاح، فسارع كثير من الضباط السامين إلى تقديم استقالتهم والباشا محمد المقراني من بين زعماء الأهالي الذين حذوا حذوه⁵، وهذا مرسوم 09 ماي 1868م الخاص بتقسيم ثلاث بلديات مختلطة، تم تنظيمها في منطقة دلس Dellys بموجب مرسوم صادر في 06 نوفمبر 1868م، وبدأ العمل به اعتباراً من 01 جانفي وهو:

- بلدية ذراع الميزان المختلطة تضم المنطقة الاستيطانية لهذه القرية، وقبيلة عابد وبلغت الموارد المالية فيها 8680 فرنك وسكانها كالاتي:

فرنسيين	172 نسمة
مسلمين	606 نسمة
أجانب	18 نسمة
عدد السكان	796 نسمة

- بلدية تيزي وزو المختلطة بلغت مواردها المالية 8400 فرنك، وكان عدد سكانها على النحو الآتي:

فرنسيين	205 نسمة
مسلمين	25 نسمة
أجانب	10 نسمة
عدد السكان	240 نسمة

- البلدية المختلطة Fort Napoféon بلغ دخلها المالي حوالي 5000 فرنك وعدد سكانها:⁶

فرنسيين	168 نسمة
مسلمين	13 نسمة

¹ - عمار بوحوش: المرجع السابق، ص136.

² - دليلة بوجناح: الفكر الاستعماري الفرنسي وتطوره خلال القرن 19م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2011م، ص14.

³ - أحمدية عميراي: أثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري 1830-1954م، الجزائر، 2007م، ص59.

⁴ - جيلالي صاري: تجريد الفلاحين من أراضيهم 1830-1962م، دار غرناطة للنشر، الجزائر، 2010م، ص32.

⁵ - شارل رويبر أجيرون: المرجع السابق، ص16.

⁶ - Le colonel Robin :L'insurrection de la Grande Kabylie en 1871, Henri Charles-Lavauzelle, 10 rue Danton boulevard Saint Germain, 118, paris, 1871, p.25.

يهود	08 نسمة
أجانب	39 نسمة
عدد السكان	228 نسمة

وبسبب ضغوطات مستوطني الجزائر أصدرت حكومة الدفاع الوطني في "تور" Tours قرارات يوم 24 أكتوبر 1870م، تنص

على تطبيق :

- إلغاء النظام العسكري والمكاتب العربية وامتيازات رؤساء الأهالي.
- إنشاء محاكم الجنايات وإخضاع الجزائريين إليها.
- تجنيس يهود الجزائر بصورة جماعية وإجبارية.

تبع هذه القرارات إصدار مرسوم 19 مارس 1871م ومن أهم ما جاء فيه تقسيم الجزائر إلى إقليمين شمالي مدني وجنوبي عسكري¹، ومنذ عام 1871م عمدت السلطات الفرنسية في الجزائر إلى انتهاج نظام إداري جديد يعتمد أساسا على السلطة المدنية التي أقرتها الجمهورية الثالثة، والتي يكون فيها الحاكم العام - المنصب المحدث لتمثيل فرنسا - مرتبطاً مباشرةً بوزارة الداخلية بدل وزارة الحربية كما في السابق أثناء مرحلة الحكم العسكري².

ثانيا: الظروف الخارجية

1- هزيمة فرنسا أمام ألمانيا عام 1870م:

خلال الحرب الفرنسية البروسية سنة 1870م وتحير ألمانيا لمنطقتي الألزاس واللورين عمل الألمان على إضعاف نفوذ فرنسا في الجزائر حيث استغلوا سخط الجزائريين لدفعهم إلى الثورة ضد فرنسا من خلال استحداثهم لمؤسسة إعلامية في تونس سنة 1870م تحرض الجزائريين على التمرد ضد فرنسا³، وكان على رأس هؤلاء الجواسيس جيرارد روهلف الذي كان يعمل كجندي مرتزقة بالجزائر، وقع اختيار ألمانيا عليه لمعرفته المسبقة بالمنطقة، وكذا إتقانه اللغة العربية لكن اكتشاف المخابرات التونسية لأمره حال دون تحقيق مطامع ألمانيا. إذ تم نفيه إلى صقلية وبقية الجواسيس تم تسريبهم إلى المدن الساحلية للجزائر والمغرب الأقصى⁴.

في نوفمبر 1870م نشرت الجريدة الرسمية الألمانية رسالة مزعومة من الجزائريين إلى الإمبراطور غليوم يعلنون فرحتهم بتحقيق ألمانيا لانتصار ضد فرنسا ما دفع الجزائريين إلى تحرير رسالة وقعها قضاة وأئمة ورجال إفتاء تفند ما جاء به الألمان من ادعاءات⁵، ورغم أن الأخبار كانت تصل لهم معلنة هزيمة القوات الفرنسية في معركة فيردان يوم 02 سبتمبر 1870م، وبعدها مباشرة معركة ماتس يوم 27 أكتوبر، وبالرغم من أن الأخبار كانت تصل إلى الجزائريين مضطربة متناقضة وغير واضحة لكنها كانت تدل على مدى التعفن السياسي الذي آلت إليه فرنسا بعد هزيمتها⁶. وعليه فإن هذا الظرف خدم توجه محمد المقراني نحو إعلان ثورته.

¹ - إبراهيم مياسي: مقاربات في تاريخ الجزائر 1830-1962م، دار هومة، الجزائر، 2007م، ص128.

² - بوعزة بوضرساية: الجرائم الفرنسية والإبادة الجماعية في الجزائر خلال القرن 19م، منشورات المركز الوطني لدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، الجزائر، د ت، ص184.

³ - يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا...، المرجع السابق، ص150.

⁴ - يحي بوعزيز: ثورة الباشاغا محمد المقراني وبله مواقف العائلات الأرستقراطية...، المرجع السابق، ص156.

⁵ - بسام العسلي: المرجع السابق، ص93.

⁶ - الطاهر أوصديق: ثورة 1871م، ترجمة صباح مسعود، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

2- دور محي الدين بن الأمير عبد القادر:

كان محي الدين يعيش بالمنفى بدمشق مع أبيه الأمير عبد القادر حيث كان يمارس نشاطه بصفة عادية إلى غاية عام 1870م، وهي السنة التي أبدى فيها محي الدين رغبته في العودة إلى الجزائر من أجل مجابهة الاحتلال الفرنسي. حيث كانت الإسكندرية مقصده الأول ليتوجه أواخر أكتوبر 1870م إلى تونس تحسبا للدخول إلى الجزائر. لكن بسبب المكانة التي حضي بها لدى السلطات التونسية منع من السفر خوفا من اكتشاف أمره، إلا أن رغبة محي الدين في تحرير الجزائر جعلته يغير خطته حيث توجه نحو منطقة نفراوة الحدودية مع الجزائر حيث التقى هناك بعدد من اللاجئين والمنفيين إلى تونس¹، وقام بتحفيزهم على الثورة والعودة للجزائر، كما وجه رسائل عديدة إلى القادة في الجزائر تدعوهم إلى الجهاد وذلك في شهر ديسمبر 1870م مستعملا في ذلك توقيعهم وختم أبيه الأمير عبد القادر².

3- التحريض العثماني:

لم تتوقف الخلافة العثمانية من محاولة استعادة نفوذها في المغرب العربي، وعندما وقعت الحرب البروسية الفرنسية حاولت استثمار الموقف من خلال محي الدين الذي يقال أنه توجه إلى الجزائر بتحريض من السنوسيين بسوريا، والذين كان لهم أتباع كثر في الجزائر يجوبون البلاد ويدعون إلى الجهاد ضد المسيحيين أو من خلال الجمعية الخيرية الإسلامية للجزائر المحروسة التي كانت على اتصال بالباب العالي، والجدير بالذكر أنه عندما ظهر محي الدين في خريف سنة 1870م بمنطقة الحدود التونسية الجزائرية أشاع أتباعه أن جيشا عثمانيا في طريقه إلى تونس للسيطرة عليها وتحرير الجزائر، ورافق ذلك انتشار دعاة من قبل العثمانيين في قابس وصفاقس وجرية حيث أظهروا نشاطا في الدعاية لصالح السلطان العثماني³.

وجه زعماء الجمعية الخيرية رسالة إلى الصدر الأعظم محمد ندم باشا في أواخر 1871م جاء فيها: "إن أصل محاربتنا وعصياننا ضد أعداء ديننا كان باختيار الدولة العلية ورغبتها، ولم نقصر في شيء مما رغبت به الدولة العلية، وأشارت به علينا بواسطة المرحوم علي باشا، وحضرة تورس باشا ..."، وفي رسالة أخرى وجهها زعماء الجمعية الخيرية جاء فيها: "إننا نقترح على السلطان اختيار واحد من الأمور الثلاثة لحل مشكلة الجزائر، فإما كوسيط بعض الدول حتى تسلم فرنسا سيادة السلطان على الجزائر، وإما مطالبة فرنسا بالتنازل عن الجزائر مقابل مبلغ مالي نلتزم بدفعه، وإما إعلان الحرب عليها"⁴.

خاتمة:

تعتبر سنة 1871م، حاسمة في التغيير السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الجزائر المستعمرة، وكان لها تأثيرا بالغ الأهمية في تاريخ الشعب الجزائري وتطور المقاومة الجزائرية أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وتحتل مقاومة محمد المقراني والشيخ الحداد مكانة بارزة ضمن سلسلة المقاومات الشعبية الجزائرية، وكان للزاوية الرحمانية الدور الحاسم في كافة الأعمال الحربية لهذه الثورة التي اصطدمت بقوة العدو وتفوقه وعمله على تدمير القيادات والزعامات التقليدية لتنعزل عن الشعب، ولعل محدودية تجربة المقراني الحربية وعدم استفادته من خبرة أتباعه في هذا الشأن كانت من بين الانتقادات التي وجهت لثورته، والتي ما إن انتهت حتى قامت الإدارة الاستعمارية بإخلاء منطقة القبائل من سكانها وإعادة إعمارها بالمستوطنين المتوافدين بازدياد إلى المستعمرة وبعدها اتبعت سياسة التقتيل الجماعي وفرض الضرائب والغرامات انتقاماً من السكان لوقوفهم ودعمهم لهذه الثورة.

¹ - يحي بوعزيز: دور عائلي المقراني والحداد...، المرجع السابق، ص 161

² - بسام العسلي: المرجع السابق، ص 93.

³ - المرجع نفسه، ص 97.

⁴ - نفسه، ص 98.

لا شك أن حوصلة البحث في ظروف ودوافع ثورة المقراني بالشكل الذي ينبغي أن تقدم، تنفي بعض الأحكام النمطية من كون هذه الثورة كانت مجرد رد فعل سريع على السياسة الفرنسية تجاه الأسرة المقرانية، ذلك أنها ثورة تداخلت فيها الأسباب والمعطيات، وتنوعت الظروف والدوافع الداخلية والخارجية، لتنجز مقاومة غنية بأحداثها ووقائعها، أثبتت تأثير قادة المقاومات الشعبية الإيجابي على الشعب الجزائري، وهو ما يؤكد عليه أبو القاسم سعد الله في كتاباته حينما يذهب إلى الإقرار بأن قادة المقاومات الشعبية "حافظوا على الضمير الوطني حيا، ومثلوا استمرار الكيان الجزائري الذي حاول الاحتلال القضاء عليه"، وبذلك ساهمت هذه المقاومة في الحفاظ على الروح الثورية وترسيخ معاني الجهاد لديه، وتدعيم الفكر الرافض للاحتلال والوجود الاستعماري بجميع أشكاله ومظاهره، ونبذ الانهزامية.

دور أسرتي الشيخ الحداد وآث قاسي في ثورة 1871م

محمد أرزقي فراد - جامعة الجزائر 2

تعتبر ثورة 1871م من أهم الثورات التي عاشتها منطقة الزاوية في القرن التاسع عشر الميلادي، وهذا بالنظر لحجمها وتناثرها الخطيرة على أهل المنطقة، رغم وحشية الاستعمار الذي خرب العمران وأتلف الفلاحة بحرق الزرع وقطع الأشجار ونهب الثروة الحيوانية. فإن ذلك لم يحطم معنويات الشعب، ولم يدفعه إلى الاستكانة، فظلت جذوة المقاومة متأججة في القلوب، فلا تكاد ثورة تخمد، حتى تنبعث من رماحها ثورة أخرى، وأقضت تلك الثورات جميعها مضاجع الفرنسيين الذين لم يهدأ لهم بال، طالما ظلت بلاد الزاوية صامدة صمود جبالها المحصنة. التي لم يسبق لقوة أجنبية وافدة أن وطأت أقدام جنودها هذه الأرض¹.

وتتميز ثورة 1871م بمجموعة من الخصائص ميزتها عن غيرها من المقاومات الشعبية خلال القرن 19م بداية باتساع قاعدتها الشعبية التي لم تنحصر في منطقة الزاوية فقط، بل امتدت إلى الأوراس شرقا، وشرشال غربا، وبوسعادة جنوبا، وكان انتشارها على درجة كبيرة من السرعة أدهش الفرنسيين الذين لم يتوقعوا هذا المد الجهادي الكاسح بالنظر إلى وحشية سياساتهم الاستعمارية. وبالنسبة للميزة الثانية فتتمثل في شعور المستوطنين لأول مرة بالخطر يهدد وجودهم في الجزائر جراء الهجمات الكاسحة على مستوطناتهم ومزارعهم، فاضطروا إلى مغادرة منازلهم نحو الثكنات العسكرية طلبا للحماية²، بالإضافة إلى ثنائية القيادة التي مثل فيها محمد المقراني العائلات الكبيرة (الجواد)، التي سبق للحكم العسكري الفرنسي أن أسند لها إدارة شؤون الأهالي لسنوات عديدة، في حين مثلت عائلة الشيخ محمد أمزيان بن الحداد الجماهير الكادحة، التي احتضنت الثورة بإخلاص، دفاعا عن العقيدة والوطن، وليس إلا.

وما يحسب على هذه الثورة أنها لم تكن منظمة ومهيكلية بما يكفي، فالقيادة لم تعد العدة لحرب شاملة، كالتسليح الجيد والتنظيم المحكم، ولم تقدر عواقب الحرب تقديرا صائبا، وإذا سلمنا برأي الدكتورين الباحثين يحي بوعزيز، ومحمد إبراهيم صالح، فإن العوامل الشخصية كانت بادية ضمن الأسباب الخاصة باندلاع الثورة، كما ألقى الصراع - من أجل النفوذ - بين عائلتي الشيخ ابن الحداد (ناحية صدوق. شرق وادي الصومام)، والشيخ ابن علي الشريف (بلولة أوسامار. غرب وادي الصومام) بظلاله على إرهابات قيام الثورة³، وقد انتهت الثورة باستسلام مبكر لقيادتها، وبطريقة فاجأت الشعب الذي كانت معنوياته مرتفعة ولم تظهر عليه آثار الاستكانة، فقد استسلم سي عزيز بن الشيخ الحداد وأخوه سي أحمد بعد ثلاثة أشهر من انخراطهما في الثورة، دون تقدير العواقب الوخيمة المنعكسة على الشعب الذي استجاب لنداء الجهاد استجابة تامة، أكدت إخلاصه للطريقة الرحمانية التي تزعمت المقاومة والجهاد ضد الاستعمار الفرنسي.

ويمكن القول بأن الكفاح بمنطقة زاوية خلال القرن 19م ضد المستعمر الفرنسي قد توقف بنهاية هذه الثورة، لتستمر جذوة مقاومة الاستعمار في شكل تمردات فردية، والتي عرفت باسم (المتوردون من أجل الشرف). قبل أن يتحول هذا النضال المسلح إلى نضال سياسي بعد الحرب العالمية الأولى⁴، ويمكن القول بأن نتائج هذه الثورة كانت خطيرة على المجتمع الزاوي بشكل خاص والمجتمع الجزائري بشكل عام، فقد شهدت سياسة المستعمر الفرنسي تصعيدا خطيرا قصمت ظهور الجزائريين، بما فرضته من غرامات

¹ - Emile Carrey: Recits de Kabylie La compagne de 1857, Editions G.A.L Alger, 2004, p.12.

² - محمد الصغير فرج: تاريخ تيزي وزو، منشورات ثالة، الجزائر، 2007م، ص 147.

³ - يحي بوعزيز: وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 81.

⁴ - يحي بوعزيز: (الحقيقة عن دور زاوية صدوق والإخوان الرحمانيين في ثورة 1871م)، الأصاله، ع 14-15، وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي، الجزائر، 1973م، ص 161.

كبيرة ناءت كواهل الأهالي بثقلها، وبمصادرة أملاك القبائل الثائرة، وبمحاكمات صورية تمحضت عن سجن ونفي العديد من زعماء الثورة إلى كاليديونيا الجديدة، واستقدام وتوطين فرنسيي الأزلزاس واللورين في الأراضي المصادرة.

ومن الأسباب التي كانت وراء قيام هذه الثورة سياسة المستعمر الفرنسي التي قامت على التقتيل والتجوع والتفجير والتجهيل، ومصادرة أملاك الخاصة والعامة، وانتهاك حرمت المؤسسات الدينية. وكانت سببا رئيسيا أيضا في اندلاع ثورات متعاقبة من أجل التحرر من نيره القاهر. وتضاعفت ولايات الشعب الجزائري خلال عقد الستينيات من القرن التاسع عشر الميلادي، باشتداد سياسة مصادرة الأراضي، وفرض الضرائب الفادحة، وتخطيط التنظيمات الاجتماعية التقليدية التي نشأ عليها الجزائريون، والاستلاء على أوقاف المؤسسات التعليمية، مقابل ذلك استفادة اليهود من (قرار كريمو) الذي منح لهم الجنسية الفرنسية، فشكل ذلك نوعا من الاستفزاز للجزائريين، فضلا عن الكوارث الطبيعية كالجفاف وزحف الجراد اللذين دمر المحاصيل الزراعية، فانتشرت المجاعات على نطاق واسع أودت بحياة آلاف الجزائريين، ثم جاء النشاط التبشيري ليجhez على الأطفال اليتامى الذين خلفتهم هذه الكوارث، كل هذه العوامل السياسية والطبيعية كانت تعتمل في دواخل المجتمع، وجعلت الثورة قاب قوسين أو أدنى من الانفجار¹.

وكانت الأوضاع المشحونة بالتوتر تنتظر فقط الشرعة التي تقصم ظهر البعير، فجاء انهزام فرنسا في حرب السبعين أمام ألمانيا، وما نجم عنه من تداعيات على نظام الإدارة الفرنسية في الجزائر، بمثابة الشرارة المفجرة للانتفاضة، كسقوط النظام العسكري الذي كان يعتمد على الأرستقراطية المحلية (الأجواد) في تثبيت الأمن، وزوال حكم الامبراطور نابليون الثالث المشهور بسياسته الهادفة إلى التوفيق بين مصالح المستوطنين الفرنسيين، ومصالح الأهالي، الذي رفع شعار إقامة مملكة عربية في الجزائر، وحلول محله النظام المدني الذي ضيق على مصالح الأجواد المحليين المتعاملين مع النظام السابق، هذا وقد توجس الجزائريون خيفة من النظام المدني الجديد باعتباره نظام يكرس (سيطرة المستوطنين) التي ستبتلع مزيدا من أراضيهم وتحطم قوانينهم وتنظيماتهم الاجتماعية، كما يجب أن نضع في الحسبان أيضا الصراع الدائر رحاه بين بعض الأسر الجزائرية التي أسند لها الاستعمار الفرنسي بعض المسؤوليات (قياد وباشاغوات وقضاة) في حوض الصومام كعائلات الشيخ الحداد، وأورابح، والمقراني².

ينتمي الشيخ محمد أمزيان بن الحداد إلى عائلة متواضعة حديثة العهد بالجد، إذ كان أجداده يعيشون من مهنة الحدادة المتواضعة، ويعود الفضل في ارتقاء العائلة في الهرم الاجتماعي إلى علي بن محمد، والد الشيخ محمد أمزيان الحداد، الذي قطع الصلة بحرفة الحدادة، ليفتح محلا لتدريس القرآن، محدثا بذلك نقلة نوعية في حياة الأسرة، وقد مكنته هذه المهنة من توجيه أبنائه نحو التعليم والدراسة، وبالفعل شد الطفل محمد أمزيان الرحال إلى زاوية بن أعراب المشهورة بمستوى تعليمها العالي بعرش آث يراثن، وبعد إكمال تحصيله المعرفي هناك قفل راجعا إلى مسقط رأسه³.

وقد أصبح الشيخ الحداد مقدما للطريقة الرحمانية في بلاد الزواوة سنة 1860م، بعد أن أغلقت السلطات الفرنسية الزاوية الأم في عرش آث إسماعيل بجرجرة، عقابا لها على مشاركتها في الثورة 1800-1807م بقيادة الشيخ أعمر، ثم سرعان ما ملأت شهرة محمد أمزيان بن الحداد الآفاق، لذلك من الطبيعي أن يكون صوته مسموعا عند تجنيد أتباع الطريقة للانتفاف حول الثورة، رغم أنه لم يكن متحمسا لها في البداية، بدليل أنه فكر في الهجرة إلى تونس⁴، ويبدو أن ما عاناه محمد المقراني من صعوبات في تجنيد المواطنين في صفوف الثورة، قد دفعه إلى الاستنجاد بالشيخ الحداد، لذلك بذل قصارى جهده لإقناعه بضرورة رفع راية الجهاد في وجه الفرنسيين، وكان له ما أراد بعد أقل من شهر واحد من اندلاع الثورة.

¹- Mohamed brahim salhi: la tariqa rahmaniya, H.C.A, Alger, 2008, p.90.

²- Emile violard: Arezki Abdoun, Editions echo-plus, Alger, 1998.

³ - الصديق تاووي: المبعدون إلى كاليديونيا الجديدة، دار الأمة، الجزائر، 2007م، ص101.

⁴ - علي بطاش: حياة المقراني والشيخ الحداد، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، 2007م، ص148.

استدعى الشيخ محمد أمزيان بن الحداد مريديه إلى اجتماع طارئ، بصدوق الأعلى يوم 08 أبريل 1871م، فأعلن أمام الجمع الغفير قراره القاضي برفع راية الجهاد لطرد الفرنسيين الغزاة، فأشار للحاضرين في غمرة الخطاب الحماسي - بعدما ألقى بعضاه أرضا - أن الثورة ستلقي بالأعداء في البحر، ونظرا لتقدمه في السن (أكثر من ثمانين سنة) فقد كلف ولديه سي عزيز، وسي أحمد بقيادة الثورة، وكانا في مقتبل العمر (أقل من أربعين سنة) يتأججان حماسا لهذه الثورة، بيد أنهما لم يضعنا خطة لتسييرها، بمعالم واضحة من شأنها أن تضاعف من حظوظ نجاحها، وعلى أي حال فقد استطاع الشيخ الحداد بشخصيته العلمية المرموقة، وبما كان يتمتع به من تقدير لدى أتباع الطريقة الرحمانية، أن يجند أكثر من مائة وعشرين ألف رجل، في حين لم يتعد عدد الرجال الذين جندهم محمد المقراني النبيل (من الأجواد) من مناطق برج بوعريج، وسور الغزلان، وبوسعادة، خمسة وعشرين ألف رجل¹.

كان سي عزيز شخصية محورية في تنظيم الثورة وتجنيد الشعب في صفوفها، وهذا بفضل تجربته الإدارية التي اكتسبها من توليه منصب (القايد) منذ سنة 1864م، وثقافته الواسعة التي صقلتها الأسفار إلى فرنسا، ويبدو أن اتساع رقعة الثورة قد جعله يوزع المهام بينه وبين أخيه سي أحمد، فتكفل هو بالناحية الشرقية لوادي الصومام وجبال البابور والبيان (نواحي جيجل وسطيف)، فتعاون مع شيوخ الزوايا الرحمانية في جيجل، أبرزهم سيدي سعدون القرشي مقدم زاوية فرجيوة، والحسين بن الشريف مقدم زاوية الشقفة، ومحمد بن فيالة مقدم زاوية سيدي رتيز، وصهره عمر بوعرعور، ولئن كان أتباع الطريقة الرحمانية قد احتضنوا الثورة في جيجل، فإن العائلات المتعاونة مع فرنسا - حسب ما جاء في مذكرات سي عزيز - قد تصدت له وحالت دون توسيع رقعة الثورة، أمثال عائلة ابن حبيلس، وأولاد داودي بن كسكاس، وعائلة بن منية² هذا وقد التقى بومزراق مع سي عزيز قرب بجاية، وشارك في مهاجمة الفرنسيين هناك. ثم ذهبوا إلى قرية عموشة، أين التقى مع مقدم زاوية فرجيوة الشيخ سيدي سعدون القرشي، فأخبرها بما حل بزوايته من تخريب على يد القائد الفرنسي (فيلو) بدعم من بلقاسم بن حبيلس، ثم خاض بومزراق بمعية سي عزيز عدة معارك في ناحية عموشة ابتداء من 20 ماي 1871م.

أما أخوه سي أحمد فقد تكفل بالناحية الغربية لوادي الصومام، والقبائل الكبرى، فواجه القوات الفرنسية المدعمة بأتباع ابن علي الشريف، وأحمد أورابح، ومحمد أمزيان بن الموهوب شيخ زاوية العراش، هذا وقد وجه سي عزيز رسائل تهديد إلى أعوان فرنسا لكنها لم تجدد نفعا، وعلى إثر ذلك هاجم أملاك ابن الموهوب وابن علي الشريف، وتنقل سي أحمد بن الشيخ الحداد إلى منطقة القبائل الكبرى، فالتقى هناك بعدد من مقدمي الطريقة الرحمانية، وفي مقدمتهم الشيخ محمد واعلي أوسحنون في عرش آث يراثن، وعلى إثر ذلك رفع مقدمو الزوايا راية الجهاد، أمثال الشيخ محمد واعلي أولقاضي في بوهينون، والشيخ محمد الجعدي مقدم زاوية بوقبرين بناحية ذراع الميزان، والشيخ محمد بن علي بن محمد بن محي الدين بناحية دلس، وغيرهم من شيوخ الزوايا الأخرى³، فخاض هؤلاء المجاهدون معارك ضارية ضد الجيوش الفرنسية في مواقع شتى، وحاصروها في الثكنات ببجاية ودلس وتيزي وزو والأربعاء ناث يراثن وغيرها، كما أرغموا المستوطنين على مغادرة قراهم، والاحتباء بأسوار الثكنات لعدة أيام، وحققوا انتصارات على مشارف مدينة الجزائر - وخاصة في بودواو - زرعت الرعب في قلوب الفرنسيين ولو إلى حين.

وسرعان ما انضمت أسرة آث قاسي المتعاونة مع الفرنسيين في ناحية عمراوه (تيزي وزو حاليا) إلى صف الثورة، وسعيا لتحجيد هذا الموقف أرسل القايد علي أوقاسي ابن عمه محمد أوسعيد أوقاسي إلى حاكم مركز تيزي وزو (لوبلان leblanc) يطلب منه رخصة لأداء زيارة بمحاملة لصديقه بن علي الشريف في ناحية أقبو (بجاية)، وقد أثار هذا الطلب مخاوف الحاكم، فأسرع إلى فرض الإقامة الجبرية على الرسول في إقامة عائلة آث قاسي بتيزي وزو. ثم كلف الملازم الأول لافوركاد laforcade بالتوجه نحو مقر القايد

¹ - الصديق تاوتي: المرجع السابق، ص 111.

² - المرجع نفسه، ص 111.

³ - Alein Mahe: Histoire de la Grande Kabylie 19-20 siecles, Editions Bouchene, 2006, p.194.

علي أوقاسي الكائن بقرية ثامذا لاعتقاله، وعندما وصل إليها أخبره خادمه بأن سيده غائب، وعرض عليه التوجه نحو غرفة الضيافة في انتظار حضوره. لكن الضابط الفرنسي توجس خيفة من هذا الأمر، فرفض العرض، ولم يكذب يتعد قليلا عن بيت القايد علي أوقاسي حتى سمع وابلا من الرصاص، فأسرع إلى الهروب عائدا إلى برج تيزي وزو.

وعلى إثر ذلك طلب حاكم مركز تيزي وزو لوبلان من المستوطنين حزم أمتعتهم، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد للالتجاء إلى برج تيزي وزو عند الإشارة، أما محمد أوسعيد أوقاسي فقد تمكن من الهروب بأفراد عائلته وأمتعته إلى قريته ثامذا، وكان ذلك بمثابة الإعلان عن انضمامه إلى صف الثورة¹، وقد اعتقد الفرنسيون أن القضاء على عائلة آث قاسي بقرية ثامذا كفيل بإنهاء التمرد في تيزي وزو، لذلك أرسلوا طابورا عسكريا يضم 600 رجل، معظمهم من المجندين المحليين، بقيادة الضابط وولف wolf يوم 15 أبريل 1871م، إلى قرية ثامذا، لكن آث قاسي نجحوا في صد الهجوم، الأمر الذي أرغم الضابط وولف على الانسحاب بسرعة ناحية أسياخ أومدور، ولم يتمكن من الرجوع إلى برج تيزي وزو إلا بعد إرسال الامدادات العسكرية له، وعلى إثر ذلك هرب الكثير من المجندين المحليين في الجيش الفرنسي إلى قوات آث قاسي، ودفعت هذه الهزيمة القيادة الفرنسية إلى عزل قائد مركز تيزي وزو لوبلان وتعيينه بالرائد لتولي letellier هذا وقد حاول عبثا جاني jannin ابن رئيس بلدية دلس استغلال صداقته مع القايد علي أوقاسي لثنيه عن الاستمرار في تمرد، وبعد فشله في مهمته، اضطر المستوطنون لترك منازلهم ومزارعهم، والتوجه إلى برج تيزي وزو، تحسبا لهجوم كاسح يستهدفهم، وكان ذلك يوم 17 أبريل 1871م².

وقد رفع انتصار القايد علي أوقاسي في معركة ثامذا معنويات الجزائريين، فتضاعف عدد المجندين في صفه، وعلى إثر ذلك قسم قواته إلى ثلاث تشكيلات سارت عبر مسالك مختلفة لمحاصرة برج تيزي وزو، كانت الميمنة تحت قيادة محمد أمقران أوقاسي سارت باتجاه مضيق وادي سيباو، للالتفاف حول جبل بالوا، ليصل إلى برج سيباو، بينما سارت الميسرة باتجاه مرتفعات حسناو وبوهينون حيث استقبلها المقدم الشيخ محمد واعلي أولقاضي، لتعسكر في الأخير بذراع بن حدة، أما القلب فقاده القايد علي أوقاسي، وتوقف ببغلية، ومن هناك وجه العديد من الرسائل إلى القياد يدعوهم إلى احتضان الثورة، وقد حاول مستوطنو قرية تيزي وزو الدفاع عن قريتهم بدعم من الجيش، لكنهم تخلوا عن هذه الفكرة ليلة 17 أبريل وفروا إلى برج تيزي وزو.

أما القايد علي أوقاسي فقد اتخذ قرية تيزي وزو القديمة مركزا لقيادته بعد أن أحكم حصار مركز تيزي وزو، ثم هاجم القرية الفرنسية. هذا وقد عانى الفرنسيون الأمرين في البرج العسكري، جراء نقص مياه الشرب، والذخيرة والمؤن والمواد الغذائية، وقد شن القايد علي أوقاسي حربا نفسية على أعدائه، حين أرسل لقائد البرج رسولا يخبره أن الثورة قد عمت الوطن، فلم يعد هناك سبيل له للخلاص إلا الاستسلام، وكان الجيش الفرنسي يدفن موته سرا في الليل حتى لا يؤثر ذلك على معنويات المستوطنين، ودام الحصار مدة ثمانية وعشرين يوما (من 17 أبريل إلى 15 ماي 1871م)³، وعندما وصل القايد علي أوقاسي إلى بغلية، وجه من هناك عدة رسائل يدعو فيها القياد للتمرد على فرنسا والانضمام إلى الثورة، استعدادا للهجوم على مدينة الجزائر، وكانت رسائله على الصيغة التالية: (أيها القايد السلام عليكم إن الجهاد هو غايتنا، إنك مسلم واجباتك وحقوقك هي نفس واجباتنا وحقوقنا، إننا لا ننوي تحطيم أي مسلم كل ما نريده ونسعى إليه هو الجهاد، وإننا نلزم في أن تكونوا بجانبنا).

وبعد أن تدعم جيش القايد علي أوقاسي بقوات عديدة قدمت إليه من مناطق عديدة، كبرج منايل والثنية وفليسة وآث يجز وغيرها من القبائل، سار في اتجاه مدينة الجزائر، وعندما وصل إلى بودواو، وجد القوات الفرنسية قد تحصنت بما باعتبارها آخر خط للدفاع عن مدينة الجزائر، وجرت هناك معركة ضارية يوم 24 أبريل 1871م، تكبد خلالها الجيش الفرنسي الذي كان تحت إمرة

¹ - Mohamed Brahim Salhi: op.cit, p.77.

² - op.cit, p.15.

³ - يحي بوعزيز: وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز ...، المرجع السابق، ص19.

المقدم فورشو fourchoult خسائر معتبرة، وبعد أن اضطر القائد علي أوقاسي إلى الانسحاب منها، انتقم الفرنسيون من سكان القرى القريبة من بودواو، ثم حصنوا قاعدتهم هناك باستقدام قوات كبيرة، تشكلت من المشاة والفرسان والمدفعية بلغ تعدادها 5000 جندي يؤطروهم 202 ضابط، وضعت تحت قيادة الجنرال لالمان lalleman.

حاول القائد علي أوقاسي وقف زحف القوات الفرنسية نحو منطقة القبائل، فاشتبك معها في معارك عديدة جرت في ثيجلابين والثنية وخميس يسر، لكن تفوق الفرنسيين في العدة والتسليح والتنظيم حال دون تحقيق أي انتصار، وقد زحف الجنرال لالمان على منطقة القبائل يوم 10 ماي 1871م، أين ارتكب أثناء ذلك جرائم رهيبة ذهب ضحيتها السكان المدنيون دون تمييز بين المقاوم والمستسلم، ورغم تفوق القوات الفرنسية في العدة، فإن الجزائريين لم يستسلموا، إذ جرت معارك بين الطرفين في مناطق عديدة، كقرية تيزي زوزو وتاورقة وآث واقنون والجمعة نصهريج ومعائقة، أما حصن نابليون (الأربعاء ناث يرانن) المحاصر فقد تريت الجنرال لالمان في توجيه قواته إليه لفك الحصار عنه، باعتباره قلبا نابضا لمقاومة الزواوة، وكذا تحسبا لمناعة المنطقة، ووعورة دروبها غير الآمنة وصمود أهلها، لذلك لم تتمكن قواته من دخوله إلا بعد معركة طاحنة جرت يوم 16 جوان 1871م، وعقب ذلك بأسبوع جرت في هذه المنطقة (آث يرانن) معركة في 24 جوان 1871م بموقع إيشرظين - نفس اليوم التي جرت فيه المعركة الفاصلة أثناء حملة الماريشال راندون على جبال جرجرة سنة 1857م وكان الانتصار فيها حليف الفرنسيين -، وهكذا أدى انهزام عرش آث يرانن إلى استسلام بقية المناطق الواحدة تلو الأخرى.

اجتمع قادة الثورة في ناحية القبائل الكبرى وهم: القائد علي أوقاسي، ومحمد أمقران أوقاسي، ومحمد لونيس أوقاسي، وموسى بن أحمد بن كانون، وأحمد بن الحاج أعمر محي الدين، ومعهم سي عزيز بن الشيخ الحداد - الذي نزح إلى منطقة القبائل الكبرى ليدرس واقع الثورة وللتشاور مع قادتها - بعد انهزام عرش آث يرانن، لدراسة الوضع العام، وقد أسفر الاجتماع عن اتخاذ قرار الاستسلام، بعدما بدا لهم أنهم خسروا الحرب، فسلموا أنفسهم للجنرال لالمان في معسكره الذي أقامه في منطقة آث هيشم (عين الحمام)، وعلى إثر ذلك اعتقلهم بصفتهم أسرى حرب¹.

وكان سي عزيز قد تنقل كثيرا بين مناطق الصومام وجيجل وسطيف وعموشة، أين خاض غمار معارك عديدة، ورغم الحماس الفياض الذي كان يملأ المجاهدين، فقد عجز عن تحقيق انتصارات حاسمة ضد الفرنسيين، بسبب ضعف الإعداد للثورة من حيث التنظيم والتسليح، ثم لم يلبث الجنرال لالمان أن تلقى رسالة من الشيخ الحداد يخبره فيها أنه هو الذي طلب من ابنه سي عزيز الاستسلام، وبعد أيام قليلة أعتقل سي أحمد بن الشيخ الحداد في بجاية بخديعة من السعيد أورايج الذي كان قد أوهمه بالانضمام إلى صفوف الثورة، أما الشيخ محمد أمزيان الحداد فقد راسل الجنرال سوسي يخبره بعزمه على تسليم نفسه، فحدد له هذا الأخير المكان والموعد، فكان الاستسلام يوم 12 جويلية 1871م في موقع تيزي لكحل بوادي الساحل بمعية عدد من أتباعه، وبعد اعتقاله وجهه الضابط سوسي إلى فرقة الضابط بونسار بموقع فناي، ومن هناك حول يوم 18 جويلية إلى ثكنة بارال ببجاية، حيث أعتقل في انتظار المحاكمة.

ومما لا شك فيه أن هذا الاستسلام المدهش كان بمثابة الضربة القاصمة للثورة التي انطلقت لحييها عقب ذلك بعد ثلاثة أشهر من اندلاعها، وهي حالة لم تعرفها القيادات السابقة التي تميزت بالصمود لسنوات عديدة، كخليفة الأمير عبد القادر أحمد بن سالم (1838-1846م)، والشريف بوبغلة (1851-1854م)، والشيخ الصديق بن أعراب (1854-1857م)، والشيخ أعمر مقدم الطريقة الرحمانية (1856-1857م)، فهل كانت نية عائلة الشيخ الحداد في الإشراف على هذه الثورة تهدف فقط إلى إبراز مدى قدرتها على التجنيد لإضعاف عائلة بن علي الشريف التي اختارتها فرنسا كحليف محلي يدافع عن مصالحها لدى الأهالي؟ وهل

¹ - محمد الصغير فرج: المرجع السابق، ص 150.

استسلمت فعلا عائلة الشيخ الحداد من باب الحسابات السياسية الضيقة، وللحفاظ على خط الرجعة، بعد أن تأكدت من استحالة تحقيق النصر على الفرنسيين مثلما زعم الكاتب الفرنسي آلان ماهيه¹؟

ومهما يكن من أمر فإن ما ورد من معلومات في عريضة سي عزيز التي دوّنها في مطلع سنة 1873م قبل محاكمته، لا تتعارض مع تحليلات آلان ماهيه المذكورة سلفا، وفضلا عن ذلك فقد أشار الدكتور يحي بوعزيز إلى الأسباب الشخصية التي يحتمل أن تكون دافعا له لتفجير الثورة: (... والحقيقة أن سي عزيز كان كثير الاضطراب والتضارب في مذكراته، ويبدو عليه أنه لم يحمل السلاح إلا لأسباب تكاد تكون شخصية، على عكس جماهير الإخوان والمقدمين الآخرين أتباع أبيه الذين لم يكونوا على علم ببواطن الأمور، والذين اندفعوا إلى الثورة بصورة فطرية بهدف تحرير البلاد، مدفوعين بالحماس الديني والحمية الوطنية التي تعتبر آنذاك جزءا من العقيدة الدينية...) ²، وقد سارعت الإدارة الفرنسية لمعاقبة أسرة الشيخ الحداد بمصادرة أملاكها دون انتظار المحاكمة، وهو الأمر الذي يؤكد عزم فرنسا على ضرب قيادة الثورة بيد من حديد لتهيب الشعب الجزائري، ويؤكد أيضا أن مهمة نشر رسالة التمدن التي زعمت فرنسا أنها جاءت من أجلها لا تعدو أن تكون مجرد مخادعة، لإيهام الرأي العام الخارجي أن فرنسا قد كرست دولة العدل والقانون.

ففي شهر أوت 1871م أصدر حاكم عمالة قسنطينة العسكري دي لأكرو قرار المصادرة الذي وافق عليه الحاكم العام دي قيدون جاء فيه على الخصوص: (وقد وضعنا الإيقاف على جميع الأملاك المنقولة وغير المنقولة، المنسوبة للشيخ الحداد مقدم طريقة سيدي محمد بن عبد الرحمن، القاطن بدشرة صدوق في عرش بني عيديل من دائرة بجاية، وكذلك المنسوبة لولديه الاثنين وهما: سي عزيز بن الشيخ الحداد قائد عموشة سابقا، وسي أحمد بن الشيخ الحداد قاضي بني عيديل وريغة سابقا) ³. هذا ولم تكن أسرة الشيخ الحداد من الأسر الأرستقراطية العريقة في الغنى، بل كانت أسرة متوسطة استطاعت أن تشق طريقها نحو الشهرة والنفوذ الروحي بفضل تولي الشيخ محمد أمزيان قيادة الطريقة الرحمانية في بلاد الزاوية، بعدما تمكنت فرنسا من إخضاعها سنة 1857م.

وبرأي الدكتور يحي بوعزيز فإن معظم أملاكها قد جاءت في شكل هبات الإخوان (المريدون)، ومن الأوقاف التي كانوا يجسونها على زاوية الشيخ الحداد⁴، وقدرت الأملاك المصادرة بموجب قرار رقم 397 الصادر بتاريخ 16 نوفمبر 1871م، الذي أمضاه السيد كابيغالي مدير مصلحة البلدية، وصادق عليه الحاكم العام دي قيدون في 02 ديسمبر 1871م، بمايلي:

- 62 ضيعة فلاحية للحبوب والغلّال البعلية خاصة الزيتون والتين.
- 06 بساتين مسقية للخضر والأشجار المثمرة.
- 07 منازل تشتمل على 41 غرفة، 15 محلا ومخزنا للتجارة.
- 03 اصطبلات.
- 03 رحوات للحبوب.
- معصرة واحدة للزيتون.
- مسجد واحد.
- بلغ عدد الأشجار المثمرة المصادرة حوالي 14528 أغلبها أشجار زيتون⁵.

¹ - يحي بوعزيز: وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز ...، المرجع السابق، ص 23.

² - الصديق تاوتي: المرجع السابق، ص 77.

³ - محمد الصغير فرج: المرجع السابق، ص 145.

⁴ - المرجع نفسه، ص 149.

⁵ - نفسه، ص 150.

ولم تكتف فرنسا بمصادرة ممتلكات الشيخ الحداد وأولاده بل قامت بمحاكمة الأسرة، وما ميز هذه المحاكمة أن ظروفها لم تكن موضوعية بحكم ازدهار الإيديولوجية الاستعمارية في العالم، الأمر الذي جعل الرأي العام الأوروبي ينحاز إلى صف فرنسا، فضلا عن ضغط المعمرين في الجزائر، لذلك كانت هذه المحاكمة مجرد ذر الرماد في العيون، وقد تمت المحاكمة على أساس المسؤولية الجماعية (وهي مخالفة للقانون الفرنسي)، والمسؤولية الفردية للثائرين، وقدم الشيخ محمد أمزيان بن الحداد إلى محكمة قسنطينة سنة 1873م ضمن المجموعة الثالثة لمخضر المحاكمة الخاص بمسؤولي ثورة 1871م، وكانت التهمة الرئيسية التي وجهت له تتمثل في جريمة المساس بالقانون العام من خلال الدعوة إلى الحرب المسلحة ضد الفرنسيين.

أما ابنه سي عزيز فقد اعتبر في المخضر شخصية خطيرة جسدت في الميدان نداء الجهاد في شكل ثورة مسلحة عارمة أشرف على تنظيمها في بلاد الزواوة وسطيف وجيجل، وأشار المخضر لسنة (31 سنة)، ووضعيته الاجتماعية (متزوج بثلاث نسوة وله أربعة أولاد)، وإلى وظيفته السابقة (آغا في منطقة عموشة)، ووجهت لأخيه سي أحمد - بدرجة أقل - نفس التهم، ووجد في المخضر أنه كان عضوا في قيادة المجاهد بوبغلة، وأنه متزوج بثلاثة نسوة، وله سبعة أولاد، وكان يشغل منصب القاضي سابقا في منقطة آث عيذل.

وفي 19 أبريل 1873م صدرت الأحكام على الشيخ الحداد وابنيه، ونصت على سجن الشيخ الوالد مدة خمس سنوات في سجن انفرادي، وعلى نفي سي عزيز إلى الخارج، وسجن سي أحمد لمدة عشر سنوات لكن لم يلبث هذا الحكم الأخير أن عوض بالنفي إلى الخارج، في حين حكم على غريمهم ابن علي الشريف بالسجن لمدة خمس سنوات داخل قلعة في الجزائر¹، هذا وقد توفي الشيخ الحداد بعد عشرة أيام من صدور الحكم عن عمر يناهز ثلاثة وثلاثين سنة، ولم تحترم فرنسا وصيته القضائية بدفنه في مقبرة أجداده بصدوق، خوفا من أن تتحول جنازته إلى حافز يعبئ المريدين من جديد، وأن يتحول قبره إلى مزار يحج إليه الإخوان قد يصير على مر الأيام فضاء سياسيا مقلقا لفرنسا، لذلك دفن جثمانه في مقبرة قسنطينة.

وخلافا لسي أحمد بن الشيخ الحداد الذي سكنت عنه المصادر التاريخية بعد نفيه إلى كاليدونيا الجديدة، فإن ما تركه سي عزيز من مراسلات، قد مكنا من متابعة مساره في منفاه بالحجاز ثم في فرنسا، فقد كان أمله كبيرا في اطلاق سراحه، وعودته إلى الجزائر لكن ذلك الأمل لم يلبث أن خفت بمرور الأيام إلى أن تبخر نهائيا، بعد منعه من الرجوع رغم صدور قرار العفو سنة 1881م الأمر الذي جعله يعد خطة للهروب من ذلك الجحيم وقد كللت بالنجاح، إذ تمكن من الوصول إلى قارة أستراليا بواسطة سفينة إنجليزية نقلته من مدينة سيدني في شهر ماي 1881م، وانتقل منها إلى الحجاز الذي وصلها في شهر جوان، فاستقر هناك طيلة عقد الثمانينيات بعد أن تعذر عليه الرجوع إلى أرض الوطن، وقد خففت عليه هذه الإقامة من وطأة النفي، فتزوج هناك وأنشأ عائلة وفرت له السكينة، وكان على اتصال دائم مع الحجاج الجزائريين، ويراسل أهله بانتظام ثم انتهى به المطاف إلى الدخول إلى فرنسا، بفضل المساعي التي بذلها أحد أبنائه.

فاستقر بمدينة مرسيليا حيث توفي بها في ظروف غامضة، ولا يستبعد أن يكون قد مات مقتولا²، وعلى إثر ذلك سافر ابنه سي الصالح، فاستقدم جثمان والده في باخرة كانت متجهة نحو مدينة الجزائر، لكن خوف السلطات الفرنسية من تجمع المريدين في الميناء، واحتمال حدوث اضطرابات لا تحمد عقباه، جعلها توجه السفينة إلى ميناء سكيكدة، ومن هناك نقل جثمانه إلى مقبرة قسنطينة ودفن إلى جنب والده، ورغم هذه العقوبات الشديدة التي ألتمت بعائلة الشيخ محمد أمزيان الحداد، فإن الإدارة الفرنسية أبدت مرونة مع أحفاده قصد احتوائهم، وفي هذا السياق يذكر الباحث ألان ماهيه Alain Mahe أن صالح بن سي عزيز بن الحداد، قد

¹ - الصديق تاوبي: المرجع السابق، ص 79.

² - يحي بوعزيز: وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز...، المرجع السابق، ص 35.

عين عوننا مساعدا في إحدى البلديات المختلطة، في حين تحصل إخوته وبعض أقاربه على منح مدرسية لمواصلة الدراسة في ثانوية الجزائر، وتحصلوا بعد التخرج على مناصب إدارية، وهذا خلافا لعائلة المقراني (آث مكران) التي عرفت مصيرا مشؤوما إذ لم يعد لها ذكر بعد مصادرة أملاكها وتشيت أبنائها الذين صاروا من العوام¹.

خاتمة:

تعتبر نتائج ثورة 1871م بمثابة الضربة القاضية التي دمرت سكان بلاد الزواوة اقتصاديا واجتماعيا، لما نجم عنها من قتل ونفي وحرق وتخريب الأملاك ومصادرة الأراضي، وفرض تعويضات فادحة على الثوار تفوق إمكانياتهم الاقتصادية، قدرت بحوالي 36 مليون فرنك ذهبي تم تحصيلها فعلا، وفرض حوالي 65 مليون فرنك ذهبي على القبائل الثائرة، فظلت تن تحت وطأة تسديدها لمدة عشرين سنة²، وتم القضاء على الزعماء الملحيين الذين كانوا بمثابة همزة وصل بين الشعب والإدارة الفرنسية، وجردت التنظيمات المحلية (خاصة نظام ثاجماث) من صلاحياتها، فأمسى وجودها مجرد هيكل صوري يخضع للأوامر الفرنسية، ومقابل ذلك تم توسيع حجم البلديات ذات الصلاحيات الكاملة التي وصفها جول فيري بكونها استغلالا للأهالي على المكشوف، بعد استقدام مئات العائلات الفرنسية من منطقة الألزاس واللورين (1183) عائلة، وحوالي (4000) عائلة من شرقي فرنسا³، وعطلت الأحكام الإسلامية بحجة تفعيل القوانين العرفية المحلية، والحق أن ذلك كان بمثابة ذر الرماد في العيون لتمرير فرض قوانين العدالة الفرنسية التي ألح الأدميرال دي قيدون De Gueydon على تكريسها حين قال: (يجب أن يمحى القاضي المسلم أمام القاضي الفرنسي فنحن الفاتحون، فلنعرف كيف نفرض إرادتنا)⁴.

¹ - الصديق تاوي: المرجع السابق، ص 85.

² - Alain Mahe: op.cit, p.196.

³ - يحي بوعزيز: وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز...، المرجع السابق، ص 38.

⁴ - المرجع نفسه، ص 41.

جوانب من حياة وكفاح الشيخ سي عزيز ابن الحداد

بشير فايد - جامعة سطيف2

نحاول في هذا المقال تسليط الضوء على أبرز المحطات في حياة الشيخ سي عزيز ابن الحداد أحد القادة الرئيسيين خلال ثورة 1871م، والذي لم يحظى إلى غاية الآن بدراسة تاريخية شاملة تكشف عن الجوانب غير المعروفة في حياته، وترصد بالتحليل والمناقشة مختلف أعماله السياسية والعسكرية، وقد تحدّثنا عن مولده ونسبه وثقافته وشخصيته ثم أبرزنا موقفه من السلطات الاستعمارية الفرنسية، ومن المتعاونين معها من الجزائريين ثم تطرقنا إلى دوره السياسي والعسكري خلال ثورة 1871م، وبينّا ظروف استسلامه للفرنسيين في أواخر شهر جوان من السنة نفسها رفقة والده الحداد وأخيه محمد (محمّد)، كما تتبعنا حياته في المنفى بكاليدونيا الجديدة، وعملية فراره إلى الحجاز سنة 1881م، وأخيرا صدور العفو عنه، ووفاته بفرنسا سنة 1895م، ودفنه بالجزائر.

1- مولده ونسبه:

لا يعرف تاريخ محدّد لمولد الشيخ عزيز ابن محمد امزيان بن علي بن محمد الحداد. حيث لم نجد ذكرا لذلك في المراجع التي اعتمدنا عليها في هذا المقال لكننا نرجح أنه ولد حوالي سنة 1842م اعتمادا على عريضة الاتهام التي وجهت له من قبل محكمة الجنايات بقسنطينة أثناء محاكمته سنة 1873م، والتي جاء فيها بأنه يبلغ من العمر واحدا وثلاثين عاما، وله أربعة أولاد¹، وكان قائدا سابقا على عموشة²، وتاقيطون³ أما مكان ولادته فهو قرية "احدادن" بصدوق ببجاية، ينتمي لعائلة عريقة استقرت بالمنطقة منذ عدة قرون، وفي ذلك قال: "مسقط رأسنا الأصلي وبلادنا هي قرية صدوق الفوقانية سكناها ابنا عن أب منذ حوالي أربعمئة عام وأصلنا وقبيلتنا وآباؤنا معروفون جيدا"⁴.

وفي حقيقة الأمر، فإنّ الشيخ سي عزيز قد أورد هذا الكلام ردّا على بعض المشكّكين في نسب وعراقة آل الحداد من أبناء العائلات الكبرى التي كانت عائلة الحداد على خلاف معها، ومنهم ابن علي الشريف الذي كان يتباهى بكونه ينحدر من سلالة الأدراسة في حين أن آل الحداد حسب لا أصل لهم، وهم ليسوا سوى حدّادين في إشارة إلى حرفة الحدادة التي كانوا يحترفونها أبا عن جدّ⁵، وقد اعتبر سي عزيز "الحدّادة" مهنة شريفة لا يتحرّج أن تعرف بها عائلته، فحسبه أنه لا عيب في أن ينحدر الإنسان من جدّ "جزّار" أو "خمّاس" أو "حدّاد" أو "حمّال"، وإنما العيب في أن يجهل الإنسان أصله⁶، وتجدر الإشارة إلى أن الخلاف بين عائلة الحداد وعائلة ابن علي الشريف كان كبيرا بسبب تنافسهما على زعامة المنطقة سياسيا، فبلغ هذا التنافس حدّ الطعن في الأنساب كما مرّ بنا.

والواقع أن عائلة الحداد ظلّت لفترة طويلة من الزمن تتمتع بمكانة روحية كبيرة في بلاد القبائل بشكل خاص، وفي الكثير من جهات الوطن بصورة عامة باعتبارها المشرفة على الزاوية الرحمانية في صدوق، والتي تنتسب إليها كل الزوايا الرحمانية (نسبة إلى الشيخ محمّد بن عبد الرحمان القشتولي الجرجري العنزري أبو قبرين) المنتشرة في مختلف أنحاء البلاد، ومن المعروف أن الطريقة الرحمانية، لم

¹ - يحيى بوعزيز: وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص43.

² - عموشة حاليا دائرة إدارية تابعة لولاية سطيف (أقصى الشمال)، وتضم ثلاث بلديات هي: عموشة، تيزي نبشار، وادي البارد.

³ - تاقيطون: كلمة أمازيغية تعني الخيمة، وقد أنشئت ملحقة تاقيطون بمقتضى مرسوم 02 ديسمبر 1883م على أن تكون تابعة للنادي (الدائرة) العسكري بسطيف.

⁴ - يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص140.

⁵ - يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1980م، ص205.

⁶ - يحيى بوعزيز: وصايا الشيخ عزيز ابن الحداد وابنه سي عزيز...، المرجع السابق، ص145.

تقصر اهتماماتها على حياة الزهد والتقشف التي كانت السمة الغالبة لمعظم الطرق الصوفية في الجزائر، وإنما سعت إلى نشر الإسلام، وإعداد مقدّمها للقيام بمهام الوعظ والإرشاد بين صفوف الجماهير¹. بالإضافة إلى تأطير وتزعم العمل المسلح ضد الاستعمار الفرنسي، فالزعيم الروحي لثورة 1871م كان الشيخ محمد أمزيان الحدّاد والد مترجما سي عزيز².

وإذا كانت عائلة الحدّاد قد انفردت بهذه المكانة الدّينية المتميزة، فإنها كانت على النقيض من ذلك من الناحية الاقتصادية حيث لم تكن تحوز على أملاك إقطاعية كبيرة مثل العائلات الأرستقراطية الكبرى، فقد كانت تعتمد بالأساس على هدايا أتباعها والأوقاف التي كانوا يوقفونها لزوايتها ولشيخها³، ولا شك أن سي عزيز قد استفاد كثيرا من هذا الوضع العائلي الجيّد المساعد على تنشئة الفرد تنشئة حسنة تسمح له بإبراز قدراته وطموحاته الشّخصية مبكرا.

2- ثقافته وشخصيته:

يبدو أنّ سي عزيز قد اكتفى بالتعليم الديني التقليدي الذي يتلقاه عادة أبناء العائلات الريفية في الزّوايا أو المكاتب القرآنية، إذ لم تشر المصادر إلى التحاقه بالمدارس الرسمية الفرنسية أو إجادته للغة الفرنسية، وبالرجوع إلى الرسائل والمذكرات التي كتب معظمها في سجنه بقسنطينة نكتشف أن أسلوبه يتميز بالإطناب، وتوظيف النصوص الدّينية والألفاظ العامية وحتى الأشعار.

أما فيما يتعلق بشخصيته، فقد تميز بذكاء حادّ وروح مرنة، وشخصية قويّة وخيال خصب، كما عرف بتصرفاته الحكيمة، وبقدرته الفائقة على الإقناع، ولفت الانتباه أثناء مخاطبته لغيره، وهو لا يزال في سن مبكرة. هذه الصفات الشخصية المتميزة جعلت والده محمد أمزيان الحدّاد يعتمد عليه في تصريف الأعمال الإدارية والسياسية للزاوية الرّحمانية بسبب تقدّمه في السن إذ ناهز الثمانين قبل اندلاع ثورة 1871م بقليل مفضلا إياه على أخيه الأصغر محمد (محمد) الذي عرف بتقشفه وصرامته واندفاعه وحماسه الدّيني⁴، ومنه يتبين أن الشيخ الحدّاد قد توسّم في ابنه عزيز صفات القائد المؤهل لخلافته على رأس العائلة، وفي منصب مشيخة الزّاوية الرّحمانية.

3- موقفه من السلطات الاستعمارية ومن المتعاونين معها:

كانت الصّلات بين عائلة الحدّاد والسلطات الفرنسية محدودة جدّا، ففيما كانت العائلات الأرستقراطية في بلاد القبائل وفي غيرها من أنحاء الجزائر تسعى إلى التقرّب من الإدارة الاستعمارية وربط الصّلات معها كسبا لودّها وحفاظا على امتيازاتها المكتسبة وتمييزها كان الشيخ الحدّاد يتحاشى القيام بذلك، ولا يتورّع عن إظهار مقتته الشّديد لذلك السلوك المراوغ والانتهازي حسبه بحكم تكوينه الدّيني المحافظ⁵، ولهذا السبب زهد آل الحدّاد في المناصب الحكومية والإدارية والسياسية منها عدا سي عزيز الذي تقلّد منصب قايد على دواوير عموشة وتاقيطون في أوائل سنة 1869م لفترة وجيزة جدّا، حيث سارع إلى تقديم استقالته بعد أن قامت إدارة الاحتلال بتعيين غريمه ابن علي الشريف في منصب قايد على دوار شلاطة ببجاية بقرار أصدره الجنرال ماكماهون بتاريخ 24 ديسمبر 1869م⁶ لتبدأ مرحلة جديدة من العلاقات بين الشيخ عزيز بن الحدّاد والسلطات الفرنسية من جهة، وبينه وبين المتعاونين معها من الجزائريين في المنطقة من جهة ثانية خصوصا ابن علي الشريف الذي أعلن عداوته لعزيز منذ أن قام هذا الأخير بمهاجمة أملاك عائلة ابن علي سنة 1851م أثناء ثورة بوبغلة التي انظمت إليها عائلة الحدّاد كما هو معروف⁷.

¹ - عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931م-1945م، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1996م، ص182.

² - المرجع نفسه، ص193.

³ - يحيى بوعزيز: وصايا الشيخ عزيز ابن الحدّاد وابنه سي عزيز...، المرجع السابق، ص39.

⁴ - الطاهر أوصديق: ثورة 1871م، ترجمة مسعود جباح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص17.

⁵ - Charles André Julien: Histoire de L'Algérie Contemporaine, Paris, p.482.

⁶ - الطاهر أوصديق: المرجع السابق، ص18.

⁷ - يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين...، المرجع السابق، ص205-206.

وللانتقام من سي عزيز سعى ابن علي الشريف إلى توطيد علاقاته مع الحكام الفرنسيين في المنطقة مستخدماً كافة الوسائل والأساليب للإيقاع بخصمه اللدود، كالتحريض عليه ونقل الأخبار الكاذبة عنه من خلال الرسائل التي كان يبعثها إليهم باستمرار الأمر الذي زاد من تأزم العلاقة بين الطرفين، وخاصة عندما وقعت إحدى الرسائل في يد سي عزيز وجهها ابن علي الشريف إلى حاكم بجاية ريلهاك Rilhack سنة 1871م يخبره فيها أن سي عزيز أصبح يضايقه وعليه أن يبادر بعزله على الأقل، وجاء الرد من بونفالي Bounvali حاكم سطيف الذي أصدر الأوامر إلى سي عزيز بأن يتوقف عن إثارة المشاكل، ويتصل بحاكم بجاية من أجل تزويد هذا الأخير بالمعلومات الاستخبارية أي أن يعمل كمخبر للإدارة الاستعمارية¹.

ومنه يتضح لنا أنّ الجهات الرسمية الفرنسية كانت تضع ثقتها الكبيرة في شخص ابن علي الشريف وعائلته رغبة منها في إضعاف عائلة الحدّاد بتقويض مكانتها الدينية والسياسية عموماً، وللحدّ من طموحات سي عزيز لتبوء مركز أبيه العائلي والديني والسياسي مستغلة في ذلك الخلافات المتجدّرة بين العائلتين.

4- دوره في ثورة 1871م:

تضاربت الروايات حول موقف سي عزيز من الدّعوة التي وجهها الشّيخ محمد المقراني لعائلة الحدّاد للانضمام إلى جانبه في الثورة التي أعلنها على الفرنسيين، ومنها أن عزيز قد أوعز إلى والده رفقة أخيه محمّد بأن يرفض دعوة المقراني قائلين له: "إنك كبير في السن لا تقحم نفسك في هذه الدّسيسة والمكيدة"، كما أن عزيز خاطب المقراني بقوله: "من أنت حتى تقوم بالثورة لقلب الحكومة؟ وهل تملك الأسلحة والمال والقوة لذلك؟"، وقد رد عليه المقراني: بأن السلطان العثماني اتصل به عن طريق مبعوثه في طرابلس ووعده بمده بالجنود والأسلحة عبر تونس، ولهذا سيمضي في قراره طالما أنه تأكّد من المساعدة العثمانية، ومن تأييد أصدقائه المخلصين له في الجزائر²، وتشير رواية أخرى إلى أن الشّيخ الحدّاد لم يكن في بداية الأمر يرغب في الثورة لولا أنّ ابنه سي عزيز الذي استطاع أن يقنعه ويؤثر فيه.

في حين شكّك الأستاذ يحيى بوعزيز³ في صحة الروايتين السالفتين، وأورد أن اجتماعاً دعا إليه الشّيخ الحدّاد انعقد بتاريخ 18 أبريل 1871م حضره مقدّمو الطريقة الرّحمانية للتشاور حول القرار المناسب بشأن دعوة الشّيخ المقراني، وخلالها تم إعلان خلافة سي عزيز ومحمّد لوالدهما، وتسلمهما لراية الجهاد، وبغضّ النظر عن ذلك، فإن الشّيخ سي عزيز قد انظمّ في نهاية المطاف إلى الثورة مع والده وأخيه وعدد كبير من أتباع الطريقة الرّحمانية مانحين للثورة دعماً روحياً وعسكرياً كبيراً كانت في حاجة ماسّة إليه، وقبل الشروع في العمليات العسكرية ركّز سي عزيز بالتعاون والتنسيق مع شقيقه محمّد على ثلاثة جوانب أساسية هي: التعبئة العامة، وتنظيم المقاتلين، وإنشاء جهاز الاستخبارات.

* التعبئة العامة:

- أدرك سي عزيز أنّه لتحقيق الالتفاف الشعبي حول الثورة ينبغي اعتماد استراتيجية دعائية محكمة، وفي هذا الصدد قام بما يلي:
- توظيف قدراته الخطابية في إقناع زعماء القبائل والعائلات الكبرى بأن فرنسا أضحت قوة ضعيفة من الناحية العسكرية يتحكم اليهود في سياستها، وأن المقراني والحدّاد هم رجال مخلصون لدينهم ووطنهم.
 - تجنيد مقدّمى وأتباع الزاوية الرّحمانية للقيام بدعاية وسط السكان لإقناعهم بالانضمام إلى الثورة والتعاون الإيجابي مع قادتها.
 - إصدار الأوامر بإشعال النيران على الأماكن المرتفعة حتى ينتشر صدى الثورة في المناطق المجاورة بسرعة أكبر.

¹ - يحيى بوعزيز: وصايا الشّيخ عزيز ابن الحدّاد وابنه سي عزيز...، المرجع السابق، ص17، نقلاً عن:

Rinn Louis: deux documents indigènes sur L'insurrection de 1871, RAF, Alger, pp.21-27.

² - يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص17.

³ - يحيى بوعزيز: وصايا الشّيخ عزيز ابن الحدّاد وابنه سي عزيز...، المرجع السابق، ص25.

- توجيه الكثير من رسائل التهديد والتحذير لردع القبائل والشخصيات المعادية للثورة خاصة غريمه ابن علي الشريف باشاغا شلاطة، ومحمد أمزيان بن الموهوب شيخ زاوية العراش.

- فرض غرامات مالية على المترددين والمتقاعسين¹.

* تنظيم صفوف الثوار:

قام سي عزيز في هذا الإطار بتجميع الثوار وتقسيمهم إلى قسمين: القسم الأول قاده بنفسه، وتألّف من حوالي خمسة آلاف مقاتل إلى جانبه بعض القادة الكبار من أمثال بن عبد القادر الوهراني مقدّم بني سليمان، والبشير بن علي بن عبد الله بن الأعلى، وغيرهم من الزعماء والقادة. أما القسم الثاني فعين على رأسه شقيقه محمد، وضّم قرابة أربعة آلاف مقاتل، وعددا معتبرا من القادة مثل عمر أوبوجمة، وبوجمة بن نعمان، والعريف حمو².

* الاستخبارات:

تفطن سي عزيز مبكرا إلى أهمية الاستخبارات في العمل العسكري، فأولاهها عناية خاصة من خلال اختيار أفضل معاونيه ممن تتوفر فيهم المؤهلات المطلوبة للقيام بهذه المهمة الاستراتيجية، وقد انصبّ نشاط المخبرين على مراقبة قوات العدو، وخططه وتحركاته، وكذلك القبائل المتعاونة معه التي كانت تقوم بالعمل نفسه لصالح الجيش الفرنسي³، وجدّير بالذكر أن سي عزيز صادف صعوبات جمة في توفير الأسلحة والمؤونة للعدد الهائل من المقاتلين الذين انضموا إلى الثورة، وهو العامل الذي أضعف من قدراتهم القتالية.

وفي المقابل أظهر سي عزيز شجاعة كبيرة في المعارك التي خاضها ضد الجيش الفرنسي وأعوانه من الجزائريين في جبال البابور، وجبل مقرس، وعين عباس، والعلمة، وتاقيطونت، وأولاد صالح، وواد البارد، وعموشة، وشعبة عيسى في ناحية سطيف، وفي الشمال القسنطيني، والمنطقة الشرقية لوادي الصومام، وفرجيوة وغيرها، وسلاحه الوحيد في ذلك حماسه الديني، وسمعة عائلته وتأثيرها الروحي⁴، وهو سلاح غير كاف بالنظر إلى اختلال ميزان القوة المادية بين الفريقين لصالح الفرنسيين الأمر الذي عجل باستسلامه رفقة والده وشقيقه وقادته الكبار بعد أن أدرك الجميع استحالة الاستمرار في مواجهة غير متكافئة.

5- استسلامه ومحاكمته:

بدأ سي عزيز يفكّر تفكيرا جدّيا في الاستسلام للفرنسيين بعد فشله العسكري في معارك جبال البابور وعموشة خلال شهري ماي وجوان 1871م، وفي استمالة القبائل والعائلات الكبرى التي اختارت التعاون مع الجيش الفرنسي، وبالتالي عجزه عن إمداد مقاتليه بالمؤونة والسلاح الكافين إضافة إلى عدم نجاعة الخطط الحربية التي أعدّها، وقلة كفاءة بعض قواده العسكريين، فبعث برسالة إلى الجنرال لالمان Lallemand أعلمه فيه باستسلامه صحبة والده الحدّاد وأخيه محمد طالبا في الوقت نفسه العفو وحسن المعاملة: "وصلنا إلى يدكم ووثّقنا أيدينا إن فعلتم خيرا كثر الله خيركم، وإن فعلتم شرا كثر الله خيركم"⁵. ثم استسلم بقية القادة الذين أعلنوا مسؤوليتهم الجماعية عن الأحداث، واستعدادهم لتحمل الإجراءات التي ستتخذ ضدهم طالبين تبرئة السكان الذين كانوا ينقذون أوامرهم، وقد أعجب الجنرال لالمان بشجاعتهم فمنحهم حق أسرى الحرب⁶.

¹ - يحيى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين...، المرجع السابق، ص213.

² - يحيى بوعزيز: وصايا الشيخ عزيز ابن الحدّاد و ابنه سي عزيز...، المرجع السابق، ص25.

³ - يحيى بوعزيز: المرجع نفسه، ص26.

⁴ - المرجع نفسه، ص34.

⁵ - نفسه، ص75.

⁶ - الطاهر أوصديق: المرجع السابق، ص131.

قدّم الجميع للمحاكمة بمحكمة الجنايات بقسنطينة في أوائل سنة 1873م، وقد جاء في محضر اتهام سي عزيز أنه متهم بارتكاب جرائم تحريض السكان على التمرد ضد السلطات الفرنسية ودفعهم إلى حرق وتخريب الممتلكات العامة والخاصة، ومحاربه لأصدقاء فرنسا في بلاد القبائل بمفرده أو بالاشتراك مع غيره، واختتم المحضر بتحميله المسؤولية الكاملة في ارتكاب هذه الجرائم التي يعدّ مرتكبها في نظر القانون الفرنسي مجرماً خطيراً يتعين على الجهات القضائية الحكم عليه بأشدّ العقوبات، والأمر ذاته ينطبق على والده الشيخ الحدّاد وأخيه الشيخ محمد¹.

وبالرغم من أنّ المحامي ليون سرور المعروف بقسنطينة هو من تكفّل بالدفاع عن سي عزيز إلى أن هذا الأخير أظهر شجاعة كبيرة في ردّ التّهم عن نفسه وعن عائلته من خلال تقديمه للبراهين التي رأى بأنها دامغة، كما طالب من هيئة المحكمة أن تعاقب من ستّاهم بالمشوّشين الحقيقيين الذين دفعوه وعائلته إلى الثورة، وهم -حسبه- الذين سيشهدون ضده خلال المحاكمة، فذكرهم بالأسماء ومنهم غريمه ابن علي الشريف باشاغا شلاطة الذي وصفه بصاحب الوجهين وأتباعه بالكذّابين والخائنين²، وهي أوصاف تعبّر صراحة عن عمق الصّراع والخلافات المستفحلة بين الفريقين، وقد صدرت الأحكام في حق أفراد عائلة الحدّاد الثلاثة في يوم 17 أبريل 1873م، وجاءت كما يلي:

- الحكم بالسجن الفردي لمدة خمس سنوات على الشيخ محمّد، وقد استبدل فيما بعد بالنّفي خارج الوطن.

- الحكم بالنّفي خارج الوطن على سي عزيز.

ولم تكتف السلطات بهذه الأحكام القضائية القاسية التي أصدرتها محكمة قسنطينة للجنايات في حق عائلة الحدّاد بل سارعت إلى استصدار قرار حمل رقم: 208 أمضاه الحاكم العام للجزائر³، ويقضي بمصادرة جميع الأملاك المنقولة وغير المنقولة التي في حوزة العائلة، وقد قدّر مجموع الأراضي المصادرة بأكثر من 502 هكتار⁴، وهكذا كان مصير عائلة الحدّاد السجن والنّفي والتشريد لأفرادها، والمصادرة لكل أملاكها شأنها في ذلك كشأن عائلة المقراني، والكثير من العائلات الجزائرية التي انضمت إلى الثورة.

6- حياته في المنفى وفراره إلى الحجاز:

وضع سي عزيز مع حوالي خمسين جزائرياً من ثوار 1871م في معسكر يسمى معسكر العرب، ويقع في حوض التوندرة في وسط جزيرة كاليدونيا الجديدة، وقد وصفهم أحد زملائهم المعتقلين في قصيدة كتبها بأنهم كانوا يعيشون حياة هادئة فخورين بما قاموا به لصالح وطنهم يقضون جل أوقاتهم في الأعمال الزراعية التي تؤمّن لهم رزقا بسيطاً يلبي بعض حاجياتهم اليومية يؤدّون شعائهم الدينية في خشوع تام بالرغم من حالة الاغتراب القاتلة التي كانوا يعيشونها⁵، وقد ضلّ سي عزيز يكتب رسائل الشوق والحنين إلى أقاربه وأصدقاء والده في الجزائر لكن طول مدة النفي دفعت به إلى مراسلة ممثلي السلطات الفرنسية المدنيين والعسكريين يطلب منهم العفو عنه والرّحمة به وبأبنائه الصغار: "لا تروموا أن يذبل شبابي من ضيق السجون ولا تروموا أن تفصلوني عن عائلتي، وأطفالي صغار لأن هذا ليس إلا للبد القديرة التي يطلب منها العفو وهو الله العلي القدير الذي يعرف ماذا سيحصل"⁶.

ولما يئس من العفو عزم سي عزيز على أن يتدبّر أمر فراره بنفسه، فاتّصل بأحد الحراس وقدّم له رشوة بألفي فرنك فرنسي مكّنته من امتطاء سفينة بريطانية تحمل الزيت كانت متّجهة نحو مدينة سيدني الأسترالية في شهر ماي 1881م في حين رفض أخوه

¹ - يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص75.

² - يحيى بوعزيز: وصايا الشيخ عزيز ابن الحداد وابنه سي عزيز...، المرجع السابق، ص154.

³ - المرجع نفسه، ص49.

⁴ - نفسه، ص190.

⁵ - جيلالي صاري: "مسير ثوار 1871م في معتقلهم كاليدونيا الجديدة"، الثقافة، ع94، وزارة الثقافة، الجزائر، 1986م، ص119.

⁶ - يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص159.

محمد¹ الفرار معه قائلا له: "يكفيني ما أصابني جرّاء الاستماع إليك"، وهي عبارة تعكس الحالة النفسية السيئة التي كان عليها المعتقلون بفعل طول مدة إقامتهم في المنفى من جهة، وبأسهم من عفو فرنسا من جهة أخرى، ومن أستراليا قصد جدّة بالحجاز في منتصف جوان 1881م، وفيها مكث فترة وجيزة ثم أبحر باتجاه عدن باليمن على متن سفينة تركية، ومنها انتقل إلى مكّة المكرمة حيث استقر به المقام، فاشترى جارية حبشية تدعى خانم بنت عبد الله عمرها أربعون عاما تمتهن الرضاعة والتوليد تزوجها بعد أن اعتقها بحضور جمع غفير من اليهود، وقد كتب ورقة العتق بيده أنجبت له بنتا سمّاها خديجة وولدا سمّاها محمد الصادق².

ويعود سبب اختياره الاستقرار بمكّة المكرمة إلى مكانتها الدينية، ولما يمثله موسم الحجّ من فرصة للالتقاء بالحجّاج الجزائريين يسألهم عن أخبار الوطن والأصدقاء، ويرسل معهم الرسائل إلى الأهل³، وهكذا أنهى سي عزيز مغامرة الفرار بالاستقرار في أرض الحجاز بكنف أسرة جديدة دون أن يفقد الأمل في صدور العفو يوما ما، فيعود للجزائر التي اشتاق إلى ترائها وهوائها وأهلها.

7- صدور العفو عنه ووفاته:

أورد الأستاذ يحيى بوعزيز أن سبب قيام السلطات الفرنسية بإصدار العفو عن الشيخ سي عزيز - حسب رواية لأحد أحفاده - هو تمكّنه من استعادة الآثار التي سلبها بعض الأعراب من البعثة الأثرية الفرنسية التي جاءت إلى جدّة رفقة بعثة بريطانية لاستكشاف المنطقة بطلب من القنصل الفرنسي بجدّة لسمعة سي عزيز الطيبة لدى حكام مكّة المكرمة وشيوخ القبائل، وقد أشاد القنصل بتلك الجهود في تقريره الذي رفعه إلى الحكومة الفرنسية مما عجّل بالعفو عنه سنة 1895م، فسمح له بالإقامة في أي مكان يرغب فيه أو في فرنسا دون مستعمراتها بمعنى أنه لا يحق له العودة إلى الجزائر، فاختار فرنسا على أمل أن يدفع الحكومة الفرنسية هنالك على التراجع عن قرارها مستقبلا لكن الموت عاجله، وتوفي في المنزل الذي كان يسكنه بنهج مينيلي مونتون بباريس في 21 أوت 1895م عن عمر ناهز 53 سنة⁴.

وتذهب بعض الروايات إلى أن وفاته لم تكن طبيعية، وإنما أنه مات مسموما في أحد المستشفيات الباريسية بإيعاز من أحد قادة قرية صدوق -مسقط رأس الشيخ عزيز-، والذي نصّح السلطات الاستعمارية بعدم السماح له بالعودة إلى الجزائر لأنه يشكل خطرا على فرنسا، فقد يقوم بعمل ثوري جديد ضدها، وقد تمكّن ابنه سي صالح من إعادة جثمانه إلى أرض الوطن على متن باخرة فرنسية كانت متجهة إلى مدينة الجزائر، ولما رأت الإدارة الاستعمارية الإقبال الجماهيري الكبير في الميناء لاستقبال الجثمان أصدرت الأوامر بتحويل الباخرة إلى ميناء سكيكدة، ومنها نقل إلى قسنطينة حيث دفن إلى جانب أبيه⁵.

خاتمة:

في نهاية المطاف، وبناء على ما تم عرضه ومناقشته نخلص إلى النتائج التالية:

- نسجّل سعي الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى تقويض المكانة الروحية والسياسية لعائلة الحدّاد في بلاد القبائل خاصة، وفي بقية جهات الجزائر عامة بكافة الطرق والوسائل، ومنها تأليب العائلات المعادية لها ضدها، وتشجيعها ماديا ومعنويا، كما حدث مع عائلة ابن علي الشريف باشاغا شلاطة.

¹ - من المرجح أن الشيخ محمد قد توفي بمنفى في كاليدونيا الجديدة.

² - ذكر الأستاذ يحيى بوعزيز في كتابه وصايا الشيخ الحداد وابنه سي عزيز أن خديجة ومحمد الصادق أحضرا إلى الجزائر بعد وفاة والدهما سي عزيز حيث عاشت الأولى عند أخيها عبد المالك حتى وفاتها في أوائل السبعينات، أما الثاني فعمل موظفا في ولاية قسنطينة إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية.

³ - يحيى بوعزيز: "عودة إلى نهاية الشيخ عزيز ابن الحداد في المنفى"، الثقافة، ع96، وزارة الثقافة، الجزائر، 1986م، ص128.

⁴ - يحيى بوعزيز: وصايا الشيخ عزيز ابن الحداد وابنه سي عزيز...، المرجع السابق، ص175-176.

⁵ - يحيى بوعزيز: المرجع نفسه، ص49.

- إنّ انضمام سي عزيز وعائلته إلى ثورة 1871م شكّل نقلة نوعية في المسار العسكري للثورة. حيث تحوّلت من طابعها الأرستقراطي وإطارها الجغرافي الضيق إلى انتفاضة شعبية شملت نصف البلاد تقريبا، ومثلت تهديدا حقيقيا للوجود الفرنسي في الجزائر.
- إنّ استقالة الشّيخ سي عزيز ابن الحداد من منصبه كقائد على دواوير عموشة وتاقيطونت بسطيف تدفعنا إلى التساؤل عمّا إذا كان سيستمر في هذا المنصب الحكومي لو أن السلطات الفرنسية لم تنحاز إلى صفّ عائلة ابن علي الشّريف، وتعيّن هذا الأخير في منصب القايد على قرية شلاطة ببجاية.
- لقد تمكّنت فرنسا من القضاء على الطموحات السياسية للشّيخ سي عزيز بتشريد عائلته ومصادرة أملاكها، وإبعاده إلى خارج الجزائر، ورفض حكامها المطلق السماح له بالعودة إلى أرض الوطن.
- يمكن أن نصف الشّيخ سي عزيز ابن الحدّاد ضمن الشخصيات الجزائرية التي جمعت بين الزعامة الروحية والعسكرية، وهما الصفتان اللتان سمحتا له بالقيام بدور مزدوج: سياسي وعسكري خلال ثورة 1871م على عكس الشّيخ محمّد المقراني الذي كان في تقديرنا قائدا عسكريا أكثر منه شخصية سياسية.
- الحاجة إلى دراسات أكاديمية جادّة تتناول بالدراسة والتحليل شخصية الشّيخ سي عزيز، ودوره السياسي والعسكري في ثورة 1871م، وكذلك حياته في المنفى، وإلى غاية وفاته في فرنسا سنة 1895م.

أحمد بومرزاق المقراني واستمرار مقاومة 1871م في بلاد حمزة

عبد الحليم مرجي - جامعة البويرة

اختفى الحاج محمد المقراني بسرعة من ميدان المعركة إثر استشهاده يوم 05 ماي 1871م، واختفى بعده أفراد أسرة الشيخ الحداد كلهم فيما بين (30 جوان - 16 جويلية) من السنة نفسها، وعلى رغم ذلك تواصلت الثورة الشعبية، ولقيت الإدارة الاستعمارية عنتا في إخضاع الثوار، وقد حمل مشعل الثورة أحمد بومرزاق شقيق الحاج محمد المقراني، وتمكن من تحقيق نجاح باهر دون أن يضعف موقفه بسبب المعركة التي كانت شرسة واعترضتها صعاب جمة، ويحاول الكثير من المؤرخين حصرها في انعدام التنسيق بينه وبين الإخوان الرحمانيين، وظهور الخلافات بين زعماء أرسطقراطيين ورجال الدين الرحمانيين، وقد اعتمد بومرزاق على منطقة بلاد حمزة التي كان يتولى إدارتها لسنوات، ولعب دورا في حصار مدينة البويرة، وعندما تولى زعامة الثورة ظل يعتمد عليها، وفي هذا البحث سنحاول التعرف على شخصية أحمد بومرزاق وعلى دور بلاد حمزة في ثورة 1871م.

- تحمل أحمد بومرزاق مسؤولية قيادة ثورة 1871م:

تعد ثورة 1871م محصلة للثورات الشعبية التي عرفتها الجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي، وقد كانت آخر الانتفاضات المنظمة التي عبأت ثلثي سكان الجزائر وزجت بهم في أتون المعركة، ويكتسي بذلك عام 1871 أهمية بالغة في تاريخ الجزائر، وهو ليس عام المقراني لوحده بل شاركت فيه الجماهير الملهبة حماسا وزعماء آخرون لا يقلون مكانة عنه، يأتي على رأسهم شقيقه أحمد بومرزاق، الذي يبدو أن المؤرخين لم يخصوه بالتقدير والإنصاف رغم دوره البارز في الثورة، سواء في حياة أخيه أو بعد استشهاد، وهذا ما سنحاول تبينه وإبرازه.

لقد عاش بومرزاق أحداث الثورة من بدايتها إلى نهايتها، وتولى قيادتها بعد استشهاد أخيه الذي لم يعيش بعد إعلان الثورة سوى خمسين يوما، واشتهر بومرزاق أولا بمنطقة ونوغة حتى أصبح سكانها يطلقون على سنة 1871م بعام بومرزاق، وذاع صيته كفائد للثورة بالمنطقة¹، كان قائدا على عرش ونوغة عندما أيد أثناء اجتماع الأسرة 14 مارس 1871م موقف أخاه في إعلان الثورة، وتحمل مسؤولية قيادة إقليم ونوغة، وقد مكنا الدكتور يحيى بوعزيز من وثائق كثيرة توضح جوانب من مسيرته الجهادية، وهي تشير إلى حركيته النشطة وإنجازاته الكبرى، وإلى حنكته ومقدرته العسكرية.

فقد حاصر في البداية كثيرا من المراكز الفرنسية ومحلات القوم في ونوغة، واجتهد في تعبئة سكان المنطقة وكسب زعماء القبائل لصالح الثورة، وقد حقق انتصارات كبرى في المعارك الأولى بجبل السروج ووادي أحريص قرب سور الغزلان، وقبل أن يفرض حصاره على برج الأبنام وبني منصور العسكريين بذل جهودا كبيرة في استمالة زعماء الأعراس والقبائل، وأظهر تشدده في معاملة خصوم الثورة².

ويبدو واضحا أن منطقة ونوغة وبرج حمزة مثلت جبهة استراتيجية مهمة في ثورة 1871م، وهو ما جعل محمد المقراني يخصص أخاه بقيادتها، وينتقل إليها ليشرف بنفسه على سير الثورة، ففي بداية شهر ماي 1871م فرض حصاره على مدينة البويرة، وعندما فشل في اقتحامها تراجع بقواته وعسكر في منطقة تسالة استعدادا لمواجهة القوات الفرنسية المتجهة نحوه، واحتدمت المواجهة بواد

¹ - يحيى بوعزيز: ثورة 1871 ودور عائلي المقراني والحداد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص273.

² - أنظر عينات الرسائل التي توضح نشاط بومرزاق في مناطق ونوغة وسور الغزلان وبني منصور، (يحيى بوعزيز: مواقف العائلات الأرسطقراطية من الباشاغا المقراني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1994م، ص34 وما بعدها).

سفلات صبيحة يوم 05 ماي 1871م، وقد كلفت فرقة من القوم باصطياد المقراني، وأنجزت مهمتها بسهولة عندما هم بأداء صلاة الظهر، وأدى مقتل المقراني إلى إثارة بلبلة في جبهة الثوار¹.

كانت صدمة المقرانيين كبيرة في وفاة زعيم الثورة، وقد بادر بومزراق إلى جمع كلمتهم وملئ الفراغ الذي خلفه موت أخيه، وبذل جهودا جبارة لإثبات قوة الثورة واستمراريتها، فواصل المعركة بحزم وإقدام، وجعلها تمتد وتطول حتى أوائل عام 1872م، ولكنه أخفق في النهاية لأنه لم يتمكن من استمالة زعماء العائلات الكبرى إلى الثورة، وفشل في تحقيق الانسجام بينه وبين قادة الإخوان الرحمانيين².

ولا تزال كثيرا من ملامح شخصية بومزراق غامضة بحكم أن الأنظار وجهت إلى زعيم الثورة الأول محمد المقراني، وتختلف المصادر في تقدير مكانته وتقييم دوره القيادي، ويتحامل عليه خصومه ويعده المنصفون من أبرز القادة الرئيسيين لثورة 1871م.

تحمل بومزراق بعد توليه زعامة الثورة مهامًا جسورة، وأول مسألة اهتم بها هي التنسيق مع الرحمانيين وتوحيد الصفوف لتحقيق انتصارات ميدانية تبرهن على قوة الثورة ونجاعة قيادته، ويبدو أن خلافاته السابقة مع سي عزيز في منطقة البابور³، وفشل لقاءاته مع محمد بن الشيخ الحداد قد أربك مخططه العسكري، إذ فك مثلاً حصاره على برج بني منصور ليشارك في الهجوم الواسع على مدينة بجاية⁴، كما أن تردده دفعه لإخفاء موت محمد المقراني على سكان منطقة القبائل وونوغة، مما فسح المجال لانتشار الشائعات المغرضة.

وقد واصل بومزراق حركيته النشطة في متابعة سير الثورة وتنقل بين مختلف المناطق، فشارك مع سي عزيز في شن الهجمات وخوض المعارك بمناطق البابور، واستقر فترة بقلعة بني عباس، وقاد المجاهدين في جبهات الثورة بونوغة والحضنة، وأظهر بذلك حيوية ونشاطا كبيرين⁵، كما واجه بومزراق صعابا عديدة وانتكاسات خطيرة، ومنها تنكر الحلفاء والأنصار وتعاونهم مع المستعمر واستسلام أسرة الشيخ الحداد... الخ.

وقد واجه بومزراق مخطط القوات الفرنسية العسكرية الكاسح، وأظهر عزيمة قوية ومواقف ثابتة لم يتسرب إليها الوهن، وأبدى حنكة في معالجة كثير من القضايا المطروحة، ونلمس في رسائله سعة الاطلاع على أحداث عصره وفهم مخططات العدو.

وخاض بومزراق إثر استسلام أسرة الشيخ الحداد عدة اشتباكات ضد قوات الجنرال سوسي وأعوانه، وبعد معارك تاخرط ووادي الصومام وجبال بوندة والقلعة انسحب بومزراق إلى الحضنة، وعاد بعدها إلى ونوغة ليجمع الشمل من جديد، وخاض معركة سيدي إبراهيم بوبكر يوم 25 أوت 1871م، وعاد من جديد إلى البيان.

وإثر أحداث أغيل علي وبني عباس اتجه إلى الحضنة حيث كان له نشاط حثيث رفقة السعيد بن بوداود وابن بوزيان وعدد آخر من المقرانيين والونوغيين، وقد فشلوا في دخول مدينتي بوسعادة والمسيلة، وخاضوا معارك غير ناجحة ضد القوات الفرنسية، وكان بومزراق يحثهم باستمرار على الوحدة ومواصلة الجهاد ويرفع من معنوياتهم، وقد نجح في الإفلات من قبضة القوات الاستعمارية المحاصرة للثوار⁶.

¹ - يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص 226 وما بعدها.

² - بسام العسلي: محمد المقراني وثورة 1871م الجزائرية، ط1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1981م، ص 163.

³ - نشر إلى أن محمد المقراني كان قد استدعى أحمد بومزراق من ونوغة إلى ماوكلان شمال سطيف لأسباب غير واضحة، ويكون قد دخل في خلافات مع سي عزيز الحداد.

⁴ - Robin n: l insurrection de lq grqnde kqbylie en1871, henri charles lavouselle, paris, 1901, p.343-344.

⁵ - يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص 284 وما بعدها.

⁶ - المرجع نفسه، ص 290-302، الطاهر أوصديق: ثورة 1871م، ترجمة مسعود جباح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 112-146.

وهكذا نجح قائد المقاومة سي بومزراق في مواصلة الكفاح الذي بدأه أخوه وعائلة الحداد، وحقق نجاحات كبرى في المواجهات التي خاضها، ونال بذلك ثقة زعماء الثورة وتقديرهم، ونقف مثلاً عند وصف بعض المصادر لمعركة وادي الساحل¹ معجبين بخطة الهجوم والتطويق التي أعدها بومزراق، ومعجبين بصبر وشجاعة بومزراق في تتبع فلول المنهزمين، الأمر الذي زاد في إعجاب المجاهدين بشجاعته وإقدامه.

ونخلص إلى أن بومزراق قد تحمل مسؤوليته كاملة في السير قدماً بثورة 1871م دون أن يجنح للمفاوضة أو الخنوع، وعندما طوخته جيوش العدو خرج برجاله إلى الجنوب على أمل مخالفة ثوار الصحراء (بوشوشة، ناصر بن شهرة، أولاد سيدي الشيخ ...)، واستبسل في مواجهة خصومه إلى أن أملت عليه الظروف الهجرة خارج الوطن، وفي الطريق إلى تونس واجه المقرانيون مصاعب جمة، وحدث أن تاه بومزراق في الصحراء وعثرت عليه دورية استكشاف فرنسية قرب منطقة الرويسات يوم 20 جانفي 1872م، وهو في حالة اغماء، وقد تردد الجنرال دولاكروا في قتله، وقدمه إلى المحكمة التي حكمت بإعدامه ومصادرة أملاكه، وخفف الحكم لينفي إلى كاليدونيا الجديدة، حيث قضى فيها ما يناهز الثلاثين سنة إلى أن أذنت له السلطات الاستعمارية بالعودة والاستقرار في مدينة الجزائر التي توفي بها يوم 13 جويلية 1905م².

- العلاقة بين أحمد بومزراق المقراني وأسرته الشيخ الحداد:

تمثل العلاقة بين أسرتي المقراني والحداد مسألة مهمة في فهم أبعاد ثورة 1871م ونجاحاتها، ولإلزام بحدود هذه العلاقة يتوجب الوقوف على طبيعة هذا التحالف وخلفياته، فقد مثل انضمام أسرة الحداد إلى ثورة المقراني حدثاً مهماً وغير متوقع، وعوض المقراني فشله في استقطاب زعماء الأسر الأرستقراطية بالتحالف مع أسرة الشيخ الحداد والإخوان الرحمانيين، والمؤكد أن تحالف أسرة المقراني الأرستقراطية مع أسرة الحداد الدينية الشعبية كان ظرفياً ومصلحياً، ومثلما لم يذب الفوارق الاجتماعية والسياسية لم يسمح بتوحيد استراتيجية المقاومة.

لقد عبرت زاوية صدوق الرحمانية عن موقفها المعارض للإدارة الاستعمارية، ومثلت بذلك توجه الطبقات الشعبية الواسعة، في حين قبلت العائلات الأرستقراطية التعامل مع السلطات الاستعمارية، وتولى أفرادها الوظائف والمناصب الإدارية وحافظوا على مكانتهم الاجتماعية، وقد أظهرت مثلاً عائلتي بن علي الشريف والمقراني تعاليها وتسلطها على العائلات الشعبية المحرومة ومنها عائلة الشيخ الحداد بصدوق، وأثر هذا الواقع الاجتماعي والسياسي على علاقة المقرانيين بأسرة الشيخ الحداد³.

إن هذه الخلافات سوف تؤثر على تماسك ووحدة المقاومة، ويبدو أن محمد المقراني أظهر تفهمه لمثل هذه الفوارق واكتفى بكسب أسرة الحداد لجانب المقاومة دون أن يطرح للنقاش قضية جوهرية هي: من يتزعم الثورة ومن الذي يخطط ويوجه؟، ويبدو أن الوقت لم يكن كافياً لطرح هذه القضية، فالمهم بالنسبة للمقراني هو أن يكسب إلى صفه ثواراً يدعمون مقاومته، وعليه لم يكن هناك منذ البداية تنسيق محكم بين القادة الرحمانيين والمقرانيين، وقد كان محمد أمزيان الحداد شيخاً كبيراً، وحمل لواء الجهاد أبناء سي عزيز في جهة سطيف والبابور، وسي محمد في بجاية ونواحيها، ومن جهته وزع محمد المقراني قواته على منطقتي البليان وونوغة⁴.

والمعروف أن المقراني هو زعيم الثورة الأول، لكن ذلك كان في بداية الثورة وإثر استشهاده تغيرت أشياء كثيرة، واعتبر ابنه الشيخ الحداد بما حققه من نصر ونجاح، فنافسا المقرانيين في تزعم الثورة، وبرزت الخلافات بشكل واضح في عهد بومزراق، وقد اجتمعت أسباب عدة ساهمت في جفاء العلاقة بين بومزراق وسي عزيز الحداد، نركز عليها بحكم أن زعامة المقرانيين عادت إلى بومزراق وزعامة

¹ - وقعت هذه المعركة يوم 29 ماي 1871م بالقرب من ذراع الميزان.

² - وزارة الثقافة والإعلام: كيف تحررت الجزائر، الجزائر، 1979م، ص 36-38.

³ - Julien C-A; Histoire de l'Agerie contemporaine 1827-1871, Paris, 1964, p.481-482.

⁴ - Julien (CA); op cit, p481-482.

الرحمانيين لسي عزيز، وعلى هذين الشخصين تقع مسؤولية توحيد صفوف الثورة وتنسيق عملها، ونذكر من بين أسباب الخلاف الرئيسية ما يلي:

- اختلاف تكوين الزعامات القيادية، فلقد أظهر سي عزيز في مناسبات عدة مقتته واستيائه من تصرفات ومواقف العائلات الأرستقراطية، ولم يقدر المقرانيون المكانة الشعبية لأسرة الشيخ الحداد والدور الذي تنهض به.
- الانقسام العائلي القديم، إذ أحى هذا الانقسام بذور الشقاق، وقد كان سي عزيز من قبل حليفا لفرع محمد بن عبد السلام المقراني خصم أحمد المقراني والد الباشا أغا محمد، وكان هذا الأخير متحالفا مع باشا أغا شلاطة ابن علي الشريف.
- الصراع من أجل الزعامة الذي ظهر جليا اثر وفاة محمد المقراني بين المقرانيين والإخوان الرحمانيين، ولأن العلاقة لم تكن واضحة بين الطرفين، فقد كان بومزراق يهدف إلى تأكيد زعامته، في حين أن سي عزيز اغتر بانتصارات الرحمانيين وسعى إلى تحقيق الشهرة باستخلاص القيادة، وأدى اندفاعه وغروره إلى الدخول في خلافات عقيمة مع أسرة المقرانيين.
- الاختلاف في الأصول والنشأة، ذلك أن سي عزيز ينتمي إلى أسرة دينية تنزع إلى الاستقلالية، وهي ببساطتها تمقت أساليب السياسة الملتوية التي تعودتها العائلات الأرستقراطية وسلوكاتها المتصفة بالعنجهية والكبرياء، وهذا الأمر زاد في عدم انسجام سي عزيز مع شخصية بومزراق¹.

وقد بادر بومزراق بمجرد الانتهاء من مراسيم دفن أخيه الباش أغا المقراني للاتصال بأسرة الشيخ الحداد، وحدد لقاء مع سي محمد الحداد بهدف تنسيق العمل وتأكيد زعامته، ولا تتوفر لدينا كثير من المعطيات الخاصة بهذا الاجتماع، ويمكننا أن نستنتج أنه كان مفيدا في توطيد الصلات بين الطرفين بدليل أن بومزراق هب لدعم سي محمد في حصاره لمدينة بجاية بعد أقل من أسبوعين من عقد هذا الاجتماع².

وتوضح إحدى الروايات أن الزعيم الروحي الشيخ أحمد أمزيان الحداد طلب من بومزراق التعرّيج عليه في صدوق، وأنه عبر له عن نيته الطيبة في القضاء على أسباب الاختلاف والتنافس الموجود بين المقرانيين وعائلة الحداد، وتم الاتفاق على تصفية جميع الخلافات السابقة³.

وإثر فشل الحصار على مدينة بجاية انتقل بومزراق وسي عزيز إلى جبال البابور، واشتركا في المعارك التي دارت في الفترة ما بين 20 ماي و25 ماي 1871م، وكانت لبومزراق تجربة سابقة في المنطقة، وقد اجتهد في كسب العائلات الكبرى وزعماء القبائل، وخلال هذه الأيام المعبودة أثّرت خلافات حادة بينه وبين زعيم الرحمانيين، وما لبث أن عاد بومزراق إلى بجاية وانتقل إلى البويرة لمواجهة قوات الجنرال "سيريز" الزاحفة، ولأنه كان كثير الحركة عاد من جديد إلى جبال البابور وشارك في المعارك التي كان يخوضها الثوار ضد قوات "سوسي"، لكن الخلاف احتدم بينه وبين سي عزيز هذه المرة، خاصة من خلال سباقهما على الزعامة وانعدام التنسيق بينهما، وأثر ذلك على عزيمة سي عزيز، وبدوره لم يطل بومزراق اقامته بالمنطقة ورجع إلى البيان وونوغة ليتصدى للقوات الفرنسية الزاحفة، وفي غمرة الأحداث تناهت إلى مسامعه أخبار استسلام أفراد عائلة الحداد⁴.

¹ - يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص 285.

² - الطاهر أوصديق: المرجع السابق، ص 112.

³ - المرجع نفسه، ص 112.

⁴ - يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص 290.

وكانت نهاية أسرة الشيخ الحداد بهذا الشكل السريع ضربة قاصمة للثورة، وواصل بومزراق بذل جهوده في التعبئة والتجنيد، وكللت مساعيه بانضمام عدد من المناصرين الجدد للثورة فضلاً عن استمرار جيوب مقاومة الإخوان الرحمانيين¹، كما أن فروع المقرانيين ورغم ما لحقها من اضطهاد ومتابعات أظهرت استماتتها في المواجهة وتحندها وراء زعيمها بومزراق.

- الخلافات بين أحمد بومزراق والرحمانيين وأثرها في فشل الثورة:

بقدر ما كانت نتائج ثورة 1871م عظيمة كانت نهايتها سريعة، والمتمعن في أسباب فشلها يميز بين عوامل عدة يبدو من خلال تحليلها أن الثورة واجهتها صعاب جمة ووقفت في طريقها عوائق عديدة.

فبالرغم من سمة التنظيم التي عرفتتها إلا أن قيادتها لم تكن موحدة في يد شخص واحد، وقد كان من الصعوبة بمكان خضوع إحدى فرعي القيادة للآخر، لهذا اتفق المقرانيون والإخوان الرحمانيين على أن يشن كل طرف الثورة في المناطق الخاضعة لنفوذه، وإن كان المخطط قد حقق نجاحاً في بداية الأمر إلا أن قضية التنسيق والإشراف على توجيه الثورة لم تولي العناية الكاملة، الأمر الذي سمح بتعدد القيادات وعدم وضوح استراتيجيات الثورة²، وقد بذلت جهوداً كبيرة لتقريب وجهات نظر القادة المقرانيين والرحمانيين، وكانت العوائق كآداء في وجه مبادرات دأب الصدع وتنسيق العمل وتوحيده، وأدى التنافس والطموح الفردي إلى تزايد الأطماع الشخصية.

وساهمت سياسة التفرقة الفرنسية في إغراء بعض زعماء الثورة وتحويلهم إلى أطراف معادية للثورة، وارتكبت أخطاء لم يحسب القادة المقرانيون حسابها، وأدى انعدام التنسيق إلى عدم توحيد المعركة ميدانياً، وجعل الشكوك تحوم حول إمكانية نجاح الثورة، وفي ظل هذه الفرقة اتخذت عدة مبادرات وقرارات فردية لم تراعى فيها سوى المصالح الخاصة بالقادة، وعليه عادت بالوبال على الثورة وكانت من بين أسباب فشلها، وفي ظل احتدام الخلاف بين بومزراق وسي عزيز تدعمت الثورة بثوار جدد من جهات متعددة، ولم يفد ذلك في تقوية شوكة الثورة، وتمكنت القوات الفرنسية تدريجياً من إخماد المقاومة³، وعموماً أدت الخلافات إلى تشتيت الجهود وبعث الشقاق، وعدم وضوح الأهداف، وكان قرار استسلام عائلة الشيخ الحداد ضربة قاصمة تأثر لها بومزراق المقرانيون أيما تأثير.

خاتمة:

على ضوء ما سبق توضيحه من دور لبومزراق في ثورة 1871م، وبيان لعلاقاته مع أسرة الحداد نخلص إلى تأكيد ما يلي:

- أن المقرانيين تحملوا مسؤولياتهم كاملة في مواصلة الثورة بعد استشهاد محمد المقراني، وأظهر بومزراق مقدرة وتصميماً على إنجاحها، فكان الزعيم الأول للثورة بعد أخيه، وقد دفعت انتصاراته ومواقفه كثيراً من الأطراف على تقزيم دوره وتشويه شخصيته.
- لقد أظهر بومزراق مقدرة وحنكة سياسية في القيادة، وأخذ بيد الثوار إلى تحقيق انتصاراتهم الكبرى، وقد توضح لنا أن الثورة تقوت في عهده وامتدت لتشمل مناطق واسعة من وسط وشرق البلاد، وتمكن بومزراق من مواجهة المخططات الفرنسية والخلافات الداخلية، وصمد في ميدان المعركة دون أن يضعف أو يستسلم للفرنسيين، وبذلك سجل مواقف وبطولات وطنية شهمة.
- لقد اجتمعت عوامل شتى باعدت بين القادة المقرانيين وأسرة الشيخ الحداد الرحمانية، ولم يتسنى لبومزراق إصلاح الخلاف المتأصل بين الطرفين، وقد أثر الخلاف وانعدام التنسيق في إضعاف الثورة وإفشالها.

¹ - المرجع نفسه، ص292 وما بعدها.

² - مولود قايد: (ثورة 1871م ونتائجها)، الأصاله، ع23، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1975م، ص62.

³ - شارل روبر آجرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ط1، منشورات عويدات، لبنان، 1982م، ص8.

أضواء على مشاركة زاوية سيدي بوجملين الرحمانية بالمسيلة في ثورة 1871م

غياط نصر الدين - باحث في تاريخ وتراث مدينة المسيلة

رغم الدور المميز الذي لعبته مدينة وحاضرة مسيلة إبان ثورة الحاج المقراني والشيخ الحداد سنة 1871م، وإيلاء المقرانيين مكانة خاصة لها من بين المدن والمداشر التي شملت مقاومتهم نظراً لموقعها الاستراتيجي وباعتبارها مركز دعم وإسناد وملجأً للشوار خاصة في الفترة الممتدة من 3 جويلية إلى 24 أكتوبر 1871م، ورغم الخسائر الفادحة والنتائج الوخيمة التي تكبدها أهالي المدينة بعد فشل المقاومة إلا أننا نسجل نقصاً معتبراً في الدراسات والكتابات التي تُذكر بالجهود التي بذلها ساكنة المدينة وأحواؤها في سبيل إستمارة وصمود آل المقراني والإخوة الرحمانيين .

لقد كان للزاويا والطرق الصوفية تأثير كبير على الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة المسيلة. حيث مثلت زاوية الولي الصالح سيدي بوجملين -رحمه الله- الهيئة الدينية الأولى التي يحتكم إليها الأفراد والأعراس المحيطة بالمسيلة لحل مشاكلهم والنزاعات فيما بينهم، كما كان لها دور بارز في مقاومة المحتل الفرنسي منذ أن وطأت جيوشه المنطقة، بدءاً بمقاومة الأمير عبد القادر إلى ثورة الحاج محمد المقراني سنة 1871م التي تصدر فيها أبناء الزاوية المشهد بعد إعلان مشيختها للجهاد المقدس ضد المحتل الفرنسي، وقد جاءت هذه المقالة¹ لتسلط الضوء على العلاقات التاريخية والاجتماعية التي جمعت بين الزاوية البوجملينية والأسرة المقرانية، والتي كانت حافزاً قوياً لمشاركة الزاوية في ثورة 1871م، فأين ومتى وكيف تأسست زاوية سيدي بوجملين؟ ومن هو مؤسسها؟ ما علاقتها بالطريقة الرحمانية؟ وما هي العوامل التي أدت لمشاركة الزاوية البوجملينية في ثورة 1871م؟ وما هي أهم أحداث المقاومة التي جرت بمدينة المسيلة؟ وكيف كانت انعكاساتها على الزاوية ورجالها وكذا على مدينة المسيلة؟

1- التعريف بزاوية سيدي بوجملين:

أ- الزاوية ومؤسسها:

تقع زاوية سيدي بوجملين بالمدينة القديمة للمسيلة بحي الكراغلة الواقع على الضفة الشرقية لوادي المسيلة، وبالتحديد بالموضع الذي كان يعرف سابقاً بحومة "رأس الحارة"، وحسب الرواية الشعبية فإنه وبقدوم سيدي بوجملين المعروف أيضاً بـ "سيدي بن هيلول" من المغرب الأقصى رفقة قافلته، وبإلهام إلهي قرر بناء مسجد في المكان الذي تبرك فيه الجمال²، وبعيدا عن الروايات الشعبية التي عادة ما تستسلم للخرافة، فلعل سبب اختيار الموقع الذي شُيدت فوقه الزاوية كان لوجوده في طرف تلة يمر أسفلها جدول ماء يعرف لدى الساكنة القدماء بـ: "الواد الصغير"، والذي من خلاله تسقى الجنات التي تحيط بمدينة المسيلة. حيث أصبحت هاته التلة فيما بعد منطقة تجمع عمراني للعائلات والأسر المنحدرة من نسل سيدي بوجملين³ ونسل تلامذته وأتباعه.

أما عن تاريخ نشأة الزاوية فيجهد السنين التي شُيدت فيها وبالتحديد لكن يبدو أنها كانت في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي أي في حياة مؤسسها الأول الإمام العارف بالله القطب الرباني الغوث بدل الأبدال مولاي أبي عبد الله محمد بن عبد الله المكي الشهير بالزيتوني، الشريف الإدريسي الحسني الفاسي أصلاً ومنشأً، المغربي بلداً، المسيلي داراً وقراراً، أحد أكابر شيوخ الصوفية

¹ - لمعالجة الموضوع اصطدنا بمشكل شح المصادر وقلة الوثائق خاصة وإن علمنا أن خزانة مخطوطات الزاوية تم نهبها ولم يبق منها سوى بعض الكتب المخطوطة وكذا بعض الوثائق الصادرة عن الإدارة الاستعمارية، وفي هذا الصدد لا يمكن أن أفوت شكر الأخ الأستاذ جريدة فاتح الذي مكنتنا من الاطلاع على سجلات المحكمة الشرعية لمدينة المسيلة، والشكر موصول كذلك للأخ الأستاذ بن يحيى عبد السلام الذي زودنا بمجموعة من الوثائق والمخطوطات التي اعتمدنا عليها لإنجاز هذا العمل.

² - Charles De Galland: Excursion à Bou-Saada et M'Sila, Ollendorf, Paris, 1897, p.81.

³ - كمال بيرم: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الحظنة الغربية فترة الاحتلال الفرنسي (1840-1954م)، أطروحة دكتوراه، جامعة قسنطينة، 2011م، ص 251-252.

في القرن 15م، والمعروف لدى أهل المسيلة وبجاية بـ "سيدي بوجملين"، وقد ترجم له أحمد الحضيكي في الطبقات¹، كما تُرجم له في المرأة والمنح الصافية في الأسانيد اليوسفية، وابتهاج القلوب، وجواهر السماط وغيرهم².

ويعرفه تلميذه الشيخ أبي عبد الله محمد الخروبي (ت. 963هـ)، فيقول: "... وأما شيخنا المولى العظيم الكامل الكريم، إمام وقته، ووحيد دهره، شيخ زمانه، وأستاذ أهل عصره الشيخ المربي الواصل إلى الله تعالى، الموصل إليه، مفيد المريدين، ومربي السالكين، القطب الفرد المكاشف، ذو المقامات العلية، والأحوال السنية، والأفعال المرضية، سني الطريقة، وإمام أهل الحقيقة، أبو عبد الله محمد الشهير بزيتون الفاسي البلد والمولد، دفن في المسيلة رحمة الله عليه..."³، وقد أخذ سيدي بوجملين العلم عن الإمام المفسر العارف بالله سيدي عبد الرحمن الثعالبي، كما يذكر محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الجزائري أن عدد مشايخ شيخه الإمام الزيتوني قد بلغ 76 شيخاً، حيث يقول: "... وكان هذا الشيخ كبير الشأن، عظيم القدر، مشهوراً في المشارق والمغرب، ذا مقام عظيم، ومُلكٍ كريم، وطريقٍ قديم، ومسلكٍ مُستقيم، أخذ هذا الطريق عن أكابر، وصحب أفاضل، وكان يعد لنا أشياخه فيبلغهم عددهم إلى نيف وسبعين شيخاً..."⁴.

أخذ عنه العلم والطريقة عدد لا يحصى من العلماء والأئمة الكبار، أشهرهم: الشيخ الكبير العارف بالله سيدي أبو العباس أحمد زروق البرنسي الفاسي (ت. 899هـ/1484م)، والشيخ محمد بن عبد الرحيم ابن يجيش التازي (ت. 920هـ/1515م)، والشيخ أبو العباس الشريف المدعو الشبيه (ت. 943هـ/1537م)، والشيخ أبو سالم إبراهيم بن أحمد بن محمد الزواري التونسي (ت. 961هـ/1554م)، والشيخ أبو فارس عبد العزيز القسنطيني (ت. 940هـ/1534م)، والشيخ سيدي أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الجزائري (ت. 963هـ/1556م)، وأبو بكر النفاقي، والشيخ أحمد بن يوسف الملياني (ت. 931هـ/1524م)، والإمام شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني (ت. 923هـ/1517م)، ويعود سبب تلقيه بـ "سيدي بوجملين" أي: الرجل ذو الحملين، كونه كان يحمل الأركاب من المغرب للحرمين الشريفين⁵ "معتمداً على اثنين من الجمال لا يعجزان أبداً" وبواسطتهما قام بالحج أكثر من أربعين مرة إلى مكة المكرمة⁶.

وقد عُرف الإمام الزيتوني برحلاته وجولاته العلمية في حواضر المغرب والمشرق⁷. حيث حط بمدينة تلمسان وكون بها أتباعاً، كما حل بحاضرة مليانة أين التقى بتلميذه الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف الملياني، ومنها عرج إلى جزائر بني مزغنة حيث جاور الإمام المفسر سيدي عبد الرحمان الثعالبي وأخذ عنه الطريقة، وبعدها قصد حاضرة العلم بجاية التي تولى بها منصب القضاء بعد وفاة قاضيتها، وهناك تزوج بلالة عيشة البجاوية، وبعدها نزل بطرابلس الغرب سنة 910هـ/1505م لما كان قاصداً بيت الله الحرام. حيث التقى بتلميذه الإمام أبي عبد الله الخروبي الذي كان آخر أشياخه وعنه أخذ الإسناد الصحيح، وحل بمدينة القاهرة حيث روى عنه الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني (ت. 923هـ/1517م) إمام المدرسة العينية بعض الأدعية والأذكار⁸، كما

¹ - محمد الحضيكي: طبقات الحضيكي، تحقيق أحمد بومزكو، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 2006م، ص268.

² - محمد الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقر من العلماء والصلحاء بنفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، ج1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 2004م، ص208-209.

³ - محمد الخروبي: شيخ أبي عبد الله الخروبي الطرابلسي، تحقيق عبد الله الهرامة، دار أصالة للنشر والتوزيع، لبنان، 1999م، ص65.

⁴ - المصدر نفسه، ص66.

⁵ - محمد الحضيكي: المصدر السابق، ص66.

⁶ - Joly, Alexandre: (La légende de Sidi Ali Ben Malek. Sa postérité), Revue Africaine, n° 268, 1908, p.74.

⁷ - محمد الخروبي: المصدر السابق، ص66.

⁸ - الإمام يوسف بن اسماعيل النبهاني: سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين، تحقيق الشيخ عبد الوارث محمد علي، ط6، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2012م، ص447.

ارتبطت شخصية سيدي بوجملين في الموروث المحلي بالكرامات التي لا تخطر على البال¹، والتي بقي ساكنة حواضر المسيلة وبجاية وتوقرت يتناقلونها فيما بينهم، كقصته مع أهل بجاية، وقصته مع الولي الصالح أحمد واعلي، وكذا قصة الأميرة البهجة التي أعطت تسميتها لمدينة توقرت. وقد توفي سيدي بوجملين سنة 911هـ / 1506م ودُفن بجوار زاويته بالمسيلة حيث شُيّد على ضريحه قبة لازالت قائمة ليومنا هذا.

ب- الدور العلمي والاجتماعي للزاوية:

كانت الزاوية البوجملينية، أهم زاوية في حاضرة الحضنة "مدينة المسيلة"، وكان لشخصية سيدي بوجملين المكانة القدسية عند عامة الناس، وزيارة ضريحه تتم كل أيام الأسبوع وخاصة الجمعة، وأيام الحضرة أو الزردة التي تقام بطلب من الشيخ أو الأتباع أو لأسباب اجتماعية واقتصادية خاصة بالأهالي²، ولعل شهرة الزاوية والمكانة التي كانت تحتلها لدى ساكنة بلاد المسيلة وخارجها، تعود بالأساس لشهرة مؤسسها ودوره في إخماد الفتن التي كادت تعصف بالمنطقة، ناهيك عن حلقات الوعظ والإرشاد التي كان يقوم بها لغرس فضائل المحبة والأخوة بين سكان المدينة وما جاورها من البوادي والأرياف³.

ولقد كانت الزاوية قبلة ومحجاً لسكان المنطقة وحواضرها من سهل وريف وجبل، كما كان يقصدها كثير من الزوار وطلبة العلم⁴، فقد زارها منتصف القرن الـ18م الشيخ الرحالة العالم الرباني سيدي الحسين بن محمد الورثياني (ت. 1779م) حيث ذكر زيارته لها في كتابه "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" المشهورة بـ"الرحلة الورثيانية"، قائلاً: "وفي ذلك السفر زرت الشيخ الغوث أبا جملين في المسيلة أفاض الله علينا من بركاتهم وأعاد علينا من أنوارهم"⁵، ويضيف في موضع آخر: "وكذا المسيلة وقد زرنا فيها الشيخ القطب الغوث سيدي محمد بن عبد الله بن أبي جملين وغيره"⁶، كما حظيت الزاوية باهتمام وعناية بابات الجزائر وتونس الذين أغدقوا على شيوخها وعلمائها بالهدايا والإحسانات، وكمثال على ذلك إحسانية باي تونس للمرابط الحاج محمد بن بلقاسم بن بوقرين من أولاد بوجملين⁷ وآخرين⁸.

كان للزاوية شيخ وبعض الخدام (القداش) وهم من الأجانب (المغاربة) الذين يتعلمون أو يخدمون الشيخ والزاوية، وإلى وقت متأخر كان أغلبهم من المغرب الأقصى⁹، أما التعليم فيها فهو متقدم، إذ زيادة عن تعليم القرآن الكريم، فإن الطلبة يتعاطون بدراسة مختصر خليل ودراسة التوحيد، كما أنهم يقومون بأداء واجباتهم الدينية طبقاً لتعاليم هؤلاء العلماء¹⁰، وتخرج من الزاوية عدد لا يحصى من الطلبة من داخل وخارج مدينة المسيلة، لعل أشهرهم: الإمام العالم العلامة الحافظ سيدي أبو عبد الله محمد بن خنتاش المسيلي صاحب كتاب نهاية المرام في تيسير مطالعة الأحكام، والإمام العالم العلامة الفقيه سيدي محمد المسعود بن خنتاش والعالم العلامة

¹ - محمد الشفشاوني: دوحة الناشر لحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، دار المغرب، الرباط، المملكة المغربية، ط2، 1977م، ص71-72.

² - كمال بيرم: المرجع السابق، ص379.

³ - محمد السعيد قاصري: (الطرق الصوفية والروايات بمنطقة الحضنة وموقفها من الاستعمار الفرنسي 1830-1916م)، المعيار، المجلد20، ع39، جامعة عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2015م، ص593.

⁴ - المرجع نفسه، ص593.

⁵ - الحسين الورثياني: الرحلة الورثيانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ج1، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2008م، ص16.

⁶ - المرجع نفسه، ص346.

⁷ - خليفة حماش: كشاف وثائق تاريخ الجزائر في الأرشيف الوطني التونسي، ج1، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ط2، 2016م، ص409.

⁸ - المرجع نفسه، ص407-408، 414.

⁹ - كمال بيرم: المرجع السابق، ص379.

¹⁰ - محمد السعيد قاصري: المرجع السابق، ص593.

سيدي العوادي المسيلي، والشيخ العالم العلامة الفقيه قاضي زمانه سي مصطفى بن يحيى، والشيخ العالم العلامة الفقيه القاضي محمد بن الشيخ بن أبي جملين قاضي قضاة البلاد المسيلية وغيرهم¹.

ج- الانتساب للطريقة الرحمانية:

المعروف أن زاوية سيدي بوجملين كانت على الطريقة الشاذلية القادرية، وهي الطريقة التي جاء بها سيدي بوجملين لدى نزوله بمدينة المسيلة، الذي كان شيخ الشاذلية بمدينة فاس وأحد أقطابها بالمغرب الأقصى². لكن تبقى مسألة الفترة التي تحولت فيها الزاوية البوجملينية من الطريقة الشاذلية إلى الرحمانية مبهمة في ظل غياب المصادر التي تضبطها بالتحديد، وحسب تقديرنا فإن هذا التحول يعود لفترة أقدم من تلك التي يربطها البعض بثورة 1871م، وذلك بحكم العلاقات التي جمعت بين مدينة المسيلة ومنطقة القبائل وحجم التبادل العلمي بين المنطقتين، فأغلب طلبة زاوية سيدي بوجملين كانوا في العادة يكملون دراستهم بزوايا بلاد زاوية كزاوية صدوق، شلاطة وبوجلجل، وكمثال على ذلك نذكر اتصال الولي الصالح شيخ الطريقة الخلوتية بمدينة المسيلة العالم الجليل الشيخ الإمام سيدي الحاج محمد بن الحاج عبد الله البوديلمي (ت. 1942م) بالشيخ سيدي محمد امزيان بن علي الحداد حيث أخذ عنه الطريقة³ ولم ينصرف حتى أذن له بالتربية والتعليم وأجازه تعليم الطريقة بالمسيلة⁴، ثم إتصل بالشيخ سيدي عمارة بن أبي الديار بجبل الناظور - قالمة- فأخذ عنه علم التصوف⁵ وكمل على يده، وكان سيدي عمارة قد أخذ الطريقة عن الشيخ الحداد، كما أن التقارب بين أذكار وتعاليم الطريقتين الخلوتية والشاذلية⁶ سهل انتساب الزاوية للطريقة الرحمانية التي أصبحت الطريقة الأولى في المنطقة.

2- عوامل مشاركة زاوية سيدي بوجملين في ثورة 1871م:

أ- العلاقات التاريخية بين آل المقراني وزاوية بوجملين:

تعود أولى العلاقات التاريخية بين آل المقراني وزاوية سيدي بوجملين إلى الفترة التي سبقت الوجود العثماني بالمنطقة. كون المقرانيين ينحدرون من الأسرة الحفصية التي كانت تحكم المسيلة، وتوطدت الرابطة بعد بسط الأتراك لنفوذهم على المنطقة وضمهم مدينة المسيلة لبابلك قسنطينة التي كان حكامها في صراع دائم مع المقرانيين، وبعد مقتل الحاج بورنان المقراني سنة 1780م على يد أحد رجال أولاد ماضي تم دفنه بالمسيلة داخل روضة الولي الصالح سيدي بوجملين⁷، وهي عادة دأبت عليها الأسر الحاكمة بدفن أفرادها بالقرب من أضرحة الصالحين تبركا بهم، وبقيت السلطة على مدينة المسيلة تتأرجح بين بايات قسنطينة والمقرانيين إلى غاية الاحتلال الفرنسي نظرا لأهميتها كحاضرة سياسية واقتصادية وحتى دينية يُتَحَكَم من خلالها في المنطقة، وكذا استعماها في أكثر من مرة كنقطة انطلاق لإخماد الثورات وتمرد الأعراس الرافضة لدفع الضرائب المخزنية⁸.

ورغم الاهتمام الخاص الذي أولاه الأمير عبد القادر لمدينة المسيلة منذ ضمها لسلطته سنة 1836م، وتكليف صهره الحاج مصطفى بخلافته في المنطقة بتنصيب أحد أعيانها الحاج نابي بن نابي التركي قائدا عليها⁹، وكذا تعيين العلامة القاضي سيدي عبد

¹ - وثائق وعقود وأحكام شرعية محفوظة بخزانة زاوية سيدي بوجملين بالمسيلة.

² - إدريس عزوزي: الشيخ أحمد زروق - آراؤه الإصلاحية - ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المملكة المغربية، ط2، 1998م، ص47.

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 1998م، ص445.

⁴ - كمال بيرم: من أعلام الحركة الصوفية بالمسيلة في القرن العشرين الشيخان محمد وعلي البوديلمي، أعمال الملتقى الوطني الرابع تاريخ وأعلام المسيلة، دار الثقافة الشهيد قنفذو الحملاوي، المسيلة، 2016م، ص35.

⁵ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص445.

⁶ - الحسين الورثياني: شرح نظم التورية في التوحيد، تحقيق ودراس: البشير برمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2012م، ص51.

⁷ - L. Charles FERAUD: Histoire des villes de la province de Constantine, L.ARNOLT, Constantine, 1872, p.263.

⁸ - كمال بيرم: مدخل إلى تاريخ مدينة المسيلة من الاحتلال الروماني إلى العهد العثماني، دار الأوطان، الجزائر، 2012م، ص195.

⁹ - Recueil des notices et mémoires de la Société archéologique, historique, et géographique du département de Constantine, Volumes 15, L.ARNOLT, Constantine, 1872, p.334.

القادر بن المسعود بن قره الدهيمي المسيلي سنة 1837م قاضيا على المدينة¹، ورغم المساهمات الكبيرة لأهلها في دعم ثورته لأزيد من عامين إلا أنهم بقوا يدينون بالولاء لسلطة أحمد المقراني، فبعد معركة المرجة الزرقاء التي وقعت بتاريخ 02 جويلية 1840م غربي سطيف لجأ الحاج مصطفى إلى المسيلة ومكث فيها لمدة عام تقريبا إلى غاية وصول الجنرال Négrier سنة 1841م وتخييم معسكره بالقرب منها. وبعد مقاومة عنيدة من الحاج مصطفى تمكن الجنرال Négrier من طرده²، ويظهر هذا الولاء من خلال الرسالة التي وجهها الخليفة أحمد المقراني لأعيان المدينة يأمرهم فيها بإلقاء القبض على لحسن بن عزوز خليفة الأمير بالمنطقة وتسليمه له حال دخوله للمدينة، وهو ما تم بالفعل³.

وفي سنة 1845م أعاد الجنرال بيدو Bedeau قائد قطاع قسنطينة مدينة المسيلة إلى سلطة المقرانيين، وفي شهر أغسطس من العام التالي عهد العقيد إينارد Eynard المسؤول عن تنظيم إدارة المنطقة بأكملها بخلافة الحضنة إلى سي أحمد بن محمد المقراني⁴، ويتبين بسط الخليفة أحمد المقراني لنفوذه على مدينة المسيلة من خلال تعيينه للقادة والقضاة، وكنموذج على ذلك الوثيقة المؤرخة في 01 جمادى الأول عام 1263هـ الموافق لـ 22 أفريل 1847م، والمتضمنة في رسالة تتضمن أمر من الخليفة أحمد بن محمد المقراني بتولية أحد علماء الزاوية البوجملينية وهو العلامة الفقيه القاضي سيدي عبد القادر بن المسعود بن قره الدهيمي المسيلي (ت1855م) خطة القضاء على محلة أولاد ماضي وأولاد دراج.

كما يتأكد هذا النفوذ وولاء أهالي المنطقة لسلطة الخليفة أحمد المقراني من خلال رسائل التظلم ولجوء المتخاصمين إليه في كثير من الأحيان من أجل حل النزاعات فيما بينهم واسترداد حقوقهم⁵، وقد كانت منطقة المسيلة أكثر من مهمة بالنسبة للمقرانيين، وبقاؤها تحت رايته يعني استمرار سلطتهم ووجودهم في المنطقة، وهو ما نلمسه في المناصب التي تقلدها أفراد الأسرة المقرانية على رأس كذا من قيادة بمنطقة المسيلة، نذكر من بينهم: أحمد بومرزاق المقراني (قائد ونوغة)، السعيد بن بوداود المقراني (شيخ الحضنة)، الشريف بن عبد الرحمان المقراني (قائد الدريعات)، وأخيه سي دحمان بن عبد الرحمان المقراني (قائد سابق للدريعات)، سي الصغير بن بورنان المقراني (قائد المعاضيد)، الحاج بن بوزيد بن عبد الرحمان المقراني (قائد أولاد دراج وأولاد ماضي).

وتعتبر القصيدة التي نظمها الشاعر المجاهد الطاهر بن تريعة (ت.1904م) والتي يعدد فيها خصال وأخلاق صديقه الباشاغا الحاج محمد المقراني من بين أهم المصادر التي تحدد العلاقة المباشرة التي تربط هذا الأخير بمدينة المسيلة، حيث يقول فيها:

نشكر فالناس القيام بهم نفخر	ولي نصرو ربي ما يخشى حد
محمد راجل مذكور بطل أخير	ابن المقراني بيه العامة تسعد
متأدب حاذق مبسوط ما يتغير	ما يقبل واحد يعلى على واحد
حاكم بلدة بوجملين سرو حاضر	أهل النية من بحرو كلها تور ⁶

ويُعد ذكر الحاج محمد كحاكم لـ"بلدة بوجملين" في إشارة إلى المسيلة تأكيد على التأثير القوي لشخصية سيدي بوجملين الذي كان يعتبر الأب الروحي لسكان المنطقة، وكذا المكانة التي كانت تتميز بها زاويته كهيئة دينية وروحية لها سلطة واعتبار لدى أهل

¹ - وثيقة بخط الأمير عبد القادر مؤرخة في رمضان 1253هـ / ديسمبر 1837م محفوظة بخزانة زاوية سيدي بوجملين بالمسيلة.

² - Charles De Galland: Op cit, p.82.

³ - L. Charles FERAUD: Les Ben-Djellab Sultans de Tougourt Notes Historiques sur la province de constantine, Revue africaine, Société historique algérienne, Volume 28, lith A.Jourdan, Alger, 1884, pp.327-328.

⁴ - Charles De Galland: Op cit, p.82

⁵ - وثيقة مؤرخة في سنة 1261هـ/1845م، وأخرى في رمضان 1263هـ/أوت 1847م محفوظة بخزانة زاوية سيدي بوجملين بالمسيلة.

⁶ - الحاج بن تريعة: بني يلماح أباء وأحفاد أعلام وأجداد، دار الوسيط للكتاب النشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، ط1، 2010م، ص95.

المدينة وكافة أعراش المنطقة، وفي قصيدة أخرى للظاهر بن تريعة نجده يمدح أهل مدينة المسيلة مُعديداً خصالهم وشهامتهم والعدل الذي ساد المدينة أيام حكم الحاج محمد المقراني، حيث يقول:

ناس المسيلة فلعشرا	زينين المعاد رجال قيام
شكري فيهم قاع جملة لا فخرا	تتحدث بفخارهم دشرا واخيام
أهل جريد يلبسوا على الشهرا	قطات أملاح ملف ديد ما ينسام
فرسان أمخيرين ناضوا في زغرا	وإذا عادت نايسة يدوك أزوام
آخر والبع بخدمتوا وآخر يقرا	آخر ممحون زادلو فالعشق أغرام
آخر مولى أوظيف نايبض عالبكرا	فضل المولى امفرقوا عالناس أقسام
حكام أقبيل قاع سلف الأجرأ	محمد في دولتو تسعد الأيام ¹

حيث تعتبر هاته الأبيات شهادة حية من شخص عايش أحداث المقاومة من أولها لآخرها، واعتراف بنبأ أخلاق أهل المسيلة وشجاعتهم وبساليتهم وولائهم للحاج محمد المقراني عكس ما تسرده المصادر والروايات الفرنسية التي صورت لنا الاحتلال الفرنسي كالمخلص الذي كان ينتظر المسيليون قدومه لتخليصهم من ظلم العثمانيين أو آل المقراني، كما فضحت هذه الأبيات التناقض الذي وقعت فيه نفس المصادر مع التقارير والبرقيات المحررة من طرف سلطة الاحتلال، هذه الأخيرة التي تؤكد الدعم الكبير الذي قدمه أهالي المنطقة للمقاومة² واستماتتهم فيها، وما انتفاضة حي الكوش الذي كان يتواجد به برج المقراني مركز قيادة المقرانيين إلا دلالة على ذلك.

ب- موقع مدينة المسيلة:

لقد كان لموقع مدينة المسيلة دور كبير في احتضان المقاومة وإطالة عمرها حتى ما بعد وفاة الحاج محمد المقراني. حيث كانت تعتبر مركزا لإمداد المقاومين بالعدة والعتاد، وملجأ يتحصن به المقرانيون، وتكمن أهمية المسيلة في كونها مدينة استراتيجية تتوفر على نقاط قوة لا نجدها لدى غيرها من المناطق القريبة منها، والتي تمكنها من الصمود في حالة الحصار خاصة فيما تعلق بالمؤونة كونها تتوفر على مخازن عدة للقمح والشعير، واشتهارها بالحرف التقليدية خصوصا صناعة الأسلحة كالسيوف والبنادق والبارود والسروج مما ساعد في تجهيز الثوار بكامل مستلزمات الفروسية، كما سهل وجود طريقين يربطان مدينة المسيلة بمجانة³، وكذا قريبا من مناطق نفوذ المقرانيين في المنطقة كونوغة مركز قيادة أحمد بومزراق المقراني، وجبال المعاضيد مركز قيادة سي الصغير بن بورنان المقراني بتوجيه ضربات مباغتة لقوات المحتل من طرف المقاومين وسهولة انسحابهم واللجوء إليها.

ولعل المكانة التي كانت تمثلها مدينة المسيلة كمدينة روحية ذات تأثير على كافة أعراش المنطقة، هو ما جعل لويس رين يقر في كتابه " تاريخ انتفاضة 1871م في الجزائر" بالخطأ الذي وقعت فيه قيادة المحتل لدى اختيارها لمدينة بوسعادة كمركز عسكري للتغلغل في المنطقة بدل مدينة المسيلة، حيث يقول: "لقد كان تفكك هذه الوحدات، وخاصة التخلي عن المسيلة خطأ، فالمسيلة نقطة استراتيجية ذات قيمة لا يمكن إنكارها ونقطة لا تحل محلها بوسعادة التي لطالما كان احتلالها عسكرياً أو إدارياً خطأ، فلو كان الرتل قد جعل المسيلة في بداية أغسطس 1871م مقراً له وقاعدة عملياته ضد المعاضيد التي هاجمها الجنرال سوسير من الشمال

¹ - الحاج بن تريعة: المرجع السابق، ص146.

² - Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie, Volume 12, A.Bouyer, Alger, 1873, p.408.

³ - Ministère de la guerre: Tableau de la situation des établissements français dans l'algérie en 1840, Imprimerie royale, Paris, Décembre 1841, p.29.

لكان التمرد قد أُطِيع به في غضون أسبوعين، وبذلك لم تكن مضطرين لملاحقة أحمد باي وأولاد مقران لشهور"، ويضيف: "بوسعادة هي واحدة من أكثر الواحات الخلابة، ولكنها بعيدة جدًا عن شط الحضنة، فضلنا هذا المركز في المسيلة فقط لأننا أردنا تجنب خلافة مجانة التي أعطتنا مسيلة والتي كانت سلطتها السائدة في ذلك الوقت: النقطتان اللتان يجب احتلالهما من وجهة نظر سياسية لا من وجهة نظر عسكرية هما: مسيلة وعين الريش"¹.

ج- العامل الديني:

لم يكن اختيار الحاج محمد المقراني لمسجد وضريح الولي الصالح سيدي الغزلي الواقع بالجنوب الغربي لمدينة المسيلة مجرد صدفة لعقد المجلس الذي جمعه بأعيان مدينة المسيلة وأعراسها وبحضور كل من السعيد بن بوداود المقراني-شيخ الحضنة-، وعبد الله بن بوعزيز شيخ عرش السوامع² ليحظى بدعمهم وضمن مشاركتهم في ثورته ضد المستعمر الفرنسي، فمدينة المسيلة وبحكم موقعها الذي يتوسط منطقة الحضنة، وشهرتها كمدينة دينية كثيرا ما كانت تزورها شخصيات دينية قادمة من تونس والمغرب وطرابلس وحتى مصر³، وهو ما يفسر الانتشار الكبير لظاهرة القباب وأضرحة الصالحين بالمسيلة حتى أضحت تُلقب بمدينة "الأربعة والأربعين ولي". كانت مدينة المسيلة تحصى سبعة عشر مسجدا كبيرا وصغيرا أكثرها شهرة جامع زاوية سيدي بوجملين⁴ الذي تُحج إليه كل الحضنة، فضلا عن كونه مقرا جامعاً للحركة الصوفية بالمنطقة التي كانت تنتشر بها الطريقة بشكل قوي، من الطريقة الشاذلية التي كانت تتبع الشيخ أرزقي بلحسين الذي كان مقره بمنطقة البليان، والتي انحصر عدد أتباعها بمدينة المسيلة في واحد وخمسين مُريدا يُشرف عليهم مقدم واحد⁵، إلى الطريقة السلامية العروسية⁶ التي كان لها حضور بالمدينة على مستوى مسجد سيدي اعمر بوجمعة بحومة خربة تليس هذا وإن كان تمثيلها جد محتشم حيث كانت تقتصر على وجود مقدم للطريقة دون وجود أتباع لها⁷. لكن ومن خلال الخريطة الدينية للطرق الصوفية بالجزائر المعدة من طرف الكبتان H.BISSUEL سنة 1884م⁸ يظهر أن حضور الطريقة الرحمانية بالمنطقة قوي مقارنة بباقي الطرق، حيث كانت تحصى المنطقة أزيد من أربعمئة وثلاثة وثلاثون مُريدا يشرف عليهم ثلاثة مقدمين يتبعون الزاوية الحمالوية بشاطودان⁹، فيما نجد عدد الإخوان الذين يتبعون زاوية الهامل¹⁰ حوالي مائتان وعشرون ومقدمين اثنين للطريقة¹¹، كما لعبت بعض الشخصيات الدينية المؤثرة في المدينة والتي تنحدر من نسل سيدي بوجملين كالمرباط محمد بن الطيب بن حماني بن أبي جملين، والحاج بديرة العربي بن بديرة، ولخضر بن محمد بن قنه، وسي عبد الله بن الشيخ، وسي أحمد بن لخضر، وسي حماني بن الصديق¹² دورا كبيرا في شحن أهل المدينة والأعراس المحيطة بها روحيا، ودعوتهم للجهاد المقدس ضد المحتل الغاشم.

¹ - Louis Rinn: Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, lith A.Jourdan, Paris, France, 1891 p.559.

² - Colonel Delannoy: Une Année de colonne en Algérie, Le Spectateur militaire: Recueil de science, d'art et d'histoire militaires, Tome XII, Imprimerie du Spectateur militaire, Paris, France, 1893, p.447.

³ - تقرير إداري فرنسي مؤرخ في 01 فيفري 1891م.

⁴ - Charles De Galland: Op cit, p.92.

⁵ - Octave Depont: Xavier Coppolani: Op cit, p.454.

⁶ - تعرف أيضا بالطريقة الأسمرية وتنسب إلى الولي الصالح سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري دفن مدينة زيتن بليبيا.

⁷ - Octave Depont, Xavier Coppolani, Op cit, p.384.

⁸ - Louis Rinn, Henri Bissuel: Carte de l'Algérie indiquant la situation, l'importance numerique et la marche, des orders religieux Musulmans, lith.A. Jourdan, Alger, 1884.

⁹ - بلدية شلغوم العيد ولاية ميلة حاليا.

¹⁰ - بلدية تقع جنوب مدينة المسيلة.

¹¹ - Octave Depont, Xavier Coppolani, Op cit, p.389-409.

¹² - تقرير إداري فرنسي مؤرخ في 01 فيفري 1891م.

د- العلاقات الاجتماعية:

لعبت العلاقات والروابط الأسرية بين آل المقراني والأسر البوهملية على وجه الخصوص والأسر المسيلية عامة دورا كبيرا في دعم هذه الأخيرة للحاج محمد المقراني وثورته سنة 1871م، وتعود هذه العلاقات إلى بدايات التواجد العثماني بالمنطقة خاصة بعد تمركز الجنود العثمانيين بكل من برج زمورة والمسيلة واتخاذهم إياها كنوبة للجيش الانكشاري¹، حيث ساعدت في تشكيل فئة الكراغلة التي أصبحت تمثل نصف سكان مدينة المسيلة في بدايات الاحتلال الفرنسي، ويعود الفضل لهذه الفئة في ربط منطقتي برج زمورة والمناطق المجاورة لها بمدينة المسيلة، حيث نلاحظ من خلال عقود الزواج التي تعود للقرنين 18-19م، وكذا سجلات الحالة المدنية عدد الزيجات الكبير بين العائلات من مدينة المسيلة وبرج زمورة وبيير قاصد علي والقصور خاصة بين أسر: بن يحيى، شيكوش، زغلاش، بوغلام، سلاقجي، قشي، بوفجي².

هذا ولقد ارتبط بعض أفراد الأسرة المقرانية بالأسر التي تنحدر من نسل الولي الصالح سيدي بوجملين خاصة مع بدايات القرن 19م، وكمثال على ذلك ارتباط القائد السابق للدريعات الحاج دحمان بن عبد الرحمان المقراني أخ الشيخ السعيد بن بوداود -شيخ الحضنة- بالشريفة لالة تركية بنت محمد بن الصديق بن أبي جملين أخت المرباط سي حماني بن الصديق، وكذلك علاقة المصاهرة التي جمعت بين الحاج محمد المقراني وأحمد الصغير بن يلس³ أحد أفراد أسرة يلس ذات الأصول التركية صاحبة النفوذ الواسع بمنطقة الحضنة خاصة على عرش أولاد دراج، والدور الكبير الذي لعبه كقائد لمدينة المسيلة إلى جانب السعيد بن بوداود المقراني، وأحمد بومرزاق المقراني، وهو ما سيعرضه لاحقا لعقوبات وأحكام جائرة من طرف المحتل بعد فشل المقاومة⁴.

كما يمكن تكوين صورة عن رابطة النسب القوية التي كانت تجمع آل المقراني ببعض الأسر المسيلية، وبالأخص العائلات البوهملية خاصة أسرتي طيب حماني وبن الصديق من خلال الأملاك والأراضي المشتركة فيما بينهم، حيث نلاحظها بكثرة في المنطقة المعروفة بـ "لقمان" التي كانت أغلب أراضيها أوقافاً للزاوية وأملاكا للأسر البوهملية قبل أن تنتزعها منهم سلطات المحتل، ويعد لجوء القائد سي السعيد بن بوداود المقراني لمدينة المسيلة بعد معركة وادي بوعسكر (19 جوان 1871م) رفقة زمالة أولاد المقراني⁵ التي تتكون في غالبيتها من نساء وأطفال المقرانيين، لدليل على احتماء الأسرة المقرانية بأصهارهم وأسرههم بمدينة المسيلة.

3- كرونولوجيا المقاومة بمدينة المسيلة:

بتاريخ 25 فيفري 1871م انسحب الفرنسيون المقيمون في مدينة المسيلة باتجاه بوسعادة حيث تمكنوا من تأمين خروجهم تحت حماية السعيد بن بوداود المقراني⁶، في غضون ذلك تفاقم الوضع في المسيلة، بين أعراش المنطقة التي انقسمت إلى صفتين: الأول موالي لسلطة المقراني والثاني موالي لأولاد بوراس (بوضياف) المنافسين القدماء لآل المقراني في المنطقة⁷، وهنا كانت الفرصة سانحة للحاج محمد المقراني لحشد الأعراش التي في صفه وتحديد موقفهم من المشاركة في ثورته، حيث أدى الحاضرون اليمين بمسجد سيدي الغزلي مثلما فعلوا سابقا في ثورة 1864م⁸.

¹ - كمال بيرم: مدخل إلى تاريخ مدينة المسيلة من الاحتلال الروماني إلى العهد العثماني، المرجع السابق، ص 194-197.

² - مخطوطات عائلية ووثائق مخفوظة بخزانة زاوية سيدي بوجملين، بالإضافة لسجلات المحكمة الشرعية بالمسيلة.

³ - تقرير إداري فرنسي مؤرخ في 01 فيفري 1891م.

⁴ - Bulletin des arrêts de la Cour de cassation rendus en matière criminelle, Tome 78, N°8, Imprimerie nationale, Paris, France, 1873, pp.418-419.

⁵ - Louis Rinn: Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Op cit, p.551

⁶ - Louis Rinn: Op cit, p.145.

⁷ - كمال بيرم: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الحضنة الغربية فترة الاحتلال الفرنسي (1840-1954م)، المرجع السابق، ص 50.

⁸ - Colonel Delannoy: Op cit, p.82

ولقد لقي نداء الحاج المقراني والشيخ الحداد استجابة واسعة لدى مشايخ مدينة المسيلة وكبار الأعيان بالمنطقة¹، كما أعلنت عدة عروش الحرب إلى جانب المقرانيين مثل أولاد ماضي، أولاد معتوق، أولاد منصور أوماضي، أولاد دراج، أولاد عبد الله، أولاد سيدي هجرس، أولاد ضاعن بني يلمان، ونوغة ومشيخة أولاد نجاع بقيادة حنان بن الدري وعرفوا بالمنافقين²، ولعبت زاوية سيدي بوجملين من خلال إعلان شيخها سيدي محمد بن الطيب بن حماني للجهاد المقدس ضد المحتل الفرنسي³ دوراً في توحيد صف الأسر المسيلية على موقف سواء بدعم المقاومة بالعدة والعتاد باستثناء بعض العائلات التي فضلت البقاء تحت راية أولاد بوراس (بوضياف) الذين انحازوا إلى جانب المستعمر الفرنسي لعدائهم القدامى مع المقرانيين، وفي 16 أبريل 1871م وصلت برقية من بوسعادة تفيد بأن سي سعيد بن بوداود قائد الحضنة وابن عم باشاغا مجانة لا يزال يتمركز في معسكر بالقرب من المسيلة، ويواصل إرسال فرق لبومزراق لمحاربة القوات الفرنسية المتواجدة بمجانة، كما أشارت البرقية إلى نمو عدد المتمردين في مدينة المسيلة⁴.

وقد لعبت مدينة المسيلة دوراً مهماً أثناء الانتفاضة في الفترة الممتدة من 03 جويلية إلى 24 أكتوبر 1871م، فبعد معركة وادي بوعسكر التي وقعت في 19 جويلية 1871م قام السعيد بن بوداود المقراني قائد الحضنة بالانسحاب إلى المسيلة أين تتمركز زمالة أولاد المقراني، وبحكم موقعها الاستراتيجي أعاد بن بوداود انطلاقاً من مدينة المسيلة تنظيم المقاومة من جديد بحثه للقبائل على التمرد محاولاً استعادة سيدي عيسى وبوسعادة للعمل بحرية في جميع أنحاء الجزء الغربي من الحضنة، حيث أظهرت خطته مهارة معينة حقق من خلالها انتصار كبيراً على خليفة فرنسا بالمنطقة الصخري بن بوضياف، لكن سرعان ما تم إحباطها من طرف القادة الفرنسيين⁵.

4- انتفاضة حي الكوش:

تعد انتفاضة حي الكوش أمودجاً لمقاومة أهل المسيلة ضد المحتل الفرنسي، ومظهر من مظاهر الولاء المطلق للمقرانيين بالنظر إلى النتائج الوخيمة التي خلفتها على الساكنة والمدينة على حد سواء، ويقع حي الكوش في الجهة الغربية لوادي المسيلة، وحسب الرواية الشعبية فإنه استمد تسميته من الأفران التي كانت تنتشر به والتي كانت مخصصة لصناعة الطوب، ويعود تعميره إلى نهايات القرن 17م حسب بعض المخطوطات الخاصة التي أشارت لبعض الجماعات التي كانت تقطنه، ولكن سرعان ما شهد توسعاً ملحوظاً في منتصف القرن 18م بانتقال بعض الأسر ذات الأصول التركية إليه، والتي كانت تقطن بحي الكراغلة المقابل له، وأغلبها ينحدر من نسل قضاة وقادة عسكريين في الجيش الانكشاري⁶.

وبعد معركة كاف لعقاب التي وقعت في 05 أوت 1871م انسحب السعيد بن بوداود إلى المسيلة حيث سارع إلى نقل النساء والأطفال وكل الثروة التي تراكمت هناك، وجعلهم يسبقونه إلى جبل المعاضيد أين يتمركز القائد أحمد بومزراق الذي اضطر إلى الانسحاب أمام رتل الجنرال سوسير⁷، وفي 07 أوت استأنف الجنرال سيريز مسيرته نحو المسيلة قادماً من بني يلمان، حيث نزل في الضلعة بوادي لقمان، وتمكن خلالها من إخضاع جميع القبائل التي كانت تتبع قيادة بومزراق المقراني، وجعلهم يسلمون أسلحتهم ورهائنهم، وبتاريخ 10 أوت وصل الجنرال سيريز إلى مدينة المسيلة أين كانت تتمركز قوات السعيد بن بوداود الذي حاول تنظيم

¹ - كمال بيرم: المرجع السابق، ص 51.

² - المرجع نفسه، ص 50.

³ - كمال بيرم: معالم الحركة الوطنية بمنطقة المسيلة بين 1900-195م (صور من النضال السياسي في وجه الاحتلال الفرنسي)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2013، ص 6.

⁴ - L. Tellier: Nouvelles d'Algérie. La liberté, Paris, 27 Avril 1871, p.4.

⁵ - Charles De Galland: op cit, p.82.

⁶ - وثائق عائلية تعود للقرنين 18 و 19م محفوظة بخزانة زاوية سيدي بوجملين بالمسيلة.

⁷ - Robin Joseph: L'Insurrection de la Grande Kabylie en 1871, H. Charles-Lavauzelle, Paris, 1901, p.489.

مقاومة بمدينة المسيلة مستعيناً بأهل حي الكوش الذين سلموه المدينة، وهم الذين قاموا قبل ذلك بتدمير المؤسسات الفرنسية التي بنيت جميعها بالقرب من منازلهم¹.

وقد حاول السعيد بن بوداود والثوار شن هجمات على المدينة لكن أحمد بن باهي قابلهم بطلقات نارية، وفي ظل الرفض الذي لقيه السعيد بن بوداود خصوصاً من الأهالي الذين في صف أولاد بوراس (بوضياف)، رأى أنه من الحكمة مغادرة مدينة المسيلة ليلاً، رفقة زمالة أولاد المقراني وبعض العائلات التي تنتمي لحي الكوش²، وعلى اثر هذا الانسحاب قام الجنرال سيريز بحرق حي الكوش وتسويته بالأرض، كما اعتقل 20 فرداً من زعماء المقاومة الرئيسيين، واحتجز رهائن في الأحياء الأخرى³، وقد تناولت الصحافة الفرنسية آنذاك خبر تدمير حي الكوش، ففي 28 أوت 1871م تناولت جريدة Le Courrier du Gard في عددها 232 الخبر من خلال برقية أرسلها الجنرال سيريز يخبره فيها بدحر قوات السعيد بن بوداود وتدميره للحي المذكور، ويقول في هذه البرقية: "لقد غادرت المسيلة يوم 18 بعد أن تلقيت من سكان هذه المدينة أسلحة ورهائن تضمن لهم موقفهم من السعيد بن بوداود وعائلته، (.....) فقط فرقة واحدة من سكان المسيلة أهل الكوش الذين نشطوا في التمرد واستمروا في مساندتهم لبن بوداود، لقد دمرت حيهم بالكامل وتمكنت من القبض على 20 رهينة من بينهم.....".

لكن الأحداث لم تتوقف هنا ففي 24 أوت دخل كل من بومزراق والسعيد بن بوداود وآخرون من أولاد مقران إلى المسيلة مستغلين رحيل القوات الفرنسية، حيث تم استقبالهم بحفاوة من قبل السكان لكن بومزراق لم يلبث هناك وغادر في اليوم التالي إلى ونوغة حيث واصل القتال هناك. أما سعيد بن بوداود فقد عاد إلى معسكره جنوب المدينة وبدأ يجوب الحضنة مرة أخرى وبكل حرية⁴، وفي 26 أوت غادر كل من السعيد بن بوداود والشيخ جنان بن الدري شيخ أولاد نجاع مدينة المسيلة باتجاه الشرق متبعين بجيش كبير، حيث قاموا بمهاجمة برج شيخ أولاد عمر ببي بن محمد في مقرة وإحراقه⁵، كما واصل كل من أحمد بومزراق والسعيد بن بوداود شحن أنصارهم، حيث شنوا هجوماً على القبائل المشتبه في ولائها لفرنسا وقاموا بتأديبها. وفي 20 سبتمبر دخل السعيد بن بوداود مدينة المسيلة من جديد رغم عدم شعوره بالأمان فيها لكن هذه المرة من أجل تأمين الطريق إلى جبل المعاضيد وجمع الإبل للهِجرة البعيدة التي أعلن بومزراق عن اقتربها، وبالفعل كانت تلك آخر زيارة له لمدينة المسيلة، ففي 10 أكتوبر 1871م اجتاحت الجنرال سوسير المدينة لينضم إليه الجنرال لأكروا في 29 أكتوبر حيث كانت هذه نهاية الانتفاضة في المنطقة⁶.

5- انعكاسات المقاومة على الزاوية وزعماءها بمدينة المسيلة:

لقد كانت نتائج الهزيمة جد وخيمة على مدينة المسيلة، فمنذ انتفاضة 1871م بقيادة القائد السعيد بن بوداود المقراني يبدو أن المسيلة قد فقدت رونقها القديم⁷، ففضلاً على حرق وتدمير أحدث أحيائها وأكثرها جمالاً -حي الكوش- وهدم جامع سيدي الغزلي الذي اجتمع فيه المقراني بأعيان المدينة في بداية المقاومة⁸، تعرضت العائلات المسيلية لمصادرة جماعية لأموالهم وأرغموا على دفع غرامة قدرت بحوالي 47 ألف فرنك فرنسي لاستعادة أراضيهم المصادرة، فيما ظلت الأراضي الخصبة الواقعة على الضفة الغربية

¹ - Ibid, p.490.

² - لا تزال الذاكرة الشعبية لمدينة المسيلة تحتفظ بقصة هجرتهم نحو منطقة الزيتون بجبل المعاضيد التي حيكت حولها قصص وأساطير كاحتمائهم بالأسد الذي كان يحرص إحدى المغارات التي لجأوا إليها.

³ - Louis Rinn: Op cit, p.558.

⁴ - Charles De Galland: Op cit, p.83.

⁵ - Louis Rinn, Op cit, p.560.

⁶ - Charles De Galland: op cit, p.83.

⁷ - Ibid, pp.48-49.

⁸ - Colonel Delannoy: Loc cit.

لوادي القصب والتي تدعى بـ "سباع الغربي" مُلكا للدولة الفرنسية حيث خصصت جزءا منه لإنشاء مركز استعماري¹، ووزعت الباقي على المستوطنين الجدد².

أما فيما يخص قادة المقاومة بمدينة المسيلة فلقد تعرضوا وأهاليهم لشتى أنواع التضيق، وصدرت في حقهم أحكام قضائية متفاوتة، فقد جاء في النشرة الرسمية للحكومة العامة بالجزائر عام 1872م، القرار رقم 221 المؤرخ في 26 ماي 1872م، والمتضمن تقرير المصادرة بإقليم المسيلة الواقع بناحية بوسعادة حيث جاء فيه مايلي: "وإذ يأخذ في الاعتبار الحيشيات الناتجة عن التقرير الصادر عن الجنرال الحاكم لإقليم قسنطينة، فإن مدينة المسيلة العربية شاركت في الانتفاضة إما بمساعدة المتمردين الذين جعلوها مستودع إمداد لهم وإما بتزويدهم بالمقاتلين؛ وباعتبار أن هذه الأنشطة تشكل أعمال تمرد وعدائية على النظام العام، فمن الضروري تطبيق أحكام المادة 10 من المرسوم الصادر في 31 أكتوبر 1845م على الأهالي التابعين لقيادة المسيلة باستثناء أولئك الذين بقوا أوفياء لنا؛ بناء على اقتراح قائد فرقة قسنطينة، وعليه فإن مجلس الحكومة العام يقرر:

- إن قرار المصادرة لجميع الممتلكات الثابتة أو المنقولة لكل الأهالي المالكين أو الفلاحين أو المستأجرين القاطنين في كامل تراب قيادة المسيلة بناحية بوسعادة يعتبر ساري المفعول طبقا لحشيات هذه الأمرية.

- يشمل الحجز المذكور جميع الممتلكات أيا كانت طبيعتها، وأيضا يمكن التعرف عليها بكامل تراب الجزائر، والتي تخص السادة: أحمد بن الباهي (قائد سابق بالمسيلة)، المداني بن يحيى (شيخ المسيلة)، أحمد بن قاره (محرّض على التمرد وخادم أمين لدى السعيد بن بوداود)، أحمد الصغير بن يلس (قائد سابق ببني سليمان ساكن بالمسيلة)، سي محمد بن الطيب بن بوجملين (مرابط يدعو للجهاد المقدس)، سي حماني بن الصديق (محرّض).

لقد دفع أهالي المدينة ثمن مشاركتهم ودعمهم للمقاومة غالبا، حيث لم تتوقف الممارسات القمعية للمحتل بمصادرة أراضي الأهالي بل صعدت في لهجتها بأن لجأت لسياسة الترحيل القسري والنفي داخل وخارج أراضي الوطن³ في محاولة يائسة منها لتفريغ الأرض من أهلها وكذا ترهيب الأهالي وثنيتهم عن مقاومتها، حيث صودرت جل ممتلكاتهم الثابتة والمنقولة داخل وخارج نطاق مدينة مسيلة في كل من مناطق (سباع القبلي ولقمان وبوخميسة وبشيلقة...) أين تتركز أغلب أراضيهم التي ألزموا بإعادة شراء بعضها من جديد، فيما تم تعويضهم بأراضي رديئة خارج المنطقة⁴، مقابل أراضي سباع الغربي الخصبة التي تم منحها للمستوطنين الجدد.

فمثلا كل من عائلات بن الصديق، بن يلس وطيب حماني وبحكم علاقات المصاهرة التي تربطهما بآل المقراني كما ذكرنا سابقا صادرت سلطات المستعمر مساكنهم الواقعة بحبي رأس الحارة والجعافرة، وجل أراضيهم بالمنطقة وضمتها لأملاك الدولة⁵، وفي هذا الصدد يقول الشيخ بلقاسم بن التومي رحمه الله الملقب بـ(المدرس) وهو أحد الأساتذة المدرسين بزاوية سيدي بوجملين: "إن الملك الموجود بالمكان المسمى "لقمان" وهي أرض شاسعة، فانفردوا بها حماني الطيب وبن الصديق وتخلوا عن حقهم في الملك الذي يوجد بالمسيلة أو بالخميس للورثة أولاد عمهم الآخرين، والاستعمار الفرنسي انتزع منهم هذا الملك المعروف بـ "لقمان"، وهذا الانتزاع كان سببه الحركة السياسية التي قام بها ابن الطيب كقائد مع الحاج المقراني وكذلك "حماني بن الصديق" الذي كان صهر الحاج المقراني".

¹- Charles De Galland: Loc cit.

²- كمال بيزم: تطور مدينة المسيلة عبر العصور، دار الكوثر للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2015، ص277.

³- كمال بيزم: معالم الحركة الوطنية بمنطقة المسيلة بين 1900-1954م، المرجع السابق، ص7.

⁴- المرجع نفسه، ص5.

⁵- Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie, Volume15, Imprimerie de l'Association Ouvrière V. Aillaud, et C^e, Alger, 1876, pp. 160-163, 167, 174-175.

وكذلك فعلت مع كبير عائلة آل بن يحيى وشيخ مدينة مسيلة سي المداني بن يحيى بأن صادرت منزله يحيى باب الخوخة وجل أراضيه¹، بل وتعدت ذلك بعزل العلامة الفقيه سي الحاج مصطفى بن يحيى الذي كان يشغل منصب قاضي مدينة المسيلة، حيث أنهت مهامه بموجب قرار من الحاكم العام مؤرخ في 31 جانفي 1872م²، كما ضيقت السلطات الاستعمارية على شيوخ وعلماء الزاوية البوجلينية، التي صنفتها ضمن الزوايا الخطيرة المحركة للثورات ضد فرنسا³، ولضمان عدم إطلاقها لشرارة مقاومة جديدة تم تخفيف موارد تمويلها وتسييرها وذلك بمصادرة أوقافها بل وغلقها لعدد المرات مما أدى بشيخها سيدي محمد بن الطيب إلى هجرة المدينة رفقة بعض العائلات المسيلية نحو منطقة زمورة، تاركاً مشيخة الزاوية لابن عمه الشيخ سيدي حماني بن الصديق (ت1926م) الذي أخذ على عاتقه مسؤولية الحفاظ على سيرورة عمل الزاوية.

لقد دفع الشيخ سيدي حماني بن الصديق ضريبة مشاركته في ثورة 1871م غالباً، فممارسات سلطات المحتل الفرنسي اتجهت لم تتوقف عند مصادرة أراضيه، ومراقبة تحركاته بل امتدت لأسرته في محاولة منها لتركيعه، حيث قامت بتلفيق التهم لولده البكر سي الشريف عبد الله لتتمكن من إبعاده عن والده، وهو الذي كان يطالب باستعادة أراضي عائلته المصادرة، حيث تم ترحيله بتاريخ 05 مارس 1894م لجزيرة كاليدونيا الجديدة ليصل إليها بتاريخ 02 ماي 1894م وبالضبط إلى جزيرة Ile des Pins حيث بقي هناك في الأسر، ويظهر من خلال الملاحظات المدونة في الملف الخاص به أنه حاول الفرار في العديد من المرات إلا أن محاولاته كلها باءت بالفشل إلى غاية وفاته في 23 نوفمبر 1937م⁴، ومن خلال التقارير الإدارية الفرنسية المحررة من الفترة الممتدة بين (1890-1926م)، والتي تتناول سيرة المرابط سيدي حماني يتبين لنا أنه بقي ثابتاً على مبادئه المناهضة للاحتلال الفرنسي، وهو ما أثار قلق السلطات المحلية التي حذرت منه في تقاريرها الإدارية على أنه: "شخص خطير مُخادع لا تربطه أي علاقات بالأوروبيين".

كما نلمس إصرار الشيخ على استعادة أراضيه المسلوبة بالقوة من خلال الشكاوي والاعتراضات التي قدمها شخصياً أو عن طريق أفراد من أسرته، وهذا ما نستشفه من الرسالة الإدارية المؤرخة في 15 يناير 1900م التي جاء فيها: " طبقاً لاستنتاجات رسالتكم المؤرخة في 08 يناير رقم 86 ولأسباب التي ذكرت يشرفني أن أطلب منكم إخبار السيد بن صديق (بلقاسم بن حماني) من عرش المسيلة أنني نطقت برفض الاعتراض الذي قدم إلي من أجل الحصول على إرجاع الأراضي المصادرة ضد أبيه بسبب ثورة 1871م"، ليرحل رحمه الله في عام 1926م تاركاً مشيخة الزاوية لولده الشيخ سيدي محاد الصغير (1889-1946) الذي لم يسلم هو الآخر من مضايقات السلطات الاستعمارية، التي عملت على تغذية الفتن والنعرات بين أبناء الزاوية مما أتاح لها الفرصة لغلقها سنة 1927م لمدة 10 سنوات كاملة⁵.

خاتمة:

رغم قلة المصادر التي تناولت العلاقات التاريخية والاجتماعية التي جمعت زاوية سيدي بوجلين بآل المقراني إلا أنه يمكننا القول أننا قدمنا صورة توضيحية عن نوع هاته العلاقات التي ساهمت بشكل كبير في وقوف أهل المسيلة وأعراش منطقة الحضنة إلى جانب المقرانيين خلال ثورة 1871م، كما أن المعلومات التي تناوّلها المقال المرفقة ببعض الوثائق الأرشيفية والخاصة أبانت عن المساهمة الكبيرة والفعالة لزاوية سيدي بوجلين وأهالي مدينة المسيلة في ثورة 1871م، وهو ما جعل سلطات الاحتلال تبقي أعينها على

¹ - Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie, Volume 15, Op cit, pp.169-170.

² - Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie, Volume 12, Op cit, p.69.

³ - كمال بيرم: إطلاقاً على زوايا منطقة المسيلة مساهمة تاريخية، أعمال الملتقى الوطني السابع تاريخ وأعلام المسيلة، دار الثقافة الشهيد قنفذ الحملاوي، المسيلة، 2019، ص6.

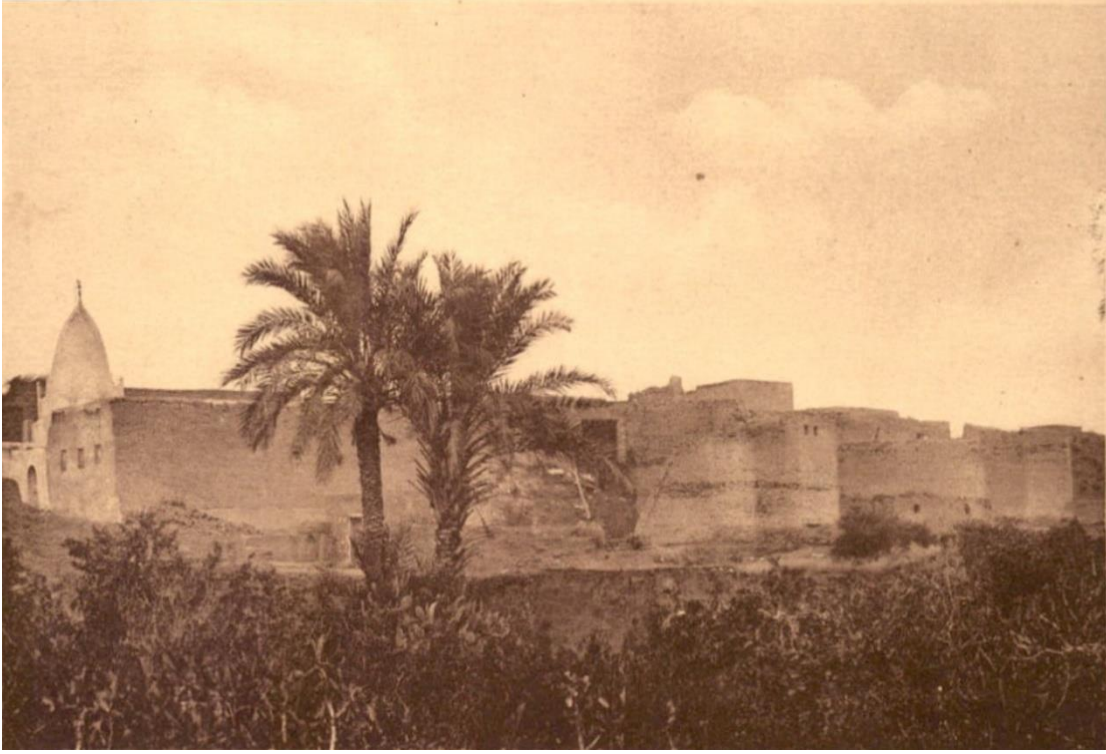
⁴ - Archives Nationales d'outre mer, Aix en Provence, France, Dossiers individuels des condamnés aux bagnes FR ANOM COL H 1717, N° matricule 2720.

⁵ - كمال بيرم: إطلاقاً على زوايا منطقة المسيلة مساهمة تاريخية، المرجع السابق، ص6

نشاطات الزاوية وتقوم بمصادرة موارد تسييرها لثقلص من نفوذها وسلطتها الروحية على ساكنة المسيلة، وذلك خوفا من انطلاق شرارة ثورة جديدة تهمز كيانها وتحدد استقرارها بالمنطقة.

وخلاصة القول أن زاوية سيدي بوجملين بالمسيلة جديرة باهتمام الباحثين باعتبارها أقدم مؤسسة دينية تؤرخ لتواجد الحركة الصوفية بالمنطقة، وشاهدا على التواصل الثقافي بين مختلف الأقطار المغاربية، وكذا للدور الفعال الذي لعبته خلال المقاومات الشعبية وإبان ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م.

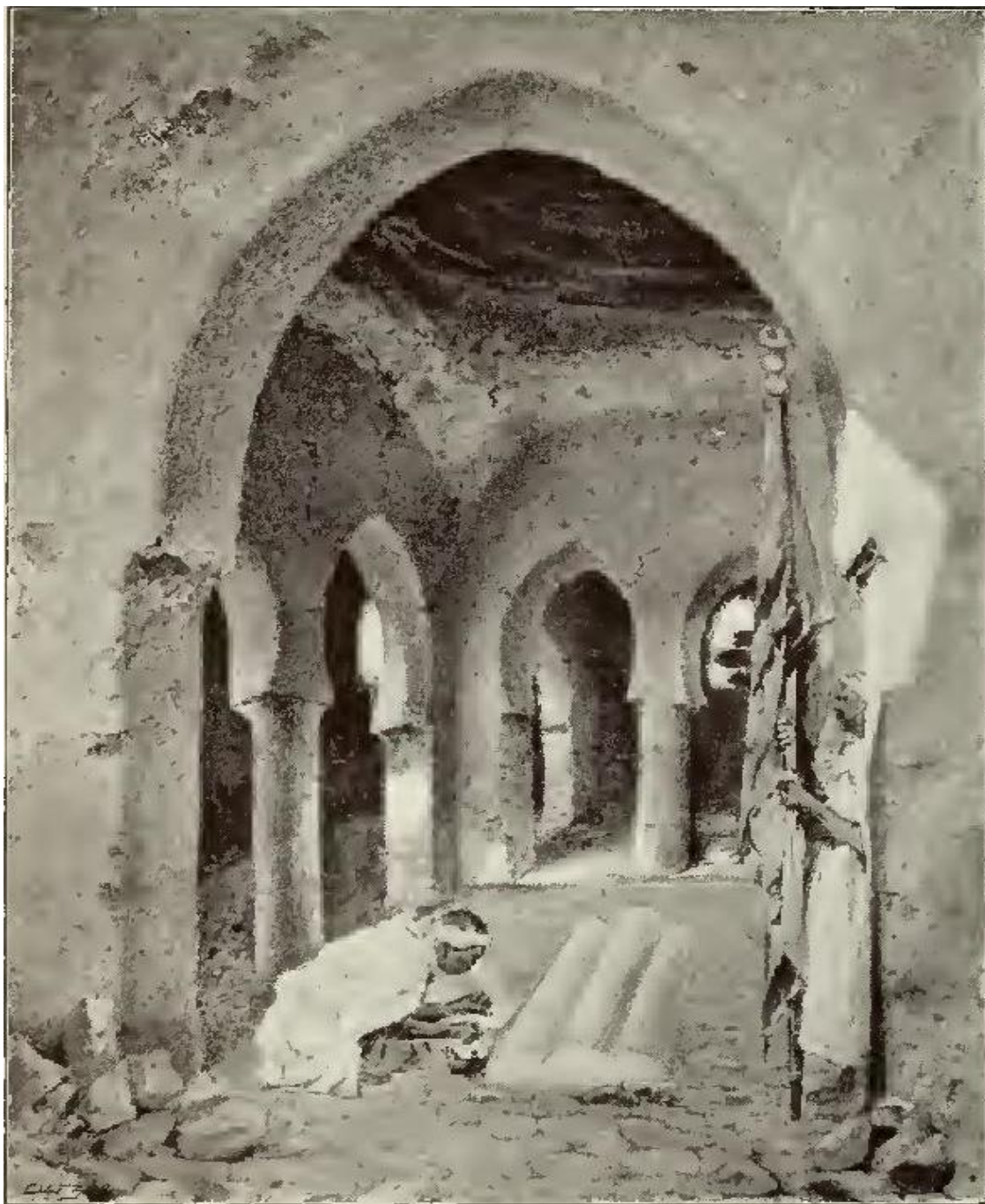
الملحق 01: مشهد لزاوية سيدي بوجملين بحومة رأس الحارة (المسيلة)



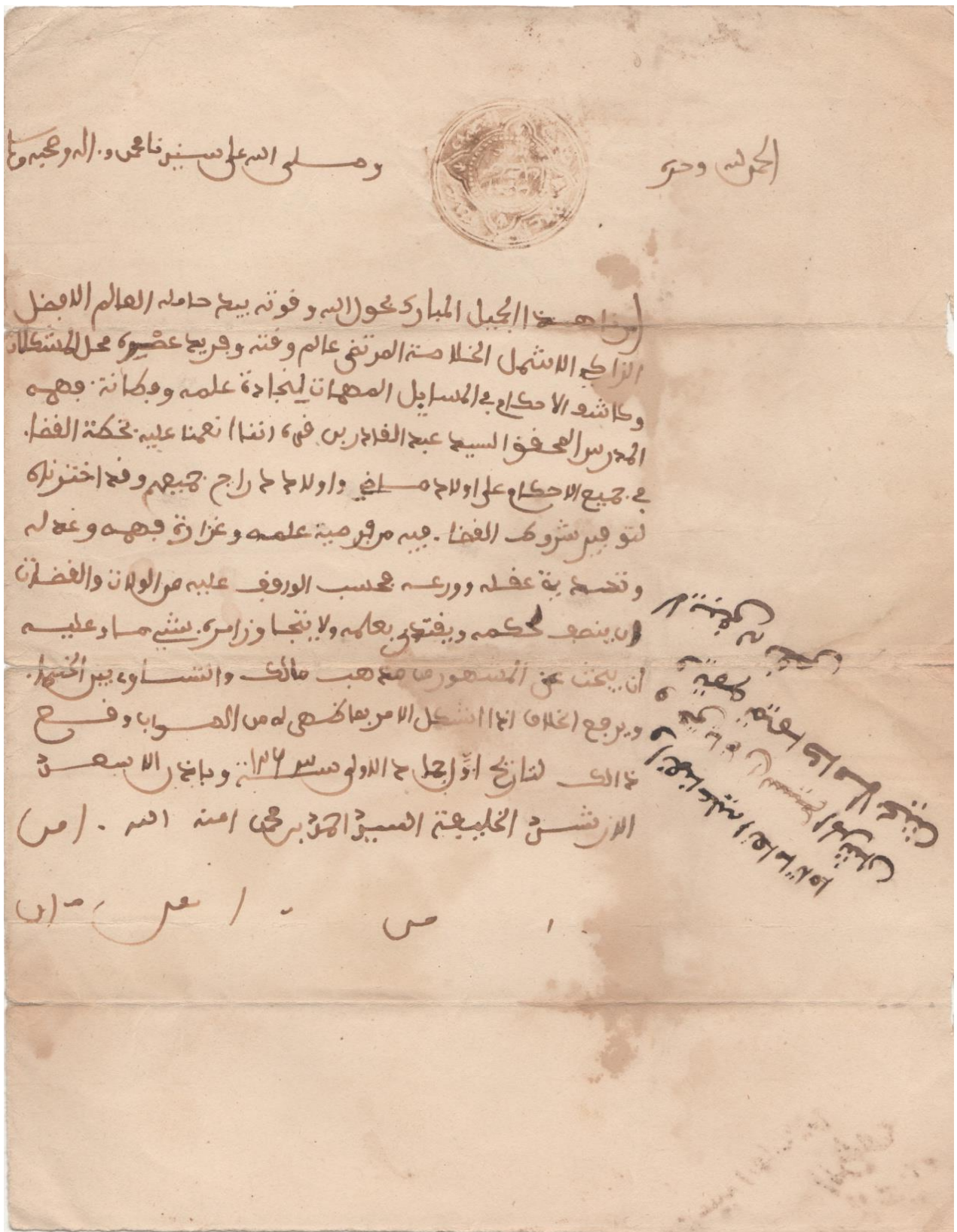
الملحق 02: قاعة الصلاة بجامع زاوية سيدي بوجملين سنة 1897م¹



¹ Charles De Galland: *Op cit*, p.93.



¹ Charles De Galland: *Op cit*, p94.



¹ وثيقة مؤرخة في 01 جمادى الأولى عام 1263 هـ الموافق لـ 22 أبريل 1847 م محفوظة بخزانة زاوية سيدي بوجليلن بالمسيلة.

الملحق 05: عقد زواج دحمان بن عبد الرحمان المقراني بتركية بنت محمد بن الصديق بن أبي جملين

فكافة بيوت
صغر صالحة

تزوج الباطل الاجل السير الحاج دحان بج عبد الوصال المغرا بامته الهة تركه
ابنت السير حم ابر الصويوني ايد جليل بعد بلوغها وتواجر السير وك قيقا
السير احم والصير حايه بج الصويوني صوا حوزة سنة اية دورية معها ثلثة
حبا. وثلاثا ثمة لمبوسا فيض اخويها المذكورين بامته دورية وتربا
ما هو متعارف ميراثا من الغرا بالمعروف ما اية دورية ترك اسفلا
كما دمج الزوج بها غير الملبوس بزميتا ذهب مع مفايسر ذهب و
فضة الجيع فيمتهم بامته دورية وفيمة بامته دورية لمبوسا من حرمها
شر جيعا مع كتاب ذلك كله مما يلخص كرا اذا من كفييلة الزوج
هم لمجتمعا على الزوج المذكور ولودرها كما تشرها اخويها المذكور
على قب دمج الزوج بامته دورية وعشرين دورا دمج بها ذلك متخا
ذهب والتوفيق وسرع. اخر بلخرار ايد هيب و بزية ذهب هيب
حمر اللون رخصة وعزام و صندوف صغيرا من رايح انشاء. كما عا
مفايسر فضة هرا على دمجها بها بلك القيمة و يفي بها بدست اخوي
ية ميراثا كما فضل الزوج مثلا اعدف تزوجت ما يزد به السعدا
وعادتها وذلك ثلث كرا من جده الصرا والجد بامته ثلثة مع
ايدى الكا من بج عيسى باشر عدل الحك الصير ع

الملحق 06: عقد مُناقلة لأرض بين سي محمد بن الطيب بن حماني بن أبي جملين والباشاغا الحاج محمد المقراني

Vu le 19 Janvier 1868
 Le Chef de bureau
 M. Belvaux

بقاء
 رضاء لصلته

197
 11/

changement du terrain
 les nommés Si mahamud ben
 ben hamani et Si elha
 lui ahmed Bach-ag
 el macrani,
 le 18 chaban 1281

— 408 —

N° 224. — SEQUESTRE. — *Apposition du séquestre sur le territoire du caïdat de M'sila (cercle de Bou-Sâada).*

ARRÊTÉ DU 26 MAI 1872.

Le Gouverneur général civil de l'Algérie,

Vu l'ordonnance du 31 octobre 1815 ;

Vu la loi du 16 juin 1831, art. 22, § 2 ;

Vu l'art. 7 du Sénatus-Consulte du 22 avril 1863 ;

Vu l'arrêté du 31 mars 1871, approuvé le 7 mai suivant par le Ministre de l'Intérieur ;

Vu l'arrêté du Chef du Pouvoir exécutif du 15 juillet 1871, modifiant les art. 10 et 12 de l'ordonnance sus-visée ;

Considérant qu'il résulte d'un rapport fourni par le Général commandant la division de Constantine, que la ville arabe de M'sila a pris part à l'insurrection, soit en aidant les insurgés qui en avaient fait leur dépôt d'approvisionnements, soit en leur fournissant des combattants ;

Considérant que ces faits constituant des actes de rébellion et d'hostilité, il y a lieu, dès-lors, de faire application aux indigènes du caïdat de M'sila, des dispositions de l'article 10 de l'ordonnance du 31 octobre 1815, en exceptant, toutefois, ceux qui nous sont restés fidèles ; sur la proposition du Général commandant la division de Constantine ;

Le Conseil de Gouvernement entendu ;

ARRÊTE :

ART. 1^{er}. — Le séquestre est apposé sur les biens meubles et immeubles de tous les indigènes, propriétaires, fermiers ou locataires, habitant le territoire du caïdat de M'sila, dans le district de Bou-Sâada.

ART. 2. — Sont notamment atteints par le dit séquestre les biens de toute nature, partout où ils pourront être reconnus en Algérie, appartenant aux sieurs :

1° Ahmed ben Bahi, ex-caïd de M'sila, chevalier de la Légion-d'Honneur ;

2° Mohamed ben Ahmed ben Bahi, fils du précédent, meneur ;

¹ Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie, Vol 12, Op cit, p.408-409.

3. El Madani ben Yahia, cheikh de M'sila ;
4. Ahmed ben Kara, meneur ; a servi de depositaire à Saïd ben bou Daoud ;
5. Ahmed ben el Bey, meneur ;
6. Ahmed Serir ben Illès, ex-caïd des Beni-Seliman, habitant M'sila.
7. Ahmed ben Bacha, meneur ;
8. Mohamed ben Ahmed ben Mustapha, meneur ;
9. Si Mohamed ben Taïeb ben Boudjemelin, marabout ; a prêché la guerre sainte ;
10. Mohamed ben El Hadj Ferhat, meneur ;
11. Si Hammani ben Seddik, meneur ;
12. Rezih bel Hadj Abdallah, meneur ;
13. Okriba ben Abdallah, meneur et serviteur du bach-agma ;
14. El Hadj El Makreloufi ben Chadi, a servi de receleur aux insurgés.

ART. 3. — Le séquestre apposé par cet arrêté n'atteint pas les biens des familles et des indigènes ci-après dénommés, qui sont restés fidèles à la France.

1. Si Ali ben Abbadi, cheikh nouvellement promu ;
2. Les familles Abdelkader ben Belbal et ben Zeurlache ;
3. Abdallah ben Zermouk et Mohamed ben el Magri et leur familles, qui ont quitté M'sila au début de l'insurrection et sont allés se réfugier à Bou-Saâda.

ART. 4. — Tous détenteurs, depositaires, administrateurs, gérants, fermiers ou locataires des biens appartenant aux indigènes frappés de séquestre ; tous leurs débiteurs de rentes, créances ou autres droits incorporels, sont tenus d'en faire la déclaration dans les trois mois qui suivront la publication du présent arrêté.

L'administration des Domaines prendra la gestion des biens séquestrés ; il sera procédé à cette gestion conformément aux dispositions de l'ordonnance du 31 octobre 1845.

ART. 5. — Les Préfets des départements et les Généraux commandant les divisions de l'Algérie sont char-

**GOUVERNEMENT GÉNÉRAL
DE L'ALGÉRIE**

**SERVICE CENTRAL
DES
AFFAIRES INDIGÈNES
ET DU
PERSONNEL MILITAIRE**

DIVISION DE _____
OU
DÉPARTEMENT DE Constantine
SUBDIVISION DE _____
OU
ARRONDISSEMENT DE Sétif
CERCLE DE _____
OU
COMMUNE DE Mt. de St. Orla

RENSEIGNEMENTS INDIVIDUELS
pour servir au recrutement du personnel administratif indigène, à la surveillance politique et administrative des populations musulmanes et à l'élaboration du règlement sur les zaouïa.

1^{re} CATÉGORIE

CONFRÉRIES RELIGIEUSES MUSULMANES
(Chlough et moqaddim. — Marabouts locaux)

Confrérie de Kabmanina

Nom Beneddikh
(Hammami ben Seddik)

Titres et Qualités ⁽¹⁾
Marabout local

PHOTOGRAPH

Quand il sera le procureur

2

Beneddikh (Hammami) tire l'influence qu'il peut avoir de sa famille de marabout ; mais il n'a aucune alliance politique ou de famille avec des personnalités importantes qui puissent s'étendre davantage. Il n'est pas chef de coff. Il n'entretient aucune relation avec les européens.

e morale et politique :
sortir l'influence qu'il
acquérir sur ses core-
s par son caractère,
d'être, ses alliances
ou de famille avec les
tés importantes, —
de coff? — Entre-
s relations avec les
les agents d'affaires,

¹ - تقرير إداري فرنسي مؤرخ في 15 فيفري 1910م محفوظ بخزانة زاوية سيدي بوجملين بالمسيلة.

الملحق 11: وثيقة إدارية فرنسية مؤرخة بتاريخ 15 يناير 1900م تتضمن رفض اعتراض سي بن الصديق بلقاسم بن حماني من أجل استرجاع أراضي أبيه المصادرة بعد ثورة 1871م

Gouvernement général
de l'Algérie

A: Bureau - 2^e section

N° 471

Pétition du Sieur Ben Seddik
(Bekacem ben Hamani)

Algérie, le 15 Janvier 1900

Sequestre

COMMUNE MIXTE DE N° 514
ARRIVÉE
Le 16 Février 1900
N° 240.

Monsieur le Préfet

Conformément aux conclusions de votre lettre du 9 janvier, N° 86, et pour les motifs qui y sont indiqués, j'ai l'honneur de vous prier d'avisier le Sieur Seddik (Bekacem Hamani) de la tribu de N° 514, qu'il se prononce le rejet de la pétition qu'il m'a adressée en vue d'obtenir la restitution de terrains séquestrés à l'encontre de son père à la suite de l'insurrection de 1871.

Notifié
Bekacem le 17/2 1900

Pour le Gouvernement général
Le Secrétaire général du Gouvernement
Signé: Selammy

N° 1002 Pour copie conforme et notification
à Monsieur l'administrateur de N° 514, en réponse
à sa lettre du 11 janvier N° 2144, avec prière d'informer
l'intéressé du rejet de sa demande.

Sitif, le 15 février 1900
Le Sous-Préfet

7 Selammy

انتفاضة المقراني 1871 بالحصنة: خلفيات وتداعيات

كمال بيرم - جامعة المسيلة

تعتبر ثورة المقراني والحداد الشعبية سنة 1871م، أعنف ثورة وأكثرها اتساعا وشمولية وتأثيرا بعد مقاومة الأمير عبد القادر المنظمة، ورغم ارتباطها بعائلة المقراني إلا أن أحداثها تعدتها لتشمل معظم السكان الجزائريين في الجزائر الوسطى والشرقية الذين نالهم من التعسف الاستعماري ما نال المقرانيين، كما ترتب على هذه الثورة نتائج جد متأخرة في الزمن وانعكست على الفرد والجماعة معا، كما ترتب عن فشلها آثار اجتماعية واقتصادية جسيمة¹. ورغم تعدد الآراء حول أسباب الثورة فإنها مثلت ذلك الهيجان الشعبي والإحساس الوطني عن مدى التدمير من المحتل الجديد والطموح والرغبة الجارحة في استرجاع الجزائريين لاستقلالهم والأمل في طرد السيد الجديد وهذا ما يفسره مشاركة ثلث السكان في حمل السلاح والالتجاء للجبال².

ان العلاقة بين المقرانيين وأهل المسيلة قديمة في الزمن وقوية في الصلة³، وقد مرت بأحداث كثيرة كانت من بين عوامل انقسام العائلة وانتقال بعض أفرادها إلى عرش أولاد ماضي بالمسيلة الذي ظل العرش النافذ والمؤثر على إقليم الحصنة. كيف كان موقف سكان المنطقة من ثورة المقراني؟ كيف تطورت الأحداث بها ثم إلى أي مدى كانت انعكاسات الثورة سلبية على المنطقة. ذلك ما نحاول الإجابة عليه في هذه الورقة البحثية اعتمادا على وثائق الأرشيف والمدونة التاريخية المرتبطة بالموضوع.

- الامتداد التاريخي للمقرانيين بالحصنة:

امتدت سلطة المقرانيين على إقليم الحصنة باسم السلطة التركية وتولت على رأس المشيخات شخصيات من العائلة المقرانية في كل من قيادة أولاد دراج الشراقة التي اعتبرت منطقة التماس مع إقليم الحصنة الشرقية، وكذا قيادة أولاد دراج الغرابية وقيادة المعاضيد وبوسعادة، وربطت هذه المناطق تحت سلطة المقرانيين علاقات تاريخية تباينت حسب الظروف، ومن جهة أخرى كانت منطقة الزاب على تماس مستمر بالحصنة الشرقية وكثيرا ما تتداخل قيادتها في الحصنة الشرقية.

تعود فترة تواجد نفوذ امارة المقرانيين على الحصنة الى سنة 1554م عندما حاول القائدان التركيان سنان رايس، ورمضان رايس التوغل في منطقة المسيلة لكسر شوكة أولاد مقرران الذين مدوا سلطانهم على أقاليم واسعة من الحصنة إلا أن القائدان التركيان منيا بهزيمة وخسارة فادحة في وادي اللحم بالقرب من مدينة المسيلة وكان لانهمزام الأتراك بالمسيلة نتيجة هامة على المقرانيين، بحيث اشترط عبد العزيز المقراني الامارة على المسيلة مع حق جباية الضرائب وحقوق العبور حتى على الأتراك، وبذلك أصبحت بعض عروش المسيلة مثل أولاد ماضي وأولاد سيدي سليمان وأولاد السعادي تدفع الضريبة لعبد العزيز بدل الحماية التركية المتواجدة بالمسيلة. وربما الأتراك اهتموا إلى حكم البلاد بأهلها البلاد من خلال محاولة حسن باشا إيجاد أصدقاء له بالداخل عندما منح مدينة المسيلة إلى أمير بني عباس من أولاد مقرران بعد أن تبينت له قوة المشيخة وامتدادها بالحصنة. لذلك اتسمت العلاقة بين اهل الحصنة والمقرانيين بالصراع أحيانا والتحالف أحيانا أخرى.

كانت مدينة المسيلة ضمن نطاق قيادة المقرانيين باسم الأتراك، ارتكزت عائلة المقراني التي كانت تشرف على أراضي الحصنة الواسعة على عدة مشيخات مثل مشيخة أولاد نجاح بعرض أولاد دراج، ومشيخة أولاد ماضي ذات التأثير الكبير والسلطة على إقليم

¹ - أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، طبعة دار المعارف، القاهرة، مصر، 1963م، ص 61.

² - Ageron, (Ch, R): Histoire de L'Algérie, contemporaine du 1870-1969, P.U.F Paris 1969, p.40.

³ - لا تدل كلمة المناققين أو الخونة إنما تدل على المحاربين أو الثائرين ضد فرنسا إلى جانب المقراني والذين صودرت أملاكهم وشتتوا بعد الثورة. مقابلات مع مشايخ من عرش السوامع الذين شاركوا بقوة في الثورة ويتذكرون بعض تفاصيلها، مثل اخوانهم الذين فروا إلى مدن الشمال القسنطيني ومناطق أخرى من الجزائر عقب الثورة.

وبلاد الحضنة،¹ كما أن العلاقات الاجتماعية التي سادت الفترة السابقة للاحتلال والتي تجلّي من خلالها التمايز الكبير بين مشايخ وأعيان المنطقة وبين بقية السكان، أدت في كثير من الحالات إلى الانقسام والتطاحن، وظهر مسالة الصفوف.

وكان الصراع داخل عائلة آل مقران قد ألقى بحمله على عروش منطقة المسيلة وهما أولاد ماضي وأولاد دراج من خلال التجاء العزيز بلقندوز المقراني إلى أولاد ماضي سنة 1740م بعد أن عينه باي قسنطينة خليفة على منطقة الحضنة وصراعه مع اخوه بورنان والحاج بن بوزيد. وعرفت قيادته بقيادة أولاد ماضي، بينما استوطن عبد الله خال أولاد مقران بالحضنة حيث تكون عرش أولاد عبد الله الذي يمتد إلى سور الغزلان بينما استوطن بورنان المقراني منطقة ونوغة. ومنشأ الصراع شخصي بين بورنان واحد أعيان أولاد ماضي الذي كان عاملا بمجانة عند المقرانيين، ومن أثار ذلك مقتل بورنان ودفنه بالمسيلة قرب ضريح سيدي بوجملين¹. وقد كان لهذه الحادثة الأثر الكبير في تحالف أولاد مقران وإعلانهم الحرب على أولاد ماضي، وتحولت الحرب إلى مجابهة بين عروش الحضنة ككل سنة 1799م بعد أن انظم عرش أولاد دراج إلى جانب أولاد ماضي في موقعه العوج في وادي الشلال جنوب المسيلة، بحيث تركت المعركة حوالي 200 قتيل من حشم أولاد مقران وتسعة من أفراد العائلة وعدد كبير من الجرحى والخسائر وسبي الأطفال والنساء.

كما استمر الصراع بين المقرانيين وأهل الحضنة بداية القرن التاسع عشر حيث ثار أولاد ماضي بداية القرن التاسع عشر في 1800م ضد بن القندوز المقراني مستغلين الصراع الدائر بين أفراد العائلة المقرانية، ووقعت معارك كبيرة بمواقع مختلفة قرب وادي الشلال جنوب المسيلة وتحالف حينها عرش أولاد دراج إلى جانب أولاد ماضي، وكانت هزائم المقرانيين عامل مشجع لأولاد ماضي الذين هاجموا المقرانيين المتجمعين بموقع العوج قرب وادي الشلال ووصفت المعارك بالعنفية جدا وقتل تسعة من أفراد عائلة المقرانيين الذين تركوهم مع ما يزيد عن 200 فارس من قبائل الحشم وكان عدد الجرحى أكثر من ذلك بكثير. ورغم العدد الكبير لقتلى عرش أولاد ماضي ولأولاد دراج إلا أنهما استطاعا مطاردة المقرانيين وسبي عدد من نسائهم وأطفالهم. وتم نقل جثث المقرانيين إلى مقبرة سيدي علي الطيار بتازروت ووجد جثة العزيز بن القندوز بدون رأس.

لقد كان الصراع بين المقرانيين وأولاد ماضي من بين أهم العوامل التي أضعفت مكانة العائلة المقرانية التي انخرس وجودها بمجانة وركنت إلى السلم وأصبحت الامارة موزعة بين ثلاث قيادات جديدة لكل من أولاد القندوز أحمد وبن محمد وأولاد بورنان محمد بن المسعود وأولاد الحاج وعبد السلام وعبد الله، ولم تعد مجانة موضع أحداث إلى أن ثار فيها أولاد ماضي وناس الحضنة ضد الأتراك بداية القرن التاسع عشر عندما تحالفت قبائل الحضنة إلى جانب ثورة ابن الأحرش الدرقاوي سنة 1803-1804م.

في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر اتجهت فئة أصحاب النفوذ والامتيازات بمناطق نفوذ المقرانيين سنة 1831م إلى الإسراع في تقديم الولاء والخضوع للسيطرة الفرنسية قبل وصولها إلى منطقة الحضنة، طمعا في لعب دور جديد ومكانة ترقى إلى تحقيق طموحاتهم، قدم فرحات بن سعيد بن بوعكاز الذي كان يشرف على قيادة مفتوحة على منطقة الحضنة خاصة الشرقية منها ولائه للجيش الفرنسي منذ 1831م، وفي نفس الانسياق استسلم بوعزيز بن قانة الذي يعين فيما بعد شيخ العرب مرغما دون أن ينسى حقه لفرحات بن سعيد وقدم الاثنان خدمات جليلة للجيش الفرنسي، كما أشارت إليه التقارير العسكرية الفرنسية، ومن جهة ثانية تذكر بعض الكتابات أنه في مارس 1831م تقدمت شخصيات من عائلات نافذة بالجزائر ولائها للجنرال BERTHEZENE من

¹ - Féraud, (Chl): lesMokrani,in Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine. Volume: 15 - 1871-1872, p.263.

بينهم عبد السلام المقراني وابن قانة وابن يلس وبوضياف وبوراس¹، ورغم أن الأمور لم تكن تسمح لهذه الشخصيات معاكسة المقاومات الشعبية خاصة مقاومة الأمير عبد القادر بمنطقة الحضنة إلا أننا لمسنا من خلال الرسائل التي وجهتها هذه الشخصيات إلى القائد الفرنسي منذ 1831م كانت تحمل في طياتها أمور كثيرة منها ما تعلق بالعلاقات التركية مع الأهالي خاصة شيوخ وأعيان القبائل المحاربة، والتي يبدو فيها قهر وظلم الأتراك وجبايتهم المفرطة للضرائب واضحا جعل هؤلاء ينتظرون دورا آخر مع الوافد الجديد.

كما ساهم جانب الانقسامات القديمة بين العروش بدوره في تمهيد طريق الجيش الفرنسي بحيث أدى الصراع القديم بين عائلة المقراني بمجانة وبين عبد الله بوعزيز شيخ أولاد ماضي إلى انقسام الحضنة إلى صفتين².

- الخلفية التاريخية لانتفاضة أهل الحضنة مع المقراني:

إلى غاية 1848م لم تكن هناك قيادة فعلية على الحضنة، فالمقرانيين انقسموا بين صف الأمير عبد القادر الذي اختار عبد السلام العايب، وصف فرنسا التي عينت أحمد المقراني خليفة لمجانة بعد مقتل خليفته هني بن يلس سنة 1838م³، ومنطقة الحضنة أصبحت تحت قيادة آغا الحضنة بوضياف بوراس الذي كان في صراع مع عبد الله بن بوعزيز شيخ أولاد ماضي ثم مع حامد بن عمر الذي عين هو الآخر آغا على الحضنة من قبل عبد السلام المقراني، ودخلت هذه القيادات منذ رحيل الأمير عبد القادر عن الحضنة في صراعات ودسائس، فكتب كل من بوضياف وحامد بن عمر إلى الأمير يطلبان منه عزل الآخر، وكان تدخل خليفة الأمير بالحضنة الحاج بلخروي لصالح بوضياف، ولم تستمر قيادة بوضياف طويلا حيث عين بلخروي المقدم الحسن بن عزوز خليفة له على الحضنة في قيادة المقاومة.

كانت للمعطيات الجديدة لسياسة المكاتب العربية اتجاه القيادات العربية نتائج سيئة بالنسبة لعائلة المقراني⁴، وخاصة قبيلة بني عباس التي حاولت فرنسا تفكيكها، ومن أجل ذلك عمدت فرنسا إلى إعادة تنظيم قيادة المقراني في شهر جانفي 1848م وتكونت بالحضنة المختلطة قيادات جديدة كخطوة أولى لتقليص نفوذ المقرانيين بالحضنة وكانت مدينة بوسعادة أول محطة لإخراج المقرانيين منها وإلحاقها بالإدارة الاستعمارية الممثلة في المكاتب العربية، فكيف تمت العملية وما هي الوسائل التي اتبعتها فرنسا لذلك؟

مع بداية 1848م بدأت الإدارة الاستعمارية في التحرش ضد قيادات المقراني بالحضنة في محاولة لاستبدالهم وتعويض سلطة الخليفة أحمد المقراني، واتهم النقيب robert روبير رئيس مكتب سطيف المقراني باختلاس أموال الضريبة، واتهم قايد بوسعادة بلقمري بالتواطؤ مع الخليفة على فرض ضرائب أخرى على القبائل لصالحها، كما اتهمت فرنسا قايد أولاد دراج الغرابة على تعيينه لشيوخ قبيلة المطارفة بدل الذين عينوا من قبل فرنسا، وفي نهاية جوان 1848م اتهم المكتب العربي لسطيف إدارة المقراني بسوء التسيير في قيادة الحضنة وضعف التحكم في قبيلة أولاد دراج لذلك عمدت فرنسا إلى تحويل مدينة بوسعادة إلى دائرة خلال شهر أكتوبر 1849م وعين عليها النقيب pein قائدا عسكريا أصبحت تخضع له مجموع القيادات بواحة الحضنة⁵.

¹ - Bourdieu, (Pierre): Sociologie de d'Algerie, Presse, Universitaire de France, Paris, 1980, p.74.

² - مسألة الصقوف في الحضنة تعود إلى فترة الأتراك عندما انقسمت عروشها على أثر الصراع القائم بين أولاد مقرران باسم السلطة التركية وبين أولاد ماضي الذي يضم تحت جناحه عدة فرق مثل أولاد سيدي حملة وتكرنت منذ ثورة أولاد ماضي على الأتراك سنة 1773م واستمرت إلى 1774م عندما استطاع بورنان المقراني إخضاع أولاد ماضي وأولاد منصور أوماضي وكونا صف وادي الشلال مع أولاد يحيى وعلي بن خالد بينما بقيت عائلة بوراس بوضياف في صراع مع المقرانيين وكونوا صف أولاد عبد الحق المتحالفين مع صف بوعكاز في الزيان للمزيد أنظر:

Despois jeans ; le hodna, presse universitaire de France 1953, pp123.123.

³ - CAOM: (Centre d' archive d'outre mer) aix_en Provence: 40KK9, rapport du 03/11/1854/ voir aussi boite 40kk60- 40kk11 .

⁴ - CAOM: 8h7 setif. Rapport le 20/10/1847-

⁵ - النقيب بان pein من ضباط المكاتب العربية شغل رئيس مكتب بوسعادة سنة 1849م صاحب تأليف (رسائل عائلية حول القطر الجزائري)، وكان ذو طابع استعماري ومتحمس للسيطرة على الصحراء الجزائرية، قاد حملات عديدة ضد المقاومات الشعبية مثل مقاومة بوختاش، وانتفاضة الزعاطشة، أنظر:

كان لهذا التعيين الأثر النفسي البالغ الذي حس به المقراني في شخصه ومقامه وسلطته على بوسعادة التي كانت تمثل بالنسبة للاحتلال أهمية كبرى من حيث:

1- تشكل مركزا للمقاومة ومعقلا للجهد الذي قاده بن شيرة وناصر بن شهرة في دعم انتفاضة الزعاطشة سنة 1849م.
2- من الناحية السياسية تمكن ضباط المكاتب العربية من ممارسة مهمة الحراسة والمراقبة عن قرب لتحركات قبائل الحضنة وأولاد نايل وكذا قوم أولاد مقران.

3- من الناحية الاقتصادية مدينة بوسعادة تزخر بثروات هامة زراعية وتجارية تجعلها مركزا لاستيطان الأوربيين.
في نهاية انتفاضة الزعاطشة سنة 1849م ونظرا للدور الكبير الذي لعبته قبائل الحضنة في دعم الشيخ بوزيان، فقد أدت فرنسا خططها في مسألة السيطرة على إقليم الحضنة بإعادة تنظيم خلافة المقراني في أكتوبر 1849م¹، وجاء تنظيم قيادة المقرانيين بالحضنة في إطار استكمال مخطط الاحتلال بإحكام السيطرة العسكرية بدل القيادات المحلية التقليدية، وفي إعطاء دور جديد للقيادات التي ساهمت إلى جانب جيش الاحتلال في كسر المقاومات المحلية ورغم أن المقرانيين بقوا اسميا على رأس القيادات في الحضنة فإن نفوذهم تقلص بشكل كبير في ظل القيادات الجديدة التالية²:

- 1- قيادة بوسعادة: بما فيها الحضنة وأولاد نايل تحت إمارة محمد بن أحمد المقراني.
- 2- قيادة الحضنة: وتضم أولاد ماضي (أهل وادي الشلال وأهل وادي القصب)³ تحت قيادة الصغير بورنان المقراني كفايد.
- 3- قيادة أولاد دراج الغرابة: تحت قيادة سي علي بن بوزيد المقراني.
- 4- قيادة المعاضيد⁴: تحت قيادة الشيخ الصغير بورنان المقراني.
- 5- قيادة ونوغة: تحت قيادة سي الحاج بن عبد الله المقراني والقاضي سي عثمان.

وفي القسم الشمالي للحضنة الغربية والذي يمتد من مدينة المسيلة التي اعتبرت الحد الشمالي لمكتب بوسعادة إلى جبال الحضنة في الشمال ثم إدارته من طرف المكتب العربي لبرج بوعريريج الذي تأسس في 01 جانفي 1852م وكان يشرف على القبائل التالية: الحشم بمجانة، المعاضيد، عياض، المسيلة، زمورة، بني عباس، مزيطه وونوغة⁵، وبعد وفاة خليفة مجانة أحمد المقراني سنة 1853م اقترح الضابط دارجن على السلطة الفرنسية تولية ابنه محمد بن أحمد المقراني وتغيير لقب الخليفة بلقب الباشاغا⁶، وكان هذا الاختيار لدواعي كثيرة بحكم تولية محمد المقراني منذ 1841م بالجانب السياسي لخلافة مجانة وهو المبعوث الدائم إلى السلطة الاستعمارية⁷.

وإذا كان تعيين فرنسا للمقرانيين على خلافة مجانة من باب التمهيد للاحتلال والتوسع في الجنوب فإنه في الوقت نفسه كانت تعمل على الحد من نفوذ المقرانيين، فقد أكد النقيب مارمي Marmey أنه منذ تكوين فرنسا لمركز برج بوعريريج العسكري الذي تخضع له الجهة الشمالية للحضنة الغربية بدأ نفوذ المقرانيين يواجه صعوبات كبيرة في إدارة قيادة الحضنة⁸. ومن بين الوسائل التي استعملتها إدارة الاحتلال لتفويض سلطة المقرانيين على الحضنة الغربية تأسيس الملاحق العسكرية والمكاتب العربية لأهم مراكز القيادات العسكرية التي تكونت عقب الاحتلال في شكل حاميات عسكرية كما هو الحال لمراكز برج بوعريريج ومركز المسيلة ومركز

CAOM 8H,cercle de bba.

¹- CAOM: 8h7, cercle de Boussaâda, organisation Khalifa medjana1849.

²- CAOM: 8h7 cercle de Boussaâda organisation Khalifa medjana rapport du 03/10/1849.

³- CAOM: 40kk6 rapport 28/01/1849.

⁴- CAOM: 8h7, cercle de Boussaâda ,rapport 03/10/1849.

⁵- CAOM: 8h7 historique de cercle de Bordj-bouarrerdj rapport de lieutenant

⁶- Rinn.I: histoire d'insurrection de 1871, p.33.

⁷- CAAT (centre d'archive d'armes de terre, vincene,:2h211,expédition du hodna et de Sahara par le général carbuccia 1849.

⁸- CAOM: 8h7 lettre du duc de d'Aumale au gouverneur général Constantine le 10/04/1844.

بوسعادة ومركز المعاضيد، ورغم تظاهر حكومة الامبراطور بداية الستينات باعتمادها تطبيق سياسة جديدة لصالح الأهالي إلا أن ضباط المكاتب العربية لم يتوقفوا على المضايقات ضد الزعامات التقليدية.

لما تم تعيين النقيب بايان¹ عام 1860م رئيسا للمكتب العربي لبرج بوعرييج خلفا لمارمي فقد المقراني معظم صلاحياته وأصبح تحت تصرف الضابط مباشرة واشتهر الضابط بايان بمعرفته لمنطقة الحضنة وأوضاعها وهو من بين الضباط الذين ساهموا في البحث عن تاريخ المنطقة وقدم مجموعة من الدراسات الأثرية والتاريخية²، في نفس الوقت عرف بشغفه بضرورة الإسراع في عملية الاستيطان الأوربي للحضنة وقد بقي في منصبه لمدة طويلة حيث عايش ثورة المقراني وتداعياتها³.

وعندما اندلعت ثورة أولاد ماضي بالحضنة سنة 1864م اتهم الضابط بايان المقراني بالتواطؤ مع الثوار وهذا الحدث أدى إلى إدخال فرنسا لعناصر قيادية خارج عائلة المقراني بمنطقة الحضنة مثل تولية القايد بن القمري على بوسعادة، ولعل هذه التغييرات في معاملة فرنسا للمقراني هي التي دفعته إلى تقديم الاستقالة إلى النقيب روستان الذي حمله مسؤولية المناطق الموكلة إليه حتى بعد الاستقالة إلى غاية الرد عليها⁴.

وكانت الحضنة ضحية للسياسة الاستعمارية اتجاه عائلة المقراني وخلافة مجانة، فرغبتها في تقليص نفوذ العائلة تم إخراج أجزاء من الحضنة من دائرة نفوذ أحمد المقراني إلى دائرة بسكرة بداية الاحتلال مثل (أولاد دراج، أولاد نجاح، أولاد نايل، أولاد زكري، أولاد حركات، أولاد ساسي، أولاد رابح، أولاد عيسى). وكان هدف التنظيم الجديد الذي أرادت فرنسا من وراء نقل هذه القبائل هو التمهيد لإنشاء دائرة مدينة بوسعادة⁵. إن المتتبع لأحداث ثورة المقراني لمنطقة الحضنة يصطدم بذلك الانقسام حول المشاركة في الثورة بين الذين لم ينافقوا مع المقراني أو الذين وقفوا إلى جانب فرنسا.

- اندلاع انتفاضة المقراني 1871م وموقف أهل الحضنة منها:

انقسم سكان منطقة الحضنة حول نداء المقراني للجهاد ضد فرنسا، فقد أعلنت عدة عروش الحرب إلى جانب المقرانيين مثل أولاد ماضي، أولاد معتوق، أولاد منصور ماضي، أولاد دراج، أولاد عبد الله، أولاد سيدي هجرس، أولاد ضاعن، بني يلما و نوغة، ومشيوخ أولاد نجاح بقيادة جنان بن الدري⁶، وعرفوا بالمنافقون⁷ في حين وقفت جماعة محدودة إلى جانب فرنسا ورفضت النداء مثل جناح بوضياف بن بوراس الذي عين قايد للحضنة من طرف فرنسا منذ 3 سبتمبر 1841م⁸. وجناح وادي الشلال مع أولاد يحيى وأولاد علي بن خالد وأولاد سحتون في الحضنة الشرقية⁹. ولعل هذا الانحياز من جهة جناح بوضياف بوراس إلى جانب الإدارة الفرنسية مرجعه العداء القديم بين المقرانيين وأسرة بوضياف الذي أراد الحفاظ على امتيازات عائلته التي بسطت نفوذها إلى خارج حدود منطقة المسيلة في الأوراس والصحراء والهضاب العليا، من خلال خدمتها لفرنسا منذ بداية الاحتلال كما جاء في رسالة القايد

¹ - يعتبر الضابط بايان Payen أحد ضباط المكاتب العربية الذين عينوا على مكاتب كل من باتنة وبرج بوعرييج منذ 1850م وهو من الضباط الذين اهتموا بدراسة آثار الرومان في الحضنة والأوراس وخاصة تيمقاد، وتتبع طرق الرومان القديمة وقدم مجموعة من الدراسات التاريخية والأثرية بعد أن جاب مناطق الحضنة والهضاب العليا والأوراس ومن أنجائه التي نشرتها مجلة مجمع المعلومات حول المجتمع الأركيولوجي لمقاطعة قسنطينة بعنوان (استيطان الحضنة)، ومقال حول معلومات إقامة مجموعة المدن الرومانية لمقاطعة باتنة الصادر في نفس المجلة سنة 1857م، كما صدر له مقال سنة 1893م بعنوان:

-ACMM; B, 90, D1 installation des Haches dans le Hodna

² - من بين الدراسات التي قدمها payen مقالة بعنوان استيطان الحضنة المنشور في المجمع الأركيولوجي لمقاطعة قسنطينة 1893م، للمزيد أنظر:

recueil de Constantine 1893 payen, colonisation du hodna;

³ - A. Ranbaud: l'insurrection algérienne de 1871, paris, 1891, p.13-15.

⁴ - Fl. Bidault: la vérité sur l'Algérie, bougie, 1871, pp.54-64.

⁵ - CAOM: F80. 493, setif, rapport de la 2E quinzaine du mois de janvier 1846.

⁶ - Gaid, (M): op-cit, p.153et, BOGA; 1910, p.1207.

⁷ - A.C.M.M (archive commune mixte de m'sila): Boite 149, D1 dossier1, séquestre de M'sila, rapport caïd Sakhri Boudiaf, 13/11/1890).

⁸ - Gaid, (Mouloud): les mokranis, p.51.

⁹ - ACMM: B90D sequester de m'sila.

بوضيف بن هني إلى القائد روستان Roustain في 21 مارس 1871م¹ وكذا في تقارير القياد من عائلة بوضيف². وعند اندلاع الثورة في الأشهر الأولى لسنة 1871م قام محمد المقراني بتكليف السعيد بن بوداود على قيادة منطقة المسيلة وبوسعادة وكانت مجابته الأولى مع القائد الصخري بوضيف في ماي 1871م بمنطقة سيدي هجرس الذين ناصروا كثيرا المقرانيين في الوقت نفسه كلف بومزراق على قيادة منطقة ونوغة شمال غرب المسيلة، حيث كان الانقسام موجود بين جناحي البيضة المناصرين للمقراني (بني يلان) والكحلة تحت قيادة بوضيف (ملوزة).

وأستطاع بومزراق والسعيد بوداود استرجاع مدينة المسيلة بعد انسحاب الجنرال سيريز نحو أومال "سور الغزلان" في 24 أوت التي احتلها منذ 10 ماي³، وقاما بتحريض وتعبئة السكان على الثورة، كما قاما بمعاينة من وقفوا إلى جانب فرنسا، واستمرت مدينة المسيلة تحت سيطرة المقرانيين إلى حين قدوم قوة الجنرال سوسي Saucier من سطيف في 10 أكتوبر، والتي تدعمت فيما بعد بقوة الجنرال دولاكرو Delacroix التي وصلت المدينة في 29 أكتوبر وفي هذه الفترة استطاعت فرنسا إخماد الثورة بمحيط المسيلة⁴، الذي شهدت معظم أراضيه مواجهات عنيفة مثل جبال ونوغة وجبال المعاضيد وكيانه وأولاد خلوف وبلاد السوامع وغيرها⁵.

لقد لقي نداء المقراني استجابة واسعة لدى مشايخ مدينة المسيلة وكبار الأعيان بالمنطقة وتحولت الاستجابة إلى جهاد مقدس أعلنه شيخ زاوية سيدي بوجملين بالمدينة محمد بن الطيب بن بوجملين وأيده في ذلك قايد المدينة أحمد بن الباهي وابنه محمد⁶، وشيخ المدينة المدني بن يحي وكذا أحمد الصغير بن يلس القائد السابق لبني سليمان، كما ساهم الباشا عادل سي السعيد بن شلابي في تجميع الناس بأولاد ماضي⁷ إلى جانب المقرانيين في الوقت الذي عملت فيه عائلة لكحل بن خرفا الله على تحريك السكان بمنطقة المطارفة والمسيلة قبل اندلاعها بالمنطقة، وشهدت المسيلة عملية فرار جماعي للمعمرين الأوربيين من المدينة إلى بوسعادة حيث يوجد المركز العسكري بعد أن تم تفجير منازلهم⁸.

وفي الجانب الحربي حقق خليفة المقراني بالحضنة والمسيلة السعيد بن بوداود انتصار كبير على خليفة فرنسا بالمنطقة الصخري بن بوضيف بمنطقة السعيدة عرش أولاد ماضي، ودفع هذا الانتصار القايد علي بن تونسي من أولاد علي بن داود، وكذا العمري بلعمري من أولاد سيدي هجرس للانضمام إلى قوة السعيد بن بوداود ضد جناح بوضيف وفرنسا وقوتها بقيادة الجنرال سيريز، ومن بعده مويل Muel الذي أمر بقنبلة الثوار والمشايخ التي وقفت بجانبهم⁹.

كما امتدت الثورة جنوب الحضنة بعرش أولاد سيدي حملة في جوان 1871م بعد أن اشتد الخناق على المقرانيين بمدينة المسيلة منذ قدوم الجنرال سيريز في 10 أوت 1871م إلى 14 أوت¹⁰. لم يستقر الوضع طويلا للقوات الفرنسية بمدينة المسيلة التي ظلت طيلة صيف 1871م في أخذ ورد بين الثوار وجيش الاحتلال. وشهدت المناطق المحيطة بما عدة معارك، مثل كاف العقاب في 5 أوت ونتيجة تشتت القوة الفرنسية عبر هذه المناطق استطاع السعيد بن بوداود وشقيقه الحاج بوزيد من تحقيق انتصارات تمكن على إثرها من استرجاع مدينة المسيلة من الفرنسيين، ودخلها في 14 أوت 1871م، وكان ذلك بعد جهود بومزراق في توحيد صفوف سكان الجبال في الدريعات وونوغة والخرابشة بداية شهر أوت في الوقت نفسه كان زعيم أولاد نجاع جنان بن الدري يعمل على

¹ - El Moubacher: N°: 746 du 13/04/1871.

² - A.C.M.M: B149, D1(rapport caïd Boudiaf, 22/04/1917).

³ - ROBBIN, Nil joseph: L'insurrection dans la grande Kabylie, imp, Hcharles-lavauzelle, 1901, pp.448-489.

⁴ - De Galland: excursion à Boussaâda et M'sila paris, 1899; p.83.

⁵ - ibid,

⁶ - A.C.M.M: B, 241, D1 (séquestre, Tribu de M'sila 1871).

⁷ - BOGA: BULETTIN OFFICIELLE DU GOUVERNEMENT D'ALGERIE° 1872, pp.408-409.

⁸ - BOGA, op.cit, p407 et, ACMM; B, 149, D1 (lettre 13/11/1890)

⁹ - Gaid, (M): op-cit, p.151.

¹⁰ - ADC (archive département de Constantine): monographie manuscrite par L'administrateur de la commune mixte de M'sila Robert Baudoin (R.B) 1937.

مهاجمة الأوربيين الموجودين بمركز المسيلة. ولم تستطع قوة الجيش الفرنسي بالحضنة من استرجاع مدينة المسيلة إلا في شهر أكتوبر 1871م بفضل قوة فرقة الجنرال دولاكرو وقوة الجنرال سوسي¹، وكان من بين عوامل استرجاع الفرنسيين لسيطرتهم على المنطقة، مساعدة بعض أهالي أولاد سلامة والخرابشة حيث كان ينشط بومزراق الذي كانت تصرفاته تبدو قاسية اتجاههم أدت الحملات العسكرية الفرنسية العنيفة ضد المقرانيين إلى تدهور المقاومة ودفع بعائلة المقراني للالتجاء بأعالي جبال المعاضيد التي تكونت منها عائلة المقراني (هي موطن نشأة جد المقرانيين)، والتي كانت كذلك مكان نهاية إمارتها ونفوذها، فقد دفعت عملية محاصرة فرنسا وأعوانها لعائلة المقراني بمنطقة المسيلة إلى التجاء أفراد العائلة بأملآكهم وقومهم وماشيتهم إلى جبال المعاضيد بمعية السعيد بن بوداود وتم التحضير لمغادرة المنطقة نحو الجنوب الجزائري.

غير أن القوة الفرنسية بفضل ترصد المتعاونين استطاعت إلحاق هزيمة كبيرة بالمقرانيين في موقعة قبر السلوقي بسفوح جبل المعاضيد أو عياض في 8 أكتوبر 1871م، وهي آخر ملحمة للمقرانيين قبل نهاية نفوذهم وتشتت أفراد العائلة نحو الجنوب الشرقي في ظل متابعات أعوان فرنسا من آل بوضياف وباشاغا أولاد نايل وغيرهم. إلى أن يتم القبض على بومزراق في 20 جانفي 1872م ليتم إصدار حكم الإعدام في حقه يوم 7 مارس 1873م².

- تداعيات انتفاضة المقراني على منطقة الحضنة:

كانت منطقة الحضنة كغيرها من مناطق الجزائر عرضة لعمليات انتقام وقهر ومصادرة للأموال والأراضي، إلا أنها انفردت عن باقي المناطق في مسألة لا نكاد نجد عنها كتابات تذكر ولها علاقة وطيدة بالمقرانيين وبالانتفاضة يتعلق الأمر بمسألة المهجرين من المقرانيين وقبائل الحشم إلى منطقة الحضنة من جهة، والهجرة القسرية التي مست قبائل الحضنة اثر انتهاء أحداث الانتفاضة والتي سيأتي الحديث عنها. ومن الآثار الأولى التي مست أهالي الحضنة عمليات المصادرات الجماعية للأموال والأراضي.

ان الأحداث المتسارعة والمتناقضة أحيانا بمحيط الحضنة خلال ثورة المقراني تجعلنا نعتقد في أهمية التقسيمات الاجتماعية التي وجدت وامتدت إلى فترة الاحتلال وأثرت على التوازنات العسكرية في معارك المقرانيين مع الفرنسيين، كما أن نفوذ المشايخ والأعيان الممتد إلى النظام التركي³ كان له دور في إخضاع الأهالي الذين أرغمهم الضعف والقهر والبؤس على الخضوع والولاء السريع لهؤلاء الأعيان. ولو استطاعت هذه الفئة توظيف الأهالي في رد الاحتلال وتماسك القبائل ما كانت المنطقة تتأثر في بنيتها الاجتماعية ونمط معيشتها وعلاقاتها بعد 1871م وهذا ما سنراه في انعكاسات هذه الانتفاضة وتأثيراتها السلبية على المنطقة.

فقد أعقبت انتفاضة المقراني وضعيات جد صعبة على سكان الحضنة نظرا للدور الذي لعبوه خلالها، ولأن أراضي الحضنة شهدت أهم محطات الانتفاضة ونهايتها لذلك سنتوقف عند أهم مظاهر القمع والقهر التي لحقت بالمنطقة والتداعيات الهامة لما بعد أحداث الانتفاضة التي كانت نموذجا فريدا للحقد الاستعماري العنصري ويمكن تتبعها كالتالي:

1- مصادرة الأملاك والأراضي:

تنوعت عملية المصادرة إلى نوعين: مصادرة شخصية لأموال الأفراد الذين شاركوا في الثورة إلى جانب المقرانيين أو وقفوا معهم، ومصادرة جماعية لسكان العروش والدواوير الذين أرغموا على دفع أراضيهم الجيدة لسلطة الاحتلال من جهة ودفع ضريبة حرية جماعية بصفة إلزامية تصل إلى حالة رهن الأملاك والأثاث من جهة ثانية⁴.

¹ - ADC. monographie, 1937.

² - A. MAITROT (Dela Motte): Le siège de Bordj Boureridj en 1871 in RSAC 1926, p.8.

³ - يظهر ذلك في الصفوف التي قسمت إقليم الحضنة منذ القرن الثامن عشر حيث وجد الصف الموالي للأتراك والصف الآخر المتكون من عرش أولاد ماضي وعرش أولاد دراج إضافة إلى عرش بني يلماح بونوغة والذين كونوا خلال انتفاضة المقراني صف الكحلة (الأرشيف الاستعماري لبلدية المسيلة المختلطة).

⁴ - Boujade, (G) "Notes chronologiques" pour servir à L'histoire de L'occupation Française dans la région d'Aumale, 1845-1887, in RAF 1891, pp.76-77.

تعرضت الحضنة ككل إلى عمليات مصادرة واسعة شملت معظم العروش والأفراد، امتازت بطابعها القهري الجماعي الذي لم يستثني حتى الأشخاص والجماعات التي وقفت محايدة من الانتفاضة. وفرضت فرنسا غرامات مالية تم تسديدها حسب كل دوار وقبيلة. فمنذ 1874م صدر في حق مدينة المسيلة قرار مصادرة للأموال والأراضي التي قدرت مساحتها 1200 هكتار وغرامة مالية قدرت بـ 38980 فرنك¹ وهي غرامات يسدها أهل المدينة مقابل عملية استرجاع أملاكهم المحجوزة. وحتى الأشخاص العاجزين عن دفعها تتكفل الجماعة عنهم بتسديدها، مع عدم استثناء حتى الأشخاص الذين وقفوا إلى جانب فرنسا بسبب وجود أراضيهم ضمن محيط الأراضي المصادرة جماعيا. على أن يتم تعويضهم بأراضي رديئة خارج المنطقة².

وبدأ أهالي المسيلة بتسديد الضريبة ابتداء من جويلية 1874م³ حسب قرار 26 ماي 1872م. واعتبرت مدينة المسيلة حسب القائد العسكري للمحققة، بكامل أهاليها مع المنتفضين إلى جانب المقراني، وهي أعمال في نظر فرنسا عدائية لها، لذلك تم تطبيق المادة 10 من قرار 1845م والذي أدى إلى تعرض عدد كبير من السكان والأعيان إلى المصادرة الفردية والجماعية للأموال وقد شملت على الخصوص كل من⁴: أحمد بن الباهي قائد المسيلة السابق وهو فارس برتبة الوسام الشرفي، وابنه محمد بن أحمد الباهي، والمدني بن يحيى شيخ مدينة المسيلة.

إضافة إلى قائمة طويلة من أهالي المدينة تتضح من خلالها مدى دور أعيان ومشايخ المسيلة في توحيد صفوف السكان إلى جانب المقرانيين ومدى الترابط الاجتماعي داخل المدينة الذي حال دون انقسام أهلها في بداية الثورة. والفئة القليلة التي فرت من المدينة عملت فرنسا على استغلالها في إخضاع السكان يجعلهم في مناصب القياد على مختلف دواوير المنطقة، كما كان حال القائد صرموك محمد بن عبد الله الذي عين على المطارفة والذي أعفي من المصادرة إلا أن موقف السكان له كان الكراهية والرفض، وهذا ما تجلي من خلال الشكاوى التي قدمها السكان إلى الإدارة الفرنسية بشأنه⁵، كما استعملت فرنسا علاقتها القوية بعائلة بوضياف بن بوراس بتعين عدد من أفرادها قياد بالمنطقة⁶ بحكم دور العائلة القديم منذ دخول الاحتلال الفرنسي للجزائر في توطيد الأمن والاستقرار، وقد استغلت هذه العائلة الوضع الجديد لتزيد في امتيازاتها ونفوذها على حساب الأهالي⁷.

لم تتوقف فرنسا عند حدود معاقبة المشاركين في الثورة ولا حتى المصادرة الجماعية بل تعدتها إلى عمليات احتلال مباشر للأراضي الخصبة للأهالي في ظروف أمنية صعبة استغلتها قوة الاحتلال لإنشاء نواة مركز الاستيطان الأوربي بالمسيلة كما أن عملية المصادرة لم تكن تلقائية إذا عرفنا مدى التقارير والخبرات الفنية عن أراضي ومياه المنطقة التي قدمها كثير من الباحثين وشركات التنقيب عن المياه منذ 1858م⁸.

دليل ذلك مصادرة الأراضي الواقعة غرب وادي القصب المسيلة المعروفة باسم سباع الغربي التي تحولت فيما بعد إلى أراضي المعمرين المسقية في حين عوض أصحابها بأراضي رديئة صودرت لغيرهم شرق الوادي بمنطقة سباع القبلي⁹. غير أن المصادرة لأراضي مدينة المسيلة تختلف عن المناطق الأخرى التي تتبع حدود البلدية فيما بعد على أساس طابع الملكية بها، بحيث تصنف أراضي أهل

¹ - ACMM: B,241,D1(séquestre de Ouled Derradj).

² - BOGA: 1905, p98; BOGA: 1872, pp.408-409.

³ - ACMM: B,241,D1(convention relative au biens séquestrés ,tribus de M'sila juin 1876).

⁴ - BOGA: 1872, p.408.

⁵ - ACMM: Bn165, D1 (lettre Djemaa de META RFA a L'Administrateur de M'sila /9/02/1897).

⁶ - ACMM: B, 165, D1(lettre1 caid Boudiaf Brahim 2/6/1907).

والرسالة تبرز دور أفراد العائلة (بوضياف) في خدمة فرنسا خصوصا بعد ثورة 1871م مثل القايد بوضياف محمد الذي عمل إلى جانب الحاكم ديماك (Dimaque) والكولونيل أدلر (Adeler) والضابط زازو (zazou) والجنرال سوسي (saucier) والجنرال لوكليرك (Leclerc) بين سنوات 1894-1896م، وكذلك دور القايد بوضياف ابراهيم الذي خدم بين 1865-1871م إلى أن أدركه العجز سنة 1919م.

⁷ - ACMM;B,171, D5(lettre Djemaa Ouled Cheloufi 23/11/1905) (Selmane 30/07/1902).

⁸ - Moniteur Algérien :05/06/1858.

⁹ - ACMM: B, 241, D1 (convention entre le gouvernement d'Alger et le tribu de M'sila 31/05/1877).

المسيلة بالملك بينما أراضي البلدية المختلفة تصنف بأراضي عرش. وكانت لهذه العملية آثار اقتصادية واجتماعية على سكان المدينة، بتقلص نشاطهم الزراعي وضعف مردوديته وانخفاض مستواهم المعيشي في الوقت الذي نما فيه القطاع الأوروبي الزراعي بعد قدوم واستيطان المعمرين، بعد انتهاء ثورة المقراني واستحوادهم على المجاري المائية المعدة للسقي وتحويلها إلى أراضيهم الفلاحية¹.

وبحكم عدم وجود أراضي العرش بمحيط المسيلة فإن السكان الذين تمت مصادرة أراضيهم نهائيا تحولوا إلى أجراء أو عمال بسطاء عند المعمرين في أراضيهم القديمة، وتأثرت كل عروش المسيلة لعمليات المصادرة والغرامات المفروضة عليهم، والتي لم يكن باستطاعة الأهالي تسديدها مما جعل سلطة الاحتلال توزعها على عدة سنوات . وكما كان حال مدينة المسيلة، حدث لدوار المطارفة التابع لعرش أولاد دراج حيث انتزعت منه الأراضي الخصبة التي يتم سقيها بساقية خباب الآتية من وادي القصب، بموجب اتفاقية المصادرة 30 أفريل 1877م².

وقد ادعت سلطة الاحتلال أن هذه الأراضي سوف تستعمل في إطار المصلحة العامة وقدرت المساحة التي صودرت بعرش أولاد دراج 4000 هكتار وغرامة مالية 35000 فرنك³، وقد صدر قرار المصادرة لعرش أولاد دراج في 01 أكتوبر 1874م وتمت اتفاقية مع الأهالي بتاريخ 11 أفريل 1877م فرضت عليهم مصادرة ما مساحته 4000 هكتار موزعة بين:

- **مجموعة بشيلقا:** التي احتفظت بها الدولة الفرنسية على أمل منحها للمعمرين ثم أجرتها لأولاد دريس بعد أن تبين لها رداءة تربتها وهي بمساحة 2000 هكتار.

- **مجموعة واد سلمان:** وهي تمثل ثلث الأراضي المزروعة لعرش أولاد دراج وكان أمل فرنسا على أن تكون محل إقامة مستوطنات للمعمرين غير أن الظروف المناخية للمنطقة ونوعية الأراضي لم تشجع فرنسا أو المعمرين على القدوم إليها، لأنها حسب رسالة الوالي لا تحقق رفاهية ومستقبل الأوربيين ، ومن ثم قررت الدولة فيما بعد تأجيرها للأهالي بغرامات مالية، وحسب رسالة الضابط دوران⁴ أنه يعجز على الأهالي دفع مبلغ الغرامات مرة واحدة ويقترح تقسيمها إلى دفعتين على الأقل. غير أن الانعكاسات الكبيرة لثورة المقراني على عرش أولاد دراج هو ذلك الفراغ البشري الذي تركته بالمنطقة بعد هجرة عدد كبير من سكان فرقة السوامع التي وقفت إلى جانب الثورة ، حيث بادرت بعد نهاية الأحداث إلى الفرار والذهاب في اتجاهات عديدة أهمها نحو تبسة والشمرة والعلمة وسيدي عيسى وأولاد الحوت ومناطق أخرى لا زالت تأويهم إلى يومنا هذا.

قد قدرت السلطات العسكرية عدد الخيم التي هجرت الحضنة عقب الانتفاضة خوفا من العقاب كالتالي:⁵

- فرقة السوامع وهي أهم فرقة تعرضت إلى التهجير والهجرة الطوعية وبلغ عدد الخيم التي انتقلت منها نحو بسكرة وباتنة فقط بـ 400 خيمة.

- فرقة المطارفة انتقلت منها 170 خيمة نحو أولاد خلوف وسور الغزلان.

- فرقة أولاد عدي انتقلت منها 170 خيمة نحو باتنة.

- عرش أولاد ماضي اتجهت منه 200 خيمة نحو سور الغزلان منهم 133 خيمة من واد اشلال و 92 خيمة من أولاد معتوق.

- فرقة أولاد سيدي إبراهيم اتجهت منهم 50 خيمة نحو ونوغة.

- يشير تقرير آخر أن فرقة السوامع قد هاجر منها أكثر من 470 خيمة⁶

1- ACMM: B, 127. (Carte du Géomètre du séquestre 3/12/1877).

2- ACMM: B, 136, D1 (Séquestre de M'sila).

3- ACMM; B224, D2,(Séquestre de M'sila et Oued Derradj).

4- ACMM: B, 224, D2, (Lettre du chef du Division de Sétif au chef d'annexe de M'sila 13/05/1877).

5- ACMM/B127, D1séquestre de M'sila, rapport sur les tribus qui ont quitté le hodna en 1871, et CAOM: 65K7, statistiques et renseignement 1870.1880.

6- CAOM: 65K8, statistique de population, état des Souama qui ont quitté le hodna 1871.

لعل هذه المهجرة الجماعية بما تركته من تفكك روابط العرش وانسجامه وانقسامه إلى جماعات متناثرة بعيدة عن موطنها الأصلي، جعل فرنسا تعمق فيه الانقسام بحيث عمدت إلى تقسيم ما كان يعرف بقيادة السوامع الموحدة إلى فرق أربعة هي: أولاد عبد الله الذين تم ترحيلهم من منطقة بوحامادو إلى فيا في منطقة السويد "بياضة" الجرداء والتي تحمل اليوم اسم أولاد عبد الله، وفرقة اللوذاني وفرقة المهجارس¹ وأولاد حديدان. كما أن الأثر البارز لسياسة فرنسا اتجاه دعم سكان أولاد دراج للمقراني هو تفكيك روابط العرش ككل خصوصا فرقة السوامع وقطع الأواصر التقليدية وخلق الصراعات الجديدة مع الجماعات والعروش المجاورة² في إطار عملية المصادرة والترحيل والتعويض في الأراضي مثلما حدث بين أولاد عبد الله وأولاد غننام و السوامع وأولاد سيدي حملة³.

كما مست منطقة السعيدة أين يقطن عرش أولاد ماضي الذي كان أكثر العروش تماسكا وتلاحما من خلال الأحداث التاريخية التي مر بها، والتي أفرزت له شخصية قوية كانت تظهر في المنازعات الخارجية والعلاقات مع العروش الأخرى في مسائل التحالف أو الحرمة أو حدود الأرض والتسلح للحرب⁴. مسته نفس الآثار التي لحقت بعرض السوامع، من عمليات المصادرة والحجز للأموال والأراضي والغرامات الحرية التي اعتبرت امتداد لموقف فرنسا القديم خلال انتفاضة العرش القوية سنة 1864م. وكانت الأراضي المصادرة لهذا العرش موطن الجماعة الجديدة المهجرة من إقليم مجانة حشم المقراني، كتعويض لها عن الأراضي الخصبة التي صودرت منها ومنحت لسكان الأنازاس واللورين. ولم تنجوا من عملية المصادرة حتى العائلات والمشايخ التي وقفت إلى جانب فرنسا خلال الثورة مثل زعيم مشيخة أولاد معتوق الطيب دحدوح وعائلته⁵، وإن حاولت فرنسا جعله على رأس قيادة منطقة أولاد سيدي إبراهيم بعد انتهاء الثورة بمحيط بوسعادة، بسبب وجود أراضي ضمن أراضي العرش المصادرة جماعيا.

كما تباينت الغرامات الحرية والمساحات المصادرة حسب درجة الولاء للمقراني وطبيعة الأراضي. فقد صودرت مساحة 4042 هكتار من منطقة أولاد عدي لقبالة مع غرامة مالية 41939 فرنك باعتبارها كانت موطن زعيم أولاد نجاع جنان بن الدري، حليف السعيد بن بوداود في مقاومته للجيش الفرنسي في الجهة الشرقية لمنطقة المسيلة أو الحصنة الشرقية. في الوقت الذي تقلصت فيه المساحة المصادرة لعرش الدريعات بسبب الطابع الجبلي الصخري بينما ارتفعت قيمة الغرامة المالية الخاصة بنفس العرش إلى 127285 فرنك من خلال قرار 16 جويلية 1872م⁶، وهذه الإجراءات مثلت الصفة الانتقامية للاستعمار الفرنسي من الأهالي، رغم حالة الفقر والبؤس التي كانوا عليها في هذه الفترة. وفي الوقت الذي كانت غالبية السكان تعاني من القهر والخوف والمصادرة ومن التشييت استغلت الأقلية التي تعاونت مع فرنسا الظروف في الاستحواذ على مزيد من الأراضي التي صودرت من أصحابها أو الذين فروا وتركوها واعتبرتها سلطة الاحتلال أراضي متروكة ومن أمثلة ذلك سيطرة القائد الصخري بوضياف على أراضي مدينة المسيلة واستغلها في الزراعة⁷، كما استغل آل بن زغلاش شكور ابن الحاج أراضي المخزن بأولاد دراج، كما ارتقي العديد من هؤلاء إلى مناصب القيادة في مختلف الدواوير خصوصا عائلة بوضياف⁸.

* عثرنا خلال تصفحنا لوثائق الأرشيف الفرنسي بأكس قوائم اسمية لعرش السوامع الذين هجروا الحصنة نحو جهات عديدة من الوطن فاقت بكثير الأعداد التي قدمها جيش الاحتلال وهي موزعة في علبة: CAOM :7i14/tribu Souama

¹ - كلمة المهجارس هي فرقة من سوامع أولاد عبد الله، ليس لها صلة بمهجارس أولاد سيدي هجرس التابعة لمخط أومال سابقا (سيدي عيسي) جنوب غرب المسيلة.
² - ACMM: B90, D1, Rapport Caïd Mcif 12.01.1912)
³ - A.C.M.M: B, 224, D1 (Délibération de la commission municipale du 23/03/1888).
⁴ - Bourdieu, (P) op-cit, p.71.
⁵ - A.C.M.M: B, 224, D2 (rapport caïd Sakhri Boudiaf 13/11/1890).
⁶ - A.C.M.M: B, 224, D1 (séquestre de M'sila 1875-1888).
⁷ - A.C.M.M: B, 241, D1 (carte du Géomètre du séquestre de M'sila 3/12/1877).

⁸ - قامت فرنسا بتعيين بوضياف النذير قايد على الدريعات سنة 1885م، وبوضياف الصديق بن بوضياف على أولاد عدي لقبالة سنة 1882م، وبوضياف المختار على السعيدة سنة 1891م، وبوضياف الحاج بن أحمد على مدينة المسيلة بعد أن كان قايد على المكارطة والمعاضيد، وبوضياف محمد بن القرشي على بني يلمان. (A.C.M.M:B) 241,D1.

- تهجير وتفتيت قبائل حشم المقراني بعد انتفاضة 1871م:

ظلت الدراسات التاريخية المتعلقة بفترة ما بعد ثورة المقراني 1871م بمنطقة الحضنة يكتنفها الإهمال ويحيط بها النسيان مع أن ما حدث للسكان الجزائريين بصفة عامة و أهالي الحضنة ومجاعة خاصة كان أشد وطأة وصعوبة من أحداث سنة 1871م، كما أغفل الباحثون الجانب الاجتماعي الذي خلفته هذه الثورة على القبائل التي دعمت سلطة المقرانيين منذ لقرن السادس. تتضمن الكثير من التقارير العسكرية الفرنسية التي كتب بين 1871م-1876م البعد الحقيقي لهذه العملية التي أثارت استمزاز بعض الفئات الفرنسية نفسها، لأنها خرجت عن نطاق المعاملات والأعراف الدولية المتعارف عليها إلى غاية هذه الفترة، ولأنها جاءت في ظرف دولي كانت فرنسا في وضع القهر والرجعة بعد حرب الوحدة الألمانية. هل يمكن اعتبارها مجرد رد على انتفاضة شعبية قد سبقتها عدة انتفاضات مماثلة في مناطق أخرى أم هل هي حكم المعمرين وسيطرة الطبقة الرأسمالية الاستعمارية التي وصلت الحكم بعد 1871م أمثال جول فيري وغيرهم ودور المكاتب العربية خلال وبعد ثورة 1871م. لقد أرادت فرنسا تحقيق جملة من الأهداف¹.

- 1- تحطيم روح المقاومة الشعبية وتلاحم الريف الجزائري مع القيادات المحلية أمثال المقراني وبومزراق والحداد. وهذا ما كتبه التقارير المتعلقة بإعادة تنظيم قيادة المقرانيين في الحضنة قبل انتفاضة 1871م.
 - 2- تفكيك القبائل التي مثلت سند المقرانيين وتشتيتها عن أوطانها وعدم ترك فرص لانتفاضات مماثلة مثل قبائل الحشم (وهي عملية تطبيقية لقرار المجلس المشيخي الصادر في 22/04/1863م الذي اعتبرت فرنسا من خلاله أن الريف الجزائري من البدو الرحل هو خزان المقاومات الشعبية).
 - 3- تهيئة الظروف الطبيعية لعملية توطين المعمرين الجدد النازحين من الأزراس واللورين بعد حرب الوحدة الألمانية 1870م. (وقد أشار إلى ذلك رئيس المكتب العربي لمركز برج بوعريش الضابط Payen)².
 - 4- الانتقام من القبائل التي ساندت المقراني بالحضنة بتشتيتها وتهجيرها ومصادرة أراضيها ومحطة أخرى لإقامة مناطق استيطان للأوروبيين. (الكثير من هذه القبائل تم ترحيله إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة).
 - 5- تكملة عملية التفكيك والتفتيت الاجتماعي والاقتصادي الذي شرعت فيه فرنسا منذ مرسوم 22 افريل 1863م المعروف بقانون المجلس المشيخي المتعلق بالملكيات العقارية .
 - 6- التحكم والسيطرة على القبائل في إطار تنظيم جديد ضمن الحكم المدني والقضاء على التنظيمات القيادية التقليدية للمجتمع الريفي الجزائري. بحيث نقلت منطقة الحضنة المرحل إليها قبائل الحشم من قيادة المقرانيين والمكاتب العربية ضمن المحيط العسكري إلى قيادة البلديات المختلطة تحت سلطة المتصرفين الإداريين.
 - 7- تحقيق انتقال الملكية العقارية للأوروبيين بعد هجرة السكان الأهالي لأراضيهم خوفا من القمع الاستعماري وهذا ما يسمح بتطبيق أمرية 01 أكتوبر 1844م التي تسمح بانتقال الأراضي المهملة إلى الدولة الفرنسية.
 - 8- ويبدو الهدف العنصري الذي يخرج عن نطاق الإنسانية كان الأكثر وضوحا في تقارير أوامر القيادات العسكرية الفرنسية بعد الإعدام والنفي والتهجير لقبائل الحشم وفرض غرامات الحرب.
- وتتكون عناصر الحشم المرحلين إلى الحضنة من عدة فرق تتوزع بين عدة دواوير إدارية غير التوزيع التقليدي المرتكز على الوحدة القبلية، تم نقلها بالقوة وتوزيعها على عدة مناطق من إقليم الحضنة منذ 1876م، وكانت هذه العناصر تقطن مناطق مجاعة، والعناصر، وسيد مبارك، وصنادة وهي أراضي تلية خصبة ذات طابع ملكية خاصة لهم وهذه الفرق هي³:

¹- ACMM: B,90(rapport de chef de cercle de bordj bouareridj 18/02/1876).

²- Payen c: colonisation du Hodna ,in Recueil des mémoires de la société archéologique du département de Constantine 1893. p.14.

³- ACMM;B, 90,D1(installation des Hachems dans le Hodna 1876).

- **حشم مجانة:** وتتكون من فرق (مقدم، مجانة، دار زيتون، أولاد خليف، بوكشاطة، القرية، حسناوة، خروبة)، وقد قدر عدد المرحلين بنحو 526 نسمة وقد تم تنصيبهم بأراضي السوامع بالحضنة ومنحت لهم مساحة 8211 هكتار.

- **حشم العناصر:** وتتكون من فرق (وأولاد شنيقي، مقدم، بليمور، أولاد خلوف، أولاد رياح، بومرقد، العناصر، سنارة)، وقد عددهم بـ 485 نسمة ثم تنصيب بأراضي الشلال بعرض أولاد ماضي في الحضنة في مساحة 10.988 هكتار¹.

- **حشم سيدي مبارك:** وتتكون من فرق (عين تاغروت، شويحة (التابعة لقيادة زمورة)، بن أحمد، علاونة، سيدي مبارك، ريغة، زمورة، أولاد عكر)، وضمت 280 عنصر تم تنصيبهم في أراضي السعيدة بعرض أولاد ماضي في الحضنة في مساحة 8541 هكتار.

- **حشم صنادة:** وتتكون من فرق (مزيطة، سيدي موسى، مجانة، أولاد عجيل، الدواير)، وضمت 223 عنصر تم نقلهم إلى أراضي الشلال بعرض أولاد ماضي في الحضنة في مساحة 6898 هكتار.

وقد بلغ مجموع الأراضي التي منحت لحشم المقراني بمختلف فرقهم بمنطقة الحضنة 34649 هكتار وزعت عليهم في عدة مواضع منها منطقة بوحامدو التي كانت تضم جزء كبير من عرش السوامع الذي ثار إلى جانب المقرانيين وموضع الشلال وموضع السعيدة التي يتواجد بها عرش أولاد ماضي و مواضع أخرى مثل المعاضيد.

أدت هذه العملية إلى تداعيات خطيرة مست العلاقات الاجتماعية لفقي الحشم وسكان الحضنة، كما أفرزت واقع اجتماعي واقتصادي جديد أدى إلى إحداث خلل في استقرار وتوزيع السكان من جهة، وفي وتيرة النشاط الاقتصادي المرتبط بالأراضي التي مستها هذه العملية إلا إن هذه العناصر من جماعة الحشم لم يستقر بها المقام بأراضي الحضنة، ولم يحصل اندماج. بينها وأهالي المنطقة لمدة طويلة مما دفع بأغلبيتها إلى العودة في فترات منقطعة إلى أراضي التل بإقليم مجانة وسطيف والبرج لتترك مشكلا عقاريا قائما إلى ما بعد الاستقلال.

لقد كان لثورة المقراني انعكاسات اجتماعية جد مؤثرة على بنية المجتمع وتوزيعه الجغرافي وعلاقاته² أدت إلى فراغ بشري كبير حل بها عقب انتهاء الثورة وبداية عمليات المصادرة والمتابعة وإجراءات القهر الاستعمارية، ويشهد الفرنسيون أنفسهم لحجم التأثير الذي حل بالسكان بمنطقة المسيلة. فالضابط باين Payen الذي شغل منصب رئيس المكتب العربي لبرج بوعرييج بين 1860م إلى 1869م وكان من بين الضباط المهتمين بالتاريخ والأبحاث الأثرية يؤكد في مقاله حول تعمير الحضنة بأن مقاطعة المسيلة خصوصا قد شهدت فراغا بشريا رهيبا أكثر مما شهدته منطقة مجانة نفسها التي كانت تمثل إقليم عائلة المقراني وحشمة، ويذكر أن أغلب الأراضي التي كانت تعمورها وتسقيها عروش المسيلة قد وجدها جيش الاحتلال الفرنسي فارغة وتحت حرية تصرفه.

كما أن عملية مصادرة الأراضي والأموال التي مست السكان والفرق التي وقفت إلى جانب المقراني وعرفت بالمنافقين قد أدت إلى عملية تهجير جماعي للسكان بإقليم الحضنة خصوصا من منطقة السوامع وأولاد عبد الله وأولاد ماضي حققت غاية وهدف فرنسا في إطار سياسة التشتيت والتهجير وإيجاد مواطن ملائمة للمستوطنين الجدد من جانب التشتيت كانت انتفاضة المقراني عامل هاما في هروب عروش الحضنة وترك أراضيهم قبل حدوث انتقام الفرنسيين منهم. وسياسة التهجير التي اتبعتها فرنسا أدت إلى انقسام عرش السوامع إلى السوامع القبالة الذين بقوا في منطقتهم الأصلية ببوحامدو، السوامع الظهارة الذين رحلوا إلى منطقة بياضه غرب المسيلة ويمثلون فرقة أولاد عبد الله.

كما قامت فرنسا بتهجير فرقة الدحادحية من عرش أولاد ماضي بسبب موقفهم من فرنسا وجعلت من الذين وقفوا إلى جانبها

¹ - توجد قوائم اسمية للسكان الفارين من الحضنة إلى مختلف المدن ضمن ملف أرشيف بلدية المسيلة ضمن علب 90-18

ACMM; B, 181, Dossier Hachems.

² - ACMM;B;171.(Lettre du Général de la sougeole à L'Administrateur de M'sila 10/06/1882). (Rapport caïd-Ouled -Hdiden 18/10/1902). et B224, D1 (Délibération Commission municipale 29/03/1888).

مثل أمير مشيخة أولاد معتوق الطيب دحدوح على رأس قيادة أولاد إبراهيم سنة 1872م، قبل أن تتحول هذه القيادة إلى محيط بوسعادة العسكري، ضمن محافظة الجزائر سنة 1874م. كما أدت ثورة المقراني إلى هجرة عدد كبير من السكان إلى شرق ووسط الجزائر والحضنة وترك أوطانهم متجهين إلى مناطق في شرق ووسط البلاد بحيث هاجر سكان عرش أولاد دراج وفرقة السوامع بدرجة كبيرة نحو مدن الشرق الجزائري مثل: تبسة والشمره والعلمة وقالة ووادي زناقي وعناية والشرية والسهول القسنطينية، وحتى إلى تونس في حين هاجر سكان الخرابشة المعاضيد ونوغة نحو مدن الوسط كالعاصمة وبلاد القبائل واشتغلوا بها في أعمال البناء والمذابح والحمامات وغيرها. كما انتقلت جماعات أخرى من عرش السوامع المرحلين من منطقتهم إلى مناطق سهول سيدي عيسى ومنطقة بالحوت أو مال "سور الغزلان". في حين تذكر بعض الروايات الشفوية انتقال بعض فرق السوامع إلى تونس. وقد ترك لنا شاعر ثورة المقراني بالحضنة الطاهر بن تريعة أبيات شعرية بها وصف هام لأحداث وتداعيات الثورة بمنطقة المسيلة وونوغة¹ نرصد منها مايلي:

محمد راجل مذكور بطل مخير ... ابن المقراني بيه العامة تسعد

حاكم بلدة بوجملين سرو حاضر ... أهل النية من بحرو كلها تور

الظالم يدحيه يغرقو ما يظهر ... مرحب تعلى دراجتو يصعد

ثم يقدم الشاعر رثاءه لمدينة المسيلة بعد أن افتقدت المقراني وأصبحت تحت نفوذ بوضياف وفي نفس الوقت يترجى عودة انتصار المقرانيين حيث يقول:

ثم شرنا على المسيلة رد الثار ... الجمرة جات للعدو تحت النار

اطلب واحرس قريب يأتيك البشار ... تلبس تاج الملك والمولى ناصر

كما ترك الطاهر بن تريعة قصائد ترثي نفي الشيخ بومزراق حيث يقول:

شايع في ذي الوساطه ماله اطعام ... راعي البيضة زين مطبوع الباسو

تحدث بخصايلو دشرة وخيام ... من بكري معروف حامي رجالسو

في بيتو شيخات خرجو غير حمام ... احمر وازرق نيل قاهر غطاسو

وين عقد اولاد مقران القيام ... بومزراق المير طول تجباسو

خاتمة:

شكلت انتفاضة المقراني إضافة الى زخم الكتابة التاريخية حولها، مصدر الهام وحضور قوي في الذاكرة الجماعية المحلية بمنطقة الحضنة من منطلق عمق الجرح الذي أصاب قبائلها، ومن اثر النتائج التي تركتها سياسة القمع والمصادرة للأموال والأراضي، التي لا تزال تعاني من تداعياتها اغلب الساكنة بالمنطقة مع إخوانهم من قبائل الحشم ومثلت حقيقة الحقد والعنصرية التي واكبت الحضور الاستعماري طيلة تواجده بالجزائر.

¹ - واستطاع أن يجمع قصائد شاعر المقراني الطاهر بن تريعة - بحث قام به الأستاذ الحاج بن تريعة حول دور وونوغة وعرش بني يلماح خلال ثورة المقراني الذي يقدم جوانب تاريخية هامة حول الوضع الذي ساد المنطقة أيام الانتفاضة 1871م.



جزائريون مهجّرون إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة (المستعمرة الفرنسية) بعد انتهاء ثورة 1871م

المحور الثالث

مخلفات وانعكاسات ثورة 1871م

* مصادرات أملاك العائلة المقرانية بعد ثورة 1871 - دراسة إحصائية.

سمير بن سعدي - جامعة البويرة

* التهجير القسري الداخلي للقبائل المساندة لثورة المقراني 1871م - قبائل الحشم بمحانة أنموذجاً -

محمد محمدي - جامعة المسيلة

* العقار والمدفع: تفكيك ثنائية الأرض والإنسان - مشيخة المقراني أنموذجاً - (1844-1874م)

توفيق بن زردة - جامعة أم البواقي

* أضواء على أوضاع المقرانيين المهاجرين إلى البلاد التونسية بعد انكسار ثورة 1871م

العياشي روابحي - جامعة عنابة

*1871: El Mokrani: Résistances, confiscation, désagrégation, déportation et nouvelle pénalisation au refus de concourir à la capture du trophée colonial kanak

Mélica Ouennoughi - Université Vincennes Paris 8

* موقف السلطات الفرنسية من عودة أحمد بومزراق إلى الجزائر سنة 1904م من خلال أرشيف (ANOM)

عمر بوضربة - جامعة المسيلة

* التنظيم الإداري الاستعماري في الجزائر بعد ثورة المقراني 1871م وانعكاساته على المجتمع الجزائري

شريف عبد القادر - جامعة الجزائر 2

مصادر أملاك العائلة المقرانية بعد ثورة 1871 - دراسة إحصائية -

سمير بن سعدي - جامعة البويرة

تعد ثورة 1871م من بين أكبر وأوسع الثورات التي قامت ضد الاحتلال الفرنسي في القرن التاسع عشر، وقد كتبت عنها الكثير من الأعلام الفرنسية، ومن بين المؤرخين الجزائريين الذين غاصوا في جزئياتها المؤرخ الدكتور يحي بوعزيز رحمه الله، حيث نشر حولها عشرات المقالات، وأعدّ أطروحة دكتوراه بعنوان "ثورة الباشا محمد المقراني والشيخ الحداد"، كما نشر مجموعة من المؤلفات ذكر فيها مساهمات العديد من الشخصيات في هذه الثورة، والآثار المترتبة على المشاركين فيها، ومن بين تلك المؤلفات نذكر: "ثورات القرن التاسع عشر، مواقف العائلات الأرستقراطية من الباشا محمد المقراني وثورته".

اهتمامه بثورة المقراني واشتغاله الواسع عليها، جعل بوعزيز من أهم الباحثين الجزائريين تخصصاً فيها، حيث يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله: "... كان اهتمامه المبكر في تاريخ الوطن وهو ابن الثورة الذي اهتم بها منذ دراسته الأولى..."، "... سجل معي رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة عن ثورة المقراني والشيخ الحداد وهي الرسالة التي طبعها في كتاب نال شهرة طيبة تناول تاريخ أحداث ثورة 1871م من وجهة نظر جزائرية تختلف عن النظرة الفرنسية، وأنا أقدر جهده المتواصل في خدمة التاريخ الوطني..."¹.

أورد الدكتور يحي بوعزيز إحصائيات عن المصادرات التي مست العائلة المقرانية، إلا أن بعض الإحصائيات تم نقلها عن طريق الخطأ سهواً منه، وقصدنا منا تصويب تلك الإحصائيات بعد إعادة مقابلتها بما ورد في الوثائق، وتصحيح أسماء بعض المناطق².

- المصادرات الفرنسية للأملاك المقرانية

من بين أولى القرارات التي تم إصدارها بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر: قرار 08 سبتمبر 1830م، الذي قضى بضم كل أراضي البايلك المصادرة إلى الدومين، بالإضافة إلى أملاك الأتراك³، أعقبه المرسوم الصادر سنة 1832م الخاص بمصادرة أراضي القبائل الثائرة⁴.

وفي ظل توالي القرارات والمراسيم المدعمة للاحتلال وفرض السيطرة على الأرض والقبائل الثائرة، تم إصدار قرار أكثر خطورة من سابقه وهو القرار المشيخي الصادر في 22 أبريل 1863، الذي ساهم في تفكيك القبيلة الجزائرية وإضعاف الفلاح الجزائري، وتم مواجهته الاستيلاء على عدد كبير من الأراضي لصالح الاستيطان⁵.

خلال هذه السنوات، مرت الجزائر بظروف عصيبة حيث توالى حملات الجراد منذ سنة 1865م، وقلة الأمطار من 1865م إلى 1867م⁶، وفي ظل هذه الأوضاع كان المقراني يتعرض لضغوط من طرف الإدارة الفرنسية بسبب عدة حوادث من بينها ديونه

¹ - بوعزة بوضرساية: رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر، 2007م، ص 279-280.

² - سيد القارئ التصويب المقصود بين معقوفتين، ليتبين أن لتصحيح من عملنا، وإيماناً منا بالجهد الكبير الذي بذله مؤرخ الجزائر وأحد رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، وددنا دعم دراسته بهذا التحقيق والتصويب، ليس انتقاصاً من عمله وإنما تدعيماً وتثميناً ومتابعة له وتوجيهاً للباحثين في الوقت نفسه.

³ - رشيد فارح: المحطات الرئيسية لتأسيس الملكية العقارية أثناء فترة الاحتلال وأثر ذلك على البنية الاجتماعية التقليدية للمجتمع الجزائري"، أعمال الملتقى الوطني الأول حول العقار، المنعقد بولاية معسكر يومي 20-21 نوفمبر 2005م، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007م، ص 96.

⁴ - نصر الدين بن داود: "مصادرة أراضي الجزائريين وسياسة بيجو الاستيطانية"، أعمال الملتقى الوطني الأول حول العقار، المرجع نفسه، ص 52.

⁵ - الطاهر ملاحسو: "نظام التوثيق في ظل التشريعات العقارية بالجزائر 1830-1962م"، أعمال الملتقى الوطني الأول حول العقار، المرجع السابق، ص 35.

⁶ - أنظر بالتفصيل جيلالي صاري: تجريد الفلاحين من أراضيهم 1830-1962م، ترجمة: قندوز عباد فوزية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2010م، ص 51، جيلالي صاري: الكارثة الديمغرافية 1867-1868م، ترجمة: عمر المعراجي، طبعة خاصة وزارة المجاهدين، منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2008م، ص 203-219.

التي اقترضاها من اليهودي مسرين، وما زاد الأمر صعوبة إصدار قانون تجنيس اليهود الأمر الذي جعل الحاج محمد المقراني يعلن الثورة في شهر مارس 1871م¹، ورغم قوة الثورة وتعداد المشاركين فيها إلا أن الفرنسيين قاموا بإخمادها بعدما استشهد بعض قادتها وتم أسر البعض الآخر.

أسفر فشل ثورة 1871م² على متغيرات اقتصادية واجتماعية عدة، كان لها بالغ التأثير في عدة نواح، فقد حُكم على زعماء الثورة بالإعدام وأرسل الكثير منهم إلى السجون والأعمال الشاقة، وصُودرت الأملاك وأجبر الأهالي على دفع غرامات مالية كبيرة، فقد تم تقسيم الثائرين إلى عشر (10) مجموعات من بينها عائلة المقراني وفروعها، حيث تمت مصادرة أملاك المقراني وعائلته على ثلاث مراحل:

– **المرحلة الأولى:** بدأت بعد عشرة أيام من الانتفاضة أي يوم 25 مارس 1871م³.

– **المرحلة الثانية:** فقد بدأت السلطات الفرنسية بإحصاء ممتلكات كل فرع والذي استمر سنتين وأربعة أشهر⁴، ففي 26 ماي 1872 صدر القرار رقم 220 القاضي بمصادرة أملاك أربعة فروع من العائلة: أولاد الحاج، أولاد عبد الله أولاد بورنان وأولاد عبد الرحمن، وكذلك أملاك السعيد بن بوداود قائد الحضنة وعدد من أفراد أولاد مقران⁵.

– **المرحلة الثالثة:** في هذه المرحلة صدرت ستة قرارات تم تحديد أملاك فروع عائلة أولاد مقران وكان ذلك في 29 جويلية 1873م⁶.

أورد يحي بوعزيز الإحصائيات المتعلقة بالمصادرات في إحدى كتاباته⁷، غير أن مقارنتها مع الوثائق الأصلية⁸ تسمح الكشف عن بعض الأخطاء والاختلالات في الأرقام، التي سقطت عنه سهواً، ولهذا عملنا على تصحيح المعلومات الواردة.

عنوان الوثيقة: القرارات الخاصة بمصادرة أملاك الباشاغا محمد المقراني وأفراد وفروع عائلته.

طبيعة الوثيقة: وثيقة قانونية تاريخية (قرار مصادرة الأملاك رقم: 374، 375، 376، 377، 378، 379)

مصدر الوثيقة: القرارات ممضية من طرف مدير الدومين (كابيفالي) ومستشار الحكومة بلمار⁹ والقرارات موجودة في النشرة الرسمية لسنة 1873م.

الاطار الزمني والمكاني: الجزائر (عمالة قسنطينة) 1873م.

مضامين الوثيقة

¹ – أنظر بالتفصيل عن الثورة يحي بوعزيز: ثورة الباشاغا محمد المقراني والشيخ الحداد عام 1871م، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 58-176.

² – بخصوص ثورة 1871، قدم الدكتور يحي بوعزيز دراسة قيمة استند خلالها على المصادر المحلية والمصادر الفرنسية، وغاص في أسبابها وظروف قيامها ونتائجها، مُحدثاً مقارنة عميقة بين تلك الكتابات ... أنظر: يحي بوعزيز: ثورة الباشاغا محمد المقراني، المرجع نفسه، ص 81-393.

³ – يحي بوعزيز: مواقف العائلات الأرستقراطية من الباشاغا محمد المقراني وثورته عام 1871م، طبعة خاصة، دار البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 108-109.

⁴ – الصديق تاوي: المبعدون إلى كاليدونيا الجديدة (نتائج وأبعاد ثورة المقراني)، دار الأمة، الجزائر، 2010م، ص 110-120.

⁵ – يحي بوعزيز: مواقف العائلات الأرستقراطية، المرجع السابق، ص 111-112.

⁶ – المرجع نفسه، ص 113.

⁷ – نفسه، ص 114-153.

⁸ – قمنا بتصوير الوثائق من المكتبة الوطنية القديمة، المتواجدة قرب قصر الحكومة.

⁹ – بلمار الكسندر، ماري فرانسوا (Bellmare Alexandre Marie François)، موظف في الخدمة المدنية، جاء إلى الجزائر في عام 1842م – كبير أمناء مكتب المدعي العام في الجزائر العاصمة، متخصص في الترجمة الشفوية استدعي إلى وزارة الحرب في خدمة الجزائر، 1846م عين كأمين للمجلس الاستشاري بوزارة الحرب في الجزائر (ديسمبر 1860م) مستشار مقرر في عام 1865م، أحيل على التقاعد في نوفمبر 1870م.

Annie Rey Golzeiguer : Le ROYAUME ARABE (la politique algérienne de napoléon III (1861-1870) , ENAG editions, Alger, 2010, p.757.

فروع العائلة المقارنة	مجموع الأراضي المصادرة
أولاد عبد الرحمن	25س/06آر/3373هـ ¹
فرع أولاد الحاج	39س/89آر/6813هـ ²
فرع أولاد عبد الله	52س/75آر/4633هـ ³
فرع أولاد عبد السلام	09س/56آر/4050هـ ⁴
فرع أولاد بلقندوز	40س/29آر/3801هـ ⁵
فرع أولاد بورنان	79س/60آر/1883هـ ⁶
المجموع الكلي	44س/17آر/24556هـ ⁷

وبخصوص ترتيب فروع العائلة المقارنة، فقد قمنا بذكرها تنازليا حسب المساحة التي تمت مصادرتها لكل فرع، وكان فرع أولاد الحاج الأكثر تضرا من المصادرات ويأتي بعده أولاد عبد الله ، ثم أولاد عبد السلام فأولاد قندوز، ثم أولاد عبد الرحمن وأخيرا أولاد بورنان.

أولا: الأملاك المصادرة من فرع أولاد الحاج من عائلة المقراني قرار رقم 375 بتاريخ 29 جويلية 1873م المصادق عليه يوم 25 أوت 1873م.

بلغ المجموع الكلي للأراضي المصادرة من فرع أولاد الحاج 39س/89آر/6813هـ⁸، مقسمة كالتالي:

1- أولاد الحاج أحمد المقراني الخليفة السابق على مجانية: شملت الملكيات المصادرة 20 ملكية، في بني عباس والبرج وسيدي مبارك، وزمورة والخنق وأولاد تاير:

المساحة	المصادرات
25س/16آر/01هـ	نصف حديقة تيزيرت ⁹ (Tizzirt) على بعد 2500 م من قلعة بني عباس دائرة بجاية
00س/50آر/2030هـ.	أرض قابلة للحرق في قبيلة الحشم دائرة برج بوعريرج
00س/50آر/13هـ.	أرض للحرق في عين الترك ¹⁰ قبيلة الحشم التابعة لدائرة برج بوعريرج
00س/80آر/51هـ	أرض تسمى المراسن El-M'rassen أو الخربة بقبيلة الحشم بدائرة برج بوعريرج
00س/00آر/51هـ	أرض الخنق الحلونية ¹¹ قبيلة الحشم ، سيدي مبارك ببرج بوعريرج
00س/70آر/127هـ	أرض عين سولام علي القوي قبيلة الحشم دائرة برج بوعريرج

¹ - عند يحي بوعزيز أورد المجموع الكلي بـ 25س/75آر/3471هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص114.

² - أورد يحي بوعزيز المجموع الكلي بـ 82س/70آر/4881هـ، أنظر: ثورة الباشاغا، المرجع السابق، ص318، أنظر أيضا يحي بوعزيز: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص114.

³ - عند يحي بوعزيز أورد المجموع الكلي بـ 52س/58آر/4721هـ. أنظر: ثورة الباشاغا، المرجع السابق، ص318، مواقف العائلات، المرجع السابق، ص114.

⁴ - عند يحي بوعزيز أورد المجموع الكلي بـ 49س/60آر/4060هـ. أنظر: ثورة الباشاغا، المرجع السابق، ص318، مواقف العائلات، المرجع السابق، ص114.

⁵ - عند يحي بوعزيز أورد المجموع الكلي بـ 80س/53آر/3787هـ. أنظر: ثورة الباشاغا، المرجع السابق، ص318، مواقف العائلات، المرجع السابق، ص114.

⁶ - عند يحي بوعزيز أورد المجموع الكلي بـ 67س/70آر/1906هـ. أنظر: ثورة الباشاغا ، المرجع السابق، ص318، مواقف العائلات، المرجع السابق، ص114.

⁷ - عند يحي بوعزيز أورد المجموع الكلي بـ 55س/89آر/22829هـ في كتاب ثورة الباشاغا، في حين وجدناها برقم آخر في كتاب مواقف العائلات الأرستقراطية من ثورته؛ ونعتقد أنه خطأ مطبعي حيث كتبت 55س/89آر/2282هـ حيث لا يظهر رقم تسعة في المكتنارات، ثورة الباشاغا، المرجع السابق، ص318، أنظر أيضا يحي بوعزيز: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص114.

⁸ - أوردتها يحي بوعزيز: 17س/88آر/4831هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع نفسه.

⁹ - أوردتها يحي بوعزيز باسم تيزيرت؛ أنظر أيضا يحي بوعزيز: مواقف العائلات، المرجع نفسه، ص114.

¹⁰ - تابعة حاليا لبلدية خليل.

¹¹ - أوردتها يحي بوعزيز: خنقة حلوميا، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص120.

أرض للحرث تسمى مليلة سغيفة ¹ (M'lilla-Sghiva) بالشويجة قبيلة زمورة	00س00آر56هـ ² .
أرض الحاولي ³ بالشويجة قبيلة زمورة دائرة برج بوعريريج	00س00آر06هـ ⁴ .
أرض الحاولي بالشويجة قبيلة زمورة دائرة برج بوعريريج	00س00آر02هـ
أرض تسمى البحيري عين الفخارين ⁵ (Bhiri-Ain-Fekharine) قرب عين فخاريني	00س00آر18هـ ⁶ .
أرض مديود ملحقة الشويجة قبيلة زمورة	00س00آر25هـ
أرض مُدوّد في ملحقة الشويجة قبيلة زمورة	00س00آر125هـ
أرض مُدوّد في ملحقة الشويجة قبيلة زمورة	00س00آر15هـ
أرض عين ميرة أولاد ثاير بأولاد سيدي اعمر دائرة برج بوعريريج	00س00آر78هـ
أرض بير الجماعة ⁷ أولاد ثاير بأولاد سيدي اعمر دائرة برج بوعريريج	00س00آر50هـ
أرض الخربة، أولاد ثاير، أولاد سيدي اعمر دائرة برج بوعريريج	00س00آر08هـ
أرض الرقاقيب أو (الركايب) أولاد ثاير، أولاد سيدي اعمر دائرة برج بوعريريج	00س00آر32هـ
أرض الديور (Ed-diour) التابعة لقبيلة الحشم دائرة برج بوعريريج	00س00آر480هـ
أرض عساكا (Assaka)، البير، الذراع لبّيض، العقبة ⁸ ذراع الجماز ⁹ .	00س00آر210هـ
المساحة الإجمالية:	25س16آر3382هـ ¹⁰

2- الحاج محمد بن محمد بن الحاج أحمد المقراني باشاغا مجانية السابق: شملت الملكيات المصادرة 95 ملكية، في بني عباس والبرج والعناصر وسيدي مبارك، وزمورة وتسامرت والخنيق وقمور وغيرها.

المساحة	المصادر
00س05آر20هـ	منزل به أربعة غرف وحديقة ببني عباس القلعة
00س86آر04هـ	منزل به ثلاثة غرف وساحة ببني عباس القلعة
00س00آر55هـ ¹² .	نصف قطعة أرض ببوجناح الواقعة على بعد 06 كيلومتر عن قرية أولاد سيدي ايدير ¹¹ ببني عديل بها 2000 شجرة زيتون
00س78آر42هـ	نصف قطعة أرض عزي أوعباش (Azzi-ou Abbach) ¹³ ببني عباس توجد بها 450 شجرة زيتون و 700 شجرة مثمرة

¹ - أوردها يحي بوعزيز أرض سمغيقا، أنظر: المرجع نفسه، ص120.

² - Bulletin officiel, année 1873, p.526.

³ - أوردها يحي بوعزيز الحوييت، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص120.

⁴ - Bulletin officiel, année 1873, p.526.

⁵ - أوردها يحي بوعزيز: عين فكارين؛ أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص120.

⁶ - Bulletin officiel, année 1873, p.526.

⁷ - أوردها يحي بوعزيز: بئر الجمعة؛ مواقف العائلات، المرجع السابق، ص121.

⁸ - أوردها يحي بوعزيز: لكبا، أنظر: المرجع نفسه، ص120.

⁹ - أوردها يحي بوعزيز: الحمر، أنظر: المرجع نفسه، ص120.

¹⁰ - أوردها يحي بوعزيز بالرقم التالي: 25س96آر1333هـ؛ أنظر: المرجع نفسه، ص120.

¹¹ - ذكرت عند يحي بوعزيز: سيدي يدير؛ أنظر: المرجع نفسه، ص120.

¹² - يقول يحي بوعزيز أنها لم تذكر مساحتها، في حين وجدناها في الوثيقة الرسمية بالرقم: 00س00آر55هـ؛ أنظر:

Bulletin officiel, année 1873, p.527.

¹³ - ذكرت عند يحي بوعزيز عزي أوعباش، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص121.

أرض عزى أوبوشموغ أولاد سيدي ايدير بني عباس 45 شجرة زيتون و 34 شجرة تين ¹	40س 50آر 04هـ ²
أرض عزى أوبوشموغ أولاد سيدي ايدير بني عباس 50 شجرة زيتون ³	00س 14آر 00هـ
أرض عزى أوبوشموغ بني عديل سيدي ايدير قرب واد بوسلام وواد تسامرت ⁴ بها 7 أشجار زيتون ⁵ و 12 عشر شجرة مثمرة.	00س 66آر 00هـ
أرض عزى أوبوشموغ بني عديل سيدي ايدير قرب واد بوسلام بها 28 شجرة تين.	00س 20آر 00هـ
أرض بير بن شعبان بقبيلة زمورة بالشويحة.	00س 00آر 24هـ
أرض بير بن شعبان بقبيلة زمورة بالشويحة.	00س 92آر 19هـ
أرض بير بن شعبان بقبيلة زمورة بالشويحة.	00س 80آر 21هـ
أرض بير بن شعبان بقبيلة زمورة بالشويحة.	00س 00آر 44هـ
خرائب الدار الكبيرة وحمام عربي بالإقليم المدني برج بوغريج.	87س 09آر 00هـ
أرض بنيت عليها دار التلغراف القديمة بمدينة برج بوغريج.	46س 42آر 00هـ
حديقة مسقية بها ثلاثة أشجار على بعد 300م تقع في مدينة برج بوغريج.	40س 40آر 00هـ
موضع بالبرج.	90س 02آر 00هـ
أرض زراعية للحرث بالإقليم المدني برج بوغريج.	00س 00آر 12هـ
أرض زراعية للحرث بالإقليم المدني برج بوغريج.	00س 40آر 17هـ
أرض زراعية للحرث بقبيلة الحشم تدعى المالح (Malah)	00س 25آر 11هـ
أرض زراعية للحرث بقبيلة الحشم تدعى المالح (Malah)	00س 50آر 11هـ
أرض زراعية للحرث بقبيلة الحشم تدعى المالح (Malah)	50س 70آر 12هـ ⁶
الحق في استغلال أرض تدعى الصديد بقمور (Guemmour).	00س 00آر 06هـ
نصف أرض تدعى الصديد.	00س 50آر 06هـ
نصف أرض مشته الحاود (El-Haoud) بقمور (Guemmour)	00س 80آر 03هـ
أرض الخربة الوطنية [اللواتية] بمقدم ⁷ (وأدرمل) زراعية.	00س 00آر 04هـ
أرض مودكرلين، والخربة بواد مرمل في مقدم.	00س 00آر 14هـ

¹ - لم يتم ذكر عدد الأشجار عند يحي بوغريز، أنظر: المرجع نفسه، ص 121.

² Bulletin officiel, année 1873, p.527.

³ - لم يذكر بوغريز عدد الأشجار، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص 122.

⁴ - كتبها يحي بوغريز: "تسا مرت" وهي في الأصل تكتب: تَسَامَرْت، وتَسَمَرْت أحيانا أخرى، تنتمي حاليا لدائرة برج زمورة؛ أنظر دراساتنا: سمير بن سعدي: المختصر في تاريخ زمورة، مراجعة: بن أزواو فتح الدين، مطبعة زاعياش، بوزريعة، الجزائر، 2013م، (ص 136). وأيضا سمير بن سعدي: الثورة التحريرية بزمورة القسمة 3 الناحية 4 المنطقة 1 الولاية 3، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله، 1435-436هـ/2014-2015م، (ص 278).

⁵ - بدل أن يكتب بوغريز 07 أشجار زيتون كتب 50 شجرة، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص 121. وأيضا:

Bulletin officiel, année 1873, p.527.

⁶ - ذكرها يحي بوغريز ذكرها بالرقم التالي 00س 70آر 12هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص 122، أنظر أيضا:

Bulletin officiel, année 1873, p.527.

⁷ - مقدم: قبيلة مرسمة الحدود بموجب مرسوم صادر بتاريخ 25 جانفي 1868م، قائمة في ثلاثة دواوير بلديات: أولاد عبد الرحمن رقم 154، وأولاد حنيش رقم 155، وحسناوة 156، المساحة (15792 هكتار؛ أنظر: ف. أكاردو: معجم قبائل ودواوير الجزائر، ترجمة حمزة الأمين يحيوي ومالك بن خيرة، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص 163؛ أنظر النسخة الفرنسية:

F. Accardo: Répertoire Alphabétique des Tribus et Douars de L'Algérie, 1^{er} partie, sous la défection de: M.LE MYRE DE VILERS, Alger, 1879, p.104.

أرض فيض بن ديرويز [بن درواز] ¹ بواد مهني.	00س20آر10هـ ²
أرض فيض بن ديرويز [بن درواز] بواد مهني على يمين الأولى.	00س60آر02هـ
أرض خربة البير وسي مبارك البر قرانا [البلقرانة] ³ (Belgrana) بواد الساحل.	00س00آر50هـ
أرض خربة البير وسي مبارك البر قرانا [البلقرانة] (Belgrana) على يمين الأولى بواد الساحل	00س00آر03هـ
أرض المزارة (M'zara) فلاحية بواد مهني.	00س40آر10هـ
جزء من أرض القريشة (Greicha) بواد مهنا.	00س86آر20هـ
أرض بنفس الاسم على يمينها.	00س00آر02هـ
أرض لتلات [لتلت] (Letlet) بواد مهني.	00س60آر05هـ
أرض مثلها في شبا (Cheba) بواد مهني.	00س30آر04هـ
أرض مثلها بترحال (Berrahal) في وادا مهني.	00س30آر08هـ
أرض الفيض الأبيض [لبيض] مثلها بواد مهني.	00س68آر03هـ
أرض مولا ليفيا (Moulalifia) مثلها بواد مهني.	00س00آر02هـ
أرض سغارين بواد الساحل وواد عبد الله.	00س20آر16هـ
أرض شوقران (Chougran) على يمينها بواد الساحل.	00س50آر05هـ
أرض مثلها بواد الساحل.	00س50آر07هـ
أرض فيض بريش [بريش] (Berbich) بواد مهني.	00س05آر07هـ
أرض فيض سي عمر مثلها بواد الساحل [واد سهيل] (oued-Sahil)	00س80آر08هـ
أرض صواد [الحاود] عبد الله بورنان في مقدم ، واد الساحل [واد سهيل] (oued-Sahil)	00س52آر14هـ
أرض مولا ليفيا (Moulalifia) في مقدم.	00س10آر03هـ
أرض مثلها في مقدم (M'gueddem)	00س95آر03هـ
أرض برحال (Berrahal) بواد محمد (oued Mahmed)	00س80آر03هـ
أرض مولا فيا (Moulalifia) بواد محمد (oued Mahmed).	00س60آر01هـ
أرض بوغطام (بورتام) (Bouretam) بواد الساحل [واد سهيل] (oued-Sahil)	00س25آر01هـ
أرض مورترنق بواد عزيز (يستغلها)	00س00آر12هـ
أرض خربة العربي [العمري] بن كحلا [بن كحلة] ⁴ بصنادا [سنادة] (يستغلها).	00س65آر03هـ
أرض زينود [الزنود] ⁵ (Zenoud) بصنادا [سنادة] للفلاحة يستغلها.	00س10آر05هـ
نصف أرض عزلة ذراع سقيا [ذراع الساقية] (Dra-Segua) بصنادا [سنادة].	00س50آر02هـ
نصف عزلة صنادا [سنادة] للفلاحة (يستغلها).	00س65آر02هـ

¹ - المعروف بجهات زمورة عائلة بودرواز، وتوجد في برج بوغريج ونواحي حسناوة، وبالتحديد في أولاد مهدي.

² - عند يحي بوغزير كتبها 00س12آر10هـ لكنها في الوثائق 00س20آر10هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص123، أنظر أيضا

Bulletin officiel, année 1873, p.529

³ - Bulletin officiel, année 1873, p.529.

⁴ - كتبها يحي بوغزير: العربي بن كحلا، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص124، لكن وجدناها المري بدل العربي في المنشورات الرسمية

Bulletin officiel, année 1873, p.530.

⁵ - كتبها يحي بوغزير: زينود، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص124، لكن هي في الأصل الزنود، مفردة زناد ويعني الذراع وجمعها الأذرع.

Bulletin officiel, année 1873, p.530.

00س35آر02هـ	نصف عزلة أحديث العربي [أحدة العرب] بصنادا [سنادة] يستغلها
00س56آر205هـ ¹	أرض قريور العوسفان (Guerbour-El-ousfan) بالخروبة للزراعة.
00س32آر09هـ	أرض مورتينغ [مورتينغ] (Motreng) بأولاد عجل للفلاحة.
00س80آر05هـ	أرض مورتينغ [مورتينغ] (Motreng) بأولاد عجل للفلاحة.
00س04آر78هـ	أرض مخامرا [مخمرة] (Mekhamra) ² وعساكا [عسكة] بأولاد عجل فلاحية.
00س28آر94هـ	أرض ذخارا [الذكارة أو الدقارة] ومنجل الزيت [الداب] وخادلمرجا [خادل المرجة] ونغيش (N'gaich) وعينا الذيب [عين الداب] (Ain Deb) في دوار مجانة.
00س82آر11هـ	أرض العوش (El-Aouch) في دوار مجانة.
00س61آر11هـ	أرض لحلي [دير لحلي] (Dir-Lahli) في دوار مجانة.
00س80آر00هـ	حديقتان للخضر في بحيرة العين قرب ألوثن بالجبايلية.
00س08آر00هـ	منزل وجزء من ساحة وقري منزل بألوثن.
00س60آر69هـ	أرض مستتيك بعين كالاخ زراعية.
00س83آر04هـ	أرض رقوت بن قوليل بعين كالاخ زراعية.
00س31آر46هـ	نصف أرض عين بنت غدير أندوسيا ، ذراع ، مودير [المؤدّر] العقيب [العقبية] (El-Ouhuiba)، فان الفول بمجانة يقتسمها (دحمان بن أحمد مساحتها 92.26 هكتار).
00س30آر83هـ	أرض رأس العين وفكوسيا بالعنصر [العناصر] .
00س75آر80هـ	أرض العواد ³ بالعنصر [العناصر] .
00س60آر15هـ	أرض عود التوز [التوزة] بالعنصر [العناصر] .
00س00آر18هـ	أرض عود التوز [التوزة] بالعنصر [العناصر]
00س35آر08هـ	أرض فم الغار بمجانة [مجانة] يستغلها.
00س35آر91هـ	أرض تيريشت بمجانة.
00س29آر29هـ	أرض بن زوقان [بن زوغان] بمجانة [مجانة] زراعية.
00س86آر16هـ	أرض بن زراوي وعد يديفالا بمجانة.
00س29آر54هـ	أرض زراعية مسقية ورعوية بمجانة بما برج مجانة المخرب ومسجد ومقهى عربية و30 قري دار مخربة وحديقة تستغلها امرأة وحيدة بما 33 شجرة و25 شجرة تين وعدد آخر من الأشجار المثمرة.
00س75آر03هـ	أرض مرجة بن أحمد زنوق (Zenoug) في عين السلطان.
00س50آر03هـ	أرض العصبا في عين السلطان زراعية مسقية.
00س25آر07هـ	أرض كركر في عين السلطان زراعية مسقية.

¹ - أوردها يحي بوعزيز: 00س55آر205هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص 124، في حين وجدناها في الوثائق 00س56آر205هـ، أنظر:

Bulletin officiel, année 1873, p.530.

² - هذه المنطقة تابعة لبلدية الشير وتكتب مخمرة، وليس مخامرا مثلما ترجمها الدكتور يحي بوعزيز، أنظر: مواقف العائلات، ص 124، والجريدة الرسمية الجزائرية؛ ج.ر.ج.د.ش: السنة الواحدة والعشرون، عدد 67، مرسوم رقم 84-365 مؤرخ في 8 ربيع الأول 1405هـ الموافق لـ 01 ديسمبر 1984م (يحدد تكوين البلديات ومشماتلها وحدودها الإقليمية)، الأربعة 26 ربيع الأول 1405هـ / الموافق لـ 19 ديسمبر 1984م، الجزائر، ص 2297.

³ - يقصد بما في العربية الفصحى: الأحصنة.

أرض كركر في عين السلطان زراعية مسقية.	00س15آر04هـ
أرض مرجا [المرجة] في عين السلطان رعوية.	00س10آر01هـ
أرض مرجة بن سنان [بن شنان] دوار البرج.	00س75آر37هـ
أرض سيد هيسا [سد الدهيسة] بدوار البرج بها رحا مخربة.	00س50آر137هـ
أرض ثنية محمد بن الصخري بدوار البرج.	00س25آر19هـ
أرض مرج عين التراب في سيدي مبارك رعوية بها أشجار الصفصاف.	00س80آر02هـ
أرض دويو وذراع الماتنا بمحانة.	00س80آر70هـ
أرض جبل في محانة.	00س15آر31هـ
أرض بكير في محانة (يستغلها).	00س35آر03هـ
أرض راس العين.	00س35آر41هـ
أرض عود (Aoud) بوعكاز.	00س40آر08هـ
أرض ورجيع (ورجيق) (Ourdjig) في محانة.	00س15آر30هـ
أرض عود (Aoud) بن حُسين (Ben Haoussin) في محانة.	00س18آر31هـ
أرض عود (Aoud) محمد بن عمر (Ben Amar) بصنادة (يستغلها).	00س85آر10هـ
أرض عود بن باكري بصنادا (يستغلها).	00س60آر10هـ
أرض ذراع أم شويشا في محانة.	00س60آر08هـ
أرض عزلة كوارسن [كوراتس] (Kourats) في محانة.	00س65آر00 ¹ هـ
أرض حاميل في محانة.	00س80آر03هـ
أرض معيزة M'aiza وذراع العطيو في محانة.	00س25آر17هـ
أرض بن جفيل باللواسر زراعية مسقية.	00س25آر03هـ
أرض بالغزوات باللواسر زراعية مسقية	00س85آر06 ² هـ
المجموع الكلي بمساحة إجمالية:	22س14آر1880 ³ هـ

3- محمد بن عبد الله بن الحاج أحمد شقيق الباشا والقائد السابق على مقدم: شملت الملكيات المصادرة 38 ملكية، في بني عباس، أولاد خليفة، محانة.

المساحة	المصادر
42س401آر00 ⁴ هـ	منزل من ثلاث غرف وساحة في بني عباس.
18س09آر04هـ	حديقة ثافثيست [تافتي] Taftis جديد على بعد 2 كلم من قلعة بني عباس
30س51آر00هـ	حديقة ثافثيست [تافتي] Taftis أو بن السعيد في بني عباس .
80س38آر00هـ	حديقة ثافثيست [تافتي] Taftis أو بلهار في بني عباس.
30س07آر00هـ	منزل من غرفتين ، وساحة أرض في بني عباس .

¹ - عند يحي بوعزيز: 00س00آر65هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص127.

² - في الوثائق: 85 آر بدل 35 آر عند يحي بوعزيز.

³ - أوردها يحي بوعزيز بالرقم: 25س96آر1933هـ؛ أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص127.

⁴ - أوردها يحي بوعزيز بالرقم الآتي: 00س01آر00هـ.

00س28آر28هـ	أرض ذراع العُزرا (Dra-El-Ouzra)، وذراع الشواش [الشواشي] (Dra-Chouachi) وحارك أوار [أومرار] (Harek ou Mrar) في بني عيدل بأولاد خليفة.
10س195آر10هـ ¹	نصف أرض ذراع الشواش [الشواشي] (Dra-Chouachi) بأولاد خليفة (يستغلها).
20س198آر00هـ	أرض مالوت [تامالو] (Tamalout) بين تركت شنتير، وشعبة معاريف [معارف] (يستغلها).
05س165آر00هـ	أرض معاليا بأولاد خليفة.
00س136آر00هـ	أرض بحيرة شرشار بأولاد خليفة.
50س175آر01هـ	أرض قصر أيغيلت [ايغيل] تالما بأولاد خليفة.
32س88آر00هـ	نصف أرض عزوز [عزوزة] بأولاد خليفة.
20س155آر00هـ	أرض أعريش تيونا بأولاد خليفة.
50س150آر04هـ	أرض أيغيل مناصفت بأولاد خليفة.
00س180آر01هـ	أرض زازورا [الزعرورة] في مقدم (أولاد عبد الله).
00س130آر00هـ	حديقة مهربين [مهيريس] (Mehiris) في مقدم (M'gueddem).
00س193آر00هـ	أرض سير ² الحلوف بالجباليا [الجبالية]
00س156آر00هـ	أرض الخرب [الخربة] (El-Kherba) بالجباليا [الجبالية].
00س157آر02هـ	أرض بومسدن بالجباليا [الجبالية].
00س130آر01هـ	أرض توماني بالجباليا [الجبالية] زراعية.
00س166آر00هـ	نصف غلى حديقة تانيخيشت [تانيقيشت أو تانيكيشت] (Tani-Kicht) بالجباليا [الجبالية]
50س128آر01هـ	نصف أرض تيارمت.
00س153آر01هـ	أرض حبس [الجباس] قرب الشوف الداراي (الدهراوي) [الظهراوي].
00س172آر28هـ	أرض تيحكيحين [تيهيليحين أو تيحيليحين] (Tihillihinn) بالشوف القبلي (Chouf El-Guebli)
00س130آر00هـ	أرض العصب بعين السلطان.
50س120آر00هـ	أرض ثنية اليبس [البيش] بمحانة.
00س160آر47هـ	أرض البير الأخضر بن محمد في محانة (زراعية).
00س135آر07هـ	أرض معيزا [معيزة] في محانة.
00س125آر03هـ	أرض حرام بصنادا [سنادة].
20س198آر00هـ ³	أرض البير بصنادا [سنادة].
00س150آر19هـ	أرض البير بصنادا
00س186آر07هـ ⁴	أرض فيض العتروس بصنادا [سنادة].
00س175آر11هـ	أرض خربة علوشا [العلوشة] في محانة.

¹ - أوردتها يحي بوعزيز بالرقم التالي: 10س195آر08هـ أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص128.

² - يقصد بها القطعة الصغيرة من الأرض الكبيرة.

³ - وردت عند يحي بوعزيز ولم نجدها في الوثائق.

⁴ - وردت عند يحي بوعزيز برقم آخر.

أرض أحديد الغار [حديد البقار (الأبقار) (Ahded El-B'gar) في مجانة.	00س02آر85هـ
أرض هاجر بن محمد [حجر بن محمد] في مجانة زراعية ورعوية.	00س15آر10هـ
أرض الخرية في مجانة.	00س08آر85هـ
أرض الحامي بلقي [الحامي بلقبلي] (El-Hami-belQuebli) في مجانة.	00س05آر100هـ
أرض عود بوتشيشا [بودشيشة] في مجانة.	00س03آر65هـ
أرض بلد عرب [بلاد العربية] بأولاد خلوف.	00س06آر83هـ
المساحة الإجمالية	07س79آر306هـ ¹

4- وريثة المرحوم لخضر بن الحاج أحمد المقراني شقيق الباشاغا وقائد بني عباس: شملت الملكيات المصادرة 26 ملكية، في بني عباس، مجانة، عين السلطان

المصادر	المساحة
نصف حديقة بلاد توغلين في بني عباس قرب ويزران.	90س39آر00هـ
نصف غلة حديقة ثافيتست بوعوف قرب ويزران.	13س04آر00هـ
نصف منزل له ثلاث غرف في بني عباس قرب ويزران.	30س00آر00هـ
أرض دير لكحل بوزران [ويزران] فلاحية.	00س06آر29هـ
أرض مشقة أحمد وغار السيوان، في عين كالا [كالا] زراعية.	00س73آر40هـ
أرض قبر الطالب بجبل مجانة (فلاحية).	00س13آر16هـ
أرض لشبور في أولاد عجل.	00س04آر70هـ
أرض مرتوم بن الخروي في أولاد عجل.	00س24آر07هـ
عزلة لشبور في أولاد عجل.	00س80آر01هـ
العين البيضاء بالعنصر [العناصر].	00س60آر12هـ
الغيريا (Guéria) في مجانة بما منزل مخرب وبستان.	00س85آر01هـ
الغيريا (Guéria) وحديقة بأشجار مثمرة.	00س90آر06هـ
أرض عرقب [العراقب] (Aragueb) في مجانة.	00س56آر15هـ
أرض خرية شريقي (Kherbet-Chrigui) في مجانة.	00س48آر06هـ
أرض بيئر روات، وحوض، وفوميل، وغار حاميل في مجانة.	00س97آر102هـ ²
أرض مدوسيا وبن معيزا في مجانة.	00س70آر32هـ
أرض كاف رابين في مجانة.	00س60آر10هـ
أرض الحابل.	00س85آر02هـ
أرض أيدير [الدير] في عين السلطان.	00س15آر06هـ
عزلة عبد السلام في عين السلطان.	00س15آر01هـ
أرض العصبا رعوية في عين السلطان.	00س05آر01هـ
أرض مسقية في عين السلطان.	00س75آر01هـ

¹ - عند يحي بوعزيز: 37س90آر323هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع نفسه، ص129.

² - عند يحي بوعزيز: 00س97آر104هـ أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص130.

أرض قبوب في عين السلطان.	00س00آر01هـ
أرض كراشونا.	00س10آر02هـ
أرض رومال الواذوغي [الونوغي].	00س35آر07هـ
أرض دكان الكرمة بجبل مجانة.	00س46آر38هـ
المجموع بمساحة إجمالية:	33س16آر352هـ

5- أحمد بن مرزاق بن الحاج أحمد المقراني قائد ونوغة السابق : شملت الملكيات المصادرة 33 ملكية، في بني عباس، مجانة، عين السلطان، البرج، قمور، العناصر:

المساحة	المصادر
32س01آر00هـ	منزل من أربعة غرف وساحة بالقلعة في بني عباس.
75س03آر00 ¹ هـ	منزل مخرب في البرج.
00س00آر24هـ	أرض مزروعة في البرج.
65س92آر07هـ	أرض المالح (Malah) في قمور (Guemmour).
00س14آر08هـ	أرض المالح (Malah) في قمور (Guemmour).
00س33آر14هـ	أرض المالح (Malah) في قمور (Guemmour) شمال السابقة.
00س76آر01هـ	أرض قناديل بالجبايليا [الجبايلية] (عين كلاح).
00س05آر01هـ	عزلة مورجلين بالجبايليا [الجبايلية].
00س76آر01هـ	عزلة بن باهي بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س04آر01هـ	أرض سير غوميس بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س95آر03هـ	عين المرجا [المرجة] بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س85آر01هـ	عزلة براميل بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س56آر02هـ	عزلة زميل وحديقة بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س63آر02هـ	عزلة مون حالا بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س21آر04هـ	عزلة جبر ما ييل وثلاثة منازل مخربة بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س40آر02هـ	عزلة بوخال بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س16آر00هـ	عين رأس الكاف بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س97آر00 ² هـ	عين رأس الكاف وحديقة وعين بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س64آر01هـ	سير القنطرة بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س48آر00هـ	عزلة توميل بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س78آر00هـ	عزلة زومتيت بالجبايليا [الجبايلية] (خباتريا).
00س80آر48هـ	كوحا قيش (Kohaguich) في أولاد عجل.
00س50آر04هـ	بلاد أولاون بالعنصر [العناصر].

¹ - عند يحي بوعزيز: 73س03آر00هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص 131.

² - عند يحي بوعزيز: 00س67آر00هـ؛ أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص 131؛ أنظر أيضا:

أود البعلا [عود البغلا] بالعنصر [العناصر].	00س00آر55هـ
أرض مثلها في العنصر [العناصر].	00س00آر07هـ
أرض موهوك في العنصر [العناصر].	00س00آر17هـ
أرض تيريشت في مجانة.	00س00آر46هـ
أرض بلجا طوبيا في مجانة.	00س00آر45هـ
أرض هاجر بن جفار [حجر بن جعفر] في مجانة.	00س00آر26هـ
أرض موجيران [مو لجران] ¹ في مجانة.	00س00آر04هـ
أرض عين بوفارن بمجانة [مجانة].	00س00آر15هـ
أرض بويجل ودمن الباري في مجانة.	00س00آر18هـ
أرض بوشارا [بوشعة] في صنادا [سنادة].	00س00آر71هـ
المساحة الإجمالية	72س01آر444هـ

6- علي بوزيد بن الحاج أحمد: شملت الملكيات المصادرة 04 ملكية، في سيدي مبارك:

المساحة	المصادر
00س00آر06هـ	أرض حديد سدر [السدر] في سيدي مبارك.
00س00آر07هـ	أرض نقيد (Engued) حمل في سيدي مبارك.
00س00آر05هـ	أرض قريش [فراش] Ferech في سيدي مبارك.
00س00آر29هـ	بحيرة اللوطا في زمورة مشجرة بالعنب وأشجار أخرى.
00س00آر48هـ	المساحة الإجمالية

7- علي بوزيد بن الحاج أحمد بالشيخ:

المساحة	المصادر
00س00آر72هـ	ملكية عبد الله بوزيد بن الأخضر بن الحاج بالشيخ أرض زراعية في مجانة تتألف من ستة أقسام هي: نفايخ، سدود [سدور] الكيفان، العوينات، هروار، خاله، ذراع الأبيض.

8- وروثة الحاج مسعود المقراني: حائزين الأرض الرهنية من محمد وأحمد بن العلام وأولاد العريبي، شملت الملكيات المصادرة ملكيتين، في مجانة:

المساحة	المصادر
00س00آر117هـ	أرض أيدير ببحيرة فلاحية ورعوية.
00س00آر16هـ	أرض تيفيريرت بسنادة فلاحية.
00س00آر133هـ	المساحة الإجمالية

9- مسعود بلحاج المسعود: حاز الأرض بالرهنية من السعيد بالعريبي وسي أحمد بن مبارك، شملت الملكيات المصادرة 06 ملكيات، في قمور (Guemmour) والعناصر:

المساحة	المصادر
00س00آر25هـ	أرض رأس الجديد [المجيد] في قمور (Guemmour)

¹ - يقصد بما "الضفدعة"، حيث تسمى محليا "الجرانة" وجمعها الجران.

أرض المهونا بالعنصر [العناصر]	00س55آر02هـ
أرض الماوجن بالعنصر [العناصر] .	00س15آر11هـ
أرض سير باللحاج [بلحاج] مسعود بالعنصر [العناصر] .	00س25آر02هـ
أرض مثلها	00س40آر03هـ ¹
أرض سير باللحاج [بلحاج] مسعود بالعنصر [العناصر] .	00س15آر11هـ
أرض [حديد] عجيل بالعنصر [العناصر] .	00س55آر01هـ
المساحة الإجمالية	00س05آر57هـ ²

10- بوزيد بن محمد بن الحاج بن مسعود: شملت الملكيات المصادرة ملكيتين، في لشبور:

المساحة	المصادر
أرض لشبور بواد [أولاد] عجيل زراعية مسقية.	00س06آر32هـ
أرض مرتوم بن الخروي بواد عجيل زراعية.	00س50آر12هـ
المساحة الإجمالية	00س56آر44هـ

11- مسعود بن الصخري المقراني: شملت الملكيات المصادرة 05 ملكيات، في مجانة:

المساحة	المصادر
مشقة واد عريش [عشير أو أشير] في الحشم بصنادة [سنادة] (مسقية).	00س00آر05هـ
أرض رطب [الرطبة] بصنادا [سنادة] .	00س85آر02هـ
أرض جوام بصنادا [سنادة] .	00س08آر13هـ
أرض طعالبا بصنادا [سنادة] .	00س55آر07هـ
أرض البير بصنادا [سنادة] .	00س38آر48هـ
المساحة الإجمالية	00س86آر76هـ

12- أحمد بن شلال بن الصخري المقراني: ملكية واحدة

المساحة	المصادر
مشقة واد عريش مسقية بها حديقة مشجرة	00س25آر04هـ

13- بلخير بن الحاج أحمد المقراني: ملكية واحدة

المساحة	المصادر
أرض أحديد بنت المداني بصنادا	80س16آر12هـ ³

¹ - لم تذكر عند يحي بوعزيز.

² - لم يورد يحي بوعزيز المجموع في كتابه؛ أنظر: مواقف العائلات، المرجع نفسه، ص133.

³ - عند يحي بوعزيز: 00س16آر12هـ.

ثانيا: الأملاك العقارية المصادرة من فرع أولاد عبد الله من عائلة المقراني:

قرار رقم 379 بتاريخ 15 نوفمبر 1873 المصادق عليه يوم 25 أوت 1873

بلغ المجموع الكلي للأراضي المصادرة من فرع أولاد عبد الله 52س75آر4633هـ¹؛ كالاتي:

1- أولاد محمد بن عبد الله: أراضي بمجانة وبني عباس:

المساحة	المصادر
00س100آر1780هـ	منزل بالشرية، وأرض زراعية وبراري بقبمور [قمر] Geummour والعناصر محاطة بأرض رقم 101 ومنشآت بورنان تحمل أسماء: شافية [شارية] [Charia] ، بيانة، حارتيز، متاتيج وبالليمور[بليمور]، في فراش.
00س15آر02هـ	أرض بلجا في مجانة زراعية.
00س53آر01هـ .	أرض بلاد تيليو قرب وزران [ويزران] في بني عباس دائرة بجاية
00س38آر00هـ	جنان بلاد تيززرت Tizirt في بني عباس دائرة بجاية
00س38آر00هـ	حديقة ثافتيست تانسوت بواد القلعة دائرة بجاية
00س106آر210هـ	منزل مشنة بوزيان وأرض زراعية ورعوية وحديقتان محاطتان بأرض الدومين تم أخذها منه عام 1870م في بير عيسى دائرة برج بوعريرج.
00س44آر3890هـ ²	المساحة الاجمالية

2- الحاج بن محمد بوزيد بن محمد بن عبد الله: ثلاث ملكيات

المساحة	المصادر
00س80آر08هـ	مرتوم بن الخروبي بأولاد عجل.
00س40آر90هـ	أرض دراب متوم ولوايوات، والكوديات، والكوديرا والأكاف الأصغر [الكاف الأصغر] على طريق الجزائر قسنطينة بأولاد عجل.
00س14آر14هـ ³	أرض فلاحية تسمى غير [غار] الحلوف
00س20آر113هـ	المساحة الإجمالية

3- أحمد بن محمد بن عبد الله المقراني قائد عياض سابقا: شملت الملكيات المصادرة 18 ملكية

المساحة	المصادر
75س02آر00هـ	منزل من أربعة غرف وساحة ببني عباس دائرة بجاية.
81س02آر00هـ	منزل من أربعة غرف وساحة ببني عباس دائرة بجاية.
00س07آر00هـ	أرض مرتوم بن الخروبي في أولاد عجل.
00س20آر06هـ	أرض مثلها في نفس المكان.
00س04آر19هـ	أرض قشتوم وموديا بقاع الشوف البراري [البروي].
00س37آر18هـ	أرض نقايشا [نقايش] N'gaich بقاع لشوف البراري [البروي].

¹ - عند يحي بوعزيز: 52س58آر4721هـ، أنظر يحي بوعزيز: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص153.

² - عند بوعزيز: 00س44آر3892هـ؛ أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص149.

³ - وجدناها مثبتة في المنشورات.

أرض أمريشيا بقاع الشوف البراري [البراوي] .	00س51آر32هـ
أرض بلخريّة بقاع الشوف البراري [البراوي] .	00س53آر10هـ
أرض بوزاما [أنزا] ماروزا بقاع الشوف البراري [البراوي] .	00س50آر02هـ
أرض تاحركاب بقاع الشوف البراري [البراوي] (الجبيلية) .	00س52آر03هـ ¹
أرض مزاید بقاع الشوف البراري [البراوي] (جبيلية) .	00س06آر11هـ
أرض عين طراد جديد بقاع الشوف البراري [البراوي] (جبيلية) .	00س48آر00هـ
أرض عين تاقبوش .	00س09آر00هـ
أرض أغاريف في مجانة زراعية .	00س88آر02هـ
أرض مثلها بمجانة أرض بلجود في صنادا .	00س15آر02هـ
أرض بلجود في صنادا [سنادة] .	00س15آر13هـ
أرض فج العتروس بصنادا [سنادة] .	00س63آر18هـ
أرض حمادة بصنادا [سنادة] .	00س79آر61هـ
المساحة الاجمالية	56س95آر209هـ ²

4- أحمد بن محمد بن عبد الله بن المقراني (قائد أولاد ثاير سابقا) : شملت الملكيات المصادرة 08 ملكيات، في بني عباس، عين السلطان، مجانة.

المساحة	المصادر
00س36آر02هـ	منزل من غرفتين وساحة ببني عباس دائرة مجانة.
00س50آر56هـ ³	أرض بيرين الزيت [بير بن الزيت] في عين السلطان زراعية .
00س31آر06هـ	أرض أحديد مسعود [مسعودة] في عين السلطان.
00س70آر02هـ	أرض خلخال [كلكال] في عين السلطان زراعية.
00س18آر19هـ	أرض كسالة في مجانة.
00س30آر03هـ	مشى واد أشير في صنادا [سنادة] مسقية بما منزلان مهدمان
00س15آر28هـ	رأس الغير وكركر وبليليتا سريرا [بليلطة الصغيرة] في عين السلطان.
00س05آر11هـ	بليليتا كبيرا [بليلطة الكبيرة]، وبوطويل في عين السلطان.
00س25آر01هـ	كركر في عين السلطان.
00س87آر95هـ ⁴	المساحة الاجمالية

5- أحمد بن عبد الله والسعيد بن بوداود (لم يقسما أملاكهما) : العودة إلى الأملاك المصادرة من أولاد عبد السلام.

6- مسعود بن عبد الله المقراني : شملت الملكيات المصادرة 11 ملكية في كل من بني عباس، مجانة، ولشبور:

المساحة	المصادر
00س09آر02هـ	منزل ذو غرفة واحدة وساحة وأرض في بني عباس بالقلعة.

¹ - عند يحي بوعزيز: 00س25آر03هـ؛ أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص150.

² - عند يحي بوعزيز: 56س68آر209هـ، أنظر: المرجع نفسه، ص150.

³ - عند يحي بوعزيز: 50س66آر09هـ، نفسه، ص150.

⁴ - عند يحي بوعزيز: 87س05آر82هـ، نفسه، ص151.

02س00آر70هـ	مزابا قرب الأصنام [El-Anass] في بني منصور [في الحشم] (مسقية) .
07س00آر70هـ	قلاله Guellala وماهونا في بني منصور [في الحشم] (مسقية) .
15س00آر90هـ	السيور ¹ وبيرقيقا [بير بريققا] Bir- Berguiga، وراملت، وبوزيد في الأصنام [في الحشم] (زراعية) .
03س00آر65هـ	أرض راملت بوناصر زراعية.
03س00آر91هـ	لشبور بأولاد عجل (زراعية) .
12س00آر48هـ	مارتوم بن الخروي بأولاد عجل (زراعية) .
09س40آر18هـ	حوا ، في عين السلطان (زراعية) .
08س00آر15هـ	جرام في صنادا [سنادة] بها منزل مخرب (زراعية) .
18س00آر60هـ	البيير في صنادا [سنادة] .
15س00آر12هـ	الطابيا بصنادا [سنادة] .
14س00آر25هـ	فج [فيض] العتروس في صنادا [سنادة] .
49س66آر111هـ	المساحة الاجمالية

7- ورثة بوزيد بن عبد الله بتقة: شملت الملكيات المصادرة 04 ملكيات بالعناصر وعين السلطان وبومرقد بالبرج:

المساحة	المصادر
07س00آر20هـ	صاطور بن عكيم بالعناصر (زراعية) .
20س87آر04هـ	عزلة موصورات [موالسوار] (أم السوار) في عين السلطان (زراعية) .
03س00آر75هـ	أرض ذراع عين الخربة (يستغلها) زراعية.
06س00آر80هـ	حليف [الخلف] في البرج (بومرقت) [بومرقت؛ بومرقد] زراعية .
20س62آر22هـ	المساحة الاجمالية

8- السعيد بن الحاج بن عبد الله: ملكية واحدة

المساحة	المصادر
00س43آر19هـ	أرض مروج (بومرقت) في البرج زراعية.

9- محمد الصغير بن عبد الله بتقة: ملكية واحدة

المساحة	المصادر
00س62آر00هـ	أرض مرجة عين بوعزيز في عين كولاخ بالجبايلية [الجبايلية] .

10- بوزيد بن أحمد بلحاج بن عبد الله بتقة: ملكية واحدة

المساحة	المصادر
00س40آر02هـ	فوكاسيا في العناصر بعض منها زراعية.

11- عبد الله بوزيد بن محمد بوزيد بن عبد الله بتقة المقراني: ملكية واحدة

المساحة	المصادر
40س26آر89هـ	الهاود ومشتى بن عبد الله بتقة في عين السلطان.

12- ورثة أحمد بن عبد الله بتقة المقراني: ملكية واحدة

¹ - تطلق على قطع الأراضي الصغيرة.

المساحة	المصادر
00س70آر41هـ	عين المراسل، وعين الكنة [الخنة] وساحات بصنادا (زراعية).

13- أحمد بلحاج بن عبد الله بتقة: ملكيتين لمحمد بن قويدر بن عبد الله بتقة وقويدر بن دحمان بن عبد الله بتقة

المساحة	المصادر
00س85آر130هـ	أرض سبحة [شحة] بالدهسة [الدهيسة] (برج بوغريج) زراعية.

14- ورثة بوزيد بلحاج عبد الله: ملكية واحدة

المساحة	المصادر
00س65آر19هـ	أرض ملاعب بالصرة بمجانة زراعية

ثالثا: الأملاك المصادرة من فرع أولاد عبد السلام من عائلة المقراني.

قرار رقم 378 بتاريخ 29 جويلية 1873 المصادق عليه في 25 أوت 1873.

بلغت مجموع الأراضي المصادرة من فرع أولاد عبد السلام 09س56آر4050هـ¹

1- محمد بن محمد بن عبد السلام بن المقراني قائد عين تاغروت سابقا وأخوه عبد الله: ملكيات بمجانة، وعين تسرة، وبني

عباس:

المساحة	المصادر
00س05آر00هـ	منزل بتاسرا [تاسرة] ²
07س47آر38هـ	أرض في رأي الواد قرب تاسرا [تاسرة] .
95س04آر00هـ	منزل من أربعة غرف ومساحة وأرض في بني عباس القلعة دائرة بمجاية.
00س10آر65هـ	أرض لونيت وذراع في مجانة .
00س15آر13هـ ³	أرض فوريدات في مجانة
00س40آر121هـ	أرض عجوان وعين الشوف وتيمريجين في مجانة.
02س22آر238هـ ⁴	المساحة الإجمالية

2- أولاد سي الحاج مسعود بن محمد بن أحمد بن عبد السلام : ملكيتين بعين تسرة

المساحة	المصادر
78س02آر25هـ	أرض رعوية وبراري، وعين تاسرا [تاسرة] .
76س11آر00هـ	منزل عرب بعين تاسرا [تاسرة] .
54س14آر25هـ	المساحة الإجمالية

¹ - عند يحي بوغزير: 49س60آر4060هـ، أنظر يحي بوغزير: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص146.

² - تاسرة: بطن من قبيلة هاشم (الحشم القديمة بلغت مساحتها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر (77173 هكتار) أنظر قبيلة هاشم البلدية المختلطة والمقاطعة القضائية برج بوغريج، تسمى حاليا عين تسرة؛ أنظر أكاردو: المصدر السابق، ص122، 282، أنظر النسخة بالفرنسية:

F. Accardo: op,cit, 1^{er} partie, p.188.

³ - عند يحي بوغزير: 00س15آر31هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص143.

⁴ - عند يحي بوغزير: 02س22آر256هـ، نفسه، ص143.

3- لخضر بن محمد بن الصخري بن عبد السلام بن المقراني: شملت الملكيات المصادرة في كل من العناصر وعين تسرة، ومجانة وعين السلطان:

المصادر	المساحة
منزل بتاسرا [تاسرة] من عدة غرف.	86س00آر00هـ
أرض على بعد 4 كلم من تاسرا [تاسرة] .	97س00آر24هـ
أرض عين الذهب [عين الذيب] بدوار مجانة (رعوية وزراعية).	00س00آر46هـ
أرض فوكوسيا بالعناصر زراعية.	00س00آر90هـ
خربة السريا [الربيا] Rbia في مجانة بها منزلان مهدهان	00س00آر12هـ
أرض الخربا [الخربة].	00س00آر95هـ
أرض من أربعة أجزاء مداري كنارو ، وروجيل ، وبولرحم ، وبوساكيا [موساقية] في مجانة.	00س00آر23هـ
أرض عود الكيكيس وأدير في عين السلطان.	00س00آر57هـ
المساحة الاجمالية	83س16آر190هـ

4- الأولاد والمنحدرون من سي محمد بن أحمد بن الصخري بن عبد السلام والد القائد السابق لعين تاغروت: شملت الأراضي المصادرة في كل من سيدي اعمر وعين تسرة:

المصادر	المساحة
أرض ذراع أولاد نايل في أولاد سيدي اعمر (زراعية).	00س00آر37هـ
أرض زوقس [زواقس] في أولاد سيدي اعمر (زراعية) .	00س00آر23هـ
مشطة ستارا ، وذراع الشراقا [الشرافة] Cheraga في أولاد سيدي اعمر (زراعية)	00س00آر33هـ
مشطة قرقور بقراط Guergour Begrat في أولاد سيدي اعمر (زراعية) .	00س00آر07هـ
أرض بيت هاليق في أولاد سيدي اعمر (زراعية) .	00س00آر31هـ
أرض عود عواطفل في أولاد سيدي اعمر (زراعية) .	00س00آر02هـ
أرض مشطة العود بأولاد سيدي اعمر (زراعية) .	00س00آر09هـ
أرض قرية تاسرا [تاسرة] ومنطقتها، وعين ذلا المجاورة لها.	50س50آر3070هـ
بلغت المساحة الإجمالية	50س05آر3214هـ

5- أحمد بن الحاج مسعود بن عبد السلام وصالح بن الحاج مسعود بن عبد السلام: شملت ثلاث ملكيات واقعة بمجانة

المصادر	المساحة
أرض الولا سياء في مجانة (زراعية) .	00س00آر30هـ
أرض نقاش في مجانة (زراعية) .	00س00آر11هـ
أرض نقاش في مجانة (زراعية) .	00س00آر14هـ
المساحة الإجمالية	00س03آر56هـ

6- أحمد بن حمود بن عبد السلام: ملكية واحدة

المصادر	المساحة
أرض بالمالح (Malah) (زراعية)	65س20آر19هـ

7- ورثة الصغير بن لخضر بن عبد السلام:

المساحة	المصادر
00س75آر09هـ	رومال الونوغي ببحر بوعرييرج زراعية
00س25آر40هـ	أرض المشالقا زراعية بها منزل مهدم تقع في بحر بوعرييرج
00س00آر50هـ	المجموع

8- علي بن عبد السلام : ملكية واحدة

المساحة	المصادر
00س00آر16هـ ¹	أرض مادريال بمحانة

9- أولاد محمد بن بوزيد بن دحمان بن عبد السلام: ثلاث ملكيات

المساحة	المصادر
00س60آر10هـ	أرض الحاويا بالبحيرة
00س00آر05هـ	أرض القاع بالبحيرة
00س50آر15هـ	أرض قريشا في مقدم أولاد ساحل [أولاد سهيل]
00س10آر31هـ	المجموع

10- أحمد بن حمو بن عبد السلام، ومحمد بن حمو بن عبد السلام: ثلاث ملكيات

المساحة	المصادر
00س00آر20هـ	ذراع البير خربة بير خامون بالبحيرة.
00س00آر41هـ	ديردورمان بالبحيرة (زراعية ورعوية).
00س00آر03هـ	منزل مهدم تابع لبحر حمود بالبحيرة.
00س00آر64هـ	المجموع

11- محمد بن دحمان بن عبد السلام الصبايحي في سور الغزلان: شملت المصادر لكل من دحمان بن عبد السلام وعلي بن عبد السلام، أراضي هؤلاء مرهونة من طرف أولاد عبد السلام إلى الصغير بن كبيش وأولاد بلعربي

المساحة	المصادر
00س80آر28هـ	بوكيكس بالبحيرة (زراعية).
00س20آر12هـ	المهالقا بالبحيرة (زراعية).
00س00آر41هـ	المساحة الإجمالية

12- أحمد بن فرحات الصخري بن عبد السلام بن المقراني: ملكيتين

المساحة	المصادر
38س02آر00هـ	منزل بتاسرا [تاسرة].
37س02آر28هـ	رحى عربية ومنزل وأراضي زراعية بعضها يسقة قرب تيسراين [تاسرة] في رأس الواد.
75س04آر28هـ	المجموع

13- الأولاد المنحدرون من بن فرحات محمد بن الصخري بن عبد السلام: شملت المصادر إحدى عشر ملكية

¹ - عند يحي بوعزيز: 00س60آر16هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص146.

المساحة	المصادر
00س75آر03هـ	عين بن إدير في مجانة.
00س93آر05هـ	منيفا ذراع ساقال في الجبايليا [الجبايلية] (زراعية).
00س15آر01هـ	ماحلو بذراع ساقال (زراعية).
00س57آر02هـ	مورمورن بذراع ساقال (زراعية).
00س61آر02هـ	مودفيلا بذراع ساقال في الجبايليا [الجبايلية] (زراعية).
00س73آر04هـ	قلداسم Gueldassem في ذراع ساقال بالجبالييا [الجبايلية] .
00س50آر04هـ	عدو سمطة قرية سمطة Soumta (أولاد المسعود).
00س85آر00هـ	بليريت شعبة سمطة Soumta قرب قرية سمطة.
00س45آر01هـ	عزلة سمطة قرب قرية سمطة Soumta (زراعية).
00س05آر01هـ	بحيرة المشماشة قرب قرية حمزة.
00س92آر01هـ	بحيرة واد بوحمة قرب قرية بوحمة.
00س51آر30هـ	المساحة الاجمالية

14- أحمد بن فرحات بن عبد السلام: بن صخري بن عبد السلام

المساحة	المصادر
00س00آر27هـ	خابا بير خامون بالبحيرة.

15- محمد طاهر بن فرحات بن صخري بن عبد السلام المقراني تاسرة: ملكيتين

المساحة	المصادر
50س03آر00هـ	منزل وثلاث اصطبيلات مخربة.
30س04آر20هـ	أرض على بعد 2 كيلومتر من قرية تاسرا [تاسرة] .
80س07آر20هـ	المساحة الاجمالية

رابعا: الأملاك المصادرة من فرع أولاد قندوز من عائلة أولاد المقران

قرار رقم 377 بتاريخ 23 جويلية عام 1873 المصادر عليه يوم 25 أوت 1873.

1- أحمد بن عبد الرحمن بن قندوز Ben Guendouz المقراني قائد عين الترك¹:

المساحة	المصادر
60س29آر03هـ ²	أرض ذراع الشواش [الشواشي] في بني عيدل قرب تفرق بأولاد خليفة.
00س50آر02هـ	أرض عريف [عريق] Arig بن شهبون في بني عيدل بأولاد خليفة.

¹ - عين الترك: تقع عين الترك شرق برج بوعريش، حيث اتخذت هذه التسمية خلال العهد العثماني، وأثناء الاحتلال الفرنسي بقيت تابعة للمنطقة التي اتخذت اسم دافوست، وبعد استرجاع السيادة الوطنية أخذت المنطقة اسم خليل، نسبة إلى الكرغلي خليل ابن قاصد علي، أنظر:

مزيان وشن: إقليم برج بوعريش عبر العصور، ط1، دار النشر جيتلي، برج بوعريش، الجزائر، 2006م، ص131-132، الجريدة الرسمية، ع67، ص2296.
J.O.R.A.D.P: 23^{ème} Année, n=° 67 , Décret n=°: 84-365 du 1 décembre 1984 fixant la composition, la consistance et les limites territorial des communes), Mercredi 19 décembre 1984, p1556. C.A.O.M: S.A.S Zemmourah 128-129.

² - عند بوعزيز: 00س29آر03هـ، أنظر: موقف العائلات، المرجع السابق، ص140.

أرض تملتاوت [تامطوط] بني عيديل في أولاد خليفة.	80س79آر01هـ
أرض ثادارت [تادارت] قد زيري Gudziri في بني عيديل بأولاد خليفة.	00س07آر02هـ
أرض عريقالي أو عيسى قرب تاويريت في تفرق.	00س60آر04هـ
أرض تاقوريت أو حروش على الضفة اليمنى لشعبة أحريق [حارق] علي أو عيسى قرب تفرق	00س14آر04هـ
أرض متواج في تفرق.	00س33آر03هـ
أرض بالبراج في العناصر (زراعية مسقية).	00س45آر06هـ
أرض الرمل بن النوي في العناصر (زراعية).	00س50آر10هـ
أرض فريا (في حالة خصام) في العناصر.	00س20آر24هـ
المساحة الإجمالية	40س88آر62هـ

2- دحمان بن دحمان بلقندوز: ملكية واحدة

المصادر	المساحة
أرض خربة الزوالي في العناصر (مسقية)	00س80آر05هـ

3- أحمد بن عبد الرحمن بلقندوز (قائد سابق) ودحمان بن قندوز: شملت المصادر ثلاث ملكيات

المصادر	المساحة
أرض وطيان بصنادا على طريق أولاد خلوف.	00س10آر35هـ
أرض زراعية في سنادة ¹	00س30آر11هـ
أرض صنادا [سنادة] الثلاث والعين البيضاء وذراع نويدر وذراع دحمان ومشتة الخروبا يوجد ببعضها بعض القرابة (ج قريي).	00س87آر63هـ ²
المساحة الاجمالية	00س27آر110هـ³

4- الحاج بن أحمد بن محمد قندوز: شملت المصادر ثلاث ملكيات

المصادر	المساحة
أرض رملة بن السماقي في العناصر قبيلة الحشم (زراعية).	00س65آر02هـ
أرض رملة بن نوي في العناصر.	00س70آر04هـ
خربة بن ضياف في العناصر.	00س75آر02هـ
المساحة الاجمالية	00س10آر10هـ

5- محمد بلمسعود بلقندوز وأحمد بن الصغير بلمسعود

المصادر	المساحة
أرض رأس العين والأبراج في العناصر بها منزل وجنان	00س00آر36هـ

6- عبد الرحمن بن قندوز قائد سابق ودحمان بن دحمان بن قندوز والحاج بن أحمد بن محمد بن قندوز: ثلاث ملكيات بالعناصر.

¹ - لم يتم ذكرها عند الدكتور يحي بوعزيز، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص141.

Bulletin officiel, année 1873, p.546.

² - أوردها بوعزيز: 0030س87آر62هـ، أنظر: المرجع نفسه، ص141.

³ - عند بوعزيز: 00س97آر98هـ، أنظر: المرجع نفسه، ص141.

المساحة	المصادر
00س80آر27هـ	مشتة التحتاني بالعناصر
00س30آر402هـ	أرض ذراع اللوفي والجلف وفيض روداب، وحفروود بن غزيل وذراع موسى، وأم طروس، والمسدور، والحمداسيا، ومشتة صايفي، ورطبا [الرطبة] بالعناصر .
00س50آر16هـ	أرض الحمودسيا بالعناصر.
00س60آر446هـ	المساحة الإجمالية

7- محمد بن مسعود بن قندوز: ملكية بالعناصر

المساحة	المصادر
00س70آر10هـ	أرض سعديا بالعناصر (زراعية).

8- أولاد قندوز : أراضي بمجانة وقمور

المساحة	المصادر
00س73آر17هـ	أرض كبيسكوكا [كيكوطا] في مجانة.
00س93آر02هـ	أرض راندوسيا في مجانة.
00س60آر30هـ	أرض مشتة مطاريق وخالو ومشتا بلقرواط [بلغرواط] Bel-Gharouat في مجانة.
00س28آر269هـ	أرض ذراع الجودي، والغوليا ومداريكنارو وعزلة مورسيقيا، ذراع الأبيض ومشتى رديم، وعزلة مستاوا، وماجن والعريس وتيريشا في مجانة.
00س75آر05هـ	أرض بيريسيا قرب عين عين كاستيو بقمور (Guemmour) (زراعية).
00س45آر02هـ	أرض مثلها ¹
00س20آر2790هـ	أرض سممار، وبيرسا [بير عيسى] مالخ (Malah)، وقمور (Guemmour) وفراش في قمور
00س94آر3118هـ ²	المجموع
40س29آر3801هـ ³	المجموع الكلي للأراضي المصادرة من فرع أولاد بلقندوز

خامسا: الأملاك المصادرة من فرع أولاد عبد الرحمن من عائلة المقراني ، قرار رقم 374 بتاريخ 29 جويلية 1873 المصادق عليه يوم 25 أوت 1873

بمقتضى قرار الحاكم العام المنشور في الورقة الرسمية : رقم 426

1- السعيد بن بوداود المقراني القائد السابق لأولاد مدحي أحمد بن عبد الله:

المساحة	المصادر
00س60آر28هـ	شملت المصادر عدة مناطق في مجانة وبرج بوعرييج من بينها المشرع (Mechra) ⁴ (قبيلة الحشم) ¹

¹ - لم يشر إليها يحي بوعزيز؛ أنظر:

Bulletin officiel, année 1873, p.548

² - عند يحي بوعزيز: 00س49آر3116هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص143.

³ - عند يحي بوعزيز: 80س53آر3787هـ، أنظر: نفسه، ص143.

⁴ - ما تزال تابعة لبلدية مجانة بموجب مرسوم 84-365 أنظر:

أرض بوعقوش (Bou-Akouch) للفلاحة بمحانة (قبيلة الحشم) مساحتها.	00س098آر10هـ
أرض مطلع الشمس ² [الشمس] (Matla-samch) للفلاحة بمحانة (قبيلة الحشم)	00س071آر10هـ
أرض فلاحية تسمى بوشوك (Bouchouk) (قبيلة الحشم) .	00س045آر02هـ
أرض مثلها (Bouchouk) (قبيلة الحشم) .	00س048آر03هـ
أرض القبلة (Kabla) للفلاحة بضواحي برج بوعريرج (قبيلة الحشم).	00س005آر13هـ
أرض الضيائية (Diabia) للفلاحة بمحانة (قبيلة الحشم).	00س038آر07هـ ³
أرض فيض الحموس (Feid-El-Hammouss) بمحانة (قبيلة الحشم).	00س065آر04هـ
أرض تيريشت (Tiricht) بمحانة (قبيلة الحشم).	00س011آر89هـ ⁴
أرض جلاط (جلات) (Djelat) بمحانة (قبيلة الحشم).	00س000آر11هـ ⁵
أرض أوطيان (Outian) بصنادا ⁶ ضواحي برج بوعريرج.	00س040آر30هـ
المجموع	00س081آر211هـ ⁷

2- الحاج بوزيد بن عبد الرحمن المقراني : ملكية واحدة

المصادر	المساحة
منزل بقطعتين مع فناء	00س040آر02هـ

3- لخضر بن عبد الرحمن المقراني القائد السابق لبني عيذل: شملت الملكيات المصادرة 20 ملكية، في محانة وبني عيذل

المصادر	المساحة
منزل مع فناء بمساحة	00س086آر01هـ ⁸
أرض تسمى برازا (Braza).	00س060آر138هـ
أرض تافيسست برازا.	00س038آر172هـ
أرض بلاد عبيسري.	00س025آر89هـ
أرض مزاقرو.	00س050آر45هـ
أرض مزاقرو .	00س050آر24هـ
أرض تازروت (Tazerout).	00س050آر78هـ
أرض أحرئق (Ahreik).	00س040آر75هـ
أرض واتسروم.	00س040آر70هـ

¹ - الحشم أو هاشم: تشمل مساحتها 77173 هكتار، كانت قبيلة هاشم تشمل البطون التالية سيدي مبارك، سنادة، العناصر، محانة، سدراتة (أولاد بوناب، أو أولاد علي بوناب)، قمر، تاسرة، عين تاغروت، برج بوعريرج، عين السلطان، جعفة وقيسالي، وقد ضمت هذه البطون إلى الاقليم المدني بموجب مرسوم صادر بتاريخ 24 ديسمبر 1870م، أنظر بالتفصيل: ف . أكاردو: المصدر السابق، (مزدوج اللغة 448 صفحة بالعربية، 86 صفحة بالفرنسية).

² - جرت العادة على تسمية الشمس: شمس.

³ - أورد يحي بوعزيز: 00س028آر07هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص116، في حين وجدناها في المنشورات الرسمية: 00س038آر07هـ.

⁴ - أورد بوعزيز: 00س071آر89هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص116، في حين وجدناها في المنشورات الرسمية: 00س011آر89هـ.

⁵ - أورد بوعزيز: 00س011آر11هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص116، في حين وجدناها في المنشورات الرسمية: 00س0100آر11هـ.

⁶ - في الجريدة الرسمية "سنادة" بالسين والتاء المربوطة، أنظر: الجريدة الرسمية الجزائرية، ع67، ص2297.

⁷ - عند بوعزيز: 00س049آر206هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص116.

⁸ - عند بوعزيز: 00س086آر04هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع نفسه، ص116.

00س00آر370هـ	أرض فلاحية تدعى عزلة المقارين ¹ (M'guerine)
00س25آر04هـ	أرض فلاحية تسمى مشنة أولاد عشير (بها حديقة صغيرة مغروسة فيها 18 شجرة فاكهة.
00س53آر00هـ	أرض فلاحية تسمى عزلة رأس العين بها ثلاث سكنات (قريي).
00س20آر02هـ	أرض فلاحية تسمى دار سمالة.
00س10آر04هـ	أرض فلاحية جُرام.
00س45آر11هـ	أرض فلاحية تسمى البير.
00س50آر04هـ	أرض فلاحية تسمى الماجن (El-Madjen).
00س27آر24هـ	أرض فلاحية تسمى الوضاية (Oudaia).
00س20آر14هـ	أرض فلاحية تسمى ذيل السبع (Dil-Sbaa) .
00س94آر10هـ	أرض فلاحية تسمى كركر (قرقر) (Kerker) .
00س80آر08هـ	أرض فلاحية تسمى بير بن شريط.
00س93آر1046هـ	المجموع

4- فرع أولاد عبد الرحمن: شملت الملكيات المصادرة 20 ملكية ،في مجانة والبرج بمساحة إجمالية

المساحة	المصادرات
00س00آر146هـ	أرض رأس الخنق لإدير وادير ثنية البهرا للفلاحة شاسعة بالبرج.
00س00آر554هـ	منزل وحديقة وأرض للحراثة وبراري للرعي تسمى قيسامي [القساسي] Guissassi
00س65آر98هـ	أرض الكواج في عين الذيب بالشوف القبلي موزعة على ثلاثة أقسام.
00س70آر08هـ	أرض خربة لشبور بأولاد عجل.
00س00آر16هـ	أرض مرتوم الخروي للفلاحة بأولاد عجل بها منزل مخرب.
00س36آر08هـ	أرض مرتوم الخروي ²
00س72آر06هـ	أرض لشبور بأولاد عجل (زراعية مسقية).
00س23آر03هـ	أرض لشبور بأولاد عجل .
00س30آر16هـ	أرض بودغاجم بالخروبة زراعية بها منزل من سبعة غرف .
00س20آر36هـ	أرض مكامرا [مقامرة] بأولاد عجل (زراعية) .
00س85آر275هـ	أرض عين طار [طارة] وبيجيريد ودمنة، البريال وسيد دوخان في الخروبة .
00س00آر42هـ	أرض معلقا وذراع أويدير بالخروبة.
00س30آر178هـ	أرض متلازمش، وقبور Guebour، ويودي، وقيريا وبلجا وبيشو بمجانة .
00س18آر150هـ	أرض تويت الحامل، وبئر بن شليح وأجديت بن عزيز ولونيت وذراع مجانة .
00س55آر79هـ	أرض بيسكيا، بئر بن سي رابح بمجانة (زراعية ورعوية).
00س36آر243هـ	أرض مشنة ليوز ولربات وبقوال والكحلا ومابويا بمجانة ويوجد بالقطعة الأولى ثمانية منازل مخربة
25س82آر03هـ	أرض زعورا بصنادا (زراعية).

¹ - عزلة المقارين: المقارين في العامة المحلية تطلق على المجانين، كما تطلق على سرعي الغضب.

² - لم يذكرها يحي بوعزيز، أنظر:

أرض تيفيزانت بصنادا (زراعية).	00س40آر26هـ
أرض حمونيا عديد سقفيا خربة توتها مناسليب [مناصليح] عود زائينا مودريس [مودرياس] الرمل بالبرج.	00س70آر174هـ
أرض سيد سوليت بالبرج زراعية مسقية بها رحا عربية مخربة.	00س60آر43هـ
المجموع	25س92آر2111هـ
المجموع الكلي للأراضي المصادرة من فرع أولاد عبد الرحمن	25س06آر3373 ¹ هـ

سادسا: الأملاك المصادرة من أسرة أولاد بورنان قبيلة هاشم (الحشم) دائرة برج بوعرييج،

قرار رقم 376 بتاريخ 29 جويلية عام 1873 المصادق عليه في 25 أوت عام 1873.

مجموع الأراضي المصادرة من فرع أولاد بورنان: 79س60آر1883هـ²، كالاتي:

1- الصغير بورنان الحاج المقراني قائد المعاضيد: شملت الملكيات المصادرة 09 ملكيات، في زمورة، العناصر، بومرقد

المساحة	المصادرات
41س03آر00هـ	منزل به وساحة في بني عباس.
00س70آر25هـ	أرض الداير في زمورة (غير مسقية) .
00س30آر05هـ	أرض مسعود [معاود] الشويحة قبيلة زمورة (غير مسقية) .
00س74آر13هـ	أرض ملاح ³ .
00س30آر12هـ	أرض بومرقد Boumergued في عود التويزا بالعنصر [العناصر] .
00س50آر03هـ	أرض بومرقد في كركر بالعنصر [العناصر] .
00س30آر21هـ	أرض الحسبة في العناصر قبيلة الحشم ⁴ .
00س00آر11هـ	أرض بومرقد في عود تويزا بالعنصر [العناصر] .
00س20آر12هـ	أرض بومرقد في عود التويزا بالعنصر [العناصر] .
00س46آر68هـ	أرض دراع الشريف في مجانة.
41س53آر173 ⁵ هـ	المساحة الإجمالية

2- علي بورنان المقراني قائد أولاد خلوف: شملت الملكيات المصادرة 18 ملكية، في أولاد ثاير، العناصر، بومرقد

المساحة	المصادرات
00س44آر03هـ	منزل من أربعة غرف وساحة في بني عباس.
00س00آر95هـ	أرض مويث طرجما بأولاد ثاير (فلاحية) .
00س50آر05هـ	أرض عربا طليلا في أولاد ثاير (رعوية) .

¹ - عند يحي بوعزيز: 25س75آر3471هـ. أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص119.

² - عند يحي بوعزيز: 67س70آر1906هـ، المرجع نفسه.

³ - لم يذكرها بوعزيز: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص135. أنظر:

Bulletin officiel, année 1873, p.540.

⁴ - لم يتم ذكرها عند يحي بوعزيز، أنظر:

Bulletin officiel, année 1873, p.540.

⁵ - عند بوعزيز: 41س49آر138هـ، أنظر: موقف العائلات، المرجع نفسه، ص135.

76س04آر00 ¹	أرض منزل مهدم في البرج.
00س00آر08هـ	أرض للحرث في البرج.
00س90آر12هـ ²	أرض زراعية في البرج.
00س00آر67هـ	أرض حوض العياشي [العيادي] بواد عجيل [عجل] (فلاحية) .
00س85آر04هـ	أرض أهمل سقيا [الساقية] Seguia بواد عجيل [عجل] (زراعية مسقية) .
00س71آر04هـ	أرض طبا [الرطبة] بسيدي موسى .
00س20آر19هـ	أرض رمل متاعلي بورنان بالعنصر [العناصر] .
00س60آر06هـ	أرض العين البيضاء (بومرقد) بالعنصر [العناصر] .
00س70آر11هـ	أرض مول عطيفيا بالعنصر [العناصر] .
00س90آر55هـ	أرض لعود في مجانة .
00س50آر10هـ	خوض بالحوشن [حوض بلحوسين] في مجانة .
00س25آر06هـ	أرض كركر بعين السلطان (زراعية) .
00س75آر05هـ	أرض العود في عين السلطان .
00س30آر08هـ	أرض المرجا في عين السلطان .
00س75آر18هـ	أرض رومال الواناغي [الوونغي] ببرج بومرقد .
76س39آر344هـ ³	المساحة الإجمالية

3- حمو بن بورنان قائد مزينة [مزينة] سابقا: شملت الملكيات المصادرة 03 ملكيات

المساحة	المصادر
75س25آر11هـ	أرض مالخ في المالخ (Malah).
00س50آر26هـ ⁴	أرض خنقة المالخ (Malah) بالبحيرا
80س03آر00هـ	منزل مهدم يتألف من غرفتين وساحة بالبحيرا ⁵
55س79آر37هـ	المساحة الإجمالية

4- الصغير بن بورنان قائد المعاضيد: شملت الملكيات المصادرة ملكيتين

المساحة	المصادر
00س60آر12هـ	أرض الجوا بالبحيرا.
00س50آر36هـ	أرض محجوبا بالبحيرا.
00س10آر49هـ	المساحة الإجمالية

5- الصغير بن بورنان قائد المعاضيد: شملت أراضي واقعة بالبرج ومجانة

¹ - عند بوعزيز: 76س04آر00هـ، المرجع نفسه، ص135.

² - عند بوعزيز: 00س90آر42هـ، المرجع نفسه، ص135.

³ - عند بوعزيز: 00س39آر374هـ، المرجع نفسه، ص136.

⁴ - عند بوعزيز: 75س50آر26هـ، المرجع نفسه، ص136.

⁵ - ذكر بوعزيز مساحة 80س03آر00هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص136، في حين نلاحظ أنه في المنشورات الرسمية قد تم تأخيرها أو أن هناك بعض الخلط في الترتيب، أنظر :

المساحة	المصادر
80س03آر00هـ	منزل مخرب متكون من غرفتين وفناء ببرج بوعريرج ¹ .
00س23آر16هـ	أرض ثنية ساعد في البرج.
00س47آر11هـ	أرض سير عمر في مجانة.
00س01آر04هـ	أرض هاجر [حجر] الحادل في مجانة.
00س83آر23هـ	ثنية العمر [الثنية العامة]، وخربة رحا [الرحي] في مجانة.
80س57آر55هـ ²	المساحة الإجمالية

6- حمو، والصغير بورنان: شملت منطقتين في الماجن وبورنان

المساحة	المصادر
00س64آر02هـ	أرض الماجن في مجانة .
00س16آر02هـ	أرض بورنان في مجانة .
00س80آر04هـ	المساحة الاجمالية

7- مسعود بلحاج بن بوزيد بورنان: شملت الأراضي المصادرة 13 عشر ملكية، في المناطق المسماة ب لشبور، شوف عزيز بئر بن رشيد أرض المشتة أوخربة أرض السمارا كلها بالعناصر وأرض البير، أرض سي بن جعفر وموجل وفيض بوروم وأم الكارطا وبير بن الزواوي ومو حجار أرض عين شعبة الرحي بمجانة:

المساحة	المصادر
00س88آر00هـ	أرض لشبور في العناصر .
00س00آر01هـ ³	أرض سوف [شوف] عزيز في العناصر.
00س25آر03هـ	أرض مجالقا في العناصر .
00س45آر60هـ	أرض بئر بن رشيد [راشد] في العناصر (زراعية) .
00س00آر11هـ	أرض مثلها في العناصر (زراعية) .
00س70آر55هـ	أرض مثلها في العناصر (زراعية) .
00س10آر03هـ	أرض المشتة أو خربا في العناصر بعضها مسقي.
00س70آر06هـ	أرض سمارا في العناصر .
00س22آر02هـ	أرض الجلف في العناصر .
00س05آر07هـ	أرض البير في مجانة .
00س46آر23هـ	أرض سي بن جعفر وموجل وفيض بوروم وأم الكارطا وبئر بن زواوي ومو حجار بمجانة .
00س80آر13هـ	أرض عين شعبة الرحا في مجانة .
00س78آر12هـ	أرض المجو في صنادا [سنادة] .

¹ - لم يتم ذكره عند يحي بوعزيز، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص137.

² - عند بوعزيز: 00س54آر55هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع نفسه، ص137.

³ - عند بوعزيز: 00س00آر04هـ أنظر: المرجع نفسه، ص137.

المساحة الاجمالية	00س39آر201هـ ¹

8- لخضر بن الصغير بلباي بورنان الونوغي: شملت المصادر خمس ملكيات

المصادر	المساحة
أرض للحراثة في البرج .	16س26آر09هـ
أرض خادلا في البرج .	00س26آر13هـ
أرض دير العسفان في العناصر .	00س80آر09هـ
أرض مرجل (مرج) الأوسط في البرج.	00س50آر10هـ
عزلة بلباي (برج سيدي موسى) [سيدي بتقة] .	00س30آر12هـ
المجموع	16س12آر55هـ ²

9- عبد الله بن ديش بلباي ومحمد بن بوزيد بلباي ولخضر بن الصغير بلباي ومحمد بوزيد بلباي

المصادر	المساحة
فيض عمارا في برج سيدي بتقة.	00س30آر08هـ ³
الماجن بن عبد الجليل في برج سيدي بتقة.	00س70آر09هـ
حديقة عين تاقبوش بالجباليا للخضر جديدا [جبالية] .	00س21آر00هـ ⁴
المجموع	00س21آر18هـ ⁵

10- الحاج محمد بن علي بورنان: شملت المصادر ملكيتين، الأولى منزل متكون من غرفتين على أرض بن عبد الله باشاردا

المصادر	المساحة
أرض حوض بن نشدم والساقية في عين السلطان (زراعية).	96س80آر32هـ

11- محمد بن الحاسي بورنان المقراني: شملت المصادر ملكيتين

المصادر	المساحة
أرض فيض الدكن وستيريترا والبير في عين السلطان.	95س78آر16هـ ⁶
أرض تسمى فيض الدكن	95س23آر16هـ
أرض برواقيا في عين السلطان.	25س05آر09هـ
المجموع	15س08آر42هـ ⁷

12- مسعود بلحاج بن الحفصي بورنان المقراني:

المصادر	المساحة
أرض الزلازل في الخروبة	00س20آر39هـ

¹ - عند بوعزيز: 00س39آر204هـ، أنظر: المرجع نفسه، ص137.

² - عند بوعزيز: 16س12آر51هـ، أنظر: المرجع نفسه، ص138.

³ - عند بوعزيز: 00س37آر08هـ، أنظر: المرجع نفسه، ص138.

⁴ - عند بوعزيز: 00س00آر21هـ، يحي بوعزيز: المرجع نفسه، ص138.

⁵ - عند بوعزيز: 00س07آر39هـ، المرجع نفسه، ص138.

⁶ - عند بوعزيز: 65س23آر16هـ، المرجع نفسه، ص138.

⁷ - عند بوعزيز: 90س28آر25هـ، المرجع نفسه، ص139.

13- الحاج بن محمد بن بورنان (متوفي): شملت المصادرات على سبع ملكيات

المساحة	المصادرات
00س089آر10هـ	أرض بوحامد وبطبا بمجانة زراعية ورعوية.
00س26آر04هـ ¹	بوحامد الطاطاوي بمجانة
00س35آر07هـ ²	أرض كحلا بمجانة.
00س81آر08هـ	أرض عين الشوى ومعيوبا بمجانة.
00س93آر10هـ	عراوات بمجانة.
00س83آر00هـ	أرض الماجن بمجانة.
00س27آر46هـ	فيض العتروس بصنادا [سنادة] .
00س34آر89هـ	المجموع

14- بورنان بن الصخري بوقزولة : شملت المصادرات أربع أراضي

المساحة	المصادرات
00س75آر00هـ	أرض العصبا بعين السلطان، رعوية.
00س80آر01هـ	كركر، يعين السلطان زراعية.
00س95آر00هـ	بلجيك، بعين السلطان.
00س75آر11هـ	أرض العود [العاود] بعين السلطان.
00س25آر15هـ	المجموع

15- أولاد بورنان الونوغي:

المساحة	المصادرات
00س00آر725هـ ³	أرض بليمور، بقمور زراعية ورعوية

خاتمة:

يتضح من خلال ما تم إدراجه من أرقام؛ المساحة الكبيرة من الأراضي التي تمت مصادرتها من العائلة المقرانية، وقد اختلفت درجة الضرر جراء المصادرات حسب حجم الأراضي التي يمتلكها كل فرع من الفروع الستة للعائلة المقرانية، فقد قاربت مساحة الأراضي المصادرة لفرع أولاد الحاج السبعة آلاف هكتار، أما فرع أولاد بورنان فكانت المساحة المصادرة حوالي ألف وتسعمائة هكتار، وهو الفرع الذي لا يمتلك إقطاعات وعقارات كبيرة مقارنة بالفروع الأخرى، ومما يمكن استنتاجه أن الإدارة الفرنسية استغلت ثورة 1871 لتحطيم العائلة المقرانية وسلب ممتلكاتها وامتيازاتها ونفوذها بالمنطقة، بل وقامت بنفي الشخصيات البارزة والنافذة فيها إلى كاليدونيا الجديدة حتى لا تترك أي مجال لإعادة تنظيم ثورة آخر.

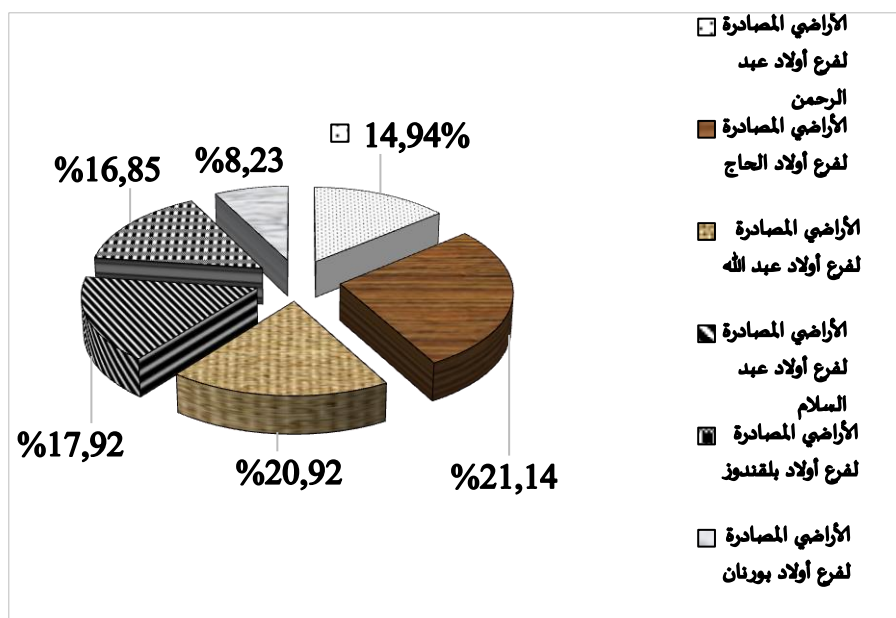
¹ - عند بوعزيز: 00س46آر04هـ، المرجع نفسه، ص139.

² - عند بوعزيز: 00س26آر07هـ، المرجع نفسه، ص139.

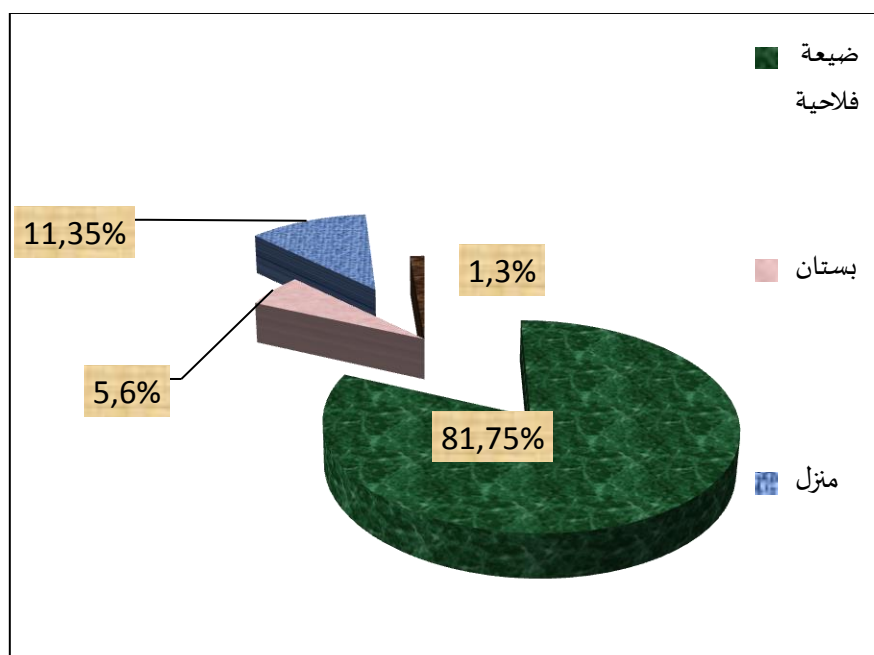
³ - عند بوعزيز: 00س00آر750هـ، أنظر: مواقف العائلات، المرجع السابق، ص140.

الملاحق

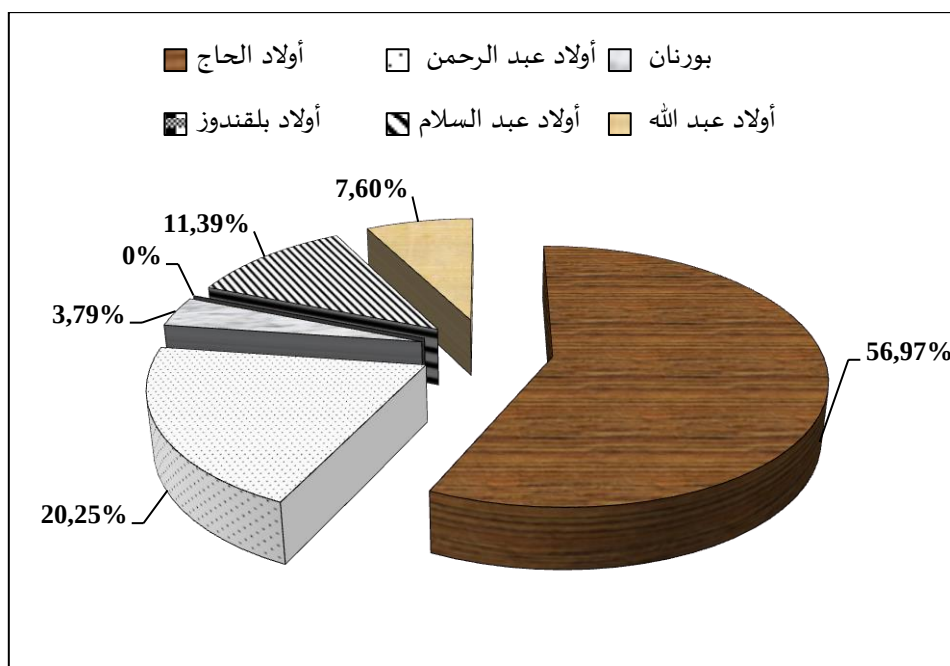
ملحق رقم 01: الأملاك المصادرة للعائلة المقارنة بفروعها



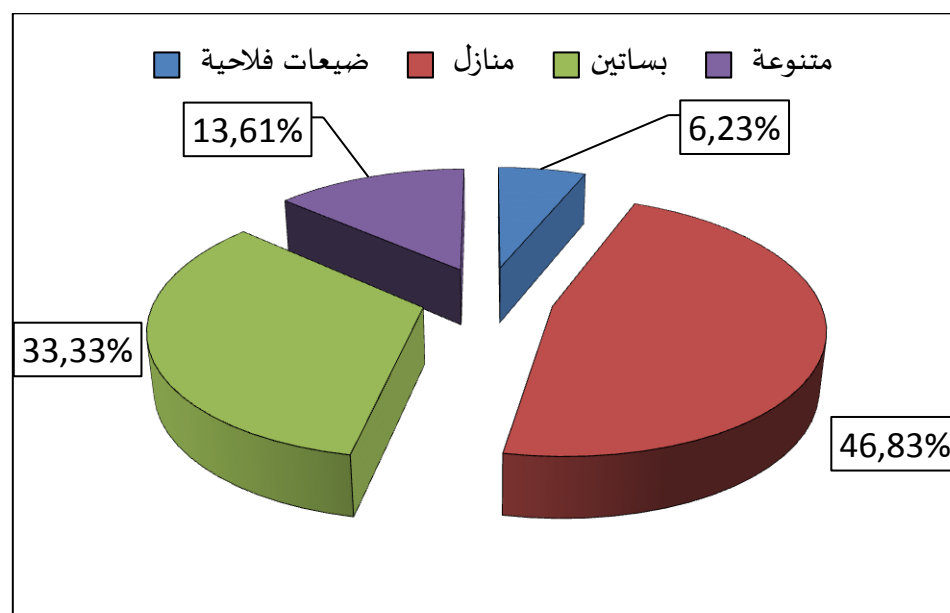
ملحق رقم 02: تصنيف الممتلكات المقارنة



ملحق رقم 03: المنازل المصادرة لفروع العائلة المقرانية



ملحق رقم 04: نسبة أملاك الباشاغا المصادرة من المجموع الكلي لمصادرات العائلة



التهجير القسري الداخلي للقبائل المساندة لثورة المقراني 1871م

- قبائل الحشم بمجانة أنموذجاً -

محمد محمدي - جامعة المسيلة

انتهجت سلطة الاحتلال الفرنسي في الجزائر سياسة ترمي إلى إلغاء الذات الجزائرية كياناً وهوية، والبحث في المقابل عن سبل السيطرة على ممتلكاتها ومقدراتها بكل الطرق والوسائل الممكنة لذلك، وسعيًا إلى تجسيد الأهداف المسطرة واقعاً عملياً في الممارسة الاستعمارية لجنود الاحتلال وقادته من السياسيين والعسكريين، فقد سلك هذا الأخير في معاملته للسكان الأصليين من الجزائريين والجزائريات، أساليباً مختلفة ومتعددة من أشكال الإبادة والقمع والتعذيب والمصادرة للأموال والحريات.

في ظل هذه الأنماط والتجاوزات التي كرسها السلطة الاستعمارية مع الجزائريين، بالتزامن مع عمليات التوغل التي نظمتها إدارة الاحتلال للسيطرة على السكان المدنيين في كامل أنحاء البلاد، ورداً على السياسة العنصرية المعتمدة في معاملة الساكنة الأصليين للبلاد، فقد انتظم الجزائريون في مقاومات شعبية مسلحة دفعاً للقمع الاستعماري، ودرءاً للممارسات التعسفية التي استهدفت حرياتهم وممتلكاتهم وحتى في عائلاتهم من لدن العسكريين الفرنسيين والمستوطنين الأوربيين على حد سواء¹، وقد تباينت المقاومات المسلحة مكاناً وزماناً، لكنها لم تختلف في كونها موجهة ضد النظام الاستعماري بالبلاد.

من بين الثورات التي هزت أركان السلطات الفرنسية في الجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثورة المقراني 1871م، التي وبالرغم من إطارها الزمني القصير، إلا أنها شملت مناطق مختلفة ومتعددة مما جعل قبائل كثيرة تنظم إليها للكفاح تحت لوائها، وتعد قبائل الحشم بمجانة أهم القبائل المساندة لهذه الثورة، الأمر الذي جعلها محوراً لسياسة التهجير الاستعمارية، فكان تهجير قبائل الحشم وقبائل أخرى كثيرة²، أحد أبرز الأساليب التي وظفتها الإدارة الفرنسية لاجتثاث الثورة ومعاقبة الثوار، ونفي قادتها وزعمائها نحو مناطق بعيدة تابعة للمستعمرة الفرنسية.

بناء على ذلك، نحاول من خلال هذه الدراسة الوقوف عند مسألة تهجير قبائل الحشم من إقليم مجانة إلى منطقة الحضنة، ضمن السياسة الاستعمارية الهادفة للقضاء على ثورة المقراني 1871م ومعاقبة المساندين لها من مختلف القبائل الجزائرية القريبة، من خلال الإجابة على التساؤلات الفرعية الآتية:

ما مفهوم التهجير وما هي أهم أشكاله؟، ما معالم خارطة استقرار قبائل الحشم بإقليم برج بوعريج؟، وما هي حيثيات التهجير القسري لقبائل الحشم من مجانة إلى منطقة الحضنة؟ وإلى أي مدى انعكست سياسة التهجير على القبائل المهجرة والمهجّرة إلى مواطنها؟.

¹ - الصديق تاوغي: المبعدون إلى كاليدونيا الجديدة (مأساة هوية منفية)، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2007م، ص42.

² - من بين القبائل الجزائرية التي تعرضت لنفس أسلوب التهجير القسري الداخلي الذي استخدم ضد ثورة المقراني 1871م، من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية كإجراء عقابي لها بسبب وقوفها في وجه الأطماع والتوسعات العسكرية للاحتلال عبر أشكال مختلفة من الثورات والمقاومات المتباعدة في الزمان والمكان، نجد "قبائل أولاد بوزيد (البوازيد)" الذين أعلنوا ثورتهم ضد الفرنسيين بواحة العمري في منطقة الزيبان سنة 1876م، حيث انتهت الثورة بعد استشهاد قائدها "محمد يحيى" في 11 أبريل 1876م، لتقدم السلطات الفرنسية بعد ذلك على التهجير الكلي لسكان القبيلة عقاباً لهم على الثورة المعلنة ضد النظام القائم في البلاد، وفي ذلك ورد ما يلي: "... لقد قام الجنرال "كارتييري" بتخريب الواحة وهدم دورها...، وصادر أملاك السكان ونفى الكثير منهم من بينهم أحمد بن عايش، وأجبر الآخرين على الهجرة إلى مناطق أخرى، بالإضافة إلى الغرامم الباهضة التي فرضت عليهم، والتي قدرت بـ: 192.200 فرنك وصادرت 492 بندقية"؛ للاستزادة ينظر. صالح بن النيبلي فركوس: تاريخ جهاد الأمة الجزائرية للاحتلال الفرنسي المقاومة المسلحة 1830-1962م، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص255-256.

1- مفهوم التهجير وأهم أشكاله

1-1 مفهوم التهجير:

من الفعل الثلاثي "هَجَرَ"، "يُهَجِّرُ"، "هَجَّرَ"، والهجرة في اللغة هي خروج الشخص من أرض إلى أرض أخرى من أجل الاستقرار بها¹، فالمهاجر هو كل شخص فارق بلده أو موطنه الأصلي من أجل الإقامة والاستقرار في بلد آخر غير بلده²، فكان لعملية انتقال الفرد من مكان إلى مكان سبباً مباشراً لوصف هذا الشخص بالإنسان المهاجر، وذلك بغض النظر عن المدة الزمنية التي أقامها هذا الشخص في البلد المهجر إليه قصيرة كانت أم طويلة.

أما عملية التهجير فهي إجبار الشخص على الانتقال قسراً من منطقة إلى أخرى أو من بلد إلى آخر، وغالباً ما يكون التهجير اضطرارياً (غير اختياري) وهو ما دل عليه لفظ القسرية، ويمكن أن يكون التهجير القسري فردياً أو جماعياً، كما يؤدي التهجير إلى التغيير الاضطراري لمكان الإقامة إما بصفة مؤقتة أو دائمة³، وعادةً ما يكون التهجير القسري لأسباب متباينة، قد تكون أسباباً: طبيعية أو اقتصادية أو سياسية أو دينية...، ويشير الدارسون أن الهدف الأساسي من التهجير إنما يهدف في كثير من الحالات إلى إخلاء مناطق سكانية ذات أهمية استراتيجية أو عسكرية، مع العمل على توطين مجموعات بشرية أو سكانية كبديل وتعويض عن تلك التي هجرت قسراً⁴، وهنا يكون إبعاد السكان الأصليين من أراضيهم إلى مناطق أخرى إما بداخل حدود الدولة أو خارجها، ويتم ذلك عادةً بالطرد والتهجير المباشر أو بأي عمل آخر يهدف إلى تحقيق نفس النتيجة كالتجويع والمصادرة للأموال وسلب الأراضي...⁵.

1-2 أشكال التهجير

تعددت وتباينت أشكال التهجير القسري الذي استهدف الجزائريين من قبل الاحتلال الفرنسي، بعد أن تمكن من غزو البلاد واستباحة أعراسها وممتلكاتها، وذلك ما تعرض له زعماء المقاومات الشعبية المسلحة والقبائل المساندة لها، ويمكن تقسيم التهجير الذي طال أطراف ثورة الشيخ المقراني 1871م والقبائل المساندة والمساعدة لها، إلى نوعين رئيسيين هما: تهجير قسري خارجي وتهجير قسري داخلي⁶.

✓ **التهجير القسري الخارجي:** هو الطرد القهري، أو التهجير اللاإرادي للسكان الأصليين من أراضيهم ووطنهم إلى وطن آخر غير وطنهم الأم⁷، وهو ما حصل مع عائلة المقراني وعديد القبائل المساندة لها في ثورتها ضد النظام الاستعماري، والذين هجرت أعداد كبيرة منهم إلى "نومية Nouméa"⁸ عاصمة دولة "كاليدونيا الجديدة"⁹، تلك الجزيرة المستعمرة من الفرنسيين بالمحيط الهادي¹ التي تبعد عن الجزائر بما يزيد عن 22000 كلم².

¹ - موسى لوصيف: الهجرة الجزائرية نحو المغرب الأقصى ودورها في الثورة التحريرية 1954-1962م، رسالة ماجستير، جامعة أدرار، 2013، ص11.

² - محمد كراغل: (الهجرة القسرية إلى تونس أثناء الثورة 1955-1962م)، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، ع11، م05، الجزائر، 2017، ص247.

³ - نور الدين ثنيو: هجرة الجزائريين إلى المشرق العربي بين السياسة والدين، الملتقى الوطني الأول حول سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي والحاضر، مخبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية التاريخية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2008م، ص96.

⁴ - مزيان وشن: (سياسة الهجرة والتهجير أسلوب استعماري في الجزائر)، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، ع06، م03، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، د.ت، ص141.

⁵ - مصطفى قروج: (جريمة التهجير القسري في القانون الدولي الانساني)، مجلة الحقوق والعلوم السياسية، ع14، جامعة عمار ثلجي الأغواط، الجزائر، جوان 2017م، ص171.

⁶ - ياسين حمودة: (الهجرة الجزائرية نحو فرنسا الدوافع والمراحل 1914-1962م)، مجلة دراسات، ع07، م04، جامعة قسنطينة 02، الجزائر، 2018م، ص54.

⁷ - محمد كراغل: المرجع السابق، ص294.

⁸ - وردت تسمية عاصمة دولة "كاليدونيا الجديدة" في دراسة موازية باسم "نميه" أما باللغة الفرنسية Nouméa ينظر. العياشي رواحي: الإدارة الاستعمارية وعلاقتها بالعائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة 1837-1871م، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ والآثار، جامعة قسنطينة 02، 2015م، ص377.

⁹ - بشير فايد: (قادة ثورة المقراني والحداد أمام محكمة الجنايات بقسنطينة سنة 1872م)، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، ع12، م05، الجزائر، 2017م، ص160.

✓ **التهجير القسري الداخلي:** أما ما تعلق بالتهجير القسري الداخلي، فهو ذلك التهجير والطرْد للسكان من مواطن استقرارهم الأصلية، لكن الوجهة في هذه الحالة لن تكون سوى داخل البلد الواحد، أي أن التهجير هنا يكون من منطقة إلى أخرى داخل نفس البلد³، وهناك من أطلق على هذا الصنف من التهجير اسم "النزوح"⁴، كما أضاف الدارسون أن المهجّر في هذه الحالة عادة ما يتوجه إلى منطقة أخرى، تكون في أغلب الحالات من نفس عادات وتقاليد وأعراف المنطقة المهجر منها⁵، وهو ما حصل مع قبائل الحشم الذين هجروا قسراً من مواطن استقرارهم بإقليم بجاية إلى جنوب منطقة الحضنة حيث تم توطينهم في أراض أخرى بعد أن تم تهجير سكانها نحو وجهات مختلفة أيضاً.⁶

2- قبائل الحشم: أصولها ومواطن استقرارها في إقليم برج بوعريّيج

1-2 أصول قبائل الحشم: تشير الدراسات اللغوية إلى أن مصطلح الحشم هو كلمة عربية أصيلة مشتقة من الحشمة بكسر الحاء وتعني "الحياء"، في حين أشار بعض الباحثين إلى أنها تعني الغضب، وذلك بناء على ما ورد في الرواية من أن "أحشام" الرجل هم: "أقربائه ممن يغضب لهم أو لأجلهم"⁷، أما ما تعلق بالمفهوم الاصطلاحي فهي قبائل يعود نسبها إلى العرب الأشراف، مما جعل منها محل حظوة واحترام وتبجيل، أينما حلت أو ارتحلت في مختلف أنحاء القطر الجزائري إبان المرحلة العثمانية 1518-1830م⁸، وهناك من رجح أن أصولهم تعود إلى "سهل غريس" بمنطقة معسكر، والتي ذكر أن رحلتهم منها كانت انطلاقاً نحو الجهة الشرقية من البلاد، بعد الانقسام الذي حل بهذه القبيلة وتفككت على إثره إلى فرقتين كبيرتين؛ هما: الحشم الغرابة (غرب البلاد) والحشم الشراقة (شرق البلاد)⁸، هذه الأخيرة التي يُرجح أن قبائل الحشم المقيمة بإقليم بجاية تعد أحد فروعها الرئيسية بالجهة الشرقية من البلاد.

شجعت الخصال التي عرفت بها قبائل الحشم -من كرم وجود وشجاعة وبأس- الشيخ أحمد المقراني لا يتردد في استقدام أعداد كبيرة منهم إلى إقليم بجاية ببرج بوعريّيج في حدود سنة 1563م⁹، على أمل أن يُكوّن منهم جنوداً وعسكريين أقوياء يساعدونه على توسيع نفوذه في المنطقة، وكذلك في بسط سلطانه على القبائل¹⁰ المتاخمة لحدود المناطق التابعة لعائلته¹¹، سيما بعد أن أظهر جنود قبائل الحشم قدرة خارقة في القتال، وحنكة كبيرة في تسيير المعارك العسكرية والمواجهات الحربية ضد قوى الأعداء، وهو ما ثبت من خلال مشاركتهم في التصدي للقوى العسكرية الإسبانية، إلى جانب "الحسن بن خير الدين بربروس" (1517-1570م) في مواجهته للمسيحيين الإسبان على سواحل الجهة الغربية من البلاد (وهران)، حيث كان لدورهم الحاسم في معركة "الحسن بن خير الدين" ضد القوى الحربية المسيحية، السبب المباشر في الاستعانة بهم من قبل الشيخ أحمد المقراني من أجل تشكيل فرقة خاصة من

¹ - كمال بن صحرابي: (التهجير القسري إلى كاليديونيا الجديدة - جدلية حق العودة وتعت الإدارة الاستعمارية قراءة في بعض الوثائق الأرشيفية -)، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع12، جامعة معسكر، 2017م، ص53.

² - الصديق تاوغي: المرجع السابق، ص23.

³ - عمار هلال: الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام 1847-1918، دار هومه، الجزائر، 2007م، ص17.

⁴ - محمد كراغل: المرجع السابق، ص294.

⁵ - ياسين حمودة: المرجع السابق، ص54.

⁶ - كمال بيرم: الكفاح السياسي بإقليم المسيلة 1900-1954، دار الكوثر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص27.

⁷ - أمين كرطالي: (من المعارك المنسية ضد الاحتلال الفرنسي - معركة سيدي قدور الدي بوهراّن سنة 1833م -)، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، ع01، م02، الجزائر، 2019م، ص407.

⁸ - أمين كرطالي: المرجع السابق، ص407.

⁹ - كمال بيرم: من تاريخ حواضر الشرق القسنطيني (الحضنة أنموذجاً)، ط1، دار الأوطان، الجزائر، 2015م، ص183.

¹⁰ - عبد الحميد بودرواز: قلعة بني عباس ببجاية 16م-19م دراسة أثرية نموذجية، رسالة ماجستير، معهد الآثار، جامعة الجزائر 02، الجزائر، 2011م، ص36.

¹¹ - صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1541-1830، ط2، دار هومه، الجزائر، 2007م، ص75.

الحرس العسكري الخاص بالعائلة¹، والذي كان الهدف الأساسي لإنشائه في بداية الأمر ينحصر في مشاركة العائلة وشيوخها مطاحهم في النفوذ والتوسع.

أدرك الحكام العثمانيون في الجزائر أن نقص تعدادهم العسكري في المناطق البعيدة عن مقر دار السلطان، لن يتم تجاوزه إلا بالاعتماد على الجنود والعسكريين المحليين، بمساعدة شيوخها، وكل ذلك من أجل فرض هيبة الدولة وبسط سلطانها في مناطق عديدة من البلاد، وقد برز دور عائلة المقراني وقبائل الحشم في تحقيق الأمن وحماية الطرق والقوافل التجارية وتأمين القلاع العسكرية، من خلال دورهم في تأمين الطريق الرابط بين بايلك الشرق (قسنطينة) ودار السلطان (الجزائر العاصمة)، وبخاصة في مقطعه الشهير بمنطقة برج بوعريرج المعروف بمقطع "البيان Biban" أو "أبواب الحديد Portes de fer"²، والذي كان لقبائل الحشم وعائلة المقراني على الخصوص دور كبير في حماية وتأمين مسالكه ذات الطابع الجبلي والصخري الوعر، الأمر الذي جعل منها منطقة استقطاب للصوص وقطاع الطرق وبعض القبائل المناهضة لسياسة الحكام العثمانيين في البلاد.³

2-2 مواطن استقرار قبائل الحشم في مناطق برج بوعريرج

يمكن حصر المناطق التي استقرت بها "قبائل الحشم" الوافدة من الغرب الجزائري في المناطق التلية والوسطى المتاخمة لحدود مركز المدينة (برج بوعريرج)، حيث ذكر الباحث في تاريخ الحضنة "كمال بيرم" أن الشيخ أحمد المقراني قد قرر مكافأة القبيلة بمنحها سهل "مجانة" للاستقرار والإقامة به، واشترط عليهم أن يكون المكان قريباً من مقر إقامة العائلة، حيث استوطنت قبائل الحشم في المنطقة المحصورة بين "جبل موريسام" (مريضان) من جهة الشمال إلى منطقة "رأس الوادي Tocque ville"، أما من جهة الشرق فحدودهم قد وصلت إلى مشارف "وادي مجانة" و"جبل الكاف"، في حين امتدت مواطنهم من الجهة الغربية إلى "وادي بنية"، وبذلك فقد اتسعت مواطن إقامتهم لتشمل أماكن مختلفة أهمها: برج بوعريرج، مجانة، سيدي مبارك، العناصر....⁴.

أشارت الإحصائيات إلى أن عدد الخيم التابعة للقبائل المذكورة قد بلغ حوالي 1400 خيمة، وقد شكلت هذه القبائل عدة فرق سكانية وأعراش وقبائل، انتشرت في أنحاء ومناطق مختلفة من أراضي برج بوعريرج، ومن بين الفرق والأعراش التي ورد استقرار القبائل المذكورة بها: الدواير، أولاد كدية، الجعافرة، المكاية، أولاد البدار، النشابة، بوخبار، أولاد عجيل، أولاد العقلة، أولاد شنيقي، أولاد حنايشية، أولاد الصغار، أولاد علاوة... وغيرها، من الفرق التي شكلت في مجملها ما يعرف بقبائل "حشم مجانة"، هذه الأخيرة التي كانت سنداً لعائلة المقراني طيلة فترات طويلة من الزمن⁵. وقد أشارت السلطات الفرنسية سنة 1861م أن القبائل سالفة الذكر، كان استقرارها بصفة تكاد تكون كلية في المناطق التابعة لأملاك وأراضي المقراني وعائلته، مثل أقاليم: مجانة، برج بوعريرج، العناصر⁶، صنادة، بومردق⁷.

لقد أسهمت الظروف التاريخية السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بناء علاقة وطيدة بين قبائل الحشم والمقرانيين، وهو الأمر الذي يعكسه اتخاذ قبائل الحشم من المناطق المحاذية لإقليم مجانة موطناً للاستقرار به.

¹ - كمال بيرم: المرجع السابق، ص183.

² - Charles Féraud: histoire des villes de la province de Constantine، l, Arnolet 1872 Constantine, Algérie, 1872, p.179.

³ - كمال بيرم: المرجع السابق، ص184.

⁴ - كمال بيرم: (وضع قبائل إقليم برج بوعريرج بعد انتفاضة المقراني 1871م في ضوء وثائق الأرشيف الفرنسي)، مجلة الابراهيمية للآداب والعلوم الانسانية، ع03، جامعة برج بوعريرج، الجزائر، جوان 2020م، ص11.

⁵ - كمال بيرم: من تاريخ حواضر...، المرجع السابق، ص188.

⁶ - الصالح بن أحمد: قرية العناصر المجاهدة برج بوعريرج 1830-1962م، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص32.

⁷ - كمال بيرم : وضع قبائل إقليم...، المرجع السابق، ص 11.

3- تهجير قبائل الحشم من مجانة إلى الحضنة وانعكاساته على المجتمع الجزائري

أجمعت الأبحاث والدراسات¹ المهمة بتطورات ثورة المقراني² في مجابقتها للاحتلال الفرنسي بمنطقة مجانة (برج بوعرييج) غداة اندلاعها في 14 مارس 1871م³، على أن قبائل الحشم القاطنة في الإقليم المذكور كانت أحد أبرز القبائل المشاركة في الثورة لغرض مساندة ومساعدة الشيخ المقراني في ثورته ضد النظام الاستعماري الفرنسي، وعليه فقد أضحت هذه الأخيرة أول القبائل المستهدفة بأسلوب التهجير المطبق من قبل الادارة الفرنسية كعقوبة لها لتورطها في العصيان المعلن ضد السلطة الفرنسية القائمة في البلاد، والذي شمل مناطق عديدة ليصبح تهديداً حقيقياً للمصالح الفرنسية الاستراتيجية⁴.

وبناء على التطورات التي أحدثتها ثورة المقراني من زعزعة للوضع الأمني العام بالجهة الوسطى والشرقية من البلاد، فقد كان التهجير القسري الداخلي والمصادرة للأراضي والأملاك، خيار الفرنسيين الأمثل للقضاء على الثورة⁵ وتخفيف كل المصادر المحتملة لدعم أو مساندة هذه الأخيرة من القبائل المحلية⁶، وهو ما حصل مع قبائل الحشم المهجرين إلى منطقة الحضنة، والتي هجرت منها أعداد غفيرة في اتجاه أماكن مختلفة من شرق البلاد أو حتى إلى خارجها، والدليل على تطبيق هذا الأسلوب من التهجير الممنهج ضد السكان المحليين⁷، وبخاصة من سكان منطقة الحضنة ما تعرض له عرش أولاد دراج من طرد وترحيل من مناطق استقرارهم بمناطق الحضنة إلى وجهات مجهولة⁸.

3-1 التهجير القسري لقبائل الحشم من مجانة إلى منطقة الحضنة:

اتخذت سلطة الاحتلال استراتيجية ذات أشكال وأساليب مختلفة ومتباينة ضد الشعب الجزائري، غير أنها كانت تهدف في مجملها للقضاء على الشخصية الوطنية وطمس هوية الجزائريين، فاعتمدت لتحقيق أهدافها تجاوزات كبيرة وجرائم متعددة كالإبادة والقتل والتعذيب والنفي والتهجير...، وهو نفس الأسلوب الذي تعرضت له قبائل الحشم القاطنة بإقليم مجانة ببرج بوعرييج، عقوبة لها بعد المساندة والدعم اللذان قدمتهما القبائل المذكورة لثورة المقراني في مجابقتها للاحتلال الفرنسي⁹.

وحول أعداد قبائل الحشم التي هجرتها السلطات الفرنسية من جهات برج بوعرييج نحو الحضنة أورد "كمال بيرم": "لقد قدمت التقارير العسكرية أرقاماً كثيرة حول أعداد أفراد القبائل المهجرة من إقليم البرج إلى الحضنة منذ 1876م، حيث قدر عدد

¹ - من أهم الدراسات التاريخية التي تناولت ثورة الشيخ المقراني بالدرس والتحليل نجد مؤلفات كل من: يحي بوعزيز: ثورة الباشاغا المقراني والشيخ الحداد 1871م، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص 200 وما بعدها، وأيضاً. علي بطاش: لحة عن تاريخ منطقة القبائل - حياة الشيخ الحداد وثورته 1871م، ط2، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، 2007م، ص 128 وما بعدها؛ صالح فركوس: المرجع السابق، ص 237-254.

² - يشير عديد الباحثين إلى أن السياسة التي انتهجتها الادارة الفرنسية في تقليص مكانة العائلات المنتفذة في المجتمع الجزائري، والعمل على تجريدتها من الصلاحيات والأملاك والرتب التي كانت لها في المراحل السابقة، قد ساهمت إلى حد كبير في تآزم العلاقة بين هذه العائلات والإدارة الفرنسية، التي كانت تحاول في كل مرة إيجاد طريقة للتخلص من شيوخ وأعيان العائلات المنتفذة ومحاولة كسر شوكتهم والحد من نفوذهم الذي ورثوه من فترات سابقة، وذلك بتحويل العلاقة القائمة بينهما من علاقة "تحالف" إلى علاقة "عداء وتنافر"، وتحويل زعماء القبائل المذكورة من "حلفاء" إلى "موظفين" عاديين، مع الإنزال الممنهج لرتبتهم القيادية والاجتماعية من ألقاب ونياشين مختلفة مثل رتب "حليفة" و "باشاغا"، وهو ما حصل مع عائلة المقراني التي تعد أنموذجاً لكثير من العائلات الجزائرية الأرستقراطية (المنتفذة)، والتي كان لها نفس مصير عائلة المقراني من تحول في السياسة والموقف الفرنسي إزاءها؛ ينظر. لخضر بوطبة: (موقف أسرة أولاد مقران من الاحتلال الفرنسي)، مجلة التاريخ المتوسطي، ع 1، جامعة بجاية، 2019م، ص 81.

³ - صالح بن النبيلي فركوس: مرجع سابق، ص 252.

⁴ - يحي بوعزيز: ثورات القرن التاسع عشر، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 248.

⁵ - العياشي رواحي: المرجع السابق، ص 371.

⁶ - كمال بيرم: وضع قبائل إقليم...، مرجع سابق، ص 12.

⁷ - كمال بيرم: (إدارة الأهالي ومسألة القيادة بمنطقة الحضنة بين 1838-1871م)، مجلة عصور، ع 1، 11م، جامعة وهران، 2015م، ص 77.

⁸ - صالح لميش: (مسألة القيادة بالشرق الجزائري بداية الاحتلال 1830-1870 منطقة الحضنة الشرقية غودجاً)، مجلة العلوم الانسانية، ع 22، جامعة بسكرة، 2011م، ص 150.

⁹ - كمال بيرم: من تاريخ حواضر...، المرجع السابق، ص 190.

الحشم القادمين من بجانة إلى وطن المسيلة بحوالي 526 فرداً ومن إقليم سيدي مبارك ما يقارب 285 فرداً توجهوا إلى ناحية أولاد ماضي، في حين قدر عدد الأشخاص القادمين إلى ذات المنطقة (أولاد ماضي) من إقليم العناصر بما يزيد عن 485 فرداً...¹.

يؤكد المؤرخ المرحوم "مزيان وشن"، توافر أركان الجريمة الانسانية التي ارتكبتها الاستعمار الفرنسي في حق عائلة المقراني وجميع القبائل المساندة لها في ثورتها، ومما جاء في توثيقه للجرائم الفرنسية: "... ساقط فرنسا أفراداً من أبناء المنطقة إلى محاكم الجنايات التي أصدرت ضدهم أحكاماً قاسية، منها الإعدام والسجن المؤبد والأعمال الشاقة والنفي..."²، وفي نفس السياق أفادت الدراسات التاريخية أن أشكال المصادرة للممتلكات والأراضي ضد القبائل سألقة الذكر، قد أخذت اتجاهين رئيسيين هما:

- **المصادرة الشخصية:** وكانت موجهة بالأساس إلى ممتلكات الأشخاص المشاركين في الثورة أو إلى الأفراد المساندين لعائلة المقراني في ثورتها ضد النظام الاستعماري الفرنسي سنة 1871م.

- **المصادرة الجماعية:** وكانت موجهة ضد سكان العروش والدواوير الذين تم إجبارهم على تسليم أراضيهم الخصب للسلطة الفرنسية، إضافة إلى إلزامهم بدفع ضريبة جماعية تؤدي في حال التراخي عن أدائها إلى رهن جميع أملاكهم وأثاثهم³.

تم توطين القبائل المهجرة من إقليم بجانة في منطقة الحضنة، وتحديدًا في جنوب المسيلة بعد أن قامت سلطة الاحتلال بتهجير سكاتها هي الأخرى نحو مناطق متعددة ومتباعدة، حيث استوطنت هذه القبائل في مناطق محددة من الإدارة الاستعمارية مثل: السوام⁴، المسيلة، بركة، المعاضيد...⁵.

3-2 انعكاسات ونتائج تهجير قبائل الحشم إلى منطقة الحضنة:

- **في المجال الاجتماعي:** تأثر الوضع الاجتماعي للجزائريين بسياسة التهجير القسري المنتهج من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية، لاسيما ما تعلق بالقبائل القاطنة بكل من إقليم بجانة ومنطقة الحضنة على حد سواء، وفي هذا السياق أثبتت الدراسات أن اختلالاً كبيراً قد أصاب المجتمع الجزائري خلال المرحلة المدروسة في المنطقتين المذكورتين، إذ رصدت الإحصائيات مستوى النزوح والإفراغ البشري الضخم الذي تعرض له المجتمع⁶، وهو ما حل بقبائل الحشم من سكان إقليم بجانة وأهالي القبائل والعروش القاطنة بمناطق الحضنة في جنوب المسيلة، إذ سمح أسلوب التهجير القسري المنتهج ضد القبائل المذكورة من فسخ المجال واسعاً، أمام التوسع العسكري الفرنسي الذي عادت مصلحته على المستوطنين الأوروبيين الذين استحوذ كثير منهم على مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة التي كانت ملكاً للجزائريين ومصدراً لقوت عائلاتهم، ليقوم هؤلاء بطرد الملاك الأصليين قسراً إلى مناطق قاحلة وأخرى جبلية⁷.

- **في المجال العقاري:** إضافة إلى الانعكاسات الاجتماعية السلبية التي خلفتها سياسة الفرنسيين، كان للأسلوب الاستعماري أثر واضح في بروز مشاكل ونزاعات عقارية معقدة وخطيرة، تتعلق بقضايا ملكية الأرض بمنطقة الحضنة وجنوب مدينة المسيلة، بعد أن كان تهجير قبائل الحشم من بجانة ببرج بوعريريج وتوطينها في أراض هي في الأصل ملك لقبائل أخرى كانت مستقرة بجنوب المسيلة، وهو ما كان التمهيد له من خلال القانون العقاري الفرنسي المعروف بـ "قانون السيناتوس كونسيلت Sinatus Consulte" الصادر

¹ - كمال بيرم: وضع إقليم برج بوعريريج...، المرجع السابق، ص 15.

² - مزيان وشن: مقاومة الاحتلال بالهضاب...، المرجع السابق، ص 229.

³ - كمال بيرم: بلدية المسيلة المختلطة دراسة اقتصادية واجتماعية بين 1884-1945م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2006، ص 59.

⁴ - مبروك قارة بن صالح: مسار المدن والعمران...، المرجع السابق، ص 118.

⁵ - كمال بيرم: من تاريخ حواضر...، المرجع السابق، ص 189.

⁶ - نعيمة قنار: (التهجير القسري للجزائريين إلى كاليديونيا الجديدة جريمة ضد الانسانية)، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، ع 12، م 08، جامعة البليدة 2، 2015م، ص 150.

⁷ - كمال بيرم: وضع قبائل إقليم...، مرجع سابق، ص 21.

عن مجلس الشيوخ الفرنسي في 22 أبريل 1863م¹، والذي كان من أبرز أهدافه المعلنة والخفية تفتيت ملكية القبائل النائرة ضد النظام الاستعماري².

كانت قبائل الحشم والقبائل والعروش الحضرية حقل تجارب خصب للقرار المشيخي، وحدث تحول عنيف أصاب المجتمع الريفي بمنطقة الحضنة، جراء تعرض عروش أولاد دراج وأولاد ماضي بالحضنة إلى التفكيك لمجموعة من الفرق والدواوير³.

وعليه، يظهر لنا جلياً بأن التهجير والتفتيت المقنن لكل من قبائل الحشم وقبائل الحضنة يعد امتداداً واضحاً لمشروع "السيناتوس كونسيلت"، الذي استهدف تخطيط وحدة القبيلة الجزائرية بعد استحداثه لقوانين استعمارية تعمل على تشجيع الملكية الفردية للأشخاص، والسعي من أجل منح هذه الفئة من الجزائريين عقوداً تثبت ملكيتهم، وقد كان هذا القرار أول خطوة عملية لتخطيط الملكية الجماعية والقضاء على النظام القبلي، الذي شكل حجر عثرة حقيقية في وجه المشاريع الاستعمارية الفرنسية لضرب وحدة وتماسك المجتمع ونواته الرئيسية "القبيلة"⁴، حيث كان هذا الأسلوب الاستعماري مصدراً لنزاعات ومشاكل عقارية بين قبائل الحشم والقبائل الأصلية التي هجرتها السلطات الاستعمارية من أراضيها، حيث لاتزال المشاكل العقارية لهذه الفترة الاستعمارية، تلقي بظلالها على الأبناء والأحفاد جيلاً بعد جيل بالرغم من الانسحاب الطوعي لقبائل الحشم من المنطقة محل النزاع في العقد الثاني من القرن العشرين⁵.

- في المجال الاقتصادي: وزيادة على الأزمات والمشاكل الاجتماعية والعقارية التي خلقتها السياسة الفرنسية ضد ثورة المقراني، وذلك بعد الترحيل القسري لقبائل الحشم المساندة لهذه العائلة، فقد برزت إلى السطح كذلك جملة من الانعكاسات الاقتصادية الناجمة عن انتقال قبائل الحشم إلى منطقة الحضنة، إذ نجد أن القبائل المذكورة لم تنسجم مع الظروف المستجدة والطائرة التي أوجدها الظرف الاستعماري في منطقة الحضنة، وهو ما أحدثه التمايز بين البيئتين التلية والحضرية، وهو ما يؤكد عليه بيرم⁶: "... إن عملية التهجير بالقوة، أدت إلى بروز مظاهر عدم الانسجام لهذه الفئة بالمجتمع والبيئة الجديدة، نظراً للتباين الكبير بين وضعهم كملاك أراضي خصبة في التل في ظروف زراعية ومناخية سهلة ومكانة اجتماعية مميزة، وبين الوضع الجديد في الأراضي الرديئة في مناخ جاف ونقص في المياه وتشكيلات اجتماعية لم يألفوا طباعها وسلوكياتها...". هذا الأمر جعل من القبائل المهجرة تعيش حالة من اللاإستقرار في وضعها الجديد بالمنطقة المذكورة، نتيجة لعدم موائمة الظروف الطبيعية مع طبيعة النشاط الزراعي والاقتصادي للسكان القادمين من المناطق التلية، وقد ظل المهجرون في حالة إحجام عن خدمة هذه الأرض التي ظلت لفترات طويلة من دون استغلال.

خاتمة:

تصنف سياسة التهجير المنتهجة من قبل إدارة الاحتلال الفرنسي ضد المنخرطين في المقاومات والثورات الشعبية المسلحة بالجزائر أو القبائل المساندة لها، ضمن الأساليب الاستعمارية الهادفة إلى تثبيت وتوطين الاحتلال على أرض الجزائر، من خلال إتباع أساليب متعددة كالتهجير والزجر والنفي، وهو نفس الأسلوب الذي تعرضت له "قبائل الحشم" التي تم تهجيرها من إقليم بجاية قسراً إلى مناطق في إقليم الحضنة بعد مساندتها لثورة المقراني 1871م، وهي السياسة التي كانت لها نتائج قاسية على المجتمع الجزائري سيما ما

¹ - رضا بوعافية: الوضعية القانونية للأراضي الفلاحية في الجزائر قبل الاستقلال، مجلة الأستاذ الباحث للدراسات القانونية والسياسية، ع9، م2، الجزائر، 2018م، ص310.

² - نور الدين إيلال: قانون السيناتوس كونسولت وأثره على الملكية والسكان في منطقة سور الغزلان من خلال الوثائق الرسمية الفرنسية 1863-1914، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2007م، ص29.

³ - كمال بيرم: (تحولات المجتمع الريفي بالحضنة إبان الحقبة الاستعمارية 1863-1954م)، مجلة التاريخ المتوسطي، ع2، جامعة بجاية، الجزائر، 2020م، ص204.

⁴ - نور الدين إيلال: المرجع السابق، ص27.

⁵ - كمال بيرم: وضع قبائل إقليم...، المرجع السابق، ص24.

⁶ - كمال بيرم: المرجع السابق، ص22-24.

تعلق بتعكير العلاقة القائمة بين القبائل المهجرة والمهجر إلى أراضيها، بعد أن ورثت كل منهما مشاكل اجتماعية وعقارية واقتصادية معقدة، تعود بجذورها إلى المرحلة الاستعمارية وانعكاسات سياسة هذا الأخير ضد ثورة المقراني.

العقار والمدفع تفكيك ثنائية الأرض والإنسان مشيخة المقراني أنموذجا (1844-1874م)

توفيق بن زردة - جامعة أم البواقي

يؤشر الاقتصاد التاريخي للجماعات الريفية في الجزائر عن طغيان التقاليد الفلاحية، التي صنعت من عطاء الأرض وتعايش الإنسان قوة ارتباط، صنعت ثنائية متكاملة مهدت لتسلسل غريزة الانتماء للاقتصاد الحيزي، الذي تحول إلى فضاء جذب¹ ترجمته المصطلحات الريفية الجزائرية على غرار الدوار، والوطن، والبلاد، والحوش²، وهي المفردات التي ارتسمت في شكل نطاقات زراعية زودت المجموعات الإنتاجية بالمواد الفلاحية، كما تحولت إلى مصدر للمجبي، ارتسمت قيمته بحسب المساحة، فكان أقل في البلاد وأكثر في الوطن³.

وبين ثنائية الأرض والإنسان التي تحولت إلى نسق معيشي - هوياتي متجذر عرفا وتقليدا عند الجماعات الريفية، أقدم الاستعمار على تفكيك هذه الثنائية، من خلال حرب الشتات انطلاقا من تصورات فكرية غمرت أوروبا في أعقاب الثورة الفرنسية، والثورة الصناعية، ففي الوقت الذي تخلصت فيه الأولى من الدين، فككت الثانية النسيج الأوروبي الجماعي بإفرازاته الإقطاعية، وأدخلته مرحلة الفردنة (الفرد) بخلفية رأسمالية، وهي المنطلقات التي صُدرت في أعقاب الحركة الاستعمارية، إلى مجتمعات الضفة الجنوبية للمتوسط، التي كانت تعيش وتتألف بالدين، وتبني تصوراتها الاجتماعية على مفهوم الجماعة، وبين الدين واللادين، والجماعوية والفردنة، والتصور والتصور النقيض، تبلورت حرب شرسة على المكون الاجتماعي الجزائري، قامت مخرجاته على اجتثاث الساكنة من مواطنها الأصلية، وتوزيعها عبر محاور جفاء تاريخي، أدت إلى فصم روابطها النفعية، وأدخلت الإنسان والأرض في علاقات هلامية بعيدة عن الصلة الأصولية- الترابية.

أخذت هذه الحرب بعدين الأول عسكري، جاء كرد فعل على الثورات الشعبية والانتفاضات المحلية ضد الاحتلال، والبعد الثاني أخذ طابع القوانين العقارية التي أُشهرت من حين لآخر، والتي لازمتها عمليات ضخمة ومعقدة بميزانيات كبيرة وتأطير إداري هرمي، وخبراء عقاريين ومهندسي خرائط تابعين لمصلحة الطبوغرافيا⁴. وهو ما سنعالجه في هذه الورقة البحثية من خلال نموذج أحد الأضلع التاريخي في الشرق التاريخية ممثلة في مشيخة المقراني.

1- تشكلات المجال المقراني:

في الواقع، لا تكاد مرحلة من مراحل التاريخ يكتمل ملمحها المجالي والبشري للجماعات الريفية، حتى يتحرك مفعول الطرد أو الجذب، ليعطينا تشكلات جغرافية مغايرة عن الأولى، ومدلولا لطوبونيميا مجالية ظرفية عادة ما تتصل بذلك النسيج الاجتماعي، وهو ما يعقد في النهاية من اكتمال الملمح المجالي لأي جماعة سكانية، خاصة منها القبلية، وذلك بعكس مجال الدولة الحديثة الذي يتميز حسب بادويل (Baduel) بـ "الفضاء غير المشخصن، والمهندسي المغلق"⁵.

¹ - Paul Baudrand, Dictionnaire géographique universel, contenant une description exacte des Etats, royaumes, villes, forteresses, montagnes, caps, lacs, mers, golfes, détroits, éditeur chez François Halma, Hollande, 1701, p.231.

² - Mohamed Ben Cheneb, dictionnaire pratique Arabe Français, OPU, Alger, 2014.p.71

³ - Mouloud Gaid, Chronique des beys de Constantine, Office des Publications Universitaire, Alger, 1975, p.147.

⁴ - Comment s'exécute le Sénatus- Consulte sur la propriété en Algérie, signé A. Poivre, Imprimerie F.Paysant, Alger, 1868, p.16-21.

⁵ - Pierre-Robert Baduel «Le front de l'Etat, Eléments pour une approche comparative autour de la Méditerranée» R.O.M.M, n° 48, 49, 1988, p.135.

إن الفضاء القبلي المقراني، الذي كان له دور في تكوين وانبعث الهويات المحلية، في الشرق الجزائري قد تعرض خلال المرحلة العثمانية إلى سلطة عليا مالكة للسيادة أو لـ "سلطة القهر الشرعية" خاصة وأن هذا الفضاء، كان يقع عبر البلاد الخلفية لقسنطينة القريبة من قرار المركز، وهو ما أدى إلى انبعث ممارسات التمييز، والحيازة من قبل البايات في الفضاءات المادية المقرانية التي تحولت إلى مجال تربي بضوابط جغرافية، سرعان ما تحولت إلى أوعية مجالية -منفعة قائمة خاصة على المراعي والنطاقات الزراعية¹.

لقد أمدتنا خريطة القبائل في الجزائر، التي أنجزها كاريت (Carette) وفارنيي (Warnier)، سنة 1846م، بملامح المجال المقراني الذي لا شك هو صورة مؤقتة لحالة سكون ظرفي، طبع نهاية المرحلة العثمانية وبداية المرحلة الاستعمارية، حيث تحكمت مشيخة المقراني في مفصل اقتصادي وضلع جيواستراتيجي امتد عبر الجناح الغربي لمدينة قسنطينة، وبإشراف على البلاد الخلفية لساحل المتوسط شمالا، وحوض الحضنة ودواخل الصحراء جنوبا، كما امتد هذا المفصل التاريخي بشكل طولي محصورا بين قبيلة عامر الغرابة بسهل سطيف شرقا، إلى جبل الديرة غربا متحكما في شرايين حيوي يربط قسنطينة بمدينة الجزائر عبر ببيان الحديد².

كما تكشف لنا نفس الخارطة عن ملامح الأوعية السوسولوجية التي كانت تحت مشيخة آل المقراني، فكانت منهم الحلقات الواسعة على غرار ونوغة ومزيتة ومجانة وأهل الشفة وبني عباس وبني عيديل، إلى جانب الحلقات الضيقة التي انتشرت بشكل مكثف جدا انعكاسا للتزاحم التاريخي الاجتماعي، قصد العيش في هذا الضلع الجيواستراتيجي، حيث وردت الكثير من أسمائهم مثل أولاد حنيش، أولاد زيد، أولاد محمد، مقدم، حسناوة، حجاج، مرقة، زمشة، أولاد مبارك، أولاد القايد، أولاد حمزة، أولاد عزيز، أولاد سعد الله، زمورة، أولاد بوقطن، الجعافرة، بوعريرج، العلاونة، الحشم، بوناب، أولاد حنوشية، أولاد شنتي، أولاد بوخيار، أولاد عجال، أولاد عقله، أولاد سي موسى، أولاد بن زاوية، أولاد مسلم، أولاد ضريف، أولاد قبيلة، فضالة، أولاد جلال، أولاد عيشة، أهل الحمرة، أولاد علي، زلاطنة، أولاد سي علي بن يحيى، رملية، أولاد بشتة، الجبيلية، أولاد عثمان، بني ورتيلان، أولاد زيتوني، أولاد زيد، أولاد طير، أولاد زوي، سلاطنة، أولاد بوعبيد، أولاد حديج... الخ³.

2- التغيرات الحادثة:

فضلت إدارة الاحتلال بعد سقوط مدينة قسنطينة (13 أكتوبر 1837م) الحفاظ على النظام الإداري البايلكي⁴، من منطلق "عدم إرباك منظومة المصالح التي كانت تدار من المدن على مدار ثلاث قرون من الحكم العثماني"⁵ حيث أبقت على العواصم الجهوية (الجزائر، قسنطينة، وهران) كمقرات مركزية للسلطة، إلى جانب استمرار إدارة المجالات الريفية من قبل القائد⁶ أو الخليفة، بعد

¹ - نُحِيلنا بعض خرائط توزيع المجموعات القبلية في الفضاء المغاربي، إلى حجم تقاسمها للحيز الترابي وفق أطر مادية واجتماعية متينة استطاعت أن تفرز فوائض إنتاج، بعد أن انحازت إلى فرضية الانحدار من جد واحد، كتبرير حقيقي أو مزعوم للعلاقات النفعية الانتاجية، وكأحد الآليات لمواجهة الواقع المادي في الوسط الريفي الذي فرض التعاون والتآزر، حيث تحولت القبيلة إلى خلية جبائية وكتاج راسب تاريخي منعها الصرامة الإدارية من الانحلال، لذلك احتفظ بالقبيلة كإطار عام وكشخصية أدبية، وكائن جماعي جهوي، له وطنه ومجاله ففي ليبيا نجد: الورقلة، القذافة، ترهونة، المقارحة، وفي تونس: الهمامة، الفراشيش، ورغة، أولاد بوغاتم، دريد، وفي الجزائر، النمامشة، الحراكنة، عامر، بني جلاب، وفي المغرب الأقصى: المقل، بوعزيز، دوكة... الخ، وكلها قبائل اشتهرت بمواطنها وسعة مجالاتها.

عبد الحميد هنية، تونس العثمانية، بناء الدولة والمجال، منشورات تير الزمان، تونس، 2012م، ص42.

كما عالج الباحث التونسي توفيق البشروش الحياة الريفية عند القبائل الرعوية، يرجى الرجوع إلى: توفيق البشروش، ربيع العريان، أضواء عن أسباب ثورة علي بن غداهم سنة 1864، بيت الحكمة، 1991م.

² - Ernest Carette et Auguste Warnier, Carte de l'Algérie divisée par tribus 1846, échelle: 1/1000000, Bibliothèque nationale de France, (gallica.bnf.fr).

³ - Ibid.

⁴ - عالج أحمد سيساوي النظام البايلكي وأبعاده في الشرق الجزائري من عهد فالي إلى الإمبراطور نابليون الثالث.

أحمد سيساوي، البعد البايلكي في المشاريع السياسية الاستعمارية الفرنسية من فالي إلى نابليون الثالث (1838-1871م)، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، 2017م، ص136.

⁵ - المرجع نفسه، ص136.

⁶ - حول هذه الوظيفة في العهد العثماني يرجى الرجوع إلى:

وضعه تحت سلطة القيادة العسكرية¹، ففي أحد المراسيم التي عثرت عليها بأرشيف ما وراء البحار (ANOM) تعود لسنة 1838م، تخص إدارة المجال الريفي للشرق الجزائري بعد سقوط عاصمته قسنطينة، حيث وردت في مادته الأولى: "في بعض وطن قسنطينة الذي فرنسا ما تتصرف فيه بذاتها فيؤمنوه خلفاوات (جمع خليفة) وبهذه الخلفاوات، يكونوا تحت أمر جينيرال قسنطينة من غير واسطة، وأعراش يكونوا تحت حكم قياد وهذه القياد تكون لهم حرية التصرف كما كانوا سابقا أيام البايات"².

ودائما في إطار سياسة "الحفاظ على الوضع القائم" واصلت القيادة العسكرية في الشرق الجزائري، تقليد توزيع البرنوس على القياد وشيوخ القبائل، وهي آلية بايلكية مارسها البايات بشكل دوري قصد تمتين ولاء القبائل للسلطة، لذلك كلف الجنرال فالي سنة 1837م حمودة بن الشيخ لفقون، الذي عينه في منصب شيخ البلد³ بتوزيع سبعة وخمسون برنوسا باسم فرنسا⁴. إلى جانب ذلك أبقت القيادة العسكرية لهؤلاء القياد والشيوخ على امتيازاتهم العقارية والجبائية، التي كانوا يجنونها من القبائل خلال المرحلة العثمانية، حيث ورد في المادة الخامسة من نفس المرسوم (1838م) "...القياد والشيوخ يأخذون عوايدهم من الأعراش كيف ما كانوا في الزمان الماضي"⁵.

طبعاً هذا السكون الاجتماعي - المشيخي الذي طبع المشهد العام أخذت تتسلل إليه تدريجياً الأجنحة الكولونيالية، التي عمدت وفق أولوياتها على تكسير عظام المشيخات الكبرى، من أهمها آل المقراني، وذلك من خلال التأسيس لتنظيمات إدارية بعيدة عن واقعية النسيج الاجتماعي الكنفدرالي وذهنيته التي تميل إلى البساطة، والعيش في الفضاءات المفتوحة، واحتكامه إلى مؤسسة المشيخة، التي كانت تبني توازناً على انسجام عشائري، يحكمه العرف وتديره الجماعة التي تتشكل من أعيان يفرزهم فارق السن والثروة⁶، حيث يكفلون إدارة المنافع العامة، ويسهرن على ترتيب المعاملات اليومية والعلاقات الاجتماعية، وفق سياقات دلالية تكون فيها أمانة الكلمة، وصدق الوعد، وشهامة الرجولة كمعايير أخلاقية - ممارسة كانت بديل عن القانون النصي الذي كان سائداً في المجتمعات المدنية الأكثر تعقيداً، والتي انخرطت في تأسيس مفاهيم الدولة الحديثة⁷.

هذا الانسجام التاريخي أخذ يتبدد، عندما وضعت إدارة الاحتلال نصب عينها مشروع تفكيك مؤسسة المشيخة المقارنة، وإعادة تركيبها وفق تصورات تجعل منها أداة هشة قاصرة ذاتياً في التعاطي مع محيطها، بعد تحوير دورها من مؤسسة محلية تشتغل بشكل أفقي، إلى شكل عمودي ينفذ قرارات فوقية تملئها الإدارة الاستعمارية، وتنسجم مع الواقع المادي والفكري للمجتمعات الأوروبية، حيث استهلكت هذه "الجراحة المشيخية" بتأسيس المكاتب العربية بإيحاء من الضابط "دوماس" بتاريخ 01 فيفري 1844م وجاءت لتؤسس مرحلة جديدة لتحكم النظام العسكري الاستعماري في فضاء الريف الجزائري إلى غاية 1871م، من خلالها بناء توازنات سلطوية تعيد ترتيب الجماعات القبلية عبر منظومة إدارية تتيح الرقابة عليها وتستنزف ثروتها⁸.

¹- Décret du gouvernement général des possessions française dans le nord de l'Afrique, concernant l'organisation général dans la province de Constantine, 30 septembre 1838. FR ANOM, 8H/ 3.

²- Décret du 30 septembre 1838. FR ANOM, 8H/ 3.

³- أحمد سيساوي، المرجع السابق، ص 136.

⁴- من البرانيس التي وزعت نذكر: ثلاثة برانيس عادية وواحد من الكشمير إلى فرحات بن سعيد شيخ العرب، وبرنوس عادي وكشمير إلى ابن هني قايد عامر الغرابية، وبرنوسين إلى ابن العطار قايد ميله وأربعة برانيس إلى شيوخ الحراكمة، وأربعة برانيس إلى شيوخ أولاد عبد النور، وبرنوس إلى شيخ سلاوة، وقندورة إلى شيخ فرجوة...، يرجى الرجوع إلى: احمدية عميراي، أبحاث في الفكر والتاريخ (الجزائر وفلسطين)، دار الهدى، الجزائر، د ت، ص 52.

⁵- Décret du 30 septembre 1838. FR ANOM, 8H/ 3.

⁶- Eugène Vayssettes, Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517 à 1837, Bouchene, Paris, 2006, p.33

⁷- حول الدولة مفهوم الدولة الحديثة وكيفية اشتغالها في أوروبا يرجى الرجوع إلى:

Sandor Bethon, La naissance de L'État moderne européenne et les changements de la fonction, délke le teuropa-south-easteurop international relation quarterly, Vol. 1. No. 4 (Hiver 2010/4.).

⁸- حول تاريخ المكاتب العربية يرجى الرجوع إلى:

لقد فككت هذه المنظومة الريف القسنطيني إلى ثلاث قسّمات، هي قسمة قسنطينة وقسمة باتنة وقسمة سطيف، حيث وضعت مشيخة المقراني في حيز القسمة الأخيرة، تحت تسمية قيادة بوعريّج ضمن دائرة سطيف، التي جمعت واحد وعشرون قيادة¹، في إطار سياسة الخنق الترابي والتفكيك المشيخي، الذي أخذ منطلقات ضريبية، عندما قلصت صلاحيات أحمد المقراني بانتزاع ضباط المكاتب العربية لثلاث أرباع المناطق الخاضعة له، ما جعل من وعائه الضريبي يتقلص بشكل كبير، وهو الرجل الذي كان يجني ثلث الضرائب من القبائل، وعلى قدر كبير من الثروة التي قدرت بحوالي 250 ألف فرنك².

نتيجة هذه التغيرات الحادثة أخذت الخريطة المشيخية المقرانية تتآكل ترابيا وضريبيا، حيث ألحقت قبائل أولاد نايل وأولاد زكري وأولاد حركات، وأولاد ساسي و أولاد عيسى و أولاد رابح، بالمجال التاريخي البسكري، في الوقت الذي منعوا فيه من التنقل إلى الفضاء السطايفي، أما ساكنة الجهة الغربية على غرار أولاد سيدي عيسى فألحقوا بقسمة المدية، وأخضعت قرى بني منصور والشرقة وبني مليكش الشراقة، وونوغة الغرابة لسلطة الباشا المعين عمر بن سالم، وبحلول سنة 1847م تكون قبائل واد الساحل على غرار، بني ياعلة وكسنه وبني انتاس قد ألحقت بقسمة البويرة، وكانت سنة 1849م ضربة قاسمة لآل المقراني عندما انتزعت القيادة العسكرية من سلطانهم المجال الحضني بوزنه الاقتصادي الرعوي وأسست به دائرة بوسعادة، تحت قيادة النقيب "بان" (Pein) الذي أصبحت تخضع له سبعة قيادات هي قيادة الحضنة وقيادة السوامة وقيادة أولاد فرج وقيادة أولاد عامر وقيادة أولاد عيسى وقيادة شاير³.

ولم تكن المنطلقات الضريبية- الترابية وحدها كفيلة بتفكيك المشيخة المقرانية ذات التوازنات الجيوستراتيجية في الضلع الغربي للريف القسنطيني، حيث ساهمت عملية زرع الشتات القيادي في مفاصلها، تمهيدا لإلغاء الوسيط التاريخي المقراني، حيث أنتجت هذه السياسة تفريخ في القيادات المحلية أضعفت المؤسسة المشيخية، التي زادت متاعبها ودخلت مرحلة الهشاشة السلطوية بعد تأسيس مكتب برج بوعريّج وتنصيب قيادة عليا به في جانفي من سنة 1852م، التي افتكت ما بقي من قبائل كانت تحت نفوذ المقرانيين، ممثلة في الحشم والمعاضيد وعياد وزمورة وبني عباس ومزيتة وونوغة⁴.

3- الحرب غير المعلنة:

كيف يمكن تغيير وجه الريف الجزائري الذي ارتسمت ملامحه منذ قرون ؟ وكيف يمكن تشتيت المؤسسات الإنتاجية الكبرى التي دخلت مرحلة الإقطاع بمفهومه المحلي وليس الأوروبي، على غرار آل المقراني ؟ هي واحدة من المؤامرات الاستعمارية والحروب الغير معلنة التي نسجت خيوطها من خلال العقار الفلاحي، الذي شكل منفذا، لتدفق موجة الهجرات الأوروبية، وأرضية لتغيير الخارطة

M. Victor Fougher, Les Bureaux Arabes en Algérie, librairie internationale, Paris, 1858.

صالح فركوس، إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد، 1844-1871، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، 2006.

¹ - هذه القيادات هي: علّمة الغرابة، بني إبراهيم، عامر القبلة، عامر الظهرة، أولاد نابت، أولاد بلقاسم، قلال، ريغة القبلة، ريغة الظهرة، علااد، تاغروت، عين ترك، أولاد موصلي، قرقور، الساحل القبلي، بني يعلا، بني ورتيلان، بني شعابنة، بني لعراش، بني سليمان وبني عيسى وبني سماعيل وبوعريّج.

صالح فركوس، المرجع السابق، ص 103-104.

² - شهد أيضا الضلع الشرقي القسنطيني تفكيك جماعته القبليّة وفق منظور المكاتب العربية، فمثلا تشكلت قسمة قسنطينة من ثلاث دوائر هي: دائرة قسنطينة ودائرة سكيكدة ودائرة جيجل، وتشكلت دائرة قسنطينة من ثلاثة وعشرون قيادة هي: عامر الشراقة، أولاد عبد النور، العواسي، البحيرة الطويلة، السقنية، الزناتية، سلاوة الخراب وزردانة، الزمول، زواغة، الصراوية، التلاغمة، أولاد يحيى بن ايدر معهم النمامشة، الصراوية، فرجيوة وأولاد كباب، بني كتيّ، وادي بوضلاح، البرانية، أمية وجميلة.

FRANOM, Cercle de Constantine, Rapport du Bureau arabe, tribus du cercle de Constantine, 15 mars 1856, 46K/26.

³ - صالح فركوس، المرجع السابق، ص 383-387.

⁴ - صالح فركوس، المرجع نفسه، ص 395.

الفلاحية، لذلك كانت القوانين العقارية أحد الآليات الاقتصادية الكولونيالية، التي اجتاحت المشهد الجزائري، كان من أهمها قانون السيناتيس كونسلت (Sénatus Consulte) أو القانون المشيخي¹.

في الواقع ظهر هذا القانون نتيجة توجهات في عهد الإمبراطورية الفرنسية الثانية (1852-1870م) بتبنتها شخصيات عدة على غرار إسماعيل عريان، حيث دعت الإمبراطور نابوليون الثالث، إلى دمج العنصر المحلي الجزائري في المنظومة الفرنسية بدل إلحاقه²، من خلال تمييز الفضاءات التي يعيش عليها، وتقاسم الأرض بينه وبين الأوروبيين، تمهيدا لإحلال الملكية الفردية محل الملكية الجماعية، التي كانت ثقافة عقارية سائدة في الواقع الجزائري قبل المرحلة الاستعمارية، لذلك ونتيجة هذه التصورات صدر قانون السيناتيس كونسلت (Sénatus Consulte) في 22 أبريل 1863م بعنوان "قانون سلطاني في شأن أحوال الوطن الجزائر وانتسابهم للدولة الفرنسية".

لقد عمد هذا القانون إلى استهداف الرأسمال المادي المتمثل في الأرض، بخلفيتها الاجتماعية والاقتصادية، إلى جانب تكوين شبكة من المعلومات حول القبائل الجزائرية والفضاءات التي تعيش عليها³، فكانت الأصول والطوبوغرافيا والهيدروغرافيا، وطبيعة الأنشطة الاقتصادية، وتعداد السكان، والثروة الحيوانية، من صميم أعمال اللجان التي تم إفادتها إلى القبائل الجزائرية⁴، فشكّلت بذلك إدارة الاحتلال رصيد معرفي حول المجتمع الريفي، بنت من خلاله أجندها الكولونيالية في هذا الفضاء الجيوستراتيجي من بينها تغيير الخارطة العقارية وتفكيك القبائل⁵.

¹ - وردت في هذا القانون سبع مواد، هي:

المادة الأولى: تعلن قبائل الجزائر ملاكا في الأقاليم التي يتمتعون بها بشكل دائم وبطريقة تقليدية.

المادة الثانية: تعمل الإدارة في آجال قصيرة على: 1- تحديد مجالات القبائل. 2- تقسيم كل قبيلة إلى دواوير مع الاحتفاظ بأراضي الكومنال. 3- إقامة الملكية بين أعضاء هذه الدواوير ستعرف وفق مراسيم إمبراطورية، تحدد الترتيبات والآجال التي سيتم فيها تأسيس الملكية الفردية في كل دوار.

المادة الثالثة: تنظيم إداري عام يحدد ما يلي: 1- أشكال ترسيم حدود أقاليم القبائل. 2- أشكال وشروط تقسيمهم إلى دواوير، وعزل الأملاك التي تعود للدوار. 3- الأشكال والشروط التي يتم بها إنشاء الملكية الفردية، وطريقة توزيع العقود.

المادة الرابعة: الإتاوات والمداخل التي تستخلصها الدولة من القبائل، تبقى على حالتها السابقة إلى غاية صدور مراسيم إمبراطورية.

المادة الخامسة: احتفاظ الدولة بملكيات البايك، والأراضي بضيعة ملك، وكذلك الاحتفاظ بالدومين العام المعرف بالمادة 02 من قانون 16 جوان 1851، وكذلك دومين الدولة ما يتعلق بالخشب والغابات.

المادة السادسة: تلغى الفقرة الثانية والثالثة في المادة 14 من قانون 16 جوان 1851م، حول تأسيس الملكية بالجزائر، فيما الملكية الفردية التي ستقوم لصالح أعضاء الدوار، لا تؤسس إلا بعد توزيع العقود.

المادة السابعة: لا تنقص كل التدابير من قانون 16 جوان 1851م، خاصة ما يتعلق بدافع الفائدة العامة والحجز.

بعد هذا القانون صدر مرسوم 23 ماي 1863م، الذي وردت فيه ستة فصول توزعت عبرها ستة وثلاثون مادة نظمت العمليات الإدارية، تلاه تطبيق القانون المشيخي في الفترة الممتدة بين 1864م إلى 1887م على خمسة وثلاثون قبيلة تقع بالمقاطعة القضائية قسنطينة، ليستكمل فيما بعد بقانون آخر، عرف بالسيناتيس كونسلت الصغير (Le petit Sénatus Consulte) في 28 أبريل 1887م، الذي جاء ليغطي عمليات التقسيم والتملك للأراضي التي لم يتسنى لإدارة الاحتلال إنجازها في المرحلة الأولى.

-Ministre de la Guerre, Tableau de la Situation des Etablissements Français dans l'Algérie, imprimerie Royale, Paris, vol,3, (1840), p.18-20.

Robert Estoublon et Adolphe Lefébure, Code de l'Algérie annoté, recueil chronologique des lois, ordonnances, décrets, circulaires etc, formant la législation actuellement en vigueur, libraire- éditeur Adolphe Jordan, Alger, 1896, p.277-290.

² - حول موضوع المملكة العربية بالجزائر يرجى الرجوع إلى:

Annie Rey Golzeiguer, Le Royaume Arabe. La politique algérienne de Napoléon III, Alger, SNED, 1977.

³ - هناك العديد من الدراسات التي اهتمت بالأرقام الإحصائية، والأحوال الاقتصادية للجزائر خلال النصف الثاني من القرن الـ 19م منها:

Ernest Mercier, L'Algérie et les questions algériennes – étude historique, statistique et économique, Challamel Aîné, Paris, 1883.

⁴ - توفيق بن زردة: (إحصائية مقارنة للثروة الحيوانية بالريف القسنطيني في النصف الثاني من القرن الـ 19م من خلال محاضر قانون السيناتيس كونسلت 1863)، مجلة المعالم، ع16، 2014م، قلمه، ص231.

⁵ - توفيق بن زردة، المرجع نفسه، ص233.

إن اطلاعي على عشرات المحاضر التي أنجرت عن هذا القانون والتي اعتمدت عليها كأرصدة في عدة أعمال بحثية، من بينها رسالتي الماجستير والدكتوراه، توصلت من خلالها إلى تحديد أربعة أهداف نسجت من وراء هذا القانون أوجزها في المصطلحات التالية: التحيز، الإفراف الاستحواد، التفكيك، والاصطناع، أما التحيز فقام على تثبيت القبائل في المساحات التي عاشت عليها ضمن أرض العرش، لذلك ضبطت ورسمت حدودها في الخرائط العقارية وفق هذا المدلول العقاري، في المقابل تم إفراف أراضي البايلك من العنصر المحلي الذي كان منتدبا للفلاحة في هذا النوع من العقار الفلاحي، الذي تم إلحاقه بإدارة الاحتلال، التي تسنى لها الاستحواد على مساحات واسعة حولتها إلى قاعدة لحركة الاستيطان، والاستعمار الرأسمالي الفلاحي¹.

كما كانت من أهداف القانون المشيخي، تكسير عظام الكنفدراليات القبلية الكبرى، على غرار آل المقراني، وتحويلها إلى شتات اجتماعي وعقاري، بعد تفكيكها والانتقال بها من القبيلة الموسعة إلى عالم الدوار²، الذي كان عبارة عن تفكك مساحي، نتج عن تقسيم المجتمع الريفي، نتيجة تحيز أراضيها وتقسيمها إلى كيانات متباينة الثروة والسكان عرفت بدوار كومين (Douar commune)³، والتي تحولت إلى كيانات تعسفية، ووحدات إدارية هامشية⁴ أفقدت القبائل انسجامها التاريخي، وسندها العقاري القائم على مفهوم الجماعة (أرض العرش)⁵، كما فككت المحاور الرعوية التقليدية، وأقحمت مفاهيم أوروبية دخيلة كان من أهمها أرض الكومنال، التي أسست بغية تحقيق مداخل قارة تصب في خزانة البلديات⁶.

في الواقع تحيلنا خريطة قبائل الشرق الجزائري (1863-1887م) التي أنجرت عن أشغال تطبيق قانون السيناتيس كونسلت عن تفكيك البنية المقرانية، بعد تحويلها إلى شتات قبلي اندثرت معه الهوية المحلية لواحدة من أهم الزعامات المحلية، فاختفت تسمية آل مقران من المشهد الاجتماعي، بعدما حولت لجان السيناتيس كونسلت حيزهم التاريخي إلى حلقات متناثرة تطبعها القبائل المقفلة

¹ - مثلا قبيلة عامر الشراقة التي عاشت عبر السهول التي يقطعها وادي مهربيس (عين عبيد)، جنوب شرق مدينة قسنطينة كانت تعيش على مساحة تجاوزت 31890 هكتار، منها 21123 هكتار أراضي عزل تمت مصادرتها، لينكمش الفضاء الزراعي والرعوي لعناصر القبيلة إلى حوالي 10 آلاف هكتار أما جماعات وادي الزناتي المخاذية لقبيلة عامر الشراقة شرقا فعاشت على أثنان وستون عزلة، بمساحة إجمالية قدرتها لجنة السيناتيس كونسلت بـ 43138 هكتار، وبتعداد سكاني قدر بـ 1272 نسمة، تم إفرافهم من هذه المساحة. وهي العمليات التي مكنت الاستعمار من الاستحواد على مساحة قدرت بـ 224936 هكتار، من أراضي العزل في الشرق الجزائري. وللتذكير فأراضي العزل هي عبارة عن شريط اقتصادي -أمني، شكلته السلطة البايلكية، قصد تأمين محيط مدينة قسنطينة، وعزل القبائل المستعصية أو المتمردة، فامتد هذا الشريط في شكل دائرة بطول نصف قطر حوالي 40 كلم، ومركزه مدينة قسنطينة، حيث وزع هذا النوع من الأراضي على كبار الموظفين، وأعيان مدينة قسنطينة.

توفيق بن زردة: التحولات الاقتصادية والاجتماعية للبلاد الخلفية لمدينة قسنطينة خلال القرن الـ 19 - مجال عامر الشراقة أنموذجا-، أطروحة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2018م، ص 77-108.

توفيق بن زردة: (مسار وآليات تعمير الريف الشرقي القسنطيني خلال القرن الثامن عشر)، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع 1، مجلد 33، ص 677-678.

توفيق بن زردة: (رقعة في العهد العثماني من جبال الأوراس إلى سهول قالة)، مجلة المعالم، ع 17، 2015م، قالة، ص 80-92.

Exécution su Sénatus-Consulte du 22 avril 1863, Rapport résumant l'ensemble des opérations concernant la délimitation et la répartition des douars et constatent les revendications et la reconnaissance des groups Melk et Beylik, exposé préliminaire, tribu Zenatia, cercle de Constantine, procès-verbaux du Sénatus- Consulte, n° 176. D.R.C.C.

² - كانت تسمية دوار مألوفة في كامل القطر المغاربي قبل مرحلة الاحتلال، ويقصد بها تجمع الخيم التي كانت توضع بشكل دائري داخل أبناء العمومة، تعبيرا عن اللحمة الاجتماعية بينهم، والتي كان يتراوح عددها ما بين ستة إلى ثمانية، لكن المشروع حوّر هذه التسمية المستمدة من عمق المجتمع لصالح المشروع الاستعماري.

Jean André Peyssonnel, Voyages dans les régences de Tunis et Alger ou relation d'un voyage sur les côtes de Barbarie fais par ordre du roi en 1724 et 1725, publié par M. Dureau de la Malle, Paris, 1838, p.292.

³ -Comment s'exécuté le Sénatus- Consulte ,op.cit, p.04.

⁴ -M'hamed Boukhobza, Monde rural, Contraintes et mutations, OPU, Alger, 1878, p.24-25.

⁵ -Mahfoud Bennoune, El-Akbia, un siècle d'histoire algérienne 1857-1975, offices des publication Universitaires, Alger, p.339.

⁶ - عمد قانون السيناتيس كونسلت، إلى إعادة بناء فضاء عقاري يستجيب للمنظومة القوانين الاستعمارية، حيث ورد في المادة الرابعة من القانون المكمل، الصادر بتاريخ 23 ماي 1863م، ستة بنود تؤسس وتنظم لأرض الكومنال، وهي نوع من المساحات الزراعية والرعوية يتم تأسيسها بعد عمليات المقايضة والشراء للأراضي على مستوى كل دوار، أسسها المشروع استغلالا للمحيط الريفي قصد تحقيق مداخل قارة تصب في خزانة البلدية التي يتبعها الدوار، بعد استئجار هذه الكومنالات عبر عرضها في المزاد العلني.

R. Estoublon et A. Lefébure, op.cit, p.279, 289.

ترايبا، والمسيحية عقاريا، ترجمتها هذه الخارطة التي أبانت عن زحام قبلي، أصبح يطبع المجال المقراني تجاوز الخمسة والعشرون قبيلة بمساحات متباينة منها: الحشم، زمورة، مقدم، أولاد طير، بني ياعلة، بني يعدل، بني ورتيلان، بني عباس، بني عيدل، عين الترك، معاديد، أولاد دراج، أولاد خلوف، أولاد منصور لماضي، دريات، ملوزة وبني المان، شرابشة، مزيتة، منصورة، أولاد علي، أولاد طريف، أولاد دعان، أولاد سيدي إبراهيم بوبكر، جبايلية، عياد، أولاد حناش... الخ¹.

لقد أدخلت لجان السناتيس كونسلت هذه القبائل عهد الفضاء المضبوط ترايبا والمكبل حدوديا، في عملية تدمير ممنهج لبنيتها الاقتصادية التقليدية، القائمة على الأوعية المحلية المنفعية المفتوحة، حيث أقفلت عليها أراضي التحوال وحدثت من تنقلاتها، مما أنتج سياقاً تدميريا شاملاً لهذه القبائل، بحيث لم يكن بوسعها أو بوسع أي شكل اجتماعي بدلها أن يصمد بوجهه هذا القانون العقاري، الذي لم يكن وليد تراكم تبدلات كمية داخلية، بما يكفل التغيير والتقدم التاريخي، لكنه كان بفعل عوامل خارجية دخيلة، خلقت حالة من التشتت الوظيفي، وعطلت الدورة الإنتاجية الحيوانية، القاعدة المادية لمعيشتهم² بعد كسره للمحاور التقليدية الرعوية، من أهمها المحور العمودي الذي كان يأخذ القبائل المقرانية في رحلات موسمية إلى المجال الحضني أو البسكري، في بداية فصل الشتاء ليعودوا أدراجهم مع بداية فصل الربيع إلى مضاربهم³.

إن قانون السيناتيس كونسلت (1863م) الذي كان بمثابة الانقلاب على المنظومة العقارية والاقتصادية التي كانت قائمة في المجال المقراني منذ عهود، واكبته تشريعات إدارية انتقلت بالضلع الغربي القسنطيني من هوية مقرانية إلى هوية "برايجية"، عندما أسست المقاطعة الإدارية (Canton) برج بوعريرج⁴، التي أصبحت تتبعها القبائل التاريخية التي عاشت في الوعاء المقراني، وهي القبائل التي عمد القانون المشيخي بعد مرحلة التحيز إلى تقسيمها إلى وحدات إدارية هامشية متفاوتة الثروة والسكان عرفت بدوار كومين (Douar commune)، فمثلاً قبيلة زمورة فككتها لجان السيناتيس كونسلت بتاريخ 10 أفريل 1867م إلى دواوين هما: دوار تسامرت، ودوار زمورة، وقبيلة أولاد دراج فككت بتاريخ 13 أفريل 1867م إلى تسعة دواوين هي: دوار مطارفة ودوار أولاد دهيم ودوار مرابطين الجرف ودوار أهل الدر ودوار كدية وبتلان ودوار سلمان ودوار براكطية ودوار وادي ولهة ودوار أولاد قسمية، أما قبيلة أولاد طير فقسمت بتاريخ 24 جويلية 1867م إلى دواوين هما: ودوار أولاد طير ودوار سي عمر، فيما فككت لجان السيناتيس كونسلت قبيلة مقدم بتاريخ 25 جانفي 1868م إلى ثلاثة دواوين هي: ودوار أولاد دحمان ودوار أولاد حنيش ودوار حسناوة، وقبيلة أولاد ماضي بتاريخ 17 مارس 1869م إلى خمسة دواوين هي: ودوار أولاد سي حملة ودوار أولاد عبد الحق ودوار أولاد معتوق ودوار البريري ودوار أولاد شلال⁵.

¹-Abdelkrim Badjadja, Cartographie agraire de l'Est algérien à la fin du 19^e siècle: étude de géographie historique à partir des Archives du Sénatus-Consulte, Mémoire de DEA, université de Constantine, 1974.

²- الهواري عدي، الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي الاجتماعي 1830-1960م، ترجمة جوزيف عبد الله، دار الحداثة، بيروت، 1983م، ص 129.

³- بدأ تأثر القبائل الجزائرية بالظاهرة الاستعمارية مبكراً، فقبيلة الحراكمة التي عاشت شرق مدينة قسنطينة كانت غنية بالثروة الحيوانية، وتعد من القبائل التي عاشت على حياة البداوة و الترحال الموسمي، عبر خط سير عمودي يأخذ جماعاتها مع بداية كل فصل شتاء للنزول إلى صحراء الزيبان، ومع بداية الربيع يعودون إلى مواطنهم، على غرار الكثير من القبائل مثل قبائل الأوراس والسقنية...، لكن تنقلات الحاج أحمد باي عبر وادي ريغ والنمامشة، والأوراس وجبال أحمر خدو (بسكرة) لتنظيم المقاومة من هناك، كان يدفع بالقيادات العسكرية إلى شن هجمات ضد معاقله، التي تحولت إلى فضاءات مضطربة وتخضع للرقابة الاستعمارية، وهو ما أثر سلباً على حياة الترحال الموسمي للحراكمة، التي وجدت في مراعي عامر الشراقة وسهول وادي الزناتي (جنوب شرق قسنطينة) بديلاً لها، وجاء احتلال القوات الفرنسية بقيادة الدوق دومال (Le duc Daumal) لمدينة بسكرة سنة 1844 وسيطرتها على المراعي المنتشرة هناك، انكساراً نهائياً للخط الرعوي التقليدي العمودي، الذي عوضه الحراكمة بخلق بديل رعوي أفقي (شمالي شمالي) بالهجرة إلى سهول قسنطينة.

توفيق بن زردة: التحولات الاقتصادية والاجتماعية، المرجع السابق، ص 118.

⁴- كانت تابعة للدائرة القضائية سطيف بعمالة قسنطينة.

⁵- R. Estoublon et A. Lefébure, op.cit, p.285.

F. Accardo, Répertoire alphabétique des tribus et Douars de l'Algérie, (dressé d'après les documents officiels sous la direction de le Myre de Vilers), édition Adolphe Jordan, Alger, 1879, p.38

لقد جمعت هذه الدواوير داخلها مجموعات سكانية غير متجانسة، تم انتزاعها من قبائلها الأصلية والانتقال بها إلى مشروع اندماج في نسيج جديد، أفقد هذه الجماعات القبلية وحدتها الاجتماعية وانسجامها التاريخي، وتكافلها الإنتاجي وأدخلها مرحلة الاضطراب البنيوي، الذي انعكس على تشكلات المشهد الزراعي - الرعوي.

4- الأنثروبولوجيا الكولونiale ما بعد 1871م:

بعد تفكيك مشيخة المقراني ووعائها القبلي، من منطلقات تربية وعقارية، جاءت مرحلة ما بعد 1871م حيث أيقنت إدارة الاحتلال وفق القراءات الأنثروبولوجية أن انتفاضة هذه المشيخة ضد الاحتلال (1871م)¹ تختفي وراءها بنيات اجتماعية، بنت تفوقها من انسجامها التاريخي وتداخل علاقاتها المنفعية التي نسجتها على مدلول الأرض والمصاهرات، وتقاسم العمل، تؤطرها في ذلك أسرة المقراني التي تكفل التوازنات وتصون العلاقات على تشعباتها واختلافاتها، لذلك أشهر الاحتلال عملية التهجير القصري لهذه الأسرة وللقبائل المنضوية تحت لوائها، قصد اجتثاثها من مواطنها التاريخية، وتكسير وحدتها المؤسساتية، بعد تحويلها إلى مجرد غبار أسري واجتماعي متناثر عديم القوة والمواجهة.

طبعاً هذه الظاهرة مست مختلف الكنفدراليات القبلية في الشرق الجزائري على غرار عامر الشراقة² التي عاشت على أبواب قسنطينة الشرقية، متحركة في أحصب السهول التي سماها الرحالة البكري بالجنح الأخضر، ضمن المجال الذي يعرف اليوم بعين عبيد، حيث عاشت هذه الكنفدرالية عملية تفكيك ممنهج لروابطها المادية، وحولتها إدارة الاحتلال إلى قاعدة للزراعة الرأسمالية، ومن جيوبها العقارية منفى لأسرة المقراني وللقبائل التي كانت إلى جانبها في انتفاضة 1871م.

عمدت السلطة الاستعمارية بعد السنوات الأولى للاحتلال إلى إفراغ بعض أعزال عامر الشراقة من ساكنيه، على غرار أولاد لشطر الذين هجروا قصراً من عزل بئر سطل بمساحة 1219 هكتار، و80 آر، وأولاد جبنون من عزل الجحفة بمساحة 1408 هكتار، 10 آر، بعدها اقتطع العزلين من مجال عامر الشراقة والحقا بإدارة الدومين³، لتحويلهما إدارة الاحتلال إلى منفى طبيعي لمن شاركوا في انتفاضة 1871م، حيث هجر إليهما أولاد موسى (بني أحمد) من ضواحي جيجل، بعدما شكلت لجان السيناتيس كونسلت من العزلين وأراضي فرقة سلاوة، وأولاد دراج، دوار عين ملوك بمساحة 17112 هكتار، و70 آر، الذي ظهر نتيجة

¹ - حول هذه الانتفاضة يرجى الرجوع إلى:

Alfred Rambaud, L'insurrection Algérienne de 1871, étude sociale et religieuse, extrait de la nouvelle revue des 1^{er} et 13 octobre et 1^{er} novembre 1891, édition Berger-Levrault, Paris, 1891.

Louis Rinn, Histoire de l'insurrection de 1871 en l'Algérie, Librairie Adolphe Jourdan, Alger, 1891.

² - قبيلة عامر الشراقة التي كانت موضوع رسالتي في الدكتوراه، بينت مختلف الوثائق والتقارير التي جمعتها من مختلف الأرشيفات الوطنية والأجنبية، أن أصولها تشكلت من عائلات انفصلت عن عامر التي عاشت بسهول سطيف، التي اضطرت رجالها "النشطاء والشجعان" للانفصال عن القبيلة الأم، بعدما أصبح مجالها مكتظاً بالسكان، وعاجزاً عن تغطية احتياجاتهم، حيث تقدموا إلى صالح باي (1771-1792م) يعرضون عليه خدماتهم المتمثلة في تأمين الهدوء، وإرساء الاستقرار في السهول التي يقطعها وادي مهيريس (شرق وادي بومرزوق)، وكون الباي كان يسعى لتأمين سيطرته على هذه الأراضي السهلية المجاورة لعاصمة البايك، فقد وافق على إقرارهم في هذه السهول، ودعوة عائلاتهم للفلاحة فيها، حيث تنقلوا بالتدريج، مطلقين على الحيز الذي استقروا به تسمية "أزارع مهيريس" أما هذه العائلات التي شكلت لاحقاً بطون وفرق عامر الشراقة هم ثلاث:

1. بطن المرشدة: تشكل من فرقتين هما أولاد الواعر، وأولاد جدي.

2. بطن احسانة: تشكل من فرقة أولاد عبد النبي، وفرقة أولاد سلطان، وفرقة أولاد شرقي.

3. بطن مسلم: تشكل من فرقتي أولاد ناصر، وأولاد حليلة.

عاشت ستة من هذه الفرق كمزارعين، عند سلطة البايك التي تفرض عليهم الضرائب، أو كما وردوا في التقرير بمسمى "غرامة" وهم أولاد الواعر وأولاد جدي وأولاد عبد النبي وأولاد سلطان وأولاد ناصر وأولاد حليلة، أما الفرقة السابعة، وهم أولاد شرقي فجعلت منهم السلطة البايكية فرقة عسكرية يجردها البايات في حملاتهم التي يقودونها ضد القطاع الواقع شرق مدينة قسنطينة. للمزيد من التفاصيل حول تاريخ هذه القبيلة ومجالها التاريخي، يرجى الرجوع إلى:

توفيق بن زردة: التحولات الاقتصادية والاجتماعية، المرجع السابق، ص 55-61.

³ - Procès-verbal, division de la tribu des Sellaoua Kherareb en douars, procès-verbaux du Sénatus- Consulte, n° 260. D.R.C.C.

تقسيم قبيلة سلاوة خراب المجاورة لقبيلة عامر الشراقة شرقاً¹، حيث دُون في سجل السيناتيس كونسلت لقبيلة سلاوة الخراب محضراً باللغة العربية بعنوان " تنجيز القانون الشرعي المؤرخ باليوم 28 أبريل 1887م عرض الحال في تحديد دوار عين ملوك من عرش السلاوة الخراب، عمالة قسنطينة، بلدة أم البواقي الممتزجة"².

مما ورد فيه: "نحن فالبول الأمين المكلف بإجراء أعمال التحديد والتقسيم في عرش السلاوة الخراب... بعد اطلاعنا على الأمر الصادر من سعادة الوالي العام المؤرخ في اليوم 18 جوان 1888م وباليوم 08 أوت (أوت) 1888م... قد انتقلنا باليوم 16 فيفري 1889م وصحبنا السيد مورو المهندس لدى إدارة التخطيط إلى وطن دوار عين ملوك... وبعد الفراغ من إقامة الحدود المحيطة بالدوار المزبور كما سطر أعلاه اشتغلنا بتحقيق وتحديد أنواع الأملاك الداخلة في وطنه وربناها حسب ما يأتي..." القطعة الأولى أرض مسماة بعزل بير ستل وعزل جافة (الجحفة) بجانب الدومين الكاينة بالغرب من دوار عين ملوك ومساحتها 2860 هكتار تحريا ويحدها جوفاً وغرباً الحد الفاصل بين دوار عين ملوك والأراضي الجماعية المخبر عنها بكنابسية الجاريان ودوار احسانة ودوار أولاد دريد... سلمها البايك (السلطة الاستعمارية) لأهالي مرابط موسى عوضاً عن أراضيهم وذلك التسليم سيمضى وسينفذ عند صدور موافقة سعادة الوالي العام عليه وبهذا تصير القطعة المسطورة ملكاً لأهالي مرابط موسى المذكورين على وجه الملكية الاشتراكية" وقد وقع على محضر الحدود ممثلاً لدوار احسانة، أحد دواوير عامر الشراقة كل من عبد الله بن عمار وصالح بن احمد بن سي علي وصالح بن عثمان³.

5- سهول عامر الشراقة (عين عبید): المنفى الاضطرابي:

كشفت لنا الأرصدة الأرشيفية المحلية والأجنبية عن وجود علاقات تاريخية قوية بين مشيخة المقراني ومجال عامر الشراقة (عين عبید) الواقع جنوب شرق مدينة قسنطينة، ففي المرحلة العثمانية وقصد تطعيم عامر الشراقة التي وفدت من سطيف بجماعات مختلفة، تعطي دفعا أكثر للنشاط المخزني عمدت سلطة البايك، إلى استغلال تحالفها التقليدي مع أسرة آل المقراني⁴، حيث دفعوا بأولاد قوام من قبيلة الحشم بمجانة الحراس الشخصيين لهذه الأسرة⁵، للانتقال والعيش في مجال عامر الشراقة، حيث أوكلت لهم مهمة رعاية

¹ - عاشت قبيلة سلاوة الخراب على حدود عامر الشراقة الشرقية، في المجال الذي يقعته وادي الشارف بمساحة 89968 هكتار عبر سهول غنية بنشاطها الفلاحي، على غرار سهول تاملوكة، ووادي أركو وسدراتة، ما دفع بايات قسنطينة لإقامة منظومة عزل في هذه السهول كلفت التبعية المباشرة للسلطة المركزية، وصل عددها إلى سبعة وأربعين عزلة، وضعا أربعة عشر منها تحت قيادة شيخ أولاد داود، الذي خضع مرة إلى سلطة قايد الدار ومرة إلى باش سراج، وأخرى إلى الباش مكاحلي، بينما ثمانية عزلات وُضعت تحت سلطة قايد العواسي (الحراكة) الذي يقيم بقسنطينة، والبقية عادت لقاعدة قرفة وحكامها بني مراد، الذي كان قسم من سلاوة خراب تحت سلطتهم.

Procès-verbal, historique et utilisation des Azels dans la tribu des Sellaoua Kherareb, procès-verbaux du Sénatus- Consulte, n°260. D.R.C.C.

J. Maguelonne « Monographie géographique et historique de la tribu des Sellaoua Kherareb » R.S.A.C, n°13, 1869, p.113-172.

² - بعد وقوع قبيلة سلاوة الخراب في قبضة الاحتلال الفرنسي، ألحقت جميع أعزالها بإدارة الدومين، على غرار عين تاملوكة، وبن كحلة والخفاف والزهرة وبن رحاب... الخ، ثم جاء الدور على قانون السيناتيس كونسلت الذي قسمها إلى أربعة دواوير هم: دوار سيدي معاش بمساحة 11850 هكتار، و14 آر، ودوار وادي مقاصبة بمساحة 6907 هكتار، و23 آر، ودوار سلاوة عنونة بمساحة 11843 هكتار، و60 آر، ودوار عين ملوك بمساحة 17112 هكتار، و70 آر، هذا الأخير الذي يقع على حدود عامر الشراقة الشرقية

Procès-verbal, division de la tribu des Sellaoua Kherareb en douars, op.cit.

³ - Procès-verbal, division de la tribu des Sellaoua Kherareb en douars, douar Ain Melouk, procès-verbaux du Sénatus- Consulte, n°260. D.R.C.C.

Département de Constantine, commune mixte d'Oum Bouaghi, Exécution de la loi du 28 Avril 1887, procès-verbaux du Sénatus- Consulte: Tribu Kherareb Sellaoua, n°260.D.R.C.C.

⁴ - L.Ch. Féraud « Histoire des villes de la province de Constantine, Bordj Bou Arréridj » R.S.A.C, n° 22, 1878, p.56.

⁵ - الحشم أصولهم من قبيلة بني عامر، جلبهم آل المقراني معهم من معسكر، بعد مشاركتهم إلى جانب حسن بن خير الدين في حملته على وهران سنة 1563م التي كانت قبضة الإنسان، حيث أقروهم بالقرب من جبل القلعة شمال مجانة، وبقيوا أوفياء لآل المقراني إلى مرحلة الاحتلال الفرنسي.

Ministre de la Guerre, Tableau de la situation des Etablissements Français dans l'Algérie imprimerie Royale, Paris, vol.1(1838), p, 338.

خيول البايك، بعدما خصصت لهم الأراضي الشمالية في موطنهم الجديد والممتدة من جبل أم اسطاس إلى وادي مهيريس، وهي الأراضي التي نسبت إليهم في المخططات العقارية، باسم "القوامية" بمساحة قدرت بـ 3014 هكتار و50 آر¹.

لم تنقطع علاقة أسرة المقراني بمجال عامر الشراقة (عين عبيد) حتى في مرحلة الاحتلال الفرنسي، لكن هذه المرة بدفع كولونيالي، فبعد انتفاضتهم ضد الاحتلال الفرنسي سنة 1871م ومصادرة أملاك الباشاغا محمد المقراني المنقولة والغير منقولة، بأمر من الحاكم العام لامبير (Lambert) في 25 مارس 1871م، وهو الإجراء الذي شمل أيضا فروعاً وأفراداً من عائلة المقراني بعد قرار 26 ماي 1872م وهم أولاد عبد السلام، وأولاد قندوز، وأولاد عبد الله، وأولاد الحاج، وأولاد بورنان، وأولاد عبد الرحمان وعدداً من أفراد أولاد مقران بالحضنة².

بعد إجراءات المصادرة بينت لنا المخططات والوثائق، التي عثرنا عليها بالمديرية الجهوية لمسح الأراضي بقسنطينة، وبأرشف ما وراء البحار، أن أرملة المقراني وأفراد عائلتها نقلتهم سلطات الاحتلال إلى سهول جنوب شرق قسنطينة، حيث القضاء الذي يعرف اليوم بعين عبيد، بعدما أجزتها مساحة 283 هكتار بعزل بلعيدية أحد الأعزال التي صادرتها إدارة الاحتلال من مجال عامر الشراقة وألحقته بإدارة الدومين³.

وإن كنا لم نثر على تاريخ نقل العائلة بالضبط، لكن الوثائق التي عثرنا عليها تحدثت عن إيجار أرملة المقراني للعزل لمدة ثلاث سنوات، وينتهي الإيجار في 30 سبتمبر 1879م، ما يؤكد على الأقل أن العائلة تنقلت للعيش بعزلة بلعيدية بسهول عامر الشراقة في 01 سبتمبر من سنة 1876م، مع بداية الموسم الفلاحي، رغم أن الوثائق التي عثرنا عليها لم تثبت أو تنفي ما قبل هذا التاريخ⁴. لكنها تؤكد في المقابل أن إيجار إدارة الدومين لعزلة بلعيدية لصالح أرملة المقراني تم بالتراضي ودون مزايدة وبمبلغ قدر بـ 10 فرنك للسنة الفلاحية وذلك "قصد تأمين عيشهم" حسب تقرير إدارة الاحتلال، لكنه في حقيقته مخطط يهدف إلى تشتيت واحدة من أهم الأسر "الإقطاعية" التي عاشت في الشرق الجزائري وشاركت في إدارة حكمه لقرون.

وحسب نفس الرصيد الأرشيقي الذي عثرنا عليه بفرنسا لم تستقر أرملة المقراني وأفراد عائلتها مطولاً في عزلة بلعيدية، ما يرجح غياب تأثيرهم المحلي في مجال عامر الشراقة خلال هذه الفترة، حيث جاء بعدها مشروع تحويل العزل إلى مجال استعماري مفتوح على الاستيطان الأوروبي، وذلك تزامناً وقرب نهاية إيجار العائلة في 30 سبتمبر 1879م، ليعجل ذلك بعد توصية من الحاكم العام للجزائر ألبار غريفني (Grévy Albert) بنقلهم من عزل بلعيدية بعد إيجاد بديل لهم، حيث خلصت الإجراءات التي تمت على مستوى هيئة الأركان وبريفي قسنطينة، ومصلحة الدومين على تحويل أرملة المقراني وعائلتها إلى سهول عين مليلة، وبالتحديد إلى القطعة رقم 06 في عزل الفسقية، حيث أجرت لهم مساحة 299 هكتار، تعويضاً لهم عن عزل بلعيدية في عين عبيد⁵.

L.Rinn, op.cit, p.110

¹- Procès-verbal, origine et historique de la tribu des Ameurs Cheraga, 1864, procès - verbaux du Sénatus - Consulte, n°14: Tribu des Ameurs Cheraga. D.R.C.C.

Cercle de Constantine, Constitution propre de la tribu des Ameurs Cheraga, FR.ANOM, 8H/3.

²- يحي بوعزيز، مواقف العائلات الأرستقراطية من الباشاغا المقراني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص: 108-113.

³- الباي محمد تشاكر كان يعرف عامر الشراقة وفضاءها جيداً، لأنه خبرها قائداً، قبل أن يكلفه الباي نعمان بمهام أخرى، ولما أصبح بايا على قسنطينة، وجه اهتمامه لتأسيس عزلات بها، حيث غلبت عليه ميوله العسكرية عند توزيعه لهذا النوع من الأراضي، فمنح المدعو "رجم بن عيدي" أصيل ضواحي سطيف وواحد من فرسان المخزن، عزلة بمساحة 373 هـ، و85 آر اجتازها وادي مهيريس، وهي العزلة التي حملت اسم "عزلة بلعيدية" نسبة لرجم بن عيدي.

Historique des Azels du Caidat des Ameurs Cheraga, procès - verbaux du Sénatus - Consulte, n°14: Tribu des Ameurs Cheraga. D.R.C.C.

⁴- L'installation de la veuve Mokrani et de sa famille sur l'Azal Beleidia, FR ANOM, 4L/41.

⁵- FR ANOM, 4L/41.

طبعاً حرب الشتات الأسري من منطلقات عقارية بديلاً عن المدفع، شملت مختلف الأصول المقرانية، حيث جعلت إدارة الاحتلال الفرنسي من أعزال عامر الشراقة بعين عبيد منفى ووعاءاً ترابياً لتفكيك الروابط المادية والمعنوية، لأسرة المقراني وفروعها، فإلى جانب أرملة المقراني وعائلاتها، بادلت سلطة الاحتلال محمد الصغير المقراني وعبد السلام المقراني، بعض أراضيها المصادرة في محالهم التاريخي الذي عاشوا به، بمساحات في عزل "بيار الطين"¹ الواقع في التلال السهلية التي تعرف محلياً بصراوات عامر الشراقة، حيث تحصل محمد الصغير المقراني بموجب العقد الإداري الصادر بتاريخ 24 مارس 1877م على مساحة 79 هكتار، وتحصل عبد السلام المقراني بموجب نفس العقد على مساحة 68 هكتار².

خاتمة:

لقد كانت من أولويات الأجندة الكولونيالية في الجزائر ضرب الأسر الكبرى والقوى المحلية على غرار الحنانشة والنمامشة و الذواودة، وآل المقراني، باعتبارهم مفاصل اجتماعية - اقتصادية وهيكل تاريخية جيواستراتيجية تحكمت في المتغيرات السياسية بقدر تحكمها في النطاقات الزراعية والأضلع الرعوية، حيث كشف لنا النموذج المقراني أن الفلسفة الاستعمارية عمدت إلى الدرجة الاجتماعية، والتفكيك البنيوي للجماعات الريفية، وتوجيه العصية القبلية لديها بما يكفل تعطيل دورها الفاعل في بناء مسارات سياسية من شأنها احتضان الفعل المقاوم لغطرسة الاحتلال، أو تكون بديلاً بعد انهيار النموذج العثماني في الجزائر.

لقد كشفت لنا هذه الورقة البحثية التي بنيت على مختلف الأرصدّة الأرشيفية داخل الوطن وخارجه، أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر لم يكن يحمل بين ثناياه مرادفات الحرب العسكرية فحسب على غرار القمع، القتل، القنبلة... الخ، بل بالعكس حملت هذه الأجندة بين طياتها حرب أعمق وأخطر، استهدفت بالأساس تفكيك رابطة الإنسان والأرض من خلال آليات: تمييز المجال، التفكيك وإعادة التركيب، الطرد البشري، تهشيم آليات العيش، وتشتيت محاور الغذاء، وحركة العشابة، هي في الواقع الحرب الحقيقية الغير معلنة التي جعلت من مشيخة المقراني والقبائل المنضوية تحت لوائها بفقر اقتصادي وشتات اجتماعي، بعدما حولت فيه إدارة الاحتلال سهول عين عبيد ضواحي قسنطينة إلى منفى لأسرة المقراني.

¹ - توجه الباوي محمد تشاكر لأول مرة نحو استغلال صراوات عامر الشراقة الغنية بالفلاحة ليشكل فيها عزلات، تحذوه دائماً ميوه العسكرية، حيث اختار هذه المرة المدعو "سي محمد بن النوري" أحد فرسان المخزن المخلصين له، ليكون من نصيبه عزلة بمساحة 434 هكتار و75 آر، انتشرت بها آبار طينية فعرفت بـ "عزلة بيار الطين" التي بقي ورثته يستغلونها ورفضوا مصادرتها من قبل مصلحة الدومين بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر ودخلت أطوار النزاع الإداري.

Historique des Azels du Caidat des Ameurs Cheraga, procès - verbaux du Sénatus -Consulte, n°14:Tribu des Ameurs Cheraga. D.R.C.C.

Exécution du Sénatus-Consulte du 22 avril 1863, Etats des revendications du service du domaine, procès-verbaux du Sénatus - Consulte, n° 14.D.R.C.C.

² - Département de Constantine, service topographique, Douar Ouled Nasseur, Biar Etinne (ancien groupe domanial), cédé par l'Etat à des particuliers par acte administrative le 24 mars 1877 (compensations).D.R.C.C.

الملحق 01: موقع عزل بلعيدية بمجال عامر الشراقة (عين عبيد) الذي نقلت إليه أرملة المقراني وعائلتها¹



¹- Service topographique, Plan des fermes isolée de Azel Beleidia, échelle: 1/ 40000. FR ANOM, 4L/41.

- Province de Constantine, Plan de l'Azels Beleidia, Echelle du 1/ 100000. Service topographique, Plan des fermes isolée de Azel Beleidia, échelle: 1/ 40000. FR ANOM, 4L/41.

**GOVERNEMENT GÉNÉRAL
DE L'ALGÉRIE**

**DIRECTION
DE
L'INTÉRIEUR**

2^e Bureau

ANALYSE
Colonisation.

MINUTE DE LA LETTRE ÉCRITE

par *Rouyer*

Note
pour Monsieur le Général
Chef d'état-major général

26.1269

28 aout 1878.

Contenu de l'azel
Beleidia, loué à prix
réduit à la famille des
Ouled Mokran.

La location d'une demande de concession de partie
de l'azel Beleidia, située chez les anciens cheragats, présentée
par M. Perrine, au Général a été soumise à la Commission
de l'azel et de la construction a lui fait savoir de la remise de ce
document au service de la colonisation offrirait des avantages.

Le fonctionnaire estime qu'il y aurait ^{intérêt} à aller
sur cet azel 3 à 4 fermes, en vue de relever les villages
d'Ain Abid et de Ben Nouara, créés par la Société Générale
algérienne, sur les terres de l'azel Beleidia. M. le Directeur
des Domaines a été cependant desiré faire remarquer que cet
azel avait été réuni jusqu'ici, pour être loué, de gré à gré
et à prix réduit, en vertu des instructions de l'autorité
supérieure, à la famille des Ouled Mokran, dans le but de
leur assurer des moyens de subsistance.

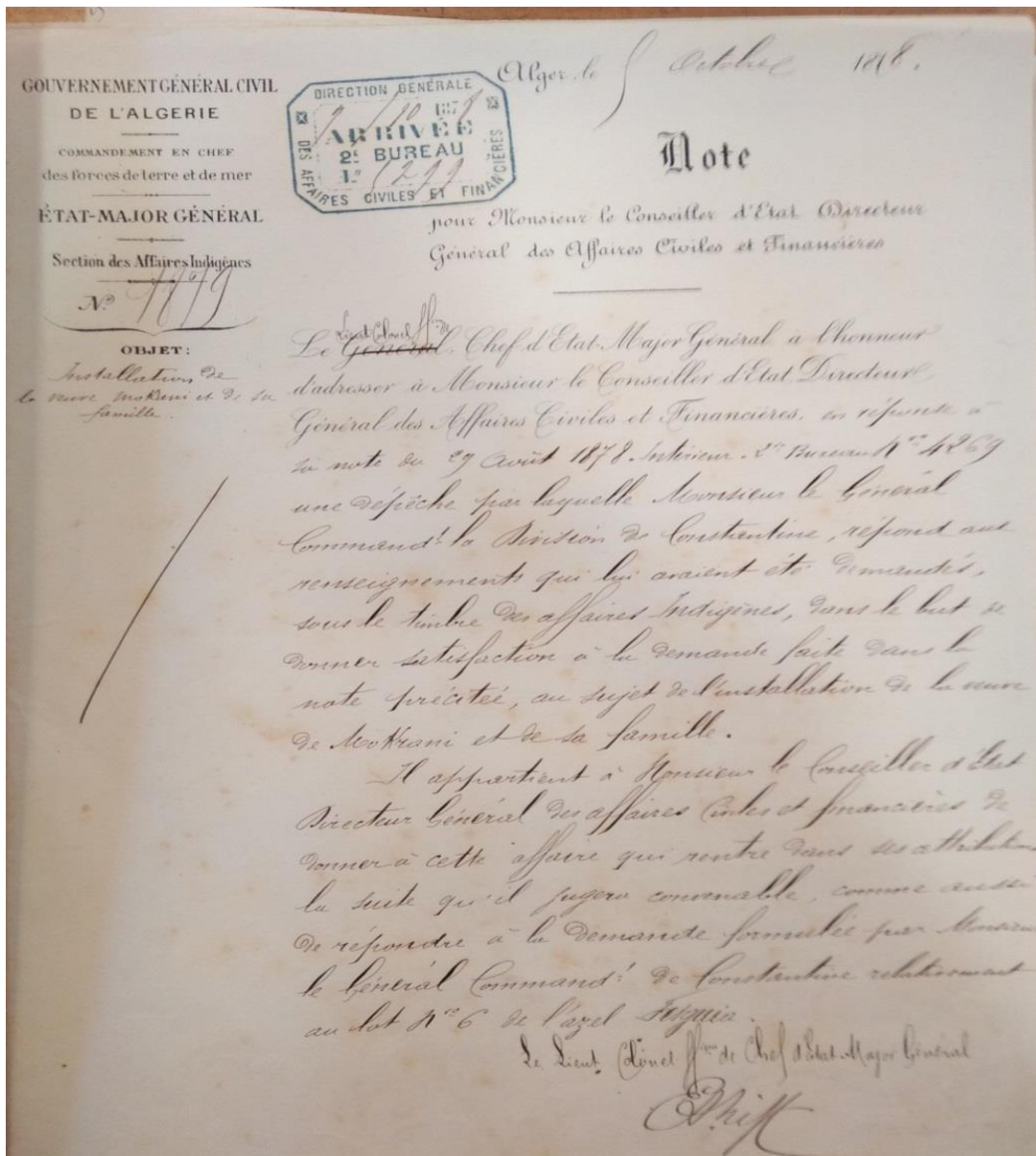
Par une annotation marginale M. le Gouverneur Général
demande si les gens des Ouled Mokran sont établis sur
cet azel et dans le cas de l'affirmative prescrit de les
déplacer qu'après avoir assuré leur installation ailleurs.

La location de l'azel en cours de durée, consentie aux
Ouled Mokran ~~doit~~ ^{doit} expirer le 30 7^{bre} prochain; il appa-
raît à Monsieur le Général Chef d'état-major général que
miss la question de savoir si cette location doit ou non être
renouvelée et si les occupants actuels doivent être déplacés.

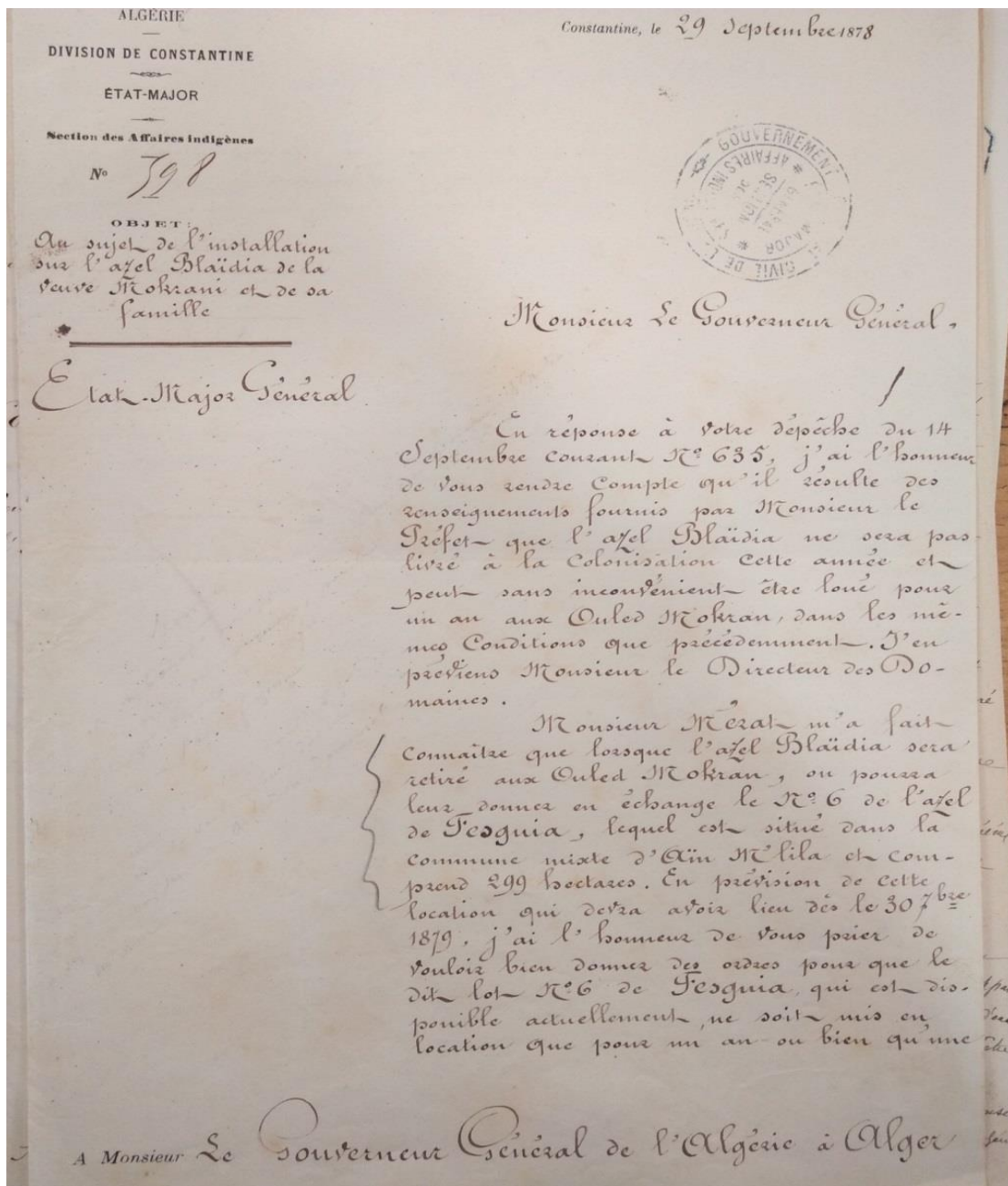
Des qu'une décision sera intervenue à cet égard, le Conseil
d'état Directeur Général ~~doit~~ ^{doit} ~~à l'azel~~ ^{à l'azel} Monsieur le Général
Chef d'état-major général se verra bry d'en avis.

Rédigé par M.
Expédié par M.

¹- Gouvernement général de l'Algérie, direction de l'intérieur, 2^e bureau, analyse colonisation, Note pour monsieur le général chef d'état-major général, au sujet de l'Azal Beleidia louée à prix réduit à la famille Ouled Mokran, 28 aout 1878. FR ANOM, 4L/41.

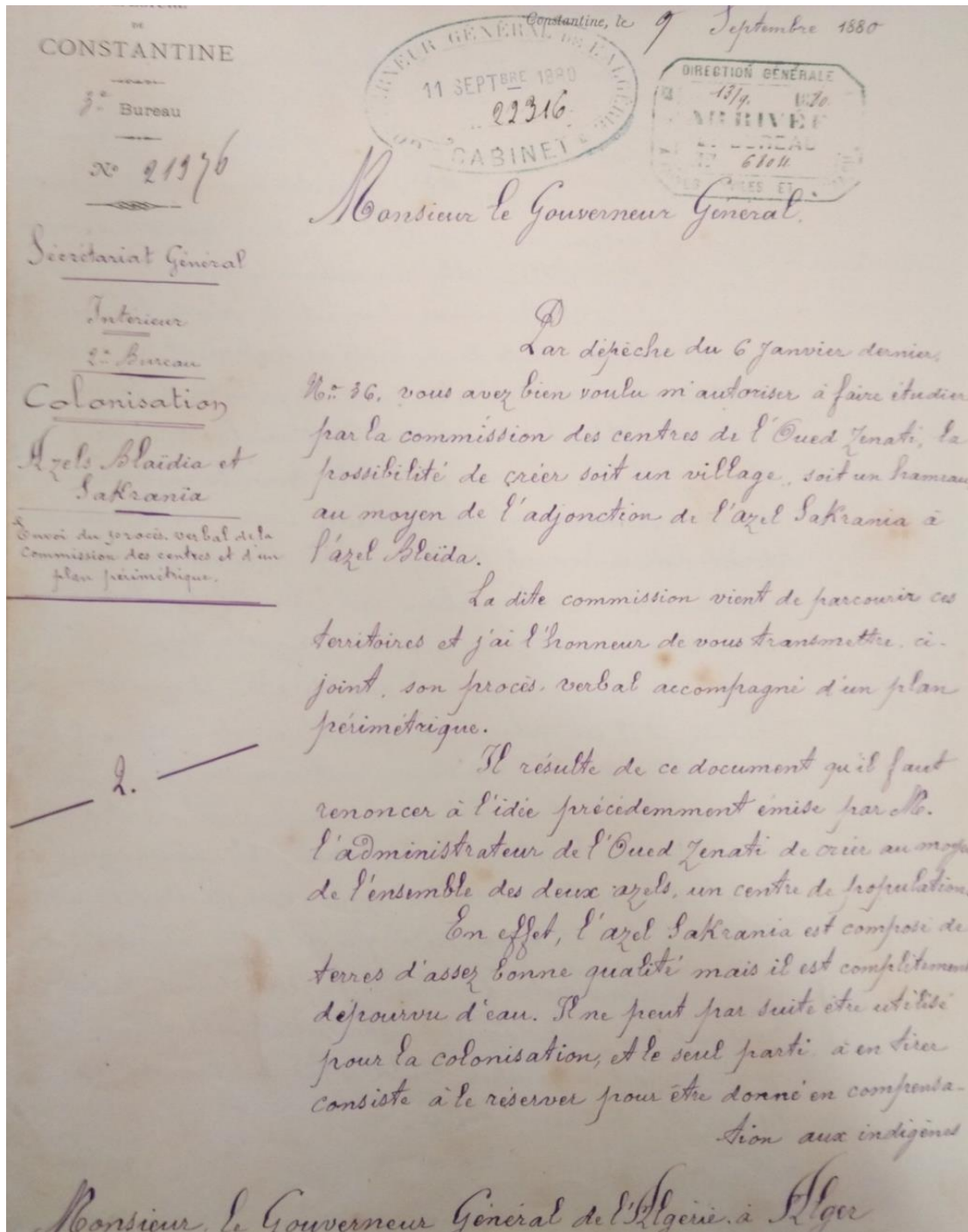


¹ - Gouvernement général civil de l'Algérie, direction, commandement en chef des forces de terre et de mer, Etat-major général, section de affaires indigènes, pour monsieur le conseiller d'Etat direction général des affaires civil et financier, 5 octobre 1878, objet: installation de la veuve Mokrani et sa famille, FR ANOM, 4L/41



¹- Division de Constantine, Etat-major, L'installation sur l'Azel Beleidia de la veuve Mokrani et sa famille. FR ANOM, 4L/41.

الملحق 05: مشروع تحويل عزلي بلعيدية والسكرانية إلى مجال استيطاني وتحويل أرملة المقراني وعائلتها إلى عزل بسهولة عين امليلة
(1880م)¹



¹ - Colonisation, Azels Beleidia et Sakrania. FR ANOM, 4L/41.

أضواء على أوضاع المقرانيين المهاجرين إلى البلاد التونسية بعد انكسار ثورتهم سنة 1871م

العياشي رواجي - جامعة عنابة

إن دراسة تحمل عنوان " أضواء على أوضاع المقرانيين المهاجرين إلى البلاد التونسية بعد انكسار ثورتهم سنة 1871م" سوف تثير العديد من التساؤلات التي تتمحور أساسا حول السياسة الخرقاء التي انتهجها المستعمر الفرنسي تجاه عائلة المقراني منذ بداية الاحتلال إلى نهاية إعلان ثورتها سنة 1871م وكذلك حول عمق الروابط التاريخية التي تجمع بين الشعبين الجزائري والتونسي منذ عهود سحيقة وخاصة منذ القرن التاسع عشر، حيث تعرض فيه البلدين الجزائر وتونس إلى الهيمنة الاستعمارية والفرنسية، وغني عن البيان أن البلاد التونسية كانت وقتئذ ملاذا آمنا للجزائريين الذين شدوا لها الرحال خاصة قبل انتصاب الحماية الاستعمارية الفرنسية عليها سنة 1881م للفكك من بطش المستعمر الفرنسي الذي سلط ضدهم سياسة جائرة.

وفي هذا الإطار، هاجر جمع غفير من عائلة المقراني إلى هناك بعدما تمكن المستعمر الفرنسي من إخماد ثورتها التي أعلنها الباشاغا محمد المقراني سنة 1871م ونلاحظ من خلال وثائق الأرشيف التي تيسر لنا الاطلاع عليها سواء في الأرشيف الفرنسي أو في الأرشيف الوطني التونسي أنه بعد استقرارهم بهذا البلد كتبوا العديد من الخطابات إلى الرسميين التونسيين وأجروا معهم كثيرا من الاتصالات وأرسلوا لهم العديد من العرائض المطالبة بحدثهم فيها عن أوضاعهم الاجتماعية والمادية المتدهورة، ومطالبين منهم إسعافهم ومساعدتهم على الاستقرار بالبلاد التونسية.

وحتى يتيسر لنا منهجيا فهم واستيعاب حقيقة أوضاع هؤلاء المقرانيين المهاجرين إلى البلاد التونسية حينئذ، يجدر بنا معرفة خلفيات هذه الهجرة في البداية. وعليه ستكون فاتحة حديثنا في هذا البحث تدور حول علاقة المقرانيين بالإدارة الاستعمارية الفرنسية قبل 1871م، وإننا لا نبتغي من خلال ذلك الغوص في الجزئيات والتفاصيل، وإنما إعطاء فكرة عامة وموجزة حول ذلك لعلها تساعدنا أكثر على فهم واستجلاء الأحداث التي نسوقها، بعد ذلك نعرض إلى هجرتهم هناك، ثم نطرق موقف الأمير عبد القادر الذي انشغل ألبا انشغال بقضيتهم وسائر أبناء بلده الذين فضلوا الهجرة إلى هذا البلد المجاور، وأخيرا نسلط الضوء على موقف الفرنسيين في كل من تونس والجزائر من العرائض المطالبة التي قدموها لنجدتهم وإسعافهم من حمأة الفقر والحاجة التي تردوا فيها.

1- المقرانيون والإدارة الاستعمارية الفرنسية 1838-1871م: من التحالف إلى التصادم.

من المهم الإشارة في البداية إلى أن الفرنسيين عندما احتلوا الجزائر سنة 1830م كانت قد اعترضتهم العديد من الصعوبات والعراقيل، مثل المقاومة الشعبية العنيفة التي أعلنها السكان ومختلف القبائل في المدن والأرياف، كما أن جهل الفرنسيين بجغرافية البلاد و"طبيعة العمران" ودواخل المجتمع الجزائري جعلهم يفكرون في الأسلوب الأمثل الذي يعبد لهم الطريق لإحكام السيطرة على مفاصل البلاد بأقل الوسائل وأيسر الطرق. وبما أن المشروع الاستعماري الفرنسي وقع تنفيذه وفقا لدراسات علمية اثولوجية وسوسولوجية قدمها أخصائيون لتيسير السيطرة الاستعمارية واختراق المجتمع الجزائري¹، فقد تأكد الفرنسيون أن بلدهم لا يمكنه أن ينعم بالاطمئنان ما لم يوطدوا علاقتهم بالعائلات الكبرى التي تنتج النخب الدينية والدينية والتي يمكنها أن تستوعب حقيقة الحضارة الفرنسية ثم تقوم بنقلها إلى عموم سكان الجزائر²، ذلك أن هذه العائلات كانت تحظى بالاحترام وكلمتها مسموعة لدى السكان

¹ - Abdelhamid Benachenhou, Connaissance du Maghreb, Notions d'ethnographie, d'histoire et de sociologie, Presse des éditions populaire de l'armée nationale, Alger, Algérie, 1976, p181.

² - Archives d'Outre-mer à Aix en Provence, France, F80.497, rapport de Juillet 1849

بحكم منبتها الشريف، وأن أهل هذه البلاد لا يكونون إلا لذوي الحسب والنسب، وأنهم لا يحكمهم سلطان ولا يطمئنون لسلطة إلا إذا كانت سلطة "أرستقراطية"¹.

وعلى هذا الأساس، حاولوا استقطاب هذه العائلات نحو المعسكر الفرنسي لتحقيق هذه الغايات الاستعمارية. ولا شك أن عائلة المقراني كانت إحدى العائلات الكبرى التي تحوز على هذه المواصفات في مقاطعة قسنطينة، حيث كانت تحكم سيطرتها على جهات واسعة من غرب البايليك القسنطيني. وكانت أيضا من العائلات المقربة من السلطة العثمانية حيث ارتبطت بالحاج أحمد باي (1826-1847م) آخر بايات قسنطينة بعلاقة مصاهرة مع أحد أعيانها، إذ تزوج من عيشوش ابنة الشيخ محمد بن عبد السلام المقراني². فكيف كان موقف هذه العائلة من المستعمر الفرنسي؟ وكيف بدأت علاقتها به؟ ماهي الخدمات التي قدمتها هذه العائلة للفرنسيين وكيف انتهت هذه العلاقة؟

رغم الضعف الذي ميّز هذه العائلة في نهاية العهد العثماني، إلا أن المقرانيين شاركوا إلى جانب قوات الحاج أحمد باي في صد الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830م، وأبلوا بلاء حسنا في معركة سيدي فرج وسطاوي³. وعندما شن الفرنسيون حملتهم الأولى على قسنطينة سنة 1836م بهدف إخضاعها آزر المقرانيون الحاج أحمد باي في مقاومته⁴، وبقوا ثابتين على موقفهم خلال الحملة الفرنسية الثانية التي انتهت بسقوط المدينة في 13 أكتوبر 1837م⁵. غير أنهم سرعان ما تخلوا عن هذا النهج وانفضوا من حول الباي ومالوا للصف الفرنسي، وهكذا تم رسميا تقليد كبيرهم الشيخ أحمد المقراني خليفة على مجانة من قبل المارشال "فالي" Valee بقصر الباي بقسنطينة يوم 24 أكتوبر 1838م بحضور عدد غير قليل من الأعيان والقضاة ورجال الدين، وتم تسميته في هذا المنصب تبعا للأحكام والكيفيات والإجراءات والترتيبات وسائر الأعراف والتقاليد التي تم التنصيص عليها في أحكام الشريعة المحمدية على حد قول المارشال فالي في الخطاب الذي وجهه إلى وزيره للحرية في تلك الأثناء والذي حاول من خلاله كذلك تبرير سياسته التي سعى إلى تطبيقها في الجزائر، والتي كان أساسها قراره الشهير⁶، والمعروف بقرار المارشال فالي في 30 سبتمبر 1838م الذي استقطب من خلاله رؤساء العائلات الكبرى إلى الصف الفرنسي، وقد فصل المارشال فالي هذه المسألة في خطابه المطول الذي كتبه قبل ذلك ببضعة أيام إلى الوزير نفسه⁷.

وتبعا لذلك، انكبت عائلة المقراني على خدمة مقاصد الإدارة الاستعمارية الفرنسية، وليس المجال هنا هو الحديث عن هذه الخدمات، إنما نشير فقط إلى أن المقرانيين ساهموا في التمكين للمستعمر الفرنسي على مستوى قيادتهم والمناطق الخاضعة لنفوذهم، فأذعنوا السكان لإرادة الفرنسيين، وعضدوا الجيوش الفرنسية في مختلف حملاتهم العسكرية ضد السكان والقبائل الثائرة، وكانوا أيضا يمثلون عيون المستعمر الساهرة على الأمن الاستعماري إذ كانوا يرصدون كل حركات السكان والقبائل. غير أن الفرنسيين بعدما ركزوا نفوذهم في هذه المناطق عملوا تدريجيا على تخطيط نفوذهم، فشجعوا سياسة التفرقة بين أفراد عائلتهم وفروعها⁸، وعملوا على تجزئة قيادتها وإشراك عائلات أخرى في الحكم بهدف إضعاف نفوذها⁹، يضاف إلى هذا أن الفرنسيين عملوا على مضايقة هذه العائلة

¹ - Abdeljalil Temimi, Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed 1830-1837, presses de la société Tunisienne des arts graphiques, Tunis, Tunisie, 1978, p61.

² - Louis Rinn, Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Paris, France, 1891, p.16.

³ - Mouloud Gaid, Mokrani, éditions andalouses, Algérie, 1993, p.41.

⁴ - Louis Rinn, op. cit, p60.

⁵ - Georges Yver, Correspondances du Maréchal Valee, Tome 1, éditions larose, France, 1949, lettre adressée au ministre de la guerre, le 24 octobre 1838, pp241,242.

⁶ - Centre d'archives d'Outre-mer à Aix en Provence, France, F 80.1672, Rapport du Maréchal Valee au ministre de la guerre le 04octobre 1838.

⁷ - A.Martel: "A propos du Sahara de Constantine 1830-1880: Rivalites des coffs et interprétation des documents", in Revue Maghreb et Sahara, France, 1973, pp.279,280.

⁸ - Tayeb chentouf, l'Algérie en 1954, Documents d'archives, O. P. U, Alger, Algérie, 2006, pp.165,166.

⁹ - Centre d'archives d'Outre-mer, France, 10kk32, Rapport du 16 Mars 1857.

ضريبيا، فإذا كانوا في البداية قد اعترفوا لها بالاحتفاظ بثالث الضريبة وتسليم الثلثين الباقيين للخزينة الفرنسية بمقتضى أحكام قرار المارشال فالي 1838م الذي أشرنا إليه سابقا، فإنهم سرعان ما تراجعوا عن ذلك وقاموا بتخفيض نصيب هذه العائلة إلى عشر الضريبة¹.

ومن أوجه المضايقات الأخرى أن الفرنسيين اتهموا وجهاء هذه العائلة بالتقصير في أداء المهام والتعاطف مع الثوار وخاصة ثوار الزواغة² وفرجيوة سنة 1864م فوجهوا توبيخا للباشاغا محمد المقراني إثر ذلك³، وغيرها من الإجراءات الأخرى التي باشرتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية لـ "تقليم أظافر" هذه العائلة والحد من صلاحياتها. وهي في الحقيقة إجراءات ظالمة كانت لها ردود فعل عنيفة من جانب هذه العائلة، تجسدت في ثورتها التي أعلنها الباشاغا محمد المقراني حينما قطع كل علاقته مع السلطة الفرنسية وأعلن الثورة في 15 مارس 1871م⁴.

والحقيقة أن الفرنسيين تمكنوا من إجهاضها، وقد كانت حقا أشرس ثورة قام بها المجتمع الريفي الجزائري ضد الوجود الاستعماري الفرنسي خلال القرن 19م⁵. وقد باشر الفرنسيون عدة إجراءات عقابية ضد قادتها، وكان عقابها عقابا أليما لأنه يمثل عقاب الطرف الخاسر والمغلوب أمام العدو الغالب المنتقم، فصادروا ممتلكاتهم، وفرضوا غرامات الحرب عليهم، وأحالوهم على القضاء الذي أصدر أحكاما قاسية ضدهم بغير وجه حق، شملت السجن والأعمال الشاقة والنفي إلى المناطق البعيدة خارج الوطن، وهاجر البعض منهم إلى البلاد التونسية هروبا من عسف وجبروت الإدارة الاستعمارية الفرنسية.

2- هجرة المقرانيين إلى البلاد التونسية:

بعد قضاء الفرنسيين على ثورة المقرانيين، فضل عدد غير قليل منهم النزوح والهجرة إلى البلاد التونسية كما قدمنا، وكان الفرنسيون يتبعون باهتمام شديد أخبارهم هناك. وفي هذا الإطار كانوا يتواصلون مع ممثلي بلادهم هناك ويحدثونهم حول هذا الموضوع ويدعونهم إلى الانشغال بهم ورصد كل تحركاتهم وإحكام الرقابة عليهم، وهذا ما تؤكد تقاريرهم الأمنية التي كان يتبادلها الرسميون الفرنسيون في الجزائر وتونس وقد أشار تقرير بقلم القنصل العام الفرنسي في تونس إلى أن الفئة المقرانية بدأت تتقاطر على البلاد التونسية في خضم أحداث ثورتهم، ولم ينتظروا نهايتها لكي يشدوا الرحال لأنهم كانوا يعلمون أنهم سيغلبون⁶.

وإذا أردنا معرفة السياق العام الذي جرت فيه هذه الهجرة لقلنا أنها كانت حينئذ من الضرورات التي وجب على المقرانيين والجزائريين المسلمين بصفة عامة العمل بها في تلك المرحلة الدقيقة من تاريخ الجزائر التي تحولت إلى "دار حرب" أو "دار كفر" مما يستوجب مبارحتها والهجرة إلى "دار الاسلام" أو "دار السلم" التي تمثلها البلاد التونسية وسائر البلاد الإسلامية وفقا للتمثيلات الدينية السائدة حينئذ. وقد راجت هذه الفكرة خلال القرن 19م، وتبناها رواد المقاومة الوطنية المسلحة الذين استقروا بالبلاد التونسية. ويطول بنا الحديث إذا رحنا نستقرئ خطاباتهم التي كانوا يرسلونها إلى الرسميين في تونس ويحدثونهم فيها عن مسوغات هجرتهم حيث يعتبرون أنفسهم أنهم مهاجرون في سبيل الله، وأن هجرتهم إلى هناك كانت امتثالا لتعاليم الدين الإسلامي. فقد كتب الثائر الناصر بن شهرة مثلا الذي عاصر ثورة المقراني وهجرة ثوارها إلى البلاد التونسية رسالة إلى الباي التونسي أشار له فيها إلى أنه

¹ - Centre d'archives d'Outre-mer à Aix en Provence, France, 40kk5, Rapport du 18 Mars 1847.

² - Louis Rinn, op. cit, p. 38.

³ - Charles-Robert Ageron, les Algériens Musulmans et la France, 1871-1919, Tome Premier, Éditions Bouchene, France, 2005, p6.

⁴ - Benjamin Stora, Histoire de l'Algérie coloniale 1830-1914, ENAL, 1996, p.40.4

⁵ - Centre d'archives d'Outre-mer à Aix en Provence, France, 25H18, lettre du consul général de France à Tunis, le 24 Novembre 1871, no 191.

⁶ - الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 930، رسالة الناصر بن شهرة إلى محمد باي، وهي غير مؤرخة، ويفهم من سياق الأحداث أنها كتبت في نهاية خمسينيات القرن 19م، وثيقة رقم 29.

هاجر في سبيل الله، لذا التمس منه أن يشملته برعايته ويخلصه من غوائل الدهر¹.

ويفهم من إحدى الوثائق التي تعود إلى نهاية القرن 19م أن هناك عدة قبائل بالقطاع القسنطيني هاجرت إلى البلاد التونسية في صدر الاحتلال بسبب امتعاضها ورفضها العيش بين أظهر الكفار مثل قبيلة النمامشة التي هاجر منها عرش أولاد رشاش والبرركة². ونحن نسوق هذين المثالين لكي نبين أن هجرة المقرانيين إلى البلاد التونسية كانت أيضا استجابة لقناعة دينية، لكنها مع ذلك ارتبطت أكثر بحجرات المستعمر الفرنسي وعسفه الذي أصدر في حقهم عقوبات قاسية شملت السجن والنفي ومصادرة كل ما ملكت أيديهم وتقليكها للمستوطنين وفقاً لقرار جائر صادر بتاريخ 25 مارس 1871م يتشكل من دياحة وخمسة فصول، خصصت الفصول الثلاثة منه لعملية المصادرة³.

3- تدهور أحوال المقرانيين بالبلاد التونسية وانشغال الأمير عبد القادر بأمرهم:

يتضح لنا من خلال الرسائل الكثيرة المحفوظة بالأرشيف الوطني التونسي التي كان يرسلها أبناء عائلة المقراني المقيمين بتونس إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية في كل من تونس والجزائر أن وضعيتهم الاجتماعية تدهورت كثيراً، ويبدو أن حالتهم الحرجة التي كانوا عليها هي التي جعلت الأمير عبد القادر المقيم ببلاد الشام يتألم لرؤيتهم يتخبطون في حمأة الفقر والإملاق فما هي الجهود التي بذلها الأمير عبد القادر لانتشال هذه الفئة المقرانية من الوضعية الاجتماعية البائسة التي لحقت بها؟

عندما استقر المقرانيون بالبلاد التونسية كان الأمير عبد القادر يعيش رفقة عائلته بسوريا ولما بلغته أخبار هجرتهم إلى هناك، وتدني حالتهم المادية والاجتماعية، حاول إسعافهم وتقديم يد المساعدة لهم. وفي هذا الإطار راسل الرسميين التونسيين واستوصاهم خيراً بهم، وكتب رسالة إلى الوزير خير الدين والتمس منه أن يشملهم "بلحظة تخلصهم من غوائل الدهر وتنقدهم من شرك الكدر والقهر"⁴.

كما كتب رسالة أخرى إلى الوزير التونسي مصطفى خزندار طالبا منه "الاعتناء بالفئة المقرانية وأولاد يلبس... أو توجيههم جميعاً إلى الديار الدمشقية"⁵، وبحكم العلاقة الوطيدة التي كانت تربط الزعيم المقراني محمد بن عبد السلام المقراني بالأمير عبد القادر إذ كان خليفة له خلال الفترة التي كان فيها ثائراً ضد الفرنسيين فقد راسله عندما ساءت أحواله المادية وطلب منه يد العون، فاستجاب الأمير عبد القادر لطلبه دون إبطاء، بل أكثر من ذلك فقد يسر له كل إجراءات وتراتيب السفر إلى دمشق، كما توسط له أيضا لدى السلطان العثماني، فسافر إلى القسطنطينية واستقبله السلطان عبد العزيز وأكرم نزله، وخصص له منحة ثابتة بتوصية من الأمير عبد القادر. غير أنها سرعان ما ألغيت بمجرد وفاة هذا الأخير سنة 1883م. الأمر الذي أرغمه على العودة مجدداً إلى البلاد التونسية⁶.

لم يتخل أبناء الأمير عبد القادر عن دعمهم ومؤازرتهم للمقرانيين بعد وفاة والدهم، حيث بقوا يتتبعون أخبارهم ويستفسرون عن أحوالهم. وفي هذا الإطار اتصل الأمير الهاشمي نجل الأمير عبد القادر المستقر بالديار الدمشقية بالسلطات الاستعمارية الفرنسية بتونس، واستوصاهم خيراً بالمقرانيين وبالأساس محمد بن عبد السلام المقراني مثلما فعل والده في وقت سابق مع السلطات التونسية

¹ - Centre d'archives d'Outre-mer à Aix en Provence, France, 25H13, (1884-1894), Dossier n° 1, Douars et tribus établis sur le territoire tunisien, rapport de Constantine le 19 juillet 1892, folio n° 73.

² - يحيى بوعزيز: ثورة 1871م ودور عائلي المقراني والحداد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م، ص 387-388.

³ - الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، الحافظة 78، الملف 929، رسالة الأمير عبد القادر إلى الوزير التونسي خير الدين بتاريخ غرة ربيع الثاني 1289 هجري، (الموافق لـ 08 جوان 1872م)، وثيقة رقم 65.

⁴ - المصدر نفسه، الوثيقة رقم 64.

⁵ - archives Nationale de la Tunisie, série À, boîte 278, Dossier n° 6, Renseignements recueillis sur Mr ben Abdessalem Mokrani, le 27 Mai 1888, n° 18.

⁶ - Ibid, Lettre de Hachemi fils d'Abdelkader le 28 Aout 1888, no 27.

قبل انتصاب الحماية الاستعمارية الفرنسية على البلاد التونسية سنة 1881م، وطلب منهم تقديم يد المساعدة والعون لكل أفراد عائلة المقراني الذين استقروا هناك والوقوف إلى جانبهم بسبب الظروف المادية الصعبة التي كانوا يمرون بها وذكرهم بأنه "...يعول كثيرا ودون تحفظ على كرم فرنسا ومثليها بتونس على حماية الأيتام والفقراء وكل الذين تقطعت بهم السبل..."¹.

بهذا يتراءى لنا أن الأمير عبد القادر وعائلته كانوا حقاً منشغلين بأحوال المقرانيين وكل الجزائريين الذين هاجروا إلى البلاد التونسية بعدما ضاقت بهم أرض الجزائر بما رحبت هروبا من بطش المستعمر الفرنسي وسياسته الخرقاء التي طبقت ضدهم خاصة بعد انكسار ثورة 1871م، وهذا رغم بعد المسافة بينه وبينهم.

4- موقف الفرنسيين في تونس والجزائر من طلبات المقرانيين:

كيف كان موقف السلطات الاستعمارية الفرنسية التي فرضت حمايتها على تونس سنة 1881م من مطالب المقرانيين الرامية إلى تقديم يد المساعدة؟ وهل كان موقف الفرنسيين في الجزائر منسجماً مع نظرائهم في تونس؟

واصل المقرانيون مساعيهم الحثيثة من أجل الحصول على المساعدات المالية من قبل رجال الدولة الفرنسية، ومن المتصور أن الفرنسيين رفضوا طلباتهم في البداية. وهذا ما يؤكد طلب محمد بن عبد السلام المقراني الذي وجهه إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسية في تلك الأثناء، وقد تحدث فيه عن أحواله الاجتماعية المشقة وظروفه القاسية مؤكداً له أنه يعيش رفقة أفراد أسرته كثيرة العدد بمدينة تونس تحت رقابة شديدة لأعوان السلطات الفرنسية والتونسية في ظروف قاسية، ولا مصدر للرزق له ولا ثروة له باستثناء ما يتكرم عليه أهل الإحسان من صدقات وعطايا وعليه فقد ناشد الوزير الفرنسي، لمساعدته على تجاوز هذه المحنة، معترفاً له في الوقت نفسه أن عائلته ارتكبت خطأً جسيماً حينما حملت السلاح ضد الفرنسيين سنة 1871م، ومع ذلك فقد نالت العقوبة اللازمة حيث صودرت أملاكها وزج في السجون عدد كبير من أفرادها ونفي كذلك عدد كبير منهم إلى الخارج.²

وعلى إثر ذلك استجابت سلطات الحماية الاستعمارية الفرنسية استجابة مشوهة لطلب محمد بن عبد السلام المقراني وكتب وزير الشؤون الخارجية الفرنسية رسالة إلى نظيره الوزير المقيم العام في تونس حثه فيها على ضرورة تخصيص إعانة مالية للمعني، لكن مع مراعاة جملة من الشروط أهمها أن تكون قيمة هذه المساعدة هزيلة وأن تكون لها آجال زمنية محددة تحديداً دقيقاً، وأن يقوم المعني بطلب تجديدها كلما انقضت هذه الآجال. وفي كل الأحوال فإن تحديد هذه الإعانة المالية يخضع حصرياً إلى السلطة التقديرية للجهة المانحة التي يقع عليها واجب إجراء تحقيق معمق حول سيرة صاحبها التي يجب أن تكون حسنة، وأنه لم يبد سلوكاً معادياً للفرنسيين منذ استقراره بالبلاد التونسية.³

وعلى إثر ذلك، باشرت مصالح الإقامة العامة الفرنسية في تونس تحقيقاً معمقاً حول الوضع المادي لعائلة المقراني المقيمة بتونس وأكدت نتائج هذا التحقيق أن أوضاعها الاجتماعية والمادية متدهورة، وأن محمد بن عبد السلام المقراني ليس في مقدوره وليس في نيته كذلك القيام بأعمال عدوانية ضد المصالح الفرنسية.⁴

لم تكتف السلطات الفرنسية بالتحقيق الذي أجرته مصالح الإقامة العامة، بل اتصلت بشيخ المدينة محمد العصفور وطلبت منه إجراء تحقيق موازي حول الموضوع، وقد أكد فيه بأنه "...بحث عن المذكور وتبين أنه يسكن بالحمامين بباب الجزيرة، وله من العمر تقريباً 80 أعوام (كذا)، وهو فقير عاجز لا يتعاطى شيئاً من الحرف وله أبناء ثلاثة وهم المذكورين بعده، والأخير منهم يخدم بوليس

¹ - Ibid, lettre de Med ben Abdessalem Mokrani au Ministre des affaires étrangères à Paris, le 03 janvier 1890 n° 44.

² - Ibid, lettre du ministre des affaires étrangères à Paris, le 14 janvier 1890, no 45.

³ - lettre de la résidence générale à Tunis, sans date, n° 46.

⁴ - المصدر نفسه، رسالة محمد العصفور شيخ المدينة إلى وزير الدولة بخصوص محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني وأبنائه، مؤرخة في 6 محرم 1308 للهجرة، وهي بحبرة باللغة العربية وتوجد نسخة مرفقة معها مترجمة إلى اللغة الفرنسية، وثيقة رقم 47.

(كذا) من بولسية الحاضرة، وهذا ما تحرر في شأنه...¹.

من المتصور أن المقرانيين المقيمين بالبلاد التونسية كانوا كذلك يتواصلون مع السلطات الفرنسية بالجزائر ويلتمسون منها المساعدة المادية وليس أدل على ذلك من أن الحاكم العام الفرنسي بالجزائر كان يكتب الخطابات إلى نظيره المقيم العام بتونس ويحثه على عدم تقديم هذه المساعدات لهم، بل أنه راسله وكلفه بإعلام الشقيقين المقرانيين محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني، وعبد الله بن أحمد بن عبد السلام المقراني بأن السلطات الفرنسية بالجزائر لا توافق على طلبهما المتعلق بالحصول على المساعدات المالية بسبب تدهور أوضاعها الاجتماعية².

بهذا نلاحظ أن الفرنسيين لم يكونوا على توافق بخصوص منح هذه المساعدات المالية للمقرانيين، فإذا كان وزير الخارجية قد أبدى نوعاً من المرونة في التعاطي مع هذا الموضوع كما قدمنا، فإن الحاكم العام الفرنسي بالجزائر كان يعارض الفكرة بشكل قاطع، وربما ذلك مرده إلى العداء الشديد الذي يحمله هذا المسؤول الفرنسي السامي لهم لأنه يكون قد عاصر ثورتهم وشهد أحداثها بكل تفاصيلها.

وتشير إحدى الرسائل التي كتبها المقيم العام الفرنسي إلى وزير خارجيته في تلك الأثناء أن المقرانيين المقيمين بالبلاد التونسية كانوا يتلقون الدعم المالي من أفراد عائلتهم الذين بقوا بالجزائر، وأن هذه المساعدات كانت تصلهم عبر قنوات خاصة³. ويبدو أن هذه الأخبار عارية من الصحة، لأنه من غير المتصور أن المقرانيين الذين بقوا بالجزائر كانوا أيضاً يرزحون تحت وطأة الفقر جراء السياسة الفرنسية التي سلطت ضدهم بعد انكسار ثورتهم، وربما هذه الوضعية الحرجة عبر عنها تقرير فرنسي يعود إلى سنة 1890م، وقد أشار إلى أن أبناء الباشا محمد المقراني كانوا قد توجهوا إلى زاوية الهامل ببوسعادة طالبين الرعاية والمساعدة وقد تعهد مرابطها سيدي محمد بلقاسم بتنشئتهم ورعايتهم⁴. وعليه، يمكن القول أن المقيم العام الفرنسي بتونس كان يغالط وزيره ويحجب الحقيقة حتى يبرر عدم احترام التعليمات التي كان يوجهها له ليس إلا.

ورغم ذلك، لم يتوقف المقرانيون عن توجيه طلباتهم إلى المسؤولين الفرنسيين بتونس، بهدف التدخل لإسعادهم ومساعدتهم. وهناك رسائل كثيرة محفوظة بالأرشيف الوطني التونسي تتحدث عن هذا الموضوع، وليس من اليسير التطرق لها كلها، ونكتفي بالإشارة إلى الرسالة التي كتبها محمد بن عبد السلام المقراني إلى المقيم العام الفرنسي، والذي شكاه فيها حال عائلته البائس، مشيراً إلى أنها تتشكل من 17 فرداً⁵، وأمام هذا الإلحاح الشديد استجاب المقيم العام الفرنسي لبعض طلبات المقرانيين وقرر تخصيص منحة لكبيرهم محمد بن عبد السلام المقراني، غير أن هذا الأخير اعترض عليها وطالب بزيادة قيمتها، قائلاً أنها لا تكفيه حتى لتوفير رغيف خبز لأبنائه⁶.

يبدو أن الفرنسيين في تونس تخرجوا بعض الشيء من الطلبات التي كانت توجه لهم من قبل المقرانيين لذا اتخذوا قراراً بعدم قبولها، وبالمقابل طلبوا منهم توجيه كل الطلبات المتعلقة بالمساعدات الاجتماعية إلى مصالح الحكومة العامة بالجزائر باعتبارهم رعايا تابعين لها⁷. وعلى إثر ذلك قدم المقرانيون عدة عرائض مطلبية إلى المسؤولين الفرنسيين بالجزائر لمساعدتهم فطلب الحاكم العام الفرنسي بالجزائر من المقيم العام بتونس أن يزوده بكل المعلومات المتعلقة بالوضع الاجتماعي لهذه العائلة لدراسة امكانية

¹ - Ibid, lettre du gouverneur général de l'Algérie, le 25 juillet 1891, n° 50.

² - Ibid, lettre du résident général à Tunis, sans date, n° 49.

³ - Centre d'archives d'Outre-mer à Aix en Provence, France, 6H37, lettre du Préfet d'Alger, le 29 septembre 1890.

⁴ - Archives Nationale de la Tunisie, op. cit, lettre de Med ben Abdessalem Mokrani, le 11 Mai 1896, n° 51.

⁵ - Ibid, lettre de Med ben Abdessalem Mokrani, le 25 Octobre 1899, n° 62.

⁶ - Ibid, Note du résident général, le 29 Novembre 1899, n° 64.

⁷ - Ibid, Lettre du gouverneur général de l'Algérie, le 17 Octobre 1900, n° 70.

وفي تلك الاثناء كان كبيرهم محمد بن عبد السلام المقراني قد قضى نحبه، الأمر الذي جعل ابنه بوزيد المقراني يفكر جداً في العودة إلى الجزائر، بسبب حالته المادية غير المريحة، وكونه كذلك يعاني البطالة ولا يمارس نشاطاً مريحاً، فوجه طلباً إلى مصالح المقيم العام بتونس للسماح له بالعودة إلى مسقط رأسه في بوسعادة رفقة أفراد أسرته²، والراجح أن الفرنسيين لم يتجشموا عناء الالتفات لمطلبه وصرفوا عنه النظر.

وخلال النصف الأول من القرن العشرين نشط أحفاد عائلة المقراني المقيمين بتونس في كتابة الرسائل إلى رجال السلطة الاستعمارية الفرنسية في تونس والجزائر على حد سواء، ونفهم من مضامينها أن أوضاعهم الاجتماعية لم تتغير نحو الأحسن، وأن معظمهم بقي يعيش حياة الإملاق، من ذلك مثلاً الرسالة التي كتبها المدعو مختار بن عبد المجيد المقراني أحد أحفاد أعيان عائلة المقراني بناحية سطيف، والتي وجهها إلى الفرنسيين بتونس وحدثهم فيها بكل حرقة عن تكفله بإخوانه وأخواته السبعة بعد وفاة والده، مؤكداً لهم أن حالتهم الاجتماعية ساءت بعد انخراط شقيقه في الفرقة الرابعة للرماة سنة 1910م وإرساله إلى المغرب سنة 1912م، أي خلال السنة التي فرضت فيها الحماية الاستعمارية المزدوجة الفرنسية الأسبانية على هذا البلد، وأخيراً إرساله إلى فرنسا للمشاركة في الحرب العالمية الأولى (1914-1918م) إلى جانب الجيوش الفرنسية، وعليه فقد ناشد السلطات الاستعمارية الفرنسية أن تساعد في الحصول على منصب شغل كقباض بجمعية الحابوس خاصة وأنه يحوز على المؤهلات اللازمة لشغل هذا المنصب ناهيك عن كونه يتقن اللغة الفرنسية كتابة ونطقاً⁴.

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة يمكن أن نخلص إلى عدة نتائج نوجز أهمها فيما يلي:

- كان الفرنسيون يخططون للتوسط بنفوذ عائلة المقراني لإحكام سيطرتهم على شرق البلاد والمناطق التي عسر عليهم الوصول إليها، وكان هدفهم الوحيد من وراء تقريبهم من المقرانيين هو تحقيق هذا المقصد الاستعماري وليس أدل على ذلك من أنهم بمجرد أن شعروا بأنهم قادرون على التحكم في الأوضاع بدأوا في مضايقتهم فثاروا ضد سلطتهم سنة 1871م.
- تعاملت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بوحشية وعنف لا مثيل له مع عائلة المقراني عندما انفضت من حولها فاضطر عدد كبير من أفرادها للهجرة إلى البلاد التونسية التي كانت وقتئذ تشكل ملاذاً آمناً لكل الجزائريين الذين ضاقت بهم أرضهم بسبب بطش الفرنسيين الذين تعدوا عنهم بمختلف أصناف المظالم .
- سمح لنا الاطلاع على وثائق الأرشيف المحفوظة بتونس وفرنسا والتي تتحدث عن العرائض المطالبة الممضاة من طرف المقرانيين المهاجرين إلى البلاد التونسية بمعرفة مدى ارتباط هذه الفئات بوطنها رغم محاولات المستعمر الفرنسي بتر صلتهم به.
- لقد رفض الفرنسيون في تونس والجزائر الاستجابة لطلبات المساعدة التي كان يرفعها المقرانيون وإن استجابوا - وذلك في القليل النادر - فإن المنح المقدمة لهم كانت قيمتها المالية هزيلة ولا تلي الحد الأدنى من متطلباتهم.
- يمكن أن نستنتج من الخطابات التي كان يكتبها أفراد عائلة المقراني في تونس إلى السلطات الفرنسية أنهم واجهوا غوائل الدهر بتكافلهم وتضامنهم، ولم تكن هذه الخصلة حكراً عليهم، بل هي سمة كل الجزائريين في كل زمان ومكان، بل هي خصلة إنسانية طبيعية لأنه من عادة الجماعات المهاجرة الالتفاف والتضامن فيما بينها لمواجهة الصعوبات التي تعترضهم في بلد المهجر.

¹ - Ibid, Lettre du Résident général, le 10 Septembre 1901, n°107.

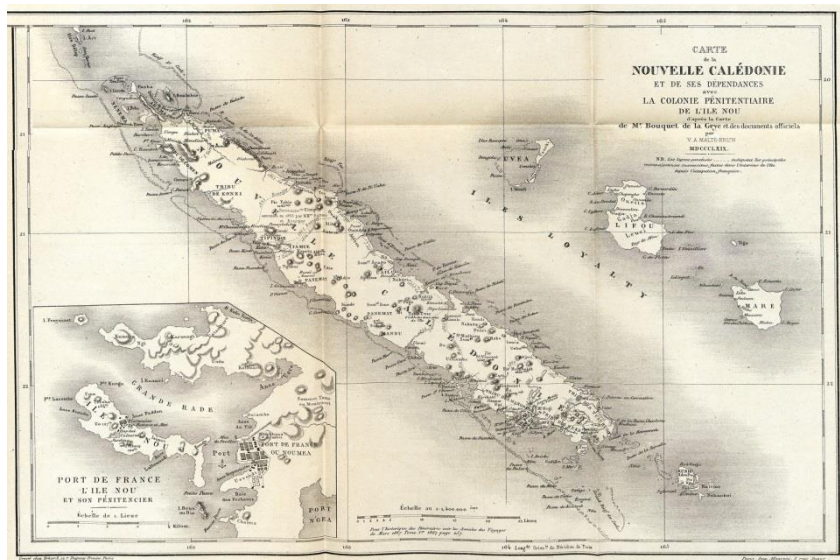
² - Ibid, Lettre de Mokhtar ben Abdelmadjid Mokrani, le 5 Janvier 1915, n° 129.

1871: EL-MOKRANI

Résistances, confiscation, désagrégation, déportation et nouvelle pénalisation au refus de concourir à la capture du trophée colonial kanak

Mélica Ouennoughi
Université Vincennes Paris 8

Situation historique et géographique



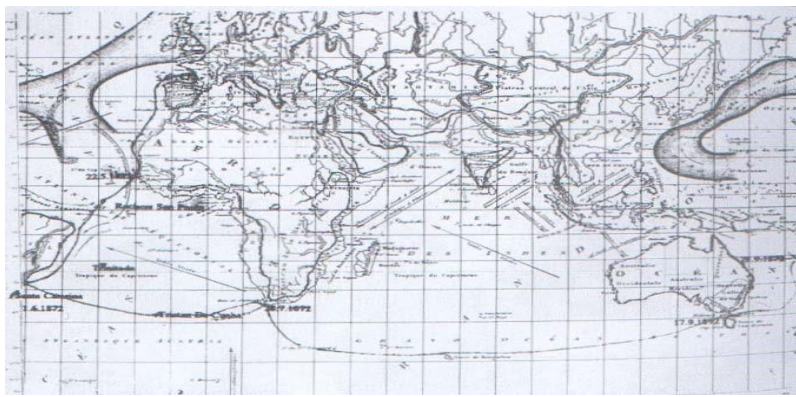
Source : Carte de la NOUVELLE CALEDONIE et de ses Dépendances avec d'après la carte de Mr Bouquet de la Grye et des documents officiels par V.A. Malté-Brun MDCCCLXIX (1869)

La découverte de la Nouvelle-Calédonie fut marquée par l'entrée en scène de James Cook au cours de sa seconde expédition le 4 septembre 1774. Cette nouvelle terre fut baptisée par le navigateur anglais en souvenir de sa région natale en Ecosse. Il faudra attendre 1785 pour la seconde découverte de l'île par La Pérouse, puis 1792 par d'Entrecasteaux et plus tard Dumont d'Urville fait de nouvelles expéditions en 1827. Considérée alors comme un continent nouveau du Pacifique, les navigateurs s'aperçoivent à leur arrivée, que l'île est occupée par des peuples originaires dont les ancêtres les Kanaks firent souche il y a de cela environ 2000 av. J.C. La circulation des anciennes pirogues pourrait confirmer l'existence des relations maritimes régulières de ces premiers navigateurs entre les îles mélanésiennes et le continent asiatique.

La Nouvelle-Calédonie devient française le 24 septembre 1853 lorsque Napoléon III ordonne la prise de possession exécutée par l'amiral Auguste Febvrier Despointes. Au fil du siècle, elle devient une terre d'élection dont l'objectif principal est de procéder à une colonisation de peuplement. Étant donné qu'il fallait à l'administration pénitentiaire de nouveaux territoires pour y évacuer ses condamnés, la transportation des condamnés en Nouvelle-Calédonie fut décidée par un décret du 2 septembre 1863.

À la colonisation pénale, de 1867 à 1894, (déportés politiques de la commune de Paris et déportés de droit commun) succéda une colonisation libre (à partir de 1895) qui vit l'arrivée de nombreux colons volontaires, candidats au départ. Peuplée à l'origine d'environ 80.000 habitants, la Nouvelle-Calédonie compte aujourd'hui environ 200.000 habitants dont 45% sont mélanésien. Cet archipel d'Outre-mer s'ouvrant sur la Grande Terre, se compose des îles Loyautés. Il est situé à près de 1400 kilomètres du Queensland en Australie avec une superficie de 19 299 kilomètres carrés et une largeur entre 40 et 50 kilomètres.

La France a annexé la Nouvelle-Calédonie en 1853 après la découverte du lieu par James Cook l'ayant délaissé. Pour asseoir une rivalité de conquête, la France poursuit l'ambition de fonder un Empire colonial en constituant des bases d'appui dans le Pacifique. L'objectif étant de former des grands pôles de commerce maritimes entre la Métropole et ses nouvelles colonies. Le grand projet pour développer son commerce maritime est de fonder une seconde colonie de peuplement que subira le sort réservé à l'Algérie et aux Algériens. La France procède à des transportations successives d'hommes et de femmes jugés comme 'rebus' de la société. Entre 1864 et 1897, 22 000 bagnards embarquent pour la Nouvelle. Parmi ces embarqués figurent de nombreux algériens enfermés dans des cages et leurs compatriotes tunisiens et marocains. Les maristes et sœurs de Cluny auront pour rôle de les éduquer, particulièrement voués à la colonisation de peuplement (droits communs), afin qu'ils deviennent de valeureux colons capable de cultiver et valoriser une terre confisquée aux autochtones kanaks. L'esprit colonial vise à faire admettre que les terres dites primitives n'étaient pas cultivées, laissées à l'abandon par les tribus.



Tracé cartographique de la déportation Afrique/Océanie, M. Ouenoughi

1. Les Algériens ne sont pas des « rebus » de la société française.

L'administration coloniale utilise un code de l'indigénat pour organiser de faux procès.

Il faut sans doute rappeler que le Code de l'indigénat fut appliqué dans les années 1880 aux Algériens. Il fut organisé en vue du contrôle de la population musulmane autochtone, en lui imputant un nombre d'infractions répertoriées par Y. Lacoste et A. Prenant en 1960¹. Dans la réalité des choses, cette mesure discriminatoire et xénophobe avait pour conséquence l'aliénation et la conversion collective des tribus ou fractions insurgées, au régime des droits communs pour parfaire les objectifs fonciers coloniaux, que sont la spéculation et la dépossession:

« (...) le but essentiel d'une loi sur la propriété est de livrer au marché Français, de la terre indigène.»²

La gestion des tribus étant dirigée par l'administration coloniale, celle-ci n'hésita pas à les réprimer en distinguant le degré de résistance ou de soumission, face aux répressions et aux biens extorqués.

L'exemple de la condamnation du chef de l'insurrection de 1871, Boumezrag El- Mokrani mérite d'être cité. Le procès de ce grand chef avait fait beaucoup de remous. En effet, le faux jugement avait fait réagir les juristes français de la métropole de cette époque, certains avaient montré leur ferme désaccord en écrivant que sa condamnation avait été prise avant sa comparution devant la cour d'assise. Il sera jugé coupable et condamné à la déportation. Il

¹- Cf. *L'Algérie, Passé et Présent*, Alger, 1960, pp. 397-398.

²- C.-R. Agéron, *Les Algériens musulmans et la France*, 1871-1919, PUF, Paris, 1968, p. 101.

fallait à tout prix exiler l'ensemble des familles Mokrani, les éparpiller dans différentes régions de la colonie (Algérie) et à travers les pays voisins, contraints de céder au chantage colonial. Il est à remarquer que, après les insurrections algériennes, un nombre important d'insurgés se sont réfugiés dans les pays limitrophes de l'Algérie. La colonisation se servait d'autochtones pour combattre leurs «frères» et faire avancer la colonisation ; cette politique avait pour objectif de faire du vide pour implanter des Européens (les Kabyles, repoussés au pied de leurs montagnes et les autres insurgés refoulés vers le Sahara) valut au Général Delacroix une souscription de la part des colons qui lui offrirent un sabre d'honneur.

D'après les propos de C.-R. Ageron:

*«La répression de l'insurrection kabyle fut sans commune mesure avec l'ampleur de la révolte. (...) Elle a plutôt ressemblé à un acte de vengeance implacable qu'à l'application d'un châtiment proportionné aux méfaits commis (...). Les colons entendaient pacifier la Kabylie en l'appauvrissant et tirer profit des trésors accumulés par les Kabyles dans leurs montagnes (...) ils espéraient doter les domaines de 500.000 autres hectares de bonnes terres de colonisation. Celles qu'ils avaient vues dans la Medjana, de Sétif, de Bordj Ghedir, de Bouira, ect... ».*¹

2. Les trophées des insurgés politiques, œuvres du colonialisme

Le fait le plus frappant est d'avoir analysé comment l'œuvre coloniale comment les trophées du colonialisme constituait une œuvre coloniale exposée au Musée.

L'œuvre coloniale de vouloir disposer du trophée du chef de l'insurrection de 1871, Mohamed El Hadj El-Mokrani, n'a pas aboutie. Mort au combat, sa tête n'a pas pu être capturée par l'armée coloniale du général Lallemand.

L'ingénieuse idée de faire disparaître son corps et de le préserver par ses familles et ses alliés demeure sans doute un fait historique d'une œuvre coloniale échouée dans la non-capture du trophée du chef insurgé El-Mokrani.

L'insurrection de 1871 étant un fait total étendu à tout le pays jusqu'au Maghreb avait déjà en son sein réuni des clans d'affinité vers une voie de libération. Il n'y a de ce fait, pas eu de représailles autochtones algériennes après l'insurrection de 1871. Nous observons plutôt des liens d'affinités ancestraux comme ciment confrérique et révolutionnaire.

En revanche, d'autres figures politiques liées à l'insurrection de 1871 n'avaient pas échappées au sort que le colonialisme leur préservait. L'insurrection de 1876 n'est pas un fait isolé comme l'avait exposé Louis Rinn, alors chargé de mission durant les événements de 1871. Nous avons repris le crime organisé sur la tête du chef de l'insurrection de El Amri en 1876. La tête du Cheikh Mohamed ben Yahia devint un trophée et fut exposée, sorte de jeu barbare commandité par les généraux lorsqu'il fallait capturer un chef. Un extrait rapporté par un correspondant du journal colonial² nous décrit l'acte barbare porté sur le chef de l'insurrection.

Le Cheikh n'a pu être sauvé de la sauvagerie coloniale, son trophée a fait l'objet de manipulation durant un jeu de boule sur table organisé par des colons, la tête de l'insurgé étant alors le fait de jeu de boule.

Les crânes de résistants algériens décapités ayant fait l'objet d'exposition des trophées au Musée des colonies avaient finies dans les tiroirs du Musée de l'Homme de Paris. Ils furent rapatriées en Algérie le 3 juillet 2020 à l'occasion de la célébration du 58^e anniversaire de l'indépendance algérienne.

Les Mokrani avaient sans doute prévu le sort qui était réservé à leurs chefs comme œuvre coloniale de la capture du trophée. La tête du *Bachagha* Mokrani ne fut pas prise à l'assaut par

¹- Ibid, C.-R. Ageron.

²- Cf. La Liberté du 18 avril 1876, Lettres d'Algérie. «La mort de Ben Yahia».

l'ennemi comme ce fut le cas pour le chef de l'insurrection d' El Amri. Selon la tradition, le corps du défunt doit être aussitôt enlevé par les siens afin qu'il soit préservé. Ainsi le défunt pourra-t-il rejoindre le sépulcre familial caché et encadré par sa communauté. Pour le Hadj El Mokrani, rien ne devait échapper au groupe. En éliminant la tête du chef de l'insurrection d' El Amri, on vise en quelque sorte son clan, son groupe, sa descendance aussi. Le guerrier mort, la résistance peut s'opérer à nouveau par l'élément maraboutique dont elle dispose.

La capture du frère du chef de l'insurrection Mohamed El Hadj El Mokrani, qui après sa mort, a repris l'étendard de l'insurrection, a été opérée, après un long périple de poursuite de l'armée coloniale entre deux *çofs* Biban et Ziban. Cette route secrète difficilement repérable par l'armée coloniale avait été mentionnée par le sociologue Ibn Khaldoun dont les écrits avaient fait l'objet de pillage en vue de contrôler la fuite de Boumezrag el Mokrani. Oued-Nougha pourrait être une route de l'ancien caravansérail durant le 12^e siècle, à l'origine des portes de fer et des portes du désert, faisant mention de l'existence des dynasties anciennes. Avant la colonisation française, le massif montagneux du Djurdjura avait pour nom arabe Ouennougha, dérivé du *tamazight* *Iwanughen*.¹

Capturé dans la région de Ouargla en 1871, Boumezrag en fuite depuis Borj Bou Arreridj, avait veillé à réunir ses familles afin de rejoindre la zaouïa d'El Hamel de son chef spirituel Cheikh Belgacem, héritière des fondements de la confrérie Rahmaniyya de Seddouk en Kabylie de son chef spirituel El- Haddad rallié à la cause du Hadj el Mokrani en 1871.

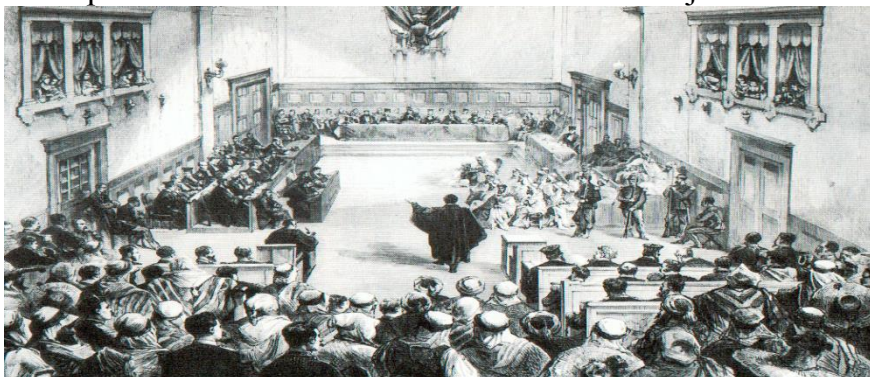


Fig. 1: *Le procès des chefs*. Source : Archives d'Aix en Provence.

3. La confiscation du droit juridique et coutumier algérien durant la situation politique coloniale en Algérie

Afin d'éclairer cette confiscation, il convient d'expliciter que la confiscation du droit coutumier vise à introduire la valeur essentielle de l'identité algérienne comme droit juridique et coutumier.

3.1. La désagrégation des 'tribus' en Algérie. Soumission ou résistance algérienne ?

Les nouvelles mesures coloniales avaient pour seconde fonction de désagréger, voire d'interdire les organisations coutumières séculaires telles que les *touiza* et les *djemâas*, par l'établissement de nouveaux agents ou fonctionnaires indigènes, qui se voyaient attribuer leur fonction et autorité par le nouvel ordre colonial. Les chefs coutumiers étaient de simples caïds fonctionnaires, chefs de goum, aghas, donnant des ordres comme subalternes; leurs privilèges coutumiers et matériels furent séquestrés.

Louis Rinn nous décrit comment le retrait des *touiza* des ouled Mokrane fut opéré à partir du second Empire :

« En 1863, on supprima aux Moqrani, comme on l'avait fait partout, les *touiza* ou *corvées*, consistant en journées de travail que fournissaient les indigènes et leurs bêtes, pour des

¹ - Youcef Benoujit, *La Kaala des Béni Abbas au XVI^e siècle*, Dahlab, 1997, page 68.

*labours, moissons, dépiquage et transport des céréales de leurs seigneurs politiques et religieux. (...) Les touiza étaient, pour ces derniers, des redevances séculaires, et, c'était un de leurs privilèges auxquels ils tenaient le plus; l'importance des revenus d'un fief politique ou religieux s'appréciait par l'étendue des surfaces cultivées en touiza».*¹

Chaque tribu possédait une assemblée (*djemââ, tajmâat*), formée par la réunion des chefs des *douars* et des notables, discutant les intérêts communs de la tribu. La domination coloniale et l'autorité des chefs indigènes désignés n'ont pas réussi cependant à effacer définitivement les traces de la dite « assemblée villageoise ». Il faut rappeler que le principe démocratique est à la base des institutions en Algérie. Ces berbères habitent généralement les contrées éloignées, montagnardes ou désertiques. L'histoire nous montre qu'ils ont moins été exposés à l'organisation officielle d'une administration étatique comparés à leurs compatriotes citadins. Leurs foyers, leurs villages, sont les repères de leurs identités. Ils labourent, sèment, récoltent et fabriquent eux-mêmes les instruments de leur travail. Ainsi, certains villages possèdent toujours leurs propres organisations sociales.

4. Repérage des convois

Au fur et à mesure de mes enquêtes, les sources acquises ont permis d'aboutir une revalorisation du statut des Algériens dans leur pays d'origine, leur appartenance coutumière et religieuse, leur acte de bravoure et de générosité. Les longues fouilles d'archives entre 1999 et 2004 fournies pour la première thèse², ont permis de répertorier les convois de transportations et déportations des Algériens et Maghrébins, convoi naval par convoi naval entre 1867 et 1897, échantillon d'**un nombre d'Algériens embarqués dans 12 convois au total**, permettant de justifier d'une forte descendance sur le territoire calédonien.³

4.1 Les convois de transportés jugés «droit commun»

Le premier convoi de l'Iphigénie après cent vingt-trois jours de traversée le 9 mai 1864, accoste le port de Nouméa. À son bord, deux cent cinquante condamnés aux travaux forcés, transportés dans des cages. Y figure uniquement un algérien. Pour effectuer un travail de thèse fiable et aboutie, il faudra attendre la publication des convois d'Algériens que nous avons publiés. Nombre de documents relatifs à la déportation en général ont été endommagés que ce soit en Métropole (durant la guerre mondiale) ou en Nouvelle-Calédonie (inondations).

Pour identifier les déportés politiques originaires du Maghreb majoritairement Algériens, il nous a semblé nécessaire de faire un comparatif des registres de la déportation, aux registres des lieux de détention consultés dans les différentes archives. L'état actuel des archives est incomplet. Par ailleurs, les jugements des Conseils de guerre et des Cours des Assises étant parfois longs, les déportés durent attendre plusieurs mois avant leur embarquement dans les convois destinés à la Nouvelle-Calédonie. C'est la raison pour laquelle, ces prisonniers furent internés dans les dépôts ou lieux de détention avant leurs départs définitifs. Fort heureusement, c'est précisément dans les fonds d'archives des lieux d'internements, que nous avons pu répertorier l'origine et la naissance de chacun des condamnés maghrébins ainsi que leurs dates d'embarquements.

¹- Cf. *Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie*, Adolphe Jourdan, Alger, 1890, p. 37

²- Mélica Ouennoughi, *Les déportés Maghrébins en Nouvelle-Calédonie...*Thèse de doctorat soutenue en Avril 2004, éditions l'Harmattan, Paris (Janvier 2006), un second ouvrage chez Casbah éditions, Alger (2008) . Cf. annexe : *Établissement généalogique des premières listes des mouvements de maghrébins condamnés au bagne calédonien. 1867-1895*).

³- Taouti S, *Les déportés Algériens en Nouvelle-Calédonie*, Essai, 195 pages, Edit. Dar El-Oumma, 1994.

Chronologiquement, les convois de transportés maghrébins en Nouvelle-Calédonie s'effectuent à partir des premiers convois de 1867, dans lesquels nous avons comptabilisé un total de 178 condamnés sous le régime des droits communs. Ces premiers font partie de l'insurrection des Ouled Sidi Cheikh de 1864. Les convois entre 1885 et 1896 (fermeture officiel du bagne), ajoutent les relégués, conduits à la prison de l'île Nou puis vers le centre pénitencier de Bourail. Ces derniers seront enregistrés sous des numéros d'écrou comme relégués et feront partis des derniers convois effectués entre 1887 et 1895.

4.2 Les convois des déportés jugés «politique»

À partir de la Commune de Paris de 1871 le contexte colonial change, les politiques furent la plupart administrativement distingués sous le nom de déportés.¹

L'insurrection d'El Mokrani en 1871 et son étendue sur une grande partie du territoire algérien, la Kabylie, les environs d'Alger, les Aurès, Mascara et Hodna, dirigée, entre autres, par Mohamed El Mokrani Boumezrag, El Ouennoughi, Améziane Ben Cheikh El Haddad, puis ses fils Aziz et Mohamed El Haddad ; dura environ une année et s'achève en janvier 1872. Le procès des Chefs les conduira à déportation simple pour les uns (Île des Pins) et en enceinte fortifiée pour d'autres (Presqu'île Ducos). Parmi, ces tribus, il faut citer les chefferies des Bou-Azyd de Doucen (sud-ouest de Biskra) et les Ouled sidi Cheikh de Mascara, dont les résistances furent un prolongement à la résistance de Kabylie. Les chefferies de ces clans ont été déportées dans les îles Loyautés en Nouvelle-Calédonie aux côtés des Communards.

Un rapprochement insurrectionnel pourrait être le suivant

- Insurrection en 1871 des Ouled Mokrane en Kabylie (Chef-lieu L'Ouennougha) dans la Medjana.
- Fuite des familles Mokrani vers le Sahara algérien et la Tunisie (deux çofs Bibans et Zibans empreint d'une ancienne route citée par Ibn Khaldoun l'Ouednougha).
- Refuge à la Zaouïa d'El Hamel (Cheikh Belgacem), création du quartier des Mokrani (Rinn, 1871).
- El Hamel, lieu de pèlerinage et du fondateur Bouazyd.
- Boumezrag el Hadj el Mokrani fut arrêté le 26 mars 1873
- Dispersion des Mokrani-Ouennougha en 1875. Anciennes familles d'alliances des Bouazyd (XIIe siècle)
- Insurrection en 1876 (El Amri), héritière des alliances Mokrani dans la région de Biskra (chef-lieu El Amri), suite à la destitution de Cheikh el Arab, Ferhat Bou Okkaz, et son remplacement par Bengana, chef vendu administré sous les ordres du Duc d'Aumale.

Pour cette occasion du 150^e anniversaire du déclenchement de la révolution de Mohamed El-Mokrani (14 mars 1871 -17 mars 2020), nous mettons à disposition en annexe de notre présent article les convois répertoriés issus de la révolution et déportés en Nouvelle-Calédonie, à ces convois, nous joignons également les actes de décès obtenus des archives de Nouméa (2008).

Les déportés de l'insurrection de El-Mokrani 1871 comptabilise un total de 120 embarqués dans les convois entre les périodes 1874 et 1878. D'autres convois abriteront de nouveaux déportés politiques à la suite de l'insurrection du sud-oranais de 1881-1882 (Ouled Sidi Cheikh ; fractions à la fois algérienne et marocaine). Ils forment un total de treize embarqués dans les

¹- Cf. *Dossiers des Communards*. In : Archives d'Aix-en-Provence sous les côtes H69 à 104. Registres matricules 789, 790,810 et 823. La peine de mort en matière politique ayant été supprimée en 1848, le Gouvernement se trouva devant un vide juridique. L'article 17 du Code pénal de 1810, ayant prévu la déportation Outre-Mer des ennemis du régime, fut réintroduit par décret du 27 Juin 1848. Les insurgés algériens de 1871 subissent également la : Loi sur la déportation (votée le 5,22 avril et 8 juin 1850).

convois qui suivront entre 1881 et 1882. Seront déportés ensuite les douze Tunisiens entre 1890 et 1892, à la suite de l'insurrection du sud-tunisien (Djérid/Taberka) en 1881, dont certains sont nés ou demeuraient en Algérie pendant le développement insurrectionnel de 1871. C'est dans ce contexte, qu'il faut noter que le sud-algérien a joué un rôle croissant à partir du Djérid Tunisien. Jugés sous le régime des droits communs par le Conseil de guerre de Tunis et la Cour d'Assises de Tunis, les motifs principaux de leur condamnation seront rejet du pouvoir en Tunisie et dégradation militaire. D'autres convois suivront la déportation des Tunisiens.

Condamnés aux travaux forcés ou à la réclusion, on applique aux insurrections de 1871 (Kabylie), 1876 (El Amri) et 1879 (les Aurès) la loi du 23 Mars 1872 relative aux insurgés de la Commune de Paris de 1871. Dans le travail de repérage des Algériens condamnés à la déportation politique en Nouvelle-Calédonie, il convient d'en différencier deux sections. La 1^{ère} section est pour les condamnés en enceinte fortifiée ou à la réclusion. La seconde section est réservée aux condamnés de 2^{ème} section à la déportation simple.

Le premier est le 9^{ème} convoi La Loire (vaisseau de transport à voile). On comptabilise un premier effectif de 40 condamnés algériens majoritairement de 2^{ème} section et un condamné français de 1^{ère} section. A ce premier effectif, il nous faut ajouter les autres condamnés politiques faisant partie de l'insurrection de Kabylie de 1871. En effet, nous les retrouvons emprisonnés au fort Quélern avant leur embarquement et enregistrés dans les registres matricules de la déportation. Ils rejoindront leurs compatriotes sur le 9^{ème} convoi au départ de Brest le 05/06/1874, pour le chargement supplémentaire de 300 forçats extraits du Pénitencier de Saint-Martin-de-Ré.

Le second est le 11^{ème} convoi Le Calvados (bateau à vapeur) qui abrite essentiellement un effectif total de 62 Algériens issus de l'insurrection de Kabylie, condamnés en 1^{ère} et 2^{ème} section.

Au départ des forts portuaires de l'île de Saint-Martin-de Ré et de Quélern et au départ de l'île sainte-marguerite dans laquelle se trouve les vieilles tombes des déportés algériens, ces derniers ne cessant de rédiger des recours en grâce. Voici comment le Gouverneur général civil de l'Algérie justifie de son refus de grâce pour l'insurgé Ahmed ben Dahmani avant qu'il soit embarqué sur le Vapeur le Calvados le 18 Janvier 1875:

« Le nommé Ahmed ben Dahmani, détenu au fort de Quélern (...), ex-caïd des Hannencha, appartient à la famille influente des Resgui qui a donné le signal de l'insurrection en Algérie dès le mois de janvier 1871. Cette famille a poussé le 5^e escadron de spahis à la révolte (et) soulevé les Hannencha. Ahmed ben Dahmani est une personnalité importante, et je considère que les membres de sa famille, qui sont en France (...) soient encore maintenus dans une enceinte fortifiée »

Nous n'aborderons pas nécessairement en détail les traversées des convois. L'organisation à bord des navires se trouve largement développée dans l'ouvrage de R. Pérennès¹ traitant de l'ensemble des Communards en Nouvelle-Calédonie. Cependant, nous avons pensé qu'il était indispensable de nous intéresser à l'alimentation fournie aux condamnés à bord des navires. On observe par exemple que les Algériens n'ont pas pu s'adapter à la nourriture totalement européenne ; à l'époque celle-ci n'ayant pas encore introduit dans son champs culinaire, les produits issus de l'arboriculture méditerranéenne. Ce manque d'aliments a fait l'objet d'inquiétude auprès de l'administration qui du reste, s'efforçait de les satisfaire du mieux qu'elle pouvait.

¹ - Cf. *Déportés et Forçats de la Commune, De Belleville à Nouméa*, Ouest Éditions, Nantes, 1991.

«(...) Que pouvait-on faire cependant? Leur alimentation a été pour le tout le monde un grand sujet de souci : leurs goûts étaient si bizarres ! Comme musulmans, ils haïssaient l'alcool et le vin; c'était bien, mais le bœuf et les légumes secs ne leur convenaient pas non plus en plein océan, ils demandaient des fruits et de la salade». 1

Malgré la difficulté des traversées, les Algériens contrairement à leurs compatriotes les Communards, n'ont pas fourni beaucoup de malades. Au nombre de 62 embarqués à bord du Calvados le 2 septembre 1874 pour la Nouvelle-Calédonie, quatre décideront alors qu'on assiste à plusieurs victimes issues de la semaine sanglante. Les connaissances médicales étaient insuffisantes, notamment l'origine de certaines maladies survenues à cette époque encore très peu connue. Par exemple, on ne savait pas comment traiter le scorbut qu'on attribuait, dans ce cas de figure, à l'atmosphère maritime:

«Le scorbut et la fièvre typhoïde sont certainement les maladies qui, après la semaine sanglante, ont fait le plus de victimes parmi les insurgés de la Commune; elles ont produit leurs effets pernicieux non seulement pendant les internements dans les ports, mais aussi au cours des transports vers la Nouvelle-Calédonie». 2

Les Anglais ont hérité de l'arboriculture méditerranéenne comme science depuis plus d'un siècle. Ils utilisèrent très tôt le jus d'agrumes:

«Ils distribuaient régulièrement à bord du jus de citron conservé et en avaient complètement éliminé le scorbut ». 3

Il convient de souligner l'attachement à la religion. Aussi les embarqués subiront-ils leur traversée pendant la période du Ramadan:

« (...) A partir du 13 Octobre, les Arabes sont entrés dans la période de carême du Ramadan, ils ne boivent ni ne mangent du lever au coucher du soleil et refusent tout médicament pendant cette partie de la journée». 4

Une lettre⁵ du 30 août 1873 mentionne le lait en remplacement du vin :

«Parmi les déportés de St Martin se trouvent 89 Arabes condamnés à la suite des insurrections de l'Algérie. Ces individus devront être séparés des détenus Européens et placés dans les locaux les mieux exposés au soleil. Ils seront autorisés à cuire leurs aliments qu'ils préparent eux-mêmes et, pour eux, le vin est remplacé par du lait, la graisse par du beurre. Il leur est délivré des vêtements arabes. Les mêmes accordés à Quélern. Veuillez communiquer au directeur le contenu de la présente dépêche. Ce fonctionnaire, ainsi que vous, informé du départ du navire de St Martin. Recevez (...) ».

5. Lieux politiques de détention

L'île des Pins, la presqu'île Ducos et l'île de Maré

Le 23 mars 1872, l'Assemblée Nationale a adopté une loi désignant les lieux de déportation. L'article 2 fiat état de la presqu'île Ducos, déclarée lieu de déportation dans une enceinte fortifiée (article 2). Dans l'article 3, Il est mentionné l'île des Pins, en cas d'insuffisance, l'île de Maré, dépendances de la Nouvelle-Calédonie, sont déclarées lieux de déportation simple pour l'exécution de l'article 17 du Code pénal (déportation simple).

L'île des Pins est située à 25 miles nautiques au sud de la Nouvelle-Calédonie, et reliée à la Grande-Terre par un service de bateaux, à rames pour la plupart, qui mettent huit heures

¹- Archives de la Marine de Brest. « Extrait du Cabinet du Ministère de la Marine (Versailles le 8 août 1874) ».

²- Ibid. Pérennès, page 167.

³- Idem, page 168.

⁴- Service Historique de la Marine - BB2 532. « Instruction pour le voyage de Circum navigation de la Loire à M. le capitaine de vaisseau Mottez, commandant de la Loire à Brest, Paris, 7 mai 1874 ».

⁵- Archives du Ministère de l'intérieur - IY210. Lettre du Ministère de l'intérieur adressée au directeur de l'administration pénitentiaire.

pour effectuer la traversée. Le site a 160 kilomètres carrés, et un plateau rocheux le surplombe. Les côtes sont fertiles mais le climat est instable, tourmenté par de violents cyclones.

Dans ses mémoires, Louise Michel¹ évoque l'arrivée des insurgés à la presqu'île Ducos en décembre 1873 :

«Nous vîmes arriver dans leur grand burnous blanc, les arabes déportés pour s'être, eux aussi, soulevés contre l'oppression. Ces orientaux emprisonnés loin de leurs et de leurs troupeaux, étaient simples et bons et d'une grande justice.»

Les lithographies réalisées en 1876 et 1877 par Loth et Hugan nous informent d'un groupe d'hommes originaires d'Afrique du Nord ; ceux-ci condamnés en déportation simple à l'île des Pins (territoire kanak abritant des communes, 4^{ème} (Communards), 5^{ème} (Nord-africains). Ces *Dar-al-hadj* ont reconduit un *douar* (village berbère) dans lequel ils créèrent leurs premières codifications coutumières (cheptel ovin, culture bédouine, premières plantations).

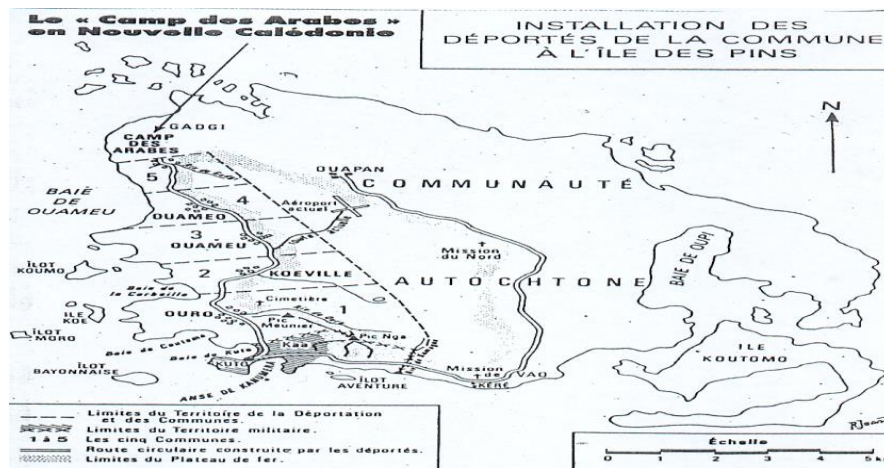


Fig. 1 : « La 5^{ème} Commune des Algériens- île des Pins ».



Fig. 2 : « Les déportés politiques algériens à l'île des Pins sur les pentes de la 5^{ème} commune, Gadji ». (Source : Lithographie Hugan, 1876, Rome, APM. Collection Amsterdam - Archives Territoriales Nouméa, ©).

Le tableau ci-dessous répertorie les statuts coutumiers:

Bachagha - Marabout - Mokaddem -Cheikh - Kadhi - Spahi - Amin - Caïd - Khalifa de Caïd - Kodja - Khammès – Oukilde zaouia - Taleb - Adel et Bachadels.

Une description nous est faite des Algériens sur le plateau de la Fougères de la cinquième commune (île des Pins):

«On les voit errant çà et là, résignés et stoïques, sous leur long burnous blanc que serre à la tête la corde en poils de chameau. Leur œil garde une flamme douce, à demi éteinte ; ils s'inclinent au passage d'un chef français, avec l'humilité digne qui leur est propre, et, le soir,

¹ - Cf. *Mémoires*, 1886, Poche 2021.

se prosternent au soleil couchant, baisent cette terre qui est leur ennemie, mais qui n'en ai pas moins celle de Dieu.»¹

6. Les codes coutumiers des Dar-Al-Hadj de Nouvelle-Calédonie

L'*anaïa* est une coutume berbère. Elle intervient dans les conflits pour en suspendre les effets pendant une période donnée et confère certains droits sur ceux qui, n'ayant pas voulu accepter cette intervention, ont continué de poursuivre la lutte et ont ainsi abusé de leurs forces. Le point d'honneur force à respecter ces droits.

L'*anaïa*: Comme inviolabilité du domicile

Lorsque deux individus sont en conflit ; un tiers peut intervenir en disant: «Ce que l'*anaïa* de la *djemâa* doit sur vous (*emchou bel anaïa*) », force est de suspendre la lutte sous peine d'amende contre celui qui veut poursuivre: dans certaines localités d'Algérie, le montant de l'amende de l'*anaïa* est à la libre volonté de celui qui a interposé l'*anaïa*.

Celui qui est poursuivi par son ennemi, pour un motif quelconque peut réclamer l'*anaïa* d'un tiers qu'il rencontre; en chemin si on viole cette *anaïa*, le tiers doit user de représailles vis à vis de celui qui a continué les poursuites ; si ce dernier a tué, il doit être tué à son tour. Si le fugitif parvient à gagner une maison, il est sous l'*anaïa* du maître de la maison, qui doit venger son *anïa* brisée (inviolabilité du domicile).

L'*anaïa*: Comme lieu de refuge et de réconciliation

L'*anaïa* que l'on accorde au voyageur étranger possède la plus grande nécessité devant l'absence d'une force publique pour protéger sa sûreté. De ce fait, l'étranger voyagera avec l'*anaïa* d'un ami qu'il connaît dans le pays, où d'un homme de quelque valeur auquel il se sera fait recommander. Ainsi, il passera de main en main depuis son départ jusqu'à son arrivée, il sera sous la protection de cet homme, du groupe ou de la tribu. Chaque protecteur du groupe se faisant le guide chez ses amis qui le conduiront plus loin. Généralement on fait accompagner le voyageur par un membre de la famille.



Fig. 3 : 'Un douar et ses chèvres à l'île des Pins'.

Source : Lithographie de Loth. Le pic N'ga et le douar algérien, 1877. APM, Collection Amsterdam - Archives Territoriales Nouméa, ©).

¹ - H. Rivière, *Souvenirs de la Nouvelle-Calédonie*, Edit. du Pacifique. Réédition 1981 Nouméa, pages 75 à 76.



ANC Album Collection Max Shekleton 1Num 10 – 39 10.6 x 7.3 cm
L'homme aux chèvres (marchands de légumes). Nouméa.

Fig. 4 : « L'homme aux chèvres ». Source: ANC Album Collection Max Shekleton, Archives Territoriales de Nouvelle-Calédonie.

Les sources des Communards de territoires politiques kanaks, comme porte-parole des Algériens déportés injustement, va peu à peu les unir dans des causes communes et au cours de leurs peines, se construit une influence réciproque qui liait la cause socio-culturelle et politique des Algériens à celle des Communards. Les écrits du Communard Henri de Rochefort montrent comment ses liens fraternels et solidaires avec les Chefs Algériens.¹

7. Une amnistie confisquée et ses effets d'évasion

La condamnation commune conduira vers des rapports socioculturels et politiques communs. Alors qu'en 1879 l'amnistie des Communards est proclamée, les déportés des territoires politiques en sont exclus ; obligation leur est faite de résider sur le territoire calédonien. Rochefort, à son retour à Paris en 1886, lors de l'amnistie, a créé le premier mouvement associatif de France proclamant la libération de ses compatriotes algériens. L'amnistie fut confisquée aux déportés politiques algériens et n'interviendra que le 1er février 1895, mais il faut attendre 1904 pour que soit levée l'obligation de résidence.

Aziz El-Haddad, fils du chef spirituel de la *Tarika Rahmánya*, lors de son évasion rejoint Paris par la Syrie en 1895 en réclamant la restitution de ses biens. Il décède dans les bras du Communard avec lequel il tissa des liens fraternels, Charles-Eugène Mourot, ancien déporté lui donnant asile à Ménilmontant, face au Père Lachaise. Les anciens Communards se cotiseront pour rapatrier son corps en Kabylie. D'après la tradition kanak, El-Ouennoughi s'évade trois fois. Il est probable qu'il ait rejoint le mausolée d'El Hamel (Bousaâda) comme refuge. Boumezrag El-Mokrani subira une seconde peine astreint à résidence à Nouméa jusqu'à son plus vieil âge. Il finit par embarquer pour Marseille sur 'Le Pacifique' le 18 mai 1904 à sa libération. Quittant la colonie avec très peu très peu de moyens «double peine» affligée suite au refus de participer à la répression kanake, son retour et les conditions de sa nouvelle résidence furent longuement discutés. Boumezrag El- Mokrani sollicite auprès du gouverneur le droit de visiter, selon les écrits de Germaine Mailhé², son fils Si El-Ouennoughi à El Hamel avant de rejoindre la Kabylie.

Si une poignée d'hommes se sont évadés, d'autres condamnés ont légué leurs patronymes et formé des familles de clans mélanésien dans les territoires politiques kanaks.

¹- Rochefort H., *Les Aventures de ma vie*, Dupont, Paris, Tome III, 1896-1898.

²- Cf. *Déportation en Nouvelle-Calédonie des communards et révoltés de la Grande Kabylie*, 1872-1876, Paris, L'Harmattan, 1994.

8. Une mémoire du code de l'indigénat qui perdure durant le bagne de Nouvelle-Calédonie

Perquisition interdiction de circuler répression étaient les bases mêmes du code de l'indigénat en Algérie et les colonisations de peuplement comme la Nouvelle-Calédonie. Ils visaient à clarifier les tribus autochtones de manière à mater les condamnés et le degré de résistance envers l'administration coloniale.

Boumezrag el Mokrani observait les gardes chiourmes kanaks, tout comme les gendarmes et les colons. Ils opèrent des surveillances sur les condamnés et exercent un pouvoir de délation lorsque l'administration fait appel à ces éclaireurs de la colonie qui reçoivent des primes et autres récompenses. L'organisation coloniale est répartie et hiérarchisée en fonction des tâches que les administrés exercent sur les condamnés. Boumezrag el Mokrani contrairement aux administrés coloniaux, n'avait pas l'appât du gain, fin éclaireur, il savait que l'ancienne œuvre coloniale exercée en Algérie, sur la capture du trophée allait être reconduite en Nouvelle-Calédonie par les donneurs d'ordre.

Louise Michel, figure politique communarde durant l'insurrection de la Commune de Paris en 1871, a bien connu Boumezrag El-Mokrani devenu son ami. A sa mort, elle parcouru l'Algérie pour y mener des conférences sur l'anti-colonialisme avec Ernest Girault (octobre-décembre 1904) en mémoire de sa rencontre avec le Bachaga El-Mokrani.

Elle comprend alors comment l'œuvre coloniale allait de nouveau vouloir exercer son pouvoir de domination dans l'accusation de Boumezrag El-Mokrani, en l'accusant d'avoir participé à la répression coloniale kanak, comme administré, et plus encore comme ayant été le meurtrier du grand chef Ataï lors de l'insurrection kanak autochtone de 1878, lui-même insurgé contre la colonisation de peuplement.

La manœuvre coloniale pour mater les résistances avait pour objectif de recruter les Algériens aux ordres de El-Mokrani, le chef supposé administré de la nouvelle administration coloniale de Nouvelle-Calédonie. Le paysage du néo-colonialisme perdure dans l'envie de reproduire une figure emblématique anti-kanak, même si le guet-apens repoussé par El-Mokrani, n'allait pas aboutir à se fins.

9. Réflexions sur la « situation coloniale » de Georges Balandier¹

Autour du modèle colonial, le sentiment de relégation engendre des sentiments d'injustice dans l'Histoire de la révolution algérienne d'El-Mokrani, subissant une double peine dans la colonie.

A cet effet, nous poursuivons nos réflexions sur le temps de « liquidation » coloniale dans l'exemple des Antilles.²

« (...) Les Européens ont fabriqué un modèle colonial sur un temps long avec des dominés et des dominants, qui arrivent tous deux de manière presque simultanée. (...) Vouloir enfermer des histoires dans des modèles empiriques qui ne leur conviennent pas peut faire (re)surgir un sentiment de relégation, de subalternité ou d'incompréhension pour toutes les histoires qui ne se plient pas ».

Par devoir de mémoire, avant de citer le témoignage de Louise Michel qui vécut les jours de l'insurrection kanak de 1878, les écrits connus à ce jour de Alain Saussol propose un scénario plausible sur les causes du déroulement de l'insurrection d'une façon plus large.³

¹- Cf. « *La situation coloniale : approche théorique* », in *Cahiers internationaux de sociologie*, 1951, 11, pages 44 à 79.

²- Caroline Seveno, *De la « situation coloniale » définie par Georges Balandier aux réalités antillaises, Outre-Mers, Revue d'histoire*, 2013, page 66.

³- Cf. « *En marge de l'insurrection Kanak de 1878 : nos fidèles alliés Canala* », *Mythe ou réalité ?* In : *Journal de la Société des Océanistes* 2016/1-2 (n° 136-137), pages 169 à 180.

«De 1865 à 1875, de nouveaux colons, venus de La Réunion, s'installent. C'est aussi le temps où l'on implante, non loin du village, un pénitencier agricole Napoléon ville grandit, s'urbanise. Le long de nouvelles avenues, on délimite des lots urbains d'une douzaine d'ares. En 1865, un missionnaire s'installe à Nakéty qui devient le pôle catholique de la région. Autant d'intrusions qui irritent les Canala. Derrière un calme apparent, la tension monte. D'après le missionnaire de Nakéty, les Canala « détestent les Européens » et, dans ses lettres, le père ne manque pas d'ironiser sur l'expression « amis dévoués » dont les autorités les gratifient».

Pour Alain Saussol, l'héritage survenu en 1874 du développement foncier par l'explosion du nickel et sa mise en exploitation, va faire accroître le village colonial provoquant ainsi une réaction kanak qui conduira par la suite aux événements insurrectionnels. Cependant, il analyse les écrits et témoignages suivants.

Pour l'écrivain J. Mariotti cité par Saussol, l'insurrection de 1878 serait à l'origine d'un contentieux ancien entre deux clans kanaks (Ataï et Nondo).

Un second témoignage de Joël Dauphiné, informe que le missionnaire de Thio confie à son supérieur que l'acte a été envoyé par le chef Nondo muni d'une hache de guerre sur le chef Ataï pour l'inciter à la révolte.

L'apaisement étant à l'heure de l'histoire, Saussol suggère qu'avec :

«L'éloignement dans le temps et l'apaisement des passions, espérons-le au nom de leur propre histoire, pour la sauvegarde de cette mémoire et sa transcription, avant que l'érosion due à la succession des générations et aux nouveaux modes de vie, ne finisse par en avoir raison».¹

Pour conclure, il nous semble essentiel d'extraire un passage des mémoires de Louise Michel², déportée en Nouvelle-Calédonie, où elle raconte le déroulement de l'insurrection du chef kanak de 1878. Elle précise que suivant la loi canaque, un chef ne peut être frappé que par un chef ou par procuration. C'est ce qu'il se produit pour Nondo :

Extrait :

***Nondo**, chef vendu à l'administration, donna sa procuration à Segon en lui remettant l'arme qui devait tuer **Ataï**.*

Entre les cases nègres et Amboa, Ataï, avec quelques-uns des siens regagnait son campement quand, se détachant de la colonne des Blancs, Segon indiqua le grand chef, reconnaissable à la blancheur de neige de ses cheveux.

Sa fronde roulée autour de sa tête, tenant de la main droite un sabre conquis sur les gendarmes, de la gauche un tomahawk, ses trois fils autour de lui et avec eux le barde Andia, qui se servait de la sagaie comme d'une lance, Ataï fit face à la colonne des Blancs.

Il aperçut Segon, - Ah ! dit-il, te voilà.

*Le traître chancela sous le regard du vieux chef, mais, voulant en finir, il lui lance une sagaie qui lui traverse le bras droit. Ataï alors lève le tomhawk qu'il tenait du bras gauche. Ses fils tombent morts, les autres blessés. Andia s'élance, criant : Tango ! tango ! Maudit, maudit ! et tombe frappé à mort. Alors à coups de hache comme on abat un chêne, **Segon frappe Ataï**. Le vieux chef porte la main à sa tête à demi-détachée, et ce n'est qu'après plusieurs coups encore qu'il devient immobile.*

Le cri de mort fut alors poussé par les Canaques, allant comme un écho à travers les montagnes.

À la mort de l'officier français Gally Passeboc, les Canaques saluèrent leur ennemi de ce même cri de mort parce qu'avant tout ils aimaient les braves.

¹- Ibid, Saussol

²- Cf. *Mémoires*, 1886, Poche, 4 mars 2021.

La tête d'Ataï fut envoyée à Paris ; je ne sais ce que devint celle d'Andia. Que sur leur mémoire chante ce bardit d'Ataï. Le takata dans la forêt a cueilli l'adouèke, l'herbe de guerre, la branche des

spectres. Les guerriers se partagent l'adouèke qui rend terrible et charme les blessures.

(...)

Parmi les déportés, les uns prenaient parti pour les Canaques, les autres contre. Pendant l'insurrection canaque, par une nuit de tempête, j'entendis frapper à la porte de mon compartiment de la case. Qui est là ? Demandai-je. – Taïau, répondit-on. Je reconnus la voix de nos Canaques apporteurs des vivres (taïau signifie ami). C'étaient eux, en effet ; ils venaient me dire adieu avant de s'en aller à la nage par la tempête rejoindre les leurs, pour battre méchants Blancs, disaient-ils.

Alors cette écharpe rouge de la Commune que j'avais conservée à travers mille difficultés, je la partageai en deux et la leur donna en souvenir. L'insurrection canaque fut noyée dans le sang, les tribus rebelles décimées ; elles sont en train de s'éteindre, sans que la colonie en soit plus prospère.

Un matin, dans les premiers temps de la déportation, nous vîmes arriver, dans leurs grands burnous blancs, des Arabes déportés pour s'être, eux aussi, soulevés contre l'oppression. Ces Orientaux, emprisonnés, étaient simples et bons et d'une grande justice ; aussi ne – comprenaient-ils rien à la façon dont on avait agi envers eux. Bauër, tout en ne partageant pas mon affection pour les Canaques, la partageait pour les Arabes, et je crois que tous nous les reverrions avec grand plaisir. Ils avaient gardé une affection enthousiaste pour Rochefort. Hélas, il en est qui sont toujours en Calédonie et n'en sortiront probablement jamais ! L'un ses rares qui sont revenus, El Mokrani, étant venu à l'enterrement de Victor Hugo, vint à Saint-Lazare, où j'étais alors, et croyait pouvoir me parler ; mais ne s'étant muni d'une permission, cela fut impossible».

Annexe:

Liste des déportés politiques de la révolution de El-Mokrani en 1871
convoi naval par convoi naval conduits en Nouvelle-Calédonie
Source et droits d'auteur Mélica Ouennoughi

331

LE CALVADOS (11ème convoi) - Départ le 02/09/1874 - Arrivée le 15/01/1875 Les déportés politiques algériens de l'insurrection de Kabylie en 1871, emprisonnés au fort de Saint-Martin-de-Ré et enregistrés sous des numéros d'ordre, avant leur déportation en Nouvelle-Calédonie.			
ABDALLAH BEN ALI CHABBI / 843 *	Cultivateur	35 ans - né à Souk Ahras demeurant à Ouled Driss	fils de Ali Chabbi et de Nedjema bent Mohamed
ABDALLAH BEN AMAR / 853 *	Cultivateur	35 ans - né à Souk Ahras demeurant à Ouled Kriar	fils de Amar ben Abdallah et de Fatima bent Ataly
AHMED BEN BRAHIM / 844 *	Cultivateur	23 ans - né à Souk Ahras demeurant à Ouled Driss	fils de Brahim ou Pradoj et de Khannia bent Bey
AHMED BEN DAHMANI / 847* (3128)	Cultivateur	54 ans - né à Souk Ahras	fils de Dahmani ben Yalaoui et de Turquia bent Ali
AHMED BEN NACEUR BEN ALI CHABBI / 804** (2921)	non précisé	45 ans - né à Hanenchas (départ. Constantine) demeurant à Chekoua	fils de Naceur ben Ali Chabbi et de Fatima
ALI BEN AMOR / 850*	Cultivateur	45 ans - né à Ksour	fils de Mohamed ben Mohamed et de Fatima bent Ali

332

ALI BEN TAHAR / 806** (2930)	Cultivateur	42 ans - né à Ouaid (arrd. Bône) demeurant à Bled el Afor	fils de Tahar ben Mohamed et de Embarka bent Mohamed
ALI ES SERIR BEN YALAOUI / 849*(3352)	Cheikh	54 ans - né à Hannenchas	fils de Yalaoui ben Resgui et de Gureta bent Oultan
AMAR BEN ABDALLAH EL YALAOUI / 848* (3102)	Cultivateur	55 ans - né à Hannenchas	fils de Abdallah ben Yalaoui et de Barka ben Amari
AMAR BEN EL OUENNOUGHI / 855* (2934)	Cultivateur	35 ans - né à Ouennougha demeurant à Sahel Guebli	fils de Ouennoughi ben Ali et de Zohra bent Mohamed
BACHIR BEN ALI BOUGUERRAH / 808** (2938)	Cultivateur	40 ans - né à Ouilley (arrd. Bône)	fils de Ali ben Bekassem et de Mériem bent Kabiack
BRAHIM BEN AMAR / 861* (2939)	Spahis	35 ans - né à Souk Ahras	fils de Amar ben Cramia et de Mériem bent Embarek
BRAHIM BEN CHERIF / 860*	Cheikh	23 ans - né à Ecktima	fils de Chérif ben Ali et de Nassia bent Alima
HADJ AHMED BEN ABED / 1189* (2960)	Cheikh	40 ans - né aux Ammaïls - Alger	fils de Si Ahmed ben Abed et de Fathma bent El Hadj

KHALED BEN DAHMANI / 863*	Cultivateur	40 ans - né à la tribu des Hanenchas - Souk Ahras	fil de Dahmani ben Yalaoui et de Tiekia bent Ali
LAKDAR BEN ALI CHABBI / 864* (3131)	Cultivateur	35 ans - né à Tiffech (Souk Ahras) demeurant à Aïn Chouka	fil de Ali Chabby et de Zéma bent Keram
MESSAOUD BEN EL KAID / 873** (2944)	Cultivateur	27 ans - né à Douaïr demeurant à Hachem	fil de Khrounteichi ben el Kaid et de Kazia bent Balbercha
M'AHMED NAÏT AMMARA / 1300* (3163)	Indigène	46 ans - né à Agouni Ahmed	fil de Ahmed ben Amar et de Smina
MOHAMED BEN ALI / 870**	Cultivateur	51 ans - né aux ouled Nabad demeurant à Sahel Guebli	fil de Ali ben Mohamed et de Barka bent Talete
MOHAMED BEN LAKDAR / 811** (2949)	Spahi	22 ans - né à Orira (arrond. Bône) demeurant à Ouïlen	fil de Lakhdar ben Meislian et de Mouna bent Saïd
MOHAMED OU AMEUR* / 867	Cultivateur	35 ans - né et demeurant à Béni Menasser	sans mention
MUSTAPHA BEN NACEUR / 812** (2950)	Cultivateur	25 ans - né à Souk Ahras demeurant à Aïn Chekoï	sans mention
SALAH BEN ABASSI / 876**	Cultivateur Cheikh	42 ans - né à Ouelna demeurant à Hadada	fil de Abassi ben Messaoud et de Tannia bent Derradj

SALAH BEN ALI BOUGUERRAH / 813** (3130)	Khammès	20 ans - né en Tunisie demeurant dans la banlieue de Souk Ahras	fil de Ali ben Belkassam et de Hannan bent Mabrouk
SALAH BEN DAHMANI / 877* (3351)	Cheikh	39 ans - né à Smala des Hanenchas	fil de Dahmani ben Yalaoui et de Turkey bent Ali
TAHAR BEN AHMED SALAH / 879* (3353)	Cultivateur	26 ans - né à Souk Ahras	fil de Ahmed Salah ben Resqui et de Orgueia bent Ahmed
TOUMI BEN AMARA / 814* (2956)	Cultivateur	28 ans - né à Jbafar	fil de Amara ben Abderrahman et de Fitouna bent Abdallah
LE CALVADOS (11ème convoi) Départ le 02/09/1874 - Arrivée le 18/01/1875. Les déportés politiques algériens, en particulier les chefs de l'insurrection de Kabylie, emprisonnés au fort de Quélem et référencés sous des numéros d'ordre avant leur embarquement.			
AHMED AMAR AMZIAN / 2599*	Cultivateur	1816 - né à Dra el Mizan	fil de Omar Amzian et de Kadidja bent el Abani
AHMED BEY BEN CHEIKH MESSAOUD / 2600**	Cultivateur	1826 - né à Rigba Guibalas	fil de Cheikh Messaoud ben Mohamed et de Fatma bent Cheikh Saïd

AHMED BOU MEZRAG BEN EL HADJ AHMED EL MOKRANI / 2601**	Caïd	1836 - né dans la Medjana	fil de El Hadj Ahmed ben Mohamed ben el Mokrani et de Lalha Ouled el Kouider
AHMED OU ARAB NAÏT OU YAHIA / 2602**	Cultivateur	1846 - né à Béni Mendez	fil de Saïd Naït Yaya et de Laadia bent Saïd
AHMED OU LOUNES / 2603**	Caïd	1826 - né à Dra el Mizan	fil de Lounès Naït et de Fatma bent Mohamed
AÏSSA BEN BECHAR / 2604**	Cultivateur	1843 - né à Dra el Mizan	fil de Mohamed ben Bechar et de El Hadj ben Himan
ALI BEN GALOUZ / 2608**	Kalifa de Caïd	1821 - né à Dra el Mizan	fil de Mohamed ben Galouz et de Oum el Kheir
ALI BEN MOHAMED OU KASSI / 2609**	Caïd	1841 - Camba Tizi Ouzou	fil de Mohamed ou Kassi et de Keltoum bent Bouزيد
ALI BEN OTTMANN / 2610**	Bachadel	1816 - Djidjelli	fil de Ottmann ben Keliche et de Fatma bent ?
ALI BEN TELAACHE / 2611**	Caïd	1836 - né à Dra el Mizan	fil de Mohamed ben Himan et de Messaouda bent Manar

ALI BOUDJEMAA / 2612**	Cultivateur	1836 - né à Aoudia	fil de El Hadj ben Bjemao et de Hamana bent Chérif
ALI OU AMEUR OU BOUDJEMAH / 2613**	non précisé	non précisé	fil de El Hadj Ameur ou Boudjemah et de Fatma bent Yahia
ALI OU SAÏD / 2614**	Spahi	1843 - né à Dra el Mizan	fil de Saïd ben Ali et de Ouda bent Kaim
AMEUR NAÏT AMARA / 2605**	Cultivateur	1816 - né à Dra el Mizan	fil de Mohamed Saïd Amara et de Aziza Naït Ameur
AMEUR OU AHMED / 2606**	Cultivateur	1823 - né à Dra el Mizan	fil de Mohamed el Ameur et de Euzkia bent Belkasssem
AZZIZ BEN MOHAND AMZIAN BEN CHEIKH EL HADDAD / 2615**	Caïd	1840 - né à Seddouk	fil de Mohamed Amzian ben Haddad et de Fatma ben Yahia
CHEIKH MOHAMED OU EL HAOUSSIN / 2940**	Cultivateur	1832 - né à Ben Abderrhaman	fil de El Haoussin ben Mohamed et de bent Babia
EL HADJ MOHAMED BEN MOHAMED EL HADJ / 2467**	non précisé	non précisé	fil de Ahmed ben Mohamed et de Zora bent Moulat

KADDOUR BEN KADOUR BEN ALI EMBAREK / 2616**	non précisé	non précisé	fil de El Hadj Kaddour ben Ali Embarek et de Fatma Zohra el Hadj Hassan
M'AHMED BEN KADDECHE / 2618*	non précisé	non précisé	fil de Saïd ben Kaddèche et de Messaouda Tabient
M'AHMED BEN MOHAMED AMZIAN BEN CHEIKH EL HADDAD / 2451**	Marabout	1831 - né à Seddouk	fil de Mohamed Amzian ben Haddad et de Fatma bent Yahia
MOHAMED AMOKRAN BEN BELKASSEM OU KASSI / 2619**	Propriétaire	1836 - né à Camda Tizi Ouzou Cikabail	fil de Mohamed Amokran ben Belkassem ou Kassi et de Chibba bent Mohamed
MOHAMED ARESGUI BEN HAMADOUCHE / 2620**	Mokkadem	1821 - né à Béni Ratin	fil de Hamadouch ben et de Tabaount ben Ahmer
MOHAMED BEN EL HADJ BEN GANAH / 2621*	Cheikh	1821 - né à Gasserter	fil de El Hadj ben Ganah et e Fatma ben Mohamed
MOHAMED OU ALI OU SAANOUN / 2622*	Mokkadem	1821 - né à Béni Ratin	fil de Hadj el Khider et de Fatma bent ?
RABIAH BEN ALI / 2623**	Amin	1836 - né à Dra el Mizan	fil de Ali ben Ahmer et de Tesadit bent Ameur

SAÏD NATT OU EL HADJ / 2624**	Amin	1821 - né à Béni Robrin	fil de El Hadj Mohamed et de Habia bent Takif
SALAH BEN AÏCH BEN CHITTER / 2625**	non précisé	non précisé	fil de Aïch ben Chitter et e Afsa bent Safah
SI SAÏD BEN ALI / ? **	Amin	1826 - né à Beni Kalfoun	non précisé
SI SAÏD BEN RAMDAN / 2626**	non précisé	non précisé	fil de Ahmed ben Ramdan et de Chetmouna bent Mohamed
TAÏB BEN EMBAREK BEN BOUDFILS / 2627**	non précisé	non précisé	fil de Embarek Ahmed Boufils et de Afsa bent Selimon
YUSSEF BEN AMOKRAN / 2628**	Adel Cie Judiciaire	1831 - Béni Amzan Djidjelli	fil de Amokran ben Ali et de Turkia bent ?
LA LOIRE (9ème convoi) Départ le 05/06/1874 - Arrivée le 16/10/1874 Les déportés politiques algériens de l'insurrection de Kabylie en 1871, emprisonnés au fort de Saint-Martin-de-Ré et enregistrés sous des numéros d'ordre avant leur embarquement.			
AHMED BEN AMAR / 1186* (2745) (décédé à Saint-Martin-de-Ré)	ex-Caïd	45 ans - né aux Béni Mamred (Alger)	fil de Amar ben Aïssa et de Zohra bent el Hamadi

AHMED BEN SAÏD / 858* (2747)	Cultivateur	40 ans - né à Guebala demeurant à Guerafour	fil de Saïd ben Ali et de Amia bent Mohamed
ALI AMZIAN NAÏT OU ASSOUG / 1295** (2749)	Indigène	51 ans - né à Aït-Hichem tribu des Béni Yahia (Alger)	fil de Yahia ou Azzoug et de Ftha
ALI AMZIAN OU KEZZOUG / 1296** (2748)	Indigène	36 ans - né à Aït Ali ou Mohand demeurant à Aït Ali ou Mohand	fil de Ahmed Ali ou Kezzoug et de Achoucha
ALI BEN SAAD / 856* (2746)	Cultivateur	46 ans - né à Ouled Belkacem demeurant à Sahel Guebli	fil de Saad ben el Embarek et de Zohra bent Mohamed
BELKASSEM BEN GASSEM / 1298* (2750)	Cultivateur	30 ans - né aux Béni Euzar demeurant aux Béni Euzar	fil de Gassem ben Mohamed et de Fathma bent Ahmed
EL ARBI BEN LARIBI / 862* (2751)	Cultivateur	27 ans - né à Ouled Ajili demeurant à Hachem	fil de Mohamed ben Laribi et de Aïcha ben Laribi
EL HAOUSSIN BEN ALI / 1207* (2752)	Mokhrani	35 ans - né aux Ouled ben Dahman	fil de Ali ben Dahman et de Razia bent Kiselli
HADJ MOHAMED BEN MOUSSA / 1184*	Cultivateur	44 ans - né à Begra (Béni Kalifa) demeurant à Klachra - arrond. Alger	fil de Hadj Moussa et de Aïcha bent Hamouda
HASSEM EL ACHEBEB / 1188* (2755)	Caïd des Zouatena	50 ans - né aux Zouatena - Alger	fil de El Achebeb ben Mohamed et de Fathma bent Ahmed

LAKDAR BEN DOUDOU / 865** (2756)	Caïd	25 ans - né à Bounila demeurant à Béni Yartel	fil de Ahmed ben Doudou et de Tessadite bent Ajer
LOUNES BEN EL HADJ MOHAMED EL ALIAL / 866* (2553)	Cultivateur	63 ans - né à Barlia (Dellys)	fil de Ananny
M'AHMED BEN MESSAOUD / 871** (2758)	Cultivateur	32 ans - né à Ouled Kacem et demeurant au Sahel Guebli	fil de Messaoud ben Messaoud et de Tessadit
MOHAMED dit AHMED BEN EL HADJ AHMED BEN DAHMAN / 1191* (2763)	Cultivateur	35 ans - né aux Ouled ben Dahman (Alger)	fil de Hadj Ahmed ben Dahman et de Mina bent Hamauch
MOHAMED BEN AHMED BEN TALEB / 1192* (2760)	Fabricant de savon	33 ans - né aux Ouled ben Dahman - tribu des Ammals	fil de Ahmed ben Taleb et de Mina bent Morabin
MOHAMED BEN AHMED OU EL HAOUSSIN / 1193* (2759)	Cultivateur	41 ans - né à Saoula - tribu des Ammals	fil de Ahmed ben El Haoussin et de Fathma bent Amar
MOHAMED BEN BELKASSEM NAÏT SIDER / 1303* (2757)	Cultivateur	âge (?) - né à Guergour - Alger	fil de Belkassem ben Ahmed et de Echtemouna bent Ahmed
MOHAMED BEN BELKASSEM OU HANOUGH / 1185** (2765)	Domestique	42 ans - né aux Ouled Guerça (arrond. Alger) demeurant à l'Oued Schinder	fil de Belkassem et de Aïma bent Ahmed
MOHAMED BEN EL HADJ AHMED BEN DAHMAN / 1195*	Cultivateur	27 ans - né aux Ouled Ammals - Dahman	fil de Hadj ben Dahman et de El Hadja ben Mohamed ben Lumiaen

MOHAMED BEN ALI BEN ATIA dit NEFFAI / 810*	Cultivateur	35 ans - né à Zougara demeurant à Zougara	fil de Ali ben Amar et de Zahia bent ?
MOHAMED BEN HARTZ ALLAH / 868** (2768)	Cultivateur	25 ans - né à Douair demeurant à Hachem	fil de Hartz Allah et de El Rebiha Hansi
MOHAMED BEN SAÂD / 872** (2765)	Cultivateur	25 ans - né Douair demeurant à Hachem	fil de Ammar ben Haoui et Gemina bent El Ajoute
MOHAMED BEN SAÏD / 1196* (2766)	Khammès	30 ans - né à la tribu des Ammals	fil de Saïd ou Ali et de Fathma ben Ali
OMAR HAMIDED / 1198* (2769)	Caïd	35 ans - né aux Zouatna Bouderbalt	fil de Hamided ben ou Ali et de Aziza bent Mohamed
RABAH N'AÏT ZERROUG / 875** (2770)	Cultivateur	35 ans - né à Assouni demeurant à Aït Akbil	fil de Zerroug et de Zera Alimete
RAMDAN BEN MOHAMED / 1199* (2771)	Cultivateur	35 ans - né aux Ouled Ammals - Alger	fil de Mohamed ben Saâd et de Aïcha bent Ali
SAÏD BEN AHMED / 1202* (2772)	Cheikh	50 ans - né aux Ouled Abdel Addi des Béni Kalfoun - Alger	fil de Ahmed bel Hadj et de Aziza bent Belkassem
SI M'AHMED BEN SAÏD dit "EI BEGGAR" / 1305* (2767)	Khodja	24 ans - né à la Déchera El Baghara - Col. Des Béni Aïcha	fil de Saïd ben Mohamed et de Kadoudja bent ben Saïd
SI MOHAMED NAÏT BRAHAM / 886* (3115)	Cultivateur	50 ans - né à Taourirt Fort National	fil de Ahmed ben Mohamed et de Zinia bel el Haoussin

SI RABAN BEN MOHAMED OU EL HADJ / 1201* (2773)	Cultivateur	25 ans - né aux Ouled Abdel Azziz - Béni Kalfoun (Alger)	fil de Mohamed bel Hadj et de Yamina ben el Mahfoud
SI SAAD BEN ALLEL / 1200* (2775)	Propriétaire	35 ans - né aux Ouled Sidi Abdel Aziz - Béni Kalfoun (Alger)	fil de Saâd ben Alieï et de Aziza bent el Hadj
SMAIN BEN AMAR / 1203* (2774)	ex-Khalifa	60 ans - né aux Ouled Ali des Béni Kalfoun	fil de Amar ben Zeroucke et de Aziza bent Belkassem
TAHAR BEN AKLI / 881** (2776)	Cultivateur	32 ans - né à Latour demeurant à Beni Yadel	fil de Abdallah et de Srui bent Adoi
TAHAR BEN KHENICH / 882** (2777)	Cultivateur	? - né à Bou Saâda demeurant à Rouamed	fil de Ahmed ben Khenich et de Fathma bent Tanner
LA LOIRE (9ème convoi). Départ le 05/06/1874 - Arrivée le 16/10/1874 Les déportés politiques algériens de l'insurrection de Kabylie en 1871, emprisonnés au fort de Quélem et enregistrés sous des numéros d'ordre avant leur embarquement en Nouvelle-Calédonie et le chargement supplémentaire de 300 forçats extraits du Pénitencier de Saint-Martin-de Ré.			
ABDALLAH BEN ALI / 803**	Spahi	30 ans - né à Guelma résident à Aïn Guettar	fil de Ali ben ben Djebel et de Fatima bent Ali

AHMED BEN ALI S'GHIR OU ALLAL / 852*	Cultivateur	20 ans - né à Barlia (Dellys)	fil de Ali el S'ghir ben Mohamed ou Allal et de Rasa
AHMED BEN BARAH / 859**	Cultivateur	45 ans - né à Dar el Beïda demeurant à Hachem	fil de Mohamed ben ? et de Amis bent Abdallah
AHMED BEN BELKASSEM / 1306*	Indigène du Djar	52 ans - né aux Ouled Djar Allah demeurant à Djar Allah	fil de Belkassem ben Abdallah et de Messaouda bent Slimann
AHMED BEN BOKRARI / 857**	Cultivateur	36 ans - né à Boussâda	fil de Bokrari Ahmed et de Khedidja bent Chemissa
AHMED BEN SALAH BEN AMOR OU BEN AMAR / 854**	ancien Caïd	65 ans - né à Souk Ahras	fil de Amar ben Belkassem et de Naïma bent Amor
AHMED KERBOUCHEN / 883**	Cultivateur	45 ans - né à Béni Zeggar (Fort National)	fil de Ahmar Jkerbouchen et Choumma Yamouchen
AHMED SALAH BEN RESGUI / 846*	Cultivateur	51 ans - né à Méhuiis	fil de Resgui ben Marouf et de Adja bent Ahmed
ALI BEN MOHAMED / 805** (décédé à Rochefort)	Spahi	35 ans - né à Zougar demeurant à Smala d'Aïn Guettar	fil de Mohamed ben Sassy et de Rannia bent Sassy
AMAR BEL ABBAS / 1297*	Cheikh des Ouled Ali	45 an - né aux Ouled Ali -Djebil	fil de Ali ben Sliman et de Hamelher bent Amar ben el Kheir

AMAR BEN KERKOUR / 1197*	Cultivateur	50 ans - né aux Béni Djaad - Alger	fil de Mohamed ben Kerkour et de Zara ben Amali
ATHMAN BEN THOMANI / 845*	Cultivateur	30 ans - né à Souk Ahras demeurant à Oued Schérif	fil de Thomani ben Mohamed et de ? Ben Ali
BOUDJEMA BEN ALI KHODJA / 1307*	Indigène des Ouled Nabett	43 ans - né à Dehemchas demeurant aux Ouled Nabett	fil de Ali ben M'Ahmed et de Haun Saâd ben Mohamed
BOUDJEMA BEN KARA / 1187**	Cultivateur et Boucher	25 ans - né aux Béni Djirad demeurant aux Béni Djirad	fil de Amar ben Kara et de Zara bent Amadi
BOU HAFS BEN EDDIN / 884**	Cultivateur	35 ans - né Zoua Cheraga (arron. Mascara)	fil de Ben Eddin et de Aïcha bent Ali
DJILALI BEL BACHIR / 885**	Cultivateur	40 ans - né à El Abiod Sidi Cheikh Mascara	fil de Bel Bachir et de Aïcha bent Mohamed
EMBAECK OU BRAHAM / 1308*	Indigène des Ouled bou Hedda	35 ans - né aux Ouled bou Hedda	fil de Ahmed ben Braham et de Messaouda ou el bou Hedda
HAMON OU ALI / 1309*	Indigène des Ouled Salah	55 ans - né aux Ouled Salah	fil de Ali ou Daoud et de El Halia bent Seliman
MESSAOUD BEN BELKASSEM / 1310*	Indigène	40 ans - né à Aïn ben Hazza	fil de Belkassem ben Seliman et de Alima bent Amar
MOHAMED BEN AMEUR / 1194*	Forgeron	57 ans - né à Ouled ben Dahman	fil de Mohamed ben Ameur et de Fitoutouna ben Amaneh

MOHAMED BEN HAMON / 1301**	Marabout	56 ans - né à Boumerdès (Co. Des Béni Aïcha)	fil de Hamon ben Abdelkherim et de Zohra bent Mohamed
MOHAMED BEN LAKDAR BEN ALI / 869*	Spahi	50 ans - né à Béni Yaya demeurant à Aïn Guettar	fil de Lakdar ben Ali et de Hadjila bent Tara
MOHAMED BOU RAHLA / 1302*	Amin Ferkat des Béni Euzal	âge non inscrit - né à Béni Kalfoun	fil de Rahla ou Aïssa et de Messaouda bent el Hadj
NOURI BEN EL EULMI / 874*	Cultivateur	35 ans - né à Souk Akhras demeurant à Aïn Guelta	fil de Eulmi ben el Yalaoui et de Kamar ben el Kabelouti
OMAR BELKASSEM / 1304*	Amin des Ouled Ali	50 ans - né aux Ouled Ali Béni Kalfoun	fil de Belkassem ben Ali et de Djenia bent Ahmed
SAÏD OU SADOG / 1311**	Indigène	35 ans - né à Ouled Aziz demeurant à Béni Méraï	fil de Mohamed ou Sadog et de Messaouda bent Aïssa
SELIMAN OU RHALEB / 1312* (décédé à Saint-Martin-de-Ré)	Indigène	41 ans - né aux Ouled Hamza demeurant à Béni Mélanah	fil de Rhaleb ou el Abbès et de Halymaould Saïd
SLIMAN BEN DAHMAN / 878** (décédé à Saint-Martin-de-Ré)	Cultivateur	50 ans - né à Dar el Beïda demeurant aux Hachem	fil de Dahman ben Chobiri et de Fathma bent ?
TAHAR BEN BRAHIM / 880**	Rouleur de grain	25 ans - né à Souk Ahras demeurant à Aïn Guettar	fil de Brahim ben Kabalouti et de Samia bent ?

موقف السلطات الفرنسية من عودة أحمد بومزراق المقراني إلى الجزائر سنة 1904م من خلال أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس (ANOM)

عمر بوضرية - جامعة المسيلة

تعتبر انتفاضة 1871م بقيادة محمد المقراني والشيخ الحداد من أبرز انتفاضات الجزائر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك بالنظر إلى جملة من الاعتبارات، أهمها توقيتها الحساس والذي أعقب بداية الحرب الفرنسية البروسية 1870/1871م، وكذلك بالنظر لتمييزها بطابع القيادة المزدوجة العسكرية والروحية، فمحمد المقراني ومن بعده أخوه أحمد بومزراق المقراني قادا الانتفاضة عسكريا أما الشيخ الحداد فقادها روحيا، وهو ما شكّل ميزة انفردت بها عن غيرها من انتفاضات القرن 19م، فحركات المقاومة كلّها باستثناء مقاومة الحاج أحمد باي كانت تحت إمرة قيادات دينية روحية جمعت بين الزعامتين الروحية والعسكرية.

وتعدّ انتفاضة المقراني من أكثر المقاومات العسكرية امتدادا بعد ثورة الأمير عبد القادر، فقد شملت مجالا جغرافيا واسعا، حيث امتدت وقائعها من شرشال غرب مدينة الجزائر إلى القل شرقا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى عين الطيبة في أعماق الصحراء جنوبا¹.

1- نبذة عن أحمد بومزراق المقراني ودوره في انتفاضة 1871م:

ولد أحمد بومزراق شقيق الباشا محمد المقراني بقلعة بني عباس إيجيل علي ببجاية، وبعدّ ثالث رموز انتفاضة 1871م، فقد تحمّل العبء الأكبر في الانتفاضة لأنّ أخاه استشهد بعد خمسين يوما فقط من اندلاعها، وعاش بومزراق أحداث الانتفاضة من بدايتها إلى نهايتها، وكان له الدور الكبير في وقائعها سواء في حياة أخيه محمد أو بعد استشهاده.

شارك في الثورة في منطقة سور الغزلان وونوغة، فقد كلّفه أخوه محمد بقيادة المنتفضين هناك وحقق انتصارات هامة بدءا بيوم اندلاع الانتفاضة 16 مارس 1871م، وحاول بومزراق بعد استشهد أخيه ملء الفراغ الذي أحدثه تغييب محمد المقراني عن قيادة المقاومة²، واستمر في مقاومته للاحتلال الفرنسي غير أنّه عجز في استمالة زعماء العائلات الكبيرة إلى الانتفاضة، كما فشل في خلق الانسجام بينه وبين قادة الإخوان الرحمانيين، ومع ذلك فقد استمات في مقاومة جيوش الغزو وإطالة عمر الانتفاضة إلى أوائل عام 1872م حيث سقط أسيرا في 20 جانفي سنة 1872م بالقرب من واحة الرويسات الواقعة على بعد كيلومترين من مدينة ورقلة³، ثم حكم عليه بالنفي إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة، التي عاش فيها إلى غاية العفو عنه سنة 1904م وعودته إلى الجزائر، فكيف كان موقف السلطات الفرنسية بالجزائر من عودته؟

2- محاكمة المقراني ونفيه إلى كاليدونيا الجديدة:

ترتّب عن انتفاضة 1871م مآسي جمّة لحقت بالمنتفضين معنويا وماديا والتي ترجمت في كثرة أعداد الضحايا من شهداء ومعدومين ومشرّدين إضافة إلى نفي العديد من قادة الانتفاضة إلى كاليدونيا وكان على رأس هؤلاء قائد الانتفاضة العسكري الثاني أحمد بومزراق المقراني.

¹ - يحي بوعزيز: ثورة 1871 (دور عائلي المقراني والحداد)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م، ص 309.

² - نفسه: ص ص: 273-284.

³ - يرى المؤرخ أبو القاسم سعد الله أن بومزراق المقراني ارتكب خطأين استراتيجيين: الأول تمثّل في مدّ الثورة إلى الصحراء حيث النقص في السكان والعتاد والماء، والثاني كان استعمال طريقة الهجوم المباشر ضد القوات الفرنسية، وهو ما سمح بترجيح كفة الفرنسيين، للاستزادة حول الموضوع ينظر: أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م، ص ص: 54-55، وأيضا: يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 308.

في 20 جانفي 1872م أُلقي القبض على الشريف بومزراق في الصحراء بعد أن نال منه الجوع والعطش مغشيا عليه¹، وبعد حوالي أربعة عشر شهرا من اعتقال بومزراق حكم عليه بالإعدام يوم 27 مارس 1873م، خفف الحكم يوم 19 أوت 1873م بالنفي إلى الخارج بقرار من رئيس الجمهورية الفرنسية وهو ذات الحكم الذي صدر بحق الشيخ عزيز الحداد وعلي أوقاسي وغيرهما، وعلى إثرها نفي أحمد بومزراق إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة في المحيط الهادي رفقة حوالي مائة وأربعة من رفقاء السلاح في انتفاضة 1871م².

3- قراءة في الوثائق الفرنسية:

أولا- مصدر الوثائق:

الوثائق التي اعتمدنا عليها مصورة من مركز الأرشيف الوطني الفرنسي لما وراء البحار ANOM الواقع بمدينة أكس أون بروفانس بالجنوب الفرنسي، وبالضبط من رصيد الحكومة العامة (GGA) (Le Gouvernement Général de L'Algérie)، رقم العلبه 37 H/6*.

ثانيا- تقديم الوثائق:

- الوثيقة الأولى: وهي عبارة عن مراسلة إدارية من حاكم مقاطعة كاليدونيا الجديدة الفرنسية إلى وزير المستعمرات الفرنسية وتتضمن تحليلا حول مغادرة المنفي المفرج عنه أحمد بومزراق المقراني، ومؤرخة في 18/05/1904م في عاصمة المقاطعة نوميا Nouméa³.

ما يستخلص من الوثيقة بشكل مركز:

- تمّ العفو عن المقراني بموجب قرار رئاسي مؤرخ في: 23 جانفي 1904م.
- أن بومزراق غادر كاليدونيا باتجاه مارسيليا الفرنسية يوم 18 ماي 1904م.
- أن بومزراق عبر للسيد بيكانو حاكم كاليدونيا عن امتنانه وشكره للحكومة الفرنسية على قرار العفو عنه، وأعرب عن رغبته الاستقرار في ضواحي مدينة الجزائر.
- أن بومزراق أقام في فترة نفيه في جزيرة الصنوبر L'île des Pins من 1875 إلى 1878م.
- لعب بومزراق دورا في بعض الأحداث التي شهدتها كاليدونيا مثل انتفاضة الكاناك Canaque سنة 1878م وساهم في عودة الهدوء وحسب الوثيقة فقد قدّم بومزراق خدماته رفقة قادة جزائريين بصفة طوعية وساهم تدخلهم في توقيف الاضطرابات.
- أن بومزراق مارس نشاطا تجاريا رائجا في جزيرة الصنوبر Ile des pins لكنّه ما فتى وأن تراجع بسبب غيابه في نوميا على إثر تدخله لإخماد الانتفاضة، وهو ما أثنى عليه حاكم المقاطعة.
- انتقل بومزراق إلى نوميا حيث استقرّ بها ومارس نشاطه التجاري منذ 1878م، ولم يغادرها إلى غاية العفو عنه حيث أثبت انضباطه ولم يكن موضوع أي شكوى.

¹ - شارل رويبر أجيرون: الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919م، ج1، نقله إلى العربية م. حاج مسعود وأ. بكلي، دار الراشد للكتاب، 2007م، الجزائر، ص28.

² - ذكر المؤرخ يحي بوعزيز بأن المقراني ورفقائه نقلوا إلى عاصمة الإقليم نوميا بينما أشارت إحدى وثائق الدراسة (رقم 2) بأن المقراني كان يقيم منذ 1875م بجزيرة الصنوبر إلى غاية 1878م، وهو ما يطرح تساؤلا: هل نفي المقراني في بادئ الأمر إلى نوميا ثم تم تغيير مكان نفيه إلى جزيرة الصنوبر ليعود بعدها إلى نوميا بعد مشاركته رفقة قادة جزائريين في وقف انتفاضة الكاناك في ذات السنة؟، للمزيد ينظر: يحي بوعزيز: المرجع نفسه، ص ص: 329-333،

ANOM: GGA, Boite*6H/37, document: Le Gouverneur de la Nouvelle Calédonie et Dépendances à Monsieur le Ministre des Colonies (Analyse: Départ pour la France du déporté Ahmed ben Mokrani), Nouméa Le18/05/1904, p1.

³ - يُنظر الملحق رقم 01.

- أكد الحاكم اقتناعه بأن المنفى الطويل أثر في بومزراق وجعله أكثر تعقلاً ولا يفكر حالياً إلا في حياة هادئة لذلك أسرَّ للحاكم بأنه يريد أن يستقرَّ في ضواحي مدينة الجزائر.

- ترجَّى حاكم مدينة نوما وزير المستعمرات الفرنسي بأن يتدخل لصالح بومزراق لدى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر لأنَّ بومزراق غادر نوميًا وهو قليل المال وبحاجة ماسة للمساعدة المالية من طرف الحكومة، وهو ما يمكن اعتباره تصرف حكيم - أي لصالح فرنسا - وكذلك من باب فعل الخير.

- **الوثيقة الثانية:** وهي عبارة عن مراسلة من وزير المستعمرات الفرنسي إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر بشأن الوصول المرتقب للمنفى المعفى عنه أحمد بومزراق المقراني مؤرخة في 24 ماي 1904م¹، ويعلم فيها الوزير الحاكم العام باستفادة بومزراق من قرار العفو الرئاسي الصادر بتاريخ 23 جانفي 1904م، والذي ألغى حكم النفي الصادر بحقه في 27 مارس 1873م من طرف محكمة قسنطينة الذي عوض قرار الإعدام الصادر، وذلك بسبب أعماله التي مست الأمن الداخلي للدولة، كما تضمنت الوثيقة خبر مفاده أن بومزراق من المرتقب أن يصل إلى ميناء مرسيليا بالجنوب الفرنسي يوم 28 جوان 1904م.

- **الوثيقة الثالثة:** وهي صادرة عن الحكومة العامة للجزائر *Gouvernement Générale de L'Algérie* مصلحة شؤون الأهالي *Direction des Affaires Indigènes* بعنوان: مدونة متعلّقة بأحمد بومزراق المقراني وعودته إلى الجزائر²، وأهم ما تضمنته صفحاتها الأربع:

- الإشارة إلى العفو الذي استفاد منه أحمد بومزراق المقراني وإمكانية عودته إلى الجزائر، وطرح تساؤل: ما إذا كان سيُسمح له بحرية اختيار مكان إقامته في المكان الذي يريده، وهل بالإمكان أن تخصص له الإقامة، وهو ما ينبغي تناوله من وجهة نظر قانونية وسياسية.

- فمن الجانب القانوني المحض ورغم استفادة بومزراق من إجراءات العفو إلا أنه ممنوع بموجب المادة 46 من قانون العقوبات من الإقامة في الجهات أو النواحي ككل الأهالي الجزائريين الذين سلطت عليه عقوبة النفي مثلما نص عليه قانون 27 ماي 1885م، كما حددت هذه المناطق الممنوعة بموجب قرار لوزير الداخلية وحددت أيضا من خلال مرسوم الحاكم العام بتاريخ 17 أكتوبر 1894م، وتتمثل هذه المناطق في مدينة الجزائر والبلديات شبه الحضرية، وكذلك قسنطينة وبرج بوعريّيج، إذن فمن الناحية القانونية لا يحق لبومزراق الإقامة في هذه الجهات لكن في المقابل يمكنه ذلك بترخيص من الإدارة.

- من الجانب السياسي لا يمكن إغفال مسألة اختيار مكان إقامة بومزراق، فمن غير الممكن السماح له العودة للاستقرار ببرج بوعريّيج ولا في منطقة سطيف وسور الغزلان أين لعب دورا جد فعال في انتفاضة 1871م أو أين توجد معظم ممتلكات عائلته وأتباعه التي صودرت ووضعت تحت تصرف المستوطنين، وتذكر المدونة بأنّ والي قسنطينة طلب منع المقراني من الإقامة في إقليمه *Département* وهو الطلب الذي من المفروض أن يُقبل حسب التقرير.

وهنا يطرح التقرير إمكانية عدم تفضيل بومزراق المقراني الإقامة في إقليم مقاطعة قسنطينة، واحتمال طلبه الاستقرار بمدينة الجزائر أو بزاوية الهامل بالقرب من بوسعادة، وحول هذا الاحتمال أشار تقرير الحكومة العامة بالجزائر إلى أنّ هذا الاختيار ينطوي على سلبات؛ باعتبار أن بوسعادة شملتها أحداث انتفاضة 1871م بالإضافة إلى وضعية زاوية الهامل التي تتسم بعدم الوضوح بسبب

¹ - يُنظر الملحق رقم 02.

ANOM: Le Ministre des colonies à Monsieur le Gouverneur général de L'Algérie-de l'arrivée prochaine du déporté Ahmed bou Mezreg ben El Hadj ben Mokrani-Paris 24/05/1904

² - يُنظر الملحق رقم 03.

ANOM: Gouvernement Général de l'Algérie, Direction Des Affaires Indigènes-Note relative à Ahmed Boumezrag El Moqrani et à son retour en Algérie, Alger, 1904.

الصراع من أجل النفوذ بين زينب بنت محمد بن بلقاسم وعمّها سي محمد، فزينب آوت ابن بومزراق - الوانوغوي - وأفراد من عائلة المقراني الذين تربطهم علاقة غير حسنة مع سي محمد، وباعتبار كذلك أن زاوية الهامل تشكل مركز تأثير روحي فهي مقصد لعدد معتبر من أتباع الطريقة الرحمانية، وفي ظل هذا الخلاف بين زينب وعمّها وإمكانية أن تهب هذه الأخيرة قسما من ثروتها ونفوذها لعائلة المقراني مما يمكن أن يشكل مخاطر بالنسبة للفرنسيين حسب السياق الذي ذكره التقرير.

وقد أوصى التقرير الفرنسي بضرورة استشارة الوالي الفرنسي على قسنطينة ووالي الجزائر قبل إصدار أي قرار بهذا الشأن، كما لم يجتهد التقرير أن يرخّص لبومزراق بالإقامة في مدينة الجزائر دون دراسة المسألة بعمق، فبومزراق بدون موارد سيجد نفسه بسهولة منقادا مع الناقمين على الأوضاع ومع كثير من الأهالي المتهمين في أحداث انتفاضة 1871م، وأوصى التقرير بدفع بومزراق للإقامة عند ابنه الوانوغوي الذي يشغل منصب إمام بمسجد القليعة القريبة من مدينة الجزائر أو بإمكان الحاكم العام أن يخصّص له إقامة هناك من أجل كسب الأهالي.

ولم يُهَوّل التقرير من مخاطر عودة بومزراق مهما كانت وجهة إقامته بالنظر ربّما لسنّه وطول فترة نفيّه التي أثّرت ولاريب في معنوياته وهو الشيخ المسن، ولكن ما يمكن أن يشكل خطرا هو تأثير عودة بومزراق المقراني على معنويات الأهالي وعلى الوضع الأمني العام الذي لم يكن في أحسن حال، وأشار التقرير كذلك إلى الصدى الذي أحدثه خبر قرب عودة أحمد بومزراق في الشعب الجزائري؛ فحسب والي قسنطينة أنّ عديد القبائل جمعت أموالا واشترت أراضي لفائدة بومزراق، فإذا كان هذا صحيحا حسب ذات التقرير فيمكن لبومزراق أن يستفيد من إعانة هؤلاء لتوفير حاجياته اليومية، وبالتالي يجتّب الحكومة العامة في الجزائر تكاليف مالية من خزانة المستعمرة، وهو ما طالبت به بعض الصحف التي لم يذكرها التقرير بالاسم.

في الختام، لا يسعنا إلا أن نؤكد على أهمية دراسة الوثائق الأرشيفية الموجودة في الأرشيف الفرنسي خاصة في مركز أرشيف ما وراء البحار الذي يحوي كمّا هائلا من الوثائق الصادرة عن مصالح فرنسية مختلفة إضافة إلى مراسلات لبومزراق وعائلته ومقرّبيه المنفيين بكاليدونيا الجديدة علّها تضيف جديدا لما نشر من دراسات تاريخية بشأن أحمد بومزراق المقراني خاصة بعد نهاية الانتفاضة ومصيره بعدها بما في ذلك موقف السلطات الإستعمارية الفرنسية من عودته إلى أرض الوطن بعد عقود من النفي.

الملحق رقم 01: مراسلة إدارية من حاكم مقاطعة كاليدونيا الجديدة الفرنسية إلى وزير المستعمرات الفرنسية تتضمن تحليلاً حول
مغادرة المنفي المفرج عنه أحمد بومزراق المقراني، مؤرخة في 18 ماي 1904م في عاصمة المقاطعة نوميا ¹Nouméa

Nouvelle-Calédonie
et
Dépendances
Cabinet du Gouverneur
N° 608

Nouméa, le 18 mai 1904.
C O P I E
Le Gouverneur de la Nouvelle-Calédonie et
Dépendances,
à Monsieur le Ministre des Colonies,
(Cabinet du Ministre et 2^e Direction, (3^e Bureau)-
Services pénitentiaires).

Analyse:
Départ pour la France
du déporté gracié Ahmed
ben Mokrani.

Par télégramme en date du 26 mars dernier, N° 13, répondant
à votre télégramme du 17 mars, N° 22, je vous ai fait connaître que le
Déporté Ahmed ben Mokrani, gracié par décision présidentielle du 23
janvier, quitterait, par le courrier du mois de mai, la colonie, où le
retenait, pour quelque temps, le règlement de ses affaires privées.
J'ai l'honneur de vous informer que Mokrani s'embarque
aujourd'hui, 18 mai, à destination de Marseille, sur le paquebot "Pa-
cifique".

Mokrani a le dessein de se retirer aux environs d'Alger.
Je l'ai fait venir, il y a deux jours, à mon Cabinet. Il m'a témoigné
la plus grande gratitude envers le Gouvernement, pour la mesure bien-
veillante dont il venait d'être l'objet.

En me priant de vous transmettre l'expression de sa vive
reconnaissance, il m'a donné l'assurance de tout son entier dévoue-
ment à la France et au Gouvernement français.

Mokrani a, du reste, déjà donné des preuves certaines de
son attachement à notre pays.

Il se trouvait à Nouméa, en 1878, lors de l'éclosion de
l'insurrection canaque; il y était venu, pour quelques jours, en per-
mission de l'île des Pins, où il était interné, depuis 1875. Dès l'an-
nonce des premiers troubles, il offrit spontanément ses services au
Gouverneur Olry, qui les accepta. Avec une petite troupe d'arabes, li-
bérés, déportés ou condamnés, dont on lui donna le commandement, il ser-
vit dans plus d'une occasion.

¹ - ANOM: Analyse: Départ pour la France du déporté Ahmed ben Mokrani, ibid.

des services appréciables aux autorités militaires.

Mokrani eut d'autant plus de mérite à agir ainsi qu'il avait abandonné, à l'île des Pins, un commerce assez florissant que son absence fit périliter, puis tomber entièrement.

A la fin de l'insurrection, Mokrani s'installa à Nouméa, où il se livra au commerce et à diverses entreprises. Il n'a quitté le Chef-lieu, depuis cette époque, que pour faire de courts séjours dans l'intérieur. Depuis son arrivée en Nouvelle-Calédonie, Mokrani n'a donné lieu à aucune plainte. Sa conduite a été absolument irréprochable et son attitude n'a jamais été de nature à inspirer la moindre méfiance à son égard. J'ai l'entière conviction que Mokrani, à l'heure présente, assagi par son long exil, n'a d'autre préoccupation que celle de mener dorénavant une vie calme et toute de repos. Il a déclaré, d'ailleurs, qu'il ne voulait se retirer aux environs d'Alger que pour éviter le plus possible d'exciter la curiosité de ses copreligionnaires et pour se soustraire, autant qu'il le pourrait, à leur importunité.

Peut-être, ~~M. le~~ Ministre, estimerez-vous devoir intervenir, auprès de M. le Gouverneur Général de l'Algérie, pour recommander Ahmed El Mokrani à son bienveillant intérêt.

Mokrani quitte la colonie avec de très faibles ressources. Il ne demande rien, mais l'aide matérielle du Gouvernement serait pour lui la bienvenue et je crois que la lui accorder serait un acte de bonne politique, en même temps que de bienveillance et d'équité.

Signé: E. Picanon.

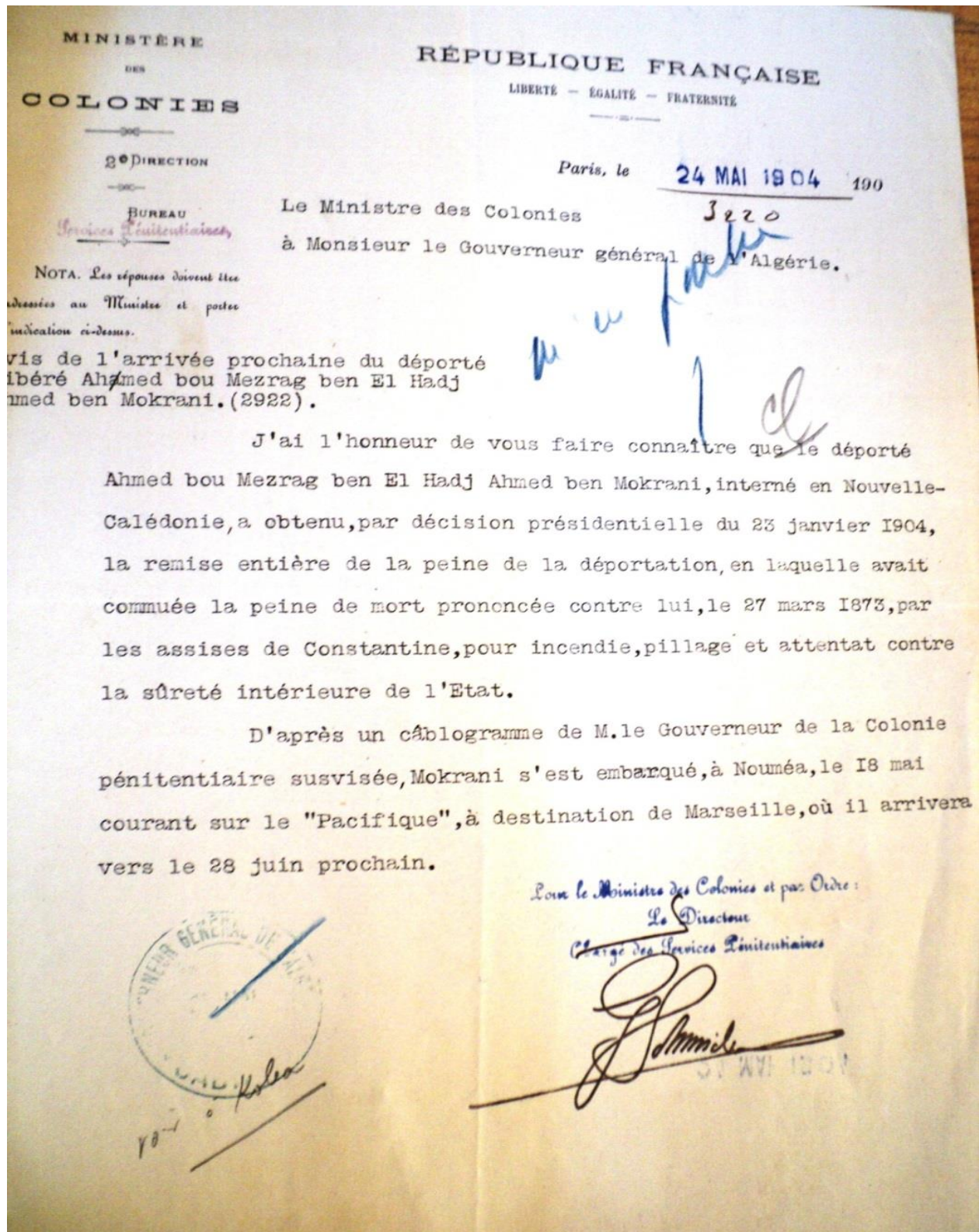
Pour copie conforme:

Le Sous-Chef du Bureau

des Services Pénitentiaires

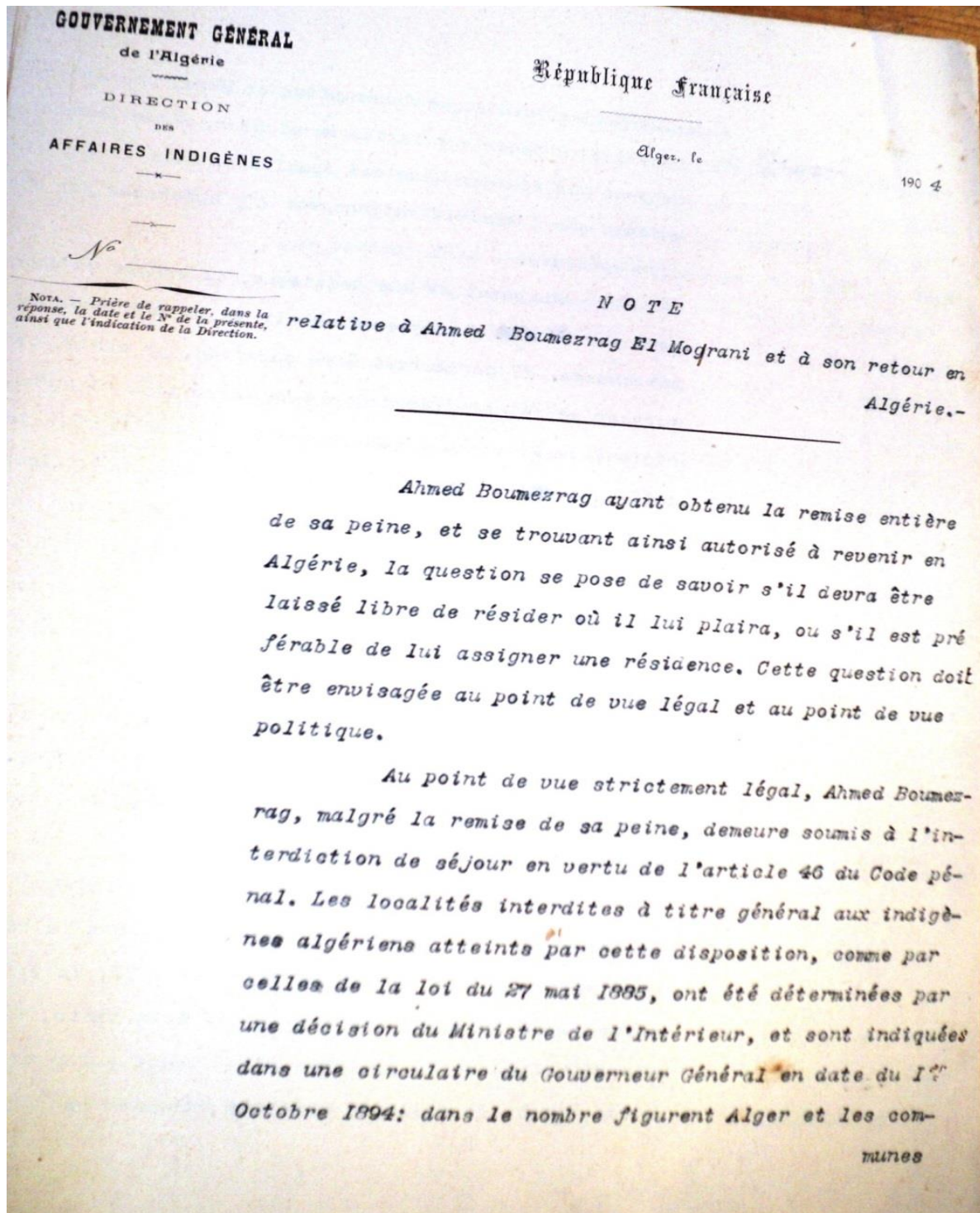
Farron

الملحق رقم 02: مراسلة من وزير المستعمرات الفرنسي إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر بشأن الوصول المرتقب للمنفى المعفى عنه أحمد بومزراق المقراني مؤرخة في 24 ماي 1904¹



¹- ANOM: Le Ministre des colonies à Monsieur le Gouverneur général de L'Algérie-de l'arrivée prochaine du déporté Ahmed bou Mezreg ben El Hadj ben Mokrani-Paris24/05/1904

الملحق رقم 03: مدونة متعلقة بأحمد بومزراق المقراني وعودته إلى الجزائر صادرة عن الحكومة العامة للجزائر
Gouvernement
1: Direction des Affaires Indigènes Générale de L'Algérie



¹- ANOM: Gouvernement Général de l'Algérie, Direction Des Affaires Indigènes-Note relative à Ahmed Boumezrag El Moqrani et à son retour en Algérie, Alger 1904.

suburbaines, ainsi que Constantine et Bordj-bou-Arréridj. Donc à s'en tenir aux textes en vigueur, Ahmed Boumezrag ne peut pas résider dans ces localités. Mais il est bien entendu que l'Administration peut l'y autoriser par décision spéciale.

Au point de vue politique, il semble qu'on ne peut pas se désintéresser du choix de la résidence de ce personnage. Il ne saurait être question, je crois, de le laisser se réinstaller à Bordj-Bou-Arréridj, ni dans les régions de Sétif ou d'Aumale, où il a joué un rôle très actif pendant l'insurrection de 1871, et où d'ailleurs tous les biens de sa famille et de ses serviteurs ont été séquestrés et remis à la colonisation. Le Préfet de Constantine demande même que le territoire entier de son département lui soit interdit. Je pense que cette demande doit être accueillie.

Il est probable qu'Ahmed Boumezrag lui-même ne demandera pas à habiter la province de Constantine. Il voudra vraisemblablement se fixer soit à Alger, soit à la zaouia d'El Hamel, près Boussaada.

Il ne serait peut être pas sans inconvénients de le laisser se fixer à El Hamel. Outre que la région de Boussaada a été mêlée aux troubles de 1871, la situation actuelle de la zaouia ne semble pas bien nette, en raison des rivalités et de la lutte d'influence qui y existent entre Zineb, la fille du marabout Mohammed ben Bel-Kassem

et son cousin Si Mohammed. Zineb paraît avoir toujours accueilli avec une faveur très marquée le fils de Boumezrag, El Ouannoughi. C'est du reste chez elle que résident et sont entretenus divers membres de la famille Mograni, qui portent déjà ombrage à Si Mohammed. El Hamel est déjà un centre d'influence religieuse, visité par un nombre très considérable d'affiliés de la confrérie des Rahmania. On peut craindre qu'il ne devienne en outre, en raison de rivalités dont nous parlons, et par la présence de Boumezrag, un milieu politique et un centre d'intrigues. Enfin il n'est pas impossible que Zineb, qui a toujours refusé toute réconciliation avec son cousin et qui est infirme, ne lègue au moins une partie de sa fortune et même de son influence à la famille Mograni. Quelque peu probable qu'elle soit cette éventualité mérite d'être prévue.

Ce serait surtout à M. le Général Commandant la Division d'Alger, qu'il appartiendrait de se prononcer sur les inconvénients que pourrait offrir l'installation de Boumezrag à El Hamel. Mais il semble que les Préfets de Constantine et d'Alger devraient être consultés avant toute décision.

Alger ne semble pas non plus une résidence à autoriser sans examen. Ahmed Boumezrag n'y trouverait aucune ressource et s'y trouverait trop facilement en relation avec des mécontents, avec des gens préoccupés avant tout de réclame, et aussi avec tous les indigènes encore

très nombreux qui ont été compromis dans l'insurrection de 1871.

Le mieux serait je crois de l'engager à résider avec son fils, El Ouannoughi, qui est imam à la mosquée de Coléa, non loin d'Alger. On pourrait même l'y obliger, le Gouverneur Général ayant, en vertu de ses pouvoirs généraux à l'égard des indigènes, le droit de lui assigner une résidence.

Il n'y a pas à craindre, sans doute, que Boumezrag, quelle que soit sa résidence, devienne un danger politique. Mais il n'est pas bon non plus, au point de vue de l'état d'esprit des indigènes déjà impressionnés par l'affaire de Margueritte, et pour la sécurité générale, qui n'est pas très bonne en ce moment, de laisser cet ancien chef se poser en victime, volontairement ou involontairement, et dire ou ~~faire~~ dire que nous avons oublié ou méconnu les services rendus par sa famille.

Il restera encore à examiner la question de ses moyens d'existence. Je ne pense pas que l'on doive, comme l'ont demandé quelques journaux, lui accorder un subside sur le budget de la Colonie, ni des terres. Le Préfet de Constantine affirme que divers kabyles ont acheté des terres pour le compte d'Ahmed Boumezrag. Si cela est exact ces kabyles lui enverront sans doute de quoi subvenir à ses besoins. Dans le cas contraire qui paraît plus probable, Ahmed Boumezrag vivra des subsides que lui fourniront

التنظيم الإداري الاستعماري في الجزائر بعد ثورة المقراني 1871م وانعكاساته على المجتمع الجزائري

شريف عبد القادر - جامعة الجزائر 2

واجهت الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي واحدا من أخطر أشكال الاستعمار الأوروبي بنوعيه القلم والحديث، وكان مخططه يعتمد أساسا على فكرة التفجير، التجهيل، التنصير والفرنسة، بهدف محو الكيان الجزائري بكل مقوماته الحضارية، وإبعاد الشعب الجزائري عن المشاركة في حكم بلاده، واخضاعه إلى تحكم المستوطنين الأجانب الذين انفردوا بإدارة البلاد ونهب خيراتها واستنزاف ثرواتها، خاصة بعد إلحاق الجزائر بفرنسا عن طريق مرسوم فرنسي اعتبر الجزائر فرنسية، في المقابل لم يبق الشعب الجزائري مستسلما، فقد انتظم في شكل مقاومات شعبية مسلحة وطنية نابعة من رفضه لأي حكم أجنبي، ومن ذلك ثورة محمد المقراني عام 1871م التي تعتبر من أهم الثورات الشعبية وأكثرها انتشارا وتهديدا لمصالح فرنسا؛ كما أنها تعد استمرارا للمقاومة الوطنية حيث البلاد ما تزال تعيش حالة الحرب بسبب العمليات العسكرية الواسعة التي ما انفك جيش الاحتلال يقوم بها، وبخاصة في المناطق الجنوبية الغربية.

تميزت ثورة المقراني عن سابقتها بأنها لم تكن انتفاضة محلية ضد تعسف غلاة المعمرين، ولكنها كانت ثورة تحريرية حقيقية هدفها اخراج المستعمرين من البلاد، فقد وجدت صفوف المجاهدين، وانضوى تحت لوائها عدد كبير من زعماء الجمعيات الدينية، مثل الزعيم الروحي الشيخ الحداد وولديه محمد وعزيز، وشملت الثورة ثلثي المناطق المحتلة، وبلغ جيش الثوار 200 ألف ثائر، وقد هددت الثورة الوجود الاستعماري في الجزائر وألقت الرعب في نفوس المعمرين.

كان لثورة المقراني 1871م، وقع كبير على السلطات الاستعمارية الفرنسية، خاصة وأنها كانت على وقع صدمة حرب 1870م وهزيمتها المذلة أمام ألمانيا وقبولها لشروط معاهدة فرانكفورت، الأمر الذي يجعلنا نؤكد على حنكة المقراني ومعرفته للأوضاع التي كانت تعيشها أوروبا من جهة، وفرنسا بخاصة.

لا يخامرنا الشك في أن ثورة المقراني هي جزء من كفاح الشعب الجزائري، الذي أحس بمرارة الاستعمار وظلمه، وعلى الرغم من هذه المقاومات الشعبية الراضية له إلا أن فرنسا الاستعمارية تمادت في قمعها والشواهد على ذلك كثيرة.

وبالحديث عن انعكاسات ثورة المقراني، تأتي هذه الورقة البحثية سعيا لإمالة اللثام عن الإجراءات الإدارية التي أقدمت فرنسا على فرضها على الشعب الجزائري بعد 1871م، وبيان تأثيراتها على واقع الجزائر والمجتمع الجزائري.

1- آثار حرب 1870م على الواقع السياسي الفرنسي وعلى الجزائر:

بعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا في حرب 1870م فرضت عليها غرامة مالية ثقيلة ذاقت من خلالها مرارة الذل والاستعمار¹، حيث رحب المستوطنون بسقوط نابليون الثالث ومعه الإمبراطورية الثانية ونظامها، وكان ذلك في صيف عام 1870م، لأنهم رأوا في ذلك تخليصا لهم من سيطرة السلطة العسكرية ونفوذ العسكريين الذين وقفوا أمام طموحاتهم وتطلعاتهم، وقد دفعهم ذلك إلى حد التفكير في الانفصال عن فرنسا والاستقلال بالجزائر، حتى لو تطلب ذلك مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية أو بريطانيا في حالة عجزت

¹ - إحسان حقي، الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد، منشورات المكتب التجاري، بيروت، (د.ت)، ص 101.

فرنسا عن رد الغزو البروسي الألماني المحتمل، هذا الأمر دفعهم فعلا إلى التمرد في كل من وهران وقسنطينة والجزائر لكنهم فشلوا في تحقيق هدفهم خاصة بعد أن واجهتهم ثورات الأهالي في مطلع العام 1871م¹.

إن إعلان جمهورية الرابع من سبتمبر مثل انتصارا للمعمرين، لأنه خلصهم من مشروع المملكة العربية الذي يهدف إلى منح الحكم الذاتي للجزائر، ويقول سعدالله في ذلك: "لقد تبخّر حلم المملكة العربية أو منح الجزائر الحكم الذاتي على إثر الحرب الفرنسية الألمانية وهزيمة الجيش الفرنسي"²، وعادت بذلك الجمهورية الثالثة إلى السياسة القديمة القائمة على الاندماج والاستعمار والمصادرة والقهر.

بدأت الجمهورية في إعداد مشروع يخص الجزائر وبعد مصادقة البرلمان على بنوده بتاريخ 9 مارس 1870، وخاصة الأمر اليومي الذي أعدته لجنة تحقيق على رأسها كل من شخصية "راندون" و"بيهيك" والذي صدر في شكل مرسوم يوم 29 مارس 1871م ومن أهم ما جاء فيه³:

- تقسيم الجزائر إلى إقليمين: شمالي مدني وجنوبي عسكري.
- يحكم الإقليمين حاكم عام مدني واسع السلطات يخضع رأسا لوزير الداخلية.
- يحق للمستوطنين الأوروبيين انتخاب 09 نواب في البرلمان و03 في مجلس الشيوخ.
- يتم انتخاب مجالس بلدية وعمالية وفق ما يجري في فرنسا.
- يتم انشاء مجالس استشارية للنظر في شؤونهم الخاصة.

وفي 24 أكتوبر 1870م صدر قرار تجنيس اليهود الجماعي بهدف زيادة العنصر الأوروبي، وبلغ عددهم حوالي 38 ألف شخصا، وبذل اليهودي كريمة⁴ جهودا كبيرة لتحقيق هذا المشروع، باعتباره أحد أعضاء حكومة الدفاع الوطني التي تألفت بعد إلغاء الإمبراطورية، وبدأت تعمل على إعداد نظام جديد للجزائر، التي أصدرت بناء على توصياته 57 قراراً، من أهمها إلغاء الحكم العسكري وإقامة نظام مدني يعمل تدريجيا على إدماج الجزائر بفرنسا إدماجا كلياً⁵.

2- تطور مفهوم الإدماج في عهد الجمهورية الثالثة:

منذ أن استقر الفرنسيون في الجزائر، ظهر تياران متعارضان حول السياسة التي يجب اتباعها، فكان التيار الأول يدعو إلى اتباع نظام الإدارة غير المباشرة، أما التيار الثاني فكان يدعو إلى سياسة الإدماج. ولما مضت فترة على احتلال الجزائر وانتشر الاستيطان الأوروبي وتركز، تغلب تيار الإدماج الذي يهدف إلى محو شخصية الجزائر وطبعها بصورة فرنسا، هذه السياسة التي ستبدأ الجمهورية الفرنسية الثالثة في تنفيذها⁶.

كان لظهور الطبقة الوسطى في فرنسا دور في تشجيع أصحاب الصناعة والتجارة في فرنسا المطالبة بسياسة الإدماج في الجزائر، وقد أحييت الجمهورية الثالثة هذه الفكرة (الإدماج) وعملت على تطبيقها بشكل كامل حيث تبنت أسلوب الإدماج والاستعمار والمصادرة والقهر.

¹ - يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954م، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، ص 29-30.

² - أبو القاسم سعدالله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ج.2، ص 100.

³ - بوعزيز، المرجع السابق، ص 30.

⁴ - إسحاق موشي كريمة (المعروف بأدولف كريمة)، محامي وسياسي فرنسي يهودي، أنتخب نائبا منذ عام 1848 مرارا آخرها نائبا عن مدينة الجزائر في الجمعية الوطنية الفرنسية عام 1871، كما تولى العدل مرتين أولها سنة 1848 والثانية في سنة 1870 إلى فبراير 1871، ينظر: بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1989م، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ج.1، ص 232.

⁵ - فلاديمير لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة، عفيفة البستاني، دار الفارابي، ط8، بيروت، 1985، ص 313-317.

⁶ - عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، 2013، ص 76.

لقد استمرت هذه السياسة إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى بدون تغييرات جذرية وقد تم دعمها وتشجيعها بالتوسع الإمبريالي، وسعت فرنسا إلى تثبيت سياستها بكل الوسائل والأساليب بانتهاكها لحقوق الإنسان والعمل على إحلال المستوطنين الفرنسيين محل الأهالي لجعل الجزائر فرنسية.

إن قوانين الإدماج لم تكن تعني في واقع الأمر الجزائريين وإنما القصد منها فرنسا الأرض لخدمة الكولون الذين لم يقبلوا المتروبول حكومة ونوابا على هذه الأرض التي اعتبروها مقاطعة فرنسية، وذلك لأنها كانت بدافع الليبرالية مما جعل الكولون يسعون إلى الانفراد بالجزائر بعيدا عن المجالس الفرنسية¹، وما يؤكد انتصارهم هو إصدار قانون 29 مارس 1900م الذي يعطي الجزائر الاستقلالية في ميزانيتها المالية².

كانت سياسة الاحتلال منذ البداية تخطط لدمج الجزائر في فرنسا بعد فرنستها وتنصيرها³ عن طريق ربطها سياسيا وإداريا بفرنسا وإذابة كيانها الثقافي والحضاري في الشخصية الفرنسية، ويظهر أن فرنسا سعت إلى تطبيق الإدماج على أرض الواقع، لكنها لم تطبقه بمعنى المساواة بين الأوربيين والجزائريين في الحقوق والواجبات، أما الإدماج من الناحية السياسية فيعني جعل الجزائريين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا فرنسيين يتمتعون بالحقوق السياسية الفرنسية داخل بلادهم وخارجها، وإداريا أن تكون الجزائر إقليما فرنسيا يتشكل من مقاطعات ويتجزأ إلى مديريات⁴.

وبهذا تكون الجمهورية الثالثة وصلت إلى تحقيق الإدماج الكلي الذي يعني رسم معالم فرنسا بنكهتها الخاصة المتمثلة في السيطرة على التعليم والدين ثم الثكنة والعمل من خلال تسخير المدرسة الفرنسية لتعليم الأهالي، ورجال الدين لتنصيرهم، وعن طريق تجنيدهم في الثكنات وتوظيفهم بخلق وظائف لهم⁵، ويبقى أن فرنسا عجزت عن تحقيق ذلك لأنها وجدت الجزائري متشبع بأفكار حب الوطن والدفاع عنه بكل ما يملك.

3- الهيكل التنظيمي الإداري الاستعماري للجزائر بعد 1871م:

مع حلول سنة 1870، وتغيير نظام الإدارة الفرنسية في الجزائر من عسكري يعتمد على قوة الجيش إلى نظام مدني أصبحت فيه السلطة التشريعية في الجزائر بمقتضى دستور الجمهورية الفرنسية الثالثة تستند إلى قرارات برلمانية مدنية، شددت فرنسا قبضتها أكثر على الجزائر بهدف تحويلها إلى مقاطعة فرنسية، ولتكريس هذا المسعى وهذا الهدف واصلت فرنسا الاستعمارية متابعتها وتشجيعها للحركة الاستيطانية وحركة التعمير بالجزائر وذلك من خلال إصدارها لمجموعة من الإجراءات السياسية والقوانين الاقتصادية والتنظيمات الاجتماعية والثقافية التي كان لها الأثر الكبير على المجتمع الجزائري⁶.

من أجل تحقيق هذا المشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر أمطرت فرنسا الجزائر بمجموعة من الإجراءات والتنظيمات والقوانين التعسفية الجائرة منها:

أ- على صعيد التنظيمات الإدارية:

* **الحاكم العام:** يعين من طرف وزارة الداخلية، ومنها يتلقى الأوامر من أجل إحكام سيطرة فرنسا على الجزائر، وبالتالي إدماج شؤون الجزائر في الوزارات الفرنسية؛ موظف مدني كبير ويمثل أعلى سلطة في الجزائر ويعاونه مستشارون، وفي 1898م استحدثت

¹ - صالح عوض، المرجع السابق، ص 196.

² - سعد الله، المرجع السابق، ج.2، ص 100-101.

³ - Charles Robert -Ageron: Histoire de L'Algérie Contemporaine 1871-1954, Tome2, p.u.f, paris, 1979, p159.

⁴ - Andrieu Henri: L'Assimilation de L'Enseignement des indigenes en Algérie, p5.

⁵ - Merad Ali :Regards Sur l'Enseignement des Musulmans en Algérie 1880-1960, Algérie, 1963, p601.

⁶ - محمد صلاح، تاريخ العالم الحديث والمعاصر (1870-1939)، منشورات القصبة، الجزائر، 1997، ص 103.

(مجلس الحكومة الأعلى) لمساعدة الحاكم العام، وتشكل من: قائد القوات البرية و البحرية ومفتش الأشغال العمومية، ومفتش المالية، أهم وظائفه: وضع ميزانية الجزائر.

* **العمالات:** قسمت الجزائر الشمالية إلى **عمالات** (ولايات) بناء على قرار 09 ديسمبر 1948م وهي ثلاثة عمالات (الجزائر، وهران وقسنطينة) ووضع على رأس كل عمالة أو ولاية والي (عامل) يخضع لأوامر الحاكم العام، وكانت تشبه في طبيعتها وتقسيمها تقسيم بلديات النظام الفرنسي، وقسمت كل عمالة إلى مناطق إدارية تسمى بالدوائر يديرها نائب والي، والجدير بالذكر أن هذا المنصب لم يكن مفتوحا في وظيفته أمام جميع الأهالي الجزائريين، وإنما كانت تصل إليه فئة قليلة من الأهالي المستشارين والمساعدين في المجالس البلدية، وكانوا يعينون من طرف الوالي العام. انضم إليه عدد قليل من الجزائريين في أواخر القرن 19م¹.

* **البلديات:** قسمت الولاية إلى نوعين من البلديات:

- **البلديات الكاملة الصلاحيات:** تم إنشاؤها بمقتضى قانون 15 أبريل 1884م يقطنها المعمرون ويطبق عليهم الحكم المدني²

- **البلديات المختلطة:** وهي التي تضم أغلبية جزائرية يطبق عليهم الحكم العسكري وأقلية فرنسية يطبق عليهم الحكم المدني، معناه إذا ارتكب أحد الجزائريين جنحة في حق أحد الفرنسيين فيحكم إما بالسجن وحتى القتل، وليس له حق الطعن في قرار الحكم، عكس الفرنسيين إذا ارتكب أحدهم جنحة في حق أحد الجزائريين فلا تتم متابعتة أو محاكمته، وإذا حكم بإمكانه الطعن في الحكم، والتماس ظروف التخفيف، وكل ذلك لأن الفرنسيين كانوا يصنفون كمواطنين من الدرجة الأولى والجزائريين مواطنين من الدرجة الثانية (الأنديجينا)³.

* **الحكم العسكري في جنوب الجزائر:** كان يدار من قبل القادة العسكريين لمساعدة المكاتب العربية بالمقارنة مع الشمال الجزائري الذي طبق عليه الحكم المدني.

وعليه، ومن خلال تتبعنا لهذه الإجراءات الإدارية الاستعمارية الفرنسية التي طبقت على الجزائريين، ندرك رغبة فرنسا الشديدة في إبعاد الجزائريين عن المساهمة في حكم بلادهم، من خلال منعهم من تقلد المناصب المستحدثة.

ب- **القوانين الإدارية:** قامت الإدارة الاستعمارية الفرنسية في سبيل تهجير الجزائريين من بلادهم، وإحلال عنصر المعمرين محلهم إلى إصدار مجموعة من القوانين التعسفية، أبرزها:

* **قانون كريميو 24 أكتوبر 1870م:** وقد نص على العديد من النقاط أبرزها: منح الجنسية الفرنسية لليهود بصورة جماعية مع التمتع بجميع الامتيازات التي يخولها القانون للرعيا الفرنسيين دون التخلي عن عقيدتهم أو حقوقهم المدنية.

كان الهدف من وراء إصداره رغبة فرنسا تقوية العنصر الأوروبي الفرنسي بمن فيه اليهود بالجزائر من جهة، وإعطائه الحق في ممارسة النشاط السياسي والإداري في المؤسسات الفرنسية من جهة أخرى، ولذلك وقف الجزائريون منه موقف رفض واستياء وخير رفض جاء على لسان الحاج محمد المقراني الذي احتج على القانون قائلا: "لا خير في دولة يفعل فيها يهودي ما يشاء"⁴.

* **قانون الأهالي (الأنديجينا):** صدر في شهر مارس 1871م وبدأ العمل به سنة 1874م هو عبارة عن مجموعة من الإجراءات الاستثنائية التعسفية نصت على:

- معاقبة الأهالي لأدنى عمل يقومون به.
- مصادرة أملاكهم دون حكم قضائي.

¹ - شارل رويبر أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، منشورات عويدات، باريس، ط.1، 1982، ص80-81.

² - أجيرون، المرجع السابق، ص81.

³ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار البصائر، الجزائر، 2007، ج3، ص05.

⁴ - سعد الله، نفسه، ج1، ص239.

- منع الأهالي من التنقل بين الأقاليم المختلفة دون رخصة.

- منع التجمعات والاجتماعات مع منع الجزائريين من الذهاب للحج بحجة الطاعون وغيرها¹.

كانت فرنسا تسعى وتهدف من وراء إصداره إلى تضيق الخناق على الجزائريين وجعلهم يعيشون في جو من الظلم والشعور بانعدامهم للآدمية ومن ثم دفعهم للهجرة من بلادهم وإحلال محلهم المعمرين.

* **قانون التجنيد الإجباري:** وقد صدر بتاريخ 3 فيفري 1912م، نص على تجنيد كل شاب جزائري بلغ من العمر 18 سنة فما فوق في صفوف الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الأولى ولمدة ثلاث سنوات للدفاع عن الراية الفرنسية، مع العلم أن شباب فرنسا كانوا يجندون في سن 21 سنة ولمدة سنتين وكانوا يختارون عن طريق القرعة وكانوا يقفون في مؤخرة الصف بينما الجنود الجزائريين كانوا يقفون في مقدمة الصف، حتى إذا كانت هنالك خسائر تكون في صفوف الجنود الجزائريين وهو ما أثار غضب وسخط وتذمر الجزائريين لأنهم رأوا فيه نوعا من التمييز العنصري².

* **قانون التهجير:** كان دعاة الإدماج في الجزائر يرون في فتح باب الهجرة للجزائريين خير وسيلة لدجهم بسرعة في المجتمع الفرنسي، على أنها بدأت تتضاعف بعد عام 1870م حيث صدر مرسوم يقيد الهجرة إلى فرنسا عام 1874م إلا بإذن بالسفر³، وفي 15 جويلية 1914م، كان الهدف من إصداره هو تسجيل الجزائريين ونقله إلى فرنسا للزج بهم في حرب لا تمتهم بأي صلة وقد بلغ عددهم نحو 270 ألف شخص⁴.

ج- القوانين الاقتصادية والمالية في عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة:

* **القوانين الاقتصادية:** لقد بذلت فرنسا جهودا كبيرة من أجل توطيد عدد كبير من الفرنسيين في الجزائر، وفي سبيل ذلك سارعت إلى إصدار مجموعة كبيرة من القوانين لتمكينهم من الاستيلاء على الأراضي والأموال العقارية منها:

- **قوانين نقل الملكية الزراعية ومصادرة الأراضي:** بحكم أن الجزائريين كانوا لا يملكون سندات إدارية وقانونية تحول لهم حق الملكية العقارية، وليس لديهم عقود أو صكوك ملكية، وضعت الإدارة الفرنسية الاستعمارية يدها على مساحات واسعة من الأراضي البور والرعي والغابات، متجاهلة بذلك حقوق الجزائريين، وكان من نتائج ذلك إما طرد المالك الأصلي من أرضه الخصبة وحصره في أرض ضيقة وفقيرة، وإما جعله في خدمة المعمرين، كأجير أو كخماس، وهو ما دفع الكثير منهم إلى الهجرة الداخلية والخارجية⁵.

- **قانون واري⁶ 26 يوليو 1873م:** جاء بهدف القضاء على الملكية الجماعية للقبائل والأعراس وفي هذا الإطار قامت السلطات الفرنسية بمصادرة عدد كبير من الأراضي الزراعية بعد فشل مقاومة المقراني وهزيمة فرنسا أمام ألمانيا في حرب السبعينات ومنحها لمهاجري الألزاس واللورين.

¹ - صالح عوض، معركة الإسلام والصلبية في الجزائر، الزيتونة للأعلام والنشر، الجزائر، ص194-195؛

Pierre Bourdieu, Sociologie de l'Algérie, Ed, p.u.f, Paris, 1980, p106.

² - يحي بوعزيز، السياسة الاستعمارية في الجزائر من خلال وثائق حزب الشعب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت)، ص202-203.

³ - زوزو عبد الحميد، دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919-1939م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر (د.ت)، ص12-14؛

Jean jacque Rager, Les Musulmans Algeriens en France et dans Les pays Islamiques, paris, 1950, p.125.

⁴ - نادية طرشون وآخرون، الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي، دار هومة، الجزائر، 2007، ص150.

⁵ - عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي (1830-1960)، ترجمة جوزيف عبد الله، دار الحداثة، ط1، لبنان، 1983، ص158.

⁶ - واري (1863-1868) من المدافعين عن مصالح الكولون، عارض مشروع الملكية العامة كان نائبا في الجزائر، عضو اللجنة الخاصة بملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي، ينظر: ابن داهة، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962م، وزارة المجاهدين، الجزائر، ج.2، ص506.

هذا، بالإضافة إلى فرض غرامات مالية خيالية على كل من شارك في الثورة، الأمر الذي أدى بالفلاحين إلى رهن أو بيع أراضيهم للمعمرين بأثمان رخيصة، حيث وفي ظل عشرة سنوات (1871-1881م) من عمر الجمهورية الفرنسية الثالثة تم استيطان مساحة من الأراضي تساوي مدة استيطان مساحة كل الأراضي في السابق أي ما بين (1830-1870م) تقريباً¹.

- قانون إصلاح الأراضي وتوجيه الإنتاج الزراعي: بمقتضى قانون مصادرة الأراضي سيطر الأوروبيون على أخصب الأراضي خاصة في السهول الداخلية، فتمت المستثمرات الفلاحية التي استخدمت فيها الوسائل المتطورة والحديثة، وهو ما ساعد في ضخامة إنتاجها ومحاصيلها، وخاصة المحاصيل النقدية أو التجارية مثل الحبوب والحمضيات والكروم، أما عن أهم الشركات المستثمرة في الميدان الفلاحي فنذكر:

- الشركة العامة السويسرية في نواحي سطيف بمساحة تقدّر بـ (20 ألف هكتار).

- الشركة الفلاحية والصناعية لصحراء الجزائر ولديها أكثر من (24 ألف هكتار) في الواحات².

وعليه نستنتج أنّ الزراعة في الجزائر خلال الحكم المدني عرفت بنمطين، نمط معاشي موجه لخدمة المواطنين يعتمد على وسائل تقليدية ذات إنتاج محدود، ونمط تجاري موجه للتصدير يعتمد على وسائل حديثة ومتطورة، أشرف عليه المعمرين بهدف ربط الإنتاج الزراعي الجزائري بالاقتصاد الفرنسي، ومن ثم جلب العملة الصعبة وهو ما كان له الأثر الإيجابي على المعمرين والسلي على الأهالي.

*** النظام المالي:** لزيادة مداخيل الخزينة الفرنسية فرضت فرنسا عدّة ضرائب على الجزائريين منها الضريبة العربية التي تعود أصولها إلى العهد العثماني، وكان يدفعها الجزائريون بناء على الشريعة الإسلامية كالزكاة والعشر، بالإضافة إلى الضريبة الفرنسية التي فرضت على الجزائريين بعد الاحتلال³.

وللإشارة، فقد كان المعمرين الأوروبيون الأغنياء يدفعون أقل الضرائب مقارنة بما كان يدفعه الأهالي الفقراء، إضافة إلى أعمال السخرة والحراسة الليلية.

لقد انعكست هذه الإجراءات التي طبقتها فرنسا الاستعمارية على الشعب الجزائري سلباً، حيث تسببت في تهميشهم وحرمانهم من حقوقهم الإدارية والاقتصادية ومنحها للمعمرين بهدف تكريس المشروع الاستيطاني والإدماج الكامل للجزائر وإلحاقها بفرنسا. كما ساهمت في تكريس سياسة استغلال خيرات الجزائريين من طرف المعمرين من خلال السيطرة على أخصب وأجود الأراضي الجزائرية، وهو ما دفع الكثير من الجزائريين إلى الوقوع في الفقر والجوع، وبالتالي دفعهم إلى الهجرة بأعداد كبيرة سواء نحو المناطق الداخلية القاحلة الجبلية النائية أو نحو العالم الخارجي، هذا بالإضافة إلى محاربة اللغة العربية وتزييف التاريخ، ومحاولة القضاء على الدين الإسلامي، وزرع سياسة فرق تسد بين العرب والأمازيغ.

خاتمة:

إن أهمية انتفاضة المقراني تبدو أعمق من سابقاتها؛ ذلك أن الفرنسيين قد لجأوا إلى مصادرة أراضي الثوار وأجبروهم على دفع ثمن الحرب، كما دفعوهم إلى الهجرة من بلادهم وترك ممتلكاتهم بعد أن قيدوهم بترسانة من القوانين والمراسيم. هذه التنظيمات التعسفية الاستثنائية التي اتخذتها فرنسا في حق الأهالي على جميع الأصعدة كانت تصب في إطار إنجاح وتكريس المشروع الاستيطاني في الجزائر وبالتالي تغليب العنصر الفرنسي الأوروبي على العنصر الجزائري.

سعت فرنسا الاستعمارية إلى جعل الجزائر مقاطعة فرنسية تستغل خيراتها وثرواتها لخدمة اقتصادها. وسخرت كل إمكانياتها المادية والعسكرية لتحقيق ذلك، فوظفت مدرستها ورجال الكنيسة وساستها للوصول إلى مبتغاه.

¹ - محمد صلاح، المرجع السابق، ص 109-110.

² - Robert Ageron, Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, T2, p.u.f, 1968, p20.

³ - محفوظ قداش، جزائر الجزائريين (تاريخ الجزائر 1830-1954م)، ترجمة محمد المعراجي، منشورات Anep، الجزائر، 2008، ص 228.

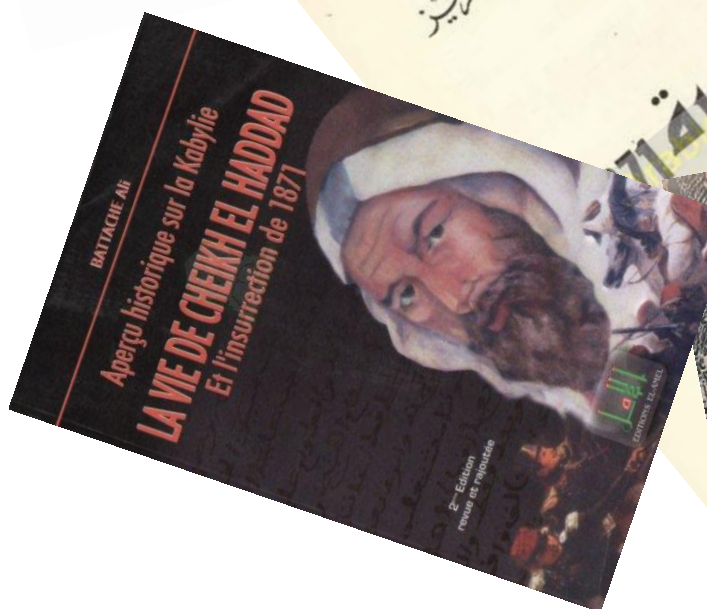
لقد كانت أساليب فرنسا لا تخرج عن طبيعة حقيقتها الإستدمارية التي أرادت أن تدمر هوية الشعب الجزائري، وأن تضربه في دينه ولغته ومقوماته وثوابته، لكن الشعب الجزائري لم تثنيه جميع الصعاب وأكد لفرنسا أن جذوره أعمق مما كانت تتصوره وقد أثبت لها ذلك ميدانيا من خلال مواجهتها مقدما تضحيات كبيرة من أجل أن تبقى الجزائر حرة مستقلة.

LA NATURALISATION DES JUIFS ALGÉRIENS

HIST
DE
L'INSURRE
DE 1871
EN ALGÉRIE

PAR

الدكتور يحيى بوعزيز



DJ-BOU-ARRERIDJ
PENDANT
L'INSURRECTION DE 1871

المحور الرابع:

ثورة 1871م في الإسطوغرافيا المحلية والأجنبية والكتابات الجامعية

* المواقف من ثورة 1871 من خلال نماذج من الأشعار الشعبية والكتابات المحلية في منطقة القبائل

محمّد آكلي آيت سوكي - جامعة سطيف 2

* ثورة المقراني والحدّاد بعيون شعراء الشعر الشعبي الملحون - دراسة نماذج

جمال الدين الواحدي - جامعة سطيف 2

* أصول أسرة المقراني وثورة 1871م في الأطروحات الجامعية - نقد وتقييم

يعقوب خديجة - جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة

* ثورة 1871م في كتابات لويس رين Louis-Marie Rinn

سيف الدين بوسماحة - جامعة تلمسان

عبد القادر صحراوي - جامعة سيدي بلعباس

* حضور محمد المقراني وثورة 1871م في الدراسات التاريخية "مجلة الأصالة" أنموذجا

فؤاد شحي - جامعة البليدة 2

* ثورة المقراني في الببليوغرافيا الرقمية بالجزائر

ودان بوغفالة - جامعة تيارت

* Résumé du livre " la vie de Cheikh El Haddad et l'insurrection de 1871"

Ali Battache - Chercheur en histoire de Béjaïa

المواقف من ثورة 1871 من خلال نماذج من الأشعار الشعبية والكتابات المحلية في منطقة القبائل

محمد آكلي آيت سوكي - جامعة سطيف2

كتب العديد من الكُتّاب عما تركه شعراء منطقة لقبائل من تراث شعري عبروا بواسطته عن مقاومة سكان المنطقة للاحتلال الفرنسي، ومحاولات توسعه. كما بينوا ما واجهه العامة من تنكيل القوات الفرنسية بالسكان، والضرر الذي تركته المحاولات التوسعية التي عرفتتها منطقة لقبائل منذ بداية العمليات العسكرية في المنطقة.

عندما وصل الماريشال بيجو (Bugeaud) بقواته إلى وادي الساحل في 15 من شهر ماي 1847م، وتمكن من هزم القوات المقاومة لهذه الحملة، برز الشاعر: سي محمد سعيد أو عبد الله، الذي خلّد هذه الواقعة، ووصف أهوالها مادحا أبطال المقاومة، وذاما المتخاذلين والمتعاونين مع العدو. وهكذا بالنسبة للشعراء الآخرين الذين تركوا بصماتهم في شعر المقاومة الشعبية بمنطقة لقبائل. وقد اهتم العديد من الكتاب بنقل هذه القصائد الشعرية التي أرخت للمقاومة الشعبية في المنطقة عامة، ومقاومة الشيخ أحماد والحاج المقراني بوجه خاص، ومن بين الذين اهتموا بهذه القصائد وجمعوها نجد:

س. بوليفة (S. Boulifa) ب. بن سديرة (B. Ben sdira)

أ. هانوطو (A. Hanoteau) د. لوسياني (D. Luciani)

ر. باسي (R. Basset)

أما بالنسبة للكتابات المحلية التي أرخت لمقاومة الاحتلال، فلا نجد إلا القليل من أولئك الذين حاولوا تدوين أحداثها، ولعل ذلك يرجع إلى ما قاله الشيخ الورثيرياني في رحلته، بأن أهل الزواوة لا يهتمون بالتاريخ، ولا يهتمون بكتابته، ومن بين القلائل الذين كتبوا حول ثورة 1871م الشيخ محمد السعيد بن زكري الجنادي¹.

كما أنه يمكن أن يكون ما كتبه علماء المنطقة قد تعرض للنهب من قبل القوات الفرنسية، التي نُهبت كل المخطوطات والمصادر المكتوبة التي وقعت أيدي قواتها عليها. أو أنها تعرضت للحرق خلال الحملات العسكرية التي استهدفت المنطقة. وفي هذا الجانب، أخبرني الباحث جمال الدين مشهد أنه عثر في الأرشيف الفرنسي على مجموعة من وثائق الشيخ أحماد ضمن مجموعة من الوثائق الخاصة بالمنطقة، ولكنه عندما عاد إلى فرنسا مرة أخرى وأراد الاطلاع عليها، قيل له بأن تلك الوثائق سلمت لإحدى الباحثات الفرنسيات، وبذلك ضاعت هذه الوثائق، ولم يتمكن من الاطلاع عليها².

على كل حال، فقد تمكننا من جمع بعض القصائد الشعرية التي يمكن من خلالها التأريخ لمقاومة الحاج المقراني، والشيخ أحماد، وقد اعتمدنا في ذلك على بعض المراجع التي اهتمت بهذا الموضوع.

اختلفت هذه القصائد الشعرية من حيث نظرتها إلى المقاومة، فمنها من أنصفها، ومنها من عاداها، ونحن إذ نعرض هذه القصائد، فنهدف من ورائها إلى إظهار ما يمكن الاعتماد عليه في إعادة بناء الكتابة التاريخية لهذه المقاومة بوجهات نظر متباينة، إضافة إلى ما كتبه أحد الذين عاشوا فترة المقاومة من المنطقة حتى وإن كان يميل إلى الطرح الفرنسي فجعلها فتنة كبرى، وهذا ما سأعرض إليه في هذا المقال، الذي يستهدف معالجة جملة من التساؤلات من قبيل:

¹ - أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، عرض وتقديم وتعليق: محمد أرزقي فراد، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2015.

² - مقابلة شخصية مع الباحث في مدينة بجاية خلال انعقاد ملتقى من تنظيم جمعية جيهيماب.

كيف وصف أهالي المنطقة هذه الثورة؟ وما هي نظرتهم إليها؟ وهل يمكن الاعتماد على هذا التراث في إعادة كتابة مقاومة 1871م للاحتلال الفرنسي للمنطقة؟

أولاً: الشعر الشعبي القبائلي ... نماذج

شعراء منطقة لقبائل، كغيرهم من أبناء الشعب الجزائري، سايروا أحداث المقاومة الشعبية في الجزائر عامة، وفي المنطقة خاصة، منذ بداية الاحتلال، ومحاولات توسعه على حساب الأهالي، فصوروا قسوة القوات الفرنسية ووحشيتها، وكيفية تعاملها مع الأهالي، كما أشادوا بأبطال الثورات الشعبية في مختلف مراحلها، وقد برز العديد من الشعراء الذين خلدوا مآثر الشعب الجزائري في المقاومة وصد العدو الكافر عن بلادهم، ففي منطقة زواوة (لقبائل) ظهر عدد من الشعراء أمثال: الحاج أعمر ولحاج من أمشدالة، وسي سعيد أو سيد علي أو عبد الله من أيث مليكش، وعلي أو فرحات من بوهينون، والحاج محمد بشير من أيث بويحي (قبيلة أيث دواله)، وغيرهم من الشعراء الذين وقفوا في وجه الاحتلال الفرنسي، وقاوموا توسعاته بالكلمة إلى جانب السيف.

من الشعراء الذين يمكن اعتبارهم بحق شعراء أروخوا لثورة 1871م، الشاعر إسماعيل أزيكيو (1839-1906)¹ الذي ولد في قرية ثاوريرث أوبواز، بلدية بوزافن، ولاية تيزي وزو في حدود سنة 1839م، وقد عاش طفولته يتيما، مما جعله ينتقل إلى أحواله بآث عباس، وفيها شب وترعرع، ولما اندلعت ثورة 1871م، كان عند أحواله، وعاش ويلاتها ومآسيها، فخلدها في ملحمة شعرية، ذكر فيها أسبابها، وزعاماتها المحلية، ونتائجها الوخيمة على السكان الذين تعرضوا إلى مختلف العقوبات، من تهجير، ونفي، وغرامات، ومصادرة لأموال المشاركين فيها، ولم تسلم حتى الزوايا من تلك العقوبات التي تركت آثارا وخيمة على السكان، وقد ظل السكان في المنطقة يئنون من جرائمها لسنوات طويلة، وتركت جروحا عميقة في نفوس السكان، والشعراء الذين سجلوها في قصائدهم الشعرية، التي لم يصل إلينا منها إلا النزر اليسير بسبب الضياع، وعدم التدوين، ومن بين هذه القصائد، ملحمة الشاعر أزيكيو² والتي نقتبس منها هذه الأبيات:

واحد أوسبعين أذ لفلاس
أَرْزَن مَدَّان دُوقَامَّاسْ
أَيُخْفِيُو أَعْبَدُ أَسْفَرُ
أَشُّو إِذْ نَسَبَا نَدَّوَّاسْ
حَكُونَعْدُ مَدَّنْ فَلَاسْ
أَسْمِي يَغْلَقُ الْيَرُو
أَبْعَاضْ فَالْدَيْنْ يَتَسَوَّالَاسْ
أَبْعَاضْ أَدْ يَّيْرُ أَثَّرَاسْ
تُكَاتْ تُمْعَارْثِينْ يَتَسَر
أَسْمِي عَدَّانْ ثِيلاسْ
جَمْعَنْ ذِي لَعْرَاشْ كُلاسْ

¹ - محمد أرزقي فرد: ثورة 1871م من خلال منظومة إسماعيل أزيكيو، دار الحبر، الجزائر، 2017م، ص 56-57.

² - هذه القصيدة نشرها الكاتب الفرنسي (J. D. Luciani) في المجلة الإفريقية.

الترجمة إلى العربية:

أَيَاوُ غَزَّ الْجِهَادُ سِيرُ

واحد وسبعون عام إفلاس
انقصت ظهور الناس
ولا سلوى لنا إلا قرض الشعر
سألنا عن سبب الحرب
فقص لنا الشاهدون
أسباب غلق الإدارة الفرنسية
من الناس من أغرقته الديون
البعض من الناس من سفلة القوم
حياته ألوان من المسكنة والذلة
وعندما تجاوز هؤلاء المدى
خاطبوا ساكنة الأعراش
تعالوا إلى الجهاد سـيروا

نتائج استشهاد الحاج المقراني:

من خلال هذا الشاعر يمكن أن نقف على كيفية استشهاد المقاومة، وما انجر عن ذلك من نتائج سياسية، واجتماعية واقتصادية على الأهالي عامة، والمقرانيين خاصة، وهذه الأبيات تعكس ذلك¹:

الحَاجُ مُحَمَّدُ نَاطُ مُقْرَانُ
يَنْعَ نَاطُ أُسْكَرَانُ
بَحَّانَا يَزْدَغِيثُ يَلْفُ
أَسْمِي نُتَوَعْنُ ذِي الْخَرَّانُ
إِيُومَيْنُ أَنْزَرَانُ
أَفْ ضَرَّانُ أَدْ حَلَالْفُ
آثُ مُقْرَانُ أَمَّ أَلْبِيَرَانُ
سَ - أَتْسَمَقُ دُورْلَانُ
مَنْ غَيْرُ وَي رَفْدَنْ أَسُودَفُ
مِي يَغْلِي أَوْسَالَسْ نَزَّانُ
لَا فُورِيكَ ذِي مَحْرَانُ
الدَّيْنُ أَسْنُ يَزْفُورْفُ

الترجمة إلى العربية:

الحاج محمد ناث مقران

¹ - محمد أرزقي فراد: المرجع السابق، ص 66.

قتله السـكران
فأمست مجانة مأوى الخنازير
عندما حمى الوطيس في خزان
خاب الفـرنسيون
انهزم الخنازير شر هزيمة
آث مقران هم كالنسسور
بالجزمة والحديد
والحرز لاتقاء الخطر
وعندما سقط عمود الزان
عمّ الحزن إفريقيّة
وتلقى الإسلام ضربة قاصمة

صور عن مظالم الاستعمار:

تحدث الشاعر في قصيدته عن التسلط والظلم الذي واجهه السكان من الاستعمار بعد هذه الثورة، وصور الحياة اليومية للمواطن الجزائري عامة وسكان المنطقة في ظل توقيف العمل بالشريعة والإسلامية والقوانين العرفية المنظمة للحياة الاجتماعية واليومية للسكان، وهذا مما يزيد من أهمية الشاعر، لكونه يعيش الأوضاع التي وصل إليها الحال في المنطقة، فيقول¹:

أَدَاوْ نَحْكُوعْ أَيْـَارَاشْ
عَفْ ثَجْمَاعْثْ نَتْنَاشْ
بَرِينْدَانِيْسْ دَا مَلْعِي
الباطلْ إِنْوَدَاذْ لَعْرَاشْ
إِنْوَدْرِينْ يَاكْ أَدْ حَكْـوَاشْ
أُورْ يَجِّيْ أَلِيْ دَا عَزِيْ
ضَمْعَنْ إِنْوَجَالْ ثِيـَمْرَاشْ
أَلْحَقْ دِيـَـانْ أُولَاشْ
أُسُوقْ أُنْسَنْ ذِي مَرْيِي
أُفِيْعْ ثَاْجْمَاعْثْ أَنْ وَارَاشْ
س- ضَيِّفَا أَدْ لَفْرَاشْ
أَتْسَحْمِلَنْ الحَطْـيِي
الحقْ يَنْسُونُورْ أَمْ لَقْمَـاشْ
الباطلْ ذَا بَرْقَـاشْ
أَمَكْ أَرَا نَضْمَعْ أَصْوَابِي
أَشْرَعْ أَمْدَنْ غَافْ أُولَاشْ

¹ - محمد أرزقي فراد: المرجع السابق، ص 68-69.

لَكِنْ أَذْكَشَاشْ
مِي يَبْطَلْ أَشْرَعِي كَبْ أَنْبِي

الترجمة إلى العربية:

أقص عليكم أيها الشباب
قصة جماعة الإثني عشر
على رأسها سافل
عمّ الجور في الأرض
في القرى والمزارع
في المنازل المعزولة
وسع جشعهم حتى الأرملة
سلوكهم تعسف وجور
وتجارتهم ربا
وجدت جماعة من الشباب
في جلسة ضيافة
يقدمون شهادة زور
حقوق الناس تباع كالقماش
في سوق الباطل
فمن أين يأتي الصواب؟
جهاز العدالة في تعسف
والحياة غش
بعد إلغاء الشريعة النبوية

نتائج المقاومة:

حاول الشاعر من خلال هذه الملحمة الشعرية أن يستعرض كل الجوانب المتعلقة بما منذ اندلاعها، واقفا على أسبابها، والقادة البارزين فيها، ومبينا اتساع نطاقها، والمشاركين فيها، فهي بمثابة صورة تاريخية لكل الجوانب التي لها علاقة بثورة 1871م، ولم يمر عليها دون أن يذكر نتائجها، والعقوبات التي فرضتها السلطات الاستعمارية على المشاركين فيها خاصة والمنطقة عامة، وذلك بطريقة واضحة تعكس مدى تأثير الشاعر بالآثار الوخيمة التي نتجت عن هذه الانتفاضة، وهذه المقاطع تبين ذلك¹:

تَغْلِيْدُ لَغْـرَامَا تِسِيْسِي
سَتِّيْنُ سَتِّيْنُ إُوْثَرَّاسِي
أَوِيْتِيْنِيْدُ أَوَّلُ حَبْرُ
زَنْزَنْ مَدَنْ لَغْرُوسِي
أَزْنَانُ أَوْلَى ذَا لُبُوسِي

¹ - فراد: المرجع السابق، ص 134-135.

تَأْفِيْتُسْ أَفْ مَدَّانْ تُزَيْرْ
تَأْمُوقِرَانْتْ أَذْفْ نُكَّاسِي
دَهْلُمْ وَيْلَانْ دَا سَبَّاسِي
دُتَّتْسَا إِي دَسْبَا لَقَقَّرْ

الترجمة إلى العربية:

كان وقع الغرامة على الناس شديدا
ستون فـرنكا مفروضة
على كل شخص دون تمييز
اضطر الناس إلى بيع بساتينهم
بل وحتى مـلابسهم
إنه زمن العسر الشديد
والطـامة الكبرى
صنعها عـسكر السبايسية
الذين تعسفوا في جمع الضرائب

نماذج أخرى من الشعر الشعبي في المنطقة:

حافظت الذاكرة الشعبية على عدد من النماذج الأخرى من الشعر الشعبي في المنطقة، ومن بينها قصيدة أخرى لشاعر مجهول، يصف فيها استشهاد الحاج المقراني، وكيفية تغسيله في قلعة بني عباس، وما تركه ذلك على الأهالي¹:

أَجْبِيْعْ فَاطَّا قْ أَغْلَاين
أُفِيْعْ دَا الْبَاشَاغَا إِي سِيرِيْدَنْ
أَكْسَنَاسْ إِي يَدَيْن
دَلْكَفْنْ أَمَلَالْ إِي سَعْلَنْ
مَطْلَنْتْ أَقْ عَبَّاسَنْ
فَرْحَتْ الْقِيَادْ فَرْحَتْ الْكُفَّارْ
إِي زَمْنَاغْ إِي رُوخْ فَرْحَتْ الْكُفَّارْ
الْحُرِّيَّةْ أَقْفَاسَنْ نَعْ
إِلْكَفْنْ دَا الشَّجَعَانْ أَيْرَقَارَنْ نَعْ

الترجمة إلى العربية:

نظرت من النافذة العليا
وجدتهم يغسلون الباشاغا
نزعوا عنه برانيسه
ووضعوه في كفن أبيض

¹ - مولود قايد: «ثورة 1871 ونتائجها»، الأصاله، المجلد 8، ع23، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م، ص58.

دفنوه في بني عباس
ففرحوا أيها القياد والفار
لقد ذهب أسدنا فليسعد الكفار
الحرية في أيدينا
فكونوا شجعانا يا رجالنا

قصيدة أخرى متداولة بين سكان منطقة القبائل، خاصة في أعراش القبائل الصغرى كأث يعلی، وأث ورثيران، وأث عيذل...¹

أَيْثْ وَذَرَارْ ذِيثْ يَلْمَايْنْ
غُوسْنْ بَوْمَزْرَافْ
أَذْفَكْنْ إِبْعَدَاوْنْ
إَعِيْطْ أُعِيْطْ فَتْنَحْرَاطْ
يُلِيدْ بَوْمَزْرَافْ فِي نُرَارْ
إِيْحَوْمْ أَفَالْكُوْ فِي إِدْرَارْ
أَزْلَنْدَ فَيْثْ يَغْلَى أَرْكُورْجَانَا
أَحْزَنْ أَحْزَنْ أَتْلَى مُحَانَّةْ
أَمْلَاغْ بَوْمَزْرَافْ فَمَطْلَاوْنْ
إِيْثْدُوْ غِيْ إِيْثْ وَرْثِيرَانْ
فَتْلَمَاسْتْ إِفْرَسَانْ
أَهْرُوسْ دَا أَمْلَالْ أَعْدِيُوْ دَا أَهْرُكَانْ
أُدَمْ إِحْزَنْ فَمَطَاوْنْ
أَتْرُومْتْ أَتْرُومْتْ أَسِيْثْ وَرْثِيرَانْ
الْيَارْ خَذَعْنْتْ الْعُمَانْ
أَحْزَنْ أَحْزَنْ أَتْلَى مُحَانَّةْ
بَاشَا آعَا إِيْشِيرْ أَوْرَاغْ
أَنِيْدَا إِكْيَعْظَرْ لَمْنَامْ
مِيْ ثَضْجِيْظْ أَپْشَكِيْظْ
يُولِيْتَسْنْ أَصْدِيْدْ أُوْمَانْ
ثَاقْبَايْلِيْثْ ثَحْزَنْ ثَسْشُرُوْ
مَحَايْ ثِيْدَلْ إِمَاوْلَانْ

الترجمة إلى العربية:

يا أهل أذرار وأهل إيلماين²

¹ - محمد جلاوي: تطور الشعر القبائلي وخصائصه (بين التقليد والحداثة)، المحافظة السامية للأمازيغية، الجزائر، 2009م، ج 1، ص 317.

² - أذرار وإيلماين: أذرار نسيدي يذير، قرية تقع إلى الغرب من مقر البلدية إيلماين، التابعة لدائرة الجعافرة ولاية برج بوعريج.

حرسوا بومزراق
ليقضوا على الأعداء
وقد ارتفع صوت مناد في ثاخراط¹
صعد بومزراق في نرار
إنه يحوم كالنسر فوق الجبال
تسابق الناس من بني يعلى إلى كورجانا
أحزني أحزني يا منبع مجانة²
قابلت بومزراف بشمطلاون
في طريقه إلى بني ورثيران
في وسط كوكبة من الفرسان
ببرنوس أبيض وفرس أسود
بوجه حزين وعيون باكية
أبكين يا نساء بني ورثيران
العقاب خائته العصفير
أحزني أحزني يا منبع مجانة³
باشاغا أيها الحمام الأصفر
أين ثواك بغفلته السبات
حين أهملت حمل بندقيتك
حتى اعتلاها صداً المياه
القبائلية في حزن وبكاء
مجانة انسأقت للغير

النظرة المعادية للثورة:

هناك من وقف ضد ثورة المقراني، ووظف قلمه، أو سيفه للحط منها، وقد أورد العقيد لويس رين Rinn قصيدتين نسبهما إلى أحد سكان قرية تمقرة، عرش آيث عيذل، يوضح فيهما الموقف المعارض للثورة، والتي يقول عنهما الباحث (جلاوي) أنهما لا تعكسان الرأي العام الشعبي، وإنما يمثل الاتجاه الذي ساند السياسة الفرنسية، ومشاريعها التوسعية في المنطقة⁴ وهذه مقتطفات منها⁵:

ألييو أعذل لمثا	ما تشنط لعب
عَفْ أيان يفغ لمثا	جاحن يرقازن مر
غف بومزراف مبحص	أنناس ذ التصويرة

¹ - ثاخراط: قرية تقع بالقرب من قرية الثعالبية على الضفة الشمالية من وادي آث حالة (وادي مجبر).

² - يوجد منبع مائي في مدينة مجانة، ويعرف بمنبع الباش آغا الذي يتدفق منه الماء لسقي الناس والمزروعات، وهو المقصود من خلال هذا البيت.

³ - Gaid Mouloud: Les Beni- Yala, O.P.U(s.d) Alger, p.p. 69,70

⁴ - نفسه، ص278.

⁵ - Rinn (L) ; Deux chansons Kabyles sur l'insurrection de 1871*in R. AF. N 31; 1887. pp 56-61

يتعاناذ أف بوشفر	زيغ نتان ذ الجاهل
ثبعاذ فلاس لحسر	بش البانك إرم يحصل
أياو غر لجهاد انصر	أبرج جبل أساح
أقبو ثيث الزدج الحر	اتبع أئماس
يجاث يتهوم فالحصر	وثنا المال أذ لمواشل
زيغ نتان ذ العر	بومزراق ما هوش راجل
ينايسن غوري لخبر سنصر	يخذع أعراب اذ لقبایل
أغليند أكيث فا الحضر	ذي حمزة ار بني عيذل
أيث عباس غزمور	أونوغن ذو يعذل
اروح يثغ لَمَقَر	من كل ويجاث يحصل
ما تمقر سالعوي	أعزیز بنو الحرم
أسعين ذا القزوي	وذاك ذ اصحاب الحكم
اشنجبيث اذ تعجب	لو كان يسن فالحنيس
لاصليص أمك يتركب	أذ ثسقسى فالشويس
ذزير أذ يسطبطب	يجاييس جديس أفطيس

ترجمة القصيدة إلى العربية:

إن كنت تتقن العبر	يا قلبي خذ المثل
هجرُوا الرجال عن بلادهم	فأولئك الذين لا يعتبرون
تخيله البعض بأنه عبارة عن صورة	من أجل بومزراق لما خاب
عندما ينافس صاحب البندقية	لكنه كان جاهلاً
اعتقد بأنه سينتصر	وعندما خاب أمله
تعالوا إلى الجهاد والنصر	فنادى في الجبال والسهول
وجهوه إلى من يعيد له الحرية	التحق بإخوانه دون تفكير
فتركوه يهيم متحصراً	أخذوا الأموال وأسروا الأولاد
بل هو من المقبوحين	بومزراق ليس فحلاً
فوعدهم بالنصر	خدع العرب ولقبايل
اعتقدوا فيه جميعاً الفوز	من حمزة (بوية) إلى بني عيذل
من بني عباس إلى زمورة	من ونوغة إلى بني يعذل
وهو إلتجأ إلى مقرة	ترك أتباعه يتساءلون
في تمقرة بالحيل	أعزیز قصد العفة
لا يقبلون من يخادعهم	لكن أولئك أصحاب الحكمة
لتعجب من أمره	لو كان حاذق الذكاء

عن نسبه كيف كان
ليشتغل في الحدادة

يسأل في البداية
ترك له جده المطرقة

ثانيا: ابن زكري وكتاب أوضح الدلائل

ولد السعيد بن زكري سنة 1853م في قرية إيسكرين، بلدية أغريب التابعة لعرش آث جناد، ولاية تيزي وزو، واسمه الحقيقي هو: أمحمد أسعيد أبسكري، تعلم مبادئ القراءة والكتابة في القرية التي ولد فيها، ثم واصل دراسته في زوايا المنطقة، وعلى رأس هذه الزوايا، زاوية الشيخ سيدي عبد الرحمن اليلولي، فأخذ عن العالم الجليل محمد أوبلقاسم البوجليلي¹ الذي اشتهر في هذه الزاوية خلال فترة دراسة الجنادي، ثم توجه صوب حاضرة قسنطينة أين زاول دراسته في المدرسة النظامية.

بعد استكمال دراسته، تولى التدريس في قرى منطقة القبائل وزواياها، ثم توجه إلى مدينة الجزائر للبحث عن وظيفة تليق بمقامه، فاشتغل في مساجد الأحياء الشعبية مما جعله يتعرف على عدد من علماء المدينة وأعيانها، ونتيجة لغزارة علمه، وسمعته الطيبة، تم تعيينه في مجرسا بالمسجد الكبير سنة 1889م، ثم عين بمدرسة الجزائر، وإماما بمسجد سيدي رمضان، ورفقي إلى مفتي المالكية سنة 1908م إلى أن توفي سنة 1914م².

من بين أهم مؤلفاته، كتابه الموسوم ب: أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، الذي ألفه في أواخر القرن التاسع عشر، ويشير إلى أنه أكمل تحريره يوم 02 جويلية 1903م، وفيه يبين أسباب تأليفه لهذا الكتاب وأهميته في الاطلاع على التاريخ الثقافي والاجتماعي لمنطقة زواوة.

الكتاب قسمه صاحبه إلى: مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة. فتناول في الفصل الثاني موقفه من ثورة 1871م، وهو من المصادر المحلية القليلة التي تناولت ثورة الإخوة الرحمانيين، وعلى الرغم من موقفه المناوئ للثورة، فإنه يمثل وجهة نظر أحد الموظفين في الإدارة الاستعمارية، كما أنه يعكس رأيا يمثل واحد من المثقفين الجزائريين الذين عاشوا ثورة 1871م.

لقد خصص الجنادي فصلا كاملا حول هذه الثورة في كتابه، من الصفحة 89 إلى الصفحة 106، وحاول فيه أن يبين موقفه منها، وبعد المقدمة التي بدأها ب: « الزاجر والمواظ المطلوب إلقاؤها على مسامح القبائل، وفيها أقول...»³.

لقد أوضح في المقدمة نظرة العامة إلى أهل المنطقة، وكيف ينعوتهم بنعوت لا تليق بمقامهم، كما تعرض إلى صعوبة العيش في منطقة القبائل، ويبيّن بأن ذلك لا يسمح لهم الاعتداء، أو القتل من أجل ضمان لقمة العيش، فاستدل على رأيه بنصوص من القرآن الكريم، والسنة النبوية، وأقوال العلماء. وكل ذلك من أجل أن يبرر موقفه الرافض للثورة، والتي وصفها، ووصف قادتها بأوصاف قاتلا: «إن الثورة المشار إليها عبارة عن حركة أقوام إن لم نقل وحوش تولد عنها الفحش والبغي والعدوان والفساد في الأرض، وكل ما يمجح الطبع السليم من قتل النفوس، التي حرم الله بغير حق، وهتك حرمة بشرتهم بالذبح ووشق البطون وقطع الأعضاء... هذه الثورة فحش ومنكر وبغي وفساد في الأرض... هذه الثورة حرام»⁴.

¹ - هو محمد بن أبي القاسم البوجليلي، نسبة إلى قرية بوجليل ببجاية، الحسيني نسبة إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما العباسي (نسبة إلى عرش بني عباس)، ولد سنة 1826 ببوجليل، وتلقى تعليمه الأول على يد والده، ثم توجه إلى زاوية الشيخ سيدي عبد الرحمن اليلولي، وفيها أخذ على عدد من علماء عصره. ثم توجه إلى زاوية الشيخ محمد أمزيان أحداث ودرس على شيخها، وعليه أخذ الطريقة الرحمانية. تخرج على يديه العديد من العلماء ومن بينهم محمد السعيد بن زكري الجنادي. توفي يوم 25 جمادي الأولى 1315، الموافق لـ 15 أكتوبر 1898 م ودفن بقرية بوجليل أنظر:

- محمد بن أبي القاسم الحسيني البوجليلي: نور السراجي في إعراب مقدمة الصنهاجي، دراسة وتحقيق محمد أويدير مشنان، ومبروك زيد الخير، دار الكفاية، الجزائر، 2016م، ج1، صص 21، 22، 38.

² - الجنادي: المصدر السابق، صص 19-21

³ - المصدر نفسه، ص89.

⁴ - نفسه، ص92

هذا، وتعرض في سياق حديثه عن الثورة إلى وصف قادتها فقال: «ومن المعلوم أن الثائرين لم يقصدوا بثورتهم إعلاء كلمة الله، بل ما كان قصدهم إلا الرياسة والتفاخر، وحوز المغامر والاستكثار من حطم الدنيا، وما غاية شأنهم إلا إحداث الفساد في الأرض... ولا شك أن هذا الرهط أكثرهم إفسادا في البرور، وأشدّهم إحداثا للشرور، وأقبحهم تنوعا للفجور»¹.

في الخاتمة، يتوجه الكاتب بمجموعة من التوجيهات، والإرشادات، سماها المواعظ إلى أهل المنطقة، فقال: «إخواننا أهل الوطن القبائلي إن الله أمر بالعدل والإحسان، والجنوح للسلم والركون للعافية، واتقاء نار الفتنة وإصلاح ذات البين، والعمل الصالح وإتباع صراطه المستقيم، وسؤال أهل العلم في حكم أمر الدين والدنيا قبل الإقدام عليه...

أيها القبائل، لا يخفى أن تحدث نفس باستقلالكم دون دولة، ورجوعكم إلى حياتكم الأولى بلا حكومة... فإذا كان الأمر كذلك تحت دخولكم تحت سلطة دولة من الدول، تعينت بحكم من له الاستخلاف في الأرض، سبحانه لا معقب لحكمه، وتجري عليكم أحكامها وتنفذ طبق علمه القديم وإرادته الأزلية، وحيث كانت الدولة الحالية هي المعينة، وجب الإذعان لها و الامتثال لأوامرها»².

إن موقف الشيخ السعيد بن زكري من ثورة 1871م، يجعلنا نقف أمام إشكالية تصعب الإجابة عنها، فعلى الرغم من كون هذه الثورة من الثورات الهامة المهددة للوجود الفرنسي في الجزائر، وتهديدا مباشرا قلما نجده في الثورات الشعبية الأخرى التي عرفتها الجزائر فيما بين 1830م و1871م، وذلك بفعل اتساع نطاقها الجغرافي، وانضمام العديد من الشخصيات البارزة إليها، واتضح أهدافها منذ البداية. إلا أن الباحث يجد نفسه أمام هذا الموقف من رجل لا تخفى عليه أهمية الجهاد عندما تتعرض البلاد الإسلامية إلى خطر مسيحي، ولكن هذا الموقف لا يمكن تفسيره إلا من خلال بعض الجوانب التي يمكن أن تكون سببا في اتخاذه لهذا الطرح أولا: وظيفة الشيخ ابن زكري: كان ابن زكري موظفا في الإدارة الفرنسية منذ سنة 1889م. وهي الوظيفة التي ربما كان لها تأثير على رأيه، ففضل مصلحته الشخصية على المصلحة العامة.

ثانيا: الاختلاف القائم بين العلماء حول هذه الثورة، فهناك العديد من العلماء ومشايخ الطرائق الصوفية، ينظرون إلى أن الشعب الجزائري عامة غير قادر على مواجهة القوات الفرنسية التي تتفوق عليهم في العدة والتنظيم والعدد، فالثورات السابقة فشلت بفعل هذا التفوق الفرنسي، والدخول في هذه الثورة بالنسبة لبن زكري يعد بمثابة الدخول في مسألة يرى بأن نتائجها سلبية في بدايتها، فالحديث الذي ذكره مولود معمري، والذي دار بين الشيخ أحماد وأحد مستجوبيه بسجن قسنطينة، يدل على أن قيادة الثورة كانت تسعى إلى هدفين هما:

- عدم التقصير في الدفاع عن الإسلام والمسلمين.
- إحداث قطيعة بين الجزائريين والفرنسيين³.

خاتمة:

تعتبر ثورة 1871م، من الثورات الشعبية التي قام بها الشعب الجزائري معبرا عن رفضه للاحتلال الفرنسي، واستطاعت هذه الثورة أن تحدد التواجد الفرنسي في منطقة زاوية خاصة والجزائر عامة، فكتب عنها العديد من الكتاب خاصة الفرنسيون منهم، كما خلدها الأهالي بقصائد من الشعر الشعبي صور أحداثها، وأهوالها، ونتائجها على السكان، والمشاركين فيها، وقد عبروا عنها بأساليب شعرية مختلفة. منهم من وقف إلى جانب الثوار، ومنهم من عارض الثورة.

¹ - نفسه، ص 95.

² - نفسه، ص 105.

³ - MOULOUD MEMMERIM: CHIKH MOHAND A DIT, Ouvrage édité à comte d'auteur, Alger, 1989, p 62.

ولعل المطلع على ما تم حفظه من الضياع، وما كان يردده العامة من مدائح وأشعارا شعبية في الأسواق والأفراح والأقراح، وفي المناسبات الدينية والوطنية، يمكن أن يكون مادة هامة في إعادة النظر إلى هذه الثورة، خاصة وأن هؤلاء الذين عبروا في قصائدهم وأشعارهم يمثلون مصادر محلية أرخت للحدث كما عايشها السكان.

فالشعر الشعبي يعد مصدرا من المصادر التاريخية الهامة التي تعبر عن الرأي العام، وتعكس الحقيقة التي عاشها أفراد المجتمع، ولذلك يمكن العودة إلى هذا الجانب، فبالإضافة إلى أهميته الأدبية، فإن أهميته التاريخية لا تقل عما سواها.

ثورة المُقراني والحدّاد بعيون شعراء الشعر الشعبي الملحون

دراسة نماذج

جمال الدين الواحدي - جامعة سطيف2

الشعبيان ... المقاومة والشعر:

رصد الشعر الشعبي الملحون مختلف الوقائع والأحداث الكبرى التي شهدتها الجزائر في الحقب الزمنية المتعاقبة وعاصرها القوالون والشعراء الشعبيون، ولطالما ارتبط هذا النوع من الشعر بكفاح الشعب الجزائري خلال ثوراته المتتالية، فصور مشاهد الحروب والملاحم الشعبية الثورية الكثيرة ضد الغزاة وسجلها وتفاعل معها وتعرّض لأبسط حثياتها ووثق الكثير من تفاصيلها، وصولاً إلى مرحلة الغزو الفرنسي بداية من 1830م التي كان فيها الشعر الشعبي سجلاً حيّاً لتاريخ الشعب الجزائري وكفاحه ضد الاستعمار الفرنسي.

وكان الشاعر الشعبي بمثابة مؤرخ يؤرخ الأحداث الوطنية الكبرى ويخلّد الشخصيات الوطنية والدينية والثورية التي كان لها تأثيرٌ في الأوساط الشعبية وأثر بارز في مسار المقاومة الجزائرية، كما لعب دوراً هاماً في الثورات والانتفاضات التي قامت في الجزائر على اختلاف مراحلها وساهم في صناعة أحداثها من خلال المساهمة في التبليغ والإعلام والدعاية، فكانت القصائد تنظم انطلاقاً من ميادين المعارك أو بعد وقوعها وتُنشد في جولات الشعراء في الأسواق والقرى والمداشر حيث يتلقاها الرواة والحفظة فيعيدون إنشادها في جلساتهم ومناسباتهم ورحلاتهم لتؤدّي دوراً مهماً في تعميم فكرة المقاومة وتصوير الأحداث ونقل الأخبار.

لقد جسّد الشعر الشعبي تاريخ الثورات الجزائرية غير المكتوب، ووثّق الكثير من الوقائع والأحداث والمعارك وذكر بعض التفاصيل التي أهملتها المصادر الأخرى، ولم يكن الشاعر الشعبي في الحقيقة أديباً يتفنّن في اختيار العبارات البديعة وانتقاء الألفاظ الجميلة والقوافي العذبة بل كان يقول الشعر على السليقة، بتلقائية وبساطة وعفوية وصدق، وكان يعيش مأساة الاحتلال بكلّ آلامها وجراحها ويصوّر هموم أهله وأبناء وطنه من المحترقين بنار الاستعمار، فيذكرهم بالماضي المشرق والأجساد التليدة ليذكّي فيهم جذوة الحماس ويوقظ فيهم الحنين إلى الحرية ويدفعهم نحو الجهاد والتضحية من أجل طرد الغزاة ورفع الغبن والبطش الذي طالهم من الغزاة الفرنسيين، فكان الشاعر الشعبي شاعر نضالٍ وكفاح، وحامل رسالة وسلاح، ولسان حال الإنسان الجزائري الثابت على الدين الرافض للغزو والطغيان والمتمسك بشخصيته وهويته، يستمد شعره من عواطف ومشاعر دينية حيّاشة، ويملك ضميراً وطنياً حيّاً، وينشر الأفكار الوطنية التي كانت مزيجاً بين القيم الدينية وشعور الانتماء للوطن والتعلق الصادق بالأرض والأصل.

ومن الشخصيات الاستثنائية التي كان لها دورٌ فعال في قيادة الثورات الشعبية ومحاربة الاستعمار، ونالت ثناء الشعراء الشعبيين وإشادتهم "الحاج محمد المقراني" الذي شكلت انتفاضته مع الشيخ الحدّاد والإخوة الرحمانيين سنة 1871م مصدر إلهام للشعراء والقوالين وألهمت قرائحهم فقالوا الكثير من القصائد في رثاء قادة الانتفاضة وتعيد مناقبهم والإشادة ببطولاتهم، إذ أكدت هذه القصائد المكانة السامية التي حظي بها الحاج محمد المقراني ومن معه من الثوّار في الأوساط الشعبية ووثقت الكثير من المعلومات المتعلقة بهذه الثورة وقادتها.

1- نموذج من الشعر الشعبي في منطقة الوسط الجزائري ... قصيدة لمجهول¹

ومن القصائد الشعبية الكثيرة التي تناولت ثورة الحاج المقراني والشيخ الحداد والزوايا الرحمانية هذه القصيدة الشعبية الطويلة لشاعر مجهول، يقول في مطلعها:

يا التاريخ تكلمْ عَاوِدْ القصيدة
بما جرى بين الرُّومي وشعبنا تعاوِدْ
حصالْ دُوك السَّادَات تَعِيدُهَا عَلِيًّا
من عملْ شَيْ ياكْ² انتايَا عليه شَاهِدْ
من خدمْ لوطنة يَبْقَى شَانُهْ خَالِدْ

بعد هذا المطلع في مخاطبة التاريخ ووصف حصال المجاهدين المخلصين لوطنهم الرافعين للواء في الحرب ضد "الرومي" الذي يعني به الغازي الفرنسي ينتقل الشاعر إلى الحديث عن تفاصيل قصة ثورة 1871م بدء من ربطه لأحداثها بأحداث الحرب بين ألمانيا وفرنسا سنة 1870م التي انهزمت فيها فرنسا، وقد ذهب الشاعر إلى القول بأن فرنسا جندت الشباب الجزائري ضمن جيشها في هذه الحرب لكي تستغل بسالته وشجاعته، غير أن الجزائريين كانوا يعرفون أن عدوهم الحقيقي هو الغازي الفرنسي الذي اغتصب الأرض وأخذها عنوة فاتفقوا على إشعال ثورة لطرده من البلاد، ووصف الشاعر تصوّره هذا من خلال الأبيات التالية:

خذْ نعطيك أخبار ابطال ذا الرعية
مسطرة متمومة تاريخها مقيّد
أثناء الحرب السبعين تنافروا الخزيّة
الألمان تقوى والرومي تنكّد
قال هائثوا عربان الجاه والحميّة
قامت الكفرة في شبابنا بجند
اتفقت جميع العُربان في خفيّة
عولت على الرُّومي من البلاد تطرّد
من خدم لوطنه يَبْقَى شَانُهْ خَالِدْ

وبعد هذا المقطع يحدّثنا الشاعر عن دعوة الغبريني³ الثائر للجهاد ومقاومة المستعمر وترك الشكوى والتذمر، كما أتى في سياق دعوته الحديث عن إجبار السلطات الاستعمارية لشباب الجزائر على الخدمة:

الغبريني وكاد
يامر على الجهاد
احنا شرفة وسياد
وطنا نطهرو
ما ينفعنا تنهاد
مع القوم الأحقاد
حطفوا منّا الأولاد⁴
شعبنا شروده
في أرضنا دقوا الأوتاد
سعاؤ غلّة وزاد
تركونا في تنكاد
رزقنا شتوه

طعى الرُّومي ومازال على البلا معمد

بعد هذا المدخل يبدأ الشاعر في سرد وقائع المقاومة من خلال ذكر الدور الكبير الذي قام به عزيز ابن الشيخ الحداد ومن معه في بلاد القبائل في استقطاب الناس لفكرة الثورة ضدّ المستعمر ودعوتهم لمحاربته إكمالاً لجهود الغبريني:

الاخوان توجّه في الناس للقضية
لواش قال الغبريني زائدة تأكد

¹ - وردت القصيدة كاملة في كتاب: "المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون" لجلول يلس وأمقران الحفناوي (من الصفحة 70 الى ص73)، منشورات وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، 2007، القصيدة لشاعر مجهول.

² - ياك: كلمة عامية يُراد بها الاستفهام، كما قد تستعمل في مواضع أخرى للتوكيد.

³ - الغبريني: إبراهيم الغبريني، من شيوخ منطقة شرشال وأولياها الصالحين، والأرجح أن المقصود بالغبريني هنا واحد من أحفاده الذين انتقلت إليهم المشيخة.

⁴ - إشارة إلى تجنيد الجزائريين ضمن القوات الفرنسية.

الكبار اجتمعوا للرأي في عشيّة
مع عزيز الحدّاد في المساجد
الأبطال الحرّة لعهودها تجدد

يا لكرام الأجواد	قال عزيز الحدّاد
شعبنا ننقذوه	من الظلم ومن الفساد
في وجوه العناد	فرسان غزار شداد
نخليو دار بُوه	نحفروا له الأحاد
أبطال غزارة اطواد	في الجبال والأوهاد
عهدنا نجددوه	تنادي من البعاد

نقوم نعمل ثورة ونكسروا الجاحد

ينقلنا الشاعر إلى الحديث عن شخصية الحاج محمد المقراني الذي أعلن الثورة والجهاد ودعا علانية إلى محاربة المستعمر علانية وأطلق البرّاحين في الأسواق والشوارع والدشور ليشحذوا همم الأهالي وينشروا فكرة الثورة بين الفلاحين والشباب وكل الجزائريين ليتحدوا ضد المستعمر:

عول على الكفاح	المقراني بسلاح
يا أهلي الموت خير	قام ودار البرّاح ¹
عمرته البطاخ	رباعين ² وفلاخ
جيش قويّ عزيز	نجوع فراسين ³ صحاح

حين شاف العُربان سيوفها مهنّد

وبعد هذه المقاطع بدأ الشاعر في وصف انتشار الثورة في كل ربوع الوطن، وهبة الجزائريين من كل الجهات والمناطق لنصرة الانتفاضة والتسابق في الانضمام إليها، وأشار الشاعر إلى شمولية الثورة وعدم انحصارها في منطقة دون أخرى وانتشارها الواسع في جل أرجاء الوطن من منطقة القبائل إلى الأوراس والنمامشة وتبسة والقلّ وبشار وتقرت وغيرها من المناطق، مما دفع المحتل للتصدي لهذا المدّ الثوري بأبشع الأساليب وأشدّها وحشية بتقتيل الناس وتشريد العائلات وهدم الديار وترميل النساء، وهو ما وصفته بقية أبيات القصيدة بدقّة:

أبطال تبسة ثوار، بخصالهم برهّو	نجوع غمامشة قُدار، عولت للنفاز
حرق غاشيها بالنار، عساكرهم تجنّو	فالقلّ صار ما صار، تخربت الديار
والأوراس علاماتها واقفة تفيد	
من البرج البودينار، غرب صحراء...وتلّ	لهبت في كلّ اقطار، في كلّ خيمة ودار
لعساكرهم دمار، في الكدّ اشحال	المقراني غوّار، بحال شلّة غزار
يجاهد في الكفّار، بجيش قاوي فحلّ	من تقرت ال بشار، لدوّار بنت جبار
والشاوية قدار، معاه الرّومي وحلّ	أولاد سيدي الشيخ انصار، وبوسعادة اصوار
كم من بطل عزيز من اشبالنا استشهد	

¹ - البرّاح: من يُعلن الأخبار ويثبها بين الناس، وكان البراح عادة يقف في الأسواق ويطوف الشوارع ويعلن في الناس الأخبار أو الأوامر والقرارات التي يتخذها الحاكم.

² - رباعين: ويقصد بها الفتية والشباب، حيث يُطلق في اللغة العامية لقب "الرباعة" على التلة من الشباب أو الرجال.

³ - فراسين: جمع فارس، والأصح لغة: فرسان.

تأتي خاتمة القصيدة على شكل دعاء - بيت السلام كما يُطلق عليه الشعراء الشعبيون-، لتبرز الخلفية الصوفية للشاعر وتنتهي وصفه لأحداث الثورة الشعبية التي وحدت راية الجزائريين من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب وكانت تأسيساً لنضال وطني شامل أتى بشماره في ثورات لاحقة حتى وإن كانت نهاية ثورة الحاج محمد المقراني والشيخ الحداد والزوايا الرحمانية نهاية حزينة:

يا الله ترحمني أنا ووالدياً
بمحبتك للهادي شفيعنا محمد

2- نموذج من الشعر الشعبي في مدح مقاومة 1871م ... قصيدة الشيخ الشلالي¹

ومن القصائد الأخرى التي تغنت بمقاومة 1871م التي قادها الحاج محمد المقراني والشيخ الحداد والإخوان الرحمانيون قصيدة للشيخ الشلالي² حول ثورة 1871م تختلف في أسلوبها ومعانيها عن القصيدة الأولى، ويتجلى فيها البعد الديني لثورة المقراني والثناء على نسب وشرف قادة الثورة والدعوة الصريحة إلى الجهاد، كما يُركز الشاعر في قصيدته على بسالة وشخصية عزيز ابن الشيخ الحداد:

بسم الله الحيّ الدائم
صلّى الله على بلقاسم
صاحب اللواء والخاتم
هي مفتاح الجلالة
المزمل سيد الرسالة
الهاشمي بن عبد الله

صلّوا على رسول الله

صلى الله عليه وسلّم
صلّ يا ربي على النبي
والرضى على الأصحابي
وعلى عمر الخطّابي
قد عشب ونجّوم ورملة
محمد سيد الأعرابي
بوبكر وعثمان والخلة
وحيدر طواع الجهلة

صلّوا على رسول الله

وبعد هذه المقاطع الافتتاحية التي يمدح فيها النبي صلى الله عليه وسلّم ويذكر فيها الصحابة الكرام ويشيد بمآثرهم وصفاتهم رضوان الله عليهم انتقل الشاعر مباشرة إلى سرد وقائع الثورة والثناء على شجاعة قادتها:

نحكيلك قصّة واستخبر³
طواعين⁵ القوم الكافر
يوم ان جا طاغي يتجبر
ما عملت ذرّة حيدر⁴
في الخزيّة عملوا مقتلة
بعساكر حقدان اغلالة⁶

صلّوا على رسول الله

بعدها ينتقل الشاعر إلى وصف إجماع كبار الشيوخ والسادة على واجب الجهاد في سبيل الله، وكان عزيز بن الحداد في طبيعة من نادوا بالثورة ضد المستعمر وتجنّدوا لها:

¹ - الشيخ الشلالي: عيسى بن علال الشلالي من رواد الشعر الشعبي الملحون، ولد سنة 1885م بقصر الشلالة ولاية تيارت، نظم الشعر الملحون في أغراض مختلفة، توفي يوم 26 ماي سنة 1959م ودفن بمسقط رأسه.

² - وردت القصيدة كاملة في كتاب: المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، لجلول يلس وأمقران الحفناوي، ص74-76، منشورات وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، 2007م.

³ - بمعنى أروي لك القصة وتأمل وقائعها.

⁴ - كناية عن النسب الشريف لقادة الثورة.

⁵ - طواعين: غالبن ومطوعين.

⁶ - مقتلة: بمعنى قتلوا الكثير من الغزاة.

تَلُمُّوا ضَرِيتَ الْأَسِيَادِي
نادوا أَلْ فَرَضَ الْجِهَادِي
بوقرانة¹ راه ينادي

ومولاي عزيز الجوادِي
هذا ما قَدَّرَ تَعَالَى
يَتَغَانَا سِيدَ الرَّجَالَةِ

صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ

صَاخَ الشَّيْخُ عَزِيزُ يَكْبَرُ
لَا مِنْ يَمَحِيهَا الْمَسْطَرُ
لاغولي لآخواني تحضر

هذا فَرَضُ صَحِيحٍ مَقْدَرُ
أَمْوَتُوا وَلَا ذَا الذَّلَّةُ
قُطِبَ الْأَوَّلِيَا يَتَوَلَّى

صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ

ثم لبت ساكنة قبائل الزاب وبسكرة النداء، وانضم فرسان الزاب للثورة عازمين على تحرير البلاد من الاستعمار الغاشم:

جاءتْ نَجْوَى الزَابِ² فزوغ
فِينَا مَا يَدِّيهِ طَمُوعُ
خبرنا لسة مشنوع

حَلَفُوا مَا يَرْضَاؤُ رَجُوعُ
مَا فِينَا مِنْهُمْ رَذَالَةُ
سأل علينا كل عمالة

ويجتمع في الحرب سادة القوم وأشرف الجزائر (أبناء حيدر) وشيوخ الزوايا الرحمانية وفرسانها، ويقاومون الغزاة والطغاة، ويحفون إلى ميادين الجهاد، ويشتد القتال ويسقط الكثير منهم في ساحات الشرف بعد أن ينزل الفرسان حاملين المكاحل ومُشهرين السيوف:

حَضَرُوا ذَرِيَّةَ عَلِيٍّ حَيْدَرُ
مَا فِينَا اللَّيِّ يَتَوَخَّرُ
أَسْرَاتًا³ بِشَلِيلِ⁴ مُشَهَّرُ

طَوَاعِينَ الْقَوْمِ الْكَافِرُ
جَاءَتْ قُرَاسِيْنُ الْحَيَالَةِ
ومكاحل بيضا تتقاله⁵

كانت نهاية المقاومة كغيرها من المقاومات الشعبية، ووقع الناصر عزيز الحداد أسيرا عند جنود المستعمر وتم نفيه، وخلفت هذه الحادثة حزنا كبيرا في نفوس الأهالي والفرسان، وانفجرت العيون باكية، وخيم الحزن على سماء الجزائريين:

يَوْمَ الْجُمُعَةِ جَاءَتِ الْعَسْكَرُ
عَلَى سَيْدِي وَاشْ يَصْبَرُ
غيم سمانا وتكدّر

وَادَاوْ عَزِيزُ مَيْسَرُ
الدَّمْعَةُ تَجْرِي سَيَالَةَ
صَدُّوا بَيْنَهُ قُلُوبُ اغْلَالَةَ

يلجأ الشاعر في بقية أبيات القصيدة إلى الرجاء والتوسل والدعاء، مستغنيا بـ"بوقرين"⁶ كدأب الشعراء:

بوقرين تكون معانا
راها طالت هذي الإهانة
من الأغبان القلوب مليانة

سَلَكْنَا مِنْ قَوْمِ أَعْدَانَا
أَنَدَهُ جَدِّكَ يَا غُوثَ اللَّهِ
أَنَدَهُ يَا سَلَّاكَ الْوَحْلَةَ

¹ - بوقرانة: من المرجح أنه الشيخ المقراني، أو واحد من الثوار، فقد ورد هذا الاسم في قصيدة أخرى.

² - الزاب: اسم يُطلق على المناطق المجاورة لبسكرة، جمعها الزيبان.

³ - اسراتا: جمع سري، من الحيوانات قليلة الشعر أو الصوف.

⁴ - شليل: الغطاء الذي يغطي جسم الجواد فلا يظهر منه إلا الرأس والأرجل.

⁵ - بمعنى تلمع وتلألأ.

⁶ - بوقرين: لقب يطلق على الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمان مؤسس الطريقة الرحمانية ودفن حي بلوزداد بالعاصمة (توفي سنة 1794م)

صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ

وختم الشاعر قصيدته ببيت السلام ذاكرا اسمه وداعيا المستمعين إلى الدعاء له بالرحمة والمغفرة، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثلما يختم الشعراء الشعبيون قصائدهم في العادة:

يا سامع نظمِي واقوالي
ينجى من حرِّ الأهوالِي
وحرمة بوقبرين العَالِي
أرحم وادعي للشَّلالي
يوم لا ظل إلا ظله
والغبريني مولى النَّحَلَة

صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ

بحقِّ اخوان الشيخِ الفقرة
الطُّف بينا يوم الزَّفرة
أمِّي وأبي والحضرة
والعابدين أهل الحضرة
واكسينا من سترك حلَّة
واللي يذكروا اسم الله

صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ

3- نموذج من الشعر الشعبي في جنوب سطيف... قصيدة في رثاء المقدم علي بن عبد الواحد الواحدي

لم تقتصر مدائح الشعراء الشعبيين على القائدين الحاج محمد المقراني والشيخ عزيز بن الحداد فقط بل إنَّ الكثير من الشعراء تغنَّوا بِفُرسانٍ وقادة آخرين ساهموا في المقاومة وانخرطوا فيها جُلَّهم من شيوخ الزوايا الرحمانية ورجالها الذين ناصرُوا الحاج المقراني والشيخ الحداد، ومن القصائد الكثيرة في هذا الموضوع قصيدة شعبية غنائية يُرجَّح أن تكون للشاعر الطاهر بن لكحل¹ قيلت في رثاء الشيخ الشهيد المقدم "علي بن عبد الواحد"² الواحدي الحامي شيخ زاوية أولاد عبد الواحد بقرية الحامة الواقعة وسط سلسلة جبال بوطالب جنوب ولاية سطيف، القصيدة وثَّقت حادثة استشهاد المقدم سي علي سنة 1871م بعد مساهمته في الانتفاضة وقيادته لفرسان منطقة الحامة "أولاد سيدي عمر" رفقة قريبه ورفيقه الحميم الشيخ عبد القادر بن الحسين القادري³.

يقول الشاعر في مطلع قصيدته:

قِي صَابْ هِيَّا رَافَقْنِي
لِمَقَامِ سَيِّدِي عِلَّالَة⁴
هِيَّا نُرُوخُو زِيَّازْ
مَا جَا لِحَوَاثُو مَا دَارْ

¹ - سمعتُ القصيدة من لسان شاعرة شعبية وراوية من سليلات الشيخ علي بن عبد الواحد تدعى الحاجة "زينب بنت سي المسعود" سنة 2016م، مع العلم أن هذه القصيدة قد تكون منقوصة الأبيات لكونها انتقلت إلينا شفهيًا لا كتابيًا كما هو الحال بالنسبة للكثير من القصائد الشعبية، ويرجح أن تكون القصيدة الغنائية من نظم الشاعر الشعبي الطاهر بن لكحل الذي عاصر الشيخ علي بن عبد الواحد وكان أحد أصدقائه ورفاقه المقربين.

² - المقدم الشيخ علي بن عبد الواحد الواحدي الحامي: مؤسس زاوية أولاد عبد الواحد بقرية الحامة جنوب سطيف وأحد شيوخ الطريقة الرحمانية وشهداء انتفاضة 1871م. ولد الشيخ حسب بعض الروايات سنة 1826 وقيل سنة 1824، وهو ابن الشيخ عبد الواحد بن محمد السعيد بن محمد بن علي بن عبد الواحد دفين رأس الوادي، نقل الطَّريقة الرحمانية لمنطقة الحامة رفقة الشَّيخ عبد القادر بن الحسين من منطقة برج طولقة ببسكرة، وكانت علاقته وطيدة بالشيخ الحداد، حيث كانت بينهما مراسلات كثيرة. انتقلت منه السلطات الفرنسية بسبب قيادته لفرسان منطقة الحامة فتم إعدامه رميًا بالرصاص في منطقة الحمام القريبة من الحامة سنة 1871م في حادثة شهيرة بعد أن نزعَت منه ملكية عدد من الأراضي وغزمته بمبلغ كبير، والكثير من الوثائق التي يعود تاريخها إلى خمسينيات القرن التاسع عشر وستينياته تصفه بـ: "سيدي علي بن عبد الواحد وبالولي التقى والشريف والشيخ العالم" وغيرها من الأوصاف التي تبين تلك المكانة التي تبوأها في القرية وخارجها، وقد أشار إليه يحي بو عزيز في مقال: دور الإخوان الرحمانيين في ثورة 1871م، مجلة الثقافة، تصدر عن وزارة الإعلام والثقافة، السنة السابعة-العدد 38، ربيع الثاني -جمادى الأولى 1397هـ/ أبريل-مايو 1977م، ص23.

³ - عبد القادر بن الحسين الحامي: مقدم بالزاوية الرحمانية في قرية الحامة وشارك في انتفاضة 1871م رفقة فرسان الحامة، وعقابا على مشاركته حكمت عليه السلطات الفرنسية بالتهجير إلى سكيكدة سيرا على الأقدام وتوفي فيها، كما أطلقت على بقية الفرسان أحكاما تتراوح بين الإعدام والنفي، وردت عنه وعن علي بن عبد الواحد معلومات تؤكد مشاركتهم في هجوم "أصحاب البرانس" على مدينة باتنة في كتاب: حياة الشيخ الحداد وثورة 1871م ... لحة عن تاريخ منطقة القبائل، للمؤلف علي بطاش، الطبعة الرابعة، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، ص289.

⁴ - عِلَّالَة: المقصود هو الشيخ علي بن عبد الواحد.

مَا جَاشَ سَيِّدِي عِلَاوَةَ مَا جَا لِحَوَائِئُو مَا دَارَ
ثم يُثْنِي الشاعر على نسب وشرف الشيخ الفارس علي بن عبد الواحد، ويذكر حادثة استشهاده قائلاً:

سَيِّدِي عَلِيَّ بْنَ عَبْدِ الْوَاحِدِ يَا نَاسَ قَارِي مُجَاهِدِ
شَرِيفٌ عَلِيٌّ فِي النَّسَبَةِ شَجَرْتُهُ مِنْ لَحْرَارِ
ما جاش سَيِّدِي عِلَاوَةَ مَا جَا لِحَوَائِئُو مَا دَارَ

سَيِّدِي عَلِيٍّ لِحَقِّ ثَمُوثُو صَلَّى وَكَمَّلَ رَكَعَاتُو¹
وَصَلَّتْ لِحَلَّةٍ² قَتَلَاتُو مَا جَا الْعَاشِي مَا دَارَ
سَيِّدِي عَلِيٍّ حَضَرْتُ ثَمُوثُو صَلَّى وَكَمَّلَ رَكَعَاتُو
الْكُفَّازَ طَلَبُو تَرَفَاتُو³ حَتَّى الْعَاشِي مَا دَارَ

ما جاش سَيِّدِي عِلَاوَةَ مَا جَا لِحَوَائِئُو مَا دَارَ
جَائُوهُ مِنْ أَرْضِ الصَّحْرَا قَطَعُوهُ مِنْ سَجَرَةِ حُرَّةٍ
حَطَلُو النُّسَخَةَ يَقْرَأُ مَنُّو تَفَرَّقَتْ لِرِسَامِ⁴
إِذَا بَطَا شَيْخِي وَبَطَا وَالشَّيْخُ مَوْلَى شِلَاطَةِ⁵
وَإِذَا فَتَحَ فَمُّو وَاعْطَا مَقْبُولٌ بِكَلامِ فَرِيدِ
اللي عندو الطلبة تَقْرَأُ تَقْرَى عِلْمَ التَّوْحِيدِ

وقد جاءت خاتمة القصيدة حزينة على نهاية الفارسين الرفيقين علي بن عبد الواحد وعبد القادر بن الحسين وقرية الحامة التي أحرقتها فرنسا عن آخرها⁶ عقاباً لأبنائها على احتضانهم للثورة وما زالت آثار الحرق بادية إلى اليوم:

سَيِّدِي عَلِيٍّ وَعَبْدُ الْقَادِرِ⁷ لَثِينٌ صَدَّوْ مِنْ لُوكَرِ
وَالْحَامَّةُ مَا عَادَتْ تَعْمُرُ وَاخْلَالَتْ فِي عَدَتْ قِفَارِ
ما جاش سَيِّدِي عِلَاوَةَ ما جَا لِحَوَائِئُو مَا دَارَ
دَارَهَا هُمْ بِلَعْرُوسِي رَبِّي يَخْلِيهِ يَسَاسِي
لُوحُوهُ لِلْعَرَبِ الْقَاسِي بَرَكَةُ عَلِيٍّ لَقْدَارِ
فِي صَبَابٍ كَانَ تَرَافَقْنِي هَيَّا نُرْوَحُو زَيَارِ

¹ - يروى أن الشيخ علي بن عبد الواحد صلى صلاة الاحتساب قبل إعدامه رمياً بالرصاص في أكتوبر 1871م. وكان مكان إعدامه في منطقة الحمام، وهي مزاراً كان يقصده سكان المنطقة واندثرت هذه العادة في نهاية القرن الماضي.

² - الحَلَّة: جمع من جنود فرنسا.

³ - تَرَفَاتُو: من الثوريق، لفظة شعبية المقصود بها القتل عبر طلقات الرصاص.

⁴ - الرِّسَم: بتخفيف الراء، يُقصد بها الحدود التي تفصل بين القطع الأرضية الزراعية، فالشيخ علي كان من الأعيان الذين يفصلون بين الناس في الخلافات حول الأراضي.

⁵ - شِلَاطَةُ: المقصود بها هي زاوية شِلَاطة في بجاية، وهناك علاقة روحية وطيدة بين المنطقتين.

⁶ - تعرضت الحامة للحرق عقاباً لأهلها على مشاركتهم في انتفاضة 1871م، ولم تسلم إلا بعض الديار وبعض الشواهد من الحرق الذي مازالت آثاره موجودة لحد الآن، وحادثة الحرق مؤكدة حسب الشواهد والروايات الشفوية وهناك بعض الوثائق التي تؤكد لها لدى أهل القرية.

⁷ - المقدم عبد القادر بن الحسين: سبق التعريف به.

لقد كان لثورة الحاج المقراني والشيخ الحداد والإخوان الرحمانيين وقادتها أثر بالغ في نفوس الشعراء الشعبيين، وهو ما يعكس الأهمية التي اكتسبتها هذه الانتفاضة الشعبية والمكانة التي حظي بها هؤلاء الثوار في قلوب الجزائريين، فالشعر الشعبي الملحون ليس إلا انعكاسا وتصويرا لما كان يجول خواطر الفئات الشعبية البسيطة من المجتمع الجزائري، وبذلك فهو صوت البسطاء الذي يمكن من خلاله أن نتعرف عن التصورات الشعبية لمعاني البطولة والجهاد والثورة، وهو يمثل الرواية غير الرسمية للحوادث والوقائع التاريخية. ولا يمكن إهمال الدور الكبير الذي لعبه الشعر الشعبي الملحون في الدعاية للانتفاضات والثورات الشعبية المتعاقبة، ولعل هذه القصائد خير نموذج على أن ثورة المقراني لقيت دعما جماهيريا وشعبيا كبيرا، وفي الختام نجد الدعوة لكل المهتمين والباحثين في التاريخ والأدب لجمع أكبر عدد من القصائد الشعبية لأنها قد تحمل في طياتها الكثير من الحقائق والمعلومات التي أهملتها المصادر الأخرى.

القصيدة الأولى: حول ثورة محمد المقراني وابن الحدّاد لشاعر مجهول¹

يا التاريخ تكلم عاود القصيدة
 بما جرى بين الرّومي وشعبنا تعاود
 خصال ذوك السّادات تعيدها علينا
 من عمل شيّ ياك انتايا عليه شاهد
 من خدم لوطنه يبقّى شأنه خالد
 خذْ نعطيك أخبار ابطال ذا الرعيّة
 مسطرة متمومة تاريخها مقيّد
 أثناء الحرب السبعين تنافروا الخزيّة
 الألمان تقوى والرومي تنكّد
 قال هأثوا عربان لجاه والحميّة
 قامت الكفرة في شبابنا تجنّد
 اتفقت جميع العُربان في خفيّة
 عولت على الرومي من البلاد تطرّد
 من خدم لوطنه يبقّى شأنه خالد
 الغبريني وكاد، يامر على الجهاد، احنا شرفة وسياد، وطننا نظهروه
 ما ينفعنا تنهاد، مع القوم الأجحاد، خطفوا منّا الأولاد، شعبنا شرّده
 في أرضنا دقوا الأوتاد، سعاؤ غلّة وزاد، تركونا في تنكاد، رزقنا شتّوه
 طعى الرّومي ومازال على البلا معمّد
 توحدت صفوف العربان هيا يا خويا
 وقفت الابطال الزينين سور واحد
 الاخوان توجه في الناس للقضيّة
 لواش قال الغبريني زائدة تأكّد
 الكبار اجتمعوا للرأي في عشيّة
 مع عزيز الشيخ الحدّاد في المساجد
 الابطال الحرّة لعهودها تجدد
 قال عزيز الحدّاد، يا لكرام الأجواد، من الظلم ومن الفساد، شعبنا نقذوه
 فرسان غزار شداد، في وجوه العناد، نحفروا له الأحاد، نخليو دار بوه
 في الجبال والأوهاد، أبطال غزارة اطواد، تنادي من البعاد، عهدنا نجددوه

¹ - وردت كاملة في كتاب: المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، لجلول يلس وأمقران الحفناوي، المرجع السابق، ص 70-73.

نقوم بعمل ثورة ونكسروا الجاحد

المقراني بسلاح، عول على الكفاح، قام ودار البراح، يا أهلي الموت خير
رباعين وفلاح، عمرنه البطاح، نجوع فراسين صحاح، جيش قوي عزيز
حين شاف العريان سيوفها مهند

سبّتها يا حضّار، سبايس الصغار، قزوا من عين قطار، وحطّموا مخازينه
رفضوا حكم الكفار، ما رضاوها جهار، عند الحنانشة الاحرار، ارتماو وتحصّنو
هذا المخازني دقار، للحنانشة الاحرار، وسوق اهراس فتغيّار، ناسها تغبّنو
نجوع نمامشة قدار، عولت للنفار، أبطال تبسة ثوار، بخصالهم يرهّنو
فالقل صار ما صار، تخربت الدياز، حرق غاشيها بالنار، عساكرهم تجنّو
والأوراس علاماتها واقفة تفيد

لهبت في كل اقطار، في كل خيمة ودار، من ال برج البودينار، غرب صحراء... وتلّ
المقراني غوار، بحال شلة غزار، لعساكرهم دمار، في الكد اشحال
من تقرت ال بشّار، لدوار بنت جبار، يجاهد في الكفار، بجيش قاوي فحل
أولاد سيدي الشيخ انصار، وبوسعادة اصوار، والشاوية قدار، معاها الرومي وحل
كم من بطل عزيز من اشبالنا استشهد

قصّة حقا تنعاد، تورخوها الأجداد، في ايشرضن الأسياد، اخصالها مسجّلة
مهد معارك وطراد، الدمّ ثمة دار واّد، شعب كبير للميعاد، لاعمارها مسبّلة، تهولت الأمة وقوى الطراد وجهاد
جاء الخبر من ورقلة روع الرعيّة، راه بومرزاق وقع فيدها يغرد
رحمو عنه وعلى ناظم القصيدة وكل من خاف الله وبالني يشهد
يا الله ترحمني أنا ووالديا بمحبتك للهادي شفيعنا محمد

القصيدة الثانية: حول ثورة الحاج المُقراني والشيخ الحدّاد والزوايا الرحمانية، للشيخ الشلاحي¹

بِسْمِ اللَّهِ الْحَيِّ الدَّائِمِ هِيَ مِفْتَاحُ الْجَلَالَةِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَى بَلْقَاسِمِ الْمَزْمَلِ سَيِّدِ الرِّسَلَةِ
صَاحِبِ اللِّوَاءِ وَالْخَاتَمِ الْهَاشِمِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ عَشَبَ وَنَجُومَ وَرَمَلَهُ
صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلِّ يَا رَبِّي عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْأَعْرَابِ
وَالرَّضَى عَلَى الْأَصْحَابِ بُوْبَكْرٍ وَعُثْمَانُ وَالْخَلَّةُ
وَعَلَى عُمَرَ الْخَطَّابِ وَحِيدِ طَوَاعِ الْجَهْلَةِ
صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
نَحْكِيكَ قِصَّةً وَاسْتَحْبِرْ مَا عَمِلْتَ ذَرِيَّةً حَيْدَرُ
طَوَاعِينَ الْقَوْمِ الْكَافِرِ فِي الْخَزِيَةِ عَمَلُوا مَقْتَلَةً
يَوْمَ أَنْ جَا طَاغِي يَتَجَبَّرُ بَعْسَاكَرِ حَقْدَانِ اغْلَالَةً
صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
تَلْمُؤُوا ضَرَبْتَ الْأَسْيَادِ وَمَوْلَايَ عَزِيزِ الْجَوَادِ
نَادُوا أَلْ فَرَضِ الْجِهَادِ هَذَا مَا قَدَّرَ تَعَالَى
بُوْ قَرَانَةَ رَاهِ يَنَادِي يَتَغَانَا سَيِّدِ الرَّجَالَةِ
صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَاحِ الشَّيْخِ عَزِيزِ يَكْبَرُ هَذَا فَرَضُ صَحِيحِ مَقْدَرُ
لَا مِنْ يَمْحِيهَا الْمَسْطَرُ نَمُوتُوا وَلَا ذَا الذَّلَّةِ
لَاغُولِي لِأَخَوَانِي تَحْضُرُ قُطِبُ الْأَوْلِيَا يَتَوَلَّى
صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
عَمْرِهِ سَيِّدِي مَا يَنْسَانَا بُوْقَبْرَيْنِ يَكُونُ مَعَانَا
بِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رِضَانَا مَوْلَى الْجَاهِ وَمَوْلَى الْخِصْلَةِ
عَلَيْهِ أَتَكَالْنَا وَرَجَانَا مِنْ شَدِّ الضِّيقِ يَسْلُكُنَا
صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
جَاتِ نَجْوَى الزَّابِ فَرْوَعُ حَلَفُوا مَا يَرْضَاوُ رَجُوعُ
فِينَا مَا يَدِيهِ طَمُوعُ مَا فِينَا مِنْهُمْ رَذَالَةُ
خَبِرْنَا لِسَةً مَشْنُوعُ سَالِ عَلَيْنَا كُلَّ عِمَالَةِ
صَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
حَضَرُوا ذَرِيَّةَ عَلِيٍّ حَيْدَرُ طَوَاعِينَ الْقَوْمِ الْكَافِرِ

¹ - وردت القصيدة كاملة في كتاب: المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون" لجلول يلس وأمقران الحفناوي، المرجع السابق، ص74-76.

ما فينا اللي يتوتّر جات افراسين الحَيّالة
اسراتا بشليل مشهّر ومكاحل بيضا تتقاله
صلّوا على رسول الله
يوم الجمعة جات العسكر والداو عزيز ميسّر
على سيدي واش يصبّر الدمعة تجري سيّالة
غيم سمنا وتكدّر صدّوا بيه قلوب اغلالة
صلّوا على رسول الله
بوقبرين تكون معانا سلّكنا من قو اعدانا
راها طالت هذي الإهانة انده جدّك يا غوث الله
من الاغبان القلوب مليانة انده يا سلّاك الوحلة
صلّوا على رسول الله
يا سيدي رايس الاوليا بوقبرين ضيا عينيا
تنده لك رحلة ووليّة يا سيدي قطب الجلالة
طالت هذي الميزيرة اطفوها هاذ الشعالة
صلّوا على رسول الله
يا ربّي تقبل دعواني اغفر لي وتمحي سياتي
بجاه الطلبة ساداتي اللي يقرأو كتاب الله
يا ربّي تغفر زلاتي وترحم أهلي وعباد الله
صلّوا على رسول الله
يا سامع نظمّي واقوالي ارحم وادعي للشلاي
ينجى من حرّ الأهوالي يوم لا ظل إلا ظله
وحرمة بوقبرين العالي والغبريني مولى النحلة
صلّوا على رسول الله
بحقّ اخوان الشّيخ الفقرة والعابدين أهل الحضرة
ألطف بينا يوم الرّفرة واكسينا من سترك حلة
أمّي وأبي والحضرة واللي يذكروا اسم الله
صلّوا على رسول الله

القصيدة الثالثة: في رثاء الفارس علي بن عبد الواحد الواحدي الحامي، من شهداء ثورة المقراني والشيخ الحداد 1871م¹

قَصَابٌ هَيَّا رَافِقِي هَيَّا نُرُوحُو زَيَّارُ
لمقام سيدي علاوة² مَا جَا لِحَوَائُو مَا دَارُ
مَا جَاشْ سِيدي علاوة مَا جَا لِحَوَائُو مَا دَارُ
تَدِّي بَرِّيَّ³ وَتَحْمَلُ عَنْ خُوثُ الشَّيْخِ اتَسَوَّلُ
شَوْفُو الدُّنْيَا تَتَهَوَّلُ كَيْفَاشْ تَرْجَعُ بَمَرَارُ
وَابْكَاتُ عَنَّا هَنَّا⁴ مِنْ وَحْشِ دَارَاتِ الدُّنْيَا
مَاجَاشْ سُلْطَانُ الْوَلِيَا مَاجَاشْ سِيدي السَّعِيدُ
اللِّي عِنْدُو الطَّلِبَةُ تَقْرَى يَقْرَأُو عِلْمُ التَّوْحِيدِ
سِيدي عَلِي بن عبد الواحد يَا نَاسْ قَارِي مُجَاهِدُ
شَرِيفٌ عَلِي فِي النَّسَبَةِ شَجَرْتُو مِنْ لِحَرَارُ
مَا جَاشْ سِيدي علاوة مَا جَا لِحَوَائُو مَا دَارُ
سِيدي عَلِي لِحَقَاتِ مُوْتُو صَلَّى وَكَمَلُ رَكَعَاتُو
وَصَلَتْ لِحَلَّةِ قَتْلَاتُو مَا جَا الْعَاشِي مَا دَارُ
سِيدي عَلِي حَضَرْتُ مُوْتُو صَلَّى وَكَمَلُ رَكَعَاتُو
الْكُفَّارُ طَلَبُو تَرْفَاتُو حَتَّى الْعَاشِي مَا دَارُ
مَا جَاشْ سِيدي علاوة مَا جَا لِحَوَائُو مَا دَارُ
جَائِبُو مِنْ أَرْضِ الصَّحْرَا قَطَعُوهُ مِنْ سَجَرَةِ خِرَّةُ
حَطُولُو النُّسَخَةَ يَقْرَأُو مَتَّو تَفَرَّقَتْ لِرَسَامُ
إِذَا بَطَا شَيْخِي وَبَطَا وَالشَّيْخُ مَوْلَى شَلَاطَةَ
وَإِذَا فَتَحَ فَمُّو وَاعْطَا مَقْبُولُ بَاكَلَامُ فَرِيدُ
عِنْدُو الطَّلِبَةُ تَقْرَأُو تَقْرَى عِلْمُ التَّوْحِيدِ
سِيدي عَلِي وَمَا وَاسَا دَارُ فِي الدُّنْيَا تَدْحَاسَةُ
خَرَجَ خَيْرَاتُ فِي الطَّاسَةِ سَقْسِي النَّاسُ الْخُضَّارُ
مَاجَاشْ سِيدي علاوة مَا جَا لِحَوَائُو مَا دَارُ
سِيدي عَلِي وَمَا وَاسَا دَاوَى النَّاسُ اللَّي تَعَاسَةُ
خَرَجَ مَثَارُ وَطَبَاسَةُ⁵ سَقْسِي النَّاسُ الْخُضَّارُ
وَابْكَاتُ زَيْنَبُ وَالزَّهْرَةُ¹ وَالْبَارِخُ بَاتُو فِي كُشْرَةِ

¹ - تم تسجيل القصيدة في شكل فيديو في مقابلة مع الراوية والشاعرة الشعبية التي سبق ذكرها.

² - علاوة: المقصود هو المقدم الشيخ علي بن عبد الواحد.

³ - البرية: لفظ شعبي يطلق على الرسالة.

⁴ - هتاية: اسم إحدى بنات الشيخ علي بن عبد الواحد حسب ما وجدناه في بعض الوثائق.

⁵ - المثار: جمع مثر، وهو نوع من أنواع الأواني التقليدية التي كان يوضع فيها الطعام، الطباسة: جمع طبسي، وهو الصحن أو الإناء.

ماجاش سلطان الدشرة ماجاش سيدي السعيد
 سيدي علي وعبد القادر² لثنين صدو من لوكز
 والحامة ما عادت تعمّر واخلات في عدت قفار
 ماجاش سيدي علاوة ما جا لخواتو ما دار
 دارهالهم بلعروسي ربي يخليه ياساسي
 لوحوه للعرب القاسي بركة عالي لقدار
 في صاب كان ترافقي هيا نروحو زيار

2- الصور:

صورة الصندوق الذي سلم من الحرق الذي تعرضت له قرية الحامة سنة 1871م

الصندوق موجود لحد الآن بمقر زاوية الشيخ علي بن عبد الواحد الواحدي بقرية الحامة ولاية سطيف كإراث محفوظ للزاوية مع مجموعة من الوثائق والمخطوطات.



¹ - زينب والزهرة: أسماء بنات الشيخ علي بن عبد الواحد حسب ما تشير له بعض الوثائق.

² - المقدم عبد القادر بن الحسين القادري الحسني.

أصول أسرة المقراني وثورة 1871م في الأطروحات الجامعية

- نقد وتقييم -

يعقوب خديجة - جامعة قسنطينة

تسعى هذه الورقة العلمية إلى رصد بعض الملاحظات المتعلقة بالإنتاج التاريخي حول أصول عائلة محمد المقراني وشخصيته وثورته ضد السلطات الفرنسية سنة 1871م، من خلال بعض العينات البحثية المنتقاة، من جامعة قسنطينة² - منذ نشأة قسم التاريخ بالجامعة ابتداء من سبعينيات القرن الماضي¹ - وإحدى الدراسات التي ناقشتها صاحبها الباحثة الجزائرية "ليلي بايس" في فرنسا.² وتدور فكرة البحث حول نقد هذه الدراسات الجامعية، من خلال محاولة الإجابة على جملة من التساؤلات، منها: ما هي أهم المصادر الأرشيفية وغير الأرشيفية المعتمدة من طرف هؤلاء الباحثين؟ وهل تناولوا أهم المحطات التي عاشتها عائلة المقراني منذ سقوط مدينة قسنطينة في يد الفرنسيين سنة 1837م وإلى غاية ما بعد ثورة محمد المقراني سنة 1871م ضد الفرنسيين؟ هل لعب الإشراف والتأطير دورا في توجيه هذه الأبحاث؟ وإذا ما كانت هناك ندرة في دراسة هذه المواضيع الخاصة بالمجتمع الجزائري في القرن التاسع عشر، ما هي أهم الأسباب التي أدت بالباحثين للعزوف عن دراسة هذه المواضيع؟

1- أصول العائلة المقرانية:

ناقشت الباحثة الجزائرية ليلي بايس أطروحة دكتوراه الدرجة الثالثة بجامعة آكس أون بروفانس بفرنسا سنة 1984م في قسم العلوم السياسية، وحملت عنوان: "أسطورة الأصل والبنية القبلية في بايلك قسنطينة تحت الهيمنة التركية: دراسة في تشكل السلطة السياسية"³، تحت إشراف: "برينو إيتيان" Bruno Etienne، ومناقشة كلا من: "أندري نوشي" André Noushi وعبد القادر جغلول، وتتكون الأطروحة من 387 صفحة.

عالجت في دراستها مكانة شيوخ القبائل في بايلك الشرق الجزائري خلال العهد العثماني وعلاقتهم بالسلطة العثمانية، ومنهم شيوخ أولاد مقران والاعتراف المتبادل بين الشيخ والباي: الولاء للسلطة مقابل تولية القفطان، والذي أصبح رمزا لتولي الوظيفة. كما تناولت في دراستها مختلف الروايات الشفهية التي أدلى بها شيوخ وأفراد القبيلة للضباط الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر ميلادي، حول أصول عائلة المقراني ومجيء جدّهم "الشيخ عبد الرحمان" من الساقية الحمراء، واستقراره بإحدى الزوايا أو "القرابة" في منطقة بني عباس خلال القرن السادس عشر، والتي كانت تابعة جغرافيا لمنطقة زواوة، التي يديرها سلطان كوكو المسمى "ابن القاضي"⁴، وبداية

¹ - كانت تابعة لجامعة الإخوة منتوري سابقا، ومنذ الموسم الجامعي 2012-2013م استقلت عن الجامعة الأم، وأصبحت تسميتها بجامعة قسنطينة 2 - عبد الحميد مهري.

² - وقد استندت إلى بعض المراجع باللغة العربية بغرض صياغة تصور وهندسة للموضوع، ومن بينها "ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني" لناصر الدين سعيدوني، ط2، دار البصائر، الجزائر 2009م، ص15-28، ومقال فاطمة الزهراء قشي: "الدراسات العثمانية في الجامعة الجزائرية"، الدراسات العثمانية في الجامعة الجزائرية التواصل التاريخي والعلمي بين دول الخليج العربية ودول المغرب العربي، بحوث المؤتمر الخليجي المغاربي الثاني، الرياض، فبراير 2006م، دار الملك عبد العزيز ومؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 2007، ص102-118؛ بالإضافة إلى كتابها حول "صالح باي"، فضلا عن مقال أحمد عبيد، التأريخ الجزائري تقييم ونقد، حالة الجزائر العثمانية، مجلة إنسانيات، العدد (47-48)، 2010م، ص57-75.

³ - Leila Babes, Mythes d'origine et structures tribales dans le Constantinois sous domination turque : essai sur le fondement du pouvoir politique, Thèse de 3^e cycle en sciences politiques, Aix-en-Provence, 1984.

⁴ - Leila Babes, op.cit, pp175-176 .

تشكل علاقاته مع السكان المحليين، وكل هذا كان اعتمادا على العديد من تقارير قانون السيناتيس كونسيلت (Sénatus-Consulte) الصادر في 22 أبريل 1863م، والمحفوظة بأرشيف أكس أون بروفانس بفرنسا¹.

كما اعتمدت الباحثة في تأريخها لعائلة المقراني على كتابات المترجم العسكري شارل فيرو (Charles Feraud) وهو من أهم الكتاب الفرنسيين خلال القرن 13هـ/19م، الذين كتبوا الكثير عن تاريخ القبيلة ومؤسسة المشيخة في بايلك الشرق الجزائري، فقد استغل منصبه كمترجم ليؤلف العديد من الأبحاث نشرها في المجلة الإفريقية على شكل مقالات.

في دراسة ثانية نوقشت بجامعة الاخوة منتوري بقسنطينة سنة 1990-1991م، تناولت الباحثة جملة معاشي موضوع "الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م"²، وقد بحثت هي الأخرى في مسألة الأصول اعتمادا على ما جاء في المصادر المحلية والأجنبية، كما حللت علاقة القبيلة بالبايلك من خلال سياسة البايات اتجاه شيوخ القبائل، أو العلاقة بين أفراد عائلة الشيوخ والصراعات المتجددة في كل مرة على المشيخة. وحسب الباحثة، فإن أسرة المقراني قد حافظت على نفوذها ومناطق سيادتها وإدارتها باستقلالية، فالحكام العثمانيون كانوا بعيدين عن حكم القبائل التي بقيت تحت سلطة شيوخها حتى نهاية الحكم العثماني³.

نفس الطرح الذي ذهب إليه الباحثة "ليلى باييس"، دعمته الباحثة "جميلة معاشي" فيما يخص مسألة الأصول، والذي ينحدر من الأدراسة أشراف المغرب الأقصى، حيث نزحوا من ناحية معسكر إلى بلاد زواوة، فقلعة بني عباس أين أسسوا قلعة هناك، كما حدّدت الباحثة المجال الجغرافي لسيطرة أسرة المقراني خلال القرن السادس عشر ميلادي، والممتد من غرب بايلك قسنطينة من جبال البابور شمالا حتى الزاب جنوبا. وقد شكّل العامل الديني وفق ذات الدراسة سببا رئيسيا في التفاف القبائل حول زاوية الأسرة التي كانت مقصدا للطلاب والعلماء من مختلف جهات قطر الجزائر آنذاك، كما وضعت شجرة نسب لهذه العائلة.

أما الدراسة الأخرى، فكانت للباحث لخضر بوطبة والتي تناول فيها "أسرة أولاد مقران خلال العهد العثماني (1518-1837م)، نوقشت بجامعة الأمير عبد القادر⁴، ومن بين الإشكاليات التي طرحتها: "ما هو الدور الذي لعبته أسرة أولاد مقران في العهد العثماني في الجزائر؟ وكيف تميزت علاقاتها مع الحكام العثمانيين؟"، واعتمد الباحث على كتابات فيرو ومولود قايد بشكل كبير، غير أنّه لم يستغل الوثائق المتوفرة بالأرشيف الوطني والمكتبة الوطنية الجزائرية.

رجع الباحث إلى مسألة الأصل اعتمادا على ما جاء في المصادر مثل ابن خلدون وفيرو، بالإضافة إلى أحد المخطوطات التي تعود إلى أحفاد العائلة، ورجع إلى القرن 10هـ/16م تاريخ تأسيس القلعة، وقيام الإمارة وبداية علاقاتها مع الإسبان والأتراك، وكشف عن العلاقات بين الشيوخ و الحكام العثمانيين إلى غاية سقوط قسنطينة في يد الفرنسيين سنة 1837م، معتمدا على التسلسل الزمني للأحداث.

خصّص "بوطبة" سبع صفحات ونصف لدراسة مختلف الآراء الخاصة بأصول العائلة على مصادر محلية كالورثياني والمؤرخ المغربي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري في مؤلفه "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، بالإضافة لمختلف الروايات التي تناولها المترجم العسكري "شارل فيرو" ومواطنه "لويس رين" تؤكد على النسب الشريف كما اعتمد الباحث على كتابات ابن خلدون كما

¹ - يحتوي المركز على أرشيف ضخم يضم كل مراسلات وتقارير السلطات الاستعمارية في مستعمراتها فيما وراء البحار، أي خارج فرنسا، ومن أهمها أرشيف الجزائر، وهو بالتالي شاهد على ما حدث خلال العهد الاستعماري، ومحفوظ في مجلدات وعلب أرشيفية ضخمة، منه ما هو مكتوب بخط اليد ومنه ما هو مرقون.

² - جميلة معاشي، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م، دراسة اجتماعية سياسية، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث، تحت إشراف أ. د حماد حسين، جامعة قسنطينة، 1990-1991م.

³ - جميلة معاشي، المرجع نفسه، ص49.

⁴ - لخضر بوطبة، أسرة أولاد مقران خلال العهد العثماني (1518-1837)، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، إشراف الأستاذ أحمد صاري، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2005-2006م.

اعتمد على أحد المخطوطات المحلية التي تعود لأحد أحفاد العائلة الذي ينسبهم إلى الأشراف ومختلف المراجع كدراسات مولود قايد وصالح فركوس ومبارك المليي وجميلة معاشي.

رجّح الباحث في استنتاجه انتسابهم إلى الأشراف الأدارسة، وتوقف عند عنصر دعم العائلة للحاج أحمد باي قسنطينة (1826-1837م) في التصدي للحملة الفرنسية على مدينة الجزائر 1830م، ومسألة انقسام المشيخة بعد سقوط هذه المدينة، وصراع العائلة مع الحاج أحمد باي وبعض الشيوخ وتحول ولاء بعض الشيوخ للسلطات الفرنسية فيما بعد.

بعد رسالة الماجستير حول: "النظام الإداري في بايلك الشرق 1791-1830م"¹، ناقش الأستاذ أحمد سيساوي (رحمه الله) في مرحلة الدكتوراه موضوع "البعد البايليكي في المشاريع السياسية الاستعمارية الفرنسية من فالي إلى نابليون الثالث 1838-1871م"²، وتساءل فيها عن سبب قبول الجزائريين لنظام البايك أو البعد البايليكي في العهد العثماني؟ ولماذا رفضوه في ظل الحكم الفرنسي؟ وكيف اندمجت القبيلة في البعد البايليكي وأصبحت فيما بعد مصدر ثورات زمن الاحتلال الفرنسي؟ وقد اعتمد في بحثه على كم كبير من مراسلات الجنرالات الفرنسيين كالجنرال فالي وبيجو المحفوظة في أرشيف اكس بفرنسا.

حدّد "سيساوي" مفهوم البايك جغرافيا وإداريا في أواخر حكم العثمانيين، وتناول المراحل التدريجية التي عرفتها المؤسسات الإدارية ومنها مؤسسة المشيخة، ففي البداية استعمل الماريشال فالي سياسة المحافظة على الوضع السائد وانتهاجه للنظام العثماني، غير أن الماريشال بيجو قد أعاد هيكلة التنظيمات القبلية، والعقارية والضريبية، وانحطت بالتتابع الارستقراطية التقليدية مع ظهور مشروع المملكة العربية بداية من سنة 1860م. لتعرف القبيلة ومؤسسة المشيخة تحولا كبيرا سنة 1863م بصدر القرار المشيخي أو السيناتيس كونسيلت (Sénatus-Consulte)، والذي حدّد بموجبها أراضي القبائل وتقسيم الأراضي على مختلف الدواوير تمهيدا لقانون الملكية الفردية في كل دوار تتاح الفرصة لإقامتها.

2- ثورة محمد المقراني سنة 1871م في الدراسات الجامعية

أبرز الباحث العياشي رواجي تحولات مؤسسة الشيخ واضمحلال نفوذها في الفترة الفرنسية مشيرا إلى أهم المراسيم³، فقد تناول أسرة المقراني والإدارة الاستعمارية في رسالة الماجستير⁴، ليواصل في موضوع أوسع وهو الأسر المتنفة خلال مرحلة الدكتوراه، وبالتالي فهناك استمرارية في أبحاثه.

طرح الباحث إشكالية طبيعة العلاقة بين الإدارة الاستعمارية والعائلات الكبرى وفهم نتائجها، واعتمد على كم أرشيفي هائل ومتنوع خاصة وثائق الأرشيفات الفرنسية التي تتمثل في المراسلات الإدارية والتقارير الرسمية وتقارير المكاتب العربية، وطرح انقسام مواقفها من الاستعمار الفرنسي، ليتوصل في بحثه إلى أن صدور القانون المشيخي في 22 أفريل 1863م، قد دفع بالشيوخ إلى الانتفاضة في وجه السلطة، والتي كانت نهايتها بأن قضى الفرنسيين على نفوذ شيوخ القبائل، وقد قام الباحث باستقراء جيد لوثائق والمراسلات التي كانت تتم بين المسؤولين الفرنسيين سمح له بتتبع أهم التغيرات على مستوى المشيخة.

تكاد دراسة الباحث العياشي رواجي تكون الدراسة الوحيدة التي واصلت إلى فترة ما بعد ثورة المقراني سنة 1871م، وقد بدأ دراسته بتوضيحه لأولى المساعدات التي قدّمتها العائلة للإدارة الاستعمارية، ومنها مرافقة الخليفة أحمد المقران للجنرال غالبا في عملية

¹ - أحمد سيساوي، النظام الإداري في بايلك الشرق 1791-1830م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، 1988م، (رسالة غير منشورة).

² - أحمد سيساوي، البعد البايليكي في المشاريع السياسية الاستعمارية الفرنسية من فالي إلى نابليون الثالث 1838-1871م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ المعاصر تحت إشراف: أ. د. كمال فيلاي، جامعة منتوري قسنطينة، 2013-2014م.

³ - العياشي رواجي، الإدارة الاستعمارية وعلاقتها بالعائلات الكبرى في مقاطعة قسنطينة 1837-1871م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة 2 - عبد الحميد مهري -، السنة الجامعية 2014-2015م.

⁴ - العياشي رواجي، أسرة المقراني وعلاقتها بالإدارة الاستعمارية 1837-1871م، إشراف: صالح فركوس، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2007-2008م.

استصلاح منطقة سطيف 1839م وتوفير الأمن للقوات الفرنسية أثناء مرورها لمضيق الببيان في نفس السنة، ودفع الضريبة عوضا عنهم.

وكشف عن مساهمة العائلة في تزويد الخزينة الفرنسية بأموال طائلة استخلصتها من مختلف القبائل الخاضعة لها، وقد أكد الخليفة أحمد المقراني أنه سيعمل على رفع قيمة الضرائب المدفوعة للفرنسيين لتصل إلى 30000 فرنك فرنسي، كما تتبع روابط بعض السياسات التي انتهجتها الإدارة ضد العائلة، ومنها سياسة فرق تسد وسياسة التضييق المستمر عليها وتقليص وتجزئة قياداتها، فخلال عامي 1846-1847 باشرت الإدارة الاستعمارية في عملية سلخ عشر قبائل من قيادة المقراني وألحقها بدوائر وقسمات بسكرة والمدينة والبويرة، وفي عام 1849م تم استحداث دائرة بوسعادة وهو ما يعني انتزاع عدة قبائل في الحضنة والجنوب من قيادة المقراني.

بحث "رواجي" في أسباب الثورة والمضايقات الفرنسية للمقراني، فقد كان رؤساء الأهالي يحتفظون بثلاث الضريبة التي كانوا يقومون بجبايتها من السكان المنضوين تحت لواء قيادتهم ويسلمون الثلثين للخبزينة الفرنسية. غير أن الإدارة الاستعمارية عملت على تخفيض نصيب خليفة مجانة إلى عشر الضريبة سنة 1854م، وحرمان العائلة من مداخيل أخرى، وفرض ضريبة الزكاة على العائلة سنة 1858م بعدما كانت غير معنية، كما اعتبرت الرؤساء والأهالي موظفين عاديين وخصصت لهم راتباً شهرياً، ومنهم الباشاغا محمد المقراني الذي خصصت له راتباً سنوياً قدر بـ 1000000 فرنك فرنسي، وبذلك يكون الباحث قد بيّن كيفية إغناك كاهل هذه العائلة الكبرى بواسطة هذه الإجراءات المالية القاسية مما أثار بشكل سلبي على وضعها المادي والمعنوي.

أما من حيث المناصب، فبعد وفاة الخليفة أحمد المقراني عام 1853م فقد قاموا بإلغاء منصبه وقلصوه إلى منصب الباشاغا وهو منصب أقل قيمة من منصب الخليفة، وبعد تعيين ابنه محمد المقراني في منصب الباشاغا جردوه من صلاحية اختيار شيوخ القبائل واقتراح المترشحين لمنصب القايد، وأسندوها لضباط المكاتب العربية. كما كان صدور قانون سيناتيس كونسيلت (Sénatus-Consulte) في 22 أفريل 1863 واعتبار الأراضي المشاعية ملكاً لها كان يهدف للقضاء على القبيلة والعرش من خلال إنشاءه للدوار والبلدية.

تطرق الباحث لاجتماع 14 مارس 1871م الذي ترأسه هذا الباشاغا وشنّ الثورة على السلطات الفرنسية، ومهاجمة مدينة برج بوعرييج كما دعا الشيخ الحدّاد للدخول معه في محاربة الفرنسيين، بعد أن استعرض دوافع الثورة. اعتبر الباحث هذه الثورة الحد الفاصل للزمن العسكري لمجتمع الريف الجزائري لأنها أدّت إلى زوال حكم العائلات المحاربة أو الإقطاعية المحليّة، وتتبّع بدقة نتائجها وانعكاساتها.

تعتبر هذه الدراسة من بين أهم الدراسات الجامعية التي اهتمت بثورة المقراني وتتبع بالتدرّج أهم التطورات التي شهدتها العائلة، وقد ساعده في ذلك اطلاعه على العشرات من الوثائق وتقارير الضباط الفرنسيين والموجودة بأرشيف أكس أون بروفانس بفرنسا.

الكتابات الفرنسية الاستعمارية التي تركها المترجمون العسكريون قصد الاحتلال في القرن 13/هـ 19م، بقيت أهم مصدر لكتابة تاريخ مؤسسة المشيخة في بايلك الشرق الجزائري، وهي رغم شحنتها الحاقدة على تركيبة المجتمع الجزائري إلا أنها مهمة جداً. بقيت الأبحاث حول مؤسسة الشيخ بالجزائر محصورة ومشدودة إلى تراكم الكمّ الأرشيفي من عدمه، والتوقف عند سنة 1288هـ/1871م، تاريخ القضاء على ثورة الباشاغا محمد المقراني، وكأنه حدث لزوال مؤسسة الشيخ في الجزائر خلال القرن 19م، رغم أن هذه المؤسسة استمرت في الدواوير والأرياف.

نلاحظ من خلال عرض الأبحاث المتعلقة بالمشيخات القبلية، أنّها انحصرت حول مؤسسة الشيخ في بايلك الشرق أكثر من بايلك التيطري وبايلك الغرب وأوطان مدينة الجزائر، وهذا راجع إلى الكمّ الهائل من المصادر الأرشيفية والتاريخية حول بايلك الشرق

مقارنة مع البياليك الأخرى، بالإضافة إلى بقاء مدينة وهران لفترة طويلة تحت الهيمنة الإسبانية، لكن هذه الدراسات حول بايلك الشرق لم تشمل جلّ المشيخات المتواجدة فيه¹.

خاتمة:

تحكمت المصادر الأرشيفية وما وقرته المصادر التاريخية في توجيه هذه الدراسات التاريخية، مع أنها لا تغطي تاريخ ثورة محمد المقراني سنة 1871م وانعكاساتها على الإقليم، واندثار مؤسسة الشيخ المنبثقة والمتشكلة منذ العهد الموحدى والحفصى. إن الإنتاج الاستوغراني حول عائلة المقراني وثورة أحد زعمائها "محمد المقراني" سنة 1871م، كان غائبا ومنعدما بشكل كبير في جامعات قسنطينة، فباستثناء الدراسة المهمة للباحث "العايشي رواجي" حول أسرة محمد المقراني، كان الانشغال الكبير للباحثين الأكاديميين حول الهوية والدولة كمنطلقات وقضايا حساسة، وقد لعب الإشراف دورا كبيرا في هذا الإنتاج، فالعديد من الأساتذة قد وجهوا طلبتهم وفق ما أنتجوه هم في مرحلة الدكتوراه أو الماجستير.

تبقى هذه الدراسات رغم قلة عددها منقوصة من بعض الجوانب، في بعض التخصصات وخاصة التاريخ القديم والتاريخ العثماني، فهذا التخصص الأخير مثلا، تحاشى فيه الباحثون الولوج في الموضوعات الاجتماعية كتفاعلات المجتمع المختلفة من العادات والتقاليد، أو ما يعبر عنه بالتغير الاجتماعي، كما زاد التخوف من قلة المصادر وضرورة التحكم في اللغة العثمانية من عزوف الباحثين عن الإقدام على دراسة الفترة العثمانية بالجزائر وأهمّ الحركات والتغيرات للمجتمعات التقليدية.

كما لوحظ أن عدد الأطروحات المناقشة في جامعة قسنطينة 2- كانت النسبة الساحقة منها في مجال التاريخ المعاصر بنسبة ثلاثة وثلاثين أطروحة من أصل تسعة وخمسين، أو ما يمثل 55,93% من النسبة الإجمالية، وهو ما يبين أن الإشراف قد أثر على الإنتاج الكمي، فأستاذ التاريخ المعاصر عبد الكريم بوصفصاف²، قد أطرّ واحدا وعشرين (21) طالبا من مجموع ثلاثة وثلاثين، وكان توجيهه لدراسة تاريخ الثورة والجوانب الثقافية، حيث أحصينا أربعة عشر (14) أطروحة في هذا المضمار، بالإضافة إلى مواصلة طلبة الماجستير في نفس المواضيع التي تناولوها سابقا. وأغلب الدراسات ركزت على الثورة التحريرية والحركة الوطنية خلال القرن 20م، لاعتبارات كثيرة³.

نعتقد أن الإشراف والتأطير كان له دور كبير في توجيه البحث التاريخي وبالأساس في اختيار مجالات البحث، ويلاحظ أن توجهات البحث تطابقت إلى حد كبير مع خريطة التأطير، بل يمكن القول أن توجه البحث في جامعة قسنطينة 2 ضمن دائرة معرفية معينة مرتبط إلى حد بعيد بمسألة الإشراف، وهي بدورها مرتبطة بطبيعة التكوين الذي تلقاه المؤطرون أنفسهم واختلافه بين مؤطر وآخر.

¹ - يعقوب خديجة، شيوخ القبائل ومؤسسة المشيخة في بايلك الشرق الجزائري والوسط الغربي التونسي من 1700 إلى 1860م، أطروحة دكتوراه الطور الثالث الم دى في تاريخ المغرب الحديث، جامعة قسنطينة 2- عبد الحميد مهري. 2017-2018م، ص 37-38.

² - للأستاذ عبد الكريم بوصفصاف العديد من المؤلفات والمقالات ومنها:

- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931-1945م)، دراسة تاريخية وإيديولوجية مقارنة، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر 1996م.

- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945م، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر 1981م.

- الفكر العربي الحديث والمعاصر محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر 2005م.

³ - يعقوب خديجة، "البحث التاريخي في جامعة قسنطينة: بين أهمية الدراسات ودور التأطير في توجيهها"، مداخلة في الملتقى الوطني للدكتورالبيين حول: الكتابة التاريخية بين التأطير والتأصيل، وانعقد الملتقى بتاريخ 17 أفريل 2018م، بقاعة مخبر الدراسات الحضارية والفكرية، مجمع المخابر، القطب الجديد. جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان.

ثورة 1871م في كتابات لويس رين Louis-Marie Rinn

سيف الدين بوسماحة - جامعة تلمسان

عبد القادر صحراوي - جامعة سيدي بلعباس

تحتل مقاومة محمد المقراني والشيخ الحداد مكانة بارزة ضمن سلسلة المقاومات الشعبية والحركات الثورية الجزائرية، وتعد المقاومة الأكثر اتساعا وشمولية بعد ثورة الأمير عبد القادر، وكان لعائلي محمد المقراني والشيخ الحداد الدور الأساسي في قيادة الثورة وتحمل أعمالها وتبعاتها. فقد كان للزاوية الرحمانية الدور الحاسم في كافة الأعمال القتالية لهذه الثورة الرائدة¹. هذا وقد تناول العديد من المؤرخين الفرنسيين هذه المقاومة من زوايا مختلفة، وهنا تكمن القيمة الحقيقية لهاته الكتابات باعتبار أن بعضهم كان له تجارب شخصية مع محمد المقراني أو ثورته كما هو الحال مع الكولونيل "نيل جوزيف روبان" Nil-Joseph Robin الذي ذكر أنه تعامل مع المقراني شخصيا لما كان ضمن الفرق العسكرية المحاربة لثورته، وكذلك الشأن للرائد "ألفرد دي شيرون" Alfred Du Cheyron قائد القوات الفرنسية في برج بوعريريج أثناء حصار قوات المقراني للمدينة، لكننا نحاول في هذا المقال تسليط الضوء أكثر على ما كتبه لوي رين "L. Rinn"، وهنا نطرح التساؤلات التالية: من هو لويس رين؟ وما هي أهم كتاباته؟ وكيف صور لنا شخصية المقراني؟ وهل يحظى تشخيص لويس رين لمحمد المقراني بنفس التصور في كتابات الضباط الآخرين؟ وما هي تفسيرات هؤلاء الضباط المؤرخين للظروف والأسباب التي دفعت لاندلاع ثورة المقراني سنة 1871م؟.

1- شخصية لويس رين:

لويس ماري رين Louis-Marie Rinn، ضابط بالجيش الاستعماري، ولد بتاريخ 28 مارس 1838م بباريس، تلقى تعليمه الأساسي بمسقط رأسه ليلتحق بعد ذلك بالمدرسة العسكرية سان سير Saint-cyr سنة 1855م ليتخرج منها برتبة ملازم في فاتح أكتوبر 1857م² أين سيلتحق بالفوج 83 للمشاة الذي سيتقرر إرساله فيما بعد إلى الجزائر³، والتي وصلها بتاريخ 05 ماي 1864م⁴، أين سيلتحق مباشرة بإدارة شؤون الأهالي⁵، واشتغل رئيسا للمكتب العربي ببسكرة في الفترة الممتدة من 07 جوان إلى 20 أكتوبر 1870م قبل أن ينقل لمدينة باتنة لنفس الغرض من 20 أكتوبر 1870م وبقي هناك إلى غاية 11 سبتمبر 1871م، فساعدته هذه الوظيفة على أن يكون ذا صلة بأحداث الثورة. كما شارك في عدة عمليات عسكرية لينال بعدها وسام صليب الجوقة الشرفية بتاريخ 20 نوفمبر 1872م⁶.

¹ - بسام العسلي: محمد المقراني وثورة 1871م الجزائرية، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1981م، ص7

² - Narcisse Faucon, le livre d'or d'Algérie : histoire politique, militaire, administrative événement et faits principaux, biographie des hommes ayant marqué dans l'armée, les sciences, les lettres, ETC. de 1830 A 1889, Tome 1 (biographies), challamel et Cie éditeurs, Paris, 1889, p.468.

³ - Patricia M. E. Lorcin, Kabyles, arabes, français: identités coloniales, traduit par: Loïc Thommeret, publications universitaires de limoges (Pulim), 2005, p.333.

⁴ - Narcisse Faucon, Op-Cit, p.468.

⁵ - إدارة شؤون الأهالي أو ما يطلق عليها بمؤسسة المكاتب العربية تجسدت رسميا في عهد الجنرال بيجو Bugeaud بإقراره لنظام المكاتب العربية، وهو نظام إداري فعلي مخصص لإدارة الجزائريين، يشرف عليه ضباط إداريون تمثلت مهمتهم الرئيسية في إدارة الأهالي وإخضاعهم للسلطة الفرنسية اعتمادا على مختلف التشريعات والقوانين والمراسيم التي تفرضها الإدارة المحلية. ينظر: عادل قواسمية، دور المكاتب العربية في تسيير شؤون الأهالي: الإخضاع لسلطة المستعمر 1870م، جريدة الوسط الجزائرية، العدد 5297، الأحد 19 جويلية 2020م، ص9.

⁶ - Narcisse Faucon, Op-Cit, p.469.

وفي سنة 1874م تم تحويله إلى الجزائر العاصمة وهي الفترة التي بدأ فيها الضابط رين بالاختلاط في الحياة السياسية والتعاطي مع شخصيات ذات تأثير سياسي في الجزائر، أمثال الجنرال "سوسي" Saussier الذي سيصبح فيما بعد وزيرا للحربية و"هنري تيرمان" Henri Tirman و"جول غامبون" Jules Gambon الحاكمان العامان للجزائر¹، وبعد خمس سنوات من تحويله إلى الجزائر وبالضبط في 25 فيفري 1879م تم ترقية لويس رين إلى قائد فيلق Chef bataillon برتبة رائد Commandant لتتوالى عليه بعد ذلك المناصب، حيث سيعين رئيسا للإدارة المركزية للشؤون الأهالي (المكتب السياسي سابقا) في 23 جوان 1880م ثم مستشارا للحكومة في 03 مارس 1883م، وهي السنة نفسها التي سيحال فيها للتقاعد²، وبعدها أصبح نائبا لرئيس الجمعية التاريخية بالجزائر العاصمة "أديان باربروجر"³ لينطلق في مسيرة أخرى وهي مسيرة الكتابة والبحث إلى غاية وفاته سنة 1905م.

هذه المناصب الكثيرة لم يكن لويس رين ليحصل عليها لو لم يقدم مجموعة من الأعمال المتعلقة بالجزائر والجزائريين المتنوعة بين التاريخ والإثنوغرافيا واللسانيات والجغرافية والآثار والدراسات الأمازيغية والتاريخ السياسي⁴، وقد تنوع المنتج العلمي لرين من الأعمال المطبوعة بين كتب ومقالات ومدخلات منشورة أهمها:

- l'Algérie assimilée. Étude sur la constitution et la réorganisation de l'Algérie par un chef de bureau.

وقد صدر هذا الكتاب في حدود 168 صفحة⁵ إلا أنه لم يتداول كثيرا آنذاك بسبب القوانين التي تضبط النشر بالنسبة للعسكريين العاملين.

- في سنة 1884م نشر لويس رين كتاب آخر والذي يعد أهم منجزاته وعنوانه بـ:

Marabouts et Khouan, étude très remarquable et très utile sur l'Islam en Algérie.

وهو كتاب من 564 صفحة، طبع من طرف مكتبة أودلف جوردن Adolphe Jourdan بالجزائر العاصمة، ويعتبر من بين الدراسات المتخصصة والدقيقة التي شملت التصوف والإسلام بالجزائر، والذي مثلته الزوايا الدينية والطرق الصوفية المختلفة ورجالها، إذ قدم لنا إحصائيات حول أعدادها ومريديها وبعض أوقافها، وكثيرا ما تشبه دراسته هذه التقارير الإدارية المتعلقة بالاستعلامات والاستخبارات والتي لا تخرج عن الدراسات الكولونيالية حول الجزائر⁶. والحقيقة أن هذا الكتاب جاء نتيجة التنقلات التي قام بها لويس رين بين المدن الجزائرية؛ حيث استطاع من خلالها ربط مجموعة من الصداقات مع بعض شيوخ الزوايا أمثال أحمد التيجاني والشيخ ميسوم علي بن عثمان وبعض المترجمين العسكريين أمثال أرنو⁷.

- في سنة 1885م نشر كتاب آخر بعنوان:

Géographie ancienne de l'Algérie: Les premiers royaumes berbères et la guerre de Jugurtha.

ويقع هذا الكتاب في حدود 82 صفحة، ويندرج في إطار الدراسات التاريخية ذات الأبعاد الجغرافية إذ حاول رين من خلاله ترسيم الحدود الجغرافية للجزائر القديمة⁸.

¹ - Dominique Chevallier, Op-Cit, p.96.

² - Narcisse Faucon, Op-Cit, p.469.

³ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 397

⁴ - صورية متاجر وحنيفي هلايلي: إنتاج المعرفة التاريخية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية في مدونات المجلة الأفريقية: نموذج : بيربروجر- دوفو - دو غرامون- رين، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، مارس 2020م، ص 108.

⁵ - Louis Rinn, l'Algérie assimilée : Étude sur la constitution et la réorganisation de l'Algérie par un chef de bureau arabe, MARLE LIBRAIRE, Constantine (Algérie), 1871.

⁶ - مجدوب مساوي: الزوايا والطرق الصوفية بالصحراء الجزائرية عند لويس رين، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، المجلد 3، العدد الأول، يناير 2020، ص 294.

⁷ - صورية متاجر وحنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص 108.

⁸ - Louis Rinn, Géographie ancienne de l'Algérie: Les premiers royaumes berbères et la guerre de Jugurtha, Adolphe Jourdan librairie, Alger, 1885.

- في سنة 1886م نشر رين كتاب جديد تحت عنوان: "Nos frontières sahariennes, avec carte" في حدود 92 صفحة، وهي دراسة تتناول الحدود الصحراوية للجزائر المستعمرة مع الآفاق المستقبلية للتوسعات الفرنسية فيها، مع تبيان المناطق المعادية، وهنا يخص بالذكر مناطق سيطرة أولاد سيدي الشيخ مع تقديم الحلول والأساليب السياسية والعسكرية لفرض السيطرة الفرنسية على الصحراء¹.

- وفي سنة 1891م نشر لويس رين آخر كتبه والذي يرتبط بثورة المقراني والإخوة الرحمانيين:

Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie.

وهو مؤلف يتكون من 671 صفحة تحدث فيه عن ثورة 1871م بشكل مستفيض، إذ يعد هذا الكتاب أحد أهم المصادر التاريخية التي أرخت لهذه الثورة وزعمائها، بل أن كل من كتبوا عن هذه الثورة سواء من الذين عاصروها أو الذين أتوا بعدها يعتمدون في الأساس على هذا الكتاب، وهو بالطبع أساس دراستنا هذه.

- كما أسهم لويس رين بمجموعة من المقالات نشر أغلبها في المجلة الإفريقية، فقد ساهم بحوالي 67 مقالا حول أربع حقول علمية² لا يسعنا ذكرها كلها، لكن ما يهمنا منها هو مقالان نشرهما يتحدثان عن ثورة 1871م الأول بعنوان:

Deux chansons Kabyles sur l'insurrection de 1871³

والثاني بعنوان:

Deux documents indigènes sur l'histoire de l'insurrection de 1871.⁴

2- شخصيات ثورة 1871م من خلال كتابات لويس رين:

- أسرة المقراني:

تجمع أغلب المصادر والمراجع العربية والأجنبية بأن المقراني قائد ثورة 1871م ينحدر من أسرة شريفة⁵، ولم يشذ لويس رين عن هذه القاعدة فقد استرسل في التفصيل حول جذور المقرانيين، فيذكر أن نسبهم يتصل بنسب أمراء قلعة بني حماد وهاجروا منها في القرن الحادي عشر في أعقاب سيطرة العرب الهلالية عليها، وكانت هذه الهجرة على يد الجد الأول عبد الرحمان، وبالعودة إلى الأمير عبد الرحمان فإنه وكما ذكر لويس رين؛ عقب سيطرة قبائل بني هلال العربية على جبل عياض⁶ انتقل إلى البيبان ثم الشواريح ليستقر أخيرا في قلعة بني عباس التي سيجعلها ابنه من بعده أحمد عاصمة لإمارته الممتدة من واد الساحل إلى غاية الحضنة وينال بذلك لقب سلطان بني عباس⁷.

¹- Louis Rinn, Nos frontières sahariennes : avec carte, extrait de la revue africain, Adolphe Jourdan librairie, Alger, 1886.

²- أنظر جدول: صورة متاجر وحنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص 11.

³- Louis Rinn, Deux chansons kabyles sur l'insurrection de 1871, in R.A, N° 181, Adolphe Jourdan librairie, Alger, janvier - février 1887, pp.55-71.

⁴- Louis Rinn, Deux documents indigènes sur l'histoire de l'insurrection de 1871, in R.A, N° 200, Adolphe Jourdan librairie, Alger, premier trimestre 1891, pp.21-37.

⁵- هذا الاجماع القاطع في النسب عند المؤرخين، جاء نتيجة امتلاك عائلة المقراني لمخطوطات أو سجلات تثبت صحة ذلك النسب، أين تم تقديمها إلى السلطات أو القيادة العسكرية الفرنسية في المنطقة برج بوعريش حسب ما يذكره الضابط دو شيرون وهو ما يؤكد لويس رين في كتابه تاريخ انتفاضة. ينظر:

- Alfred Du Cheyron, Bordj-Bou-Arredidj pendant l'insurrection de 1871 en Algérie : journal d'un officier, Henri Plon imprimeur- éditeur, Paris, 1873, p.15.

⁶- جبل عياض الذي كان يسمى قبل ذلك بجبل قلعة بني حماد وسمي بجبل عياض نسبة إلى قبيلة عياض بن مشرف بن أثيج الهلالية العربية بعد أن سيطرت عليه وغلبت كل القبائل الأخرى ويذكر ابن خلدون في هذا الصدد: "فعياض نزلوا جبل القلعة، قلعة بني حماد وملكوا قبائله وغلبوا على أمرهم وصاروا يتولون جبايتهم ... وسكنوا ذلك الجبل فطوله من المشرق إلى المغرب ما بين ثنية غنية والقصاب إلى وطن يزيد بن زغبة"؛ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مراجعة وضبط خليل شحادة وسهيل زكار، ج 06، دار الفكر، بيروت (لبنان)، 2000م، ص 33.

⁷- Louis Rinn, Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Adolphe Jourdan librairie, Alger, 1891, p.9-10.

بعد أحمد بن عبد الرحمان مؤسس الإمارة، تولى الحكم ابنه عبد العزيز الذي بدأ حكمه بالتحالف مع العثمانيين، يذكر رين أن عبد العزيز ساعد حسن باشا بن خير الدين والعثمانيين في هزيمة سلطان المغرب في ريو سلاو (مالخ) سنة 1550م ولولاه ما كان لينتصر، كما رافق صالح رايس بعد توليه زمام الحكم في حملته سنة 1552م على توقرت وورقلة. هذا التفوق والقوة الظاهرة من جانب عبد العزيز أغضب حسب لويس رين الانكشارية ما جعلهم يكيدون له ويحاولون قتله عند قدومه إلى الجزائر العاصمة إلا أنه نجى بأعجوبة ليفر عائدا إلى إمارته، وبعد هذه الحادثة ودون سابق إنذار شن صالح رايس حملة على قلعة بين عباس لتبدأ بذلك مرحلة جديدة من العداء بين عبد العزيز سلطان بني عباس والعثمانيين انتهت بهزيمة عبد العزيز وقلته وتعليق رأسه فوق باب عزون بالجزائر،¹ لتنتقل الزعامة والسلطة بعده إلى شقيقه أحمد أمقران²، وهو الجد الذي تنتسب إليه الأسرة المقرانية، هذا الأخير هو من سينقل عاصمة الإمارة من قلعة بني عباس إلى بجاية³ والتي ستبقى عاصمة للمقرانيين إلى غاية ثورة 1871م.

وبعد أحمد أمقران تولى الحكم ابنه المنصور المعروف بسيدي الناصر المقراني، كان رجل علم وعبادة، قرب إليه العلماء والمتدينين حتى أصبح ينظر إليه كولي صالح (قديس حسب وصف لويس رين) الأمر الذي أغضب قادة الجيش والتجار الذين مكروا به ونصبوا له كمين وقتلوه. وقد خلف ثلاث أبناء تم انقاذ اثنين منهم الأكبر بتقة والأصغر محمد أمقران، أخذ الأكبر إلى أحواله أولاد هاشم في بجاية وتزوج من أولاد ماضي واستطاع بتلك المصاهرة التقوي واسترداد الإمارة، ومن مميزات هذا الأمير هو معاداته للعثمانيين طيلة فترة حكمه وتخليه عن لقب السلطان أو الأمير واكتفاه بلقب شيخ بجاية⁴ وهو اللقب الذي سيرافق نسله من بعده.

توفي سيدي بتقة شيخ بجاية سنة 1680م، تاركا وراءه أربعة أبناء هم: بوزيد، عبد الله، عزيز ومحمد القندوز، تولى السلطة فيهم الأخ الأكبر بوزيد الذي استمر على نهج أبيه بالعداء المستمر اتجاه العثمانيين إذ هزمهم مرتين ثم عاد لمهادنتهم مقابل دفعهم لضريبة يسمح من خلالها بمرور طوابيرهم العسكرية عبر أراضي دولته، توفي بوزيد المقراني سنة 1734م وترك أربعة أبناء أيضا، وتولى فيهم الحاج بوزيد الحكم بعد تخلي أخيه الأكبر سنا عبد ربه الحكم طواعية، ورغم ما عرف عن الحاج بوزيد من الحكمة والذكاء إلا أنه لم يستطع الحفاظ على السلام بين أخويه عبد السلام وبورنان من جهة، ومع ابن عمه عزيز بن محمد القندوز المقراني من جهة أخرى المتحالف مع العثمانيين الذين استغلوا هذا الخلاف الذين دب داخل الأسرة المقرانية ويوجهوا هزيمة كبيرة لشيخ بجاية الحاج بوزيد وأخوته لتتفرق بعد ذلك جموع المقرانيين في الجبال متخليين عن عاصمتهم بجاية، فيتجه الحاج بوزيد إلى قلعة بني عباس وعبد السلام إلى ونوغة وبورنان إلى جبل بوندة، لكن الأمر لم يطل حتى عاد التحالف بين الإخوة من جديد فهزموا العثمانيين واستعاد الحاج بوزيد السلطة في بجاية⁵.

توفي الحاج بوزيد سنة 1783م وترك وراءه اثنين من الأبناء؛ الأكبر يسمى بوزيد والذي سمح بالسلطة لعمه عبد السلام، وهنا نقف عند قول لويس رين أن تاريخ المقرانيين منذ هذه اللحظة أصبح مجرد تاريخ لصراعات عائلية بين أربع فروع كبرى وهي: أولاد الحاج، أولاد عبد السلام، أولاد بورنان وأولاد القندوز الفرع الأقدم. لكن فرعي أولاد الحاج وأولاد عبد السلام هما من سيقيان متحدين إلى غاية سنة 1826م⁶، ويذكر رين أيضا أن قيادة هذين الفرعين من المقرانيين (أولاد الحاج وأولاد عبد السلام) كانت في

¹ - Louis Rinn, Histoire de l'insurrection ..., Op-Cit, p.12.

² - أمقران هي كلمة أمازيغية تعني الجليل أو العظيم وتعني أيضا الكبير لكن يذكر عثمان سعدي أن هذه الكلمة ماهي في الأصل اشتقاق من الفعل العربي أقرن. وللاطلاع على المزيد ينظر: عثمان سعدي، الأمازيغ "البربر": عرب عاربة وعروية شمال إفريقيا عبر التاريخ، دار الأمة، الجزائر، 2018م، ص 99. وأيضا: علي فهمي خشيم، لسان العرب الأمازيغ: معجم عربي بربري مقارن، مطابع الفاتح، الطبعة الأولى، مصراتة (ليبيا)، 1995م، ص 171.

³ - مزيان وشن: بجاية عاصمة إمارة المقرانيين (ثلاثة قرون من النضال السياسي و الجهاد العسكري القرن 16م-19م)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2005م، ص 86.

⁴ - Louis Rinn, Histoire de l'insurrection ..., Op-Cit, p.13.

⁵ - Ibid, p.14.

⁶ - Ibid, p.15.

بدايات القرن 19م بيد الشيخ بن عبد الله بن بوزيد الذي عيّن ابن أخيه أحمد بن محمد بن بوزيد¹ ملازماً له في حين عيّن قريبه محمد بن عبد السلام جابياً ومحصلاً للضرائب وهو المنصب الذي كان أحمد بن محمد المقراني يتوق إليه ليدخل أبناء العمومة في صراع آخر سيتخلله نوع من الهدنة بإعلان الجهاد عند احتلال الفرنسيين العاصمة سنة 1830م².

- الخليفة أحمد المقراني ومسألة الخضوع:

الخليفة أحمد بن محمد بن بوزيد المقراني من أولاد الحاج، وصفه لويس رين بأنه سيد مجانة وقلعة بني عباس يدعمه في بلاد القبائل الإخوان الرحانيين³، ورغم أن المقراني الأب كان سيداً لمجانة في نهاية العهد العثماني وباعتراف آخر بايات قسنطينة أحمد باي، إلا أنه تحصل على لقب الخليفة بعد قبوله الخضوع لسلطة الاحتلال بمقتضى مرسوم 30 سبتمبر 1838م⁴، وهنا يجب علينا الخوض في موقف هذا الرجل من السلطة العثمانية والإدارة الاستعمارية، فحسب رين ظل أحمد المقراني يساند أحمد باي إلى آخر أيام مقاومته ولولا صراعه مع ابن عمومته محمد بن عبد السلام المقراني ما كان ليسلم للفرنسيين، هذا الأخير الذي استغل انشغال أحمد المقراني بالقتال مع أحمد باي للاستلاء على مجانة وما زاد من الطين بلة قيام الأمير عبد القادر بتعيينه خليفة له على المنطقة الأمر الذي أغضب أحمد المقراني وجعله يتصل بالفرنسيين ويقبل تابعيته لفرنسا في مقابل دعمهم له في استرجاع سيادته على مجانة⁵.

وعليه، يمكن القول أن أحمد المقراني قد دفع مضطراً للتحالف مع الفرنسيين وهو من عاداهم وقتلهم سبقاً بل فضل البقاء بجانب أحمد باي إلى آخر أيامه رغم انهزامه وسقوط قسنطينة من يده، وهو ما يعترف به لويس رين نفسه بالقول: "تبع أحمد المقراني الباي المهزوم والهارب لبعض الوقت، إذ عرض عليه اصطحابه إلى قلعة بني عباس أو جبل المعاسيد؛ لكن الباي فضل أن يثق في بن قانة أو يلجأ إلى جبل الأوراس⁶..."، هذا القول دليل كافٍ على أن أحمد المقراني لم يهرع ولم يهرول إلى الخضوع للفرنسيين فقد سبق أن عرض عليه الفرنسيون التحالف لكنه رفضه وحارب إلى جانب العثمانيين عكس ابن عمومته محمد بن عبد السلام الذي طلب الخضوع ولم ينله بعد رفض طلبه من قبل الفرنسيين، وعن هذا الأمر يذكر رين: "في مثل هذا الوقت لم يكن يستطيع الاستمرار طويلاً، فكر أحمد المقراني وهو على أعتاب نفاد موارده في تحالف مع الفرنسيين الذي طلبه ابن عمه دون جدوى قبل ثماني سنوات..."⁷ هذا الترفع وعدم التخلي عن أحمد باي رغم الهزيمة جعل أحمد المقراني يكسب احترام الضباط الفرنسيين ويدفعهم للانتظار بفارغ الصبر موافقته على التحالف معهم، إذ يُذكر أن المارشال فالِي Valée الحاكم العام للجزائر (1837-1840م) أراد منح منصب خليفة مجانة لبْن هِنَانِي بن الياس لكنه ثريت وتماطل ليحتفظ به لأحمد المقراني مفضلاً إياه عن سابقه في مقابل أن يحضر المقراني ويقدم نفسه شخصياً بقسنطينة⁸.

¹ - أحمد بن محمد بن بوزيد هو أب محمد المقراني وبومزراق المقراني قائدا ثورة 1871م، وهو من فرع أولاد الحاج المقرانيين. ينظر الملحق رقم 02 شجرة النسب المقرانية.

² - Louis Rinn, Histoire de l'insurrection ..., Op-Cit, p.16.

³ - Louis Rinn, Deux chansons kabyles ..., Op-Cit, p.55.

⁴ - صدر في هذا اليوم (30 سبتمبر 1838م) ثلاث مراسيم منظمة للحكومة في مقاطعة قسنطينة حيث حدد المرسوم الثاني من المراسم الثلاثة تقسيم إداري للمقاطعة قسنطينة في شكل ثلاث مناطق كبرى في إطار إدارة غير المباشرة وهي كالتالي: منطقة الساحل تضم جميع القبائل القبائلية والعربية في شمال قسنطينة واقعة بين جيجل وعناية وضع على رأسها الخليفة بن عيسى، منطقة فريجوة تمتد من غرب قسنطينة إلى غاية واد السلام وسطيف وعلى رأسها الخليفة بن العمالوي، أما مجانة فتتمتد من غرب سطيف إلى غاية مقاطعة التيطري على رأسها وضع أحمد المقراني، أما بالنسبة لقبائل الجنوب الشرقي تم تشكيل ثلاث قيادات هي: الحنانشة، الحراكنة وعامر الشراقة؛ ينظر:

- Charles-Robert Ageron, Administration directe ou protectorat : un conflit de méthodes sur l'organisation de la province de Constantine (1837-1838), Revue française d'histoire d'outre-mer, tome 50, n°178, premier trimestre 1963, p.31.

⁵ - يحي بوعزيز: ثورة 1871م (دور عائلي المقراني والحداد)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ص 48-50.

⁶ - Louis Rinn, Histoire de l'insurrection ..., Op-Cit, p.20.

⁷ - Louis Rinn, Histoire de l'insurrection ..., Op-Cit, p.21.

⁸ - Charles-Robert Ageron, Op-Cit, p.31.

يصف الكولونيل "روبان" Robin أحد الضباط الذين تعاملوا مباشرة مع عائلة المقراني، تنصيب أحمد المقراني خليفة على بجانة بالقول: "وأعطاه المرسوم الملكي الصادر في 30 سبتمبر 1838م لقب خليفة بجانة بنفس الشروط التي كانت موجودة في زمن الأتراك، ووفقاً لبنود هذا المرسوم فإن الخليفة لا يتبع سوى القائد العام لقسم قسنطينة. لم يكن الاتفاق المبرم مع الحاج أحمد المقراني عملاً يبعث على السرور، فالأمر الملكي كان عقدًا مجمعاً ألزم الطرفين بعضهما ببعض..."¹ من خلال الجملة الأخيرة نفهم أن الخليفة أحمد المقراني نال ما لم ينله أحد من الجزائريين ممن خدموا فرنسا في السنوات الأولى للاحتلال، الأمر الذي لم يكن يعجب بعض الضباط العسكريين كما هو الحال مع هذا الكولونيل، فهذا التعيين لم يكن مصدره جنرالاً أو حتى الحاكم العام للجزائر ليطمئنه فيما بعد من طرف قيادة الجيش الإفريقي متى رأت ضرورة لذلك، وإنما مصدره ملك فرنسا بذاته لهذا أحس بعض الضباط الفرنسيين الكبار كأنهم مقيدون أمام السلطة الجديدة لأحمد المقراني وربما في تقديرنا أنه السبب الذي سيجعل القيادة العسكرية الفرنسية في الجزائر لا تعيد منح هذا المنصب إلى ابنه من بعده (محمد المقراني) خاصة أن مرسوم 30 سبتمبر 1830م لم يذكر أبداً بأن منصب الخليفة هو منصب وراثي في عائلة أحمد المقراني.²

لكن، ورغم كل هذا، فالحقيقة التي يقتضي بنا الواجب ذكرها أن مسألة التحالف كما تطلق عليها الكتابات الفرنسية بين أحمد المقراني والإدارة الاستعمارية تبقى مجرد خضوع ساهم بشكل كبير في بسط النفوذ الاستعماري لفرنسا على الجزائر وهي النقطة التي يؤكد لنا المترجم العام للجيش الإفريقي "لورون شارل فيرو" Laurent-Charles Féraud: "في الوقت أننا لم نكن نعرف البلاد مطلقاً ولا نملك وسائل العمل الكافية لبسط نفوذنا على غرب المقاطعة (يقصد قسنطينة)، قدم لنا الخليفة أحمد المقراني خدماته التي كانت لنا ذات فائدة لا يمكن إنكارها وسيكون من الظلم عدم الاعتراف به اليوم رغم الخيانة الأخيرة لأولاده (يقصد محمد ثم بومزراق)، على رأس قوميته ضمن الأمن لفترة طويلة في هذا الجزء من البلاد كما قدم خدمات جليلة للطوابع الاستكشافية التي كان عليها العمل ضد ممثلي الأمير عبد القادر والأشراف المزعومين..."³.

في ختام حديثنا عن الخليفة أحمد المقراني، نقول أنه مهما كانت الظروف والأسباب التي دفعت به للانحياز إلى الجانب الفرنسي، فإن هذا الخضوع سيؤثر على ما سبقه من الفضل والجهاد في القتال رفقة أحمد باي وعدم التحلي عنه حتى وهو منهزم، تلك الخيانة وما تحمله هذه الكلمة من معاني قاسية سيدفع ثمنها أحمد المقراني في حياته حيث سيصدر المرسوم الملكي المؤرخ بـ 15 أفريل 1845م والذي سيجعل الخليفة أحمد المقراني خاضعاً لأوامر ضابط سامي قائد الدائرة⁴ أي أنه سيصبح مقيداً بعدما كان حاكماً شبه مستقل في إدارة الأراضي تابع له، كما سيتم نزع قيادة العديد من المناطق عنه كقيادة أولاً نايل، الأمر الذي جعله يحس بأنه تعرض للخيانة والظلم.

– الباشا محمد المقراني قبل الثورة:

يذكر لويس رين أن محمد بن الحاج أحمد المقراني لم يكن أقل خزيًا من الموقف الذي تعرض له والده بعد أن خدم فرنسا بإخلاص، فقد كان يأمل في الحصول على ميراث أبيه من لقب ومزايا... وكان يقول أحياناً وبشيء من المرارة أنه كان يبحث عن خلق ألقاب شخصية يحصل من خلالها في يوم من الأيام على وضع والده،⁵ وبالعودة إلى الحاج محمد المقراني في الكتابات الفرنسية

¹ - Nil-Joseph Robin, la mort de Mokrani, In Mémoires de l'Académie de Nîmes, VII Série - Tome XXII, Imprimerie Clavel ET Chastanier, Nîmes (France), 1899, p.164.

² - Ibid, p.165.

³ - Laurent-Charles Féraud, Histoire des villes de la Provence de Constantine (Bordj-Bou-Arredj), In Recueil des notices et mémoires de la Société Archéologique de la Province Constantine, 15eme volume, L. Arnolet Libraire-Editeur, Constantine (Algérie), 1872, p.316.

⁴ - Louis Rinn, Histoire de l'insurrection ..., Op-Cit, p.29.

⁵ - Ibid, p.34.

المعاصر له، سنجد أن هذا الرجل كان يحظى باحترام وتقدير منقطع النظير لدى هؤلاء خاصة الضباط العسكريين حيث يصفه لويس رين في مقاله (وثيقتان أهليتان حول انتفاضة 1871م) بأنه سيد عظيم معتر جداً بنبالته. أما الكولونيل روبان الذي يذكر أنه تعامل معه مباشرة، فيصفه بالقول: "كان الحاج محمد المقراني رجلاً ذو ذكاء وبراعة، رائع ومهذب، تحركه المشاعر النبيلة وشهامة الفرسان، كان هو النوع المتميز للسيد العظيم للخيمة. دعاه الإمبراطور إلى رفقة في رحلات الصيد إذ كان يستقبله دائماً باهتمام ملحوظ"¹. هذه الصفات المميزة هي ما جعلت محمد المقراني يحظى باحترام وتقدير الإمبراطور نابليون الثالث وينال عنده المكانة العالية، ويمكن القول بأن هذا التقدير المميز من طرف الإمبراطور لم تحظ بمثلته أي شخصية جزائرية أخرى سوى الأمير عبد القادر.

لعل تفسير هذه الخطوة الكبيرة لمحمد المقراني في البلاط الإمبراطوري لم يكن فقط بسبب صفات محمد المقراني الأخلاقية وإنما الخلقية (جسدية) أيضاً، وفي هذا الصدد يقول "بول غافرال" Paul Gaffarel: "تم إغراق المقراني بخدمات إمبراطورية. نال وسام قائد جوقة الشرف، وقد تمت دعوته إلى رحلات الصيد، وعومل من قبل نابليون الثالث ليس كزعيم للقبائل وإنما كفرد من مونتيمورنسي (أحد أرقى السلالات الفرنسية النبيلة). كان لديه عيون زرقاء وشعر أشقر، وهذا النوع قليل في الجزائر... كان يحمل أسلحة وعلماً أبيض مطرز بالذهب، لقد كان يقوم بحركات سيد عظيم ويرتدي دائماً ملابس فاخرة ويمتطي خيولاً رائعة، وكان دائم الافتخار بنسبه المزعوم"². ومن هذا القول نستنتج أن تحصل محمد المقراني على مكانة مرموقة في البلاط الإمبراطوري لم يكن عائداً فقط لصفاته الأخلاقية وإنما أيضاً راجع لصفاته الخلقية المشابهة لصفات الأوربيين، وهو ما يثبت لنا النظرة العنصرية التي يتميز بها عموم الفرنسيين.

الملاحظ أن جميع الكتابات الفرنسية سواء العسكرية منها أو المدنية كلها اجتمعت على وصف الحاج محمد المقراني بأحسن وأفضل الأوصاف لكن استوقفنا وصف المحامي "جين جول كلامونجرون" Jean-Jules Clamageran وهو أحد المعاصرين للباشاغا وثورته، حيث يقول: "... من أصل نبيل، قوي، في مقتبل العمر، ذكي، نشط وطموح، أغدق بشرف الإمبراطورية، مثقل بالديون نتيجة لبذخه، أطلق عليه لقب باشاغا..."³. لكن الغريب في هذا الوصف أن صاحبه قد نعت المقراني بالمدين نتيجة للبذخ الزائد، وهذا وصف غريب ومنفرد فحتى التقارير الرسمية الفرنسية تفند هذه الصفة وتكذبها قطعاً، حيث ترى أنه من الخطأ اعتبار المقراني رجلاً مدنياً؛ لقد بلغ دخله الشرعي أكثر من 100 ألف فرنك وربما 200 ألف فرنك، وكان لديه 10% من مداخيل الضرائب، كما كان يملك هو وعائلته أكثر من 20.000 هكتار إضافة إلى هدايا كانت تصله من جميع الأنحاء.⁴

– أحمد بومزراق وعزيز بن الحداد:

قام لويس رين في إحدى مقالاته عن ثورة 1871م بنشر نص أغنيتين قبائليتين لمؤلف مجهول ترجمتا إلى الفرنسية،⁵ ويحتوي نص الأغنيتين على موضوع أساسي هو عبارة عن قذف وسب لشخصيتين رئيسيتين في انتفاضة 1871م هما أحمد بومزراق والشيخ الحداد. ومن خلال ترجمة النص نلاحظ تطاولاً على هذين البطلين، رغم اعتراف رين بقيمة وشرف أحمد بومزراق الذي انهزم في عدة مواقع وفضل الانسحاب جنوباً. إلى أن قبض عليه في 20 جانفي 1872م بالقرب من ورقلة، ويعتبر رين بومزراق عدواً لفرنسا إلا أنه يعترف بأنه كان محترماً من الفرنسيين، ويشير إلى أن الشيخ الحداد الذي بلغ من العمر 80 سنة كلف ابنه سي عزيز بالدعوة إلى

¹ - Nil-Joseph Robin, L'insurrection de la Grande Kabylie en 1871, Henri Charles-Lavauzelle éditeur militaire, Paris (France), 1901, p.97.

² - Paul Gaffarel, L'Algérie: histoire, conquête et colonisation, Firmin Didot et Cie édition, Paris (France), 1883, p.310.

³ - Jean-Jules Clamageran, l'Algérie: Impressions de voyage, la revue politique et littéraire, N° 27, Librairie Germer Baillière, Paris (France), juillet 1873, p.731.

⁴ - Annales de l'Assemblée Nationale: Enquête sur les actes du gouvernement de la défense nationale (second partie) - rapport sur Algérie, Tome 26, imprimerie-et-librairie-du-journal-officiel, Paris (France), 1875, p.827.

⁵ - Ibid, p55

الجهاد، وتمدح الأغنيتين القائد الفرنسي "سوسي" الذي قضى على ثورة الشيخ الحداد. هذا القائد الذي يشبه في نص الأغنية الثانية الرحمانين بالدروز الذين عرف عنهم ترمتهم وتشبههم بأرائهم حسب ادعاء رين¹.

3- ظروف ثورة 1871م في كتابات لويس رين:

يذكر لويس رين أن العلاقة بين الحاج محمد المقراني والإدارة الاستعمارية كانت تسير على ما يرام إلى غاية منتصف سنة 1857م، أين ستفرض عليه مجموعة من الإجراءات والقوانين الجديدة والتي كانت تصدر بين الحين والآخر كفرض الضرائب عليه وعلى قبيلته ومخزنه مع التقليل من صلاحياته القيادية والتي كان يرى الفرنسيون أنها في صالح تقدم وتطوير الإدارة الاستعمارية في الجزائر، في حين أن محمد المقراني كان ينظر إليها دائما بنوع من الحذر وفي بعض الأحيان بالريبة، لكن كان التقدير والامتنان الذي يحصل عليه من الامبراطور نفسه هو ما جعله يشعر بالاطمئنان والراحة².

- مسألة القروض والديون:

في سنتي 1865-1866م حل بالجزائر جفاف كبير أدى إلى انخفاض كبير في المحاصيل الزراعية تلتها غزوات هائلة من الجراد دمرت ما تبقى منه، لتأتي سنة 1867م بمزيد من الجفاف والكوارث بانتشار الأوبئة مع قدوم الكوليرا من تونس ثم تبعها التيفوس ليتحول هذا العام إلى تاريخ فاصل لدى الجزائريين الذين أطلقوا عليه "عام الشر"³. هذا الأمر دفع بشيوخ القبائل وبالحاج محمد المقراني إلى فتح مخازنه للحبوب أمام السكان وتقديم المساعدة القصوى بالمال حتى لم يتبقى لديه تقريبا شيء الأمر الذي وصل به إلى الاقتراض في ظل فشل الإدارة الاستعمارية في مواجهة تلك الكوارث الطبيعية واقتراح إجراءات ناجعة لتجاوز الأزمة، أمام هذا العجز لم تجد الحكومة الفرنسية حلا سوى تشجيع التجار الكبار وأرباب العمل على تقديم قروض للشعب لكن هؤلاء قبلوا بتقديم القروض فقط للأعيان القادرين على تقديم الضمانات الكافية لتسديدها، وكان من جملة من تم إقراضهم الحاج محمد المقراني بمبلغ يقدر بـ 320 ألف فرنك وهو المبلغ الذي سيرتفع إلى 500 ألف فرنك بالفوائد والخدمات من طرف السيد "مسرين" أحد قدامى ضباط المكاتب العربية وبضمان من الحاكم العام الماريشال "ماكماهون"، وتم أخذ المبلغ عن طريق توقيع السيد مسرين Mesrine لسندات تم انشاءها من قبل محمد المقراني يتم اقتطاعها من قبل بنك الجزائر والجمعية العامة الجزائرية.

وفي سنة 1870م عاد الجراد الأصفر ليغزو مرة أخرى المناطق الشمالية للبلاد وكانت أراضي المقراني جزءا منها، الأمر الذي سبب له خسائر فادحة ما دفع بنك الجزائر والجمعية العامة للمطالبة بقيمة السندات من المقراني عن طريق السيد مسرين وفي حالة عدم قدرته على الدفع فإنه سيتم حجز ممتلكات السيد مسرين وممتلكات عائلته، وقد جاءت هذه المطالبات من البنك والجمعية العامة بعد رحيل الماريشال ماكماهون لقيادة أحد الفيالق الفرنسية ضد الألمان⁴، وعلى ما يبدو فإن محمد المقراني لم يكن يملك السيولة الكافية لدفع ما عليه من قروض، وهنا نجد أن الكثير من المصادر الفرنسية تؤكد أن أحد الأسباب الرئيسة لثورة المقراني على الإدارة الفرنسية بالجزائر أنه لم يستطع دفع ما عليه من القروض، وبذلك فهي عبارة عن تحرب ضريبي بغطاء ثوري.

وهنا يقدم لنا الكولونيل روبان شهادته حول هذا الموضوع إذ يقول: "يقال أن المقراني كان لديه مشاكل مالية وأن الانتفاضة كانت بالنسبة إليه مجرد تصفية حسابات. صحيح أنه كان لديه خلال المجاعة -وكان ذلك في صالحه- قروض مضمونة لشراء بذور الزراعة موجهة للأهالي التابعين لقيادته مقابل رهن جميع ممتلكات عائلته، لكن الدين الذي بلغ 500 ألف فرنك شاملا جميع الفوائد لم يكن أعلى من موارده وعلاوة على ذلك كان له حق الرجوع إلى المدينين الحقيقيين"⁵، وهذه الشهادة دليل قاطع على أن المقراني لم

¹ - (L) Rinn :Deux chansons..., op.cit, p60-59, 67

² - Louis Rinn, Histoire de l'insurrection ..., Op-Cit, pp.34-36.

³ - Ibid, p.50.

⁴ - Annales de l'Assemblée National, Op-Cit, p.826.

⁵ - Nil-Joseph Robin, L'insurrection de la Grande Kabylie en 1871, Op-Cit, pp.98-99.

يكن ذلك الشخص المفلس والمدين بشكل يبعث على اليأس حتى يقوم بانتفاضة ويثور من أجل المال، وحتى تقرير المجلس الوطني الصادر سنة 1874م، والمتضمن شهادة السيد أوغيسست واريي Auguste Warnier كدّب فيها أن تكون هذه القروض سببا في ثورة الباشاغا محمد المقراني: "في الوقت الذي قدم فيه المقراني رهنا عقاريا للسيد مسرين على جميع ممتلكاته، لم يكن المبلغ أكثر من 500 ألف فرنك والذي لا يساوي ثمن شراء بيت للمتعة في ضواحي الجزائر، من أجل أن يقدم السيد مسرين المال المطلوب، وأشدّ بالمناسبة، أن رجلا يفترض به أنه مدين وأنه على وشك الثورة، لا يدفع دينه ثم يشتري ملكية زراعية والتي لن يسكنها وتقع على أبواب العاصمة أين ستكون مصادرها لا تشكل أي صعوبة. الشراء في هذا المجال يثبت العكس أن الباشاغا المقراني أراد العيش بسلام... وبالنسبة لسيد أهليّ عظيم، يعيش وسط أراضيهِ وخدمه ينتجون كل ما يحتاجه، المقراني كان رجلا غنيا ولم يكن رجلا مدينا"¹. ويجب التنبيه إلى أن هذه الشهادة صادرة عن رجل معروف أنه ممثل للمعمرين الأوربيين ودائم الدفاع عن مصالحهم ضد مصالح الجزائريين.

لا يمكننا إنهاء الحديث حول مسألة القروض والديون دون توضيح رأي لويس رين حول هذه القضية، إذ يقول: "دفع هذا الرهن العقاري العام الناس إلى الاعتقاد بأن الباشاغا قد تحطم في ذلك الوقت وأن اليأس ألقى به في ثورة، وهذا تقدير غير دقيق لأن رأسمال الباشاغا ودخله المشروع تركوا له، على الرغم من ديونه التي كان سيتم سدادها عاجلاً أم آجلاً من قبل السكان الأصليين الذين تم إنقاذهم، ثروة كبيرة تتناسب مع عاداته الفاخرة والحياة الطبيعية لسيد الأهالي..."²، والحقيقة أن اعتبار مسألة القروض والديون من أسباب قيام ثورة 1871م نجدها تتكرر في مصادر المدينين ثم من تبعهم بعد ذلك من المؤرخين، هؤلاء الذين لم يعرفوا أو يتعرفوا على المقراني بشكل شخصي، في حين أن مصادر العسكريين لم تذكر أبداً أن مسألة القروض كانت أحد الأسباب التي دفعت الحاج محمد المقراني إلى إعلان الثورة بل تفند ذلك. وهنا يتبين لنا الفرق بين المصادر العسكرية التي احتكت بالمقراني وثورته مباشرة وبين المصادر المدنية التي أخذت الروايات مسموعة وأعملوا فيها تفسيراتهم الشخصية دون أدنى اعتبار للموضوعية والأمانة العلمية التي تتصف بها الكتابة التاريخية.

– إقرار النظام المدني:

بتاريخ 09 مارس 1870م قررت الهيئة التشريعية الفرنسية تطبيق النظام المدني في الجزائر وإحلاله بدل النظام العسكري، ولا تخفي المصادر الفرنسية للضباط العسكريين أن إقرار النظام المدني في الجزائر قد أثار هلع الأعيان وشيوخ القبائل الذين كانوا يشغلون مناصب رسمية من قبل الإدارة الاستعمارية، حيث يذكر لنا الكولونيل روبان أن الحاج محمد المقراني تألم وحزن كثيرا لسقوط الإمبراطورية وما زاد من حزنه هو صدور مرسوم 24 أكتوبر 1870م بشأن توسيع مناطق الحكم المدني في الجزائر، والذي جعل من أراضي المقراني جزءا منها وأصبح الباشاغا لا يستبعد أن يصبح نائبا لرئيس بلدية برج بوعريريج وهو من كان سيدا لمجانة، إذ أنه بمجرد إعلان هذا القرار، قام المقراني بتقديم استقالته من منصبه لكنه سحب تلك الاستقالة بطلب من الحاكم العام الماريشال ماكماهون متحفظا على حقه في الاستقالة مرة أخرى في حال ما تم المضي في تنفيذ قرار الهيئة التشريعية والذي كان لا يزال مجرد إعلان فقط³.

يقول السيد واريي Warnier في محضر شهادته حول ثورة المقراني: "كان من الواضح أن السلطة المدنية كانت ستحترمه على الدوام بقدر المستطاع، لكن في اليوم التالي لـ 4 سبتمبر لا بد أن المقراني كان قلقاً لأنه لم يكن يعرف شخصياً أيّاً من رؤساء الحكومة الجديدة، وكان يجب أن يطمئن في هذا الصدد. الأمر الذي لم يتم القيام به..."، وهذا الكلام يثبت حقيقة خوف المقراني من النظام المدني الجديد ويثبت أيضا حقيقة أن الحكومة الجديدة لم تقم بدورها بتقديم الضمانات اللازمة لزعماء وأعيان الأهالي،

¹ - Annales de l'Assemblée National, Op-Cit, p.827.

² - Louis Rinn, Histoire de l'insurrection ..., Op-Cit, p.84.

³ - Nil-Joseph Robin, L'insurrection de la Grande Kabylie en 1871, Op-Cit, p.98.

والحقيقة أن المقراني لم يكن خائفا من القرار نفسه وإنما من النتائج التي ستليه لكنه رغم ذلك لم يكن يفكر في الثورة على فرنسا وهو الأمر الذي يذكره الضباط العسكريون في كتاباتهم، رغم أنهم يشددون على القلق الكبير الذي انتابه من هذا النظام الجديد في ظل المطالب المتزايدة للمستوطنين الأوربيين الذين كانوا يرون أحقيتهم بأن يصبحوا سادة للجزائر، وهو ما يعترف به الرائد دي شيرون في قوله: "كان المستوطنون الأوربيون، أو على الأقل الذين يسكنون قسنطينة وسطيف وبرج بوعريريج، يرغبون في أن يروا زعماء العرب أصحاب الأرض التعسفيين، تلك الأرض التي يجب أن تكون لهم في المستقبل، كانوا ينظرون إلى ثروة الباشاغا بعيون الحسد والغيرة، فقد وضعوه في وضعية شك مؤلم حيث وجدوا في صحفنا صدى لتطلعاتهم ومخاوفهم. تلك المقالات في الصحف تم الاطلاع عليها من قبل زعماء الأهالي، أظهرت لهم أن فترة حكمهم قد انتهت وأن الاطاحة بسلطتهم ستكون نتيجة حتمية لتطبيق النظام المدني ..."¹.

وهنا نلمس أن الرائد دي شيرون يريد أن يظهر أو يبين دور المستوطنين الأوربيين وصحافتهم في تأجيج الوضع والدفع بالمقراني إلى الثورة من خلال تصوير النظام المدني بأنه نهاية للزعامات والقيادات الأهلية القديمة على عكس النظام العسكري الذي يقوده الضباط، هؤلاء الذين كانوا يقدرهم الزعماء والقادة المحليين ويعرفون كيفية التعامل معهم. لكن في المقابل نجد أن كتابات المدنيين المعاصرة لثورة المقراني والتي كانت تمثل باختصار رؤية المستوطنين الأوربيين في الجزائر، توجه أصابع الاتهام الصريح إلى هؤلاء الضباط العسكريين وتتهمهم بالتخاذل والتقاعس في مواجهة نوايا الباشاغا المقراني، والتي حسبهم ظهرت وقت اعلان الهيئة التشريعية لتطبيق النظام المدني في الجزائر أي مباشرة بعد 09 مارس 1870م، ومن هؤلاء إميل تويي Émile Thuillier الذي يذكر في كتابه أن المقراني بدأ بالتسلح منذ تصويت الهيئة التشريعية تحسبا لإقامة النظام المدني، كما اتهمه بتحويل جزء من الأموال التي اقترضها من أجل شراء الحبوب اللازمة للبذور لزيادة امداداته من البارود، ليذكر أيضا أنه أنفق أكثر من 200 ألف فرنك في شراء خيول الحرب حتى أصبح محتكرا لهذه الحيوانات التي اختفت من الأسواق لفترة معينة.²

يذهب تويي بعيدا إلى توجيه الاتهامات للضباط العسكريين من خلال مجموعة من التساؤلات والتي يجيب عنها بنفسه حسب تفسيراته، فيقول: "لكن لماذا لم يقوموا باتخاذ أي اجراء مناسب للحد من هذه الاستعدادات، هل يمكن أن ندعي أنهم فسروا هذه الاستعدادات من خلال الضرورة المزعومة التي وضع فيها المقراني للدفاع عن نفسه ضد مشاريع العداء التي كان عبد السلام قائدا لها؟ لكن عبد السلام لم يكن يتسلح ... على الأقل ظاهريًا، وإذا افترضنا أنه كان يتسلح، ألا ينبغي للسلطة العسكرية ولأسباب أكثر جدية ألا تبحث عن الدافع الحقيقي لمثل هذا النوع من الأعمال؟ ... إليكم التفسير الأكثر منطقية للجمود الغريب للحكومة العسكرية في هذا الأمر الخطير:

إذا كان ظهور النظام المدني يمثل تهديدًا بالدمار للمقراني، فهو أيضا كان حتمية لموت النظام العسكري، أو أن النظام العسكري كان مطلعًا تمامًا على مشاعر المقراني ونواياه فيما يتعلق بالنظام المدني وربما لم يكن يهمله على الإطلاق قيام هذا الأخير بتمرد صغير"³، ومن هنا نلمس الاتهام الصريح من هذا الرجل للنظام العسكري وضباطه في الجزائر لدفع المقراني للثورة من خلال علمهم المسبق بنوايا المقراني وتركه يتخذ الاستعدادات اللازمة للثورة.

وعن هذه الاتهامات للنظام العسكري وضباطه حول ترك المقراني يقوم بالتسلح يرّد الملازم شارل ديل Charles D'ille بالقول: "تم إرسال للسيد الحاج محمد المقراني عدة مئات من البنادق المحسنة بحجة الحفاظ على الهدوء في دائرته، حتى أننا لم نواجه أي

¹ - Alfred Du Cheyron, Op-Cit, pp.18-19.

² - Émile Thuillier, Le Royaume arabe devant le jury de Constantine, typographie A. Robert et C, Constantine (Algérie), 1873, p.24.

³ - Ibid, p.25.

صعوبة في منحه إياها، لم نجراً أبداً على الشك في ولاء المقراني لأنه كان مدين كثيراً لفرنسا¹، ولم ينكر الملازم ديل علم القيادة العسكرية الفرنسية في الجزائر بتلك الاستعدادات والتسلح الذي يقوم به المقراني لكن في المقابل يفسر سماحهم بذلك وعدم تدخلهم بالثقة الكبيرة التي كان يتمتع بها الباشاغا المقراني لديهم.

أما الرائد "دي شيرون" فيرد بدوره على تلك الاتهامات باتهامات صريحة للمستوطنين الأوروبيين والنظام المدني بدفع المقراني للثورة فيقول: "أثناء حربنا مع بروسيا، رأى أن جنرالنا يهاجمون بعنف من قبل صحف المستعمرة، عندما رأى أن مبدأ السلطة يكاد يدمر في نفوسهم، عندما جاءت الجمهورية أخيراً وهي في نظره حكومة ضعيفة، سمحت بالتحريض في شوارع مدننا وسمحت للجان الدفاع بوضع الجميع تحت المسائلة سواء في الجزائر أو في المتروبول، سمح لنفسه بالقول لمن حوله أنه لم يعد هناك فرنسا، لم يعد هنالك جيش، إذ أصبح يمكن للمحامي أن يصبح وزيراً للحرب"²، وهذا الكلام من الرائد دي شيرون لا يوجه اتهام للمستوطنين والنظام المدني بدفع المقراني للثورة فقط بل يتهمهم بصراحة بإضعاف قدرات الجيش الفرنسي بأكمله في الجزائر وتخطيم معنويات ضباطه الكبار.

أما لويس رين الضابط السابق فلا يخفي هو الآخر اتهامه للمستوطنين الأوروبيين بتأجيج الأوضاع في ظل تخوف المقراني من النظام المدني خاصة بعد سقوط الإمبراطورية واستلاءهم على السلطة في الجزائر، إذ يقول: "من أجل طمأننتهم (يقصد الزعماء والأعيان الجزائريين)، كان من الضروري التزام الهدوء والاحترام، وإظهار لهم أن مبدأ السلطة بقي كما هو عندنا على الرغم من سقوط نابليون الثالث، لكن قد حدث العكس حيث سيطر هذان الحمى الثورية في الجزائر العاصمة وقسنطينة على بعض من المتعصبين الذين على الرغم من جهود الضباط والأشخاص الطيبين أمثال وارنيه Warnier ولوسيت Lucet وآخرون، أعطوا للأهالي المذهولين مشهداً لا يصدق عن قادة ومسؤولين فرنسيين غير معترف بهم، مهانون ومعتقلون أو مرحلون. إن رعايانا (يقصد الكولون) الذين بتقليد ومزاجية مدفوعة بشهوة السلطة، رأوا التهديد والإهانة ممزوجان مع التهرب من العقاب في قادتهم الوراثيين أو التقليديين (يقصد النبلاء) وفي الضباط الفرنسيين بشكل خاص..."³.

صور رين حالة الارتباك المفزع الذي ساد بين الجزائريين وزعماءهم جراء الفوضى التي حدثت عقب سقوط الإمبراطورية من جهة، ومن جهة أخرى حجم الخقد الذي كان يكتنه المستوطنون الأوروبيون للقادة الفرنسيين أيام الحكم الإمبراطوري وخاصة الضباط العسكريين الذين حسبهم كانوا عقبة في طريق سيطرتهم على الجزائر، والتي تم أخيراً بعد سقوط الإمبراطورية وإعلان الجمهورية وتطبيق النظام المدني في الجزائر.

- تجنيس اليهود:

تجمع المصادر التاريخية أن مرسوم كريميو بتاريخ 24 أكتوبر 1870م كان بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس، إذ يذكر لويس رين أن المقراني أعلن صراحة أنه لن يخدم النظام المدني وعلى رأسه يهودي بالقول: "أوافق أن أطيع جندياً، لكن لن أطيع أبداً يهودياً أو تاجراً". وعندما ذُكر بوعوده للجنرال دوريو Durrieu، قال: "تعهدت بكلامي إلى رجل، لكن لم أتعهد إلى الحكومة التي خلفته"⁴.

¹ - Charles D'ille, Notes historiques sur le 1er bataillon de la mobile des Bouches-du-Rhone et l'insurrection arabe en 1871, Achille Makaire imprimeur – libraire, Aix-en-Provence (France), 1871, p.61.

² - Alfred Du Cheyron, Op-Cit, p.18

³ - Louis Rinn, Histoire de l'insurrection ..., Op-Cit, p.83.

⁴ - Louis Rinn, Histoire de l'insurrection ..., Op-Cit, p.97.

وفي معرض شهادة "شارل دو بوزات"¹ Charles De Bouzet المفوض الاستثنائي² حول المقراني وثورته؛ ذكر: "في 14 جانفي، تقدم السيد كريميو بإعلان إلى الشعب العربي. النقيب أوليفي Olivier القائد الأعلى لبرج بوعريريج، تواصل مع الباشاغا المقراني الذي كان تحت إمرته. في اليوم التالي، جاء المقراني إلى النقيب ومعه ورقة، قام النقيب بترجمة هذه الورقة التي تقول: لن أطيع أبدا يهوديا، إذا كان جزء من الأرض بين يدي يهودي، فأنا على استعداد أن أطيع سيفاً حتى ولو قطع رأسي لكن ليس يهوديا..."³، وهذه الحادثة سنجدتها تتداول في أغلب مصادر العسكريين الفرنسيين، وبدوره يروي الرائد دو شيرون هذه الحادثة دون تحديد تاريخها بالضبط ودون التفصيل فيها، فيذكر أنه تم إطلاع الباشاغا المقراني بالمرسوم عن طريق النقيب أوليفي ليقر به لكن المقراني كتب جملة في تذييل المرسوم، وهي: "ما يأتيني من يد يهودي لا يمكنني القبول به، أفضل أن أحصل عليه من يد جندي حتى ولو ضربني"⁴.

وهو تقريبا نفس ما ينقله لنا الكولونيل "روبان" الذي يسرد الحادثة بطريقته فيقول: "لم يستطع أن يعتاد على فكرة أن يكون يهودي مترأس مصير الجزائر، وعندما تم إبلاغه بإعلان الموقع من طرف السيد كريميو، الذي كان يهدف إلى تنوير الأهالي بمزايا النظام الجديد، أجاب على هذا البلاغ: إذا كان منصبي في البلد هو أن أعتمد على يهودي، فأنا أتخلي عنه، سأقبل أي شيء من رجل يحمل سيفاً حتى ولو ضربني"⁵. وهذه العبارة الشهيرة للمقراني وإن اختلفت في الكلمات باختلاف رواتها، يبقى معناها واضحاً لا يختلف فيها مفسران، أن الحاج محمد المقراني عبر عن عمق ما كان يجول في خاطره حول مرسوم كريميو وتجنيس اليهود، وهنا نستطيع أن نقول أن نوايا المقراني للثورة بدأت تتجلى منذ تلك اللحظة وأن الثورة واقعة لا محالة وما هي إلا مسألة وقت وأيام معدودات حتى تندلع، وهو ما تم، ففي 27 جانفي 1871م قدم المقراني استقالته رسمياً من منصب الباشاغا للجنرال لالموند Lallemand القائد الأعلى للقوات البرية والبحرية ولكن الأخير رفضها ولم يأبه المقراني للرفض ولم ينصت لجميع المناشدات للتراجع عن هذه الاستقالة، وفي 09 مارس أكد المقراني على استقالته برفضه تلقي راتبه لشهر فبراير وللتأكيد أكثر على هذه الاستقالة قام بقطع أسلاك التلغراف والمواصلات. وبعد أسبوع من ذلك وفي ليلة 16 إلى 17 مارس زحف المقراني نحو برج بوعريريج على رأس قواته ليكون هذا الفعل إيذاناً رسمياً لانطلاقة الثورة.⁶

خاتمة:

نلاحظ من خلال عرضنا لكتابات لويس رين حول ثورة 1871م الكثير من المغالطات التاريخية سعيًا منه للحط من قيمة هذه الثورة العظيمة بقيادة محمد المقراني والشيخ الحداد، وتتمثل مشكلة رين في كونه أرّخ لهذه الثورة من خلال التأريخ لجهود الجيش

¹ - شارل دو بوزات Charles De Bouzet (1817-1883م): أستاذ الفلسفة في ثانوية الجزائر العاصمة، أجبر على الاستقالة لمهاجمته إدارة المارشال راندون في صحيفة البلدية، عمل كصحفي في جريدة الوقت Le Temps قبل عودته إلى الجزائر ليعمل على رأس صحيفة المعارضة المستقلة صدى لقسنطينة écho de Constantine، تم تعيينه محافظاً لوهرا في سبتمبر 1870م ثم مفوضاً استثنائياً مؤقتاً في 17 نوفمبر 1870م. تم استبداله بمحافظ وهران أليكسيس لومبرت Alexis Lambert في 08 فيفري 1871م؛ ينظر:

- Idir Hachi, NNFAQ[N]JURUMI: LENOM KABYLE DE L'INSURRECTION DE 1871, revue Insaniyat, N°82, octobre –décembre 2018, p.103.

² - بعد هزيمة الفرنسية عام 1870م وتولي حكومة الدفاع الوطني، استقبل وزير العدل أدولف كريميو وفود المستوطنين الأوربيين من الجزائر والتي تحته على إنجاز إصلاحات عامة والمنظرة بفارغ الصبر وهي: إقالة الحاكم العام وإلغاء منصبه والتأسيس الفوري للنظام المدني برئاسة مفوض استثنائي. ينظر:

- Richard Ayoun, Le décret Crémieux et l'insurrection de 1871 en Algérie, Revue d'Histoire Moderne & Contemporaine, tome 35, N° 1, Janvier-mars 1988, p.61.

³ - Annales de l'Assemblée Nationale, Op-Cit, p.752.

⁴ - Alfred Du Cheyron, Op-Cit, p.20

⁵ - Nil-Joseph Robin, la mort de mokrani, Op-Cit, p.166.

⁶ - L.C. Dominique, Un gouverneur général de l'Algérie : l'Amiral de Gueydon, Adolphe Jourdan éditeur, Alger, 1909, pp.27-28.

الفرنسي ضدها، ولمواقف السياسة الفرنسية اتجاهها، وهذا ما جعله يكاد يطمس موضوع الثورة الحقيقي، وجهود زعمائها ماعدا الذين فرضوا أنفسهم على الحوادث فرضا، ومع ذلك بذل جهده ليحفظ الحديث عنهم هامشيا وبالتبعية فقط للحديث والتأريخ لنشاط الجيش الفرنسي الذي تصدى لمقاومة حركتهم،¹ فطريقة عرض رين للثورة لا تخرج عن منهج المؤرخين الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر المبنية على التشويه والإساءة إلى الجزائر والجزائريين، وذلك باستغلال وثيقة كتلك التي تضمنها أحد مقالاته والتي لا تعزو أن تكون قد كتبت من طرف أحد الحاقدين على هذه الثورة وأبطالها، أو تلك الشهادة التي أدلى بها فلاح من بني عباس لأحد المخبرين الفرنسيين. هذا ويرجع المؤرخون الفرنسيون شدة مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي لا إلى الروح الوطنية والنفور من الحكم الأجنبي، وإنما لضيق الأفق والتعصب الديني، ونفس الموقف وقفه هؤلاء من زعماء المقاومة الوطنية، فلا الحاج أحمد ولا محمد المقراني ولا الشيخ الحداد إلى جانب عظماء آخرين قد وجدوا من هؤلاء باحثا نزيها دون الارتباط المسبق بخدمة المصلحة الاستعمارية. ذلك أن الهدف البعيد لهؤلاء المؤرخين ومنهم رين هو تجريد الجزائريين من أبطالهم.²

وكم يعاني الباحث عندما يحاول أن يتعرف من هؤلاء المؤرخين على جهود محمد المقراني أو الشيخ الحداد أو أحمد بومزراق. هذا فضلا عن الأحكام التي أصدرها على ثورة 1871م وقادتها³، ولعل النقطة السلبية الرئيسة عند المؤرخين الفرنسيين هي إهمالهم للشعب الجزائري في تناولهم لتاريخ الجزائر، فليس هناك في نظرهم "شعب" أو "أمة" أو "كيان" و"مجتمع متماسك"، وإنما هناك قبائل متنافرة متنازعة تخوض حروبا مستمرة، ولا تخضعها إلا القوى الأجنبية كالرومان والأتراك والفرنسيين. هذه هي "فلسفة" الفرنسيين في كتابتهم لتاريخ الجزائر، ولم يطبقوا هذه النظرية فقط على عهدهم الذي بدأ في سنة 1830م بل على جميع عهود تاريخ الجزائر تبريرا لوجودهم⁴، وعلى الرغم من الآثار السياسية والإدارية والاقتصادية لثورة 1871م، والتي يصب كلها في محاولة الفرنسيين إبادة الشعب الجزائري، وإرساء قواعد الاحتلال والاستعمار⁵، فإنها تبقى ثورة غنية بمعطياتها. بأحداثها ووقائعها، وشموليتها لمختلف مناطق التراب الجزائري،⁶ كما رسمت مع مقاومات وثورات أخرى طريق المستقبل أمام الجزائريين للتخلص من الاستعمار الفرنسي، وبناء صرح دولة حديثة مواكبة للتطورات الحضارية العالمية.

¹ - يحي بوعزيز: ثورة 1871م...، المرجع السابق، ص 397

² - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1978م، ص 29-34

³ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 397

⁴ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 36

⁵ - (M) Gaïd: Mokrani, éditions Andalouses, Alger, 1993, p.10.

⁶ - بسام العسلي: المرجع السابق، ص 5-8.

حضور محمد المقراني وثورة 1871م في الدراسات التاريخية

- مجلة الأصالة أنموذجا -

فؤاد شبيحي - جامعة البليدة

كان للمقاومات الشعبية نصيب من الكتابات التاريخية التي انصبت حول تاريخ الجزائر المعاصر، وقد سمح تنوع الدراسات بمعالجتها من مختلف جوانبها وأيضاً من القضايا الشخصية المرتبطة بروادها، وكانت انتفاضة المقراني والشيخ الحداد عام 1871م - التي تعتبر حدثاً هاماً، لما أفرزته من تغيرات على المستوى الوطني - من بين المخططات التاريخية التي اهتمت بها أقلام المؤرخين والباحثين، خاصة مع ما طالها من تشويه في بعض الدراسات الأجنبية المحسوبة على المدرسة الفرنسية التي كانت تهدف إلى فرض توجهها وترسيخ نظرتها عن انتفاضة 1871م، غير أن الكتابات المحلية وقفت في وجه هذه الحملات التشويهية بهدف صيانة وحفظ الذاكرة الوطنية وهذا ما لمسناه من خلال دراستنا لثورة محمد المقراني والشيخ الحداد عام 1871م على ضوء ما جاء في مجلة الأصالة.

أولاً: حول المجلة

1- التعريف بمجلة الأصالة:

تأسست مجلة الأصالة في مارس عام 1971م، على يد الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم¹ حينما كان وزيراً للتعليم الأصلي والشؤون الدينية، واستمرت في الصدور إلى غاية شهر فيفري من عام 1981م، وطيلة إحدى عشر (11) سنة صدر منها واحد وتسعون (91) عدداً موزعاً على أكثر من خمسة عشر ألف (15.000) صفحة، وقد أشرف على تحريرها آنذاك الأستاذ عثمان شبوب².

كان من بين أهداف تأسيس المجلة، كما يشير مولود قاسم هو التعبير عن قطاع التعليم الأصلي والشؤون الدينية كما ينبغي أن يكون، ويقصد بذلك العمل على ترسيخ الحرف العربي في ظل اختلال التوازنات الفكرية التي عرفت الجزائر خلال مرحلة السبعينيات من القرن الماضي، حيث اشتد الصراع الأيديولوجي بين اليساريين والفرنكوفونين والمعرين، وقد كانت مجلة الأصالة رافداً أساسياً لأصحاب التوجه العروبي والإسلامي وأنصار الحركة الإصلاحية، ممن رأوا الانتقال بالثورة من مرحلة حمل السلاح التي انتهت عام 1962م إلى مرحلة الثورة الفكرية، بغية التخلص من شوائب الاستعمار³.

كانت المجلة تصدر كل شهرين، غير أن تتبعنا لتسلسل صدور أعدادها يكشف عن بعض الاضطراب، فنلاحظ أنها ما بين عام 1974/1971م كانت تصدر بين السبعة والتسعة أعداد تتخللها أعداد مزدوجة (العدد 10/9 عام 1972 - العدد 15/14 عام 1973) ثم استقرت على إصدار خمسة أعداد في السنة ما بين 1975/1979م، وصدر منها عدد واحد عام 1980م، ويرجع ذلك إلى الظروف التي كانت تعيشها الساحة الثقافية بالجزائر⁴.

¹ - ولد عام 1927م بقرية بالعيال بأقبو ولاية بجاية، تلقى تعليمه الأولي بالمدرسة القرآنية بمسقط رأسه، ثم بالمدرسة الفرنسية عام 1933م، التحق بجامع الزيتونة لمواصلة دراسته في الفترة الممتدة ما بين 1946/1949، لينتقل بعدها إلى يقسم الفلسفة بجامعة الملك فؤاد في القاهرة، والتي تخرج منها بشهادة ليسانس بتقدير امتياز. بعد الاستقلال شغل منصب وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية، وتوفي 1992م. ترك عدة مؤلفات منها: ردود الفعل الأولية داخلياً وخارجياً على غرة نوفمبر؛ ينظر: تاحي إسماعيل، مولود قاسم نايت بلقاسم نضاله السياسي ونظرته للهوية الجزائرية، 1927/1992م، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2006/2007م، ص 17.

² - محمد الأمين بلغيث، الصراع الفكري بالجزائر المستقلة من خلال مجلة الأصالة 1971/1981م، مجلة كلية أصول الدين، عدد 1، جامعة الجزائر، 1999، ص 109.

³ - مولود قاسم نايت بلقاسم، هذه المجلة، مجلة الأصالة، عدد 1، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1971، ص 2.

⁴ - محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ص 110.

أما من حيث الحجم والشكل فقد تراوحت أعداد صفحاتها بين 200 و250 صفحة في العدد، طبعت على ورق عادي، حمل العدد الأول منها صورة القائد الأمازيغي يوغرطة وعددها الثاني والذي تزامن والذكرى المائة لثورة 1871م فقد حمل صورة محمد المقراني، كما حملت المجلة أيضا على أغلفتها صوراً للعديد من المفكرين من الوطن العربي والعالم الاسلامي على غرار ابن خلدون، ابن رشد، جمال الدين الأفغاني ... أو من العالم الغربي مثل ديكارت، هيجل، فيخته و بيتهوفن، وقد احتضنت مطبعة البعث بقسنطينة طبعتها¹.

ومما يجدر الإشارة إليه، أن صورة العدد الأول للقائد الأمازيغي يوغرطة قد أثارت حفيظة البعض، وتم اتهام المجلة بالعودة إلى الكفر والاحاد مما دفع الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم لأن يخرج عن صمته ويوضح الأمر للمشككين وي طرح أن صورة هذا الرمز هي افتخار بقيادة جزائريين وضرب بذلك مثلاً حين قال: "افتخار المصريين بالأهرامات والعراقيين ببابل، ونحن حين نفخر بقادتنا نتهم بالجهالة ونقع في الحمز واللمز"²، والظاهر أنه قد رد بهذه اللهجة القاسية على أنصار بعض التيارات الإيديولوجية ممن حاولوا اتهامه بالتعصب للأمازيغ انطلاقاً من أنه ينحدر من منطقة القبائل، في حين الدارس لفكر مولود قاسم يجزم أنه فوق كل الشبهات فقد كان ممن حملوا راية التعريب في الجزائر المستقلة.

2- مواضيع مجلة الأصالة

مع أن الأصالة كانت مجلة تابعة لهيئة حكومية، إلا أنها كانت منفتحة على كل الأقلام ناشرة لكل المواضيع مهما كان توجهها، وقد ارتكزت مواضيعها على ثلاث قضايا رئيسية (عقائدية، فكرية، تاريخية)³ فضلاً عن اهتماماتها الأدبية (نشر الأشعار وتقديم الروايات) واهتمامها بالمواضيع الفنية (خصص نايت بلقاسم مجموعة من المقالات للتعريف بالفنان العالمي بيتهوفن)⁴. واستكمالاً للتعريف بمواضيع المجلة، نركز على طرح القضايا الرئيسية التي ضمتها:

أ- القضايا العقائدية:

الدين الاسلامي من أولى اهتمامات الأقلام الناشرة بمجلة الأصالة، ويبرز ذلك من خلال القضايا الدينية التي ضمتها أعدادها، ولعل أبرز هذه الدراسات ما تعلق بالحساب الفلكي والأهلة، ومشروعية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف⁵، كما أنها اهتمت بنشر خطب الدعاة كخطب الشيخ الطاهر بن عاشور بالزيتونة⁶، والتركيز على الجانب العقائدي يعكس تعبير المجلة عن القطاع الذي تمثله.

ب- القضايا الفكرية:

تنوعت المواضيع الفكرية التي تناولتها المجلة، وقد قسمها إسماعيل تاحي إلى قسمين: قسم يخص القضايا الفكرية الوطنية، تناول فيه مواضيع حول الجهل والأمية كرواسب استعمارية⁷، حيث تبّه المساهمون في هذه المواضيع السلطات إلى ضرورة الاهتمام بالعلم والعلماء وصيانة المراكز التعليمية، للنهوض بالحياة الثقافية بغية تأسيس معرفة علمية وإبداعية تعيد صياغة التراث وخصوصياته وتستوعب التراكم الحضاري للجزائر من أقدم الأزمنة إلى اليوم.

¹ - تاحي إسماعيل، المرجع السابق، ص 104.

² - مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ص 33.

³ - تاحي إسماعيل، المرجع السابق، ص 106.

⁴ - الأصالة، عدد 44، أبريل 1977.

⁵ - الزبير عبد القادر، وهران تحتفل بذكرى مولد الرسول الأعظم، مجلة الأصالة، العدد 44، أبريل 1977، ص 2.

⁶ - الأصالة، عدد 21، سبتمبر 1974، ص 4.

⁷ - تاحي إسماعيل، المرجع السابق، ص 107.

أما القسم الثاني فقد خُصص للقضايا الفكرية العربية والاسلامية خاصة في ضل تكالب المستشرقين عليها وسعيهم لتلميع صورة الاستعمار وفضله على الوطن العربي والعالم الاسلامي¹.

ج- القضايا التاريخية:

أولت مجلة الأصالة أهمية كبيرة للتاريخ، وأكثر مقالاتها في هذا الجانب ركزت على تاريخ الجزائر بمختلف مراحلها وفتراته وبأقلام متنوعة، بحيث تحضر الفترة القديمة في عدة مساهمات ولعل أبرزها مساهمة محمد البشير شنيقي: "التوسع الروماني نحو الجنوب الجزائري وآثاره الاقتصادية والاجتماعية"²، إضافة إلى العديد من الدراسات الخاصة بالتاريخ الإسلامي، وقد حضى تاريخ الغرب الإسلامي بحصة مهمة من هذه الدراسات، ولعل أبرزها ما قدمه موسى لقبال: "من قضايا التاريخ الرستمي".

أولت المجلة حيزا مهما للفترة الوسيطة، حيث نشرت أغلب الملتقيات التي تناولت قضاياها كالملتقى السادس حول دولة بني زيري المنعقد بالجزائر العاصمة³ والملتقى الثامن حول دولة بني حماد المنعقد في بجاية⁴، إضافة إلى الملتقى التاسع بتلمسان والذي تناول نشأة وتطور الدولة الزيانية⁵. المتتبع للملتقيات التي أشرف عليها نأيت بلقاسم يقف على حرصه في تنظيم الملتقيات التي تتناول تاريخ منطقة أو مدينة بعينها في ذات المنطقة، وكأني به يستحضر شاعرية الزمان وجماليات المكان، ولا شك أن ذلك يؤثث للامركزية الفكرية، ويحطم أسطورة أن الوعي والتاريخ والحضارة ملك لمنطقة بعينها.

أما التاريخ الحديث، وبالأخص تاريخ الجزائر خلال الحكم العثماني فقد وردت العديد من المقالات التي اهتمت به، على غرار دراسة الدكتور مولاي بلحميسي: "مدينة الجزائر من خلال النصوص العربية والأجنبية"⁶، ومقال محمد العربي الزيري حول النشاط الاقتصادي لليهود في الجزائر خلال الحكم العثماني: "تأسيس شركة بكري وبوشناق في عهد الداين حسن ومصطفى باشا"⁷.

كان لتاريخ الجزائر المعاصر حصة الأسد من المقالات التاريخية التي صدرت في أعداد المجلة، حيث تم تناول المقاومات الشعبية في بعض الدراسات، إضافة إلى تخصيص أعداد خاصة لمقاومات بعينها، كمقاومة المقراني والشيخ الحداد عام 1871م، التي خصص لها العدد الثاني الذي تزامن صدوره مع الذكرى المئوية لاندلاعها⁸ فضلا عن تخصيص عدد لذكرى اندلاع الثورة التحريرية⁹.

أفرز تتبعنا لأعداد مجلة الأصالة التي بلغت مقالاتها 1189 دراسة، إحصاء 492 دراسة تاريخية موزعة على مختلف الحقب الزمنية، وبذلك تكون نسبة حضور الدراسات التاريخية في مجلة الأصالة 41,31% أي ما يقارب نصف الدراسات التي تناولتها المجلة عبر واحد وتسعين عددا وطيلة إحدى عشر سنة من الصدور 1971-1981م. ويبدو أن الحضور المهم للدراسات التاريخية يرجع في جزء منه لنظرة وفكر مولود قاسم القائم على الاستفادة من التاريخ الماضي لبناء المستقبل تحت شعار كان كثيرا ما يردده: "إنية وأصالة"، وهو الذي اتخذ عنوانا لأحد مؤلفاته.

¹ - نفسه، ص 108؛ ولعل مقال الشيخ عبد الرحمان الجيلالي المعنون بـ: "بواعث الاستشراق وأهداف المستشرقين" كان من بين أبرز المقالات التي ردت على المستشرقين حيث عرض فيه فضل الحضارة العربية والاسلامية على العالم الغربي منذ فتح الأندلس عام 92هـ؛ ينظر: عبد الرحمان الجيلالي، من بواعث الاستشراق وأهداف المستشرقين، عدد 14-15، مجلة الأصالة، الجزائر، 1973، ص 156.

² - مجلة الأصالة، العدد 41، جانفي 1977، ص 2-24.

³ - مجلة الأصالة، العدد 8، جوان 1972.

⁴ - مجلة الأصالة، العدد 19، مارس-أفريل 1974.

⁵ - مجلة الأصالة، العدد 26، جويلية-أوت 1975.

⁶ - الأصالة عدد 8 جوان 1972 ص 59-76.

⁷ - مجلة الأصالة، عدد 24، مارس-أفريل 1975، ص 116-123.

⁸ - مجلة الأصالة، عدد 2، ماي 1971.

⁹ - مجلة الأصالة، عدد 22 نوفمبر-ديسمبر 1974.

3- أقلام المجلة:

مجلة الأصالة صرح علمي حديث الولادة آنذاك، لكنه كان منفتحاً على الأقلام المحلية بمختلف توجهاتها ومشاربها الفكرية ووظائفها، بل تعدته في ذلك إلى الأقلام العربية والغربية، ومن بين الأسماء المساهمة: أبو القاسم سعد الله، مولاي بلحميسي، عبد الحميد حاجيات... كما أنها مستقطبة للأقلام السياسية، فنجد دراسات حررت بأقلام موظفين سامين في الدولة على غرار الرئيس هواري بومدين وعبد الحميد مهري، إضافة إلى انفتاحها على الهيئات التابعة لوزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية فنجد مقالات لطلاب الثانويات وأساتذة في الأطوار المختلفة، كما استقطبت الدراسات القانونية التي حررها محامون¹.

أما المساهمات الأجنبية المنشورة على صفحات المجلة، فهي الأخرى متنوعة، مثل غرار طه حسين (مصر) عبد الجليل التميمي وعثمان الكعك (تونس) جاك بيرك (فرنسا) وزغريد هونكا (ألمانيا)².

ثانياً: حضور المقراني وثورة 1871م في مجلة الأصالة -رصد وتحليل-:

1- الرصد الموضوعاتي للدراسات:

كان لثورة المقراني والشيخ الحداد 1871م نصيب معين من التنوع الذي طبع مقالات المجلة، حيث مثلت 1,1% من مجمل كل الدراسات في أعداد المجلة و2.64% من مجمل الدراسات التاريخية بمجموع أربعة عشر دراسة متنوعة بين التاريخ والأدب والفلسفة: إحدى عشر (11) مقالا تاريخيا ومقالين (02) أدبيين (شعر ملحمي وصفي لثورة المقراني والشيخ الحداد) ودراسة واحدة (01) فلسفية تحدثت عن البعد الصوفي للشيخ الحداد. وبالتالي، فإن الدراسات الأكثر اهتماما بثورة المقراني والحداد، كانت الدراسات التاريخية التي مثلت نسبة 76,92%، أما الدراسات الأدبية فكانت بنسبة 15.78%، في حين الدراسات الفلسفية لم تمثل سوى 7,69%.

وبناء على التتبع الإحصائي والاشتغال على المضامين، فقد أوردنا الدراسات التي تناولت ثورة المقراني حسب التصنيف الموضوعاتي لها، وهي موضحة في الجدول الآتي³:

نوع الدراسة	المؤلف	عنوان الدراسة	العدد	السنة	الصفحة
الدراسات التاريخية	يحيى بوعزيز	ثورة المقراني والشيخ الحداد 1871م	02	1971م	29-22
		الحقيقة عن دور زاوية صدوق والإخوة الرحمانيين في ثورة 1871م	15-14	1973م	161-172
		موقف وجهاء إيالة وهران من ثورة المقراني والشيخ الحداد عام 1871م	30-29	1976م	48-43
		وثائق جديدة عن دور محي الدين بن الأمير عبد القادر في ثورة 1871م وموقف أبيه والسلطات التونسية.	38	1976م	62-25
		موقف العائلات الأرستقراطية من محمد المقراني وثورته وأحداث أخرى من خلال وثائق عن ثورة 1871م	66-65	1979م	95-76
		مظاهر المقاومة وروادها في الشرق القسنطيني ضد	80-79	1981م	99-88

¹ - محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ص112.

² - محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ص113.

³ - قمنا بإدراج الدراسات الخاصة بكل باحث دون مراعاة توزيعها عبر أعداد المجلة.

		82-81	الاستعمار الفرنسي في القرن 19.		
21-16	1971م	02	انتفاضة 1871م مقاومة شعب يحركه الإيمان.	محموظ	
10-07	1971م	02	L'insurrection de 1871	قداش	
64-54	1972م	06	ابن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة 1871م.	أحمد بوزيد قصيبة	
61-48	1971م	02	ثورة المقراني 1871م	ندوة الأساتذة	
-137 143	1976م	40-39	ملاحظات وانطباعات حول ثورة المقراني والشيخ الحداد	سليمان داود بن يوسف	
46-44	1971م	02	الذكرى المئوية لثورة 1871م	عمر شكيري	الدراسات
47	1971م	02	قلعة وثائر	أحمد شقار الثعالبي	الأدبية
39-30	1971م	02	الشيخ الحداد الصوفي الثائر.	عمار طالبي	الدراسات الفلسفية

2- عرض وتحليل الدراسات:

إن الدراسات التي نسعى لعرضها وتحليلها هي في الأصل مجموعة مقالات تضمنتها أعداد مجلة الأصالة ولعل الخيط الناظم بينها هو كونها تأتت ضمن سياق الموضوع الذي نحن بصدد دراسته، وكل ما سوف أورده هنا هو محاولة دراسة المقالات التي تناولت ثورة المقراني والشيخ الحداد والتي ضمتها صفحات المجلة موضوع الدراسة.

لا تستغني الدراسات التاريخية عن العوامل والمؤثرات التي تسهم في بروز الحدث التاريخي بمجرد استكمال شروطه، هذه التراكمات تنتج لنا الواقعة التاريخية مجال الدراسة، ووفق هذا التجانس عالج المؤرخ الجزائري يحي بوعزيز ثورة 1871م بدراسة نشرت في العدد الثاني من مجلة الأصالة عام 1971م تحت عنوان: "ثورة محمد المقراني والشيخ الحداد 1871م" تناول من خلالها عرض الأوضاع العامة للجزائر وسياسة الإمبراطورية الفرنسية الثانية من مصادرة الأراضي وتشجيع الاستيطان للمشردين وذوي السوابق العدلية من الفرنسيين والأوروبيين مع التطرق إلى للمقاومات التي سبقت ثورة المقراني كمقاومة منطقة القبائل وثورة أولاد سيدي الشيخ في الجنوب،¹ كما تتبع بوعزيز السياسة الاستعمارية الهادفة لتحطيم نفوذ عائلة المقراني انطلاقاً من بداية استمالاته عام 1837م حيث كان مسانداً لممارسات الاستعمار ثم تم تقزيم رتبة محمد المقراني إلى باشاغا بعد وفاة والده (أحمد المقراني) ليتم تقزيمها بشكل أكبر بعد تأسيس ولاية برج بوعريرج المختلطة، ليقصر دوره حينها على كونه عضواً بسيطاً في المجلس البلدي². لقد قدم

¹ - يحي بوعزيز، ثورة محمد المقراني والشيخ الحداد 1871م، مجلة الأصالة، عدد 22، ص22-23

² - نفسه ص24.

بوعزيز من خلال دراسته قراءة في أسباب ثورة المقراني التي أرجعها إلى الأزمات الاجتماعية والصحية والطبيعية والاقتصادية والمالية التي عصفت بالجزائر، إضافة إلى الحملة التنصيرية التي بدأتها الكنيسة مستغلة في ذلك الظروف القاسية الناتجة عن الأزمات تحت شعار الخبز والصليب. كما أبرز تأثير النظام المدني الذي قلل من مكانة محمد المقراني ونفوذ عائلته¹.

أما السبب الذي رأى بوعزيز أنه أشعل فتيل ثورة 1871م فهو نداء وزير العدل الفرنسي "أدولف كرميو Crémieux" في جانفي 1871م بانتهاء الحكم الإمبراطوري ونهاية الحكم العسكري في الجزائر والشروع في تطبيق النظام المدني، وهو ما اعتبره المقراني إهانة للعائلات الكبرى وسعيا لتحطيمها، فقال مقولته الشهيرة: "أطرح رأسي للسياط ولا أطيع أحدا من غير الجنود" وقدم استقالته من الباشاغوية في شهر مارس وأعاد راتبه لشهر فيفري وبدأ في التحضير للانتفاضة².

أجاد يحيى بوعزيز في دراسته المعنونة: "ثورة المقراني والشيخ الحداد" في تشریح الواقع الجزائري وإبراز الأسباب الرئيسية التي حركت اندلاع ثورة المقراني عام 1871م، غير أنه لم يذيل بحثه في مادته العلمية التي استقى منها المعلومات واكتفى بالإشارة لبعضها في متن البحث على غرار مذكرات عزيز ابن الشيخ الحداد وخطبته التي قالها أمام محكمة قسنطينة والإشارة إلى الدراسات التي أعدها لويس رين Louis Rinn والتي نشرت ضمن أعداد المجلة الإفريقية وتم جمعها في شكل كتاب³.

إن إسهامات يحيى بوعزيز في إمطة اللثام عن خبايا ثورة المقراني والشيخ الحداد 1871م كانت واجبة للرد على مغالطات المؤرخين الفرنسيين ومنهم لويس رين الذي كان هدفه تجريد الجزائريين من أبطالهم وتشويه المقاومات وتجريدها من البعد الإسلامي⁴.

العودة إلى كتاب يحيى بوعزيز المعنون بـ "ثورة الباشا محمد المقراني والشيخ الحداد 1871م" ومقارنته بما أورده لويس رين من معلومات تبين لنا أن المضان الموظفة في المقال متنوعة بين وثائق أرشيفية ودراسات فرنسية في المجلة الإفريقية وكتابات عربية.

ونظرا لأن قادة الثورات الشعبية في غالبهم ينتمون لفئة المتصوفة -بما لهم من ثقل معنوي ورمزي في مجتمعهم- ما سمح لهم بأن يمارسوا سلطة القيادة والتوجيه، فقد استطاعوا المساهمة في الحراك التاريخي انطلاقا من فلسفتهم الخاصة، ولا غرابة في ذلك خاصة إذا علمنا أن التصوف كما يرى هنري برغسون: "هو الفعل الإلهي المختلف عن الفعل الإنساني الذي يستطيع بواسطته بعض الأشخاص أن يتجاوزوا طبيعتهم الخاصة من أجل صناعة التاريخ"⁵. وفي فلك هذه الفكرة برزت لنا دراسة يحيى بوعزيز الذي عمل على إظهار البعد الجهادي لزواية صدوق والطريقة الرحمانية ودورها في صنع التاريخ والمصير الأخلاقي لصنع الإنسانية، من خلال المقال الذي نشره في ذات المجلة، العدد 15/14 عام 1973م، تحت عنوان: "الحقيقة عن دور زاوية صدوق والإخوة الرحمانيين في ثورة 1871م"⁶.

تناول المؤلف في هذه الدراسة أصل الإخوة الرحمانيين، وأورد سبب تسميتهم بعائلة الحداد نسبة إلى مهنة والدهم الشيخ أمزيان وهي الحدادة، ثم تناول المسار الدراسي للشيخ الحداد بداية من زاوية صدوق ثم انتقاله إلى زاوية أعراب إلى أن تولى منصب مقدم بزاوية والده بصدوق في بجاية⁷.

أوضح المؤلف الفرق بين الزوايا الرحمانية، كما أقر بتميز زاوية صدوق عن الزاوية الأم بمنطقة بسكرة وباقي الزوايا الرحمانيين حيث أن الزاوية الأم أقرت التعامل مع الاستعمار منذ عام 1844م، في حين زاوية صدوق كان لها توجه مستقل عن الزاوية الأم، ولم

¹ - يحيى بوعزيز، ثورة محمد المقراني، المرجع السابق، ص 25.

² - يحيى بوعزيز، نفسه، ص 26، 27.

³ - Louis Rinn, l'histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Art kange, ALGER, 2013, pp 275,276.

⁴ - عبد القادر صحراوي، مقاومة المقراني والحداد من خلال كتابات لويس رين في ضوء المجلة الإفريقية، مجلة الحوار المتوسطي، عدد 11-12، الجزائر، 2016، ص 275.

⁵ - هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، تر: سامي الدروبي، عبد الله الدائم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1971، ص 108.

⁶ - مجلة الأصالة، العدد 14-15، ص 161-172.

⁷ - نفسه، ص 161-162.

تربطها صلة بالسلطات الاستعمارية، وأرجع يحيى بوعزيز ذلك إلى كون عائلة الحداد ليست من العائلات الأرستقراطية إضافة إلى طبيعة التكوين الديني للشيخ الحداد من جهة وسياسة المراوغة الاستعمارية من جهة أخرى¹.

قبل تناولنا لهذه الدراسة برزت مجموعة من التساؤلات، لعل أهمها هو لماذا لجأ محمد المقراني إلى زاوية صدوق والإخوة الرحمانيين؟ إذا كانت زاوية صدوق والإخوة الرحمانيين لا يثقون في العائلات الأرستقراطية فما هو الدافع الذي جعلهم يقفون إلى جانب محمد المقراني خلال ثورة 1871م؟ لذلك فإن دراسة بوعزيز توضح الأسباب التي دفعت للتعاون ضد الاستعمار الفرنسي، منها الصداقة الجامعة بين عبد السلام المقراني حاكم عين تاغروت وسي عزيز ابن الشيخ الحداد، وهذه العلاقة شجعت محمد المقراني في اللجوء إلى زاوية صدوق والإخوة الرحمانيين، وفي الوقت نفسه كان التقارب بين عائلة بن علي الشريف الأرستقراطية بشلاطة وعبد السلام المقراني الذي كان يطمع في منصب الباشا بدل ابن عمه محمد المقراني وهو ما أغضب سي عزيز ابن الحداد من صديقه عبد السلام.²

استغلالا للخصومة التقليدية بين زاويتي صدوق وشلاطة، وتأسيسا على ما تم تقديمه من دوافع لجأ محمد المقراني إلى زاوية صدوق فرحب سي عزيز بفكرة الثورة خاصة بعد المضايقات التي أصبحت تطال زاوية صدوق والإخوة الرحمانيين من طرف الإدارة الاستعمارية³. ويؤكد بوعزيز أن ثورة 1871م ما كانت لتبلغ هذه القوة والانتساع الجغرافي لولا انضمام زاوية صدوق الرحمانية إليها. استطاع صاحب المقال إبراز دور زاوية صدوق والإخوة الرحمانيين في ثورة 1871م من خلال إسقاط انتشارها الطريقة الرحمانية في ربوع الوطن، وقد تنوعت مضان دراسته بين الوثائق الأرشيفية والكتابات الأجنبية والعربية، وركز على دحض الطروحات الاستعمارية التي حاولت تشويه الإخوة الرحمانيين وثورة المقراني عام 1871م والتي اتهمتهم بالتعصب الديني وأنها انتفاضة الحفاظ على المصالح التي خسرها المقراني.

لكل الثورات والمقاومات الشعبية إفرازات وردود أفعال، ومن هذا المنطلق عالج يحيى بوعزيز موقف وجهاء الغرب الجزائري من خلال وثيقة أرشيفية متمثلة في رسالة وجهها وجهاء إيالة وهران للسلطات الاستعمارية تحصل عليها من أرشيف ولاية وهران وتناولها في دراسة معنونة بـ: "موقف وجهاء الإيالة الوهرانية من ثورة المقراني والشيخ الحداد عام 1871م"⁴. عالج من خلالها المجال الجغرافي لثورة المقراني مبرزا ارتكازها في المناطق الشرقية والوسطى دون امتدادها للغرب الجزائري وأرجع ذلك إلى البعد الجغرافي بين شرق وغرب البلاد إضافة إلى الدور الذي لعبه المستعمر في إخفاء أنباء ثورة الشرق حتى لا تنتشر نيرانها في الغرب خاصة وأن المنطقة ما تزال تعيش وطأة وآثار مقاومة أولاد سيدي الشيخ⁵.

أبرز الكاتب دور الممثلين لأنفسهم دون الشعب انطلاقا من أنهم معينين من طرف الإدارة الاستعمارية، في ظل سعيهم الدائم للحفاظ على مصالحهم الشخصية. اكتفى يحيى بوعزيز بعرض الرسالة دون التعليق عليها وذكر الموقعين عليها: أحمد والد القاضي باشاغا فرنده، محمد بن عبدالله والي الشلف وحامد بن حامد آغا ولد الرياح لتلمسان وعبدالقادر ولد الزين آغا بن عامر ببني عباس، ونلاحظ أن الرسالة تجتذ على قادة المقاومة ووصفت المقاومين بضعاف العقول ومثيري الفتن في شرق البلاد⁶.

¹ - نفسه، ص 162.

² - Louis Rinn, ibid, p 163.

³ - مجلة الأصالة، عدد 14-15، ص 167.

⁴ - نشرت في العدد 14-15 من مجلة الأصالة عام 1976م.

⁵ - يحيى بوعزيز، موقف وجهاء الإيالة الوهرانية من ثورة المقراني والشيخ الحداد 1871م، مجلة الأصالة، العدد 14-15، 1976م، ص 44.

⁶ - نفسه، ص 47.

هذا الموقف يحيلنا إلى موقف المنتخبين في المجلس الفرنسي عند اندلاع الثورة التحريرية، حين تنكروا لهذا الحدث وأرسلوا بيانا يؤكدون فيه ولاءهم لفرنسا وتعلقهم بها ويطالبون بالعقاب الصارم على هؤلاء المخربين والمعادين للوطن.¹

ومن الدراسات التي لفتت انتباهنا خلال عملية رصد حضور مقاومة المقراني في مجلة الأصالة دراسة خاصة بدور محيي الدين ابن الأمير عبد القادر في ثورة 1871م² بعنوان: "وثائق جديدة عن دور محيي الدين ابن الأمير عبد القادر في ثورة 1871م وموقف أبيه والسلطات التونسية"³، تناول يحيى بوعزيز في هذه الدراسة رحلة محيي الدين من بلاد الشام إلى الجزائر بالتفصيل انطلاقا من دمشق بعد الصدام الذي افتعله مع أبيه تحت طائلة أزمة مالية، خرج بعدها متوجها إلى تونس وعمل خلال إقامته بها على تعميم حضوره هناك خشية اكتشاف أمره سواء من السلطات الفرنسية أو من عملائها المنتشرين في البلاد، وأردف الكاتب في سرد الرحلة بعد اكتشاف أمر إقامة محيي الدين بتونس ورفض الباي التونسي مقابله، خرج في رحلة العودة إلى بلاد الشام لكن ذلك كان مجرد تمويه وظفه محيي الدين من أجل دخول إلى ليبيا، حيث أنه خرج بجرا إلى الشام ومع الوصول إلى جزيرة مالطا حول طريقه نحو طرابلس الغرب لبدأ مساندته لثورة 1871م من خلال حشد الشخصيات التي التقى بها، وكانوا أغلبهم ثوار ضد الاستعمار الفرنسي تم نفيهم على غرار ناصر بن شهرة قائد ثورة الأغواط عام 1851م وكذلك بعض شيوخ الطرق الصوفية الذين ساندوه في عملية حشد العدة والعتاد لمساندة المقراني، وراسل الأمير محيي الدين محمد المقراني يدعمه في ثورته ضد الاستعمار الفرنسي لكن يحيى بوعزيز صرح أنه لم يعثر على رد من المقراني على هذه الرسالة⁴.

لكن، وخلال تتبعنا لثورة المقراني وإطارها الجغرافي وانتشارها في الجنوب الشرقي يمكننا أن نؤكد دعم الأمير محيي الدين لثورة محمد المقراني لأن أغلب الشخصيات الذين جمعهم لقاءات مع محيي الدين كانت مناطقهم إلى جانب المقراني في ثورته، على غرار انتشارها في الأغواط عبر دعوة ناصر بن شهرة والشيخ إبراهيم بن عبد الله بورقلة ومحمد بن العشابي بيسكرة وغيرهم، ويضيف الباحث أن اطلاع الأمير محيي الدين على الظروف التي كانت تعيشها أوروبا جعلته يحشد مسبقا للانتفاضة ضد الاستعمار الفرنسي واستدل بكلامه هذا من خلال لقاء محيي الدين بن الأمير عبد القادر مع "جيرارد وهلف" وهو جاسوس ألماني، وهذا ما يضيفي البعد الاستراتيجي الدولي لثورة 1871م.

من خلال تتبع المواقف المتباينة من دعم الأمير محيي الدين للمقراني والدعوة للجهاد ضد المستعمر الفرنسي يبرز الموقف التونسي من خلال رفض باي تونس استقبال الأمير محيي الدين وكان ذلك بقرار من القنصل الفرنسي بعد معرفته بوصوله إلى تونس، أما موقف الأمير عبد القادر من نشاط ابنه، فقد بدا موقفا غريبا، حيث أنه قام بتحرير عدة رسائل منها رسالة للقنصل الفرنسي في سوريا يقول فيها أنه قد تبرأ من ابنه وأعماله وطرد زوجه وعياله من بيته كما وجدت عدة رسائل أخرى مضمية من طرف الأمير نشرت في لسان حال الإدارة الاستعمارية "جريدة المبشر" موجهة للشعب الجزائري يدعوهم فيها إلى عدم الوقوف إلى جانب ابنه محيي الدين في تمرده على الإدارة الفرنسية وتفادي تخريب الوطن⁵.

إن البحث في تاريخ الجزائر المعاصر وما تعرض له من تشويه من قبل مؤرخي المدرسة الفرنسية جعلنا نمنع النظر والتفكير والتحميص، وذلك من خلال ما تم تناوله في رسائل الأمير المنشورة في جريدة المبشر تحت سؤال هل يمكن للأمير عبد القادر أن يقدم على إرسال هكذا رسائل؟ يجيبنا على هذا التساؤل شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله على هذه الافتراءات الفرنسية من خلال

¹ - مولود قاسم نابت بلقاسم، ردود الفعل الأولية داخليا وخارجيا على غرة نوفمبر، دار الأمة، الجزائر، 2013، ص 95.

² - نشرت في العدد 38 الصادر عام 1976م.

³ - يحيى بوعزيز، وثائق جديدة عن دور محيي الدين ابن الأمير عبد القادر في ثورة 1871م وموقف أبيه والسلطات التونسية، مجلة الأصالة، عدد 38، 1976، ص 25-62.

⁴ - يحيى بوعزيز، وثائق جديدة عن دور محيي الدين، المرجع السابق، ص 29

⁵ - يحيى بوعزيز، وثائق جديدة عن دور محيي الدين...، المرجع السابق، ص 31

رواية شفوية حصل عليها من حفيد الأمير عبد القادر في بلاد الشام مفادها أن قدوم محي الدين من الشام اتجاه الجزائر من أجل الجهاد قد كان بأمر من الأمير عبد القادر وهو من نصحه بالدخول من ناحية تونس وليبيا¹.

من خلال ما تم عرضه نستنتج أن فرنسا حاولت استخدام سمعة الأمير عبد القادر من أجل إجهاد ثورة المقراني والحداد عام 1871م ومنع انتشارها والتفاف الشعب عليها، وقد ذكر مصطفى لشرف² أن الجزائريين وبعد اطلاعهم على الرسائل الملفقة للأمير التي نشرت في جريدة المبشر ردوا عليها أن الأمير عبد القادر يجهل الأوضاع التي نحن عليها ولو يدركها يحمل السلاح ويحارب معنا. وظف محي الدين رمزية والده الأمير عبد القادر المقاومة وإرثه الجهادي، كشرعية تاريخية لحشد الناس للجهاد في مقاومة المقراني كما أنها كانت دربا سارت عليها المقاومات الشعبية قبل ذلك، وفي المقابل حاولت الإدارة الاستعمارية استغلال سمعة الأمير لإجهاد المقاومات عن طريق التصريحات الكاذبة المنسوبة له.

إلى أي مدى أسهمت المكانة الاجتماعية لقادة المقاومة في تشكل صورتهم من المنظور الشعبي؟ محمد المقراني الأرستقراطي ومحمد المقراني الثائر في ميزان المجتمع آنذاك من هذا المنطلق عالج الدكتور يحيى بوعزيز في دراسته المنشورة في العدد 65-66 في مجلة الأصالة لعام 1979م والتي أدرجت تحت عنوان "موقف العائلات الأرستقراطية من محمد المقراني وثورته من خلال وثائق جديدة عن ثورة 1871م"³، تمثلت هذه الوثائق في مجموعة من الرسائل بعثت من قبل محمد المقراني لبعض العائلات الأرستقراطية لتقوية صفه مستغلا في ذلك موقعه الاجتماعي، وتوزعت الرسائل الثلاثة عشر (13) من مليانة غربا حتى الحدود التونسية شرقا بغية الاتحاد والوقوف في وجه النظام المدني الفرنسي الذي سيترب عنه فقدان الكثير من امتيازاتهم وممتلكاتهم⁴.

رغم الجهود التي بذلها محمد المقراني في استمالة هذه العائلات للانضمام إلى ثورته، إلا أنه فشل في ذلك، حيث آثروا الاحتفاظ بامتيازاتهم وإن قلت على خسارة كل شيء، بل تجاوز رفضهم هذا إلى إقحامهم على إعلام السلطات الاستعمارية بنوايا محمد المقراني في الانتفاضة ضدهم، فقد أورد بوعزيز رسالة الآغا بوزيد إلى حاكم دائرة سور الغزلان يخبره بالنشاط الذي يمارسه المقراني في المنطقة بغية تجنيد الرجال ومحاولة استمالاته إليه وطلبه اقتناء بعض الأسلحة منه⁵، ورسالة أولاد بن قانة في الصحراء الشرقية إلى حاكم قسنطينة "رستان Rostand" التي أكدوا فيها رفضهم لما أقدم عليه محمد المقراني، وأكدوا فيها استعدادهم لمجابهة تمرده الذي وصفوه بالجنون، كما أرسل حضر مدينة قسنطينة رسالة إلى "الأميرال دوقيدون De Gueydon" استنكروا فيها عمل محمد المقراني والشيخ الحداد ونعتوهم بالبدويين والساعين للتخريب وطالبوا بإنزال عقوبات كبيرة عليهم وكان من بين الموقعين على هذه الرسالة علاوة بن الساسي، محمد ابن باديس، المفتي الحنفي سليمان بن ساردو والمفتي المالكي الطيب أودفال⁶.

رغم فشل محمد المقراني في استمالة العائلات الأرستقراطية فقد نجح في استمالة الشيخ الحداد وهو مكسب هائل عوضه خيبته في العائلات الأرستقراطية لما كانت تتمتع به عائلة الحداد من مكانة اجتماعية وزعامة الروحية. اعتمد صاحب المقال على مادة علمية أصيلة ونفيسة تمثلت في مراسلات هذه العائلات مع الإدارة الاستعمارية، تحصل عليها من عدة دور للأرشييف على غرار أرشييف قسنطينة ووهران والأرشييفات الفرنسية، وتناولها في الدراسة بعد إخضاعها للنقد والمقارنة، ووظف العديد من الدراسات الأخرى سواء كانت أجنبية أم عربية وهو ما يثبت جدية الباحث وموضوعية طرحه.

¹ - أبو القاسم سعد الله، ندوة الأصالة حول ثورة المقراني، مجلة الأصالة، عدد 02، 1971م، ص57.

² - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، منشورات البربخ، الجزائر، 2011، ص152.

³ - يحيى بوعزيز، موقف العائلات الأرستقراطية من محمد المقراني وثورته من خلال وثائق جديدة عن ثورة 1871م، مجلة الأصالة، عدد 65-66، ص76-95.

⁴ - نفسه، ص78.

⁵ - يحيى بوعزيز، موقف العائلات الأرستقراطية من الباشاغا المقراني وثورته عام 1871م، دار البصائر، الجزائر، 2013، ص48.

⁶ - مجلة الأصالة، عدد 65-66، ص80.

أهملت ثورة 1871م الكثير من المؤرخين للخوض في أحداثها ونتائجها لندارك ما أغفله بعض الباحثين ومحاولة لتقديم دراسات جادة في التاريخ الوطني، وضمن صفحات مجلة الأصالة وإضافة إلى دراسات الدكتور يحيى بوعزيز نجد أيضا دراسات أخرى، كالتى قدمها المؤرخ محفوظ قداش: "انتفاضة 1871م مقاومة شعب يحركها الايمان"¹، حيث أشار إلى أن الهدف منها هو الرد على ادعاءات "لوي رين" والمدرسة الفرنسية ومحاولتها لإفراغ ثورة 1871م من محتواها الجهادي وحصرها في صراع الحفاظ على المكاسب².

قدم الباحث في مستهل دراسته التراكمية النضالية للشعب الجزائري منذ دخول الفرنسيين، ونفى عن ثورة المقراني والحداد صفة التمرد معتبرا إياها حركة عامة تندرج ضمن خط المقاومات التي عرفتها الجزائر منذ الدخول الاستعماري³.

عرج الباحث على ذكر أسباب انتفاضة المقراني مبرزا دور الاوضاع السائدة والتحول في نظام الحكم، وقد حاول التقيد بمحتوى عنوان الدراسة حينما ركز على إبراز البعد الديني الجهادي للمقاومة لأن من بين أهم الأسباب الدافعة للثورة أن مقاليد الحكم أصبحت في يد اليهود والمركانية، ويجب التوضيح هنا أنه لا يقصد باليهود كأصحاب معتقد ديني وإنما الطابع السياسي المدني الذي أصبح يمثل السياسة والمركاني الذي أصبح يمثل الاقتصاد⁴ ومن جهة تزايد نشاط الحركة التبشيرية في منطقة القبائل خاصة بعد مجاعة 1866م التي استغلها الأسقف لافيحري لتمسيح الكثير من أيتام المنطقة ووضعهم في قرى مسيحية من جهة أخرى، وهو ما أثار حفيظة سكان المنطقة وجعل اسرة الحداد تقف الى جانب المقراني في ثورته على الاستعمار الفرنسي⁵.

إن البعد الديني للجزائريين وسخطهم على الممارسات الاستعمارية دفع سكان منطقة القبائل إلى الالتحاق بانتفاضة المقراني بمجرد إعلان الشيخ الحداد الجهاد في أفريل 1871م، خاصة وأن الوضع العام كان يحفز على هذا الانخراط، وهو ما جعل ثورة 1871م ترسخ في أذهان الأوروبيين مدة طويلة⁶.

تضمنت هذه الدراسة معلومات جديدة وهامة تضاف إلى العديد من الدراسات التي تناولت الانتفاضة خاصة وأنها أبرزت البعد الجهادي للمقاومة ونفت التعصب الديني للجزائريين.

رغم أن محفوظ قداش باحث متخصص في التاريخ إلا أنه لم يدرج مضان استقاء معلومات دراسته سواء في الهامش أو في المتن، لكن مع دراستنا للمقال ومقارنته بما أورده شارل روبير أجيريون في كتابه الجزائريون المسلمون وفرنسا اتضح لنا أن محفوظ قداش قد اعتمد على العديد من الوثائق الأرشيفية التي تحصل عليها من دور أرشيف مختلفة بفرنسا.

لم تقتصر الدراسات حول المقراني في صفحات المجلة على البحوث الأكاديمية الجادة فحسب، بل تعدتها إلى نشر الخطب والحوارات التي تطرقت إلى انتفاضة المقراني والحداد وهو ما لمسناه في الدراسة المنشورة في العدد 40/39 الذي صدر سنة 1976م من إعداد المؤرخ الجزائري الشيخ سليمان داود بن يوسف والتي أدرجت تحت عنوان: "ملاحظات وانطباعات حول ثورة المقراني والشيخ الحداد" وهي عبارة عن خطبة ارتجلها أمام قلعة بني عباس بدعوة من الوزير مولود قاسم كما أوضح في بداية هذه منشوره⁷. الذي تناول فيه السبب وراء نشره، حيث أرجعه إلى الدراسات التي نشرها يحيى بوعزيز حول الموضوع واعتمد في ذلك على المصادر

¹ - صدرت في العدد الثاني الخاص بالذكرى المئوية لثورة المقراني والشيخ الحداد سنة 1971م.

² - محفوظ قداش، انتفاضة 1871م: مقاومة شعب يحركها الايمان، مجلة الأصالة، ع2، الجزائر، 1971، ص17.

³ - محفوظ قداش، جزائر الجزائريين 1830-1954، المؤسسة الوطنية للنشر والاشهار، الجزائر، 2008، ص210.

⁴ - نفسه، ص211.

⁵ - محفوظ قداش، انتفاضة 1871م..المرجع السابق، ص19.

⁶ - شارل روبير أجيريون، الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919، دار الرائد للكتاب، ط1، الجزائر، 2007، ص18.

⁷ - الشيخ سليمان داود بن يوسف، ملاحظات وانطباعات عن ثورة المقراني والشيخ الحداد، مجلة الأصالة، ع40/39، الجزائر، 1976، ص138.

الفرنسية التي رأى أنها تسعى للتقليل من تاريخنا الوطني والسعي لتشويهه، كما تطرق إلى أسباب اندلاع الثورة مركزا على البعد الديني¹.

في نهاية مقاله دعا الباحثين إلى ضرورة تشريح المقاومات الشعبية لإثراء المكتبة الوطنية وترك إرث تاريخي للأجيال القادمة، وحذر من الالتزام الكلي بما أورده المصادر الغربية عامة والفرنسية خاصة التي من شأنها ضرب التاريخ الوطني.

خاتمة:

من خلال تناولنا لثورة محمد المقراني والشيخ الحداد عام 1871م على ضوء ما جاء في مجلة الأصالة نستنتج: مجلة الأصالة وما احتوته أعدادها من زخم تاريخي تعد مرجعا هاما للباحثين في الدراسات التاريخية بمختلف حقبتها الزمنية، نظرا لتنوع الدراسات المنشورة والأقلام المشاركة.

أولت المجلة الأصالة أهمية كبيرة للدراسات التاريخية واستغلت فرص التزامن مع ذكرها لتقييد أقلامها وإثراء الحدث بمختلف الدراسات، وكان من نصيب ثورة محمد المقراني والشيخ الحداد أن خصص لها عدد تزامن والذكرى المئوية لاندلاعها 1871م-1971م.

تنوع الدراسات التي تناولت ثورة محمد المقراني فلم تقتصر على الدراسات التاريخية فحسب، بل تم تناولها في شكل حلقة بحث في ملف ضم العديد من الباحثين على غرار أبو القاسم سعد الله، جمال قنان... إضافة إلى بعض الدراسات الأدبية التي خلدت ثورة المقراني والحداد في شكل نصوص شعرية، إضافة إلى دراسات في الفكر الصوفي والثورة من خلال تجربة الشيخ الحداد وهو ما أفرز لنا تنوع في الدراسات أثبت لنا أهمية الحدث (ثورة 1871م).

أغلب الدراسات التي تناولت ثورة 1871م كانت من إنتاج الدكتور يحيى بوعزيز ويرجع ذلك لاهتماماته بالمقاومات الشعبية بصفة عامة عبر إنتاجه الغزير فيها، وتركيزه على مقاومة المقراني كان سعيها لنفض الغبار عليها وما طالها من تشويه إضافة إلى كونه ابن المنطقة التي اندلعت منها ثورة محمد المقراني يدخل هذا ضمن اهتمامه بالتاريخ المحلي لمنطقة نشأته.

خلال دراستنا لمجموعة المقالات التي خصصت لثورة 1871م والتي حررت أغلبها من قبل بوعزيز -كما أسلفنا- نجده يسعى دائما للرد على أكاذيب المدرسة الفرنسية التي حاولت تشويه ثورة المقراني عام 1871م وإخراجها في شكل انتفاضة والحفاظ على المصالح كما أورد لويس رين.

إن التعامل مع الوثيقة التاريخية خاصة إذا كان مصدرها المستعمر يجبرنا دائما على إخضاعها للنقد وعدم التسليم بها مباشرة، لأنها قد تكون وسيلة لتشويه التاريخ النضالي للمستعمرات، وخلال إنجازنا لهذه الدراسة وقعنا على مثل هذه الأحداث.

إن ثورة 1871م هددت الوجود الفرنسي بالجزائر اعتمادا على شموليتها عبر أغلب التراب الوطني مستغلة الظرف الدولي الذي كانت تعيشه فرنسا في منطقة الألزاس واللورين، وهذا ما دفع بالمدرسة التاريخية الفرنسية دائما للتقليل من هذه الثورة وتشويهها.

¹ - الشيخ سليمان داود بن يوسف، المرجع السابق، ص 141-142.

ثورة المقراني في السبيلوغرافيا الرقمية بالجزائر

ودان بوغفالة - جامعة تيارت

بات من الممكن حاليا للباحثين والمهتمين بتاريخ ثورة الحاج محمد المقراني لعام 1871م وتطوراتها أن يعتمدوا على قواعد بيانات جزائرية مستحدثة للوصول إلى الدراسات التي تعني الموضوع. وقد تنوعت مجالات اهتماماتها وتعددت مصادرها، فالبعض منها اختص بدراسة الأسرة المقرانية وشبكة علاقاتها الاجتماعية وعلاقتها بالشيخ الحداد، والبعض الآخر ويشكلون الأغلبية بحثوا في الثورة وظروفها وأطرافها، ومصادرها الأرشيفية والأدبية، وموقف الفواعل المحلية والإدارة الفرنسية والجهاز القضائي الاستعماري منها. ومن مزايا هذه القواعد، وعلاوة على ما تقدمه من معطيات في غاية الأهمية عن عنوان البحث وطبيعته ومؤلفه، وتاريخ ومكان صدوره، وملخص موجز عن محتواه، فإنها تعرض النسخة الرقمية منه مجانا للاطلاع عليها في الموقع المخصص لها أو تحميلها كاملة بحجمها. وهي قواعد رسمية تُشرف عليها وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، وتتولى تسييرها المديرية العامة للبحث العلمي والتطوير التكنولوجي (Dgrsdt) من خلال مركز البحث في الإعلام العلمي والتقني (Cerist).

تقتصر هذه الدراسة على ما اشتملت عليه البوابة الجزائرية للإشعار عن الأطروحات (Pnst) التي ظهرت منذ عام 2014، والمختصة بالإنتاج العلمي للباحثين الجزائريين فيما تعلق برسائل ومذكرات الماجستير وأطاريح الدكتوراه التي أطرقها المؤسسات الجامعية الجزائرية. وندعمها بما نشرته من أبحاث المنصة الجزائرية للمجلات العلمية (Asjp) التي تأسست عام 2016؛ وهي تتمتع الآن برصيد قدره 137105 مقالة منشورة في 629 مجلة تشكل فيها العلوم الإنسانية والاجتماعية ما يزيد عن نسبة 80%. فلأي أي حد توفر هذه القواعد مادة علمية تاريخية نوعية في كتابة تاريخ ثورة المقراني؟ هل كانت مصادرها جديدة، وهي كافية وكشفت عن جوانب مظلمة في مسار الثورة ونتائجها؟

أولا البوابة الجزائرية للإشعار عن الأطروحات (PNST):¹ وهي قاعدة بيانات تتولى وترعى الإنتاج العلمي الوطني فيما يخص الرسائل الجامعية، تتولى المؤسسات الجامعية تطعيمها دوريا بنسخ رسائل ومذكرات الماجستير وأطاريح الدكتوراه التي تمت مناقشتها.²
أولا: أطاريح الدكتوراه: ونعتمد البيانات الخاصة بالرسائل التي تمت مناقشتها فقط؛ وهي مرتبة ترتيبا زمنيا تنازليا (دكتوراه دولة، دكتوراه علوم، دكتوراه العلوم الثالث):

الباحث	العنوان	ملاحظة
عتيق العربي	أنثروبولوجيا المقاومة الجزائرية: دراسة حالة الأمير والمقراني والشيخ بوعمامة	دكتوراه بإشراف حقيق نور الدين، نسختها قابلة للتحميل من البوابة ³
الملخص: تبحث هذه الأطروحة في الأسباب العميقة لرد الفعل التاريخي من الاستعمار الفرنسي وقوته، وتسلسل الضوء على آليات نشوء المقاومة الشعبية، ومظاهر التنظيم التقليدي للمجتمع الجزائري.		
قنار جميلة	المنفيون الجزائريون إلى كاليدونيا الجديدة وقويانا بعد ثورة 1871م: دراسة تحليلية لكتاب	دكتوراه بإشراف معتوق جمال، نسختها قابلة للتحميل من البوابة ¹

¹ - <https://www.pnst.cerist.dz>

² - وهذا بموجب القرار الوزاري الصادر عن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بالجزائر رقم 153 المؤرخ في 2012/05/14 الذي حدد طرق التعامل مع هذه القاعدة البيانية واستخدامها؛ وهي موطنة في مركز البحث في الإعلام العلمي والتقني (CERIST).

³ - نوقشت هذه الأطروحة بقسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر 2 عام 2018؛ وهي بسمك 30 سم وتقع في 496 صفحة، رقم تصنيفها في مكتبة "BUC" هو د760.

	المبعدون الجزائريون إلى كاليديونيا الجديدة، مؤسسة هوية منفية: أبعاد ونتائج ثورة المقراني والشيخ الحداد للدكتور صديق تاوتي	
الملخص: تعالج هذه الأطروحة مسألة الرواية الشفوية الموروثة عن الجزائريين الذين أبعدهم فرنسا والمتداولة بين الأحفاد عن المقاومة الشعبية من خلال دراسة كتاب الدكتور صديق تاوتي الموسوم بـ: "المبعدون الجزائريون إلى كاليديونيا الجديدة...". إن هؤلاء المنفيين الجزائريين إلى كاليديونيا الجديدة بعد ثورة 1871م كانوا من القادة والأعيان البارزين، الذين خشيت فرنسا من تجدد ثورتهم، فهجرتهم واستولت على ممتلكاتهم. كما حاولت مسح هويتهم في المهجر بالتنصير، إلا أنهم قاوموا وحافظوا على موروثهم الثقافي ونقلوه للأجيال؛ وهو الدور الذي اضطلعت به على وجه الخصوص جمعية العربي وأصدقاء العرب.		
دكتوراه بإشراف أبو القاسم سعد الله، نسختها غير قابلة للتحميل من البوابة ²	دور عائلي المقراني والحداد في ثورة 1871م	بوعزيز يحي

ثانيا: رسائل ومذكرات الماجستير: ونعتمد البيانات الخاصة بالرسائل والمذكرات التي تمت مناقشتها فقط؛ وهي مرتبة ترتيبا

زمنيا تنازليا (ماجستير نظام جديد):

ملاحظة	العنوان	الباحث
ماجستير بإشراف بوسماحة عبد الحميد، نسختها قابلة للتحميل من البوابة ³	ثورة المقراني والشيخ الحداد 1871م من خلال الشعر الشعبي القبائلي	بن رمضان أحمد
الملخص: تتناول هذه المذكرة نماذج من الشعر الشعبي القبائلي الذي قيل حول ثورة المقراني والشيخ الحداد سنة 1871م، واستعرض الباحث خمسة شعراء وهم زيكي وسي محمد أو محمد والشيخ محمد أوكسين وعلي نارون وأوقنون.		
ماجستير بإشراف صاري أحمد، نسختها غير قابلة للتحميل من البوابة ⁴	أسرة أولاد مقران مجانة خلال العهد العثماني 1538-1837م	بوطبة لخضر
الملخص: أسرة أولاد مقران هي واحدة من الأسر الجزائرية التي نالت شهرة كبيرة، وكانت تتمتع بنفوذ سياسي هام في فترات تاريخية مختلفة. أسست هذه الأسرة إمارة في قلعة بني عباس في قمم جبال البيبان مع مطلع القرن السادس عشر للميلاد، وقد ساند أمراؤها الإخوة بربوس في تأسيس إيالة الجزائر وإلحاقها بالدولة العثمانية، وظلت هذه الأسرة تتمتع بنفوذها خلال العهد العثماني.		

¹ - نوقشت هذه الأطروحة بقسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر 2 عام 2016؛ وهي بسمك 30 سم وتقع في 353 صفحة، رقم تصنيفها في مكتبة "BUC" هو د1250.

² - نوقشت هذه الأطروحة بقسم التاريخ، جامعة الجزائر 2 عام 1975؛ وهي بسمك 27 سم وتقع في 387 صفحة، رقم تصنيفها في مكتبة "BUC" هو أدعت 00004.

³ - نوقشت هذه المذكرة بقسم اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر 2 بتاريخ 2012/07/16؛ وهي بسمك 30 سم وتقع في 232 صفحة، رقم تصنيفها في المكتبة هو THA3.12197.

⁴ - نوقشت هذه المذكرة بقسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القدر بقسنطينة عام 2006، وهي بسمك 31 سم وتقع في 237 صفحة، رقم تصنيفها في مكتبة "BUC" هو 961/41.

ثانيا البوابة الجزائرية للمجلات العلمية (ASJP)¹: تنشر هذه البوابة الأبحاث التي تودعها المجلات الجزائرية العلمية الصادرة في معظمها من جامعات التعليم العالي ومراكز ومخابر البحث، وهي قابلة كلها للتحميل مجانا. ومن خلال البحث الالكتروني في هذه البوابة عن الدراسات التي تناولت موضوع "المقارني"، عثرنا على هذه العناوين التي نفضل تقديمها مرتبة ترتيبا زمنيا تنازليا، وتصنيفها ضمن المحاور الآتية:

1- مصادر الموضوع: الخصوصية التاريخية والأدبية

- بريم كمال، "وضع قبائل إقليم برج بوعريريج بعد انتفاضة المقارني 1871م في ضوء وثائق الأرشيف الفرنسي"، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة برج بوعريريج، المجلد الأول، العدد الثالث، 2020م، ص ص 9-26.²

- صحراوي عبد القادر، "مقاومة المقارني والحداد من خلال كتابات لوي رين (Louis Rinn) في ضوء المجلة الإفريقية"، الحوار المتوسطي، جامعة سيدي بلعباس، المجلد 7، العدد 1، 2016م، ص ص 272-277.³

- خليف عبد القادر، "مقاومة المقارني في الشعر الشعبي"، الآداب، جامعة قسنطينة 1 الإخوة منتوري، المجلد 8، العدد الأول، 2005م، ص ص 169-183.⁴

2- الأسرة المقارنية وأنصارها: الأعلام والإمارة

- كعوان فارس، "مفتي الشلف الوانوعي بن بومزراق المقارني (1867-1948م): سيرته ومواقفه من خلال مراسلاته و المصادر المعاصرة له"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، المجلد 33، العدد 3، 2019م، ص ص 565-582.⁵

- بوطبة لخضر، "موقف أسرة أولاد مقران من الاحتلال الفرنسي"، مجلة التاريخ المتوسطي، جامعة بجاية، المجلد 1، العدد 1، 2019م، ص ص 73-92.

- بومولة نبيل، "إستراتيجية الأتراك العثمانيين اتجاه القوة الناشئة ببجاية (المقارنيين)"، مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، جامعة أم البواقي، المجلد 4، العدد 1، 2017م، ص ص 772-788.⁶

- رواجي العياشي، "عائلة المقارني والأمير عبد القادر 1832م - 1847م"، التواصل في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة عنابة، المجلد 18، العدد 2، 2012م، ص ص 82-88.⁷

- فايد بشير، "جوانب من حياة الشيخ سي عزيز ابن الحداد"، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة سطيف 2، المجلد 3، العدد 1، 2006م، ص ص 65-76.⁸

3- الفعل الثوري وآلة الاستعمار:

- محمد مختار زغار، "بنية الفرق العسكرية للمقاومات الشعبية فرقة مسبلي مقاومتي لالا فاطمة نسومر والشيخين المقارني والحداد أنموذجا"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، المركز الوطني للدراسات والبحث في التاريخ العسكري الجزائري، المجلد الثاني، العدد الأول، 2020م، ص ص 116-130.⁹

¹ - <https://www.asjp.cerist.dz>

² - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/125305>

³ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/8068>

⁴ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/20233>

⁵ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/103909>

⁶ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/24299>

⁷ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/46937>

⁸ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/42193>

⁹ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/138691>

- فايد بشير، "قادة ثورة المقراني والحداد أمام محكمة الجنايات بقسنطينة سنة 1872م"، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مركز الحكمة للبحوث والدراسات، الجزائر، المجلد الخامس، العدد 12، 2017، ص ص152-164.¹
- هلايلي حنيفي، "الظروف التاريخية الممهدة لثورة المقراني والشيخ الحداد و نتائجها على السياسة الاستعمارية"، الحوار المتوسطي، جامعة سيدي بلعباس، المجلد 6، العدد 1، 2015، ص ص13-27.²
- جيلالي بلوفة عبد القادر، "أهمية ومكانة ثورة المقراني والحداد في مسيرة النضال الوطني الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي"، عصور، جامعة وهران 1، 2012، المجلد 11، العدد 2، ص ص235-244.³
- بجاوي محمد، "ثورة المقراني في منطقة باليسترو" الأخرية " سنة 1871م"، المصادر، المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، المجلد 12، العدد 22، 2010، ص ص53-92.⁴
- 4- الثورة ومنفى كاليديونيا الجديدة:
- قرين عبد الكريم، "جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر: معتقل كاليديونيا أنموذجا"، المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية، المركز الجامعي بتندوف، المجلد 5، العدد 2، 2020، ص ص91-108.⁵
- بن صحراوي كمال، "التهجير القسري إلى كاليديونيا الجديدة جدلية حق العودة وتعت الإدارة الاستعمارية: قراءة في بعض الوثائق الأرشيفية"، مجلة المواقف، جامعة معسكر، المجلد 12، العدد 1، 2017، ص ص51-62.⁶
- قنار نعيمة، "التهجير القسري للجزائريين إلى كاليديونيا الجديدة جريمة ضد الإنسانية"، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة البليدة 2، المجلد 8، العدد 1، 2015، ص ص147-161.⁷
- 5- الدراسات المحررة باللغة الأجنبية:
- Hachi Idir, "Nnfaq[n]urumi : Le nom kabyle de l'insurrection de 1871", Insaniyat, Crasc, Oran, Vol. 22, N° 82, 2018, pp. 101-112.⁸
- Oulahal Rachid, Guerraoui Zohra, Costa-Fernandez Elaine, "Entre mémoire oubliée et mémoire retrouvée. La question de la transmission intergénérationnelle pour les descendants d'algériens de Nouvelle- Calédonie", (psychisme et anthropos), université d'Alger 2, 2018, Vol. 2, N° 1, pp. 39-50.⁹
- Settari Ouattmani, "Lecture critique de l'œuvre de Luis Rinn sur l'insurrection de 1871 en Algérie", Oussour Al Jadida, Université d'Oran1, Vol. 3, N° 8, 2013, pp. 64-75.¹⁰
- Sari Djilali, "Sort et destinée des déportés algériens en nouvelle Calédonie", Al-Maçadir, Centre national de recherches sur le mouvement national et la révolution de 1954, Vol. 11, N° 19, 2009, pp. 41-53.¹¹
- Ouennoughi Mélica, "Les déportés Maghrébins en Nouvelle- Calédonie. Naissance d'une microsociété (de 1864 à nos jours)", Insaniyat, Crasc, Oran, Vol. 10, N° 33, 2006, pp. 53-68.¹²

¹ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/68867>

² - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/8288>

³ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/95663>

⁴ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/46467>

⁵ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/140315>

⁶ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/33221>

⁷ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/62497>

⁸ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/114459>

⁹ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/62421>

¹⁰ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/47188>

¹¹ - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/52294>

¹² - <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/42894>

خاتمة:

أجريت هذه الدراسة في قواعد البيانات المذكورة منذ النصف الثاني من شهر ديسمبر 2020م، وتم الانتهاء منها يوم 21 جانفي 2021م، وعليه قد ترد معطيات جديدة عن الموضوع لم نأت على ذكرها.

إن البحث في موضوع ثورة الحاج محمد المقراني لعام 1871م قد قاد الباحثين إلى الشروع في دراسة مواضيع ذات صلة، مثل البحث في تاريخ الأسرة المقرانية خلال العهد العثماني، وتوطين فرنسا للجزائريين في كاليدونيا الجديدة.

كشفت هذه الدراسة عن اهتمام الباحثين بالموضوع في أكثر من جامعة ومجلة على المستوى الوطني، غير أن البحث لا يزال متواصلا، ومصادره تزخر بتفاصيل ذات أهمية، خاصة الأرشيفية منها. وعليه يمكن إثارة إشكاليات بحثية متميزة في الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية والنفسية أفقيا وعرضيا.

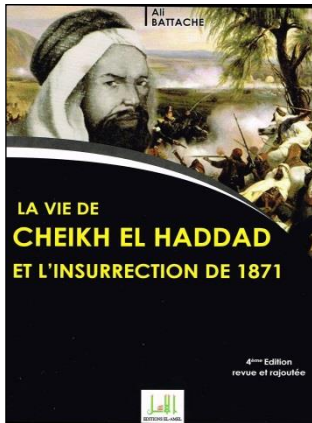
Résumé du livre

LA VIE DE CHEIKH EL HADDAD ET L'INSURRECTION DE 1871¹

Ali Battache

Chercheur en histoire de Béjaïa

INTRODUCTION



«Le peuple algérien n'est pas un amalgame de races et de nationalités comme le prétendent certains, mais un peuple uni et homogène qui a pu résister à l'invasion étrangère. Il n'est pas déficient en civilisation, mais c'est la coercition du colonisateur qui a entravé son développement et son épanouissement.»

La Révolution de 1871 «Yahia Bouaziz»

Le soulèvement de 1871 est considéré parmi les plus importantes révoltes populaires. Il a la particularité d'être celui qui a vraiment fait douter la France de sa force de frappe. C'est une révolte pour la terre, survenue au moment où l'armée française croyait, après quarante ans de guerre, qu'elle a fini par mater le peuple. La riposte française a été sans égale: toute son armada a été mobilisée ainsi les colons ont été armés pour former des milices, les bachaghas avaient vu leurs prérogatives élargies pour mieux asservir le peuple.

Nous devons impérativement faire un constat exhaustif du degré de modernité et de développement que les nations européennes ont atteint, après la réussite de la révolution industrielle, et de tirer les leçons de toutes les erreurs stratégiques des différents soulèvements populaires au fil de l'histoire. La situation géostratégique de l'Algérie est telle que la France était contrainte de céder plus de 90% de ses colonies, au début de la deuxième moitié du vingtième siècle, pour concentrer ses forces, son énergie sur l'Algérie et réprimer ainsi toute idée d'indépendance.

La révolution de 1954 était l'aboutissement de ce cycle de soulèvements, où tout un peuple uni pour la même cause, a décidé de mettre fin à cette colonisation: il a pris les armes pour défendre son pays corps et âme, refusant la reddition et l'abdication.

La Tariqa Rahmaniya:

Elle a été fondée par sidi M'hamed ben Abderrahmane surnommé Bouqebrine (le saint aux deux tombes). Il voyagea en Inde, en Turquie, à al Hidjaz et au Soudan afin de transmettre, diffuser le savoir et les connaissances. Après ces longs périples, il revint de nouveau en Algérie. La Rahmania est devenue la plus répandue en Algérie, et elle comptera le plus d'adeptes. C'est ainsi qu'il y eut l'apparition de plusieurs zaouïas, comme celle de Constantine, de Tolga, d'Ouled Djellal ainsi que celle de Lokri à Seddouk avec à sa tête cheikh el Haddad, le leader de la confrérie de (1857-1873). Il y eut en outre la zaouïa de Tlaghma à Mila, avec à sa tête cheikh el Hamlaoui et celle de Taghrest fondée par Mohamed Saïd ben Amokrane es Sehnouni, tous deux élèves de cheikh el Haddad.

¹ - 4ème édition Revue et rajoutée.

Les confréries religieuses en Algérie: Statistique de 1871

La confrérie	Nombre de zaouïas	Nombre d'adeptes
Rahmaniya	117	300 mille
Tidjaniya	32	25 mille
Qadiriya	33	24 mille
Derqaouiya	21	25 mille

LA CONFRERIE RAHMANIYA : SON FONDATEUR ET SON EVOLUTION

La Rahmaniya est une confrérie soufie, du nom de son fondateur le jurisconsulte (faqih) sidi M'hamed ben Abderrahmane Bouqobrine descendant de la famille Ouvavas, plus connu sous le pseudonyme d'el-Guechtouli el-Jerdjeri el-Azhari. Il est né entre 1715 et 1720 dans son village natal Baâli à Ait Smaïl, dans la région de Boghni en Kabylie sur les hauteurs du Djurdjura, il est issu d'une famille d'érudits. C'est le leader de la confrérie Rahmania qui est un ordre très répandu dans plusieurs régions d'Orient et d'Afrique du Nord. La Rahmaniya est affiliée à l'ordre khelouatia apparu en Orient et fondé par cheikh Ibrahim az-Zahad au milieu du quatorzième siècle après J-C.

Il avait commencé ses premières études dans l'école coranique de son village puis il continua son instruction à la zaouïa ben Arab (Ouarab) des Ath Irath auprès du cheikh sidi Hussein ibn Arab .

À l'époque, les zaouïas du pays enseignaient la langue arabe, le Coran, le hadith, le fiqh, la charia, la poésie mais également les mathématiques et l'astronomie. Il est très tôt dirigé vers les sciences de la religion musulmane. Il étudiera ensuite quelque temps à Alger, Par la suite il entreprit un voyage au Moyen-Orient en pèlerinage pour la Mecque vers 1740. De retour des lieux saints, il s'arrêta à l'université d'el Azhar où il fit la connaissance de nombreux oulémas mais celui qui l'a le plus influencé fut le cheikh Abou Abdellah sidi Mohamed ben Salem el Hafnaoui, dont il deviendra disciple en s'affiliant à l'ordre des khelouatia. Lorsqu'il eut acquis son instruction, son maître le chargea de faire du prosélytisme, en Inde et au Soudan, où il initia, parmi d'autres, le sultan du royaume de Darfour. Il partit ensuite en Turquie et au Hidjaz où il resta plusieurs années à enseigner les sciences islamiques. Sa siyaha (voyage spirituel) dans ces contrées durera six années. Après plus de trente ans d'absence, son maître lui permit de rentrer dans son pays en 1770, après avoir reçu l'investiture d'el-Kharka (la guenille). C'est en Kabylie à Ait Smaïl qu'il élit domicile, au sein d'une population qui a toujours affiché son hostilité à l'égard de l'autorité ottomane.

Il fonde une zaouïa et il ne tardera pas à faire l'unanimité. Son succès et sa réputation ont fait qu'il soit très sollicité. Dans le but de propager son savoir, il partit vers Alger où il professa à el Hamma, sa réputation l'avait déjà précédé. Il fonda une autre zaouïa qui rayonnera sur toute l'Algérie. Sidi M'hamed présentait une nouvelle méthode d'enseignement du soufisme, ce qui inquiéta les imams et les oulémas d'Alger, mais aussi la caste maraboutique qui le jalousait, voyant en lui une menace et un rival qu'il faut absolument discréditer. Alors, ils dénoncèrent son enseignement et l'accusèrent même de bidaâ (innovation). Pour le condamner, ils constituèrent un madjliss (conseil) d'oulémas présidé par le mufti d'Alger sidi el hadj Ali ben Amine, espérant obtenir une fatwa désavouant le cheikh et monter le pacha Mohamed Othmane contre lui. Lors des grands débats organisés à la grande mosquée, le pacha fut impressionné par le niveau intellectuel de sidi M'hamed et l'invita à résider quelques jours dans son sérail, sans doute n'étant pas prêt à affronter la ferveur populaire qui entoure l'action de sidi M'hamed. Devant toutes ces pressions, sidi M'hamed préféra rentrer dans son village natal, Ait Smaïl. Loin de la capitale et de l'autorité Ottomane, dans un climat d'entente, de

liberté et de tolérance nécessaire à la réalisation de son projet. Il se mit à propager ses idées prônant l'humanisme et le rapprochement des cultures et des peuples.

Deux jours avant sa mort en 1793, à l'âge de 73 ans, sidi M'hamed se réunit avec ses adeptes et leur désigna son successeur sidi Ali ben Aïssa al-Maghribi.



Des zaouïas sont fondées un peu partout et la Rahmania devient l'une des plus importantes par le nombre de ses adeptes.

Sidi M'hamed est considéré comme le grand leader de l'ordre des Rahmaniya, aidé dans sa mission par des conseillers et des représentants de toutes les zaouïas implantées à travers le pays. Même sa mort avait constitué une menace pour les Turcs. En effet, de peur que le tombeau du saint se trouvant dans une région insoumise, ne deviennent une menace pour son autorité, vu la grande sympathie dont jouissait sidi M'hamed auprès de la population, l'administration turque envoya un groupe de khouans algérois pour récupérer le corps pour la ramener là où, selon eux, elle devait être, mais il se heurta à l'opposition déterminée des Kabyles. Or, ce groupe se défendait d'avoir rapporté le corps du saint et l'avoir inhumé à el-Hamma. Les Ait Smaïl soutinrent que les restes du cheikh se trouvaient encore dans sa tombe à Bounouh, d'où cette appellation Bouqobrine (L'homme aux deux tombes).

Il initie de nombreux disciples, dont sidi Ali ben Aïssa, sidi Errahmouni, sidi Abderrahmane Bachtarzi el Qasantini qui propagera la tariqa dans le Constantinois et dans tout l'est du pays, Ibn Azzouz el Bordji, sidi Ahmed Tidjani fondateur de la tariqa Tidjaniya, Ahmed ben Aiyadh, el Bachir el Ouinissi, Hammouda el Maqaissi, Said ben abi Daoud, Mohammed el Oumali, Mohammed ben abi el Qacem Ettadjdioui, Mustapha Etrabelssi, Mustapha ben sidi Aïssa, et bien d'autres.

Le successeur de sidi M'hamed ben Abderrahmane, en l'occurrence Ali ben Aïssa, dirigea la zaouïa-mère pendant près de quarante-trois ans, de 1794 à 1836. Il était l'un des enseignants du cheikh Mohamed Ameziane ben Ali el Haddad. Il sera succédé par cheikh si Belqacem Oulhafidh des Maâtka, ne resta que peu de temps en fonctions, et serait mort empoisonné en l'an 1837. En 1838, c'était cheikh hadj el Bachir qui fut désigné à la tête de l'ordre, mais il sera vite déchu malgré l'appui de l'émir Abdelkader. C'est la cheikha Lalla Khadija veuve du cheikh Ali ben Aïssa, qui prendra la relève, mais elle ne fit pas l'unanimité auprès des Moqadems.

Devant cette situation, la cheikha pria cheikh hadj el Bachir de reprendre de nouveau la direction et il accepta. Il restera à la tête de l'ordre jusqu'à sa mort en 1842. Il sera remplacé par cheikh si Mohamed ben Belqacem naît Anan de la région des Ath Zmenzer, qui dirigera la confrérie pendant près de deux ans (entre 1843 et 1844). En 1845, el Hadj Amar fut désigné Moqadem. Il est considéré comme le véritable organisateur de la révolte de la Kabylie avec Lalla Fadhma N'Soumer et Boubaghla (1851-1857). Après l'expédition française de 1857 et la défaite d'Icharidhen, el hadj Amar fut contraint de s'exiler en Tunisie où se trouvait la zaouïa de Nefta. Les Moqadems désignèrent plusieurs chefs, dont el hadj Mohamed el Djaâdi, des Béni-

Djaâd d'Aumal (région de Sour el Ghazlane). Mais les différentes tribus se sont consenties à choisir cheikh el Haddad comme leader de la confrérie Rahmania. Celui-ci jouera un rôle prépondérant dans l'insurrection de 1871.

•M'hamed Ben Abderrahmane Bouqabrane (mort en 1793)

•Cheikh Sidi Ali Ben Aïssa (1794 – 1836)

•Cheikh Hadj El Bachir 1838.

•Cheikha Lalla Khadîdja

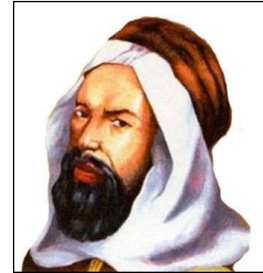
• Retour de cheikh Hadj El Bachir (mort en 1842)

•Cheikh Mohamed Ben Belqacem (1843– 1844)

•Cheikh El Hadj Amar (1845 – 1857)

•Si El Hadj Mohamed El Djaâdi 1857

•Cheikh Mohamed Ameziane Ben Ali El Haddad (1857-1873)



LA VIE DE CHEIKH EL HADDAD:

La famille du cheikh el Haddad est d'origine algérienne, au village de Seddouk Oufella, (commune actuelle de Seddouk, Wilaya de Bejaia) Ali el Haddad, le père du cheikh el Haddad était un homme doué d'intelligence, de jugement qui possédait beaucoup de biens. Assoiffé de savoir, Ali el Haddad institua chez lui une médersa de tolbas.

C'est à Seddouk Oufella, aux environs de 1790, que Mohamed Ameziane el Haddad est né. Son père s'occupa de son instruction sans donner autant d'importance à ses quatre enfants plus âgés auxquels il avait fait apprendre l'art de travailler le fer.

Donc, Mohamed Ameziane a rompu la tradition des forgerons pour étudier au sein de l'école du village où il a acquis assez de connaissances. Il rejoignit alors la zaouïa du cheikh Rabie Belmouhoub à Imoula. Mohamed Ameziane poursuivit sa formation dans cette zaouïa, où il se distingua par sa brillance et son intelligence, cheikh Rabie Belmouhoub, qui avait, entre autres, la charge de son éducation, remarqua sa soif du savoir et ses capacités d'assimilation des connaissances. Pour compléter sa formation, il partit dans le Djurdjura chez les Zwawas à la zaouïa du cheikh ben Arab (Ouarab) à Larbaâ nath Irathen, où, il acquit beaucoup de connaissances et de savoir. Par la suite, Mohamed Ameziane s'affilia à la zaouïa des Rahmaniya à Ghechtoula aux Ait Smaïl, fondée par cheikh M'hamed ben Abderrahmane, où il se consacra à l'étude du soufisme.

C'est le disciple du cheikh sidi Abderrahmane, cheikh el hadj Abdelkader ben el Mokhtar qui l'initia à la Rahmania. El Haddad continuera à apprendre les principes de la tarîqa sous l'œil bienveillant du premier successeur du fondateur cheikh Ali ben Aïssa, celui-ci était impressionné par l'assiduité et la persévérance de son nouvel étudiant, ainsi que par ses valeurs humaines, ce qui le motiva à le désigner moqaddem de la tarîqa Rahmania. C'est ainsi qu'el Haddad eut l'autorisation d'ouvrir une zaouïa dans son village natal au profit des étudiants et des pauvres et il eut même la permission de conférer l'ouerd.

Après 18 ans passés au côté du cheikh ben Aïssa Il quitta alors son maître âgé et continua à étudier sous le regard de l'un des disciples de ben Aïssa, cheikh el Mahdi es-Sekelaoui (1786-1862). Celui-ci était considéré comme l'un des décideurs au sein des tribus des Zwawas lors des premières campagnes françaises dans la région.

Cheikh el Haddad revint chez lui, à Seddouk Oufella. En raison du rang scientifique, social, mystique, religieux et du respect qu'il imposait et la confiance qu'il inspirait, il fut choisi par la population du village Seddouk Oufella pour être imam et enseignant dans la

mosquée. Le nombre croissant d'étudiants qu'il encadrait et celui des khouans faisant leur pèlerinage chez lui l'ont incité à construire une autre zaouïa propre à lui en dehors du village (lokri). Il se maria avec une femme de Seddouk Ouadda Fatma Ath Yahia, et eut plusieurs filles et deux garçons : Aziz et M'hamed. Ils deviendront des figures de proue dans le djihad qu'allait déclarer leur père.

Le cheikh est porteur de message, c'est un soufi qui s'est sacrifié pour mener à terme sa noble mission. Il s'est abstenu des plaisirs de la vie et était complètement au service des siens, loin de vouloir s'enrichir. Il fit de sa zaouïa une tribune de culture et de sensibilisation, à partir de laquelle sera diffusé le concept du djihad, ce qui a motivé les Algériens à adopter l'insurrection de 1871.

Résumé du contenu du livre de tassawunf de cheikh el Haddad



Le livre se compose d'un prologue, de 12 chapitres et d'une conclusion. Dans le prologue, el Haddad évoque la déchéance de la situation sociale des Musulmans qui ne cessaient de négliger leur religion; il écrivait « *Il ne reste de l'islam que son nom et du coran que son dessein ...* ». Il mettra en exergue la propagation des bidaâ (innovation), en disant : « *Les bidaâ ont envahi le monde. Aucune ville, aucun village n'y échappe. J'ai constaté cela moi-même. La sunna est devenue bidaâ et la bidaâ sunna* ». Il évoque en outre les raisons l'ayant incité à écrire. Dans les chapitres, il insista sur l'évocation de Dieu, de l'entente entre les gens, mais aussi ouvrir les portes du savoir, loin des plaisirs matériels. Il parla aussi de l'éducation de l'âme et sa purification. Il dénonça également avec véhémence les auteurs de bidaâ... et les charlatans. Concernant les

chouyoukh, el Haddad, les divisa en 03 catégories. En guise de conclusion, (l'auteur) parla de questions sensibles, comme l'âme, la sobriété, la fidélité et la fatwa.

Ce manuscrit se configure comme suit:

- préambule,
- muqaddima (introduction),
- al-targhîb fî dîkr Allâh (recommandation de l'invocation de Dieu),
- al-tarhib wa al-tahdîr (mise en garde contre les tentations),
- bab fawâ'id al-dîkr (point relatif aux avantages de l'invocation),
- bab al-djâh fî al-dîkr (point relatif de l'invocation à haute voix),
- bab fî al-dîkh wa al-tilâwa (point relatif à l'invocation et la plasmodie),
- bab fî al-dîkr wa al-fîkr (point relatif à l'invocation et l'ascèse),
- bab fî âdâb al-dîkr (relatif aux règles de convenances de l'invocation),
- bab fî dîkr ba'dh ahwâlihîm (relatif à l'évocation de l'état spirituel),
- bad al-mashyakha (point relatif au statut de maître et de guide spirituel),
- bab al-talammud (point relatif à l'apprentissage),

Le manuscrit se divise en deux, et ce qui suit est tiré d'une autre copie différente tant sur le plan du papier que de l'écriture.

-bab al-thani 'ashar fî al-fraq bayna al-abrâr wa al-muqarrabin (onzième point relatif à la différence entre saints pieux et sages rapprochés).

- khâtima (conclusion).

Si l'on reprend le point relatif au statut de maître et de la guidance, il a subdivisé en trois et donne la configuration suivante

- Shaykhu ta'allum (maître de l'apprentissage et d'initiation) : celui-ci doit se doter de trois qualités irréversibles : 'aqlun râdjîh (esprit prépondérant), 'ilmun sahîh (savoir vrai) et lisân fasîh (discours clair),

- Shykh al-tarbiyya (maître de la guidance) : il doit être toujours à l'œuvre ('amalun tâbit), dihn thâqib (mémoire indéfectible) et siyâsa tâmma (conduite large),
- Shaykh al-ifada wa al-tarbiyya (maître de l'éducation et le guide spirituel) : kalâmuhu mamzûdj bî nûri ma'rifati-hi (son illumination doit se manifester dans son discours), haraka mu'athîra bi wudjud ru'yati-hi wa imdâdi-hi, (sa vision et son assistance doivent se manifester dans son mouvement, asluhu bi qadri mukhalatati-hi wa suhbat-hi (sa fréquentation et son compagnonnage construisent son identité).

Le livre constitue un point de repère important aux cheminants dans la tarîqa. Il a été élaboré par un grand maître soufi qui fût le dernier grand maître et fédérateur de la tariqa Rahmania. Ce manuscrit s'impose en tant que référence en matière religieuse et spirituelle.

Dictionnaire du Cheikh el Haddad :

Ce dictionnaire se compose de 100 feuillets. Des mots traduits du Kabyle vers la langue Arabe et dont le nombre est de neuf cent quarante-cinq (945) mots. La langue utilisée est l'arabe dialectal et quelques mots en arabe classique. Le dictionnaire du cheikh el Haddad est classé parmi les dictionnaires utilitaires sur lesquels s'appuie toute personne dans sa vie quotidienne.

Traduction en kabyle transcrit en caractères arabes	Termes en arabe dialectal	
ثمارث	الحي	ثمارث
اغصمار	الهرناس	اغصمار
الشعر	الشعر	الشعر
تشكوحث	القطوش	تشكوحث
تكرجومث	القرجوم	تكرجومث
امكاح	الرقب	امكاح
ثيات	لكتاف	ثيات
اخقون انتيات	روس	اخقون انتيات
اذمارن	لكتاف	اذمارن
ثيشين	الصدر	ثيشين
اعرور	ليزازل	اعرور
اعبوض (ط)	الظهر	اعبوض (ط)
ثميط	البطن	ثميط
اول	السر	اول
افواذ	القلب	افواذ
	الري	

La zaouïa de cheikh El Haddad «LOKRI»

La zaouïa de « LOKRI »

Photo représentant l'école française construite sur les vestiges de la zaouïa « Lokri » détruite par les français le 9 juillet 1871. Au loin le village colonial Seddouk Centre.

La branche spirituelle de la Rahmania anné 1897

Elève et Moqaddems de Mohamed Améziane ben Ali el Haddad (cheikh el Haddad):

- El hadj Ali el Hamlaoui
- Abou el Kacem el Boudjellili
- Cheikh Ali
- Amara Bédia
- Maati Allah si el hadj Ahmed
- Ahmed ben cheikh
- Ahmed ben H'mida
- Djémili ben Said
- Belkacem ben Mohamed ben Chaab
- El hadj ben Belkacem ben Bouzidi
- Mahdjoub si Taleb ben Mahdjoub
- Mohamed ben Abdessamed

- Derouiche si Belkacem ben Ali
- Mohamed Ouled el Habib
- Moulesouigha Mohamed
- Bouzid si Ahmed ben Mohamed
- Ben Lounis el Arbi
- Mohamed ben Ali

La proclamation du djihad au souk de M'cisna à Seddouk.

Le 08 avril 1871 au marché de M'cisna, à Seddouk, une assistance composée de milliers de personnes dont, les fidèles de la tarîqa Rahmania, s'étaient réunis. Alors cheikh Aheddad quitta sa kheloua où il méditait et priait. S'appuyant sur les épaules de ses deux fils Aziz et M'hamed, entouré par les Moqadems, avec sa modestie légendaire, il se montra à la foule qui était enthousiaste à l'idée du Djihad. Cheikh el Haddad a tenu à être à côté de ses frères, en dépit de son âge avancé (80 ans) et sa santé fragile. Ce défi pour sa maladie témoignait d'un grand stoïcisme ainsi que d'une résolution inébranlable de mettre fin à la convoitise des colons. En outre dans ces circonstances, la religion ne se sépare pas des obligations légitimes de la société, notamment le sort de sa patrie.

Après avoir dirigé la prière du dohr, il se mit en face du soleil et entama son discours d'une voix chaude et envoûtante.

« Le Français est là, nous devons le combattre. Nous n'avons pas d'autres choix. L'heure est arrivée pour nous débarrasser de ceux qui veulent semer dans nos rangs la division et la haine... Il n'y a que les lâches qui hésiteront. Unissez-vous pour combattre ceux qui ont osé porter atteinte à l'honneur de notre pays. Nous devons dépasser les luttes intestines et les calculs mesquins car la question est d'une extrême urgence...Soyez vigilants avec les alliés de la France, coupables d'injustices sur le peuple ; combattez-les étant donné qu'ils seront à l'avant-garde des Français pour nous écraser. Evitez de piller, de brûler ou de commettre des dépassements, cela nous nuira. N'ayez pas peur mais armez-vous de foi et de bravoure, soyez prêts à mourir. Avec l'aide d'Allah, le tout-puissant et la bénédiction de notre prophète Mohamed, nous jetterons les Français à la mer qu'ils avaient empruntée, comme je jette ma canne à terre. »

Cet appel aura un écho large: il a enflammé les esprits et allumé le feu de la révolution dans les cœurs. La voix d'el Haddad retentit à travers les montagnes pour aller jusqu'aux plaines et au Sahara, et partout où s'étendait l'influence de la confrérie Rahmaniya. Les gens se précipitèrent à prendre les armes, du fusil au sabre en passant par la hache pour défendre avec conviction la cause qui consiste à exclure l'envahisseur en bravant la mort.

Jugements et déportation



Cour d'assises de Constantine. Le procès des grands chefs de la révolte de 1871 Jugements et déportation

C'était dans les tribunaux civils et militaires de Constantine, et de Blida qu'a eu lieu le procès des grands chefs de l'insurrection. Ceux qui avaient participé aux combats de Souk Ahras sont jugés devant la cour d'assises d'Annaba (Bône) en janvier 1872.

Les principaux meneurs des combats de Palestro (Lakhdaria) furent jugés en cour d'assises, le 21 janvier 1873 à Alger. Quarante-quatre condamnations furent prononcées. Il y eut sept condamnations à mort, sur ces derniers 5 furent graciés, huit autres envoyés en déportation.

Les procès de Constantine:

Le procès est réparti sur trois sessions, la première ordinaire ouverte le 10 mars 1873 et les deux autres extraordinaires ouvertes le 31 mars et le 28 avril 1873. La cour condamna 104 prisonniers à la déportation en Nouvelle-Calédonie. Parmi les déportés figuraient 74 notables, des agriculteurs, des Moqadems, des Amines... Le procès cheikh el Haddad et celui de ses deux fils cheikh Aziz et cheikh M'hand eut lieu à Constantine le 5 Avril 1873. L'arrêté rendu public le 19 avril 1873 par la cour d'assises de Constantine, condamnait Aziz à la déportation il avait d'abord été condamné à mort, il lui sera fait application de l'article 43 du décret du 16 mars 1852 et sa peine sera commuée en déportation ainsi que son frère. Le chef spirituel de la révolte et le leader de la Rahmania, cheikh el Haddad écopa d'une peine de prison dans l'isolement pour une durée de cinq ans, mais compte tenu de son âge avancé, il ne supporta pas la prison et mourut quelques jours seulement « *Si les Français m'ont condamné à cinq ans, Dieu ne me laissera vivre que cinq jours* ».

En effet il mourut durant le mois où fut prononcée la sentence le 29 avril 1873 à l'âge de 83 ans. Bien qu'il ait émis le vœu d'être enterré dans son village natal Seddouk oufella, le gouverneur d'Alger le priva de cette volonté. Il fut enterré au cimetière des musulmans à Constantine. Une foule immense venue de tous les coins d'Algérie l'avait accompagné à sa dernière demeure.

TESTAMENT

Du cheikh Mohammed Ameziane ben el Haddad.

A ceux qui verront notre présent écrit, Oulama (docteurs, savants), fougaha (jurisconsultes), khouan (frères en religion) et autres, aux chefs et aux membres des tribus, salut !

Nous vous adressons nos salutations, les plus complètes, nous appelons sur vous les faveurs et les bénédictions divines.

Si vous êtes dans un état prospère, nous en rendons grâce à dieu. Nous venons vous faire part du décès de notre père et vénéré cheikh si Mohamed Ameziane ben el Haddad à l'âge de 83 ans. Notre père a rendu le dernier soupir dans la nuit du lundi au mardi premier jour du mois rabiaâ-el- aoual, l'année 1290 de l'Hégire (28 avril 1873 de l'ère chrétienne). Il a été inhumé dans le cimetière musulman à Constantine, dans la soirée du mardi.

Les Oulamas de cette ville se sont joints au funèbre cortège, ils ont rendu au défunt les honneurs dus à son rang,. Nous avons résolu que la dépouille mortelle de notre père serait transportée à la bourgade de Seddouk, où est situé le cimetière dans laquelle s'élève le mausolée de nos aïeux. Nous voulions ainsi exécuter les dernières volontés de notre père.

Mais M. le gouverneur général d'Algérie nous a refusé l'autorisation, et il nous a ordonnés de l'inhumer, quant à présent, à Constantine...

Ce testament se devise en sept articles, dont notre père nous a confié la promulgation et la stricte exécution. C'est lui-même qui en a rédigé le texte, quelque temps avant sa mort.

Il nous a dit :

O mes fils ! Retenez tous les deux l'expression de mes volontés dernières. Vous avez pris l'un et l'autre avec moi, votre part des fatigues que nous avons essuyées, vous avez supporté

votre part des angoisses indicibles, des horribles tortures que nous avons endurées. O Mohamed ! O Aziz j'ai supplié le dieu très-haut de vous protéger, de vous faire miséricorde et de vous préserver des peines de la vie présente et des tourments de la vie future.

Voici mon testament :

Article1: Je recommande à mes khouans de bien se pénétrer de la crainte de dieu tout puissant, de s'entraider, de supporter les épreuves dont le très haut nous affligés. «Soumettez-vous patiemment au décret de votre seigneur, et il ne cessera de tenir constamment ses regards fixés sur vous » dieu a dit encore « la récompense de ceux qui patienteront sera incroyable». Abandonner vous a la volonté de dieu. Chasser les anxiétés qui étreignent vos poitrines déchire vos cœurs.

O mes deux fils, O mes khouanes ! Cessez de vous affliger de cette décision judiciaire, par laquelle nous avons été commandés, les uns à la détention, les autres à la déportation, ne vous inquiétez pas de nos biens pillé, de nos propriétés saisies, frappées de séquestre, de nos enfants errant. Considérez vos fautes avant d'envisager celles d'autrui et vous trouverais alors bien douce les peines qui vous ont été infligées, et vous aurais alors retrouvé la tranquillité du cœur, le calme de l'esprit, et vous vous seriez alors concilié l'agrément de Dieu et l'approbation des hommes, s'il plait à dieu or, rien n'est impossible à Dieu, rien n'est au-dessus de sa puissance infinie.

Art 2 : 0 mes deux fils je vous charge de transmettre mon salut à toute la communauté des musulmans, sans exception je sollicite leur pardon, leur prières leur vœux bienveillants et je leur offre les miens et Dieu (puisse-t-il être exalté) nous avancera.

Art 3 : 0 mes deux fils ! Je vous recommande de déposer mes dépouilles mortelles dans la nécropole de nos aïeux au milieu de mes parents.

Art 4: Vous enverrez à la totalité des tribus un exemplaire de mon présent testament qui s'adresse à vous en particulière et à tous en général.

Art 5: Renoncez à des errements qui constituent tout à la fois et une offense en vers le seigneur et un attentat contre la société.

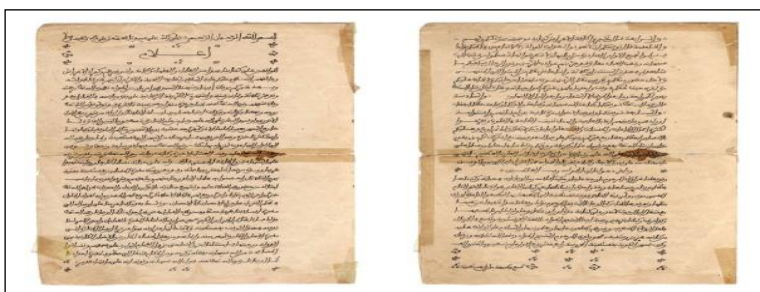
« Toutes ces péripéties amèneront pour vous une période de repos d'apaisement ainsi la guérison succède à la maladie, ainsi les clartés des jours viennent dissiper les ombres des nuits.

Art 6: Je vous conjure d'obéir au dieu tout puissant, à votre mère de vous obéir les uns aux autres.

Art 7:O mes deux fils ! O mes khouans ! Je vous adjure, d'observer fidèlement les statuts de l'ordre. Chassez de vos esprits toute idée susceptible de vous détourner de la voie que je vous ai tracé.

En terminant nous adressons nos actions de grâces à Dieu maitre des mondes. Et le salut à tous ceux qui verront les présentes, de la part de celui qui les a écrites, Aziz et de la part de son frère germain, Mohammed fils de feu cheikh el Haddad -puisse Dieu les protéger et les maintenir dans la voie du devoir ! Ecrit à la prison du Coudiat à Constantine le 14 rabia-el-aouel 1290 l'hégire (10 mai 1873 de l'ère chrétienne)

Pour traduction conforme L. Sauvaire



Les sept Wassayas de cheikh el Haddad avant sa mort

El Aziz ben el Haddad s'évade de l'exil

On retrouve cheikh Aziz à l'île des Pins en Nouvelle Calédonie. En 1881, il réussit à prendre la fuite, en embarquant sur un navire anglais qui se dirigeait vers une ville australienne Sydney. C'était la première fois qu'un détenu algérien s'échappa.

Cheikh Aziz se fixa ensuite à la Mecque où il effectua le pèlerinage, s'y maria et eut des enfants. Ce ne sera qu'en 1895 qu'il obtenait ce permis l'autorisant à rentrer en Algérie en transitant par la France.

Il quitta la Mecque pour Paris, à son arrivée, les autorités françaises furent informées que le retour de cheikh Aziz risque d'embraser l'Algérie de nouveau. Les derniers espoirs de si Aziz de revoir son Algérie s'envolent. Il ne tardera pas à tomber malade, fut hospitalisé et décéda le 22 Août 1895 à l'âge de cinquante-cinq ans. Des sources orales affirment qu'il fut empoisonné. Rapatrié en Algérie, sa dépouille accueillie par des milliers de personnes rassemblées au port d'Alger. Les responsables français, craignant l'exaltation du sentiment patriotique de la population, orientèrent alors le bateau transportant la dépouille vers le port de Skikda. Le défunt sera enterré à côté de son père au cimetière de Constantine.



La dépouille du cheikh el Aziz el Haddad à Paris